مركز دراسات الوحدة العربية



من حملة مشاعل التقدم العربي

أحمد بهاء الدين

محمد حسنين هيكل
أكرم ميداني
محمد الميلي
منح الصلح
حافظ طوقان

اسماعيل صبري عبد الله
عبد العزيز المقالح
علي الراعي
نجيب محفوظ
فاطمة حسين

إعداد وإشراف: جميل مطر
مصطفى نبيل

من حملة مشاعل التقدم العربي

أحمد بهاء الدين



مركز دراسات الوحدة العربية

(صدرت هذه الطبعة بالتعاون
مع جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين)

من حملة مشاعل التقدم العربي

أحمد بهاء الدين

محمد حسنين هيكل
أكرم ميداني
محمد الميلي
منح الصلح
حافظ طوقان

إسماعيل صبري عبد الله
عبد العزيز المقالح
علي الراعي
نجيب محفوظ
فاطمة حسين

إعداد وإشراف: جميل مطر
مصطفى نبيل

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

من حملة مشاعل التقدم العربي: أحمد بهاء الدين/ محمد حسنين هيكل
... [وآخ.]؛ إعداد وإشراف جميل مطر ومصطفى نبيل.
٦٩٧ ص.
يشتمل على فهرس.
١. بهاء الدين، أحمد ـ محاضرات ومقالات. أ. مطر، جميل (معدّ). ب. نبيل، مصطفى (معدّ).
892.746

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الطبعة الأولى: بيروت، شباط/فبراير ١٩٩٤
الطبعة الثانية: بيروت، تموز/يوليو ١٩٩٧

المحتويات

مُقَـدِّمَة الكِتَابُ

محمد حسنين هيكل

هذا الكتاب الذي يصدره مركز دراسات الوحدة العربية حول أحمد بهاء الدين، «قصة»!

وكلمة «قصة» تعبير كان بهاء نفسه يستعمله حين يريد أن يحكي أو يشرح رواية أو فكرة يصعب اختصارها، وكان ورود كلمة «قصة» على لسان بهاء، وبلهجته الخاصة في استهلال حديث، معناه أن الكلام طويل وتفاصيله متشابكة، ثم أن سامعه مقبل على تجربة مثيرة مع رجل لا يعرف فقط كيف يقرأ ويسمع، ولكن يعرف أيضاً كيف يتكلم ويحكي، ويستطرد ويستدرك، لأنه راوية من طراز نادر وفريد.

والـ «قصة» أن هذا الكتاب تجربة لا أعرف أنها مسبوقة، بمعنى أننا نعرف عن كتب حول رجال، ولكن هذه الكتب لها أنواع متعارف عليها ومن الصعب تصور نوع آخر.

● هناك كتاب يمكن أن يدور حول رجل، يعرض مختارات من كتاباته، أو مجموعة كتاباته كاملة، وهذا نموذج شائع حدث لكتابات «أحمد أمين» و«زكي نجيب محمود» وغيرهما.

● وهناك كتاب يمكن أن يكون سيرة حياة لرجل، سواء كانت السيرة موضوعية كما كتب «العقاد» مثلاً عن «سعد زغلول»، أو ذاتية كما كتب «سلامة موسى» عن نفسه.

● وهناك كتاب يمكن أن يكون تحيّة لرجل، كما فعل عدد من تلامذة «طه حسين» عندما أهدوا إليه في عيد ميلاده السبعين مجموعة من دراساتهم في ما يعرفون أنه يهتم به من فكر، وجعلوا من عنوان الكتاب وصفاً مباشراً لنوعه وهو «إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين».

● وهناك كتاب يمكن أن يكون عرضاً أو نقداً أو خلافاً أو دراسة لدور رجل في ما قال أو فعل، ورفوف المكتبات ملأى بهذا النوع من الكتب.

لكن هـذا الكتاب لا ينتمي إلى أيّ نـوع من هذه الأنـواع، وان كان فيـه منها جميعـاً، ومع ذلك فهو نوع آخر مختلف عنها كلها.

فيه بعض من كتابات بهاء، لكنها مجرد نماذج مختارة.

وفيه لمحات من سيرة حياته، لكنها مشاهد عارضة.

وفيه معنى التحية من أصدقائه ومحبيه، لكنها ليست القصد منه.

وفيـه أخيراً، شيء من العـرض والنقد والخـلاف والدرس لمـواقفه وأقـواله، لكن هـذا الشيء يجيء بالمناسبة دون أن يكون هو نفسه المطلوب.

* * *

وإذن أيّ نوع من الكتب هذا الكتاب حول أحمد بهاء الدين؟

في محاولة لإجابة سهلة وبسيـطة ـ وعقلانيـة ـ عن ذلك السؤال، فهـذا الكتاب ينقسم إلى قسمـين: أولهما، ـ وقـد ألمحت إليه ـ نمـاذج مختارة ممـا كتبه أحمـد بهاء الـدين. وثانيهـما، مجموعة كتابات عنه بأقلام عدد من أصدقائه، أرادوا أن تكون نوعاً من الخواطر المرسلة؟

لكن هذا المزيج من كتاباته وكتابات أصدقائه لا يحكي «القصة» في هذا الكتاب، وانما هو يحكي طرفاً منها، وليس أكثر.

وإذن ما هي البقية؟

بمعنى أدق: ما هو الهدف من هذا الكتـاب، وهو كـما رأينا ليس سجـل أعمال كـاملة، وليس سيرة موضوعية أو ذاتية، وليس هدية أو تحية، وليس دراسة نقدية أو تحليلية؟

هنـا لا بد لنـا أن ننتقل من السهـل البسيط، والعقـلاني ـ إلى الصعب المـركّب، لأنـه انساني.

* * *

ولست أعـرف إذا كان في مقـدوري، وبواسـطة الألفـاظ وحـدهـا، أن أحكي وأشرح «القصة» في هذا الكتاب أو أكمل بقيتها.

ومع ذلك فلنقل ما يلي:

مجموعة من أصدقاء وأحباب أحمد بهاء الدين أوحشتهم صحبته ورفقته، وتملكهم حنين إلى معاودة الحوار معه...

لكنهم ليسوا على ثقة من أنه يسمعهم إذا تكلموا، وإن كانوا على ثقة من أنه حتى هذه اللحظة لا يرد عليهم ان سألوه...

وهـم لا يتصـورون أن يسـود الصمت بينـه وبينهم وهـو معهم يتنفس ذات الهـواء، في ذات المكان الذي طالما جمعهم به...

وكلهم يريد أن يقطع الصمت المفروض بالظروف، وإذا كان هو لا يتكلم فليتواصل حديثهم هم دون توقف، ولو كغطاء للصمت، وحتى لا يصير الاستسلام لوحشته. . .

وفي تشوّقهم لردٍّ من بهاء على ما يقولون، فإنهم يستعيضون بسابق من حديثه، وصلهم، عن لاحق من حديثه لم يصل بعد. . .

ولعلهم في ركنٍ ما من أعماق وجدانهم يتمنون معجزة ممّا يحدث في تجارب الطب النفسي، وهو أن يكون هذا الحوار بالاستعادة والإلحاح تنشيطاً لذاكرة مسافرة، ربما تلتفت وتستدير ثم تقبل عائدة مرة أخرى.

هل هذا وصف معقول لـ «قصة» هذا الكتاب، بما في ذلك نوعه؟

أحسب أنه الوصف الأقرب إلى ما حدث، والدليل عليه ما تحتويه صفحاته: نماذج ممّا كتب بهاء، ومجموعة ممّا كتب بعض أصدقائه من خواطر عنه.

* * *

منذ سكت بهاء صوتاً وقلماً، لا أكاد أتذكر يوماً توقفنا فيه عن التفكير في أمره، وكيف السبيل مرة أخرى إلى التواصل معه عقلاً وفكراً. . . صحبة ورفقة؟

وكان مشروع كتاب حوله مسألة هائمة في الأفق باستمرار، وإن اختلفت الاجتهادات.

● كان الرأي مرة أن يكون الكتاب عنه، لكن الخشية وقعت من أن تتسرب إلى الحديث نبرة الفعل الماضي، بينما ذلك الصديق حاضر معنا، حتى وإن احتبس صوته بثقل المرض ـ وكان أن عدلنا عن فكرة أن يكون الكتاب عنه.

● ثم طرأت فكرة أخرى: ماذا لو حاولنا أن نعوض غيابه، وتعرّض كل واحد منا لقضية من قضايا الحاضر، وحاول أن يفعل ذلك من موقف بهاء متقمصاً شخصيته ومستعيراً منهج فكره؟ ـ ثم وجدنا ذلك تجاوزاً على حق لا يملكه غير صاحبه، وإذا جربه غيره فهو نوع من الانتحال بالظن قد لا يليق برجل كان يملك قدرة غير عادية على الاستيعاب والتطور، ولو أن أحداً حاول تقليده منذ آخر لحظة سكت بعدها فقد يكون بذلك ظالماً لثلاث سنوات غير طبيعية لا يستطيع أحد أن يقدر أي مدى كان يمكن لبهاء أن يبلغه في مسافتها لو لم يكن هذا السكون المفروض.

وأخيراً، وربما بغير ترتيب، استقرت فكرة هذا الكتاب كما سوف يجدها قارئه: حوار كما قلت، أو حنين إلى حوار. وشوق إلى مقاطعة الصمت أو قطعه. ثم لعله نداء أو دعاء إلى ذاكرة مسافرة، ربما تلتفت ثم تعود وترد.

تقديم

بتكليف من مركز دراسات الوحدة العربية يصدر هذا الكتاب بمناسبة بلوغ الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين السابعة والستين. فقد ولد يوم ١١ شباط/ فبراير سنة ١٩٢٧. والكتاب تحية متواضعة للكاتب الذي كان مهموماً بقضايا أمته العربية، وتقديراً لمساهماته الفكرية، ولمشاركته القيّمة في الجهود التي قامت بها نخبة عربية متميزة وتكللت بإنشاء مركز دراسات الوحدة العربية.

وقد وجدتْ فكرة إصدار هذا الكتاب ترحيباً من أصدقائه الذين حرمهم مرض الأستاذ بهاء الدين من متابعة كتاباته، فشارك عدد منهم في هذا العمل بكتابة مقدمات لمحاور الكتاب.

تمتد مقالات الأستاذ بهاء الدين نحو أربعة عقود متصلة. وقد جاءت معبّرة عن تطور الفكر العربي في مجالاته المختلفة، إذ تكاد لا توجد قضية هامة إلا وعالجها أحمد بهاء الدين. وتعكس كتاباته جهوداً كبيرة من أجل العدل والتقدم. ورغم أنها مقالات كتبت في ظروف مختلفة وعلى امتداد الزمن وفي مطبوعات متعددة بعضها مصرية وبعضها عربية، إلا أنها تتسم بالتناسق والصدق والعقلانية والنظرة المستقبلية.

وما يضمه هذا الكتاب من مقالات للأستاذ أحمد بهاء الدين ليس سوى نماذج كتبت في صحف ومجلات أسبوعية وشهرية مختلفة، بعضها تولّى بهاء رئاسة تحريرها، مثل الشعب والأخبار والأهرام وصباح الخير وآخر ساعة والمصور والعربي.

ويضم الكتاب كشّافاً لحوالى ٧٠ بالمئة من مجموع ما نشر لأحمد بهاء الدين في الصحف والمجلات الصادرة باللغة العربية. وقد تمّ تصنيف المقالات وفقاً لرؤوس موضوعات رتبت ترتيباً هجائياً، ورتبت المقالات في كل موضوع ترتيباً زمنياً وفقاً لتاريخ النشر.

وأنتهز هذه الفرصة لأشكر مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال على الجهد الذي بذله في الإشراف على كل مراحل إعداد الكتاب واختيار نماذج المقالات، ولأشكر أيضاً أبو السعود ابراهيم مساعد رئيس تحرير صحيفة الأهرام لشؤون التوثيق والمعلومات ومعاونيه على جهودهم لإصدار كشّاف المقالات.

جميل مطر(*)

القاهرة، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣

(*) مدير المركز العربي لبحوث التنمية والمستقبل.

الفَصْل الأول

السِّيرَةُ الذاتِيَّة

أحمد بهاء الدين صديقا

أكرم ميداني(*)

هلالٌ في إضاءته
حياءٌ في سماحته
شهابٌ في اتقاده

كشاجم محمود بن الحسين
من القرن العاشر الميلادي

(*) أستاذ الفن والأدب الإنجليزي بجامعة كارنيجي ميللون في بتسبرج، في الولايات المتحدة.

بهاء

كان اسمه غاندي! أطلق عليه هذا الاسم أهل بيت والده عبد العال أفندي شحاتة، فقد كان صغير الجسم أسمر نحيلاً وعلى وجهه نظارة تدل على إمعانه في القراءة، فمنذ مطلع حياته كان يصرف الوقت منكمشاً في رأس سريره وحوله الكتب يلتهمها.

وواضح أن اسم غاندي كان اسم دعابة دلّ على محبة اخواته، ناهد الأخت الكبرى التي تولّت العناية به وخفّفت عنه وطأة الحزن بعد وفاة والدته عندما كان في سن الثانية عشرة، هذا الحزن الذي بقي معه لم يبرحه أبداً، سوسن وزيزف وليلى ينشرن الطمأنينة حوله، كصوت المجموعة في أعمال سوفوكليس يدخلن الهدوء على النفس غير المستقرة ويبعثن الأمل في هذا الجو المأساوي الذي أحاط به بعد أن غادرت أمه الدنيا.

ولنظارته تجربة في حياته عندما اكتشف حكيم العين أن إحدى عينيه كانت سليمة تماماً بينما الأخرى ضعيفة جداً تكاد تفقد البصر. وكانت وسيلة الطبيب لإنقاذ العين وتنشيطها على الرؤية هي أن يستر العين السليمة بقطعة من القماش الأسود ويترك العين الضعيفة تقوم بمهمة النظر حتى تقوى وتصل إلى مستوى العين السليمة. ولم يفلح هذا العلاج الذي استمر حوالى السنة إلا بشكل محدود وانتهى الأمر بأن صنع الطبيب نظارة يتوازن بها النظر بين العينين، وترك بهاء يواصل كفاحه في عالم الكتب الذي بدأه عندما دخل المدرسة وهو لم يبلغ السابعة بعد.

ولم ينشأ اسم غاندي من مجرد تشابه في الجسم الصغير النحيل بل كان أيضاً يدل على ولعه الشديد بقراءة كل ما يقع في يده من كتابات المهاتما؛ كان يتأثر بوجوده الأسطوري، بزهده وقناعته في حياته الخاصة، وطموحه الشديد لتحرير الهند من الوجود البريطاني وأمله في وحدتها على قواعد التسامح، وكان أكثر ما ينشده بهاء هو التعلم من إنسانيته وإيمانه بجودة البشر وحقهم في الحياة في كرامة وسعادة.

وكان من الطبيعي أن ينتقل إعجابه إلى تلميذ المهاتما وزميله في الكفاح لاسترجاع حرية الهند، جواهر لال نهرو، وقد أحضرت لـه عندمـا بدأت صـداقتنا مجمـوعة رسـائل نهرو التي كتبها عندما كان في السجن إلى ابنته أنديرا وكانت قد صدرت بعنوان **ملامح من تاريخ العالم** فكان يقرأ منها في كل حين، حتى عندما سنحت له الفرصة بعد ذلك ترجم بعضها في كتـاب **الثورات الكبرى**. وكنت أظن أنـه كان يشعـر كأنـه من أبناء نهرو وأن هـذه الرسـائل كـانت موجهة إليه. وكان يعلق في مكتبـه في المنزل عنـد أطراف بسـاتين الجيـزة صورة فـوتوغـرافية بالأبيض والأسود لنهرو التقطها الفنان يوسف كارش.

وحدث بعد أن أصبح كاتبـاً معروفـاً أن دعي لزيـارة الهند في سنـة ١٩٥٧ وقضى فيها عدة أسابيع. لقيته بعدها فسألته عن شعوره، وكنت أعلم كيف استولى علينا الاهتمام بـالهند وغاندي ونهرو في شبابنا المبكر، فقال لي وعلى وجهه علامة الأسف: «لا شك أن استرجاع الحرية كان عملاً عظيماً، فقد أكد نهرو استقلال الهند ونجاحها في تكوين حكم ديموقراطي برغم الصعـوبات البـالغة، التقسيم مثلاً، لكن هناك أمراً جعلني أشعر بخيبـة الأمل وهـو تعثر الإصلاح الاجتماعي والاقتصـادي، فما زال الفقر منتشراً ورؤية الناس بعد حريتهم على هذه الحالة من البؤس الشديد تبعث على الحزن».

في خـريف سنة ١٩٤٨ بـدأت أقـرأ مجلة شهـريـة محـدودة التـوزيـع اسمهـا **الفصـول** وصاحبها محمد زكي عبد القـادر، وكان من الكتّـاب ذوي الفكر النـزيه. وقـد أصبح هـدف غضب السراي لأنه كان ممن يدافعون عن الدستور بحرارة. ولما تولى اسماعيل صدقي رئـاسة الوزارة بعد استقالة وزارة النقراشي عقب حادث كـوبري عبـاس سنة ١٩٤٦، كـان من بين أغراضه القضاء على كل من هو صـاحب فكر حـر تحت ستار محـاربة الشيـوعية، واستهـدف عدداً من الكتّاب والمثقفين مثل محمد مندور ومحمد زكي عبد القادر وسلامة موسى بالرغم من أنه لم يكن لأي منهم صلة بالحركة الشيوعية، وكان من الواضـح أن غايـة الحملة هو إرهـاب الفكر المصري الجديد الذي بدأ ينمو عقب الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٥. وكان محمد زكي عبد القادر بسمعته النظيفة قد استقـطب عدداً من المفكـرين من الشباب وغـيرهـم منهم مريت غالي أول من نادى بالإصلاح الزراعي ضمن إطـار عقلاني منـظم. أما مجلة **الفصـول** فكانت قد أخذت شكلاً حديثاً جذاباً مقروءاً، وذلك بفضل محرر جديد بدأ اسمه يظهر عـلى صفحاتها: أحمد بهاء الدين[1].

وكنت وصديقي نعمان عاشور نـرقب في ذلك الحـين هذه الأسـماء الجديـدة ونناقش مـا تكتب. وسألت نعمان عمّا يظن في هذا الوجه الجديد، فأجـاب بأنـه يعتقد أن الكـاتب الذي ينشر باسم أحمد بهاء الدين هو كاتب ذكي محنّك، لا بد وأنه من الشخصيات المجـربة، وقـد آثر أن يكتب باسم أحمد بهاء الدين: «هذا الاسم متماسك متكامل ولا يمكن أن يكون اسماً طبيعياً، إنه دون شك اسم مستعار انتحله رجل مهم من السياسـة أو الاقتصاد أو المحـاماة». وعـلى أنني لم أقتنع تمـاماً بافتراض نعمان عاشور، لكنني وجدته مقبولاً. كانت تلك الأيام مليئة بالأمـور الغريبـة، فيها

---

(١) كتب أحمد بهاء الدين تجربته في الصحافـة المصرية في كتـاب: **محاوراتي مـع السادات** (القـاهرة: دار الهلال، ١٩٨٧).

مزيج عجيب من هول الحكم المتعسف وتجمع الفكر المتحرر من الجيل السابق الذي ظهر أولاً سنة ١٩١٩، وكانت وزارات القصر تلاحق المثقفين حتى السجون وفي الوقت نفسه يكون بين أعضائها عبد الحميد بدوي ومحمد حسنين هيكل وعبد الرزاق السنهوري وعلي عبد الرازق.

حتى وقعت مفاجأة، فقد جاءني نعمان ذات يوم يقول إن أحمد بهاء الدين ليس اسماً مستعاراً بل هو اسم حقيقي لمحام شاب يعمل بوزارة المعارف، وقد تبين له هذا من خلال شخص يعرفه على صلة بمحرر مجلة الفصول. قال نعمان إن صديقه، ليؤكد حقيقة قوله، على استعداد ليأخذنا معاً إلى مجلة **الفصول** ويقدمنا إلى محررها.

وذهبنا إلى المجلة ذات يوم عند الساعة الخامسة بعد الظهر في مكتب محمد زكي عبد القادر للمحاماة في شارع شريف، في بناء قديم من القرن التاسع عشر في نقطة تواجه البنك الأهلي ومقهى الأنجلو، وفي غرفة صغيرة نظيفة قليلة الضوء مكتب جلس خلفه شاب في الواحد والعشرين من العمر.

قال لي نعمان عقب هذه الزيارة إن أول انطباع تكوّن لديه أن أحمد بهاء الدين هو صورة «مخلق منطق» للمصري أفندي كما كان يرسمه صاروخان في مجلة آخر ساعة. كانت هذه الملاحظة في محلها. وقد تأملت طويلاً صدق معناها بعد أن توثقت علاقتنا واتصلت مدى السنين: الذكاء والصوت الهادىء والطبع الدمث، بل أكثر من هذا كله صورة المصري الوديع الذي يحمل إرادة صلبة ونفساً أبيّة. وما زلت حتى اليوم أعجب كيف تتصل الأسماء بشخصيات أصحابها، فإن بهاء هو مزيج ساحر بين غاندي والمصري أفندي، وعندما أتذكر الاسم الثالث الذي أطلقه عليه زملاؤه وهو الأستاذ دهاء إعجاباً بالذكاء المتوهج أجدني أتمثل الشخصية كاملة.

بعد زيارة التعارف بدأت أزور بهاء في مجلة **الفصول** وأحياناً في مكتبه اليومي حيث كان منذ أواخر سنة ١٩٤٧ موظفاً في إدارة التحقيقات بوزارة المعارف، وقد ذكر لي بصوت الفخر والاعتزاز أنها الإدارة التي كان يرأسها توفيق الحكيم في الماضي القريب.

في السنة الأخيرة من دراسته في كلية الحقوق (١٩٤٣ ـ ١٩٤٧) كان يتصور أنه سوف يتولى عملاً مثل هذا، فقد استهوته علاقة الإنسان بالقانون، وكان القانون في نظرته إلى الحاكم والمحكوم سواسية هو الحل لمشاكل الظلم والظلمة التي كانت تسود مصر. وقد حدث وهو في السنة الثالثة أن وجد نفسه أمام الظلم وجهاً لوجه، إذ خرج يوم ٩ شباط/ فبراير سنة ١٩٤٦ مع زملائه في مظاهرة احتجاجية سلمية، ومشى مع الجمع في شارع المدارس نحو ميدان الجيزة ثم اتجه إلى كوبري عباس، ولم يكن هناك جسر آخر يربط الجامعة بالجانب الثاني من النيل فقد كان طريق الكوبري هو الطريق المألوف، وكان هدف التجمع الالتقاء بطلبة كلية الطب في القصر العيني ثم السير نحو دار الحكومة في لاظوغلي.

عندما وصل المتظاهرون إلى ما قبل الكوبري وجدوا المدخل إليه خالياً وهادئاً فاستمروا

حتى بدأوا العبور، وفجأة ظهر رجال البوليس وبعضهم من الفرسان وأوسعوا المتظاهرين ضرباً بالعصي الغليظة، وكأن هذا لم يكف بل قام البوليس بفتح الكوبري ليمنع الذين حاولوا اللجوء إلى الطرف الآخر من الوصول إليه فوقع الكثير منهم في الماء وانحصر الآخرون بين الكوبري المفتوح والبوليس وحدثت معركة دامية. قال بهاء: «إن وصف ما حدث بالمعركة مبالغة فلم يكن لدى المتظاهرين عصي أو أسلحة لمجابهة البوليس، كان البطش والضرب من جانب واحد، لقد كانت مجزرة». وأصيب بهاء بعصا على رأسه فتقت له جرحاً كبيراً وسال الدم على وجهه وتعذرت عليه الرؤية ثم فقد صوابه بعض الوقت. ولا يذكر كيف انتهى الأمر. قبض البوليس على كثير من المتظاهرين وترك الجرحى لأمرهم، بعضهم التجأ إلى مستشفى الرمد القريب من مدخل الكوبري، والبعض عاد مترنحاً إلى سكنه إذ كانت البيوت حول ميدان الجيزة تمتلئ بمساكن الطلبة. وعاد بهاء إلى بيته ولم يكن بعيداً، بعد أن تلقى إسعافاً سريعاً والتزم الفراش في شبه غيبوبة استمرت عدة أيام.

لم تكن أيام الجامعة كلها مفزعة على هذا النحو. كان يعرف عن بهاء ولعه الشديد بالقراءة، كما بدت تظهر معالم الأسلوب الرائق في كتابته، وكان يحفظ صفحات من كتب طه حسين يرددها بين زملائه من الأيام ودعاء الكروان:

«لقد بعد صوت الكروان قليلاً قليلاً حتى انقطع ولم يبلغني منه شيء، وعاد الليل إلى سكونه الهادىء الثقيل، واطمأن من حولي كل شيء، فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين».

وصادقه مرة طالب كان يواجه الدراسة بصعوبة، فكان يقصد مشورة بهاء بعد كل محاضرة ويسأله أن يشرح له بعضها أو بعض النصوص في الكتب القانونية، ولم يكن بهاء يبخل على أحد بما لديه، غير أن هذا الطالب لزم جانبه زمناً حتى جاءه مرة بطلب غريب وهو أن يكتب له قصيدة ليرسلها باسمه (أي اسم الطالب) إلى فتاة وقع في غرامها ويرغب أن يعبّر لها عن حبه. في أول الأمر اعتذر له بهاء بأنه لم يتقن كتابة الشعر حتى يلبّي مثل هذا الطلب، لكن العاشق الولهان لم يصدق، هل هذا معقول؟ أحمد بهاء الدين لا يقدر على كتابة قصيدة؟ وألحّ في طلبه يوماً بعد يوم، ولم يستطع بهاء أن يقنعه بأن يتوقف، وأصبح الإلحاح شديداً أكثر من مرة كل يوم حتى قال له بهاء: «هذه قصيدتك وهي ليست باللغة الفصحى تماماً ولكنها ستصل إلى قلب حبيبتك بدون تعب».

«ليه يا بنفسج بتبهج وانت زهر حزين
والعين تتابعك وطبعك محتشم ورزين
ملفوف وزاهي يا ساهي لم تبوح للعين
بكلمة منك كأنك سر بين اتنين
حسنك في كونك بلونك تبهج المقهور
اللي يزوره سميره في الظلام مستور
حطوك خميلة جميلة فوق صدور الغيد
تسمع وتسرق يا أزرق همسة التنهيد
اسمع وقوللي مين اللي قال معايا آه
بقولها وحدي لوحدي والأسى هواه».

واختطف العاشق الملحّ القصيدة وطار بها، ولم يعد ليسأل عن قصيدة أخرى. وكانت هذه آخر تجربة لبهاء في شخصية سيرانو يتوجه بشعره إلى روكسان من خلف القناع. كانت القصيدة كلمات دور البنفسج الشهير لصالح عبد الحي من شعر محمود بيرم التونسي.

في الأسابيع الأولى من معرفتنا أخذتُ أدرك الجوانب الأصيلة في شخصية صديقي الجديد، أولها الصدق والأمانة في المعرفة الذاتية، وكنت أظن أن تعلّم القانون قد طوع نفسه ليصبح دائماً قاضياً يدرك ما له وما عليه، لكنني بعد حين تبينت أن هذه خصلة مصرية قد افتقدتها لدى الآخرين وهي الآن تظهر في شخص بهاء.

قال لي إنه يفكّر منذ حين في إصدار عدد خاص من مجلة **الفصول** ليكون معداً للطبع في أواخر سنة ١٩٤٩ عن مصر في النصف الأول من القرن العشرين، وطلب مني أن أفكّر في موضوع أساهم به في هذا العدد، وقال إن الغرض ألا يمتدح العدد ما أنجزه المصريون في هذه الفترة لأن هذا شائع بل لينظر إلى مصر من الداخل ويعرّف معالم المسؤولية العامة، وسمعت منه في ذلك الحين قبل أن تطرح مسألة العمل السياسي واختلافها عن الشعارات، أن تقبل النقد من الداخل هو أول ما ينبغي أن يتعلمه الناس حتى لا يقع أحد في أحبولة الكذب، وأن الحاكم الذي يصيغ الكلمات لإغراء المحكوم وتغطية عينيه بالوهم إنما هو الذي يبسط الطريق إلى الفساد وعبادة العجز.

من أول الأمر أدركت أنني عثرت على الصديق المتعقّل Raisonneur. كان الجو حولي يكتظّ بالعقائديات والعبارات الكبيرة والتباري بين الشعارات، كلٌّ يزعم أنها وحدها تحمل إشارات الحق والعدالة.

لا بد لي هنا أن أقف أمام هذه العبارة: «الصديق المتعقّل».

كنا معاً في مطلع العشرين من عمرينا، وكانت أيام التكوين بالنسبة إليّ تتأجّج بالانطباعات الحارة، فقد فارقت أسرتي قبل ذلك بسنوات، وأصبحت أكثر حاجة إلى تقويم هذا الدليل الداخلي وشذب تفكيري وضبطه بسلاح الصدق. كل هذا وجدته لدى بهاء، كان كريماً في النصح، لا يقرأ شيئاً إلا ويسرع في مشاركته. ولعل أعجب ما وجدت أن أحاديثه كانت كالنص المكتوب متّسقة جيدة البناء، واكتشفت أن الساعات التي أجده فيها صامتاً يفرك أصابع يده الواحدة كأنه يعاني القلق والوسوسة ما كانت إلا ساعات التفكير المتصل، حتى إذا انطلقت أفكاره إلى أحاديثه ثم إلى مقالاته تبيّن لي هذا الجهد الذي بذله العقل في تكوين الفكر بعد أن مرّ بمراحل التشكيل والإعداد. منذ أن عرفت بهاء لم يفارقني هذا الانطباع المبكر وهو هيمنة العقل.

لقد كنت وما زلت قليل الثقة بالتحليل النفسي، ومع ذلك أذكر أنني في السنة الأولى من معرفتي بهاء أطلقت لخيالي المجال في سبر شخصيته المتكاثفة؛ علمت منه أنه من أسرة أتت من الصعيد فتصورت أن رأس الأسرة إنسان صارم خلق من حول بهاء الصغير النحيل أسواراً من القيود والتقاليد. من أجل هذا ظننت أنه لا يقدر على إطلاق مشاعره إلى آخرها،

فهو دائماً يكتم نفسه ويتركها تغلي من الداخل. وأظن أن الكثيرين ممن عرفوه في ما بعد توصلوا إلى هذا التخمين، بل إن بعضهم عزا أزمته الصحية الأخيرة إلى تراكم الشعور الذي أدى إلى الانفجار.

كتبت لعدد **الفصول** الخاص مقالاً مطوّلاً عن الصحافة في مصر في نصف قرن وكان مطابقاً لمعرفتي مصر وتربيتي على أرضها لأنني بدأتها عن طريق قراءة الصحف، ويظهر أن المقال نال قبول محمد زكي عبد القادر الذي طلب أن أقابله، وبعد ذلك أصبحت عضواً في أسرة **الفصول** أحضر ندوتها مساء كل خميس في منتصف الشهر.

قال لي بهاء بعد أن أصبحت من كتّاب المجلة أن أضع في حسابي أنه ليست هناك أجور تدفع للمحررين، حتى هو كمسؤول عن التحرير لا يتقاضى أجراً عن عمله، ولم أناقش هذا الأمر معه كثيراً لأنني اقتنعت برأيه وهو أن المجلة لها سمعة جيدة بين المثقفين، والكتابة فيها تتيح مجالاً لتعلّم المهنة، ودار في خاطري أن هذا ما جعل بهاء يعطي جهده ووقته دون أجر، فقد كان دؤوباً في كتابته ومجدّاً في إدارة التحرير كي يتعلم المهنة.

لكن هذا لم يرض صديقي نعمان عاشور وأخذ يسلط نكتته اللاذعة على المجلة وصاحبها. في رأيه إنها مسألة مبدأ، إذ يُشترط في احتراف أية مهنة أن يُدفع أجر للممتهنين. وكان يقول إن هذه محاولة لبعث تقليد من القرون الوسطى وهو تغطية استغلال الأكبر للأصغر بعباءة التعليم. وعندما كان يحضر ندوة **الفصول** في مساء الخميس كان يكثر من أكل الكنافة التي يأتي بها زكي عبد القادر معتقداً أنه يأخذ شيئاً من حقه لو أكل أكثر من غيره.

في أواخر سنة ١٩٤٩ تزوجتُ وطفة فهمي عبده وهي فتاة من عائلة مصرية، أقامت حيناً في لبنان ثم عادت إلى مصر، وبدأت حياتي تتكيّف حول هذا التطور الجديد، وكان نعمان عاشور الصديق الوحيد الذي يزورنا دائماً.

حتى جاء يوم قال لي بهاء إنه يرغب في دعوتي للعشاء في منزل عائلته في الجيزة، وحدّد لي يوماً تبيّنت أنه نفس اليوم الذي كان علي أن أزوره لأعرض عليه بعض ما كتبت، فاقترح أن نذهب أنا ووطفة في الساعة الرابعة بعد الظهر إلى منزله وتبقى وطفة مع أخواته بينما نذهب نحن الاثنين إلى مكتب **الفصول**، وبعد أن ينتهي عملنا نعود إلى الجيزة حيث يكون العشاء جاهزاً ويكون والده قد وصل ليكون معنا.

من ميدان الإسماعيلية (التحرير) حيث كنا نقيم في بانسيون تملكه عائلة مجرية في شارع يوسف الجندي بالقرب من مكان عملي في مبنى الجامعة العربية القديم، بدأنا طريقنا بالأوتوبيس إلى الجيزة التي كانت مألوفة لديّ، إذ مكثت السنوات الأولى من إقامتي في مصر بين الجيزة والدقي، وعند ميدان الجيزة نزلنا وسرنا على الأقدام إلى المنطقة الشمالية المحاذية لأراضي الجامعة، ومررنا في طريقنا على مبنى شركة السجاير الكبير، ثم قطعنا الخط الحديدي الذي يمر عليه القطار القادم من الصعيد إلى الوجه البحري، وسرنا على سكّة زراعية قصيرة حتى وصلنا بيتاً وصعدنا إلى الطابق الثالث ودخلنا عالم عبد العال أفندي شحاتة.

قرأت الآن الجملة الأخيرة التي كتبتها، وتساءلت لماذا أشير إلى والد بهاء مع لقب «أفندي»؟ من المعروف أنه قبل سنة ١٩٥٢ كانت هناك ألقاب في مصر، لكن لقب الأفندي لم يكن لقباً رسمياً يأتي بأمر ملكي، كان لقباً يطلق عامة على الإنسان المتعلم وقد ازدادت أهميته بعد ثورة ١٩١٩ عندما التقى أفنديّو مصطفى كامل بالشباب المتعلم الذي التفّ حول سعد زغلول. وكان بديهياً أن يصبح معظمهم من موظفي الحكومة، وكان يدفعهم الطموح لرفع المستوى الاقتصادي والرغبة في التعلم والروح الجانحة بحب مصر. جاء عبد العال أفندي من الجنوب، من قرية الدوير بجانب أسيوط، وتعلّم والتحق بوزارة الأوقاف واستقرّ بعائلته في الاسكندرية حيث ولد بهاء سنة ١٩٢٧، ثم انتقل إلى القاهرة ومكث فيها بعد وفاة زوجته التي لم يتزوج بعدها عاكفاً على تربية أولاده.

كانت الشقة في آخر الطريق الزراعي فسيحة مضيئة من جوانبها الأربعة في وسطها غرفة الجلوس التي تحيط بها غرف النوم وغرفة الضيوف والمنافع. كانت ناهد سيدة البيت وهي تكبر بهاء بسبع سنوات، وهي بالنسبة إلى الجميع كالأم الشابة تشرف على تربية سوسن التي تشرق بابتسامتها، وزيزف الدائبة الجادة، وليلى البنت الصغرى الحالمة، وكانت زيزف وليلى في الوقت الذي بدأت حياتنا معهن في المدارس الثانوية. في آخر غرفة الجلوس نحو الشمال كانت غرفة بهاء بها سرير ومكتب صغير وكتب تملأ الحائط خلف المكتب. وكانت الغرفة نقطة المركز تمتلىء بالأخوات عندما يقتضي الأمر عقد مؤتمر عائلي. ولا أظن أن الغرفة استقبلت زائراً غريباً من الخارج قبل زيارتي. ولم يكن عبد العال أفندي في البيت، وأذكر أنني حتى ذلك اليوم كنت أتصوره رجلاً صعيدياً متشدداً. خلال دقائق بدت وطفة وكأنها واحدة من أهل البيت فتركتها وذهبت مع بهاء.

عندما عدنا كان البيت يمتلىء بالضحك ولقيت عبد العال أفندي لأول مرة. كان تصوري له معكوساً؛ إذا كان هناك من هو أكثر دماثة ووداعة من بهاء فهو عبد العال أفندي. في حديثه عجالة وعباراته تتفاوت بين الملاحظة الجادة والنكتة، لا يخفي عليك شيئاً فهو وفدي من أول شبابه ويؤمن بأن حرية مصر ودستورها كائن واحد، وإنك تلمس منبع الزهو في حياته، والشعور بالإنجاز والطمأنينة: بهاء. لقد تعلّم بهاء على النحو الذي كان يرغب فيه عبد العال أفندي لنفسه، وها هو الآن في عمل مبشر يفتح الطريق لعالم القضاء. هذا الصعيدي الذي كافح ليقتلع نفسه وعائلته من أرض الفقر وتقاليد الثأر والانتقام يؤمن بالقانون.

بعد ذلك أصبحنا من الأسرة، كان عبد العال أفندي إذا رغب شيئاً لبناته لا بد أن يشرك وطفة. وكان أحب يوم لنا في السنة هو عيد ميلاد بهاء يوم ١١ شباط/ فبراير. (ولد بهاء يوم ١٠ شباط/ فبراير ١٩٢٧ لكن الأسرة فضّلت الاحتفال به يوم ١١ شباط/ فبراير لأنه كان يوم عطلة).

أكتب هذا بعد مضي ما يقرب من نصف قرن، وكأن الأيام كانت تمر من غير ضيق أو عذاب. لم تكن الصورة دائماً زاهية مزهرة. ولعل المرة التي رأيت فيها عبد العال أفندي في

حالة لا رجعة منها من خيبة الأمل هي يوم قرر بهاء التفرغ للعمل الصحفي. فبعد زمن في إدارة التحقيقات في وزارة المعارف انتقل بهاء إلى مجلس الدولة ووجد أبوه في ذلك انتصاراً بالغاً، ثم بدأ ينشر بعض القطع في مجلة روز اليوسف، كان يأخذها بيده ويتركها مع بوّاب المجلة، وأخذت تلفت الأنظار حتى استقر رأيه على ترك العمل الحكومي والانصراف إلى الكتابة الصحفية بكليته. أذكر أن عبد العال أفندي لم يعجبه الأمر وظهر عليه الألم واضحاً. كان يظن أن الوظيفة في القضاء هي تحقيق لقمّة آماله وأن الحقل الصحفي لا يحمل معه مثل هذا الاحترام والاستقرار.

كنت أزور بهاء في مكتبه بمجلس الدولة وكانت تبدو عليه علائم السعادة، ها هو يعمل في مؤسسة يرأسها أستاذه الروحي عبد الرزاق السنهوري، وتحت قيادته اكتسبت سمعة كبيرة لوقوفها في جانب الفرد أمام الدولة، وكأن بهاء قد تطلع طول حياته ليكون في صحبة أهل القضاء. وأذكر بعد ذلك سنة ١٩٥٤ عندما أُقصي السنهوري عن منصبه عنوة، لم يجد بهاء لهذا العمل عذراً مقنعاً، وظل هذا الحادث من الأمور التي عابها على رجال الثورة وكان يذكره بألم وأسف.

قبل أن ينتقل بهاء إلى مجلس الدولة من إدارة التحقيقات كانت الحياة في مصر ما برحت متآكلة مضطربة وكانت حلول المشاكل منعدمة والسبيل مسدودة، مع هذا كان يبدو عليه أنه كان مكتفياً فقد كانت مشاركته في الوصول إلى الرأي العام متواضعة لكنها كانت تقنعه بأنه يساهم في التنوير في الأيام التي سادها الظلام المحدق.

كانت إدارة التحقيقات تضم شباباً تتوقد مواهبهم وأرواحهم مثل عبد الرحمن الشرقاوي وفتحي غانم، وكانت علاقة بهاء بفتحي غانم وثيقة فقد قدمني إليه وجعلني أشارك في الجلسات الفكرية التي كانت تعقد في بيته خلف دار العلوم عند شارع اسماعيل سري، وكان كل منهما يكمّل الآخر من جوانب عدة. لفتحي غانم ولع شديد بالموسيقى الكلاسيكية الغربية، وفي طبعه شعلة رومانتيكية ظاهرة. ولن أنسى إحدى هذه الجلسات حيث كان الغرض الاستماع إلى موسيقى ديميتري شوستاكوفيتش والمقارنة بين سيمفونيته الخامسة التي كتبها بعد النقد الشديد الذي ظهر في جريدة البرافدا والموسيقى التي كتبها بعد الحرب العالمية الثانية، وأكاد أظن حتى الآن أن فتحي غانم، وكان عنده حب شديد للمعاكسة، أراد أن يستجلب أصدقاءنا اليساريين إلى جدل حول هذا الموضوع. أما بهاء فقد التزم الصمت، كان يحب الموسيقى وبالذات الموسيقى العربية الكلاسيكية ولم تكن تهمه دخائل الموسيقى الكلاسيكية الغربية وإن كان يحب سماعها، لذلك تفادى المناقشة كعادته ألا يناقش ما لا يعرفه.

في تلك الأيام أتيح لعبد الرحمن الشرقاوي السفر إلى باريس، وظن الكثيرون أنه ذهب ولن يعود، حتى وصلت منه ذات يوم رسالة كتبها على شكل قصيدة، وجلس فتحي غانم على أحد المكاتب يقرؤها بصوت عال وكان من حظي أن أكون حاضراً:

«الصديق الذي يكابد وحده أنا أدرى بما تراكم عنده

أنا أيضاً في ذات يوم تمزقت ولم أدر كيف أبدأ بعده
غير أني عرفت أن حياتي موجة في اندفاق موجة الحياة
فإذا ما اعتزلت وحدي جفّت قطراتي وأفلست ممكناتي
فالدم الحر في عروقي يجري ساخناً من تلاصقي بالجميع
فإذا ما اعتزلت وحدي في ضيقي تجمدت في صحارى الصقيع».

وأخذت الرسالة تتصاعد وصوت فتحي غانم يرتفع حتى بلغت ذروة النهاية:

«ها هي الأرض كلها تشهد الروع وفي مصر فتية يسأمون
عربدت ضيعة الفراغ عليهم فتشاكوا بأنهم مرهفون
يا صديقي ونحن من طِينة أخرى ستفنى إن لم تعش في كفاح».

ونظرت إلى بهاء وكان يسمع الرسالة القصيدة، مطرق الرأس، فرأيت الدموع تتألق في عينيه.

وجاء يوم لا أظن أحداً ينساه وهو يوم السبت ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢. لقد كنت طوال النصف الثاني من هذا اليوم المضطرب الحالك مع بهاء. كنا قد اتفقنا قبل حين على أن نخصص هذا اليوم للتجول على المكتبات ثم العودة في المساء لتناول العشاء في بيت الجيزة، لذلك أخذت الأوتوبيس مع وطفة من الدقي إلى الجيزة (بعد أن انتقلنا إلى شقة في شارع الجهيني في عمارة كانت ما تزال تحت الإنشاء وكنا قبلنا دعوة مصطفى سويف وفاطمة موسى للبقاء معهما عدة أيام حيث كانا يقيمان في عمارة مجاورة، وكانت ابنتهما أهداف ما زالت في شهور من العمر). بعد ذلك ذهبت مع بهاء إلى ميدان الجيزة وأخذنا الأوتوبيس إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير). أذكر هذا بشيء من التفصيل لأن اليوم الذي عُرف بحريق القاهرة قد ترك شعوراً بأن أحياء برمتها قد احترقت، وبسبب تحفظ راديو القاهرة في سرد الأخبار سرت إشاعات مهولة عن الحوادث.

كان الجو بارداً معتدلاً والشمس ساطعة، ومنذ أول شارع سليمان باشا (طلْعت حرب) كانت رائحة الدخان تعبق في الجو، ولاحظنا أن الحريق قد نال بعض الأماكن في الميدان. وبدأنا سيرنا في شارع قصر النيل، وكان غرض بهاء أن نسير حتى مكتب زكي عبد القادر الذي وجدناه محكم الإغلاق، فقد ظهر أن الساعي قد أترسه وذهب إلى بيته، وتابعنا السير بين الخرائب والحرائق حتى وصلنا إلى ميدان ابراهيم باشا (الجمهورية) بالقرب من كازينو بديعة وسينما أوبرا وقد أصابهما حريق كبير، ووصلنا إلى فندق الكونتيننتال ثم بعده فندق شبرد (التاريخي) الذي التهمه الحريق تماماً، هناك حيث عسكر نابوليون وحيث قتل نائبه كليبر بيد سليمان الحلبي كان الجيش قد أخذ يحتل مواقعه في المدينة ويبعد الجموع القليلة عن أمكنة الحريق.

لا أذكر أن أحدنا قال شيئاً، فقد استولت علينا الدهشة والذهول، وأنا أسترجع هذه الذكريات لا أظن نفسي كنت كمثل بوزويل يمشي إلى جانب جونسون يسجل ما يسمع أو أكرمان يلهث خلف جوته ليدون أحاديثه وتعليقاته، كل ما يحضرني أن بهاء كان يحاول

بطريقته العقلانية أن يصل إلى مفهوم لكل هذا التدمير، لقد لاحظ أن معظم الأمكنة كانت لها علاقة بالأجانب مثل المحلات التجارية والمقاهي والنوادي ودور السينما والفنادق والمكتبات، أو بمعالم التغرّب كالمطاعم والمقاهي التي كان يقصدها المصريون إعجاباً بالحضارة الغربية.

أخذنا بالعودة إلى ميدان الإسماعيلية عن طريق شارع فؤاد (٢٦ يوليو) وبدأت تكثر المباني المحترقة، وظننا أننا سنقف عند جروبي ونستريح بعد ثلاث ساعات من المشيء البطيء وقد نستمع كما كانت العادة إلى الرباعية الوترية وهي تعزف ديبوسي أو موتسارت.

عندما وصلنا إلى المكان المقصود وجدنا أن جروبي قد احترق أيضاً وقد أحاطت به قوات الجيش، والغريب أننا وجدنا الأوتوبيس في مكانه في مدخل شارع القصر العيني فأخذناه إلى الجيزة. وقال بهاء إن مصر (القاهرة) التي أصابتها الضربة الكبرى هي مصر المتأوربة. وحملت نفسي على التفاؤل وقلت لا بد بعد هذا كله أن تأتي أيام أحسن. أتراني كنت خائفاً أقترب من الهذيان بعد أن رأيت أكثر ما كان يستهويني قد انحدر إلى هاوية العدم خلال ساعات من صباح هذا اليوم. كان الخيط الذي يربط التأورب والمدنية رفيعاً جداً.

ذات يوم سنة ١٩٥١، كنت أنتظر بهاء في مكتبه في مجلة الفصول حين جاء الساعي ووراءه رجل طويل القامة بدت عليه مظاهر الجد، وأشار الساعي إليّ واختفى. سألني الرجل المحترم: «هل أنت الأستاذ أحمد بهاء الدين»؟ وقبل أن أجيبه تابع يقول إنه من القرّاء المعجبين، فهو من بغداد حيث تصل الفصول في أعداد قليلة، أول شيء يقرأه هو المقال الرئيسي. وبينما كنت أحاول أن أصحح له ظنه سارع بالقول بأنه محام اشترك كوزير للعدل سنة ١٩٤٩ في وزارة علي جودة الأيوبي عن الحزب الوطني الديموقراطي التي جاءت بعد تزايد الاحتجاج على محاولة تجديد المعاهدة مع بريطانيا وأنه الآن سكرتير عام الحزب. إنه حسين جميل. عند ذلك وجدت أنه لا بد لي أن أقطع حديثه بأي شكل، فقلت إنني لست أحمد بهاء الدين الذي لم يصل إلى مكتبه بعد. وحاولت تمضية الوقت بالإجابة عن أسئلته، عن عمر بهاء ودراسته، وقد دهش عندما عرف أنه لم يبلغ الخامسة والعشرين من العمر بعد، وتوقعت أن يسألني شيئاً عن مظهره وكنت أنوي أن أقول إنه يبدو وكأنه ما زال في سن السابعة عشر. بعد حين تساءل حسين جميل عمّا إذا كان يستطيع أن يتركني بضع دقائق ليذهب إلى إحدى المكتبات القريبة حيث يتوقع كتاباً طلبه هذا الصباح.

بعد حين وصل بهاء فحدثته عن الزائر ثم ذكرت له أنه سأل عن سنّه، وأضفت من عندي وطوله وعرضه وأنني عندما قلت إنه ما زال شاباً أعرب عن دهشته. وتوقفت لحظة فقال بهاء: «لعله دهش عندما عرف أنني صغير الحجم، عندما يعود قل له إن هذا الشخص ليس أحمد بهاء الدين بكامله وإن له بقية ستصل قبل آخر اليوم». وكانت المقابلة بين بهاء وحسين جميل بداية صداقة وطيدة كما كانت أول خطوة نحو الصلة بينه وبين المثقفين العرب وبدء دخوله بمصريته العميقة إلى حلقة النور العربية التي أثرت في تفكيره السياسي تأثيراً بالغاً.

استرعت مقالات بهاء القصيرة التي أخذت تظهر في مجلة روز اليوسف اهتمام الكثيرين

وتزايد قراؤه، وبديهي أن تكون روز (فاطمة) اليوسف نفسها أكثر هؤلاء مراقبة لظهور هذا الكاتب الجديد، وعندما انضم إلى أسرة تحرير المجلة بدأت تقرأ ما يكتب عن كثب وقرّبته من دائرتها. أقول الآن إن روز اليوسف بدأت «تقرأ» بشيء من التحفّظ، فقد كان معروفاً عنها أنها تقرأ بصعوبة ولا تكتب أبداً، وقد لفت هذا نظر بهاء فقد كان في شخصية هذه السيدة إعجاز ساحر لمسه من أول مرة. وأذكر انه عاد من زيارته لها حيث تناول طعام الغداء في منزلها ولاحظ زوجها الذي كان يصغرها بسنوات عديدة يجلس هادئاً صامتاً، وقال لي بهاء بعد عودته من الغداء: «لقد تبيّنت بعد حين أن زوج روز اليوسف اسمه أحمد قاسم أمين وانه حفيد رجل النهضة المصرية الكبير قاسم أمين الذي كان أول من دعا إلى حرية المرأة المصرية»، وكأنه لم يصدق أذنه عندما سمع الاسم وشعر بأنه يقترب فعلاً من عهد النهضة عندما وجد أحمد قاسم أمين يجلس أمامه.

تقرّبت روز اليوسف من بهاء كثيراً وكانت تصر عليه أن يمر عليها في مكتبها كل يوم؛ وعندما خُلع الملك فاروق وغادر البلاد في تموز/ يوليو سنة ١٩٥٢ سارعت روز اليوسف بتكليف بهاء بكتابة كتاب عن فاروق وعهده وقد صدر باسم **فاروق ملكاً**. وكان القرار بتكليف بهاء دون إحسان عبد القدوس، رئيس تحرير المجلة، بكتابة هذا الكتاب اعترافاً بقدرة بهاء، وأن الكتاب ستكون له أهمية تاريخية لا صحفية آنية فحسب، وأن بهاء ككاتب جديد سيعطي الكتاب صوتاً موثوقاً.

كما قلت سابقاً لا أحب أن أدخل في بحث جدوى أسلوب التحليل النفسي في كتابة الترجمة الشخصية، وهذا أمر شائع في هذه الأيام (١٩٩٣) ويعرف باسم السيكوبيوغرافي، لأنني أظن أن هذا الأسلوب يقدم أجوبة سهلة لأسئلة صعبة، فمن السهولة أن نقول إن السبب في قبول بهاء مكاناً تحت جناح روز اليوسف أنه عثر على الأم التي فقدها وما برح يذكرها. إن الإعجاب المتبادل الذي نشأ بين روز اليوسف وبهاء أتى عن إدراك كل منهما لنوعية ذكاء الآخر، وقد تُوِّجت هذه العلاقة عندما طلبتْ إليه أن يكتب «مذكراتها» تحت اسمها مستنداً إلى أحاديثها الشفوية.

كانت روز اليوسف قبل أن تدخل حقل الصحافة في العشرينيات، بواسطة محمد التابعي الذي كان غرضه أن يصدر مجلة تستغل اسم الفنانة الكبيرة، ممثلة شهيرة في المسرحيات الهزلية الغنائية، ثم لفتت نظر عزيز عيد (أكبر المخرجين المسرحيين وأكثرهم فنية) فتزوجها ودرّبها للأدوار الجدية التي كان أشهرها دورها في **غادة الكاميليا**. وكانت تحفظ أدوارها بالسمع، أي بعد أن تُقرأ لها بواسطة المدربين. وكان وما زال هذا التقليد شائعاً بين المغنين والمغنيات الذين يتعلمون الأغاني بالسمع، حتى أيامنا هذه وفي الغرب أيضاً، فمطرب الأوبرا الشهير لوتشيانو بافاروتي لا يقرأ الموسيقى ويتعلم أدواره بالأذن.

هذه الدربة ساعدت على تنمية حساسية روز اليوسف نحو اللغة فأصبحت حادة ومميزة، والتي إلى جانب الذكاء الشديد استرعت نظر بهاء الذي كان صادقاً في إعجابه وتقديره. وقد آذتني ملاحظات الآخرين ففاتحت بهاء بالأمر. هذا وإنني كنت أخشى أن تمعن

روز اليوسف في نسج حياتها بنفسها مبتعدة عن الحقيقة لا سيما سنوات البداية في المسرح، وكنت أظن أنني أعرف شيئاً عن هذا بسبب دراستي لأدب وتاريخ المسرح، فقال لي إنه كان متردداً في أول الأمر وهو يعلم أن روز اليوسف كانت ترسم حياتها كما تريد، لكن النتيجة ستكون الحياة كما عاشتها وكما شكلتها والحقيقة بينهما، وأشار أنه لن تكون لديه القدرة ليحقق حياة روز اليوسف كما يفعل المؤرخ، ولو فعل هذا لقابلته بالمعارضة دون شك. إنه يكتب حياة روز اليوسف كما سمعها منها.

عندما ظهر الكتاب باسم فاطمة اليوسف تبيّن أن الأجر كان متواضعاً، فإن روز اليوسف المعروفة بالشحّ في مكافأة محرريها رأت ألا تستثني أحداً، لكن الكتاب حمل في داخله بريق أسلوب بهاء ومعلومات هامة عن دخول روز اليوسف ميدان الصحافة ووقوفها في وجه المقاومة لأنها كانت من أهل الفن ولأنها امرأة وقد تحدثت بواسطة بهاء عن هذا كله بشجاعة وكرامة.

إن كتاب روز اليوسف يذكرني اليوم بالسيرة «الذاتية» لمالكولم إكس التي كتبها ألكس هيلي والتي تعتبر من أهم الوثائق المعاصرة.

كانت مرحلة مجلة روز اليوسف (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨) هامة وحاسمة في حياة بهاء فقد التزم خلالها تماماً بالكتابة الصحفية، وصدرت له كتب عدة (أول كتاب نشره بهاء عندما كان محرراً لمجلة الفصول وموظفاً في الحكومة هو كتاب الاستعمار الأمريكي الجديد وهو نقد وتحليل اقتصادي سياسي لمشروع النقطة الرابعة الذي حاولت أمريكا تطبيقه كسباً لمصر إلى جانبها خلال حمى الحرب الباردة)، وأصبح اسمه ملء الأسماع، لا في مصر وحدها، بل في الوطن العربي، حيث ساهم بكتاباته في تنوير الرأي العام حول فكرة الوحدة العربية، وشهد قيام الوحدة بين سوريا ومصر التي وجد فيها من الناحية الإنسانية البحت انتصاراً شخصياً لكلينا، وقد كتب حول هذا مقالاً أثار مشاعري أكثر من أي شيء قرأته حتى ذلك الحين وبعده.

في هذه السنوات نمت علاقات بهاء العربية عن قناعة وتدبر، وأذكر في سنة ١٩٥٤ عندما شاء إحسان عبد القدوس أن ينضم إلى الفكرة الانعزالية التي كانت تنادي بفصل مصر عن الدول العربية (ولا بد لنا الآن أن ننظر إلى تلك الأيام نظرة موضوعية فقد جاءت بعد هزيمتَي حرب فلسطين ١٩٤٨ و١٩٤٩ ولقيت آذاناً صاغية عند بعض الناس)، كتب احسان عدة مقالات بعنوان «مصر أولاً» حتى ظهر مقال واحد بحجج حاسمة وأسلوب رائق بعنوان «كلنا أولاً» بقلم بهاء. في هذا المقال ظهرت بذور الفكرة التي كنت أسمعها منه، وهي أن الأمة ذات الماضي الغني تتكون شخصيتها من الطبقات الحضارية المتتابعة التي مرت عليها، والنظرة إلى طبقة واحدة لا بد أن تأتي من خلال الطبقات الأخرى. أخشى أن يكون عرضي لهذه الفكرة بشكل تجريدي جعلها تبدو معقدة ولكن أين لي من أسلوب بهاء وطلاقة فكره.

وأكثر ما أذكره عن نشاط بهاء في فترة روز اليوسف الوافرة هي حيويته التي انطلقت وفرشت ضوءاً باهراً، لا سيما حين تولى مهمة تأسيس وتحرير مجلة صباح الخير حيث أتيح له

أن يجمع عدداً من الكفاءات الجديدة مثل عبد الغني أبو العينين وصلاح جاهين صاحب المواهب المتعددة (كان كاتباً وشاعراً وفناناً وممثلاً) والذي كان لبهاء فضل كبير في تطوره ونموه.

أظنني استطعت أن أصحح الآن صورة رسمتها عن غير قصد بأن بهاء هو رجل العقل فقط، فقد انطلق في هذه المدة بطاقة كالإعصار كما تأججت مشاعره العاطفية. وسأركز على قصتي حب في حياته ضمن هذه السنوات. قدمني بهاء في أواخر سنة ١٩٥٤ إلى آنسة صغيرة الحجم أنيسة الطبع فياضة النشاط، ومن حديثه ونظراتها أدركت أن شيئاً هاماً قد أخذ يظهر في حياتها ولقيتهما أنا وزوجتي عدة مرات حتى أعلنا خطبتهما رسمياً، وفي حزيران/ يونيو ١٩٥٥ انتقلت إلى عملي الجديد في نيويورك، وكنت على يقين أن زواجهما سيتم خلال شهور الصيف، ثم جاءتني رسالة حزينة من بهاء يذكر لي أن الزواج لن يتم وأنهما اكتشفا تعارضاً في طباعهما. وكنت أظن أن تعارض الطباع يكون أحياناً سبباً لحب دائم وزواج ناجح، وأدركت أن السبب الأهم هو تهيّبهما من اتخاذ هذه الخطوة القاطعة.

عدت إلى القاهرة في صيف ١٩٥٨ وأمضيت أكثر من شهر مع بهاء، حيث وجدته مبتهجاً يبدو عليه المرح وعذوبة الطبع برغم أعماله المتكاثرة، وذات يوم طلب مني أن ألتقي به بالقرب من سميراميس حيث سيمر عليّ بسيارته. وفي الموعد توقفت السيارة ورأيت بجانب بهاء فتاة سمحة الوجه ذكية الملامح، وبعد تعرفنا تنبهت إليه يرقب رد الفعل لدي، وكانت على وجهه سيماء الفخر كلما قالت الفتاة شيئاً. وأذكر حتى اليوم أن الحديث أخذ شكلاً غريباً إذ توجه نحو شكسبير ونزعته الثورية، كيف حدث هذا لا أدري. كنت في ذلك الحين إذا دخلت حديثاً مثقفاً تظهر عليّ علائم الجدلية المشاكسة، وقد دهشت حين وجدت في الفتاة الذكية نداً قوياً فهي أيضاً تملك قدرة جدلية شديدة البأس. ولم يعلّق بهاء أهمية على الحديث الذي كاد يشبه الخناقة حول شكسبير، وحاولت الالتجاء للصمت حتى لا يتحول اللقاء إلى كارثة، بينما ظل بهاء طول الوقت مبتسماً مما دل على أنه يعرف طباع الفتاة كما كان يعرفني. وأنا الآن أسأل نفسي من غير جواب كيف تحول الحديث إلى أرض محايدة مسالمة؟ أذكر شيئاً قيل حول بيتهوفن وتكرار القوالب في موسيقاه، ولا شك أنني ازددت تقديراً لهذه الفتاة، وعندما نزلنا من السيارة تملكني الإعجاب بقوامها الفارع كأنها إيزيس. ولم أكن قد دخلت مهنة التدريس الجامعي بعد حتى ينتظر مني بهاء أن أمنح الفتاة علامة النجاح في الامتحان، وأدركت بعد ذلك اللقاء أن ديزي روفائيل أرمانيوس هي في المكان الطبيعي، في قلب بهاء. في المساء قال لي إنه تعرّف بديزي في أواخر ١٩٥٦ وإنه سائر نحو ارتباط حياتهما معاً. بعد عودتنا إلى نيويورك في نهاية صيف ١٩٥٨ أدركت من بهاء أن ديزي أصبحت حب حياته الكبير، وفي شهر أيار/ مايو ١٩٥٩ عُقد زواجهما الذي لم يخل من روح المغامرة، فقد اعترضت أسرتها، في أول الأمر لأسباب ظاهرة، فكان الزواج كما يسميه أهل الشام «خطيفة» ودخلت ديزي شقة الزوجية الخالية من العفش، بالملابس التي كانت عليها.

لم أعد إلى القاهرة حتى صيف ١٩٦٢، وكنت قد لقيت بهاء عندما أتى إلى نيويورك لحضور اجتماع الأمم المتحدة سنة ١٩٦٠، وقضينا جزءاً من الصيف في الاسكندرية مع

ديزي وابنتهما ليلى التي ولدت في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠، حيث أخذنا بهاء في سيارته مع عائلته الصغيرة لزيارة توفيق الحكيم.

وقد آلمني أن أعود بعد حين من وفاة عبد العال أفندي فلا أجده هناك، فقد افتقدنا، بالذات زوجتي، حنانه الأبوي، وكان قد توفي بعد شهور من تقاعده من العمل الحكومي إثر نوبة قلبية حادة. حتى اليوم لا أنسى نفسه الرحيمة وانفساح قلبه حين ضمنّا إلى رحب أسرته. وكانت هذه آخر زيارة لنا لمصر حتى آخر سنة ١٩٨٥.

من ١٩٦٢ حتى ١٩٨٥ كنت ألتقي ببهاء في نيويورك وواشنطن ومونتريال ولندن. وعندما انتقلت إلى بتسبرغ كان بهاء ينتهز كل فرصة سانحة ليقضي بصحبة ديزي وقتاً معنا في هذه المدينة المنتحية عن نيويورك وواشنطن.

جاء بهاء وحده إلى نيويورك في صيف ١٩٦٤، وقال لنا عند وصوله يبدو أنه أتى في وقت غير ملائم فإن ديزي على وشك الوضع ويظن أنه كان عليه تأجيل الرحلة. في ذلك الحين اضطرت وطفة لدخول المستشفى لإجراء عملية جراحية صغيرة وكانت تعلم ما يجب بهاء من الطعام فأعدت لنا كل شيء ووضعته في الثلاجة، وكان بهاء الذواق يختار منه ما يشاء بين يوم وآخر. في يوم من أيام آب/ أغسطس عدنا إلى البيت وكانت وطفة قد خرجت من المستشفى فأشارت إلى مظروف في يدها وقالت: «هذه برقية من ديزي مبروك إنه ولد»، واستولى الفرح على بهاء وقال إنه جرى الاتفاق مع ديزي على تسميته زياد، ثم هرع إلى الثلاجة وسحب حلة الملوخية فوجدها متجمدة فأتى بها على المائدة ومعه سكين حاد وأخذ ينشر من الحلة قطعة كبيرة ليضعها على النار، واحتفلنا بمولد زياد بأكلة ملوخية شهية. وبعد حين حضرت صافيناز كاظم وتابعنا الاحتفال حتى المساء.

أجدني الآن أعود إلى سنة ١٩٥٢. دلّت الأيام التي تلت حريق القاهرة على تفتت النظام في مصر واليأس من إصلاحه، فقد أقيلت وزارة الوفد بطريقة مهينة بعد أن صرف الحزب السنتين التي تولى فيهما الحكم آخر مرة في تملق الملك وحاشيته، وأدار فؤاد سراج الدين، سكرتير الوفد، دفة الأمور إرضاءً للقصر أو لميوله الشخصية بحيث وضع كل العناصر الجديدة في الحزب على الهامش مثل محمد مندور وعبد العزيز فهمي وتبنى مشروعات قوانين الصحافة القمعية، وعندما تلقى من السراي أجر كل هذه الجهود بالإقالة لم يأسف الكثيرون على مصير الوزارة التي خيّبت الآمال، بالرغم من جهدها في إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وتشجيع المقاومة المسلحة ضد الإنكليز (دون خطة واضحة) والسياسة التعليمية التي قادها طه حسين. وعجز القصر بعد هذا أن يثبت وزارة في الحكم لمدة طويلة، وظهر أن عناد الإنجليز في المفاوضات كان دليلاً على عدم الثقة بقدرة الملك على الحكم. وآخر وزارة استطاع القصر أن يجمعها قبل ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ كانت الوزارة التي ألّفها أحمد نجيب الهلالي وترك القصر يعين فيها اسماعيل شيرين زوج أخت الملك وزيراً للدفاع. وكانت وزارة حسين سري التي سبقت وزارة الهلالي قد أتت بالخلاف بين فريق كبير من ضباط الجيش والقصر إلى السطح.

كـان لبهاء صـديق يقيم إلى جواره في بيت الجيـزة هو الصـاغ جمال حمـاد، وكنت ألقاه حين يأتي لزيارته وأذكر أنه أتى مساء يـوم ٢١ تموز/ يـوليو عقب تـأليف وزارة الهلالي، وكـان بهاء مشمئزاً ثائراً على جرأة القصر في تحدي كرامة الناس، وتطرق الحديث الهادىء مع جمـال حماد إلى لوم الجيش، وقال بهاء: «لم يكن يستطيع الملك أن يتبرطع على هذا النحو لولا حماية الجيش وتأييده له»، ووصل الحديث، على غير عادة بهاء، إلى مستوى توبيخ جمال حماد الـذي اعتبرنـاه في هذه الجلسة مسؤولاً عن كل ما يحدث.

وفي مساء اليوم التـالي وقعت حركـة الجيش وكانت رأس الحـربة الكتيبـة ١٣ التي كان بين ضباطها البارزين الصاغ جمال حماد الذي اجتمعنا به بعد يوم ٢٦ تموز/ يوليو حيث قال: «ده انتم نزلتو عليّ قوي إلى الحد الذي كدت أنشي بسر الحركة»، وتبيّن أنـه كظم غضبـه وهو يعلم أن الحل أصبح قريباً.

استقبل المثقفون حركة الجيش بنشوة واغتباط، وكان بهاء يرى في إزاحة الملك وانفتـاح مصر نحو حياة جديدة تحقيقـاً لآمالـه وآمال جيله، لكن مـولد الحـركة تـرك في نفسه شعـوراً غامضاً لازمه دائماً حتى بعد أن تحولت إلى دولة وحكم.

في ٢٦ كـانـون الثـاني/ ينـايـر ١٩٥٣ أقيم احتفـال شعبي في ميـدان التحـريـر ووزع المنظمون (إدارة الشؤون العامة ـ القيادة العامة للقوات المسلحة) على الناس كتيِّباً بعنـوان أيها المواطنون ـ كلمات للرئيس نجيب، وفيه البيان الذي أذيع صباح يوم ٢٣ تموز/ يوليـو ١٩٥٢ معلناً بدء الحـركة، وكنت قـد حضرت هذا الاحتفـال وعدت ومعي نسخـة من هذا الكتيِّب فأريته لبهاء وأشرت إلى أن البيان الأول قد أعيد نشره مقتضباً بعد أن أزيلت منـه الفقرة التي تقول: «وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن والـدستور مجـرداً من أية غـاية» (علمت أخيـراً من كتاب أصـدره جمال حمـاد أن كلمة «الـدستـور» أضيفت بخط محمـد نجيب) وأريت بهـاء البيان كـما صدر في الكتيِّب بعـد ستة شهـور، فنظر إليّ كـأنه يـظن أنـه أصابني «العبط»، بل ووصفني بالسذاجة.

ثم ظهر الخلاف بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر في مطلع سنة ١٩٥٤ ولفترة قصيرة ساد الظن أن الأمر قد استتب لنجيب وأن عبد الناصر آثر الانسحاب، ونشرت مقالات تدل على أن الحرية والديمقراطية على الأبواب، وكتب إحسان عبد القدوس مقالاً جاء فيه مـا معناه أن البلد لا تُحكم بواسطة جمعيـة سرية، مشيـراً إلى أسلوب عبد النـاصر وأعضاء القيـادة من حوله، أما بهاء فكان مقاله (وأنا أعتبره من أحسن ما ظهـر في هذه الفـترة) يحتوي عـلى مخطط دقيق لمستقبل السياسة في مصر ودور المنظمات الديمقراطية وتكوينها.

بعد أيام تبيّن أن تراجع عبد النـاصر كان تكتيكيـاً، وأنه عـاد ليقصي نجيب ثم يقيله، ونتج من هذا بالطبع تسوية حسابات، منها أن اعتُقل إحسان عبد القدوس وأتى من قال لبهاء أن دوره قريب، فجاء إلى منزلنا في الـدقي وأقام معنـا يومـين وليلتين، وكنـا نحسب في كل دقيقة أن الباب سيـطرق وأن بهاء سيسـاق إلى الاعتقال. ولم يؤد هـذا إلى شيء لكن الأمور لم تعد إلى ما كانت عليه.

عندما أقيمت في نـادي الضباط بـالزمـالك في أواخـر سنة ١٩٥٤ حفلة لـوداع شكري القوتلي قبل عودته من المنفى إلى سوريا كنت مع بهاء في هذا الاحتفـال، ولا يبرح ذهني حتى اليوم منظره وقـد أدركه الضيق عنـدما وصـل أعضاء القيـادة بملابسهم العسكـرية وهمَّ بـترك المكان عدة مرات.

ومع ذلك كله كان يرقب الثـورة وهي تأخـذ شكلها في المجتمـع المصري بعين العقـل والنزاهة، وابتدأت الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية تدفىء صدره وتكسب قبـوله حتى قـال لي قبيل سفري إلى نيويورك في منتصف ١٩٥٥ : «هذا هو التغيير الذي انتظرناه وقد لا يكون كاملاً أو عادلاً لكنه سيفيق مصر من سباتها ويدفعها إلى الأمام»، وكان يحلو له أن يقارن بـين جمال عبـد الناصر ومحمد علي بالنسبة إلى الحلول الجذرية التي أدخلها كل منهما بالرغم من موقفه الحائر حولهما.

جاءت الخمسينيات بفـوراتها بجـانب جديـد من تفكير بهـاء وهو رؤيـة مصر في مركـز القيادة في الوطن العـربي، وقد حققت كتـاباتـه مجالاً لفهم مشـاكل مصر بـين الدول العـربية وتقديم جزئيات القضايا العربية إلى الرأي العام المصري. واتسعت حلقة صـداقاتـه العربيـة وشملت ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار والمهدي بن بركـة ومحمد أحمـد محجوب وسـاطع الحصري وأحمد بن بلة وغسان التـويني وسامي الـدروبي ومنيف الرزاز وعبـد المحسن القطان وكمال الشاعر وغيرهم. وكان لميشيل عفلق ونظرته اليوتوبية للمستقبل العـربي مكان أنيس في قلب بهاء، واتصل الود بينهما حتى أقلق جمـال عبد النـاصر، فقد ذكـر لي بهاء أنـه تلقى زيارة من أحد المقربين الذي أبلغه أن عبد الناصر قال إنه لا يعرف سبب تـوثق العلاقـة بينه وبـين جماعة البعث (هذا في الوقت الذي كان التعاون الرسمي قائماً) وتسـاءل عمّا إذا أراد شيئـاً من بهاء هل يمكنه أن يعتمد عليه لأنه لا يعرف كيف يتجه ولاؤه.

ثم جاءت الستينيات وبدأت المسيرة تتعثر، ففي أيلول/ سبتمبر ١٩٦١ وقـع الانفصال بين سوريا ومصر وقد تأذى بهاء كثيراً في شعوره الشخصي، فهو ككاتب وإنسان عام كـان قد علّق آمالاً على هذا الطفل، وما كان سيقوم به في المستقبل. وعندما لقيته سنة ١٩٦٢ أدركت عمق الجرح في نفسه وشعرت أنه أخذ يكوّن أسئلة ثـاقبة عن طـراز الحكم، ولعل هـذه أول مـرة سمعتـه يـطرح السؤال في حيرة بـالغـة وهـو كيف يمكن لعبـد النـاصر أن يثق بقـدرة عبد الحكيم عامر ويستمر في الاعتماد عليه؟ وقـد ردد هذا السؤال في مـا بعد وفي كتـاباتـه لا سيـما بعـد كـارثـة ١٩٦٧. وقـد لقيتـه في مـونـتريـال سنـة ١٩٧٠ وعـرفت منـه أنـه لم يلتق بعبد الناصر لوحدهما على انفـراد مرة في حيـاته، وكـان هذا أحـد الأدلة عـلى الدور الهـامشي الذي خصصه النظام للمثقفين الذين كانوا أداة في سياسة التلاعب كالمنع من الكتابة والنقـل من مؤسسـة إلى مؤسسـة، حتى الاعتقـال، وهي السيـاسـة التي كـانت سـائـدة حتى وفـاة عبد الناصر واستمرت بطريقة عشوائية في عهد أنور السادات.

لم يقبل بهاء الذهاب إلى الكويت سنة ١٩٧٦ إلا بعد إلحاح شديد من ديزي فقد رأتـه يتعذب للتملص من هذا التلاعب الذي أصبح صارخاً. كانا في بتسبرج سنـة ١٩٧٥ عندمـا دق جرس التلفون وكان المتحدث غسـان التويني لينقـل إليه خـبر حادث الأوتـوبيس في لبنان الذي أشعل نار الحرب الأهلية، لأول مرة رأيت في عينيه نظرة العجز.

أنـا لا أزعم أنني كنت على علم بكـل ما يحـدث، فقد كنت أرى بهـاء كـل سنتـين أو ثـلاث وهذا لا يكفي لأكـون شاهـداً على الـرغم من أن أحـاديثنـا كـانت مشبعـة. في سنـة ١٩٨٢، وكنا في لندن، حـدثني مطولاً وبـطريقة منـظمة، كـما كان يفعـل دائماً، عن تجـربته ومحاوراته مع السادات التي ظهرت في ما بعد في كتاب: **صـورة كاملة لحـيرة المثقف أمام آلـة السلطة الهادرة**.

عاد بهاء من الكويت إلى أحضان مصر واتجـه باهتـمامه إلى مشـاكلها الـداخلية: تبـوير الأرض الزراعية، الفساد في الحكم وتدهور نوعيته، الحاجة لإدخال التكنولوجيـة الحديثـة في ميدان التعليم، غياب العقلانية من النقاش الديني المعاصر، تفكك الإنجازات الإيجابيـة التي تمت وبالذات بالنسبة إلى مصـير الفلاحـين، الخمول الـذهني الذي انتشر كـالوبـاء. وأهم ما أقلقه وأغضبه تصدع الوحـدة الوطنيـة التي تكوّنت مـع ثورة ١٩١٩. وكنت أراه وأقـرأه وأنا أفكر بسيزيف يرفع الصخرة ثانية إلى أعلى الجبـل: عناد الفكـر على الصمـود في وجه اليـأس والبدء من جديد.

أعتقد أنه من الممكن تسميـة فترة الثـمانينيات (منـذ انتهاء عهـد السادات والعـودة من الكـويت) في تطور بهـاء الفكري بفـترة استرجـاع مصر. فقـد تخبط المجـال العـربي في بحـر صاخب من التناقض وأصبحت الصورة التي بدأت تتشكل في الخمسينيات مهترئة وانبعثت في ذهن بهاء فكرة أساسية وهي ان عودة مصر إلى مركز القيادة لن تكون بالشعارات بل بـالفعل الذي يُحتذى. وأنا أذكر عبارة كتبها في هذه الفترة (لا يحضرني الآن تـاريخ نشرهـا على وجـه الدقة) وهي ان «مسؤولية الحكام هنا هي إعطاء القدوة الحقيقية التي تقنع المواطن، وليس مجـرد المناداة بـأي شعارات»، ولا شك أن هذا يعني بالتـالي مسؤولية الأمـة. من هنا أجـد تركيـزه في الثمانينيـات على مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية والمحافظة على وحدتها الوطنية (أي الـوحدة النـاشئة عن تجانس الأمة بحضاراتها).

في مطلع سنة ١٩٥٠ نشر بهاء مقالاً في جريدة **الأهرام** بعنوان «حمَلة مشاعل التقـدم في كل حضارة» عن الدور الهام الذي لعبته الطبقة الوسطى في تقدم الإنسانيـة. وقد كتب هـذا المقـال في وقت كانت فيـه عبارة «الـطبقة الـوسطى» قـد فقـدت رونقهـا وأصبحت تسمى في معجم اليسار بالبرجوازية واشتمل معناها مع معانٍ أخرى على الأنـانية والجشـع، لكن بهاء لم يأبه بهذا التأويل العقائدي ونظر إلى العبـارة نظرة مجـردة والتمس منها مـا عرفـه عن مساهمـة الطبقة الوسطى الإيجابية في وضع أسس العمل السياسي في مصر وتثبيت مجتمعها، ومن يقـرأ بهاء منذ مطلع نصف القرن الحالي يدرك إيمانه العميق باندفاعة ثورة ١٩١٩ التي قام بهـا أبناء هذه الطبقة.

لقد تعوّد الناس على المسارعة بإلباس المفكر رداء عقائدياً أو حزبياً، فمنـذ عرفتُ بهـاء وأنا أجد نفسي مشتبكاً في مناقشات حول موضوع انتمائه، هل هو وفـدي أم يساري أم بعثي أم نـاصري؟ وإجابتي كـانت دائماً أنـه ليس من أيٍ من هذه التجمعـات، بـل من الخـطأ أن نناقش آراءه من منطلق الالتزام الضيق، فهو من حَملة مشاعل التقـدم ومن تقليد فكـري كان

من بين أشخاصه طه حسين ومحمود عزمي وتوفيق الحكيم وحسين فوزي ومحمد زكي عبد القادر وسلامة موسى، يحفظ لنفسه الحق أن يرى الصدق ويتبناه حيث يجده وأن يوجه النقد لمن يستحقه. هذه ليست حَيْدة أو انتهازاً أو انعزالاً بل درس في الحرية يعطى بممارستها.

كانت رحلات بهاء الأخيرة لغرض العلاج، ولا أجد في نفسي العزم والقوة لأكتب عن هذا، عن سنوات الثمانينيات الأخيرة وبعدها، فقد كنت معه عندما زارنا في سنة ١٩٨٩ مع ديزي في بتسبرغ وهالني ما رأيت عليه من آثار المرض. في هذه الزيارة الأخيرة قال لي وقد رفع يده ليشكل ضلع المثلث النازل نحو القاعدة: «كل شيء ينحدر إلى هوة سحيقة، في مصر وفي كل مكان».

هذا هو بهاء.

في سنة ١٩٥٠ يعلّمني قراءة أدب نجيب محفوظ؛

في سنة ١٩٥١ عند سفح الهرم يحدثني عن الفن المصري؛

في القرب من بتسبرج سنة ١٩٧٥ يقف أمام بناء لفرانك لويد رايت يناقشه ويربطه بالهندسة المعمارية اليابانية؛

في لندن سنة ١٩٨٢ يدخل إلى معرض فني ليخرج وبيده لوحة فائقة لأحد فناني القرن التاسع عشر، إدوين لاندسير، قائمة على مسرحية شكسبير حلم ليلة منتصف صيف التي تداخلت فيها الحقيقة مع الخيال؛

في بتسبرج يشترك في مناقشة عن الحاسب الآلي (الكمبيوتر) فيصل الآلة بالدماغ والبرنامج بالعقل؛

في زياراتنا الخاصة لمحمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم في أواخر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥ يحلق بمشاركته في المناقشات الجمالية.

أراه الآن بشخصيته المتشابكة الغنية:

الحساسية الشفافة والعلم الوفير والعقل الذي يسير يداً بيد إلى جانب مشاعر الفن والجمال.

أكرم الميداني

بتسبرج (الولايات المتحدة)
آب/ أغسطس ـ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣

نَمَاذِجُ مختَارَة مِنَ المقَالات

١ ـ الأم الأخيرة(*)

فقدت أمي وأنا في العاشرة . .

ولم تكن بالنسبة لي أماً عادية . . كنت ابنها الوحيد بين أخوات من البنات. وكأي أم شرقية في هذا الموقف، أفرغت كل حياتها وحنانها على الابن الوحيد، أحلامها وهمومها وقلقها وفرحها وعملها . . كل هذا كاد يكون قاصراً علي. وكان من الطبيعي بعد ذلك أن تملأ كأس حياتي إلى حافتها . . فلا يبقى فيها مكان لشيء آخر سواها فهي التي تُعِدّ لي طعامي وتلبسني وتمشط لي شعري وتشرف على مذاكرتي وتصحبني إلى السينما . .

* * *

كانت تخاف عليّ إلى درجة جعلتها ترفض أن أخرج مع أصدقائي أو ألعب في الشارع أو في فناء البيت، فمرت طفولتي ومر صباي دون أن أعرف ما يعرفه الأولاد من ركوب الدراجات و«لعبة الاستغماية» وما إلى ذلك. كانت ألعابي كلها في البيت . . أقص الصور التي تنشرها الصحف وأصنع مراكب وطائرات من الورق، وأقرأ الروايات . . فهذه كلها وجوه للتسلية واللعب أستطيع أن أمارسها في البيت وتحت رعايتها، دون أن أتعرض لخطر!

اللحظات الوحيدة التي كنت أفترق فيها عنها هي تلك التي كنت أقضيها في المدرسة. وكانت تحسب موعد خروجي منها، والدقائق التي يستغرقها الطريق من المدرسة إلى البيت، فإذا تأخرت عن عودتي دقائق، جاءت بنفسها إلى المدرسة تبحث عني . .

ثم ماتت فجأة وأنا في العاشرة، أما هي فقد كانت فوق الثلاثين بقليل، وكانت أصغر أخواتها . .

(*) صباح الخير (١٥ آب/ أغسطس ١٩٥٧).

كـان اختفاؤهـا من حياتي أول صـدمة حقيقيـة لي: الكأس الـذي كان مـلآن بهـا إلى حافته، فرغ كله دون أن تتبقى في قاعه قطرة واحدة.

وإنني لأذكر الآن تماماً ذلك الشعور الذي سيطر علي شهوراً طويلة بعد فقدهـا. . كان شعوراً بأن الحياة أصبحت لا معنى لها ولا مبرر! . .

إن التاريخ يحدثنا عن قصة فتاة من أبرز الثوار في ثـورة موسكـو سنة ١٩١٧، كـان لها حبيب من الثـوار البـارزين أيضـاً، وفي آخـر سـاعـات الثـورة وأول سـاعـات النصر قتـل الحبيب! . .

وشيّع مع بعض الثوار الآخرين في جنازة شهيرة باسم الجنازة الحمراء، وعندمـا حانت ساعة الدفن، قفزت الثائرة العـاشقة إلى القـبر، واحتضنت التابـوت وهي تصيح: «ادفنـوني أيضاً! فماذا يهمني الآن من الثورة بعد أن مات!».

إن خبراء النفس يقفون طويلاً أمام هذه الصيحة، وهذه الحالة: حـالة تلك التي ظنت في لحظة أن الثورة كلها لا تهمها ما دام الرجل الذي كان يحبها، ويملأ حياتها، قد مات! . .

هذا رد الفعل المباشر لفراغ حياتنا دفعة واحدة من إنسان كان يملؤها تماماً! إن الإنسان الذي نحبه هـو في نفس الوقت مـرآة صافيـة لنا. . نـرى فيه صـدى نجاحنـا وفشلنا، وكـل نشاطنا وعواطفنا. . فحين تختفي هذه المرآة يفقد الإنسان توازنه لبعض الوقت ويحسب لفـترة أن وجوده عبث. . لأنه لم يعد يرى هذا الوجود منعكساً على مرآة من يحب. .

وقـد بكيت ومرضت وحـزنت ثم هدأت وانتهى كـل شيء، ولكن الشعور الـذي بقي معي من تلك اللحظة هو شعور عميق بالوحدة، وحدة غريبـة ألقاهـا هذا الحـادث في نفسي كـالبـذرة التي لم تلبث أن أورقت وأصبحت لهـا ظـلال كثيفــة. كـبرت وتعلمت وســافـرت واشتغلت، وعرفت عشرات الأصدقـاء والصديقـات، ولكنني كنت على الـدوام أجد النـاس مهما امتزجت بهم منفصلين عني، قد يملأ النـاس كل أركـان نفسي، ولكن نقطة مـا في مكان بعيد من هذه النفس تبقى خالية فارغة جوفاء. . ومن حـين لآخر وأنـا بمفردي أو مـع الناس يغمـرني فجأة الإحسـاس بفراغ هـذا الـركن الخفي، كـأن ريحـاً بـاردة تهب عـلي من مكـان مجهول. . فأقشعر وأرتجف!

وقد كان لأمي أخوات، ماتت الـواحدة بعـد الأخرى. وعـاشت لي إحداهن، كـانت أقـربهن شبهاً بـأمي. . وكنت كلما رأيتها أو ذكـرتها شعـرت برائحـة الأم تهبّ علي، وقـد تمر الشهـور لا أراها ولا أزورهـا، ولكنني أشعر بـوجودهـا، كما يشعـر الإنسان من الـظل الذي يغمره بأن هناك سحابة فوقه، دون أن يرفع رأسه إلى السماء! . .

في هذا الأسبوع فقدت هذه الأم الأخيرة.

* * *

ومن أعجب ما في طبيعتي، أنني لا أبكي على ميت.. مهما كان عزيزاً، ولست أعرف السبب بالضبط، هل هو من طول ما روضت نفسي على أن لا أظهر عواطفي ولا أبالغ فيها؟ هل هو نوع من طغيان العقل على العاطفة.. فالعقل يسرع بمناقشة الموت وتقبل حقيقته.. ويسبق قبل أن تجيش العاطفة؟!..

إنني أعتقد ـ على أي حال ـ أن البكاء أو الصراخ ليس هو الحزن نفسه، ولكنه صورة للحزن فحسب.. صورة هناك صور غيرها، كثيرة غيرها..

تماماً كما أن صور الفرح كثيرة: هناك من لا يشعر بسعادته إلا إذا شرب وسكر وصاح وقفز، وهناك من يجد سعادة أعمق في أن يجلس هادئاً باسماً، يمتص سعادته على مهل، كذلك الحزن: هناك من لا يكتمل حزنهم ولا يبدو إلا في صورة البكاء والصياح والنحيب، كأنه مع الحزن في معركة وصراع، وهناك من يأتيهم الحزن فلا يصارعون ولكنهم يفسحون له مكاناً ويضمون عليه نفوسهم في سكون.

٢ ـ صداقة(*)

ليس أقسى من خيبة الحب، إلا خيبة الصداقة، ذلك أن الصداقـة في العادة تقـوم على عنصرين «العقل والعاطفة» في حين أن الحب كثيراً ما يقوم على العاطفة وحدها. . فضلاً عن أن الصداقة أوسع أفقاً من الحب، فـالحب يقترن بـرغبة الامتـلاك والاحتكار والاستئثـار، في حين أن الصداقة تقبل المشاركة، وتتسع لها. .

ولا أذكر أنني عرفت صديقاً ثم خسرتـه، وخسارة الصـديق شيء أعتبره من الأحـداث الجسيمة في حياتي، التي تحزنني وتؤلمني زمناً طـويلاً، وقـدرتي ـ ولعلها قـدرة أي إنسان ـ عـلى نسيان الحب أقوى من القدرة على نسيان الصداقة. . فالحب له في النفس مكان واحد وحيد، يمكن أن يملأه إنسان جديد، أما الصداقـات فمكانها في النفس واسـع متعدد متنـوع، وفراغ مكان كان يشغله صديق، لا يملؤه بالضرورة أي صديق آخر. .

والأسباب النفسية التي تدفعني عادة إلى التمسك بالصـديق، والتسامـح معه، والحـزن العميق على فقده، كثيرة. .

فأنا أعتقد أن الصداقة مسؤولية لا مجال للتهرب منها، إنها كالقرابة القـريبة، فـإذا كان لك أخ ثم ارتكب جريمة. . هل تتبرأ منه؟ هل تقول إنه ليس أخي، ثم ينتهي الأمر بـالنسبة إليـك؟. . كلا بـالطبـع. . ولكنك تحـاول أن تقف معه، وأن تخفف عنـه حتى السجن، إذا ذهبت به جريمة إلى السجن. وكذلك الصديق، حتى إذا سقط، لا يمكن بتر صداقته والنفس مستريحة، ولا بد من مواصلة الوقوف بجانبه، والتخفيف عنه، بقدر المستطاع. .

السبب الثاني، هو انني أقبل صداقة الصديق غـير مخدوع فيـه، بمعنى أنني لا أشترط في صديقي أن يكون كاملاً، أو على هواي بالضبط، لأن الكامل غير مـوجود، ولأن النـاس غير متطابقين، إنما أعرف صديقي وأحبه، وأنـا عارف بعنـاصر قوتـه وضعفه، بنـواحيه الإيجـابية

(*) صباح الخير (١٣ شباط/ فبراير ١٩٥٨).

والسلبية، بما يستطيعه وما لا يستطيعه. . ولذلك فقلما أكتشف بعد ذلك في الصديق شيئاً كنت لا أعرفه في حين أن الإنسان إذا رسم لصديقه صورة بطولية باهرة غير حقيقية، فإن هذه الصورة تكون قابلة للكسر بسهولة. .

وليس من عناصر الصداقة الأساسية عندي الاتفاق التام في الرأي والعقيدة، ومن بين أعز أصدقائي من أخالفهم في الرأي خلافات أساسية. . صحيح أن اتفاق الرأي والعقيدة يجعل الصداقة، أقوى وأصلب، ولكنه لا يجعلها على الدوام أعمق، بدليل أن أي إنسان لا يحب عادة كل من يوافقون رأيه، فقد يكون هناك من توافقه على رأيه ولكنك تجده ثقيل الظل، أو لا تقر بعض أخلاقياته، فهو ليس بصديق، إنما المهم في حالة اختلاف الرأي أن تكون نقطة البدء واحدة في نفس الصديقين: وهي الأمانة للنفس والرأي، وعدم الخداع. .

ومنذ أسابيع، وأنا أعيش في خيبة صداقة.

والسبب بسيط، ولكنه كاف لأن ينسف أي صداقة. . وهو أن صديقي هذا لم يفهمني. قد أكون أنا المسؤول عن عدم فهمه لي، وقد يكون هو المسؤول. . ولكن النتيجة واحدة: إن عدم الفهم هو اللغم الذي ينسف أعمق الصداقات. .

إن في طبيعتي عيباً غريباً حاولت عبثاً أن أتخلص منه، ولم يفهمه صديقي تماماً، هو: إنني لا أدلل أصدقائي!

والحقيقة الواقعة أن أغلب الناس يحبون التدليل، على درجات مختلفة بالطبع، ومنهم من يحب من صديقه أن يسمعه دائماً عبارات المدح والتقدير والإعجاب. . مخطئاً كان أو مصيباً، ظالماً أو مظلوماً، لا يحب أن تنقده أو تؤاخذه أو تصدمه في بعض ما يصنع ويفكر ويحس، هذا النوع عند التحليل العميق تجد أنه لا يبحث عن أصدقاء إنما يبحث عن «جمهور». . جمهور يضحك له إذا كانت مهزلة، ويبكي إذا كانت مأساة. . وكفى!

وأنا لا أحب هذا النوع من الصداقة، بل إنني بالعكس، كلما توثقت صداقتي بإنسان. . كلما أحسست بقلة حاجتي إلى مجاراته ومداراته ومجاملته، ولعلني أخطىء أحياناً فأبالغ في ذلك، ولكنني على أي حال لا أحب الصداقة التي تحتاج إلى مجهود نفسي من المجاملة والشكليات والاغضاء. . إن مثل هذه الصداقة كالنار الخافتة الخائرة التي لا تظل مشتعلة إلا بقدر ما تهوّي عليها وتنفخ فيها، إذ ليس فيها عناصر الاشتعال الذاتية المستمرة. .

إن مثل هذه الصداقة، كالزواج الذي ينقصه الوفاء، فيستعيض الزوجان عن الوفاء الحقيقي بالوفاء الشكلي. . بالكلمات المعسولة والإكثار منها، وكل الكتّاب الاجتماعيين ينصحون الزوج والزوجة أن يكرر كل منهما لزميله، «أنا أحبك»! عشر مرات في اليوم، ولكنني لا أؤمن بهذا. . بالزوجة التي ترى حب زوجها لها في كلمات، ولا تراه في جهد حقيقي يبذله من أجلها، وإذا حدث واقتنعت به نظرياً فإنني لا أستطيع أن أصنعه، إنني أؤمن بالموضوع لا الشكل، بالحقيقة الحية غير المزوقة لا بالصورة التي فيها من «الرتوش» أكثر مما فيها من «الأصل».

٣ ـ صاحبة السمو(*)

كانت أول فتاة أحببتها ـ بالبنـطلون القصير ـ أمـيرة من صاحبـات السمو، من العـائلة المالكة السابقة، وما زالت إلى الآن، هي وشقيقتها تعتبران من أجمل نساء مصر. .

كنت تلميذاً في السنة الثانية الثانوية. . لا يزيد عمري على ١٢ سنة، وكـانت مدرستي في حي أرستقـراطي هادىء في مـواجهة قصر شـامخ، لـه حديقـة هائلة يسكنـه أمـير سـابق معروف، وزوجة وطفلتان. . في حوالى العاشرة من العمر. .

واكتشفت أنا وزميل لي أن نافذة فصلنا تطل مباشرة على قصر الأمـير. . وبالـذات على شرفة كبيرة في الدور الثاني تلعب فيها الأميرتـان الصغيرتـان. . أما الـدور الأول، فكان يلوح فيه من حين لآخر الأمير نفسه، أو زوجة الأمير، وكانت سيدة رائعة الجمال. .

على أن أبصارنا تعلقت بالأميرتين الصغيرتين اللتين تلعبان في الشرفة الواسعـة، الوجـه الأبيض الذي يكاد يكون شفافاً، والشعر الذهبي ورقّة الحـركة التي بـدت لعيوننـا نحن أبناء الشعب وكأننا نشاركهما لعبهما. .

وبدأت أنا وصاحبي نتسلل من فناء المدرسة خلال الفسحة إلى الفصـل حين لا يـوجد أحد، ونحدق في الأميرتين، وكأن عيوننا ستخرج من محاجرهـا وتقفز إلى الشرفـة، ولاحظت الأمـيرتان فلم تفـزعا. . عـلى العكس، كـانتـا تضحكـان إذا حـدث بينهـما شيء مضحـك، فنضحك نحن أيضاً وكأننا نشاركهما لعبهما. .

ثم خـطونا خـطوة أخرى، فكنـا نشتري بمصروفنـا كله شيكـولاتـه، ونستعمـل «نبلة» صغـيرة في قذف الشيكـولاته إليهـما، وكانتـا تقبـلان عـلى تلقفهـا وتضحكـان، وكـأنها لعبـة جديدة. . حتى نرى المربية آتية فنختفي من النافذة!

(*) صباح الخير (٨ أيار/ مايو ١٩٥٨).

وكانت تلك السنة سنة مضطربة حافلة بالمظاهرات والاضطرابات، فلا يمر أسبوع دون أن يحاصر البوليس المدرسة ونتشعلق نحن كالقرود على الأسوار، ونهتف ضد الحكومة، ونقذف البوليس بالطوب وقراطيس الرمل المبلول. . وكانت الأميرتان وخدم القصر يتفرجون على هذا المشهد عادة. . وكنت أنا وصاحبي نهتم بأن ترى الأميرتان كفاحنا الوطني فنصرخ بالهتاف وننهمك في قذف البوليس بالطوب عندما تكونان موجودتين. . حتى وقفنا مرة في وجهيهما فوجدنا عليهما علامات الفزع لا الإعجاب. . فبدأنا نقذف الطوب من مناطق أخرى غير المنطقة التي تطل عليها نافذتهما. .

على أن أعظم مغامراتي ـ أنا وصاحبي ـ كانت بعد ذلك بشهور. . عندما قررنا أن نراهما عن قرب، بأي ثمن، وكانت الخطة بسيطة. . ففي لحظة انصرافنا من المدرسة حوالى الساعة الرابعة عصراً، تكون الأميرتان في الحديقة تلعبان، وكانت الخطة أن نقذف كرة معنا إلى داخل الحديقة. . ثم يذهب واحد منا كالملاك الوديع إلى البواب ويرجوه أن يسمح له بالدخول ليبحث عن الكرة!

ووافق البواب أول مرة، ودخلت الحديقة مبهور الأنفاس، ومررت بجوار الأميرتين تماماً وضحكت الطفلتان، وجرت إحداهما إلى الكرة وأعطتها لي. . وعدت ظافراً. .

وعندما كررنا التمثيلية بعد يومين ليدخل صاحبي صرخ البواب في وجهنا، ونادى على خادم أحضر الكرة من الحديقة. . وأنذرنا بأنه سيمزقها في المرة القادمة. .

وعدنا إلى نافذة الفصل. .

ولكن لم تمض أيام حتى صدر أمر من المشرف بإغلاق كل نوافذ الفصول المطلة على القصر في فترات الفسحة والاستراحة حيث لا يكون الأساتذة موجودين في الفصول. . وظهر أن التلاميذ الكبار في خامسة ثانوي يعاكسون زوجة الأمير، وأن الأمير شكا لناظر المدرسة، فأصدر هذا الأمر. . دون أن يعلم أنه قد حطم قلبين صغيرين في سنة ثانية أول!

٤ ـ جرحت قلبي على كوبري عباس!(*)

فبراير.. هو الشهر الذي ولدت فيه..

ولن أروي قصة مولدي طبعاً! سأقفز تسعة عشر عاماً.. إلى السنة التي تخرجت فيها. سأقفز إلى فبراير ١٩٤٦.. وأنا طالب بالسنة النهائية في كلية الحقوق!..

كانت القاهرة في ذلك الوقت قد مسحت اللون الأزرق عن المصابيح.. فقد انتهت الحرب.. وانتهت الغارات الجوية.. وبدأ النور يتنفس من زجاج النوافذ وفوانيس الشوارع وأبواب المقاهي.. وكلما ازداد النور تدفقاً، قَلّ عدد جنود الامبراطورية البريطانية الذين كانوا يملأون الشوارع المظلمة..

كانت مصر تقف عند مفترق طرق حاسم. وكانت علاقتي بالفتاة التي أحبها تمر أيضاً بمفترق طرق حاسم!

أما مصر، فقد كان شبابها يتجدد بجيل جديد، جيل ما بعد الحرب. كان هذا الشباب قد ذاق مرارة الحرب وهوانها في سن غضة مبكرة، وكان قد قرأ تاريخ بلاده وأحبها وهام بها. وكان هذا الشباب يرى مصر الحبيبة في قبضة قوات أجنبية باغية تنهب خيراتها وتدوس أعلامها وتمرغ أنفها في التراب. أما الذين كانوا يتصدون للدفاع عن مصر، فقد كانوا زعماء أنهكهم الجهد بعد أن عملوا في مسرح السياسة ثلاثين سنة متوالية، فلم يعد لديهم جديد. عيونهم الكليلة لا ترى أن شمس الامبراطورية تأفل.. وأيديهم المرتعشة لا تجسر على الدخول في صراع حقيقي مع الإنجليز..

وكان من يدقق النظر يستطيع أن يرى مصر وكأنها قد انقسمت إلى عالمين مختلفين.. إلى رأيين وعقليتين بينهما هوة سحيقة..

(*) آخر ساعة (٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٩).

كـان «الكبار» . . «العقـلاء» . . يعتقـدون أننـا يجب أن نحـاول أخـذ حقـوقنـا بـاللين والحسنى. إننا ضعفاء وخصومنا أقوياء، ولذلك فيجب علينا أن ندرك حقـائق الدنيـا . . وأن نطلب حقوقنا من الإنكليز بالطرق الودية العاقلة . . نبعث لهم مذكرة فيردون علينا بمذكرة . . نبعث لهم بوفد مباحثات فيقابلوننا بوفد مباحثات. وإذا أخذنا شيئاً فلا بأس به . . نـرضى به مؤقتاً ثم ننتظر فرصة أخرى لنطلب المزيد . . فبهـذا تمضي الحياة ويـأمن الناس ولا تتعـرض البلاد لمغامرات مجهولة غامضة لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث بعدها . .

وأمـا «الصغار» . . «الـطائشون» . . (وهـذا ما وصفنـا به أحـد كبار الكتّـاب في ذلـك الوقت!)، فكانـوا أضيق صبراً من أن يسلكـوا هذا الـطريق. كانت آذانهم الجـديدة تسمـع صوت تساقط الامبراطوريات الكبيرة بأوضح مما تسمعه آذان الساسة القدامى. كانوا يريدون أن يدخلوا هذه المغامرة المجهولة الغامضة. كانوا يريدون أن يجربوا قـوتهم وإيمانهم في معـركة أو معارك حاسمة مع الإنجليز . . استقلال أو لا استقلال . . وليس هناك أمر وسط بينهما! . .

غرور . . الشاب الصغير!

أمـا الفتاة التي كنت أحبهـا . . فقد كـانت حقاً جـديـرة بـالحب . . ليست جميلة، وإن كانت جذابة. ليست مثقفة، وإن كانت ذكية. أما السبب الأول في فتنتي بها، فهو سبب يبدو للوهلة الأولى غريباً . . ولكنه في الواقـع ليس بغريب. كـان هذا السبب الـرئيسي هو . . أنها أكـبر مني سناً! كنت في التـاسعة عشرة وكـانت هي في حوالي الخـامسـة والعشرين! وعنـدمـا عرفتها لأول مرة كنت في السابعة عشرة وكانت هي في الثالثة والعشرين! لم تكن فتاة ساذجـة تجرب شيئاً جديداً لا تعرفه . . إنمـا كانت فتـاة ناضجـة ذات تجربـة . . وكأنني كنت أجـد في حب هذه الفتاة لي، هي صاحبة التجارب، نوعاً من الإطراء لي . . أنا العاشق المبتدىء!!

كنت متفـوقاً عليهـا في ثقافـة الكتب، وكانت هي متفـوقة عـليّ في ثقافـة الحياة. كنت أشعـر أن عواطفهـا أنضج، وأفقهـا الإنساني أوسـع وأرحب . . وكـان هـذا يشحـذ في نفسي شعوراً غريباً بالرغبة في أن أكون أنضج، وأكبر، وأقل طيشـاً! كنت أحس أنني يجب أن أقفز في شهور ما يقفـزه الناس في سنـوات. فالـرجل ـ بعـد كل شيء ـ هـو الذي يجب أن يكـون أنضج، وأقوى!

أليس شعـوراً مثيراً للشـاب الصغير أن يجـد الرجـال الأكبر منـه يعاملونـه وكأنـه رجل مثلهم! . . كذلك فإنه شعور أكثر إثارة، أن يحب الشاب الصغير فتاة نـاضجة، تعـرف كيف تشعره دائماً بلباقة بأنه رجل . . وأنه ليس صغيراً! . .

ولم يكن لهذا الحب ـ من ناحيتي ـ أي تخطيط بالنسبة للمستقبل! كان حباً حقيقياً، فيه الغيرة والقلق والضنى والفرح، ولم يكن لهواً وعبثاً . . . ولكنني لم أكن أفكـر في ما سـوف يأتي به الغد. مرة واحدة، انتبهت فيهـا إلى أن فتاتي تفكـر في المستقبل، عنـدما كنـا نسير معاً في الطريق . . ومررنا أمام «فترينة» فيها مرآة كبيرة. واستوقفتني صاحبتي فجأة . . وضعت ذراعها في ذراعي، ووقفت بي أمـام المـرآة وهي تقـول: «أريـد أن أرى كيف يبـدو منظرنـا معـاً!» . . ونظرت معها إلى المرآة . . ورأيت صورتنـا . . ورأيت نظرتهـا الفاحصـة الحالمـة، كأنها تكمـل

الصورة التي تراها بتفاصيل أخرى غير مرئية. . وفجأة وجدتني أتخيل الصورة. . وصاحبتي بملابس الزفاف وأنا ببذلة سوداء!. . وكأن صاحبتي انتبهت فجأة إلى أنني على وشك أن أدرك ما يجول بخاطرها، فأسرعت مرة أخرى تجذبني من ذراعي. . بعيداً عن المرآة. .

ولكن هذه اللحظة الخاطفة. . جعلتني أفكر من جديد في الكلام الذي نتبادله، وفي الخلاف الذي كان دائماً يثور بيننا. .

إلى أين؟

كان من رأيها أنني يجب أن أكون طالباً مجتهداً فحسب، وأنني أستطيع ذلك. إنني في السنة النهائية بكلية الحقوق، ويجب أن أتفرغ للمذاكرة لكي أكون من العشرة الأوائل. . ومعنى ذلك: أن أعيّن بمجرد تخرجي في وظيفة وكيل نيابة! إن منظر وكيل النيابة هو الحلم الذي يداعب كل طالب في سنة رابعة حقوق. الطربوش المائل، والناس يقولون له «سعادة البيه». . . وسلطة القبض والتفتيش والتحقيق. . والعساكر وراءه وأمامه. . ثم الترقية السريعة المضمونة. . قاض. . ثم رئيس نيابة. . ومستشار. . وربما نائب عمومي أو رئيس محكمة النقض والإبرام. وهذا كله لا يكلف إلا أن ينجح الطالب ويكون من العشرة الأوائل!. . أما إذا تأخر عن ذلك. . فمستقبل المتخرج في كلية الحقوق غامض تماماً. . قد يجد وظيفة وقد لا يجد. . وقد يضطر ليعمل محامياً تحت التمرين. . أي يقضي سنتين أخريين بدون إيراد. . يعيش كالتلميذ على المصروف الذي يأخذه من أبيه. . ثم لا أحد يعرف ماذا بعد!. .

أما أنا. . فكنت في عالم آخر! أترك كتب الدراسة لأقرأ كتب السياسة. ووقتي في الجامعة أقضيه بين محاضرات كلية الحقوق. . ومحاضرات كلية الآداب أستمع إلى مواد لن أمتحن فيها قط. . وبين مكتبة الجامعة أقرأ قصصاً ودواوين شعر!

وقد بدأ هذا الخلاف بيننا يأخذ شكلاً جاداً. . هي تريدني أن أعيش هذه السنة بغاية واحدة هي الحصول على وظيفة وكيل نيابة. . لأسير بعد ذلك في طريق التقدم المستقر المضمون. . وأنا أحس أنني يجب بعد تخرجي أن أبدأ مغامرة غامضة. . أجرب فيها الكتابة. . وأشتغل بالسياسة، ولا أعرف ماذا يكون بعد ذلك!. . فلما وقفنا تلك اللحظة الخاطفة أمام المرآة. . واقتنصت النظرة التي برقت في عينيها. . أدركت أننا لكي نتزوج يجب أن أحصل على وظيفة وكيل نيابة. . وأن الاشتغال بالسياسة والكتابة معناه: لا مرتب ولا بيت ولا زواج. . ومعناه ألا يكون حبنا إلا تجربة ثم تمر!. .

تمر؟. . قد يبدو هذا بالنسبة لي جذاباً! ولكن، هل في مقدورها هي في هذه السن أن تجرب من جديد أشياء أخرى. . تمر؟. .

المظاهرة!

على أن المد السياسي كان يرتفع ويصخب ولا يترك لأحد من الشباب فرصة للتفكير في أي شيء آخر. إن الزعماء يفاوضون، ويماطلون، ويرتجفون. . وطلبة الجامعة تغلي مراجلهم

ويحتدم غضبهم ويقترب سخطهم من درجة الانفجار! إن الجامعة كلها اجتماعات تعقد.. ومناقشات.. ومشاجرات.. ومنشورات توزع وكتب تحمل أفكاراً جديدة تظهر.. ولهفة عارمة على معركة كبيرة.

وتقرر أن تقوم الجامعة بمظاهرة هائلة.. تصفع الإنجليز والملك والزعماء وكل ما هو قديم ومتخاذل..

ولم أكن من الطلبة المشاغبين.. ولم أكن من أبطال المظاهرات. كانت اهتماماتي السياسية كلها محصورة في القراءة والجدل والمناقشة. كانت سذاجتي تصور لي أنه يكفي مجرد العثور على الكلمة الصحيحة والرأي السليم.. لكي يتغير كل شيء.. ولكن هناك لحظات يجرف العمل الإيجابي فيها كل شيء! فلا بد من الاشتراك في هذه المظاهرة.. التي تستعد لها الجامعة من جهة... وتستعد لها القوى الحاكمة من جهة أخرى!.. والغريب أنني أخفيت نيتي هذه عن صاحبتي.. برغم أنني كنت أحب أن أبوح لها بكل شيء، كأنني شعرت أن هذا سوف يغضبها!..

وجاء صباح ٩ فبراير ١٩٤٦.

وخرجت المظاهرة الهائلة وكأنها تحمل نذر ثورة كبيرة! خرجت من أبواب الجامعة إلى ميدان الجيزة.. ثم إلى كوبري عباس لكي تعبر النيل، وتهبط إلى قلب المدينة..

وعلى كوبري عباس كان ينتظرنا الفخ!.. فعندما أصبحنا في وسط الكوبري ظهرت فجأة قوات البوليس من جانبي الكوبري، تزحف علينا من الجانبين، ثم تنقض علينا بوحشية هائلة! صرنا فجأة في مربع ملتهب.. البوليس يسده من الناحيتين، والنهر وأسوار الكوبري تسده من الناحيتين الأخريين. إن البوليس هذه المرة لا يريد تفريق المظاهرة.. إنه يريد أن يخمد أنفاسها ويقتلها في مكانها ويلقن مشعليها درساً!.

كان البوليس يضرب بعصيه الغليظة المدببة على الرؤوس العارية، والجنود الراكبون على الجياد يلهبوننا بكرابيجهم الطويلة، التي تصفر وهي تمزق الهواء، قبل أن تشق اللحم البشري.. وأراد الأهالي الذين رأوا المشهد الرهيب أن يساعدونا، فعمدوا إلى الطوب يقذفونه... وهجموا على محل يبيع الطواجن وقصاري الزرع وأواني الفخار، يقذفونها!.. وكان الطوب وكانت الطواجن تسقط فوق رؤوسنا!..

كانت حلقة الحصار حولنا تضيق، وصفوفنا تسقط على الأرض صفاً بعد صف.. كان عن يميني الصديق الدكتور عبد الوهاب العشماوي المحامي حالياً.. فهوت على رأسه عصاً غليظة لتفتحه.. وكان عن يساري الدكتور عصمت عبد القادر - قنصلنا الحالي في مدريد - يضع يده على رأسه والكرابيج تنهال على أصابعه تفريها.. واستبد اليأس بالبعض فقفزوا إلى النهر، لعل أحضانه تكون أرحم بهم.. ورأى البعض الآخر مصير الذين قفزوا في الماء، فهجموا يخترقون نطاق البوليس.. ولو مزقتهم العصي والكرابيج..

وعندما خرجت من الكوبري، وجدت نفسي أستند إلى أول فانوس نور صادفني في الطريق، ووجدت ناساً يتجمعون حولي ويسندونني . . ويدخلونني وأنا بين الوعي والغيبوبة إلى المستشفى المواجه للكوبري . . وفي المستشفى الذي كان يزدحم بالطلبة الجرحى، اكتشفت لأول مرة أن قمة رأسي مفتوحة من ضربة عصا، وأنها تنزف الدم بغزارة . واكتشفت أن البنطلون قد تمزق عند ركبتي التي يتدفق منها الدم أيضاً . . وبدأت أشعر أن كل ما في بدني من عظام يئن ويتوجع . . وجاء الطبيب وبدأ يطهّر جرح رأسي بإسعافات أولية . . وإذا بصائح يعلن أن البوليس يقتحم المستشفى ليعتقل الجرحى . . وبدأ الأطباء والممرضون والممرضات يهرّبوننا، دون إسعاف، من الباب الخلفي . . وسرت في حواري الجيزة الخلفية وأزقتها ورأسي وركبتي ينزفان دماً . . وعثر عليّ رجال الإسعاف الذين كانوا يطوفون المنطقة لإنقاذ الطلبة وإسعافهم . . وإخفائهم عن أعين البوليس .

ولكن هذه المعركة . . التي عرفت باسم «معركة كوبري عباس» . . والتي وقعت يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ . . زادت النار اشتعالاً . .

ففي اليوم التالي أضربت كل المدارس مع الجامعة . ولأول مرة مزق طلبة الجامعة صور «جلالة الملك» وداسوها بالأقدام وهتفوا بالجمهورية . وكان يوم ١١ فبراير هو يوم عيد ميلاد الملك، وكانت الدولة تقيم الاحتفالات وتنظم موكباً للشعلة . . فهاجم الطلبة والأهالي الشعلة في الجيزة وأطفأوها . . وهاجموا سيارات القصر الملكي الحمراء بالطوب والحجارة . . وتكونت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال . . وهجم الأهالي على ثكنات قصر النيل وفتح الإنكليز مدافعهم الرشاشة عليهم .

وكان عيد ميلادي أيضاً هو يوم ١١ فبراير . ولأول مرة منذ عرفت صاحبتي لم ترسل لي كلمة رقيقة في عيد ميلادي . سألت عني أصدقائي وعرفت كل ما كان . . وكأنها أدركت أن الخلاف بيننا قد حسم . إنني أخرج من البيت ـ بعد أن شفي جسمي ـ مربوط الرأس . . واسمي لا شك الآن اسم مشبوه في دفاتر البوليس . والطلبة يزدادون اهتماماً بالسياسة . إنني لن أكون وكيل نيابة أبداً!

وبنفس لباقتها . . ونضجها . . أفهمتني أنها سوف تتركني . . وأن تجربتنا لن يكتب لها أن تعيش . .

وأحسست أنني سأفقد شيئاً عزيزاً حقاً . وحاولت أن أعزي نفسي بأن ما تدعوني إليه صاحبتي، هو نفس ما يدعونا إليه الزعماء القدامى : الطريق الهادىء العاقل . . بدلاً من الطريق الباهر الغامض، غير المؤكد! . . وأحسست أن حوادث ٩ فبراير قد فصلتها عني نهائياً، كما فصلت شبابنا كله عن الزعامات القديمة كلها! . .

كان «عقلي» مقتنعاً تماماً بأن فراقنا خير . . بل انه لا بد منه . .

ولكنني بكيت!

٥ ـ كلية الحقوق.. وحديث الذكريات
.. ومعنى «القانون»(*)

في الشهر الماضي، احتفلت كلية الحقوق في جامعة القاهرة بمرور مائة سنة على إنشائها.. فهي أقدم كلية من نوعها في العالم العربي والشرق الأوسط.

ولعل خريجيها، من كل أبناء العالم العربي، وخريجي حقوق «الأستانة» أو القسطنطينية، أيام كانت عاصمة الامبراطورية العثمانية المسيطرة على العالم العربي كله سوى مصر، هم الذين قادوا وشكلوا السياسة في كل العالم العربي خلال حقبة طويلة من الزمن.. ربما سادت هزيمة حرب فلسطين الأولى سنة ١٩٤٨، إذ بدأ حكم «الحقوقيين» يتزعزع ويتراجع، بعد أن طغى السيف على القانون. وربما كانت هزيمة ١٩٤٨ ذاتها هي التي أقنعت العرب زمناً طويلاً بعدم جدوى القانون أمام السيف، مهما كانت القضية عادلة.

وإن «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة» كلمة جميلة أطلقها أشهر حاملي شهادات القانون، سعد زغلول، اهتزت بها أعواد المنابر زمناً.. ولم يهتز بها شيء آخر بعد!

وكم كنت حزيناً، لأنني كنت بعيداً عن القاهرة يوم احتفلت كلية الحقوق بالعيد المئوي لها. ذلك أنني أحد خريجي تلك الكلية العتيدة، التي طبعت موجات الأثير على جدرانها عدداً من أعظم الأصوات التي عرفتها مصر والعروبة. وإذا كنت لم أشتغل بالقانون إلا قليلاً، إلا أن الأثر الذي تتركه كلية الحقوق في نفس تلميذها لا ينمحي، إذا كان قد دخلها عن حب وشغف، لا عن طريق تقليعة «مكاتب التنسيق»، ثم إنني إذا كنت قد تركت العمل بالقانون إلى مهنة الكتابة والصحافة بعد حوالى خمس سنوات فقط، إلا أنني كثيراً ما أكتشف فجأة أنني ما زلت أشتغل بالقانون من ناحية، ربما تركت ما نسميه «بالقانون الخاص» وهي القوانين المدنية والجنائية وغيرها، إلا أنني بقيت ـ ككاتب ـ على صلة دائمة بما نسميه «القانون العام»: أي الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون الدولي والقانون الدستوري

(*) العربي، العدد ٢٦٠ (تموز/ يوليو ١٩٨٠).

والقانون الإداري. . أي القوانين التي تنظم حياة المجتمعات والشعوب والدول، وليس الحياة الخاصة للأفراد. . . كما هو الحال في كل ما نسميه «القانون الخاص». . .

ولكن الأهم من ذلك، أنني فعلاً أكتشف عادة أنني ما زلت أشتغل بالقانون، لأنني دائماً أجد نفسي متلبساً بالتفكير في أي موضوع بطريقة «قانونية»، أو بطريقة متأثرة بالتفكير القانوني إلى حد بعيد.

ذلك أن دراسة القانون تعلم المرء طريقة خاصة في التفكير، تزود صاحبها بما يشبه «الترموستات» أو منظم درجة الحرارة، يقرأ الإنسان في الآداب، ويحلق وراء الفنون، ويجوب آفاق الفلسفة. . وهذه أشياء ربما كانت هي جوهر الفكر، ولكن من درس القانون ـ فيما يخيل لي ـ يجوب هذا كله وقد ربطه التفكير القانوني في أرض واقعية معينة. فهو ينظم تفكيره، ويضع في صدره ميزاناً دائماً يزن به كل ما يعرض له من أفكار وأمور، ويخلصه من تيارات «الفن للفن» و«الفكر للفكر» في حين يربطه بأن الفن للحياة، والفكر للحياة، والسياسة للحياة. وكل شيء وبدؤه ومنتهاه الحياة، والناس. وإن الرؤية المتأثرة بالقانون هي الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام التطبيق، أو بين تهويمات الخيال ورؤى الحقيقة.

ولست هنا أفاضل بين شيئين. فحياتنا بلا أحلام لا تساوي شيئاً. وبغير الأحلام لا تتحقق الأشياء العظيمة. ولكن حياة تقوم على الأحلام هي بالونات ملونة تطير في الهواء وتضيع، وليست مركبات فضاء محددة الغرض، محكمة التوجيه.

ثم. .

هل هناك قضية دارت حولها حياة المجتمعات الإنسانية منذ نشأت، ولا تزال، أكثر من قضية «الحق والواجب؟» وهي قضية القانون. أوليس القانون هو الوسيلة البشرية لتنظيم الحياة. . ابتداء من تنظيم حركة المرور في الشارع إلى علاقات الدول ببعضها البعض في البر والبحر والفضاء؟

كل إنسان يتفتح وعيه لأول مرة على شيء مختلف. هكذا الحياة. لو كانت زهورها بلون واحد وأشجارها بطول واحد لفقدت جمالها، بل لصارت جحيماً. ونفس الحال في البشر. لو كانوا على شاكلة واحدة ونمط واحد لفقدت الحياة مذاقها بل وربما مغزاها. والاخوة في البيت الواحد كثيراً ما يتباينون رغم كل عوامل الوراثة الواحدة والتربية الواحدة. . .

بالنسبة لي. . لا أذكر مهما حاولت التذكر أن أمراً استبد بي منذ البداية أكثر من تلك القضية، الحق والواجب، الظلم والعدل. وبالتالي الأداة في كل هذا وهي القانون.

وكانت ترجمتها في سن المراهقة هي الشغف الهائل بحضور القضايا الكبرى، والاستماع إلى المرافعات الرنانة. وكنت إذا قرأت عن محاكمة سياسية كبرى حدثت منذ عشرات السنين، ذهبت إلى دار الكتب، وطلبت مجلدات صحف تلك الفترة لأقرأ القضايا والمرافعات

ومناقشات المحكمة كاملة بالتفصيل. وكان كل تاريخ مصر الوطني في الفترة السابقة في يد المحامين، وكانت المحاكم إحدى أهم ساحات الكفاح.

وكنت أرى نفسي وأنا صبي في شتى الأدوار داخل تلك الحلبة الرائعة: قاعة المحكمة. أحياناً ذلك القاضي الجالس على عرشه، أو ذلك المحامي بصوته المدوّي، وأحياناً المتهم الواقف في قفص الاتهام في ثبات بوصفه بطلاً وسبب تلك الدراما كلها!

واستقر رأيي على أن أكون قاضياً. فهذه الهيبة والرهبة، وهذه الدقة والمتابعة واليقظة، ثم أخطر وأصعب شيء: حين يخلو إلى نفسه، وقد سمع أقوى الحجج من الجانبين، وعشرات الشهود المتناقضين، وكيف يمسك من وسط هذا كله بخيط الحقيقة، وتصدر من فمه الكلمة حاسمة ونهائية.

على أنني حين دخلت كلية الحقوق فعلاً، دخلت في الواقع الجامعة بأكملها. وتفتحت أمامي مع سنوات الشباب كل فروع المعرفة. وكنت أحضر محاضرات كلية الحقوق وكلية الآداب وأحياناً غيرها. وتلك ميزة الجامعة. إنها تعطيك كل المفاتيح. هذا ما يفرقها عن المدرسة. وحين يقرأ المرء الأدب والفلسفة ومذاهب الفكر المتلاطمة يجد أن العثور على الحقيقة ليس سهلاً. بل إنه يكاد يكون مستحيلاً؟ هذه مجالات تعلمك أن لكل رأي ألف وجه، وأن كل موقف له ألف تفسير. وأن المذنب قانونياً قد يكون هو البريء فكرياً أو اجتماعياً أو حتى فلسفياً، ووجدت أن مهنة القضاء صارت لا تناسبني. إنها مهنة مستحيلة. أي عذاب وأرق وألم يكابده المرء حتى يقول «هذه هي الحقيقة»! مستحيل إنها ضد طبيعتي، عمل كل الموازنات وحساب كل الاعتبارات سوف يفضي بي إلى الشلل...

واتجه ذهني إلى ذلك المترافع البليغ. إنه يأخذ جانباً واحداً ويحاول إثباته. وهذا أمتع وأسهل وأفخم. حتى لو كان يدافع عن قاتل. فقد قرأت أيامها ـ في ما قرأت من كتب المحامين الكبار ـ كلمة لمحام إنجليزي كبير يقول «حين يقف المتهم في القفص، مجرداً من كل سلاح، محروماً من أي صديق، والعالم كله يشير إليه بأصبع الاتهام. هنا لا بد أن يقف إلى جانبه شخص. هذا الشخص هو المحامي. وفي هذا الموقف يكمن دوره المقدس!».

ما أعظم هذا!

ولكني حين تخرجت من كلية الحقوق، ومن الجامعة كلها، لأنني مرة أخرى كنت أشعر أنني طالب بالجامعة كلها، أستمع إلى عبد المنعم بدر يدرّس القانون كما أستمع إلى يوسف مراد يدرّس الفلسفة.. اكتشفت أن مهنة المحاماة هي آخر ما يناسبني! على الأقل ذلك النوع من المحاماة.

فليس من طبيعتي الانطوائية أن أواجه الجمهور وأتحدث كأنني على خشبة مسرح! ثم إنني كنت أقل من السن القانونية لممارسة المحاماة! ثم إن الكلمة المكتوبة صارت أوسع انتشاراً من أعظم كلمة تقال في قاعات المحاكم!

وكان حظي من ممارسة القانون أصعب جوانبه، بالنسبة لي: وكيل نيابة. مهمتي أن أضيق الخناق على المتهم، وأن أثبت جريمته بدل أن أثبت براءته. ومرة أخرى جريمة بالمعنى القانوني، التي قد يكون في نفسي ألف سبب ضد اعتبارها جريمة.

وبعد سنوات قليلة قفزت من زورق القانون بشكله المباشر، إلى زورق الصحافة والكتابة. . والبحث عن الحق والواجب والقانون بمعانيها الأوسع.

وبعد. .

فقد بدأت هذا الحديث وفي ذهني أن يكون حديث ذكريات عن أساتذة عظام حتى إن خالفتهم في الرأي. . ولكنني سرت وراء فكرة القانون. ربما لأنها ناقصة في حياتنا. . أو لأنها غير مفهومة على وجهها الحقيقي. ولكنني قبل أن أستطرد وراء فكرة القانون أستأذن في رواية الذكرى القانونية الوحيدة بعد تفرغي للصحافة. . .

كان المرحوم عبد الرزاق السنهوري باشا أكبر عقل قانوني أنتجه العالم العربي في هذا القرن بغير شك. ولم ألحق به تلميذاً في كلية الحقوق. وإن كانت كتبه ظلت هي الأساس في مجال كتب فيه، وإذا كانت شهرته في القانون عالمية، فإنني كنت أراه من أفصح من كتبوا باللغة العربية. فكانت كتاباته القانونية من أرقى الكتابات الأدبية في تقديري.

ولم أكن ـ على البعد طبعاً ـ من المعجبين بدوره في الحياة العامة، سواء في آرائه في التعليم كوكيل لوزارة المعارف، أو لتعاطفه مع أحزاب الأقلية ضد حزب الوفد.

فلما تأسس مجلس الدولة لأول مرة، وكان أول رئيس له، قبل ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ بسنتين تقريباً، صار بطلاً قومياً لدى كل فئات الشعب في مصر. كانت المعركة السياسية على أشدها قبل الثورة، وكانت معظم المواجهات السياسية تنتهي إلى مجلس الدولة، وكان يصدر أحكاماً قضائية بلغت القمة في شجاعتها، ونزاهتها، ودقتها في مراعاة القانون، وعمقها في تطبيق «روح القانون»، وهو الأصعب والأهم. كانت رئاسة مجلس الدولة إحدى التحولات الكبرى في حياة مصر قبل الثورة.

وبعد الثورة، اقترب منه منصب أول رئيس لجمهورية مصر اقتراباً شديداً. ولكن تقلبات الثورات في أيامها الأولى عصفت به. وانتهى معزولاً، معتزلاً جالساً في بيته، غير مسموح حتى بذكر اسمه في صحيفة.

وكنت كاتباً صحفياً مبتدئاً. وذات يوم اتصل بي المستشار المرحوم زكي بك حسين وكان صديقاً لأبي. وقال لي إنه جاء ذكري في حديث مع السنهوري، وإنه أبدى إعجاباً بما أكتبه كاسم جديد. وإنه يحب أن يراني. وكان الرجل وقد انسحبت عنه الأضواء لا يزور ولا يزار.

ووجدت في ذلك تشريفاً عظيماً. . .

وذهبت لجلسة هادئة في بيته في مصر الجديدة، كان لها على وقع التنويم المغناطيسي. واتفقنا على أن أزوره عصر كل خميس. وقد واظبت على ذلك حتى سافر في مهمة حين استعانت به حكومة الكويت.

ذكرت هذه الواقعة، لأنني لم أر في حياتي رجلاً تجسدت فيه روح القانون مثل السنهوري. لست أتحدث هنا عن علمه ومؤلفاته وآثاره، ولا حتى عن الحوار معه حين يكون حول القضايا الجدية. ولكن، حتى حين يكون الحديث حول أبسط الأشياء اليومية، يشعر المرء أن هذا الرجل قد «تشرب» روح القانون، حتى عقله لا يتحرك ويعمل في الصغيرة والكبيرة إلا وقد نهل من هذا المنبع. كان قد ترك الدنيا والسياسة وعواطفها وانفعالاتها وصار عقلاً خالصاً وضميراً خالصاً. أي حكاية يأتي ذكرها، لا تلبث إذا علق عليها أن تجدها وكأنها كانت كومة من الأشياء وقد انتظمت فجأة ووضعت كل جزئية في مكانها بسحر ساحر.

وكان رحمه الله يحثني وقتها على ترك الصحافة التي لم أبدأها إلا من قريب، بعد أن عرف مني أنني سجلت رسالة دكتوراه في السوربون في باريس، عن مرحلة من تاريخ مصر السياسي، وكان ميله الغريزي إلى أن بحثاً طويلاً ممتعاً هو أعظم شيء. ولكن التيار جرفني إلى مجرى الصحافة بغير رجعة...

وما أقل ما نختار ما نفعله في هذه الحياة...

ولكن.. ماذا عن القانون وعن روح القانون؟

كنا نظن في بدء دراسة القانون أنه نصوص، وأن الدنيا تتغير بتغيير النصوص. العدل يُسن بقانون، الظلم يزول بقانون. الخطأ يحدد بقانون. والصواب يحدد بقانون.

كلا...

علمتنا الأيام، وعلمنا الأساتذة الكبار، أن القانون شيء غير هذا، شيء أعمق وأبعد من هذا بكثير.

القانون الجدير بهذا الاسم هو المعبر حقاً عن روح المجتمع، الصاعد من أعماقه، تماماً كالتعبير الفني حين يكون صادقاً..

بدليل أن هناك مجتمعاً فيه قانون غير مكتوب «عادة» أو تقليداً، يعيش قروناً محل احترام الناس ومراعاتهم.

في حين أن هناك قانوناً يحمل كل أنواع الأختام، ختم حاكم أو ختم برلمان، ولكنه لا يحظى بأي اعتراف أو احترام من الناس، حتى من يوم صدوره.

ليست كل ورقة تحمل سلطة تشريعية أو تنفيذية، قانوناً بهذا المعنى.

قانون بمعنى الفرض، نعم.

قانون بمعنى قرار السلطة، نعم.

ولكنه ليس قانوناً بمعنى تعبيره عن روح المجتمع، واتساعه لرغباته وأمنياته، وتجاوبه مع أفئدة الناس في هذا المجتمع.

لذلك نرى أحياناً قوانين تهطل كالمطر، لكن سرعان ما تجففها الشمس، وتمسحها الرياح...

ونرى قناعات الناس في تصرفاتهم، تسير في مسالك أخرى تماماً...

ونرى قوانين تنقل من الكتب، أو تؤخذ من بلاد شتى متنافرة، كمن ينتقي أصنافاً من دكان العطار، ولكنها تبقى غريبة.

هل تزرع شجرة بلاستيك مصطنعة، وتثمر؟

مستحيل.

هل تزرع شجرة حقيقية في أي مكان؟ إن كل نبتة لها بيئة وطقس،عليها بالعقم أو بالإثمار.

كذلك القانون...

منذ أسابيع، انشغلت إنجلترا بقصة طريفة.

سيدة تملك فندقاً صغيراً في إنجلترا على شاطىء البحر، وذات يوم جاءها الصياد الذي يبيع لها السمك عادة، يحمل خبراً مثيراً: إنه اصطاد سمكة من نوع «السترجون» وهو السمك الذي ينتج الكافيار. ذلك أن هذا السمك لا يوجد في بحار إنجلترا عادة. اللهم إلا نادراً جداً وكأنها سمكة ضلت طريقها. ولا يحدث هذا إلا مرة كل عدة سنوات.

واشترت السيدة السمكة، وأعلنت عن وليمة عشاء لنزلاء الفندق والبارزين في القرية الصغيرة. وإذا برجل عجوز من المدعوين يقول لها إن هناك قانوناً منذ القرن السادس عشر يقضي بأن أي سمكة من هذا النوع يتم صيدها تكون ملكاً لملك إنجلترا!

وأسقط في يد السيدة. واتصلت تليفونياً بموظف في قصر ملكة إنجلترا تسأله، فقال لها نعم إن هناك قانوناً موجوداً بهذا المعنى، وما يزال سارياً. ولكنه لا يظن أن الملكة ستطالب بالسمكة.

ولكن السيدة ألغت العشاء. وحملت السمكة في أحسن وعاء لديها وركبت القطار إلى لندن. وهناك توجهت إلى قصر بكنجهام حيث أصرت على تسليم السمكة للملكة. وطاردتها الصحف حين علمت بالقصة، فقالت إنها سعيدة جداً.

قانون سخيف طبعاً.

وحين صدر كان صورة لظلم القرون الوسطى وعصر امتيازات النبلاء . . .

ولكن مع الزمن، وتطور النظام في إنجلترا، وإحساس تلك السيدة بأن قوانين بلدها بوجه عام تعبر عنها، وتتسع لمشاعرها، وجدت سعادة في تنفيذ قانون ميت، حتى لو سخرت منها الصحف والناس.

لم تكن بذلك تنفذ قانوناً أو تخشى عقاباً. كانت تعبّر عن ذاتها من خلال بناء عام تشعر أنه يعبر عنها. وهذا هو القانون.

٦ ـ الصحفي.. على الهامش(*)

السفر للصحفي كالخبز للمعدة الخاوية. ورغم إدماني القراءة، إلا أن سفراً واحداً يعادل قراءة عشرة كتب..

وكان السفر للصحفي يعد مثيراً، إذا حفل بشيء مثير، حتى ولو كان مفزعاً، أول الأمر.. ولا يوجد صحفي جاب العالم إلا وفي حقيبته آلاف الذكريات..

وأحياناً تكون اللحظة التي يمر بها الصحفي قاسية، ولكنها تصبح بعد ذلك ذكرى تثير الابتسام، ربما لأن جزءاً من مشكلة الصحفي في حياته أنه محل «شبهة» دائماً، وأنه صيد سهل اتهامه وأخذه أحياناً بذنب غيره.

وتحضرني اليوم ذكرى حادثين، لم يبق منهما في نفسي حقاً إلا مجرد الذكرى. فأنا ـ لحسن الحظ ـ لست من الصحفيين المكافحين المناضلين، الذين عرفوا السجون والمعتقلات، لأن نشاطي دائماً في حدود «الكلمة» التي يمكن نشرها أو صنعها، وكفى الله المؤمنين شر القتال!

ولكني اعتُقلت ليلة في المغرب! وكدت مرة في الخرطوم!

كنت في الجزائر، عندما ذهب عبد الناصر إليها أول مرة بعد الاستقلال أشهد الحدث التاريخي. وكان هناك كل زعماء شمال أفريقيا تقريباً.. وبينهم كان المرحوم الشهيد المهدي بن بركة، الزعيم المغربي المعروف، وكان صديقاً عزيزاً..

وقال لي: «عندنا انتخابات عامة في المغرب ـ حوالى سنة ١٩٦٢ إن لم تخنّي الذاكرة، وأنت لم تزر المغرب، فلماذا لا تأتي لترى الانتخابات. وفي جولة الانتخابات ترى المغرب كله».

(*) الجمهورية، ١٩٨٢/٣/٤.

ووافقت، وعرض نفس العرض على صحفيين مصريين غيري. فقبله مثلي الزميل الصحفي المعروف لطفي الخولي..

وسافرنا معه إلى المغرب. وفي سيارته التي يقودها شبابه ونشاطه المتفجر طفنا المغرب كله تقريباً ـ الجبال والوهاد، المدن والقرى، نشهد الاجتماعات العامة لشتى الأحزاب وننتهز الفرصة في نفس الوقت لنرى معالم تلك البلاد البالغة الروعة والجمال الحافلة بالتاريخ، خصوصاً مدينة «فاس» التي رأيت فيها أجمل بيوت عربية قديمة مسكونة حتى الآن..

وكانت نهاية الرحلة مع نهاية الحملة الانتخابية ختمناها أنا وصديقي في الدار البيضاء، في رعاية الزعيم عبد الرحمن اليوسفي والدكتور بن جلون. ومن هناك حجزنا مقعدين على الطائرة المسافرة إلى مدريد.

وكان أصدقاؤنا كلهم مشغولين بالحملة الانتخابية التي كانت عصر ذلك اليوم في ساعاتها الأخيرة. فرجوناهم أن يتركونا وسنذهب من الفندق إلى المطار بمفردنا..

وفي هذه المرحلة الفاصلة ـ التي لا يمكن فيها إثبات أننا بقينا في المغرب أو سافرنا إلى مدريد ـ هبط علينا البوليس السري. وأعلننا أننا مقبوض علينا. وتساءلنا عن التهمة الموجهة إلينا فلم نجد إجابة. إنما وضعنا نحن الاثنين ومعنا ثلاثة من الحرس المسلح بالمسدسات وحقائبنا، في سيارة انطلقت بنا فوراً من الدار البيضاء إلى الرباط..

ونزل الليل علينا في رحلة الثلاث ساعات بالسيارة، المسرعة، ونحن نحاول عبثاً أن ندخل مع حراسنا أو خاطفينا بالأصح، في أي حوار.

ووصلنا إلى الرباط حوالى التاسعة ليلاً، وكان واضحاً أنه لا توجد تعليمات واضحة بشأننا، فقد مرت بنا السيارة في الليل البهيم بشتى شوارع الرباط، وكانت تتوقف عند بيوت يبدو منها أنها لبعض المسؤولين، يدخلون إليها، ويتغيبون زمناً، ثم يعودون ويذهبون بنا إلى بيت مسؤول آخر..

وكان زميلي من معتادي السجون السياسية. أما أنا فقد كان يفزعني ساعتها أمران: الأول أنه واضح أننا في قبضة طيب الذكر الجنرال أوفقير بشهرته الواسعة، والثاني والأهم أننا خطفنا بطريقة لا يمكن أن يعرف أحد بها شيئاً عن مصيرنا، بل وأن يستفسر عنا أحد قبل أيام..

وانتهى الأمر بنا إلى مبنى كبير، لا شك أنه من مباني الأمن الكبرى. وأدخلونا غرفة عادية صغيرة باستثناء أنها عارية تماماً من أي أثاث، وأن في سقفها مصباحاً كهربائياً قوياً جداً. وقالوا لنا: «ستقضيان الليلة هنا. ثم نرى في الصباح»!

لا مقعد، لا حشية على الأرض،.. كلا، إذن لقمة عيش أو فنجان شاي، لا يوجد.. طيب، أطفئوا النور القوي لنحاول النوم، كلا. طيب، اتركونا وأغلقوا علينا الباب كلا. سنقضي الليل نحن الثلاثة معكم!

ولا شك أنها كانت أطول ليلة في حياتي.. وأرجو أن تبقى كذلك! جالساً ـ على

الأرض، ومعنا ثلاثة لا نعرفهم والضـوء قوي، والحجـرة ليس فيها ولا نـافذة، وحتى جـرعة الماء غير متوفرة، لا نعرف هل مضى الليل أو اقترب الصباح إلا من ساعاتنا. .

وعرفنا من ساعاتنا أنها صارت الحادية عشرة صباحاً إذ فُتح الباب، وأخـذونا في حـالة يرثى لها إلى مكتب مدير كبير، رحب بنا، وأمر لنا بفنجـان شاي، وأبلغنـا أنه تقـرر تسليمنا إلى السفارة المصرية وأن الاتفاق أن نلازم حجـرة في فندق صغـير ملاصق للسفـارة لا نتصل بمخلوق حتى فجر اليوم التالي، فيأخذنا الحراس إلى طائرة مسافرة إلى مدريد. .

ولم يزايلنا الخوف والحذر حتى وصلنا مدريد!

وبعد سنوات أخرى، انتحر المرحوم بن بركة كما نعرف على يد الجنرال أوفقير!

وبعد سنوات أخـرى، انتحر الجنـرال أوفقير، عنـدما ثبت أنـه ـ وهو حـارس الأمن ـ اشترك في محاولة انقلاب ضد الملك!

المرة الثانية ـ بالنسبة لي ـ في الخرطوم!

كان ذلك أيام حكم الأحزاب بعد الإطاحة بالجنـرال عبود. وكـان اسماعيـل الأزهري رئيسـاً للجمهوريـة والصادق المهـدي رئيساً لحكـومة ائتـلافية. ولكن الائتـلاف قد تمـزق. . والبلاد على شفا انقلاب آخر. .

ووصلت مطار الخرطوم عند الفجر، بدعـوة من رئيس الوزراء الـذي كان ومـا يزال ـ من ناحيتي ـ صديقاً أحترم فكره وقدراته السياسية. .

فلم أعرف ماذا أفعل. تليفونات الرئاسة لا تـرد. لأن الكل مشغـول. هل الليـاقة أن أذهب في الموعد وأعطّل رئيس الدولة في هذا اليوم العسير، أم أن لا أذهب على الإطلاق؟

وقررت الذهاب، والاعتذار من باب القصر الجمهوري. .

وذهبت إلى القصر الجمهـوري في الخـرطـوم، لا أحـد عـلى البـاب حتى ولا جنـدي حراسة. ودخلت، أفتح الأبواب لأجد أحداً أعتذر له وأنصرف. لا أحد، البلد كله في حالة غير طبيعية. .

وصعدت إلى الطابق الثـاني، دون أن يصادفني أحـد، حتى وجدت في أحـد الردهـات فرّاشاً سألته عن رئيس الجمهورية، فأدخلني حجرة. .

وجلست، وبعـد دقائق جـاء الـرجـل الـطيب اسـماعيـل الأزهـري عليـه رحمة الله، واعتذرت له. واعتذر لي، وحاول أن يكون مجاملاً، ولكنني شكرته. وقلت له إنني باقٍ أيامـاً أخرى. فلعلي أراه في وقت أهدأ، وانصرفت. .

والطريق من القصر الجمهوري إلى فنـدق الجرانـد أوتيل عـلى شاطىء النيـل قريب. . وسرت عـلى قدمي أتـأمل المـوقف وإذا بباعـة الصحف يتصـايحـون عـلى ملحق من جـريـدة **«الصحافة»**. .

واشتريته فوراً، وإذا بي أجد مانشيتات حمراء، تقول إنه ظهر أن محاولة الانقلاب مصرية، وإنه قبض على وكيل بنك مصر في الخرطوم (الوزير أحمد عبد الحليم بعد ذلك) وعلى عدد من الضباط (كان الرئيس النميري بينهم)، وإن الكاتب المصري المعروف أحمد بهاء الدين هو الذي وصل فجر أمس حاملاً تعليمات المؤامرة وإن البحث جارٍ للقبض عليه.

وأسرعت إلى الفندق. ووجدت عشرات الأصدقاء من الساسة السودانيين في انتظاري. وقد ظنوا أن عدم وجودي أنه قبض علي فعلاً، وكان قد عُرف أن القصة ملفقة وأن فئة من الناس تريد لأسباب سياسية إلصاقها بمصر..

وقلت لهم إنني كنت عند رئيس الجمهورية. ولكنهم قالوا إن أمر القبض صدر من أحد وكلاء الداخلية فعلاً.. وإني صحيح بريء ولكن قد يمر شهر حتى تثبت براءتي. وإن المسألة كلها سياسية. ولا داعي لأن أكون كبش فداء فيها..

ما الحل إذن؟

قالوا إنهم جاؤوا من السيد الشريف الهندي ـ نائب رئيس الوزراء، ونائب رئيس حزب الأزهري في ذلك الوقت ـ لكي يأخذوني إلى بيته، حيث أكون في أمان، إلى أن تنجلي الأزمة السياسية!

وكان رمضان.

وأخذوني إلى بيت نائب رئيس الوزراء، الذي أكرم وفادتي طوال اليوم، وكان قد أجرى الاتصالات اللازمة..

وجلسنا الساعة التاسعة ليلاً حول التليفزيون إذ كان السيد الصادق المهدي رئيس الوزراء سيعقد مؤتمراً صحفياً..

وكما كان مرتباً.. سئل رئيس الوزراء عن التهمة الموجهة لي، فقال في التليفزيون إن الخبر غير صحيح، وإنه تحرى الأمر بنفسه وألغى الأمر الذي صدر عن وكيل وزارة الداخلية..

ثم أذاع التليفزيون بلاغاً بأنني وقت الاتهام كنت في زيارة لرئيس الجمهورية..

وانتهت الأزمة.. بالنسبة لي..

واتصل بي المرحوم محمد أحمد محجوب، وقد عرف مكاني، سائلاً: إلى الفندق؟

قلت له: كلا، إلى المطار!

حكايات بسيطة، لا تقاس أحياناً إلى أوجاع الكاتب المطلق السراح!

وقال لي مستقبلي: إلى البرلمان رأساً! فاليوم يوم صدام رهيب هناك! ولا أحد يعرف ما سيحدث..

وكصحفي، ذهبت بحقائبي من المطار إلى البرلمان!

وكانت جلسة قصيرة جداً، فالمحكمة حكمت بصحة عضوية الأعضاء الشيوعيين وقد قرروا الذهاب ودخول المجلس عنوة، والبرلمان يرى أنه سيد نفسه، وقد فصل الأعضاء ولا توجد محكمة من حقها إعادتهم..

وقد حشدت كل القوى السياسية جماهيرها حول البرلمان، والموقف على شفا حرب أهلية..

ولن أصف الجلسة، فتلك قصة أخرى. ولكنني قضيت بقية اليوم أقابل كل السياسيين.. فأنا ضيف رئيس الوزراء..: والحياة السياسية حرة ورحبة، وحقي بل واجبي كصحفي أن أقابل الجميع..

وأويت آخر الليل في فراشي، في حجرة بعيدة في أحد ملاحق فندق «الجراند أوتيل» الشهير!

ومع الفجر أيقظني تليفون يقول لي إفتح الراديو.. ووجدت الراديو يذيع بياناً رسمياً أنه جرت محاولة انقلاب عسكري ليلاً، وأنها أحبطت، مع إعلان حالة الطوارىء.

وأصبحت الخرطوم على جو رعب غير عادي، وكان عندي موعد مع رئيس الجمهورية في قصر الرئاسة.

٧ ـ ظاهرة «أخبار اليوم»
. . وشباب الصحافة(*)

أخبار اليوم، في حياتي الشخصية، أثر لا أنساه، فقد كنت في الثانية والثلاثين من عمري عندما عرض علي المرحوم علي أمين والأستاذ مصطفى أمين منصب رئيس تحرير فيها. رغم أنني لست من أبنائها ولا الذين عملوا منذ بداية حياتهم بها. وكان هذا، من الناحية الصحفية، أهم عمل توليته واستمتعت به مهنياً في حياتي الصحفية كلها. وكان ذلك قبل تأميم الصحف، وعندما كان أصحاب الصحف يتنافسون في كسب ما يرون أنه العنصر الصحفي الجيد.

وقد مكنني هذا من أن أقول لأكبر رأس في الدولة، ذات يوم، إنني أرفض قرار نقلي؛ فأنا لست من الذين «اخترعتموهم» ومن حقكم تحريكهم كما تشاؤون وإنما كسبت مكاني بتقدير أهل المهنة لي بكل حرية، وسأبحث عن الجريدة التي تقبل أن أعمل بها! وليس هذا بالشأن الهين في حياة الصحفي أو صاحب القلم.

وحين أضرب المثل بنفسي، فلكي أبرهن به على حقيقة من الحقائق التي أضافتها أخبار اليوم إلى الصحافة المصرية. .

فهذه الواقعة، تعبر عن حقيقة أكبر، وكما أن أصحاب أخبار اليوم كانوا يتميزون بتشجيع الشباب، وإعطاء أكبر الفرص لمن يرون أن لديهم احتمال موهبة، حتى ولو خالفوهما في الرأي السياسي، وقد كنت أخالفهما في الرأي السياسي، ولكنهما وضعاني في أعلى المناصب التحريرية في المؤسسة، وبحرية كاملة في الكتابة وإصدار الجريدة.

اكتشاف العناصر الجديدة وإعطاؤها الفرصة كاملة، هو أوكسجين الصحافة المصرية، وقد بدأت الصحافة المصرية في الاختناق، منذ سادت فيها قيم أخرى تقوم على «ضرب»

(*) الأخبار، ١٠/١١/١٩٨٤

المواهب الصحفية حتى لا تكبر، ووضع العراقيل في وجه الشباب حتى لا ينافس الجالسين على المقاعد..

كانت أخبار اليوم تضع أصغر الأسماء إلى جانب أكبر الأسماء لديها، إذا وجدت فيها جدارة، وإذا كانت المادة التي يكتبونها تستحق ذلك. كانت تهتم بتحويل محرريها إلى نجوم، وبزيادة عدد من لديها من نجوم، وليس طمس النجوم النيّرة من الكفاءات الجديدة، إدراكاً منها أن الصحافة الحديثة لا يصنعها رئيس تحرير بمفرده ولا كاتب واحد ولا خبر واحد، كما كان الأمر قديماً، إنما يصنع الصحيفة الناجحة «أوركسترا» ضخم من العازفين المتفوقين.

ـ وإن كنت لم أحضر ذلك العهد إلا أنني أعرف أن أخبار اليوم هي المؤسسة التي رفعت مستوى الصحفي مادياً وأدبياً، فقد صارت لهم مرتبات كبيرة، وتسهيلات كثيرة، تجعل الصحفي المؤهل لذلك نداً للوزير والسفير والأمير. ولم يكن الأمر كذلك قبل أخبار اليوم..

ـ وكانت أخبار اليوم أول مؤسسة صحفية ترسل محرريها وكتابها إلى أنحاء العالم، وبالتالي تنقل أخبار وأحوال العالم إلى القارىء المصري، بعد أن كانت الصحافة لا تعرف إلا وكالات الأنباء. أخبار اليوم جعلت الصحفي المصري يطير لأول مرة إلى مواقع الأحداث في القارات الخمس. فنقلت الصحفي والقارىء من المحلية إلى العالمية.

ـ وجاء وقت ـ شهدناه ـ قلّدت فيه كل الصحف أخبار اليوم في هذا ونافستها فيه. ولكن هذا تقهقر وعدنا إلى الانفلات.. وأسأل نفسي: أي جريدة أرسلت مراسلاً ومصوراً إلى بولندا أيام أحداثها الكبرى؟ أو إلى إيران في الشهور الأولى من ثورتها؟ أو إلى تشاد؟.. أو إلى بيروت سابقاً وطرابلس حالياً؟.. أو إلى مظاهرات أوروبا ضد نشر الصواريخ؟.. إلى آخره..

صار الصحفيون لدينا ـ بصراحة ـ لا يسافرون إلا في صحبة المسؤولين أو مع وفود رسمية من الوزارات أو مجلس الشعب أو مجلس الشورى، وعلى حساب هذه الجهات لا على حساب جريدتهم، وفي رحلات روتينية، وبالتالي يكون السفر للتطبيل والتزمير لأصحاب الدعوة، لا للخدمة الصحفية.. أو أن يسافر الصحفيون بدعوات من البلاد، التي تقع فيها أحداث ما وتريد عرض وجهة نظرها. وهذه أمور غير «المبادرة الصحفية الذاتية» التي تختار المكان والزمان والرأي!..

ـ وقد وسعت أخبار اليوم دائرة «قراء الصحف» في مصر، سواء بما يراه البعض إثارة صحفية أو باهتمامها بما يهم الناس.. بدءاً من إحضار أشهر فرق كرة القدم في العالم لتلعب في مصر إلى الاهتمام بالحياة اليومية للمواطن. هذه صحافة شعبية لكم. ولكنها لون أساسي مطلوب في كل بلد قارىء.

قال «فان كريستيانسد» رئيس تحرير الديلي اكسبريس العتيدة، في كتابه **مانشيتات طول العمر** *Headlines All My Life*: إنه كان حين يرى المواطن الجالس في سكون في حديقة

هايد بارك، يحس أن عليه أن يهز كتفه ويقول له: تيقظ! لقد حدث أمس كذا وكذا وكذا! وقد قامت أخبار اليوم بهذا الدور. وهو «هز أكتاف» مئات الآلاف، لمن لم تكن قراءة الصحف من عاداتهم. وتوسيع سوق القراءة انعكس على توزيع الصحف جميعاً، بعد أن كانت قراءة الصحف قاصرة على النخبة وموظفي الحكومة لمعرفة أخبار التنقلات والترقيات فحسب!

ـ أدخلت أخبار اليوم مبدأ وضع عروش ثابتة لكبار الكتّاب، مهما بلغوا من العمر أو مهما قلّ عطاؤهم وفاء من القراء ببعض الدين نحو الذين يفنون حياتهم في الفكر ونشر التنوير للآخرين.

عرفت مرة، من صاحب أحد المكتبات، أن المرحوم عباس محمود العقاد، يبيع بعض كتب مكتبته الخاصة سراً، لكي يعيش. وكان ذلك في الستينات، ولم يكن لدى العقاد أي عمل، وحدثت مصطفى وعلي أمين في الأمر، وطلبت منهما تعيين العقاد، فوراً، بمرتب يليق به في أخبار اليوم، حتى ولو لم يكتب حرفاً. ودهش مصطفى وعلي أمين من القصة. وقاما بذلك على الفور، دون أن يعرف العقاد السبب، وهو رجل شديد الكبرياء. ولذلك صمم على أن يكتب مقابل مرتبه. وظل يكتب كلّما وافته صحته حتى مات.

وأكتفي بهذا القدر، لأنني أكتب هذا الكلام على عجل، وأنا في فراش المرض، وممنوع من القيام بأي جهد!

٨ ـ خصوصيات(*)

ـ ١ ـ

خرجت زوجتي من بيت أهلها ببلوزة وجونلة عليها فقط. فقد كان أهلها ضد زواجنا، لاختلاف الدين. وهو سبب وجيه أفهمه جيداً. وهكذا كان علينا أن نواجه الحياة بقروش عملنا القليلة.

ولم يكن عملي نفسي قليلاً. . ففي نفس الشهر الذي تزوجت فيه. . توليت أكبر منصب صحفي في مصر، رئاسة تحرير أخبار اليوم، في ذلك الوقت! ولكن هذا لم يكن يترجم أي رصيد مالي لدي. .

هكذا لم أكن قد تمكنت من الاستعداد لهذا الموقف إلا بشقة (بالإيجار طبعاً، أيام كان هناك إيجار) من حجرة واحدة، وصالة ومطبخ! ولكنها كانت شقة جميلة. . في الدور الأخير من عمارة نظيفة (أيام كانت العمارات نظيفة) تطل على حدائق واسعة لقصور الأغنياء كأنها «كابينة» ذات فرندات متعلقة على ارتفاع كبير (قبل ظهور الأبراج القبيحة).

وكان في الحجرة الوحيدة دولاب حائط (بلاكار) فاشتريت سريراً! وبعد شهور كان في الصالة: مكتب صغير، ورفوف كتب قليلة، و«ركن» صغير من مقاعد خفيفة الوزن. . ولوحات على الجدران!

وبعد شهور أخرى، عندما اقترب مولد ابنتي، بدأنا البحث عن شقة أكبر. وكنت في أمريكا حين عثرت زوجتي على شقة غالية (بالإيجار أيضاً بالطبع): أربع حجرات وصالة. أربع حجرات وصالة. يا للهول! ماذا نفعل في هذا «الملعب» الواسع الخالي!

(*) نصف الدنيا (شباط/ فبراير ١٩٩٠).

قررنا أن نعيش بما لدينا. نقلنا ما لدينا من أثاث الحجرة الواحدة والصالة (والدولاب تابع للشقة فلن نأخذه معنا)، وتركنا باقي أرجاء شقة الحجرات الأربع والصالة خالية، أو بمعنى أصح أغلقناها على فراغها. وعشنا في حجرة وصالة فقط، بالأثاث الذي عندنا. وقررنا أن نفرش الشقة الجديدة على مهل (أي على سنوات طويلة!) وهي نفس الشقة «المزدحمة» التي أعيش فيها حتى الآن. . . منذ ثلاثين سنة!

وتعلّمت «فن الديكور». .

ليسمح لي القارىء والقارئة أن أقول إنني نشأت وعندي ميول فنية وحاسة تذوق فني لا بأس بها. وفي كل حياتي، وأشيائي، وأصحابي، يأتي «الذوق» عندي أولاً، لا القوة ولا المال ولا الأبهة. . خصوصاً إذا كانت غير جميلة. . أحب أن أحيط نفسي بالجمال لا بالعظمة ولا القوة ولا المال. . مما أعتبره صفات أقل أهمية. . وفي مقدور أي إنسان. . بالعكس الذوق الذي لا يستطيع أن يملكه كل إنسان. وأتباهى بالجميل مهما كان بسيطاً. فالقيمة هي الجمال!

وهكذا تعلمت فن الأثاث والديكور. فالأثاث فن جميل. جماله في ذوقه وليس في ثمنه. ولذلك أرتعد حين أرى في إعلانات محلات الأثاث أو بعض البيوت والمكاتب مقاعد في حجم الأفيال! ودواليب وأرائك في قبح الديناصورات في عصر يتجه فيه حجم الشقق ـ في العالم كله ـ إلى الصغر. .

. . . هكذا، انتقينا أثاث بيتنا عبر السنين، قطعة قطعة. . . من محلات الأثاث القديم! وغيّرنا وبدّلنا في هندسة الشقة من هدم جدران وإزالة حوائط، وتوسيع مساحات، ليكون المشهد العام أكثر بهجة، ولتكون الجدران أقل تسلطاً وقسوة. .

ثم عرفت الطريق إلى أعظم سوق للأثاث القديم في مصر: حي «العطارين» في الاسكندرية. . وصرت أذهب من حين لآخر إلى الاسكندرية لأقضي وقتي كله فيه، أقلب الأشياء حتى أصغر فانوس قديم كان في بيت عمدة في الريف، وعرفت أصحاب الدكاكين، وصادقتهم، وسهرت في محلاتهم أشرب معهم القهوة، وأتفرج على الزبائن. . الذين كانوا كلهم مع الأسف خواجات، ودبلوماسيين أجانب. .

ولا أريد أن أتكلم كالعجائز عن أيام «كانت البيضة بمليم». فأنا أتحدث عن زمن ليس بعيداً بهذا الشكل. . ولكن المكتب الفرنسي الصنع الذي أستعمله في البيت اشتريته بأربعين جنيهاً. . والكرسي الإنجليزي طراز «كوين آن» عشرون جنيهاً، والمكتبة الإنكليزية الصنع (نسيت اسم طرازها الجميل) مائة جنيه: عمارة جميلة من الخشب!. . وهكذا. .

طبعاً الأسعار تضاعفت. وهذه الأشياء صارت قليلة نادرة. ولكن العبرة أو التجربة ما زالت ممكنة ومستمرة: أن ينتقي الشباب عفش شقتهم قطعة قطعة! ولو على سنوات! إنها رحلة من أجمل ما يكون. وأن يكون «الذوق الخاص» هو المعيار الوحيد، وليس الذوق الذي أراه في مسلسلات التليفزيون وإعلانات الأثاث!

ما أكثر ما يفزعني أن أزور بيتاً فأجد في حجرة صالون صغيرة ثلاثة أفيال مكومة مذهبة متزاحمة لا تفسح مجالاً لزائر ولا حتى لقط صغير أن يتحرك فيها! ما أشد ما أكره «المذهب» الذي صنع للقصور الواسعة الجنبات العالية السقوف! ويتشدق المقلدون بأن هذا لويس السادس عشر وذاك لويس الرابع عشر، وهو لا هذا ولا ذاك وقد سماه الخبراء الأجانب «لويس فاروق» من باب السخرية!

وفي دمياط قلت لمستورد عن تشجيع صناعة الأثاث إنه لا مستقبل لها في مدينة الأثاث.. والمقعد الواحد الضخم السميك البليد فيه من الخشب ما يصنع غرفة صالون كاملة من الطرازات الحديثة الصغيرة.. وبالتالي فثمنها باهظ وتحريكها مرهق وحجمها خانق في البيت الحديث!.. ومستقبل المدينة مرهون بتبني طرازات خفيفة، حديثة، رشيقة، تناسب شقة العصر.. واذهبوا إلى إيطاليا القريبة وشاهدوا الطرازات السائدة التي تغزو العالم!

كل إنسان يفترض أن له ذوقاً خاصاً.. عليه أن يهذبه ويرقي هذا الذوق ويفتح عينيه ليتأمل. وعليه أن يحتكم إلى ذوقه الخاص، لا إلى ذوق السينما والتليفزيون! وإلا يكون مقلداً!

روت لي السيدة فاطمة اليوسف أن المسرح زمان كان يستعير المشاهد من محلات صنع الأثاث، ويوضع اسم المحل على خشبة المسرح، مجاناً وببلاش، لأن الجمهور كان يرى غرفة نوم «غادة الكاميليا» على المسرح فيهرع إلى المحل صانع الأثاث ويطلب شراء نفس الحجرة.. فهو مكسب للنجار ولصاحب المحل. ولكنه يدل على روح التقليد وانعدام روح «الذوق الخاص» ببساطة!

وقد كتبت مرة أنتقد ديكورات مسلسلات التليفزيون خصوصاً الإسراف في الألوان. وجاءني من قال لي إنه «مستشار الألوان» في التليفزيون وعجبت أن يكون للتليفزيون مستشار ألوان وتظهر المشاهد بهذا الشكل. فالمخرج أحياناً يجب أن يستعمل كل ما لديه من ألوان!.. في زحام شديد. وحين قال لي أحدهم إن الجمهور يحب ذلك أحلته إلى مسلسل إنجليزي كان يعرض في ذلك الوقت وكان نجاحه ساحقاً باسم «فوق وتحت» ,UP STAIRS .DOWN STAIRS، ولم يكن فيه من الألوان إلا البني والبيج، ومشتقاتهما لا غير.. لا في الأثاث ولا الملابس ولا الستائر ولا السجاجيد.. حتى يكاد يكون لوناً واحداً أو غير ملون.. ولكنه الانسجام المريح للعين والأعصاب!

ولكنني لاحظت أن أثاث البيت أو المكتب من أسهل المفاتيح لفهم «العقد النفسية» لأصحابها!..

فمن يجلس على كرسي عظيم الحجم واللون يحس أنه عظيم وهو ما يريده! ومن ينام في سرير مصنوع من التماثيل الخشبية المعقدة الضخمة يحس أنه دون جوان!.. ومن تصنع فراشها من الملائكة المجنحة تريد أن تشعر أنها غانية!

إلى مـا لا آخر لـه من المعاني. . التي يعـبر عنها «الـديكـور». . وأكـثر العقـد انتشـاراً استمرار خيال «القصور» وفرساي في الشقق الصغيرة! . .

فالجمال فيه عناصر التناسب بين المكان والزمان والحجم والاتساع والارتفـاع. . والقبح يمكن تعريفه بأنه انعدام التناسب! . .

وقد يكون للحديث بقية. . فالكلام عن الجمال بُحوره واسعة. . وما أغـلى الجمال حتى ولو كان ثمنه جنيهاً واحداً وما أرخص القبح حتى ولو كـان ثمنه مليوناً! ولا بـد من أحاديث أخرى أو رحلات أخرى في هذه البحار!

خصوصيات(*)

- ٢ -

كان صباح اليوم التالي لسفره ليس ككل صباح ولا ككل الأيام، رغم أنه لم يقض بيننا أكثر من ثلاثة شهور.

ذلك هو حفيدي الوحيد. رزقني الله به من ابنتي قبل تسعة شهور، هي سنّه الآن. ابنتي دبلوماسية تعيش في لندن مع زوجها الدبلوماسي. وقد زرته أنا كما زارته جدته في لندن. ولكن جدته ارتكبت ما أعتقد أنه غلطة. فقد جاءت به إلى القاهرة، حيث كانت أمه محتاجة للتفرغ لعملها ولدراسة الدكتوراه في لندن لبضعة شهور حرجة في الدراسة. مربية الأطفال هناك تأتي وقت الضرورة لتجلس مع الطفل كذا ساعة. والساعة بكذا جنيه استرليني مما تنوء به ميزانية زوج وزوجته في أول السلم.

لماذا كانت غلطة؟ لقد تعلق به الجد الذي هو أنا والجدة التي هي زوجتي، كما تعلق به قبل ذلك الأب والأم بالطبع، وكان تعلقنا به أكثر.

إنني لا أذكر بدقة طفولة ابني وابنتي. كنت شاباً وعلى الأغلب أنني كنت غارقاً في حياتي العامة منشغلاً عن حياتي الخاصة. وهو خطأ كبير ربما نرتكبه جميعاً، ولا أنسى يوم وصلت ابنتي إلى سن دخول الجامعة: كانت دراستها الابتدائية والثانوية فرنسية. وكنت أهوى وقتها حضور مزادات الكتب وشراء الكتب والطبعات القديمة والنادرة. فأخذت أشتري لها أمهات كتب الأدب الفرنسي والطبعات الخاصة: بلزاك كله في ثلاثة مجلدات، وأشياء من هذا القبيل، قائلاً لنفسي: ستقرؤها ليلى حين تكبر، ورسمت لها في ذهني أنها ستدخل - مثلاً - كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية: فلما نجحت في الثانوية العامة فاجأتني بأنها تريد أن تدرس الاقتصاد والتاريخ والعلوم السياسية في الجامعة الأمريكية.

(*) نصف الدنيا (٨ شباط/ فبراير ١٩٩١).

وسألتها: من أين لها هذه الاهتمامات؟ وهل دافعها لهذا الاختيار أنها حصلت على مجموع عال في الثانوية العامة، على غير توقع منا؟ وقالت لي ابنتي - ابنة الثمانية عشر عاماً وقتها: ولكن منذ متى وأنت تعرف ما هي اهتماماتي؟

وسكت بالطبع. ولكنني لم أنس هذه الكلمة قط، فقد عاشت ابنتي على مدى ثمانية عشر عاماً.. تقرأ بكثرة.. وبيتي مليء دائماً بكميات ضخمة من الصحف والمجلات الإنكليزية والفرنسية.. والسياسية والاقتصادية بالطبع.. ولم أنتبه إلى أنها كانت معرضة لكل هذا الجو. وانصرفت أركز على دراستها للأدب الفرنسي، ورسمت لها صورة في هذا الإطار! إلى هذا الحد يعيش أب مع ابنين فقط لا غير، ولد وبنت، ومع ذلك فهي على هذا البعد مني، لا أعرف اهتماماتها الحقيقية.

كثير منا يفعل ذلك دون وعي. لا يدرك أن أمنيته الحقيقية التي لا يعادلها شيء في الحياة هي ممارسة الأبوة، بل والغرق فيها. فهي أعظم سلوى في هذه الحياة المزدحمة المضطربة الشاقة!

ولكن شأني مع الطفل - الحفيد الأول - الذي أنجبته لي بعد عشر سنوات من هذا الحدث، كان شيئاً آخر..

كنت أعرف بالطبع المثل الشائع الذي يقول: «ما أعز من الولد.. إلا ولد الولد»..

ولكن الأمر في ما أتصور ليس مسألة من «أعز» ممن - الحفيد وقد تقدمت بنا السن عن زمن ولادة «الابن» بثلاثين سنة، في المتوسط. والإنسان في تصوري ترق مشاعره، ويتبين الأهم فالمهم أكثر من ذي قبل. كما يأخذ الناس في شبابهم بريق الحياة بالتصورات التي تناسب كل إنسان: واحد يطلب المال. آخر يطلب الشهرة. ثالث يطلب المجد. رابع يطلب السلطة والنفوذ.. إلى آخره. ولكن الإنسان بعد أن يخوض معاركه، ويجب أن يضع جانباً أسلحته، يتبين له أن «السعادة الشخصية» هي أغلى شيء في الحياة، وهي أهم مطالب الإنسان أو يجب أن تكون فيكون أكثر فرحاً بطفل جديد، وأن ابتسامة هذا الطفل لا يعادلها في الحياة شيء...

.. هكذا تعودنا - الجد والجدة - على وجود هذا الطفل في عمر تسعة شهور معنا.. أو بين سن ستة شهور وتسعة شهور.. وهو عمر من أجمل الأعمار. يخرج فيها الطفل من مرحلة مجرد الوجود وطلب الطعام إلى مرحلة التعرف إلى الأشياء والأشخاص.. وتتغير حتى عيناه من نظرة صامتة إلى نظرة شديدة التفرس في الأشياء.. شديدة التعبير.. إنه يحدثك ويبلغك رسائله وعواطفه وطلباته بلغة النظرة المتغيرة من نغمة إلى نغمة. ثم تجد نفسك تكتشف معه وبسببه أبسط الأشياء. فأي جديد من زهرة إلى طفاية سجاير جميلة.. إلى نبات منزلي، إلى تغير لون السماء.. كل شيء كنت تأخذه على أنه روتيني عادي، تعيد اكتشافه معه.. وتجد نفسك تجدد خلايا مخك.. لتبتكر له لعبة تسليه بها.. تفرحه.. تستخرج الابتسامة منه، ويصبح كل هدفك في الحياة هو هذه الابتسامة..

أما سائر معارك الحياة فهي تتزايد وتتباعد ولو لتلك اللحظات التي تلعبها معه . .

هكذا كانت صباح ما بعد سفره إلى لندن مع أمه غريباً . .

البيت ساكن. وقد كنت تسمع صوته في حجرته مطلقاً أي صوت فيه معنى النداء. وفي سن التسعة الشهور تكون للطفل حركة شديدة. فهو يجرب أيضاً صوته ويديه وقدميه والعبث بكل شيء، وتفكيك أي شيء.

وكان قد تعلم في ما تعلم أن نضعه في «مشاية» يجري بها في البيت. واكتشف يوماً «البيانو» عن طريق ابني ـ خاله ـ فصار يجري إلى البيانو. . ويشب على قدميه إلى أقصى طاقته ويمد يده أو أطراف أنامله حتى تصل إلى أصابع البيانو. . فيدق عليها بلا نظام بالطبع. . ويجري «بالمشاية» التي هو فيها من أول البيانو إلى آخره، يدق بكل يده على أصابع البيانو بأنغامها وأصواتها المتباينة. . محدثاً ضجيجاً لا نظام له. . وأصواتاً للبيانو لا نغمة لها. .

ولكن هذا الضجيج كان يقع على أذني موقعاً أجمل من سيمفونيات بيتهوفن، وتشايكوفسكي. . ما هذا الهدوء القاتل؟

ما أثقل الدنيا إذا لم يبق فيها إلا الكبار العقلاء المهذبون. . وما أجملها بطفل قليل العقل كثير الضجيج غير مبال بقواعد السلوك المهذب الوقور؟!

الفَصْلُ الثّانِي

العَرَبُ وَالعُروبَة

أحمد بهاء الدين وجوهر العروبة..

محمد الميلي(*)

(*) المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

عرفت أحمد بهاء الدين منذ اثنتين وثلاثين سنة. كان منذ ذلك الوقت قد شقّ طريقه في عالم الصحافة، وأصبح اسماً معروفاً في دنيا السياسة والمنتديات الفكرية.

كان أول ما لفت نظري في طريقة حواره، هو انصرافه رأساً إلى الجوهر وعدم الوقوف عند الشكليات. أذكر أني حضرت، على هامش إحدى الحفلات، نقاشاً جرى بينه وبين جان لاكوتور، في أروقة فندق «أليتي» بالجزائر إثر الاستقلال. كان الحديث يدور حول حرية الصحافة، والرقابة التي تمارسها سلطات البلدان المستقلة حديثاً على الصحف الأجنبية. وقد استرعى انتباهي أن أحمد بهاء الدين لمس جانباً مهماً في هذه المعضلة، كان قد خفي عن الذين كانوا يشاركون في النقاش.

كان مظهره الوديع اضافة إلى تواضعه الجم وحجمه الجسماني، لا يشعرك بأنك أمام شاب عميق التفكير، عقلاني التحليل، ثاقب النظر، خصوصاً وأنه من النوع الذي يقتصد في الكلام ويتجنّب الانجذاب نحو بهرجة اللفظ.

كان من الصنف الذي يجعلك تزداد حباً له كلما ازددت تعرفاً عليه. لم يكن من أولئك الذين يروق لهم أن يبرهنوا عن تفوقهم على محدثيهم، حديثاً أو تفكيراً أو كتابة، بل إنه كان، حتى وهو يحاول أن يبسط أمامك الحجج التي تدعم فكرته وترجح رأيه، يفعل ذلك بصيغة خجولة تخجلك، فلا تملك إلاّ أن تسلم بوجهة نظره، دون أن تحس بهزيمة.

وبقدر ما كان تفكيره السليم مجلبة للإعجاب كان معشره الودود واستقامته الخلقية مثار تقدير ومحبة؛ فكل من خلقه الرفيع وأسلوبه الهادىء يتعايشان في انسجام ووفاق، ويشكلان ذلك التوازن العجيب الذي عرفت به حياة أحمد بهاء الدين، سواء كان في بيته التي تضفي عليه قرينته ديزي بهجة خاصة، أو في مجمع أصدقائه وجلسائه حيث يتواجد أصناف مختلفة واتجاهات شتى، أو في الصحيفة التي يرأس تحريرها، أو المجلة التي يديرها، أو الجريدة التي يراسلها.

وكان في نقاشه مع زملائه من الصحافيين والكتاب، عرباً كانوا أو أجانب، يعبّر عن أعصاب هادئة ويستعمل أسلوب الإقناع الهادىء، فكان في كل حالاته ودوداً دون أن يداهن، يداري محاوره ويأخذ بخاطره، بشوشاً بصورة تدفعك إلى أن تنعت تمسكه برأيه، بكل شيء إلّا العناد.

* * *

تفتحت أعين أحمد بهاء الدين للحياة في نهاية الثلث الأول من هذا القرن. وهذا يعني أنه عاش طفولته في فترة خصبة بالتحوّلات الفكرية وما تولّدت عنه من مساءلة للماضي وإعادة النظر في بعض المسلمات. ولا شك أن ما اصطلح على تسميته بالصراع بين القديم والجديد قد ترك بصماته على التكوين الفكري لبهاء الدين تلميذاً وطالباً، أي طفلاً ومراهقاً.

ذلك أن ذهنه تفتح على التأثير الذي أحدثته مدرسة التنوير المصرية التي ساهم في وضع أسسها رجال أمثال أحمد لطفي السيد، وطه حسين، وعلي عبد الرزاق، وأحمد أمين، وعباس محمود العقاد... الخ، ذلك أن الشك كمنهج بحث الذي اعتمده طه حسين منذ بواكير انتاجه الفكري (في الشعر الجاهلي، وابن خلدون مثلاً) كان قد هزّ بعض المسلمات وجعل عدداً من المثقفين أكثر جرأة عندما يستنطقون الماضي أو يبحثون عن سبل تحقيق «النهضة».

وفي سياق المجهودات الرامية إلى إعادة النظر في عدد من المسلمات، وقع التوجه ليس فقط إلى تناول التراث بنظرة جديدة، بل ظهرت العناية بالتراث القديم كله عربياً كان أو غير عربي: فكان أن ترجمت أعمال أدبية من اليونانية، بعد أن جدّد أستاذ الجيل لطفي السيد الاهتمام بفكر أرسطو.

وشهدت الساحة الفكرية العربية، في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ألواناً من النقاش حول شروط وكيفيات اللحاق بالغرب المتقدم. وإذا كان قد بدا، بعض الوقت، أن هناك وفاقاً أدبياً على تناول قضايا العصر، عبر مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات، التي كانت تنشر في وقت واحد، لطه حسين، والعقاد، وأحمد أمين، ومصطفى صادق الرافعي، وعلي الطنطاوي، وتوفيق الحكيم، وأحمد زكي، ودريني خشبة... الخ، فإن ألوان اليقين المتعلقة بالتعامل مع الحداثة والتي استقرت على أنقاض بعض المسلمات التي اهتزت، قد تعرضت هي الأخرى، تحت ضغط الظرف السياسي لتساؤلات ومساءلات، أفضت إلى ظهور مدارس وأنماط جديدة من التفكير السياسي، ارتبطت بصور مختلفة مع القضية الفلسطينية وملابسات قيام دولة اسرائيل.

إلّا أن ألوان اليقين التي اهتزت في الثلث الأول من القرن، لم تلبث أن خلفتها، بعد الحرب العالمية الثانية ألوان من يقين جديد اطمأن إليه أصحابه رافضين اعتماد منهج الشك وإعادة النظر والتكيّف المستمر مع المستجدات. وساعد على ذلك قيام أنظمة مستقلة سياسياً استمدت شرعيتها من الكفاح الذي قادته ضد الاستعمار الأجنبي أو ضد الاقطاعيات القبلية أو ضد الفساد والتوزيع الظالم للثروات.

ذلك هو المناخ الذي ساهم في تشكيل فكر أحمد بهاء الدين. ومن هنا كانت شخصية الصحفي فيه تتعايش بكل ما تستلزمه من فضول ويقظة، مع شخصية المفكر الذي يبحث دوماً عن أجوبة لا تكون شافية دائماً، في مواجهة أسئلة شديدة معقدة بطبيعتها، ويزيد في تعقيدها طبيعة العصر الذي دخل فيه العالم في النصف الثاني من هذا القرن.

* * *

وبما أن الوعي بأن طبيعة التحديات التي كانت تواجه مصر ومجموع الوطن العربي، لا يمكن مواجهتها بسهولة، فقد اقترنت صيغ الحلول المقترحة بظهور فكرة الوحدة العربية، والبحث عن الطرق الملائمة لتحقيق هذه الوحدة.

ومن هنا اهتم أحمد بهاء الدين بكل ما يتصل بكبريات القضايا التي كانت تشد اهتمام الانسان العربي. ومن هنا كان تفتحه، منذ خطواته الأولى في ميدان الصحافة، على التيارات العروبية المختلفة، بعيداً عن أي انغلاق في حدود وطنية ضيقة.

ولذلك كنت تجد أحمد بهاء الدين حاضراً في كل مناسبة عربية هامة داخل مصر أو خارجها، فقد كان شديد الايمان بضرورة الانفتاح على المحيط الخارجي، عربياً كان أو غير عربي، سواء في زمن ازدهار الفكر القومي وعهد الانجازات التي حققها المد الناصري، أو في زمن التراجع الذي ابتدأ مع ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، والتي لا يأنف من تسميتها بـ «الهزيمة» خلافاً لمن وجدوا في تعبير «النكسة» طريقة لتغطية الحقيقة أو بعض الحقيقة.

ولا شك أن المقارنة بين كتابات أحمد بهاء الدين قبل ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وبعد ذلك سوف تساعدنا، ليس فقط في فهم مسار شخصية الكاتب، ولكنها تفيدنا أيضاً في فهم التطورات التي اجتازها العالم العربي خلال حقبة عصيبة من حقبه.

لكن مثل هذا العمل يخرج عن إطار المهمة التي أوكلت لي؛ فالكتابات التي توجد بين يدي الآن، والتي طلب مني أن أعتمد عليها في استخلاص فكر بهاء الدين بشأن «العروبة وتطورات السياسة العربية» تشمل فترة زمنية، تبدأ بعد الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وتمتد إلى بدايات الثمانينيات.

ومن هنا نجد أن كتابات بهاء الدين في هذه الفترة مهتمة أساساً بمشكلتين أساسيتين، ما فتئت كل منهما تتحكم في توجيه السياسات العربية وخصوماتها وهما: قضية فلسطين والمسائل المرتبطة بالصراع في الخليج.

لكن معالجته للمسائل المرتبطة بهذين الموضوعين تجري دائماً في اطار أكثر شمولاً يشتمل على أكثر من دائرة؛ فهو لا يتجاهل المسائل المطروحة بإلحاح على المثقف العربي، مثل تلك التي ترتبط بـ «الشرعية» شرعية هذا النظام أو ذاك؛ وهو لا يمكن أن يغفل عن الوضع الجديد الذي فجّرته ثورة تموز/ يوليو ١٩٥٢ والذي كشف لمصر والعرب عن امكانيات وقدرات «كانت كامنة». ومن ثم فهو دائم الارتباط بتلك الثورة، بنجاحاتها وبما واجهته من صعاب، وخاصة بما واجهته من تحديات متصلة بهزيمة ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

وقد ظل في نفس الوقت شديد الحرص، بعد ذلك التاريخ ـ مثلما كان قبله ـ على حسن العلاقة بين ثورة تموز/ يوليو في مصر وثورة تشرين الثاني/ نوفمبر في الجزائر، كما كان حريصاً على السعي إلى تبديد السحب التي كانت تطرأ أحياناً على تلك العلاقة. وانطلاقاً من الاطار الذي تحدده المنطلقات السابق ذكرها، كان يعالج بعض العلاقات العربية ـ العربية، كما يعالج العلاقات العربية مع الغرب، وعدداً من المفاهيم والمسائل ذات الطابع التنظيري، أو توجهات مستقبلية.

ذلك أنه لا ينبغي أن ننسى ذلك الجو المشحون بالصراعات السياسية والفكرية التي عرفتها المنطقة عقب الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، من جهة، وتلك الحيرة التي دفعت عدداً من المثقفين إلى البحث عن «مرجع» أو «قائد رمز» بديل عن عبد الناصر من جهة ثانية، وكذلك ظهور دعوات جديدة من جهة ثالثة، تريد أن تسد الفراغ الذي تشكل نتيجة تراجع المد القومي والناصري، في محاولة لبناء «قناعات» جديدة وصناعة شعارات بديلة تستهوي الجماهير الحيرى.

وقد تسبّب ذلك كله في تفريخ عدد مهول للمدارس التنظيرية التي جعلت من بيروت خاصة منبراً للتبشير بهذه النظرية أو تلك من النظريات التي تدّعي أنها تملك ـ دون غيرها ـ مفتاح الحل، وجوهر الحقيقة، مما جعل الكاتبة والصحفية الجزائرية زينب تدعو آنذاك إلى وضع حد «للتناسل العقائدي»!

تلك بعض المستجدات التي تشكل منها المناخ الذي كتب فيه أحمد بهاء الدين بعض انتاجه الذي يوجد بين يدي.

ثم إن العلاقات التي كان أحمد بهاء الدين قد أقامها مع عدد من الصحافيين والمراسلين الأجانب، ومع عدة دوائر ديبلوماسية، بالإضافة إلى من كان قد تعرف عليهم من مسؤولين عرب، قد رشحته لأن يلعب دوراً هاماً في التخفيف من حدة زوايا الخلافات العربية، وتقريب وجهات النظر، وخوض معركة تحسين الصورة العربية في الخارج أو على الأقل تصحيح عدد من التصورات الخاطئة في الغرب، عن القضايا العربية.

وعلى هذا الأساس كلّفه عبد الناصر عشية اندلاع حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ـ مع عدد من الشخصيات المصرية ـ بالتوجه إلى باريس لشرح ملابسات الأزمة التي انفجرت في خليج العقبة.

وكان أحمد بهاء الدين موجوداً آنذاك بالجزائر، مثل عدد من الصحافيين والمفكرين والكتاب الذين حضروا ندوة «الاشتراكية في العالم العربي» التي كان قد دعا لها الرئيس بومدين، والتي كان لي شرف الإسهام في الإعداد لها صحبة الصديق الأخضر ابراهيمي.

فقد أرسل الرئيس عبد الناصر يطلب إليه وإلى لطفي الخولي أن يتوجها إلى باريس للقيام بتلك المهمة الصعبة.

وما فتيء أحمد بهاء الدين، في مرحلة ما بعد ٥ حزيران/ يونيو، يتنقل بين العواصم العربية محاولاً أن يفهم طبيعة النظريات التي شكلتها مستجدات تلك الفترة.

فقد زار الجزائر في ١٩٦٨ وأقام بها بعض الوقت، صحبة زوجته ديزي، وقابل الرئيس بومدين عدة مرات، كما قابل عدداً من المسؤولين والصحافيين والكتاب الجزائريين، وعدداً من الدبلوماسيين الأجانب، وتردد بنفس الروح على عدد من العواصم العربية.

وكان لا يتخلى عن محاولة فهم ما يجري في العالم، متصلاً بالعرب، سواء كان ذا طابع سياسي أو ثقافي. وكان يتابع بانتباه أهم ما يكتب عن العرب، حتى ولو كان بعيداً عن مكان عمله في كندا أو في الولايات المتحدة للعلاج.

وكان حريصاً في الوقت نفسه على تحميل نفسه مشقة تحسين صورة العربي في الخارج، والكشف عن المغالطات التي يعمد إليها الساعون لتشويه صورتهم، في الوقت نفسه الذي لا يتوقف فيه عن تبصير العرب بعيوبهم وأخطائهم.

* * *

أولاً: عن فلسطين

لا شك أن قيام أحمد بهاء الدين بمهمة تحسين الصورة العربية في الخارج، قد اصطدمت بعراقيل عديدة تتصل معظمها بطبيعة السياسات العربية وانجذابها السهل إلى الشعار السهل، مثلما اصطدمت بالفرق الشاسع بين التصور الذي على أساسه كلف هو بتلك المهمة والوسائل المسخرة لخدمة تلك المهمة في الميدان.

وبعبارة أدق، لقد اصطدم بتدمير صورة العرب في أوروبا وأمريكا، لا نتيجة الإعلام الاسرائيلي فقط، ولكن على الخصوص نتيجة الشعارات التي رفعت في البلدان العربية عن «تدمير اسرائيل». ذلك أن هم السياسي العربي، ليس هو «أن يخدم القضية في مداها الطويل»، ولكن هو «أن يزداد حجمه في السياسة الداخلية لبلاده» حسب التعبير الذي استعمله[1].

وفي ما يتصل بالآليات المفترض فيها أن تعمل على تحسين الصورة العربية وتقريب القضية الفلسطينية إلى أذهان الأجانب، اصطدم بهاء الدين، بما يسميه «الحل البيروقراطي للمشاكل»، وهو ما يعني «الرد على كل مشكلة بلجان واجتماعات وتعيينات واعتمادات مالية... فكل قضية أو مشروع أو حملة تسفر عن مستفيدين، لا عن مقاتلين ومنفذين»..

ومن هنا تتحول الأموال المرصودة لهذه المهمة إلى «مرتبات وإيجارات شقق وتذاكر سفر وسيارات مرسيديس وتعيين للأقارب والمحاسيب».

وبدل أن تتحول تلك الأموال إلى شيء «ينصب في عقل الرأي العام العالمي» انصبت في «جيوب أصحاب العمارات في نيويورك وشركات السيارات في المانيا وانجلترا، ودكاكين التحف في باريس».

---

(١) المصور (١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧).

ويشخص بعد ذلك السبب في هذه الظاهرة المرضيـة العربيـة، في انعدام الفكـر الذي يفترض أن يتلوه تخطيط تعبر عنه وسيلة تنفيذ ملائمة.

* * *

لكن سعي بهاء الدين لتحسين صورة العرب في الخارج، كان يحتاج إلى فهم لما يجري في الميـدان. ولهذا كـان ـ قبـل أن يصـدر تلك الأحكـام التي رأينـا عن الحـل البـيروقـراطي للمشـاكل مثلاً ـ قد حـرص على أن يشهـد الميدان الـذي يتحرك فيـه المقاتلون والفـدائيـون الفلسطينيون.

ومع مقاتلي «فتح» عـرف الملابسـات التي أدت إلى تجمع قـوى المقاومـة الفلسطينيـة بما جعل منها «أول تعبير عن ارادة فلسطينية مستقلة منذ سنة ١٩٤٨»[٢].

وهنـاك يلاحظ أن الأسلحـة التي يستعملها مقـاتلو فتح، قليلة، وعتـادهم العسكـري بسيط، لأن المال لديهم قليل، وهذا في الـوقت الذي يسمـع فيه أن هنـاك «خمسة مـلايين جنيـه استرليني مجمدة في البنـوك، لا ينفق منها إلاّ أقـل القليل عـلى المصاريف الاداريـة» لمنظمـة التحريـر التي لم تكن قد احتوتها «فتح» آنذاك.

لكن التفاؤل الذي يفجره مقاتلون مصممون على الاستشهاد أو النصر، لتأكيـد الارادة الفلسطينية المستقلة، سرعان ما يصطدم بانعكاسات الايغال في التنظير الذي حاول أن يجعـل من «عمان» هانوي فلسطينيـة، وبقدر مـا انتقد بهـاء الدين هـذا التوجـه مركّـزاً على الفـروق الأساسية بين هانوي وعمان، بقدر ما أدان الانجراف نحو مخاطر تحويل عـمان إلى «سايغـون» بما يجعل المقاومة الفلسطينية معرضة لخطر حرب أهلية[٣].

وكان بهاء الدين قد طرح قبل ذلـك[٤] أسئلة حاول أن يحـدد الظروف التي تحيط بهـا، وبعض الشروط الـلازم توفـيرها لـلإجابـة عنها ايجـابياً، وهي تتصـل كلها بمستقبـل المقاومـة الفلسطينية، ذلك أن بهاء الدين كان قـد أحس بالتشـاؤم عندمـا زار عمان في ١٩٧٠، وكتب مقالاً لم ينشره آنذاك، لكن نشر مقـاطع عنـه في شباط/ فـبراير ١٩٧١، يـدين فيه المـنظرين الذين تسببوا في دفع المقاومة إلى الاصطدام بالنظام الأردني، فهو يقول مخـاطباً الفلسـطينيين:

«دمكم في عنق الذين أعطوكم شيكات بدون رصيد، الذين لم يصدقوكم القـول في ماذا يستـطيعون أن يقـدموا لكم، وماذا لا يستطيعون..

«دمكم في عنق الذين حاولوا دفعكم إلى مأزق الأهـداف المستحيلة في الوقت المستحيـل.. عالمـين بأنكم أنتم الذين ستدفعون ثمنها، وليسوا هم.

«دمكم في عنق الذين حاولوا تحميل المقاومة الفلسطينية أعبـاء فوق طـاقتها. أولئـك الذين مـا إن وجدوا الفلسـطينيين يحملون السـلاح حتى حملوهم أمانـة تحريـر العالم العـربي كله.. وأزاحوا بـذلـك مسؤوليـاتهم عن كواهلهم، واكتفوا من مساعدتكم بتقديم الفتاوي لكم.

---

(٢) المصور (١٠ أيار/ مايو ١٩٦٨).
(٣) المصور (٩ نيسان/ ابريل ١٩٧١).
(٤) المصور (١٢ شباط/ فبراير ١٩٧١).

«دمكم في عنق أولئك المثقفين المراهقين.. الذين اكتشفوا ـ متأخراً ـ أحدث موضات «الفكر الثوري» في العالم، وصاروا يتسابقون في ارتدائها، وكأنهم في كرنفال.. الجائزة فيه للأعجب والأغرب.. دون فهم أو تعمق أو مسؤولية.

«دمكم في عنق الذين حاولوا أن يستدرجوكم إلى شرك المحاور العربية المتصارعة، ويستخدموكم في معاركهم الخاصة..

«دمكم في عنق الفاشلين في العمل السياسي عشرات المرات، الذين عرفوا الإحباط بعد الإحباط في أقطارهم، فوجدوا فيكم متنفساً لعجزهم، ومجالاً للهرب من قعودهم.. وظنوا أنهم قد أنصفوكم حين كتبوا القتل والقتال عليكم.. ولهم جر ذيول المزايدات ونسج خيوط الفتاوي والفلسفات».

لكن تحليله لدور المنظرين الذين دفعوا المقاومة إلى الوقوع في أخطاء فادحة، لم يحل دون أن يسجل في الوقت نفسه مسؤولية المقاومين والمقاتلين، فهو يقول في الوقت نفسه داعياً إلى المزاوجة الذكية بين التكتيك والاستراتيجية، بين خدمة الهدف البعيد وتسخير الممكن من الوسائل في ظل الملاءمة مع المحيط العربي والمحيط الدولي: «إن الطريق إلى التحرير طويل، وهو أيضاً معقد».

ولكن هذا القول يصبح قولاً انشائياً إذا لم نفهم معناه بالتحديد ونقبل تبعات هذا المعنى المحدد..

إن معناه أن الصيغة السحرية لحل مشكلة فلسطين ليست موجودة، ومعناه أن الطريق المختصر غير موجود. ومعناه أن المناضل على هذا الطريق المعقّد الطويل عليه أن يكون مستعداً لاتخاذ الكثير من المواقع والمواقف «التبادلية»، كما يقول العسكريون، دون أن يفقد رؤية الهدف والإصرار عليه، وأن يكون مسلحاً ـ فوق السلاح نفسه ـ بالإجابات الاستراتيجية الكبرى عن الأسئلة الاستراتيجية المطروحة عليه.. ثم يكون بعد ذلك قادراً على التحرك داخل تفاصيلها إزاء الظروف المتغيرة المعقدة.

وفي هذا المجال لا تنفع العناوين العامة والشعارات المبسطة..

إن الانتقادات التي توجّه إلى المقاومة في التفاصيل كثيرة، تفيض بها الصحف على لسان الكتاب وعلى لسان قادة المقاومة أنفسهم. ولكن تبقى أشياء أساسية..

إن تصوّر المقاومة أو بعض فصائلها لهدف «التحرير» على أنه «هدف كلي» لا يتحقق إلّا كاملاً ولا يتم إلّا في مرحلة واحدة وفي مسيرة واحدة، هو الخطأ الاستراتيجي الأساسي الذي يحتاج إلى أن يعدل ويحل محله تصور أكثر تفصيلاً وتحليلاً.

ومن خلال لبنان، وتل الزعتر، يتناول بالتحليل خطة «هز المنطقة» وزعزعة الاستقرار في كل مكان عربي، بالمشرق أو بالمغرب ـ.. وبعد أن يضرب الأمثلة يؤكد: «كل هذا، صغيره وكبيره، هو عملية زعزعة وهز عنيف للكيان العربي. إنه الانتقام من حرب اكتوبر. إنه الانتقام من قطع البترول. إنه الانتقام من لحظة تجمع فيها العرب، والعمل أن لا تتكرر هذه اللحظة مرة أخرى...».

«إن زلزلة الأرض تحت الأقدام في كل مكان حتى لا يعرف أخ أخاه، ونسيان اسرائيل وكل القضايا

القومية الكبرى سياسياً واقتصادياً تجري بنجاح هائل. والعقلاء ضاعوا بين أقدام الـذين يعرفـون أنهم يسخرون لهذه المهمة بإيحاءات ومنزلقات أجنبية خطيرة»(٥).

وبالنظرة الـواقعية نفسهـا ينتقد بعـد ذلك بنحـو سبع سنـوات ما يجـري على السـاحة الفلسطينية والعربية، متصلاً بعقلية المزايدات التي ما فتئت تعمل على تفويت الفرص ونسف المنجزات، فهو يقول: «وإذا كانت قد حدثت تناقضات كثيرة أفقدت الأمـة العربيـة الكثير فـإن رأيي أن التاريخ سوف يصيب أصحاب المزايدات ويحملهم مسؤولية أكبر من نسف المنجزات.

«وقد رأينا المزايدين يتقهقـرون من أغوار الأردن إلى اليمن الجنـوبي، وكلما تقهقروا ارتفعت مـزايداتهم؛ وتقديم الاجماع الفلسطيني على أي شيء آخر خطأً فاحش لأن أي ثورة أو حركة سياسية لا بد لها من أن تنقسم ومن أن تتحرك الأغلبية صاحبة الشرعية إلى الأمام باتجاه الأهداف التي تختارها»(٦).

ثانياً: عن الخليج والنظام العربي الجديد

إن المنـاخ الفكري والسيـاسي الذي تـطور فيـه فكـر أحمـد بهـاء الـدين جعله شـديـد الاهتمام، كبير الحساسية بما يجري في كل رقعة من الوطن العربي، مهما صغرت.

فحرب الاستنزاف التي كـانت على أشـدها في مصر، واعـادة بناء الجيش المصري التي كانت تجري على قدم وساق، والقضية الفلسطينية التي كانت تملأ السـاحة، وخصـوصاً بعـد بروز «فتح» كأكبر وأهم تنظيم فلسطيني فرض نفسه على الساحـة العربيـة، كل ذلـك لم يمنع بهاء الدين من الاهتمام بذلك الجزء من الأرض العربية المجاور لسلطنة عمان ولايران، والذي أصبح معروفاً باتحـاد الامارات العـربية. فهـو يخصص، مقالاً مـطولاً، للخليج العـربي، إثر رحلة قام بها إلى هناك، ومنذ السطور الأولى يؤكد أن «الاتحاد هو الـذي يقيم بدل الامـارات التي لا يزيد تعداد سكانها على خمسة آلاف، دولة «كبرى». كبرى بالنسبة لما هو موجـود اليوم، وإن كـان عدد سكـانها سيظل أقل من المليون بكثير»(٧).

إن كل دولة عـربية ـ في نـظره ـ جديـرة بالاهتـمام ولها مكـانها في صياغـة «نظام عـربي جديد». وقد استعمل بهاء الدين هذا المصطلح بصورة خاصة بعد اعلان بريـطانيا عن قـرار الانسحاب من شرق السويس.

فقد كتب، بتاريخ أول شباط/ فبراير ١٩٦٨ مقالاً بعنوان «نظام عربي جـديد وفـرصة جديدة لانجلترا وأوروبا. . .».

وهـو في تحليله للعوامـل التي دفعت لندن إلى اتخـاذ ذلك القـرار، لا يهوّن من عـامـل النضالات العربية، ولا من العوامل الاقتصاديـة التي دفعت بريـطانيا إلى إرخـاء قبضتها عـلى ممتلكاتها في مقابل تعزيز علاقاتها مع أوروبـا الغربيـة، دون أن تتخلى عن المـظلة الأمريكيـة،

---

(٥) الأهرام، ١٥/٨/١٩٧٦.
(٦) المساء، ٩/١٢/١٩٨٣.
(٧) المصور (٢٦ نيسان/ ابريل ١٩٦٨).

على أمل الحفاظ على نفوذ من نوع جديد لا يرتبط بالقواعد العسكرية ولا بوجود القوات المسلحة.

وفي هذا الإطار يؤكد على أهمية النفط العربي، ليس بالنسبة إلى انجلترا وحدها «ولكن للعالم الغربي كله». ويسجل في السياق نفسه أن «في قمة المخاطر الجديدة الآن: الولايات المتحدة الأمريكية، لأن الاستراتيجية الدولية لأمريكا» حسب تعبيره «تقوم على السيطرة وعلى اعتبار أن مياهها الاقليمية تصل إلى ساحل كوريا وخليج تونكين وشواطىء البحر الأبيض المتوسط». وبعد أن يتحدث عن «طابع المغامرة في سلوكها الدولي الذي ينبع من حداثة عهدها بالعالم ووقاحة احساسها بالقوة» يشرح بعض مظاهر تلك الاستراتيجية، ممثلة في سعي اقتصادها الدائم إلى البحث «عن امبراطوريات جديدة، وأسواق جديدة في الخارج» مما ينطبق على العرب وعلى غير العرب، ثم يثير الخصوصية الموجودة في العلاقات الأمريكية مع العالم العربي، ممثلة في «قضية اسرائيل». ويستخلص بهاء الدين من ذلك كله ضرورة السعي إلى نظام عربي جديد، فيقول: «هذه الأخطار الراهنة والمقبلة على المستوى القومي، تحتاج من العرب - جمهوريات وملكيات ومشيخات - أن تجد صيغة لنظام عربي وعلاقات عربية تسود المنطقة، وتحرك قواها الذاتية، وتدعم حدودها وأطرافها، وتمنعها من التآكل المستمر...» ثم يضيف: «وكلمة «نظام عربي جديد» هنا لا تعني نظام حكم واحداً، ولكنها تعني صيغة علاقات تجعل التفاعل الاجتماعي في كل قطر من الأقطار العربية يأخذ الزمن اللازم لنضجه ولا يتصادم مع درجة من التنسيق المحسوب على آجال فسيحة: لأن العرب بالمعنى القومي، في سفينة واحدة... ولأنه لو نجح العرب في اجتياز هذه المرحلة التاريخية وكيانهم القومي سليم فالمستقبل لا شك للاستقلال القومي والتطور الاجتماعي.. إن القوة العربية المشتركة.. اقتصادية وبشرية واستراتيجية.. قوة هائلة.. ولكنها «قوة محتملة وممكنة» فقط وليست قوة «موجودة بالفعل»، ذلك لأنها ممزقة مشتتة غير منسقة».

وهنا نلمس جانباً من جوانب شخصية الكاتب السياسي لدى بهاء الدين: فهو إذ يحلم بنظام عربي جديد، لا يطلق العنان للخيال وينطلق في حماس، فقد يكون له ما يبرره، بل إن واقعيته تذكره بالواقع العربي، غير المنسق، والممزق والمشتت.

وهذا التزاوج بين الحلم البعيد والواقعية، هو الذي جعله يدعو إلى اعطاء اعتبار خاص لأوروبا الغربية، باعتبارها كتلة كبرى، قد يكون وزنها في المستقبل أكبر مما كان يبدو عليه آنذاك. وعلى هذا الأساس يعتبر أن أوروبا الغربية تمثل «فرصة متاحة للعمل». ويدعو العرب إلى أن يدركوا «التحوّلات التاريخية التي تحدث هناك» وأن لا يتأخروا «في فهمها والاستفادة منها».

ويعود لتناول الفكرة نفسها، بعد ذلك بتسع سنوات فيخصص لها مقالاً في العربي بعنوان «نحو نظرية أمن عربية شاملة»[٨]. وهو يتناولها بالنظرة الحذرة نفسها: يدعو للفكرة بحماس المتفائل، ويحذر من العوائق والمخاطر بما قد يجعله يبدو للبعض متشائماً إلى أقصى حد. فهو لا يتردد في التأكيد على أن الذي يهم العالم الأجنبي بالدرجة الأولى، في علاقاته مع العرب هو «أن ينشغل العالم العربي بنفسه، بصراعاته، وخلافاته بشتى أنواعها، وأن يمزق نفسه بنفسه، بحيث تتعطل فاعليته تماماً على الأقل لمدة تتراوح في حساباتهم بين العشر سنوات والعشرين سنة المقبلة، حسب

---

(٨) العربي (نيسان/ ابريل ١٩٧٧).

تقديراتهم للفترة اللازمة، إما لاستنفاد النفط، وإما لإنهاء دوره الاستراتيجي كسلاح فعّال بظهور المصادر البديلة للطاقة، ولإجهاد الأمة العربية خلال هذه الفترة بوجه عام. بحيث تكون فترة إرهاق واستنزاف وتمزق وضياع، ولا تكون فترة بناء وتعمير وتنوير ووضع أسس القوة العربية الذاتية لقرون عديدة مقبلة».

ومن زاوية الأمن العربي، يتناول موضوع الحرب بين العراق وايران. فهو منذ بداية تلك الحرب، يرفض استعمال مصطلح «العرب» و «العجم» في هذه الحرب[9].

وكان قد سبق لأحمد بهاء الدين أن تحدث، قبل اندلاع تلك الحرب، بنحو اثني عشر عاماً عن «العراق بين الامكانيات والقوة الفعلية»، فقد كان كتب، تحت العنوان سالف الذكر، مقالاً، تعرّض فيه لأهمية موقع العراق بوصفه «أحد مناطق الحدود بالنسبة للأمة العربية»[10]. وفي الوقت الذي يسجل فيه الامكانيات الهائلة للعراق يسجل أيضاً تعدد الاتجاهات وتضارب الآراء، ويؤكد بأن «العناصر السياسية في العراق تحتاج إلى ما تحتاج إليه الطبيعة الحافلة بالفيضانات والسدود المتدفقة: جسور وكباري وقنوات تجعل الماء يروي الأرض في هدوء، ولا يجرف خصبها في تدفقه المزاجي السريع».

إن الميزة التي سجلناها لأحمد بهاء الدين، ممثلة في تعايش الروح الوطنية والقومية الطموحة بكل ما تستلزمه من حماس وأحلام واندفاع، مع روح الواقعية والعقلانية بكل ما تستلزمه من تحليل هادىء وحسابات باردة؛ تلك الميزة هي التي جعلته يتجاوز تصوير الظواهر إلى تشخيص السلبيات وطرق العلاج، كما دفعته إلى عدم الاقتصار على تحليل الواقع الراهن ومسبباته وعوامله، والطموح إلى استشراف المستقبل والتنبيه إلى مخاطره القادمة من وراء السنين، عسى أن يكون ذلك حافزاً للعرب كي يتسلحوا منذ الآن بما يجب لمواجهة احتمالات المستقبل.

فهو ينبّه في إحدى مقالاته في الوطن[11] ـ أي قبل اندلاع حرب الخليج الأولى ببضعة أشهر ـ إلى الخطة التي وضعتها الدول الصناعية الكبرى، من أجل «كسر القبضة المالية والاقتصادية لدول الأوبيك».

وفي هذا السياق يعرض بالتفصيل إلى حيثيات الحملة الاعلامية الضخمة التي وضعتها الدول الصناعية من أجل تعبئة الرأي العام في بلدانها وفي بلدان الجنوب الفقيرة أيضاً، ضد الدول المنتجة للنفط وتحميلها هي وحدها مسؤولية التضخم المتزايد، والبطالة المتفاقمة، ثم يتكهن بعد ذلك بنحو أربع سنوات أن «أشباح التدويل سوف تتراكم وتتكاثف بشكل أكثر بكثير مما نراه الآن»[12].

وتلح عليه أشباح المستقبل المخيفة باستمرار، فتدفعه إلى أن يتساءل بعد ذلك بثلاثة أشهر «هل عندكم قارىء كفء يقرأ خريطة العالم العربي... بعد عشر سنوات؟» ودافعه لطرح هذا

---

(٩) الوطن (٥ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٠).
(١٠) المصور (١٧ أيار/ مايو ١٩٦٨).
(١١) الوطن (٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٨٠).
(١٢) المساء، ١٩٨٤/٨/٢٧.

السؤال هو تحليله للواقع العربي في منتصف الثمانينيات، ذلك الواقع الذي جعل مجموع العالم المتقدم، بمختلف تياراته وكتله ينظر إلى البلدان العربية على أنها «في مرحلة انتقال ومرحلة اضطراب ومرحلة عدم استقرار، ليس بمعنى الاستقرار الأمني الذي يفكر فيه الحكام، ولكن بمعنى استقرار المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية» ثم يؤكد بعد ذلك مباشرة، وكأنه يرد على الذين يرون أن موقف أوروبا الغربية من العرب أفضل من أمريكا فيقول: «هذه النظرة ليست قاصرة على أمريكا ولكن الشيء نفسه ينطبق على أوروبا الغربية، وينطبق على الاتحاد السوفييتي، أي ينطبق على أهم الكتل المؤثرة في العالم. الفرق فقط أن أوروبا، لأنها ليست مطالبة كأمريكا بعمل شيء، فهي تستطيع أن تعطينا كلاماً معسولاً أكثر ودعماً معنوياً لا تدفع ثمنه، على أساس أنها في المدى القصير تحصل على بترولها بسلام وبأحسن الشروط وهذا أيضاً ينطبق على الاتحاد السوفييتي، الذي تعلم من تجاربه مع العرب أن العرب يتحالفون مع الاتحاد السوفييتي لإغاظة الأمريكان، وإلى أنه يبيعنا السلاح لكي يحصل على ثمنه عملة صعبة مباشرة، أو لكي يحتفظ لنفسه بنفوذ في منطقة أو أخرى في العالم العربي، كجزء من الصراع الدولي بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه لا ينظر إلى أي بلد عربي بمنطق المحادثات الطويلة التي تستمر عشرات السنين. لأنهم يعرفون الشيء نفسه الذي تعرفه أمريكا والذي تردّده اسرائيل دائماً وهو أن أحداً لا يعرف ما سيكون عليه حال الأمة العربية بعد عشر سنوات ولا نقول بعد ربع قرن. وأي دولة مسؤولة لا تفكر في مصالحها السياسية لزمن أقل من ربع قرن في العالم»[13].

ثالثاً: عن الشرعية والمثقفين

إن تأكيد أحمد بهاء الدين على ضرورة الاستقرار بمفهومه المؤسساتي ـ وليس بمفهومه الأمني الصرف فقط ـ يعكس هاجساً آخر لديه، هو ذلك الذي يتعلق بالسلطة وبالشرعية في البلدان العربية.

وغير خافٍ أن الحديث عن السلطة الشرعية يقود دائماً إلى الحديث عن المثقفين وعلاقتهم بالسلطة. وإذا كان هناك من الكتّاب والباحثين من يفيض ـ عند الكلام عن المثقفين ـ في الحديث عن «هجرة الأمخاخ» إلى خارج البلدان العربية، فإن بهاء الدين يعتبر أن هجرة العقول، مهما بلغت الأرقام، تظل قضية جزئية، فإن «وجود المثقفين في بلادهم لا يعني دائماً الاستفادة منهم». ثم يضيف: «فالصورة العامة لهم في معظم بلادنا العربية، إما السخط والكبت والشعور بالإحباط، وإما الانحراف ـ بالعدوى ـ مع الأمراض الاجتماعية الشائعة في بلادهم، فهم لا يستفيدون من ثقافتهم وقيمهم الحياتية ولا يفيدون، وإما أن يلجأوا إلى نوع آخر من الهجرة... هو الهجرة الداخلية، والانغلاق على أنفسهم. فهم موجودون في بلادهم وغير موجودين، موجودون بأجسامهم وبعملهم الروتيني اليومي ومشاكل حياتهم اليومية الصغيرة، ولكنهم غير موجودين بعقولهم ولا بقدراتهم وطاقاتهم الحقيقية. متفرجون سلبيون. يرون الأحداث تجري أمامهم، وربما رأوا بلادهم كلها تتعثر أمامهم، ولكنهم عاجزون عن المحاولة أو ابداء الرأي، أو مشيحون بوجوههم عن الأمر كله، يعيشون في مجردات ومطلقات لا صلة لها بضجيج الحياة من حولهم... ولا يجوز أن نفترض أن كل واحد منهم يجب أن يكون بطلاً، مستعداً لمواجهة التشرد، أو دخول السجن»[14].

---

(١٣) المساء، ٢٦/١١/١٩٨٤.

(١٤) أحمد بهاء الدين، «المثقفون والسلطة في البلاد العربية،» العربي، العدد ٢١٧ (كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٦).

لكن علاقة المثقف بالسلطة ليست هي كل شيء في ما نحن بصدده. فالتحديات التي تواجه البلدان العربية ـ من حيث الاستقرار المؤسساتي ـ عديدة، وأهمها في نظر بهاء الدين هي التحديات الداخلية. وهو يعتبر أن أهم التحديات الداخلية للعرب هي ثلاثة: الديمقراطية وحرية الرأي أولاً، والعقلانية ثانياً، والشرعية ثالثاً. وهو يعتبر أن الشرعية هي الأكثر حاجة إلى التوضيح «لأنها تختلط من الوهلة الأولى بالقانونية».

وفي هذا الصدد يفرّق بين الشرعية الحقة والقانونية الشكلية، فمغتصب السلطة قد يحيط نفسه «بكل أشكال الشرعية. فأي حكم قد يتمكن، عن طريق القوة من اقامة برلمان مثلاً، واجراء انتخابات واصدار قوانين وتشريعات. ولكنها تبقى كلها ستائر تخفي عدم الشرعية ولا تحل محل الشرعية»[١٥].

فالشرعية تنبع من اقتناع الشعب بأحقية السلطة وجدارتها، والشرعية بهذا المعنى أوسع من التأييد أو المعارضة. فالمعارضة ـ في هذا السياق ـ لا تنفي الشرعية ولا تلغيها، «طالما شعر المواطنون أن السلطة في توجهها العام، سلطة وطنية، منطقية مع التاريخ الوطني، ومخلصة في المجموع لارادة الشعب»[١٦].

ويعود بهاء الدين للكتابة عن الموضوع نفسه، بعد ذلك بثلاث سنوات، فيلاحظ أنه من السهل «فرض الدساتير وتزوير الانتخابات وتزوير الاستفتاءات. فالشكل شرعي. ولكن الجوهر غير شرعي»[١٧].

ثم يفيض في شرح طبيعة الشرعية فيقول: «لا بد ـ في فهمي وقناعتي ـ أن يكون القانون فيه جزء نابع من «طبيعة» المجتمع... كما ينبع الماء من مصدر طبيعي. لا بد أن يكون جزءاً من الطبيعة البشرية لمجتمع ما، كالماء الذي هو جزء من الطبيعة الجيولوجية. فكل مجتمع له «جيولوجيا» في تراثه وبيئته وتاريخه وتكوينه النفسي وقيمه السلوكية والدينية والأخلاقية..

ولا بد أن يكون القانون فيه جزء وضعي «ولكنه لا بد أن يكون وضعياً بالشروط والتعبيرات السابقة» معبراً عن الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام للنسبة الغالبة في المجتمع لأن الاجماع شبه مستحيل.

حتى في «الشرعية الثورية» التي تأتي لتحطم شرعية وتقيم شرعية جديدة، والتي تستهدف تغيير المجتمع، لا بد لكي تنجح أن تكون رد فعل لمشاكل حقيقية وآتية بحلول تعبّر عن العقل العام والضمير العام والإرادة العامة لأغلبية المجتمع... بصرف النظر عن «شكل التعبير» الذي قد يكون ركيكاً أو بليغاً، ولكن شرط البلاغة أساسي في (موضوعية التعبير)..

إذن؟

فحين نتحدث عن سيادة القانون فهذا عنوان عام جميل. لكن لا يجب الاستسلام له.. مهما أحيط بشكليات القوانين: من توقيعات، واقرارات، واستفتاءات، كلها جريحة ومجرحة بشكل أو بآخر..

---

(١٥) أحمد بهاء الدين، «شرعية السلطة في العالم العربي،» العربي، العدد ٢٤٢ (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩).

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) أحمد بهاء الدين، «فكرة القانون وقضية الشرعية في العالم العربي،» العربي، العدد ٢٨٠ (آذار/ مارس ١٩٨٢).

وهذا سر رد فعل الشعوب حين لا تطيع - في أغلبيتها - القوانين، وتقابلها بسلبية هائلة انها «تخضع» لها بحكم القوة لا بحكم احترام القانون. «والخضوع» على العكس يعلم الناس عصيان القانون. ولكنها لا «تطيع» إلّا القوانين المعبرة عن الإرادة العامة والضمير العام... يطيعها حتى المخالف لها... ومن حقه أن يدعو إلى تغييرها... وهو يفعل ذلك سلمياً... ذلك أنه يعرف أنه ولو خالفها فهي تعبير عن ضمير عام وإرادة عامة ولا سبيل أمامه إلّا أن يقنع الضمير العام والإرادة العامة بأن يتغيرا.

هذه الفجوة بين «روح القانون» المتصاعدة من هذه الينابيع وبين «القوانين» النابعة من السلطة «والقوة» وحدهما... هي الفجوة الثانية بين الشرعية واللاشرعية..

وهي السبب في الزلازل والبراكين المفاجئة.. والنهايات العنيفة.. والأخاديد التي تشقق المجتمع الواحد وتقطع سبل الحوار والتطور البناء المطرد..

وهو أمر ادراكه مسألة حياتية ومصيرية للأمة العربية وهي في مرحلة انتقال حضاري متلاطمة الأمواج لا يعصمها من الغرق في دواماتها إلّا هذه الشرعية الموضوعية بكل مستوياتها، وكافة وجوهها..».

وبعد هل يمكن أن نخرج بخلاصة لفكر بهاء الدين متصلاً بالعروبة وتطورات السياسة العربية؟

إن كتابات بهاء الدين التي تندرج في هذا الإطار، أي معظم مقالاته وأبحاثه وتعليقاته وأعمدته وإسهاماته في الندوات، رغم اختلاف الزوايا التي يتناول منها هذا الموضوع أو ذاك، ورغم اختلاف ميادين الأحداث التي يعلّق عليها، ورغم تنوّع المسائل والقضايا التي يعالجها، تنتظمها خيوط منسجمة وتخضع لهاجس أساسي هو: كيفية إقامة نظام عربي جديد.. نظام آمن، يستمد استقراره من قبول الشعب به، وتعرفه على نفسه ومطامحه في مشاريعه وتوجهاته.

بهذه الروح يحلّل علاقة المثقف بالسلطة، ويعرض لموضوع هجرة الأمخاخ، ويحلل طبيعة الشرعية، ويدعو إلى التغيير في العمق، بكل ما يستلزمه من تكييف الأفكار مع المستجدات ومن عقلانية تتحكم في جموح العاطفة ومن تحليل بارد يشدّ الفكر الشارد إلى أرض الواقع.

لكن واقعية أحمد بهاء الدين ليست هي واقعية محبطة، تسلم بالواقع على أنه قضاء وقدر لا راد له؛ ولكنها واقعية مستنيرة، تنطلق من استقراء الواقع من أجل بناء مشاريع طموحة تهدف إلى تغيير هذا الواقع نحو الأفضل، فهو إذ يعترف بالهزائم العربية، لا يستكين لها بل يدعو إلى مقاومة روح الإحباط التي قد تخلفها.

وهو إذ يشخص عيوبنا ونقائصنا يشرح كيفيات علاجها بما يؤدي إلى تجاوز سلبياتها وتقويم ما تتسبب فيه من اعوجاج، وهو إذ ينتقد يضع أصبعه على موطن الداء دون أي تجريح.

ولقد ظل أحمد بهاء الدين يقظ الفكر، مشحوذ الذهن، لا يتعب من متابعة الأحداث والتحوّلات المهولة.. كان، بكتاباته، أحد الشهود الأساسيين على تحوّلات النصف الثاني من

القرن العشرين. . لقد شهد غياب رموز كبرى شدّت جيله زمناً، وواكب حروباً في المنطقة أهلية وغير أهلية، أثرت سلباً على أكثر من جيل، دون أن تؤثر بالسلب على فكره، أو تقضي على روح المقاومة والصمود لديه. كما شاهد انهيار امبراطوريات، وسقوط ايديولوجيات، دون أن يكفر بالقيم التي كان عنها يدافع بحماس لم ينل منه ضعف بنية أو هجمات مرض.

ولعل رهافة حسّه لم تستطع أن تتحمل الهزات المتتالية التي عرفها الوطن العربي خاصة مع نهاية العام الأول من العشرية الأخيرة لهذا القرن، فتوقف قلمه عن الكتابة، وفكره عن المتابعة، ولسانه عن الحديث.

ومهما يكن من شيء، فسوف يظل أحمد بهاء الدين، أحد الشهود على عصر من أخطر العصور في حياة الوطن العربي المعاصر. . . وسيظل علماً مضيئاً بما خط من أفكار وما طرح من مشاريع.

وهو سوف يظل، بعد ذلك كله وقبل ذلك كله ـ بما كان له من خلق رائع وسلوك مستقيم وصدر رحب وقلب كبير ـ قدوة لعشاق المثل العليا من المؤمنين الذين لا ييأسون من روح الله والذين يتمسكون بالمراهنة على أفضل ما لدى الانسان، للتغلب على أسوأ ما فيه.

وهذا ما جعله يحظى بمكانة خاصة، لدى أصدقائه وكل الذين عرفوه، ممن عاشروه طويلاً أو بعض الوقت، أو من القراء الذين لم تتح لهم فرصة الاقتراب به: فهو موجود في قلب الجميع، وكلهم ينتظر معجزة تبشرهم بأن أحمد بهاء الدين قد عاد إليهم بعد طول غياب.

* * *

العروبة وتجليات أحمد بهاء الدين

منح الصلح(*)

(*) مفكر وسياسي لبناني.

عندما وصلت ذات يوم عام ١٩٦٦ إلى القاهرة آتياً من بيروت في مهمة، كنت أشعر أنها قد تلجم تردياً في العلاقة بين الرئيس جمال عبد الناصر وميشال عفلق القائد الأكثر سلطة في عالم البعثين المنقسم على نفسه، المختزن شتى الاحتمالات، ومنها احتمال تفرّده بالسلطة في دمشق وبغداد معاً، لم أجد أفضل من أحمد بهاء الدين صديقاً أطلعه على الغاية من زيارتي، طالباً منه مساعدتي بالوسائل التي يملك في ترتيب اجتماع بالرئيس عبد الناصر من أجل مناشدته إعادة بناء الرابطة القديمة بينه وبين البعث، تلك التي قامت الوحدة السورية - المصرية بقيامها، ثم انهارت بانهيارها، ويمكن أن تعود كما كنت أعتقد يومذاك إذا اقتنع الطرفان بضرورة احيائها من جديد.

لم ألمس من أحمد بهاء الدين تفاؤلاً بنجاح المهمة. ولكن المحاولة مفيدة على أي حال، كما قال. ولعلها تحدث صحوة ولو بسيطة على خطورة الاتجاه المعاكس، أي تحدّ من التطرف في العصبية والسماح بتردي العلاقة بين مصر عبد الناصر والهلال الخصيب البعثي.

في تلك الزيارة، تيسّر لي أن أتعرف بعمق على ما كنت أعرفه دائماً فيه، وهو ايمانه بأن مشروع النهوض القومي العربي يحتاج أول ما يحتاج للعنصر الذاتي البشري الذي يوفره تفاهم القاهرة ودمشق وبغداد وخاصة دمشق التي تساقى بعض أبنائها أول كؤوس افتتانه بالحلم القومي العربي وانغماسه بشؤون الأمة وشجونها.

إن القاهرة في ذهنه منذورة لدور في حياة العرب كلهم، تجددهم وتوحّدهم وتعرض انسانهم ومجتمعاتهم لريح العصر ومستوياته وقدراته، وهو يمثّلها في هذا الدور، انطلق به قبل أن يصبح سياسة رسمية بعد الثورة المصرية، واستمر فيه بعد الثورة من غير ترويج لحاكم أو سلطة إلاّ في حدود القناعة. وهو على تأييده للثورة لم يقابل عبد الناصر على انفراد إلاّ مرة واحدة بناء على سؤال من الرئيس عنه بعد مذكرة أصدرتها النقابة حول مطالب الصحافة وكان إذ ذاك نقيباً.

إن أجمل ساعات عمره هي من غير شك تلك الساعات التي قضاها في النهار والليل مع عرب قياديين وبسطاء يفكر فيها ويعمل في ما يعود للانتفاضات العربية المتعددة في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات بالقوة والرشد والإيناع. فثورة الجزائر والثورة الفلسطينية والتحركات الشعبية العربية ضد المؤامرات الخارجية والظلم الداخلي والوثبات الانقلابية الواعدة في بغداد ودمشق واليمن، وطموح اللبنانيين إلى استمرار وحدتهم وديمقراطيتهم، وتطلع الخليجيين إلى حياة مدنية في مستوى الوفرة المادية التي بين أيديهم، كانت تأخذ باستمرار الشيء الكثير من قلب هذا الانسان العربي المميز بعشق التقدم والتطور في كل مكان، وخاصة في أرض العرب.

شبيهاً بالأم التي أرادت يوماً أن تقسم قلبها الواحد على أبنائها الستة، فإذا حصة كل ابن قلب كامل، أعطى أحمد بهاء الدين قلباً كاملاً لقضية وحدة الأمة، وقلباً لتحررها من سيطرة الأجنبي واستغلاله، وقلباً لنهضتها الثقافية والعلمية، وقلباً للديمقراطية فيها، بل قلباً لسوريا حتى لتحسب أنه لا يحب غيرها، وقلباً للعراق حتى لتحسبه عراقياً، وقلباً للجزائر، وقلباً للكويت، وقلباً للبنان، وقلباً لفلسطين بصورة خاصة.

كان يؤنسه مني حبي لمصر، وقد قلت أمامه مرة أن ما يفتقده العرب في علاقاتهم الآن هو الدور المتمثل بنزاهة مصر في تعاملها معهم، فمصر على سبيل المثال لم تنشىء كغيرها من الدول العربية منظمة فلسطينية تابعة لها في العمل الفلسطيني على الرغم من الوزن الذي لها فيه، ولم تضم غزة إليها وقد كان ذلك في استطاعتها، ونصرت الكويت في وجه عبد الكريم قاسم على الرغم من خصومة رئيسها عبد الناصر لحكامها، وأمدت لبنان بخبرتها التفاوضية عند مفاوضاته مع اسرائيل في ١٧ أيار/ مايو ١٩٨٣، وكان البعض يتهم ظلماً موفدي رئيسها حسني مبارك (أسامة الباز وبطرس غالي) إلى الرئيس اللبناني السابق أمين الجميل بدعوة لبنان في التعجل لابرام المفاوضات، فبقيت ملاحظتي هذه في نزاهة ذهنه وأشار إليها في عموده في الأهرام.

وقد تأثرت كذلك بتحية ود أرسلها إليّ عبر آخر حديث له في جريدة الحياة، إذ قال: إنني كنت دليله في التعرّف إلى بلد محبوب لديه هو لبنان. وقد جلس معي مرة في أوائل الستينيات في مطعم فيصل قبالة الجامعة الأميركية في بيروت وكتب بعد عودته إلى مصر أن رأس بيروت هي الحي اللاتيني في لبنان.

ودعوته مرة إلى استقبال تكريمي له في فندق بلازا بشارع الحمراء حضره جمع كبير بينه النائب ريمون اده والشاعران اللبنانيان المغتربان في البرازيل رشيد سليم الخوري والياس فرحات، فهمس في أذني أنه أحب هذا البلد الذي يتكلم مقيمه، أي ريمون اده، بفرنسية خالصة ومغتربة بالعربية الجاهلية ويتقن اللغات دون أن يقع كبعض البلدان العربية في الهجانة!

في حبه للبنان ورثائه للحروب الطويلة غير المجدية القائمة فيه، وتألمه لجراحه، وتفهمه لخصوصياته، كنت ترى نوع نظرته الانسانية إلى مفهوم العروبة، وكونها عروبة الاعتراف

بالتعدد والخصوصيات، وعروبة التفهم من قبل الأكثرية للأقليات الدينية، وعروبة الإفادة من الانفتاح ولقاء الحضارات الذي مسح بالتألق وجه ذلك الوطن الصغير حجماً وعدداً من أوطان العرب. وقد كان معجباً بصيغة لبنان الميثاقية الوفاقية ويراها ضرورية لأكثر من بلد عربي له ظروف مشابهة.

في دعوته لطريقة التعامل المصري مع سوريا أثناء الوحدة، لم يرَ أن تتم انطلاقاً من حجم سوريا العددي المحدود، بل من خلال اعتبار هذه العلاقة رمزاً ينبغي أن يكون ايجابياً لطريقة تعامل مصر مع كل العرب الآخرين المفترض أن يشاركوا يوماً مع مصر في عملية الوحدة، وتشجيعاً للجميع على الإقبال على هذه الوحدة.

وفي احتضانه للثورة الفلسطينية كنت تستشف ادراكه لجوهر القضية الفلسطينية داخل القضية العربية ككل، ولوظيفة اسرائيل في المنطقة العربية ولجذرية مطامع الحركة الصهيونية في أرض العرب، ولمطلبها من كل قطر عربي، ابتداء بمصر، وقد كان في هذا الموضوع بالذات من أعمق العرب وأنفذهم نظراً وأوسعهم علماً.

وفي تأثّره وانفعاله بنتائج حرب ١٩٦٧ حتى لكأنه يصرخ في وجهها، كنت أتلمس عمق الوجع الذي يحدثه في نفسه مشهد التأخر العربي عن اكتساب قدرة الحضارة الحديثة وأسرارها. ولو أمعنت النظر في ما كتب في تلك الفترة، وفي الموضوع نفسه في مختلف الفترات، كنت ترى كم كان ما يحدث الآن واضحاً في ذهنه انطلاقاً مما حدث. فهو من أبرز العرب الذين وضعوا يدهم على نبض العصر وايقاع مسيرته الحضارية والتقنية، ودعوا إلى تلقيح المارد العربي الغافي بأكسير فعاليتها.

مع زهوه بالتاريخ الاسلامي العربي القديم، وتنعمه بعظمة الحضارة الفرعونية وغيرها من حضارات المنطقة، كان يبرز دائماً ضيقه بالحديث عن عظمة الماضي وتخوفه من أن يكون هذا الحديث تبطيئاً أو إرجاء للمعركة الحضارية في اليوم القائم، أو حتى بحثاً عن بديل تعويضي عن الواقع الراهن، فكأن مصر والعرب باتوا عظماء بتاريخهم ليس إلاّ. بل إنني كنت أشعر أنه يحسد باسم العرب الأحياء التاريخ الاسلامي العربي والحضارة الفرعونية على ما قدمت من انجازات ليس في الحاضر العربي ما يوازيها وينافسها.

في قلبه، من جهة ثانية، شيء كثير من الحب والفضول والشوق للتعرف على تلك الشعوب والأوطان والحضارات الجارة التي في العرب منها أشياء، وفيها منهم أشياء كتركيا وايران وغيرهما... وأذكر أنه كان عروساً جديداً عندما التقيته والسيدة قرينته ديزي في مقهى جميل في «روشة» بيروت على شاطىء البحر، فنبتت أثناء الحديث فكرة زيارة مشتركة إلى اسطنبول حيث كانت تصطاف والدتي الوفية كتركية دخلت في سن الشيخوخة إلى جذورها...

وأشهد أن فرحة دبت إذ ذاك في الجلسة والتمع في زجاج نظارة الصديق وفي وجهه ترحيب شديد بالفكرة أصاب السيدة ديزي وأصابني بالعدوى. فتطلعت إلى هذه الزيارة التي

لم تتحقق مع الأسف، وأعود إليها اليوم بالذاكرة لأني اكتشفت بها ذلك الفضول الذي في قلب بهاء، الحساس الموسوعي، وليس المفكر الموسوعي فقط... في كل ما يتصل من قريب أو بعيد بفضاء أمته الحضارية الأوسع...

وبحنين أيضاً قوي سمعته مرة يتشوّق إلى زيارة ايران بعد ثورة الخميني، وكان في ما أذكر ايجابياً إزاء ما أطلقت في مرحلتها الأولى من اشعاعات حدثني أنها حرّكت الجيل الصاعد في عائلته بصورة خاصة، كما حركت غيره...

ولعل انفتاحه في فترة ما على الثورة الاسلامية في ايران كان بسبب اعتقاده أنها بالإضافة إلى تعبيرها عن التطلعات الايرانية فكت حصاراً ضربه الشاه على العرب وعلى العراق بالذات.

فلما طرحت نفسها على أنها تمثّل «اسلامية» في البلاد العربية بديلة للعروبة أو منافسة لها أو متعالية، انحاز لعروبة طالما فهمها موازية مع الإسلام ومتشاركة معه في التعبير عن قيم واحدة.

فهو يعرف أن العروبة لم تنشأ في العصر الحديث لتقوض دولة الخلافة الاسلامية في اسطنبول، كما صورت عن جهل أو غرض، بل جاءت بعد اتضاح ملامح العجز في السلطنة العثمانية لتمثل مطامح العرب الثقافية أولاً، والإدارية والسياسية ثانياً، في إطار نظام لامركزي جامع، وأنها ما كانت في الحقيقة بعد سقوط الدولة العثمانية إلّا راية رفعها العرب لتوحيد ديارهم وتحريرها ونهوضها.

وقد دافعت هذه المنطقة عن وحدتها وكرامتها في تاريخها الطويل تحت راية الاسلام حيناً، وتحت راية العروبة تارة أخرى، وتحت راية الاثنين معاً في أغلب الحالات، فلا حق لأحد بمحاربة العروبة كهوية وكحركة نهوض باسم الاسلام، كما لا حق لأحد أن يتجنى على الاسلام ودوره.

بل إن العروبة كظاهرة تاريخية حديثة هي الإسلام نفسه في قيمه التاريخية الحضارية والخلقية مضافاً إليه قدرة العصر والعالم الحديث بانجازاته وتحقيقاته وعلومه وتقنياته وروح البحث الحر فيه، على ضوء العقل والتجربة والتراكم ثم طروحاته في طرق تنظيم شؤون الدولة والمجتمع.

وما كان «لاسلامي» أن يحاكم العروبة أو غيرها باسم مفهومه الخاص للإسلام. وإلّا يكون هو العامل على إثارة المعارك غير الضرورية بل الضارة، ويكون هو المتهم بإبقاء العرب وسائر الأمم الاسلامية في أوضاعها الحالية غير المرضية.

أما أحمد بهاء الدين فلا ريب أنه يعتقد اعتقاداً صادقاً بأن ما كتبه من منطلق مصريته وعروبته ضد كل ما رآه مناقضاً للمشروع الوطني والمشروع القومي في طروحات أعطيت ـ خطأ ـ الصفة الاسلامية هو خدمة للمصرية والعروبة والاسلام ذاته، تماماً، فكل ما كتبه في سائر المواضيع بنظافة قلم يكاد يتفرد بكونه لم يخط حرفاً إلّا لينفع الناس، حتى ليتهيأ

للبعض أنه كان أسهل على قلم أحمد بهاء الدين أن يضحي أحياناً ليست كثيرة، ولله الحمد، بوهج الأداء الفني أو الإبداع النظري على أن يضحي بنفع الناس.

ولكم خاض بشجاعة وعلم وقدرة على الاجتهاد في المعارك الفكرية حفاظاً على اسلام الجماهير من أن تنحط به العقليات الجامدة أو التيارات المغرضة العاملة على تزييف روحه ونصوصه.

إن الأصل في تفكير بهاء أنه ايجابي، وإن كانت ايجابية من صنف خاص يكاد الخيط لا يبين بينه وبين التجليات الرائجة لما هو موصوف بالإيجابي من المواقف والأشخاص. فهو لا يمتّ بنسب إلى ثقافة الرفض أو ثقافة الفتنة أو ثقافة اعدام الأفكار أو الناس أو الطبقات، أو ثقافة الانغلاق أو التعالي أو الاحتكار للخير أو الصواب. ولعل فلسفته: «أنا انسان وكل ما هو انساني ليس غريباً عني».

إنه ليس على سبيل المثال مع الشعب لأنه ضد الإقطاع، أو مع الوحدة القومية لأنه ضد الكيانات والأقطار، أو مع العروبة لأنه ضد الاسلام أو الدين اطلاقاً، أو مع الاستقلال لأنه ضد الترك والانكليز.

فهو أبعد ما يكون عن التحديد الرخيص للهوية انطلاقاً من العداء للآخر. أنا ضد الاقطاع، إذن أنا مصري أو تقدمي جيد. أو أنا ضد الأكراد، إذن أنا عراقي أو قومي جيد. وأنا ضد البربر، إذن فأنا مغاربي جيد. أنا ضد المسيحيين أو الملحدين، فأنا إذن مسلم صحيح الإيمان.

كل هذا مما يكاد ينطبق به ويتصرف على أساسه الراكضون للانتصارات السهلة والآنية من أطراف الصراع السياسي أو العائشون على تأجيج العصبيات، أو الحركيون المنتفعون بالكسب الشخصي والجماعي السريع، أو المنظرون عن سطحية بأن الحرائق لا تقاوم بالماء المقطر، لم يكن من فكر أحمد بهاء الدين بشيء، بل لعل امتيازه على الكثيرين هو استعصاؤه على موجات فكرية وسياسية ادعته لها وزعمت - افتراء - أنه منها، واحتفلت به كل الاحتفال، جهلاً بفكره الحقيقي أو تجاهلاً استغلالياً، بينما كل جدته الفكرية في الحقيقة وكل أصالته الوطنية والقومية أنه خلا من شوائب المنطلقات السلبية المروّج لها مباشرة أو بصورة غير مباشرة في بعض العمل السياسي السائد باسم القومية أو التقدمية والاسلامية.

ليس معادلاً في رأيه لأن تؤمن باتجاهك إلّا أن تعرف لماذا لا يندفع له غيرك.

والصحيح في تصوير هوية أحمد بهاء الدين هو أنه انطلاقاً من مصريته وولائه لشعبه وجد نفسه أمام مشكلة مع الإقطاع، وأنه من منطلق العمل للوحدة أذته مظاهر المغالاة في القطرية، وأنه وهو العروبي وجد في العروبة ووحدويتها وتاريخيتها ما يرضي نزعة العربي المسلم إلى بناء عمارته السياسية على جذور له في تاريخه الخاص وما في هذا التاريخ من قيم روحية، فالايجابية هي الأساس والاشتباك مع خصوم الفكرة، هو الضرورة التي أملتها عداوة الخصم للهدف الوطني أو القومي أو الحضاري.

والمهم عنده مصلحة الأهداف التي يؤمن بها لا الكيد لأعدائها، والمعركة الأصح والقضية الأسلم هي التي تحقق الهدف لا التي تزهو بطول جدول ضحاياها.

كان في كل ذلك، تحركاً وكتابة، متحمساً للوطني، ولكن على غير حساب الحضاري، وللقومي ولكن ليس على حساب الانسان، وللشوري ولكن ليس على حساب العلمي، وللديمقراطي ولكن ليس على حساب النهضوي، قيم ومقاييس وعواطف تسكن قلب أحمد بهاء الدين وعقله وسعيه وقلمه ولسانه (إذ هو كاتب شفهي أيضاً) فتجعل منه مندفعاً في الدعوة لما يرى، متفهماً لرؤية الآخرين قاسياً بطلب المعرفة وتتطلب الجهد على نفسه قبل غيره، عاذراً هذا الغير، مقترباً في بعض الحالات النادرة القصوى من غير عبثية أو يأس لحكمة العبارة الفرنسية: «أن تعرف كل شيء يوصل لأن تعذر كل شيء».

فأهم ما في فكر أحمد بهاء الدين هو أنه كان يبحث دائماً عن مواقف شعبية أو وطنية لا تعزل أحداً عنها إلّا من يختار اختياراً الانعزال سواء كان اقطاعياً أو برجوازياً، يبحث عن عراقية تتآخى مع الكردية، ومغاربية لا تقضم البربرية، وعروبة يفخر بها المتديّن الحقيقي، واسلام لا يضيق بحرية فكر بل يغنى بها.

ولقد كان حذراً كل الحذر مما يسمّى سياسة العزل، لأنه كان يعرف بالحس والفكر أن من يستبعد قوماً أو ينبذهم بحجة أنهم أشرار، ستوصله آلية الاستبعاد ونفسيته إلى استبعاد الأخيار، وكثيراً ما يكونون صفوة الأخيار، حتى ليصبح الشر والأشرار في النهاية في من بقي في دائرة المرضي عنهم لا في دائرة الأشرار المنبوذين.

وفي اعتقادي أنه سوء قراءة خطير لأحمد بهاء الدين زجّه زجّاً في مواكب المظنون أنه واحد منهم كبقية الآخرين وأن طمس تفرد بهاء هو أخطر المؤامرات عليه.

عروبته بشكل خاص التي تميّز بها بين أبناء جيله من المصريين، وكان أبرزهم في الرمز إليها ـ وإن لم يكن أوحدهم ـ تبدو بشكل عام خالية من المبالغة في الأدلجة، فهي لا تعدو أن تكون واحدة من الأفكار التي قال بها أول من قال مفكرو النهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، في مصر بصورة خاصة، وداخل بيئة الشوام الوافدين إليها بصورة أخص، مثلها مثل المساواة أو الحرية أو العلم أو حكم الشعب أو الانفتاح على حضارة العصر.

ولكن الفارق بين العروبة وهذه الأفكار هي أن هذه انسانية عامة بينما العروبة هي مفهوم متعلق بشخصية المنطقة التاريخية والجغرافية وحق هذه الشخصية في أن تتوحّد وتكون أساساً لمشروع سياسي وحضاري اقليمي كان له جذوره ودوره في الماضي. إن لها متطلباتها الذاتية ومعطياتها الموضوعية.

أحمد بهاء الدين شديد التحسس من كل مزاج مصري، شعبي أو حكومي انعزالي عن العرب، فنشر لي وزميله مصطفى نبيل في أوائل السبعينيات مقالاً في **المصور** قلت فيه إن دور

مصر والقضية الفلسطينية هما طاقتا التوحيد الرئيسيتان للأمة العربية. فعلّق عليه أن هذا هو رأيه أيضاً.

وقد جمعتني به ندوة في القاهرة، دعا إليها اسماعيل صبري عبد الله وابراهيم سعد الدين حول أهلية النفط للعب دور القيادة للأمة بعد انعكاس دور القاهرة، فإذا بنا جميعاً نستمع لأحمد بهاء الدين في هذه المناسبة في مداخلة لا يمكن أن تنسى، رسم بها بتفصيل خطاً بيانياً لعلاقة الشقيقين العدوين من ولادتيهما المتقاربة في الزمن إلى تواكبهما المتوازي المتوازن في فترة من الفترات، إلى تفاقم المد القومي على حساب النفط وقوته، إلى صعود النفط على حساب القومية، كاشفاً وراء هذه العلاقة يداً خفية تحرّكهما وتجعل منهما علاقة تناقضية...

وجاءت حرب العراق وايران، ثم حرب الخليج تشهدان بما يدهش في الدقة لصحة تلك المداخلة، والواقع أن همّ أحمد بهاء الدين المركزي كان دائماً المساهمة في تعمير العامل الذاتي في النهوض القومي، وهو يرتكز أولاً في حسابه على نوعية القيادة للأمة والنخبات التي تسيرها، والثقافة العامة للجماهير وإلى أي حد هي مستعدة للتفاعل الديمقراطي في ما بينها، واحترام الواحد لحق الآخر، والحرص على كرامته، وكم كان يكره التهاتر بين القيادات الملتزمة بالأهداف الواحدة على نحو ما حصل بين القاهرة ودمشق بعد الانفصال عام ١٩٦١ وأثناء تدارس مشروع الوحدة الثلاثية المصرية ـ السورية ـ العراقية عام ١٩٦٤، وكم كان يرجو أن يسود العدل ضمير الحاكم الملتزم وتسكن الرحمة قلبه، والرصانة أقلام الكتاب في الصحف وأصوات المذيعين في الراديوهات.

كان هذا الاعلامي الأكبر يرفض أن يكون الإعلام ساحة لتمزيق التضامن، بل كان يرى فيه المؤسسة الموكول إليها رص التضامن العربي. وقد أعجبه من قيادة الثورة المصرية آنذاك جعلها نظرياً على الأقل التضامن العربي التزاماً قومياً. فمن كان يقرّب بينه وبين مصر ايمان بأهدافها السياسية والاقتصادية جمعته بها وحدة الهدف ويفترض أن تتكرس بأشكال منظورة من التعاون المطلق، ومن كان بينه وبين مصر اختلاف في النظرة السياسية فله أن يقيم علاقاته بها على أساس وحدة الصف تمسّكاً بحقوق الأخوة القومية بمعناها الواسع التي تبقى فرضاً على الأقطار لمحض التشارك في الانتساب إلى الأمة. أما أن يكون بين العرب من هو في حلّ من التضامن كمبدأ، فهذا غير وارد.

غير أن أحمد بهاء الدين مع اعجابه بالحرص على أن تأخذ الرابطة العربية حقها طبقاً لهذا المنطق في أي وجه مؤسساتي، أشار بقوة قضية وحدة الأداة السياسية التي رأى فيها الضمانة لمتانة العنصر الذاتي ومنعته وفاعليته. وعلى وحدة الأداة هذه ألح في أكثر من مقال.

يخشى دائماً على الإرادة العربية أن تتفكك نتيجة غياب الأداة. ويطالب القطر العربي الأكبر والأكثر قوة على التحرك، أي مصر، بالمبادرة إلى دعوة الحكومات والقوى لإنشاء هذه الأداة السياسية العربية الواحدة التي بدونها لا مكان لعمل عربي في مستوى الجدية المطلوبة لمواجهة ظرف الأمة المصيري.

إلاّ أن كل هذه الأفكار، عند بهاء وغيره لم تكن سوى البديل عن الضائع الكبير الـذي هو الوحدة نفسها، وقـد وجدت طـريقها الفعـلي، في يوم مـا، إلى التحقق بقيام الجمهـورية العربية المتحدة، وكان سقوطها عام ١٩٦١ على أثر الانفصال بداية ترد تاريخي.

وسـواء أكان الإقـدام على الـوحدة في الـظرف الذي حصلت فيـه سلميـاً أم لا، فـإن سقوطها ومجمل التعامل معها كان المثل الأبرز في حياة العرب لا على قصور الأنظمـة فقط بل على القصور الانساني أيضاً، وهو سقوط أكمل الأدلة على حالنا من كل هزائم الحروب، لأنه الأكثر علاقة بكيفية تصرف أمتنا وطريقة استخدامها لإرادتها عندما يقـدم لها التـاريخ فـرصة تاريخية. والفرص أمام الأمم كالجان، مخلوقات حاضرة في كل زمان ومكـان، ولكنها محجـوبة عن الكثرة، لا تراها إلاّ العيون الذكية ولا تنهض للإفادة منها إلاّ الهمم القوية.

نَمَاذِجُ مختَارَة مِنَ المقَالات

١ ـ كيف يجب أن نفهم القومية العربية(*)

القومية العربية قضية عالمية!..

إنها ثورة مثل سائر الثورات التي تغيّر وجه العالم. ثورة يهتم العالم كله اليوم بدراستها، وبناء على هذه الدراسة: هناك من يؤيدونها، وهناك من يحاربونها! وفي بلادنا نفسها، نجد أنها أحياناً دعوة حقيقية ينادي بها المخلصون، وأحياناً أخرى ستار زائف يتستر به المتسترون!..

إن عشرات الكتب تصدر كل سنة في مختلف اللغات عن هذه القومية العربية.. ومع ذلك فما أقل الدراسات الموضوعية التي صدرت عن هذه القومية بلغتها العربية.

ومن يتجوّل في البلاد العربية، ويختلط بالتيارات المختلفة، سرعان ما يكتشف أن القومية العربية ليست مفهومة فهماً واحداً لدى العرب فهناك أكثر من فهم، وأكثر من تفسير. وذلك أن الذين يؤمنون اليوم بهذه القومية من اتجاهات مختلفة، فيها أقصى اليمين وفيها الوسط وفيها أقصى اليسار، وليس هذا بغريب، فإن من عادة الحركات القومية العظيمة أن تكون مثل تيار النهر الهادر، الذي يستمد قوة تدفقه من عشرات من الروافد..

وقبل أن نبحث القومية العربية عن قرب يحسن بنا أن نعرف ما هي القومية بوجه عام؟

هل هي دعوة دينية؟ أم دعوة عنصرية؟ أم دعوة وطنية؟

وما علاقة هذه الدعوة بالمذاهب السياسية والاجتماعية المعروفة... ما علاقتها بالرأسمالية والاشتراكية والشيوعية؟..

(*) صباح الخير (٩ أيار/ مايو ١٩٥٧).

ثم ما هي علاقة القوميات المختلفة بعضها بالبعض الآخر؟

التعريف التقليدي للقومية، هو: أنها تلك الرابطة التي تؤلف بين الناس فتجعلهم أمة واحدة، يتكلمون لغة واحدة، ويسكنون قطعة أرض متصلة، ولهم تكوين نفسي مشترك، ومصالح وتقاليد مشتركة، ماضيهم يسري فيه تاريخ واحد، ومستقبلهم يصنعه كفاح مشترك. .

هذه هي الشروط المبدئية للقومية. .

وليس معنى هذا أن اختلاف شرط واحد من هذه الشروط يجعل القومية غير موجودة أو غير قابلة للوجود. فالسويسريون مثلاً أمة واحدة ولكنهم يتكلون ثلاث لغات. والأمريكان والانجليز يتكلمون لغة واحدة ولكنهما أمتان مختلفتان، ونفس الكلام ينطبق على سائر الشروط. .

كذلك فإن توفر بعض هذه الشروط ـ اتحاد اللغة والدين والأصل ـ لا يكفي لخلق القومية المتحدة. فالدول السكندنافية مثلاً ـ السويد والنرويج والدانمرك وايسلندا ـ لغتها واحدة ودينها واحد، وأصلها واحد، وتقاليدها وعاداتها واحدة. ومع ذلك فإن شعوب هذه الدول لم تتبلور في قومية واحدة، وبالرغم من أن مفكرين عظاماً مثل الكاتب النرويجي الشهير «هنريك ابسن» نادوا طويلاً بهذه القومية الواحدة، فقد فشلت جهودهم، وظلت السويد والنرويج والدانمرك وايسلندا كل واحدة منها متمسكة باستقلالها وانفصالها. . بل إن النرويج ظلت متحدة مع السويد مائة سنة، ثم قامت حركة وطنية عنيفة انتهت باستقلالها سنة ١٩٠٥، وبالرغم من قيام أعمق علاقات الصداقة والتفاهم والمصلحة بين هذه الدول، إلّا أن كل الجهود التي بذلت لتوحيدها قوبلت بصحراء قاحلة من الرفض والإعراض. .

الشروط المادية السابقة ـ اتحاد اللغة والكفاح و. . و. . الخ ـ كلها إذاً شروط هامة جداً، وعميقة الأثر جداً في ايجاد القومية، ولكنها حتى إذا اجتمعت كلها لا تكفي لايجاد هذه القومية، لا بد أن يضاف إليها شيء آخر، أو عامل آخر، يبعث الحياة في أوصال هذه القومية. .

إن الانسان منا يتكوّن من عناصر مادية هي كميات معينة من اللحم والدم والعظم، ولكن ليس معنى هذا أننا إذا أحضرنا هذه النسب من اللحم والدم والعظم نستطيع أن نصنع بها انساناً حيًّا! إنما هناك شيء غامض هو الذي يضيف الحياة إلى هذا الانسان. . شيء لا يزال غير ملموس لنا، نسميه الروح. .

كذلك. . فإن كل الشروط المادية للقومية تحتاج بعد ذلك إلى شيء آخر يبعث فيها الروح. .

هذا الشيء هو: الشعور بهذه القومية. .

وصف بعض الكتاب السياسيين هذا العامل الحاسم في تكوين القومية فقالوا: «إنه وجود حالة ذهنية وشعورية معينة تجعل الفرد يشعر بولاء شديد عميق للشعب الذي ينتمي إليه. .».

وتحدّث فيلسوف من فلاسفة الحركات القومية هو «ماتزيني» عن هذا العمل نفسه فقال: «إنه حتى بعد توفر كل اعتبارات الأصل واللغة والثقافة والتقاليد والعادات، فلا بد من وجود عامل آخر هو: الارادة الشعبية العامة..».

فماتزيني يطلق على هذا العامل اسم: «الارادة الشعبية العامة».. أي أن يكون مجموع الشعب شاعراً بهذه القومية كحقيقة حية في نفسه، راغباً رغبة أكيدة في الاتحاد مع كل الملايين التي تتكون منها هذه القومية في أمة واحدة..

وهذا العامل ـ عامل الارادة الشعبية العامة ـ ليس غامضاً مبهماً لحسن الحظ مثل الروح التي تسكن الجسد فتبعث فيه الحياة.. إنه عامل تخنقه الظروف، وتخلقه الأحداث، ويخلقه العمل!

* * *

تلك هي الملامح والقسمات التي تتكون منها القومية..

ولكي تتم الصورة في أذهاننا، يجب أن نسجل ثلاث حقائق أخرى هامة عن القومية بمعناها العام.. حقائق تكون بمثابة العلامات التي تضيء أمامنا طريق التفكير..

الحقيقة الأولى هي أن القوميات ليست موجودات ثابتة خالدة، حتى القوميات التاريخية الكبرى، كالقوميات العربية أو الهندية أو الالمانية أو الأمريكية، ليست معالم ثابتة، وجدت هكذا في العالم منذ الأزل كما وجدت في الجبال والبحار والمحيطات. ليست القوميات كائنات حجرية، ولكنها كائنات حية، ذات خلايا متجددة.. فهي تولد وتنمو وتتغير، منها ما يورق ويزدهر، ومنها ما ينقرض ويندثر.. ومنها قوميات يصيبها المرض وفقر الدم حيناً، ثم تسترد حيويتها وصحتها بعد حين آخر..

هذه الحقيقة الأولى، لها معان بالغة الأهمية، فمعناها مثلاً أننا إذا وجدنا أن الشعور بقومية ما لم يكن موجوداً منذ مائة سنة أو خمسين سنة، فليس هذا دليلاً يساعد على أن القومية ليست موجودة أو غير قابلة للوجود، ومعناها أننا إذا وجدنا قومية ما في حالة تفكك وإنقسام أو إذا وجدناها قوية هنا وضعيفة هناك، فليس معنى ذلك أن هذه هي طبيعتها الأزلية الأبدية، وأنه لا يمكن تغييرها، كلا، إن القومية كائن حي، يمكن تنميته وتقويته ومعالجة أمراضه، ونفخ الصحة والشباب في أوصاله، ما دامت الظروف التاريخية ملائمة لذلك..

الحقيقة الثانية هي أن الحركات القومية البناءة، لا يمكن أبداً أن تكون حركات مغلقة على نفسها، منعزلة عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل والدولية، فالمجتمعات التي ظهرت فيها الحركات القومية التي تجاهلت هذه الظروف، التي اكتفت بأن تكون قومية ورفضت أن ترتبط بالتيارات الاجتماعية التقدمية في عصرها، انقلبت إلى حركات رجعية أو أصابها الموت السريع، أما الحركات القومية البناءة فهي التي عرفت كيف تستوعب وتهضم وتتفاعل مع المطالب التقدمية للمجتمع الذي شبت فيه..

وليست كل الظروف، التي تصاحب كل الحركات القومية واحدة، بل إنها تختلف باختلاف الزمان والمكان والبيئة وعلاقات الانتاج . .

ومن أعظم الأخطار التي تتعرض لها الحركات القومية، أن تنفصل عن المطالب الاجتماعية التقدمية للمجتمع الذي تشب فيه. هذه الغلطة الكبيرة وقع فيها زعيم قومي كبير مثل ماتزيني، الذي عجز عن تقدير أهمية الحركة الاشتراكية ودورها التحريري الكبير، فكان من نتائج انفصاله عنها، ورفضه المباشر لها أن أصيب بالفشل بعد الفشل في معركته الباسلة لتوحيد ايطاليا وتحريرها . .

ومن الخطر أيضاً أن يحدث العكس، من الخطر أن يتجاهل الاشتراكيون أهمية الارتباط بالحركة القومية. لقد وقع في هذا الخطأ كثير من الاشتراكيين العرب الذين كانوا يرون أن دعوة الوحدة العربية دعوة رجعية لأنها تصرف جماهير الشعب عن القضية الأساسية، ألا وهي تحقيق العدل الاجتماعي.

الاشتراكيون العرب الذين ارتكبوا هذه الغلطة لم يدركوا تماماً الدور الذي تمر به البلاد العربية وأن كفاحها الأساسي فيه هو كفاح ضد الاستعمار، ولم يدركوا القوى الثورية التي يمكن أن تطلقها هذه القومية من عقالها.

وفي كفاح الهند نجد غلطة مشابهة، فقد حمل بعض الاشتراكيين على غاندي واعتبروه رجعياً، في حين أن زعيماً اشتراكي التفكير مثل نهرو كان يدرك أهمية التزاوج بين الدعوتين. . ففي تأريخه لقصة حياته نجده يكتب قائلاً: «إن القومية هي الحاجة العاجلة حتى تتحقق درجة معينة من الحرية السياسية، وغاندي مثلاً من الناحية الفكرية متخلف جداً، ولكنه في العمل من أعظم القوى الثورية في تاريخ الهند. . إنه يطلق قوى جماهيرية هائلة، ولعله يتجه تدريجياً ـ كما أرجو ـ إلى الأهداف الاجتماعية» . .

الحقيقة الثالثة والأخيرة عن القومية بوجه عام أنها تنحرف وتنقلب إلى عنصرية بغيضة . .

كيف يحدث؟ . .

كيف تنزلق القومية النبيلة، إلى العنصرية العدوانية البغيضة؟ . .

أمامنا أمثلة كثيرة . .

وأبرز مثل هو المانيا . .

لقد استطاعت الحركة القومية في المانيا أن توحد كل الألمان في دولة واحدة، بعد أن كانوا ممزقين إلى ملكيات ودوقيات منها الحرة ومنها المستعمرة. وقد حدث أن الرجل الذي تمت الوحدة على يده كان دكتاتوري النزعة، شديد الرجعية، اشتهر بعدائه القاسي لكل تطور ديمقراطي وكل دعوة للعدالة الاجتماعية. هذا الرجل هو بسمارك وهو الذي وصف أحد المؤرخين حكمه وتوحيده لالمانيا فقال: إنه جعل المانيا كبيرة والألمان صغاراً! . . وفي أول وثيقة بتكوين دولة المانيا الموحدة، كانت تضم إلى المانيا ولايتين فرنسيتين، هي الألزاس

واللورين، أي كانت القومية الألمانية تسجل نصرها بالعدوان على قومية أخرى مجاورة، كان الفلاسفة والمفكرون الألمان يقولون: «هاتان الولايتان لنا بحق السيف!.. وأن رسالة المانيا هي أن تسود أوروبا.. وأن تكون فوق الجميع..».

وقد ترعرعت هذه الأفكار في المانيا طويلاً. ترعرعت إلى أن أصبح قياصرتها أولاً، ثم نازيتها ثانياً، مصدر عدوان مستمر على العالم باسم سيادة الجنس الآري..

لماذا حدث هذا الانزلاق؟..

حدث ببساطة لأن القومية الالمانية انتصرت انتصاراً يمينياً رجعياً مستبداً. انتصرت على حساب الحركات الديمقراطية والبرلمانية والاشتراكية وكل الدعوات التقدمية التي كانت موجودة في المانيا..

وإذا كان مثل المانيا هو المثل الأقوى، فإنه ليس المثل الوحيد..

في فرنسا مثلاً، وجدت قبل الحرب العالمية الأخيرة كتلة قوية من الكتاب والزعماء السياسيين تدعو إلى احياء القومية الفرنسية على الطراز العنصري نفسه في المانيا. كان على رأس هذه الكتلة الكاتب شارل موراس الذي اتخذ لنفسه شعاراً هو «فرنسا أولاً» والكاتب موريس باريس، وكان هذان الكاتبان اللذان ينادیان بالقومية، من أكثر فئات اليمين تطرفاً.. وكانا يعاديان كل الحركات الديمقراطية والاشتراكية ويطالبان باقتلاعهما. أما الأب الروحي لهذه الكتلة فقد كان الماريشال بيتان، الذي ألّف حكومة فيشي الشهيرة للتعاون مع هتلر!..

أما ايطاليا وبعض دول شرق أوروبا كالمجر وبلغاريا، فقد عرفت تجربة من نوع آخر..

لقد استخدمت القومية في ايطاليا على يد موسوليني كسلاح لضرب الحركات التقدمية فيها. أعلن موسوليني أنه يطالب لشعبه بالعظمة القومية، وطالب الشعب الايطالي بأنه يتكاثر ويسرف في النسل حتى يصبح أكثر شعوب الأرض عدداً، لأنه أعظم شعوب الأرض في صفاته. وإن رسالة هذا الشعب هي أن يسترد مجد روما القديمة عندما كانت تحكم العالم كله. وباسم هذا الكبرياء القومي المصطنع، وهذه الشعارات القومية الزائفة، سلب موسوليني شعب ايطاليا من كل إرادة ومن كل حرية ومن كل عدالة اجتماعية. كرر مأساة بسمارك فجعل ايطاليا تبدو من الخارج كبيرة ولكنه جعل الايطاليين صغاراً، ثم ساقهم آخر الأمر إلى مجازر الحروب العدوانية في أوروبا وافريقيا..

تلك هي الحقائق الرئيسية عن القومية بوجه عام..

فماذا عن القومية العربية؟..

لو استعرضنا كل المقومات التي يكفي توفر بعضها لكي توجد القومية، لوجدنا أن هذه المقومات موجودة ومتوفرة، بل وصائحة بأن هناك قومية عربية..

التقاليد والعادات المشتركة. التاريخ المشترك. الكفاح المشترك. اللغة المشتركة.. وجودة..

التكوين النفسي المشترك. الاحساس العارم بهذه القومية. كل هذه العوامل موجودة غير شك..

وليس هذا بالطبع مجال المضي في سرد البراهين على وجود هذه العوامل، فضلاً عن أن جودها أظهر من أن يحتاج إلى تدليل طويل..

ولكن هناك عاملاً يتحدث به أحياناً «العقلاء».. ذلك هو عامل المصلحة الاقتصادية ي تحقيق هذه القومية.. الأمر الذي يحتاج إلى وقفة قصيرة..

إن هناك من يقولون ـ وهذه نغمة ترددها أحياناً الصحف الأجنبية المعادية للقومية لعربية ـ إن المصالح الاقتصادية لأبناء البلاد العربية متناقضة، وإن أصحاب هذه المصالح سوف يقاومون كل محاولة لتوحيد البلاد العربية مقاومة عنيفة..

إن هؤلاء الذين يرددون هذا الحديث، إنما يتحدثون عن مصالح فردية. أما نحن، فعندما نتحدث عن المصلحة الاقتصادية، إنما نقصد مصلحة الشعب العربي، والأمة العربية كلها كمجموع..

إن الحياة الحديثة، التي تتميز بالتقدم العلمي والصناعي السريع، لن يكون فيها مكان إلّا للشعوب القوية بإنتاجها وبعلومها وبتقدمها، والشعوب التي تميزت بقوة علومها وانتاجها هي الشعوب التي كان من حظها أن توجد في أرض تتوفر فيها امكانيات هذه القوة وهذا التقدم، ونحن أبناء الشعب العربي لنا هذا الحظ، وبدرجة باهرة، لولا أننا مقسمون! انظروا إلى البلاد العربية كبلاد منفصلة، ستجدون أن كل دولة لديها شيء ولكنها تفتقر إلى أشياء، ثم انظروا مرة أخرى إلى خريطة هذه البلاد العربية، ككتلة اقتصادية واحدة! سوف تجدون على الفور أن كل شيء قد تغيّر، امكانيات جديدة تخلق، وظروف رائعة للتقدم تنفتح، ستجدونها أرضاً فيها البترول، وفيها الحديد، وفيها القصدير والبوتاس والنحاس، وفيها الأراضي الزراعية، وفيها مساقط المياه ومحطات توليد الكهرباء، هذا التنوع الهائل في موارد الثروة الطبيعية، هو الذي صنع قوة الولايات المتحدة، وهو الذي صنع قوة الاتحاد السوفييتي، وهو الذي يصنع الآن قوة الهند والصين..

إن دول غرب أوروبا، الدول القوية العريقة في الصناعة مثل انكلترا وفرنسا والمانيا وهولندا.. تشعر بأن مستعمراتها تضيع، وأنها ستقع تحت أقدام الدول الكبرى، فتبدأ جدياً في انشاء كتلة اقتصادية خاصة بها، فتشترك في صناعات معينة، وتؤسس سوقاً مشتركة، أما نحن.. فانظروا إلى الحواجز والحدود! نوري السعيد يختلف مع سياسة سوريا فيعاقبها بأن يمنع استيراد صناعة النسيج السورية إلى العراق، ويشتري الأقمشة من أوروبا، الأيدي العاملة الزائدة في الريف المصري لا تجد أرضاً تزرعها، وأراضي الجزيرة في سوريا والعراق لا تجد أيدياً تزرعها، العراق والأردن وسوريا تشتري السماد من أمريكا الجنوبية ومصانع السماد

في مصر كفيلة بأن تزودها جميعاً بالسماد! هذا كله بالنسبة إلى الصناعات والزراعات الموجودة الآن. . فما بالكم بالصناعات والزراعات التي يمكن أن تنشأ، ويجب أن تنشأ، لو تضافرت لدينا الأموال، والأيدي، والكفايات، والموارد الطبيعية!

القومية العربية إذاً كائن حي، موجود، يفرض وجوده على الدنيا يوماً بعد يوم. .

كيف نؤمن مستقبل هذه القومية العربية؟ كيف نعبد أمامها الطريق. . ونعصمها من الزلل؟. .

إن الحقائق الثلاث، التي اتفقنا عليها منذ حين، هي التي توضح لنا الأسلوب الذي نستطيع أن نحمي به قوميتنا من الفشل. .

لقد قلنا ـ أولاً ـ إن القومية كائن حي قابل للتنمية والتقوية والعلاج. . ومعنى ذلك أن علينا أن نعمل عملاً شاقاً متواصلاً، لنشر عقيدة القومية العربية. . خصوصاً في الأماكن التي تضعف فيها هذه العقيدة من الوطن العربي. .

وقد قلنا ـ ثانياً ـ إن الحركة القومية الناجحة يجب أن لا تكون مغلقة على نفسها، منعزلة عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة لها.

ومعنى ذلك أن دعوتنا للقومية العربية يجب أن تمتزج بدعوتنا إلى العدل الاجتماعي، وإلى تغيير مجتمعنا العربي من نطاق البدائية والتخلف إلى نطاق المجتمعات العصرية. . وهذا هو السبب الذي من أجله نقول إننا نؤمن بالقومية العربية وبالاشتراكية معاً في وقت واحد!

إن المطالب الأساسية لكل شعب في هذا العصر الحديث هي أن يحكم حكماً ديمقراطياً نابعاً من الشعب، وأن يكون نظامه نظاماً عصرياً مستنيراً يفتح أمامه آفاق الثقافة والعلم والتطور الشامل، وأن يكون كيانه الاقتصادي قائماً على العدل الاجتماعي، والفرص المتكافئة. .

والدعوة إلى القومية العربية لكي تتغلغل تغلغلاً حقيقياً في نفوس الجماهير، عليها أن تستوعب هذه الأهداف جميعاً، وعليها أن تعلن في صراحة أن الصديق الحقيقي للقومية العربية، يجب أن يكون مؤمناً بهذه الأهداف التقدمية، التحريرية، أما من لا يؤمن بهذه الأهداف، ولا يعمل من أجلها، ثم يتشدق بالقومية العربية، فهو إنما يتاجر بهذه القومية ولا يؤمن بها، يستخدم هذه القومية ولا يخدمها. .

وقد قلنا ـ ثالثاً ـ إن الحركات القومية يجب أن تحرص على عدم الانزلاق إلى العنصرية. .

إن ارتباط حركتنا القومية بالحركة الاشتراكية هو أول وأكبر عاصم لها من العنصرية والرجعية، فمن خلال هذا الارتباط تشعر قوميتنا برسالتها الانسانية، ومن خلال هذا الارتباط نتعلم كيف نحب كل الشعوب، وكل القوميات، وكيف نتعامل معها معاملة تقوم على احترام المصالح المتبادلة والمساواة!

٢ ـ قضية الجزائر في مرحلة دقيقة. . .
ومطلوب منا أن نصنع لها شيئاً. .(*)

قضية الجزائر وصلت اليوم إلى مرحلة دقيقة. .

وقضية الجزائر ليست غريبة عنا، إننا نهتم بأي حرب وطنية تحريرية ضد الاستعمار، ولكن هذا ليس هو السبب الوحيد لاهتمامنا بحرب الجزائر، فالجزائر ـ علاوة على ذلك ـ قطعة منا، قطعة من مستقبلنا، فكما أن السمكة لا تعيش إلاّ في الماء، كذلك فإن استقلال مصر لا يمكن أن يعيش إلاّ في وطن عربي مستقل، ولقد بدا التحام مستقبلنا بمستقبل بلد تبدو لبعض العيون بعيدة كالجزائر، عندما اشتركت فرنسا في محاولة غزو مصر، متذرعة بحجة تأميم قناة السويس، في حين أن السبب الحقيقي كان ثورة الجزائر، كانت فرنسا تعرف جيداً أن تحرر أي بلد عربي يؤدي آجلاً أو عاجلاً إلى تحرر البلاد الأخرى، كانت تعرف جيداً أنه لا شيء يقوي عزيمة ثوار الجزائر كانتصاراتنا في مصر وسوريا، وأنه لا شيء يثبط عزيمتهم ويكسر تصميمهم إلا هزيمة تصيبنا في سوريا أو مصر، فالمعركة التي تعجز عن كسبها في الجزائر، أرادت أن تكسبها بمساعدة انجلترا واسرائيل. . في مصر!!

وتحرر الجزائر، بعد تجربتها الثورية الرائعة، سوف يحل أكثر المشاكل في شمال افريقيا كلها، ستكون الجزائر بعد التحرير أكثر بلاد شمال افريقيا نضوجاً ووعياً، سوف تقضي على مظاهر التردد التي نراها في سياسة هذه الدولة أو تلك، وسوف ترجح لهذا كفتنا العربية في الميزان الدولي، وتضيف إلى خطوطنا في الميدان الدولي خطاً جديداً منيعاً. .

وقد وصلت قضية الجزائر اليوم إلى مرحلة دقيقة جداً. .

ففي البداية، كان العالم يتساءل: متى يسلم الثوار الجزائريون ويسعون للتفاهم مع فرنسا؟. . أما اليوم، فإن العالم يتساءل: متى تسلم فرنسا، وتسعى للتفاهم مع ثوار الجزائر؟

(*) صباح الخير (٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧).

وهذا وحده انتصار ضخم لثورة الجزائر. .

ولكن الثورات في لحظات انتصارها المماثلة تصبح في حاجة أشد إلى العون والمساعدة والحماية. .

ففرنسا بعد أزمة وزارية دامت أكثر من شهر، يعلن رئيس وزرائها أن النية لا تتجه مطلقاً إلى قبول استقلال الجزائر، وأن كون الجزائر قطعة من فرنسا أمر مقرر فلا مجال لمناقشته! واليسار المعتدل في فرنسا قد احترق نهائياً، إذ تبنى السياسة الاستعمارية في الجزائر كأي حزب يميني آخر. بل إنه من المؤسف حقاً، أن كثيراً من عناصر اليسار في أوروبا، بدأت تجد منطقاً جديداً يبرر لها بقاء فرنسا في الجزائر. .

هذا المنطق الجديد متعلق بالوضع في غرب أوروبا، وخلاصته أن الوحدة الاقتصادية المقبلة في غرب أوروبا، سوف تكون معرضة لأن تلتهمها وتسودها المانيا الغربية التي تتفاقم قوتها تفاقماً سريعاً، والتي لا يبعد مطلقاً أن تعود فيها النظم الفاشية بشكل أو بآخر، ولا يوقف هذا الخطر إلّا أن توجد قوة أخرى تستطيع أن توازن قوة المانيا، هذه القوة هي فرنسا، وفرنسا لن تكون قوية ـ اقتصادياً على الخصوص ـ بغير مركزها في افريقيا الذي يستند إلى قاعدة رئيسية هي الجزائر، فلو جردت فرنسا من مركزها الممتاز في افريقيا، فسوف تصبح دولة ضعيفة، وستكون المانيا هي القوة الأولى التي لا منازع لها في أوروبا وسوف ينتصر اليمين!

هذا المنطق ليس خطراً فحسب، ولكنه خطأ أيضاً. .

فهذا اليسار: يرسم استراتيجيته العامة في أوروبا، إما على أساس قاعدة كاذبة غير حقيقية، هي أن الجزائر يمكن أن تكون يوماً قطعة من فرنسا. . وإما على أساس آخر منهار تماماً، هو: أن الاستعمار يمكن أن يعيش زمناً طويلاً. .

وهذا اليسار يثبت بهذه النظرة، أنه ما زال سجين أوروبا!. . بمعنى أنه ما زال يعتقد أن أوروبا هي الدنيا كلها، هي حقل اليمين واليسار، أما افريقيا وآسيا فهي توابع تافهة يمكن استخدامها في تفريج أزمات اليمين أحياناً واليسار أحياناً. وهذه النظرة أيضاً باتت غير صحيحة. فالقسط الذي تساهم به آسيا وافريقيا اليوم في مصير العالم لا يقل عن القسط الذي تساهم به أوروبا. ومستقبل اليمين واليسار بالنسبة إلى العالم كله لن يتقرر في أوروبا، بل في خارجها.

المهم. . والذي يعنينا في هذا المقال بالذات، هو أن فرنسا وحلفاءها يتلمسون ايماناً جديداً يواصلون به حرب الجزائر ويقضون به على ثورتها.

وفي هذه اللحظة بالذات، تحتاج ثورة الجزائر منا إلى جهد جديد وعون جديد. .

لقد مضى عليها أكثر من ثلاث سنوات في اشتعال مستمر، ولا شك أن البلاد العربية قد ساعدتها وساندتها وأيدتها، ولكن المطلوب في هذه المرحلة الأخيرة أكثر.

إن ثـوار الجزائـر لا يطلبـون شيئـاً. ولكن هـذا لا يمنـع أن نتحسس نحن حـاجـاتهم ونسـارع إلى تلبيتها. . وقـد بات تـأييـد الـدول العـربيـة لهم سـافـراً لا يحتمـل المداراة ولا المواربة. .

إنهم ولا شك محتاجـون إلى مبالـغ ضخمة من المـال. . على الأقـل لمواجهـة التخريب المستمر الذي يصبه الفرنسيون عليهم. .

إنهم ولا شك محتاجون إلى مساعـدات طبية وإلى متـطوعين من الأطبـاء، ومطلوب من الحكومات العربية ومن الهيئـات الشعبية عـلى السواء، أن تلبي هـذه الحاجـات وغيرهـا تلبية ضخمة أساسية حاسمة. مطلوب منها أن تضع في كفة الميزان ثقلاً جديـداً كبيراً يقـرّب أجل الخاتمة، ويواجه التصميم الغـربي الجديـد بتصميم عربي جـديد. . وتـأكدوا أن المكسب هـو حرية افريقيا بأسرها. .

٣ ـ خواطر عن الجمهورية العربية المتحدة(*)

«الجو» الذي تتم فيه وحدة سوريا ومصر، مركب من ثلاثة عناصر رئيسية:

العنصر الأول ـ إن الوطن العربي في مرحلة كفاح ضد الاستعمار، سواء في صورة احتلال أو نفوذ، أو في صورة تصميم كتلة دولية كبرى، هي المعسكر الغربي، على ارغامنا على ترك سياسة الحياد التي اخترناها والدخول في منطقة نفوذها. .

العنصر الثاني ـ إننا وطن مجزأ، تختلف الظروف السياسية لكل جزء عن الآخر، كما تختلف أيضاً الظروف الاجتماعية ومستوى المعيشة، وعلينا مهمة توحيد هذه الأجزاء. .

العنصر الثالث ـ إننا نقوم بعملية بناء، فنحن لسنا في حالة صراع من أجل استقلال الكيان فقط، كما في الجزائر مثلاً، ولكننا نباشر في الوقت نفسه عملية بناء، تدفعها مطالب شعبية عاجلة لرفع مستوى المعيشة وتوفير الغذاء والكساء والتعليم والصحة لكل مواطن. .

نحن إذن لسنا متفرغين لمهمة واحدة من هذه المهمات الثلاث. . بل إننا نواجه هذه المهمات الثلاث دفعة واحدة، وفي مرحلة واحدة. .

وتعدد هذه المهمات، ليس من نتيجته أنه يجزىء جهدنا فحسب، ولكن هذه الظروف الثلاثة تنعكس وتتفاعل وتؤثر في بعضها البعض. فصراعنا مع الاستعمار مثلاً متأثر إلى حد بعيد بحقيقة هامة هي وقوع أجزاء أخرى من الوطن العربي تحت نفوذ الاستعمار، فانجلترا وفرنسا عندما هاجمتا مصر مثلاً كانتا تريدان تحطيم الدعوة التحريرية الصادرة عن مصر والتي تزعزع كيانهما في كل مكان من الوطن العربي. .

على هذا النحو يتأثر كل عنصر من هذه العناصر بوجود العنصرين الآخرين. .

(*) صباح الخير (٦ شباط/ فبراير ١٩٥٨).

ونفس هـذا التفاعـل، يواجهنـا ونحن نقوم بعمليـة البناء و «تـرتيب البيت» في داخـل الجمهورية العربية المتحدة . .

فـالمحافـظة على وحـدة وتفاهم الفئـات المختلفة في الـداخـل أمـر ضروري، لـوجـود العنصرين الآخـرين: لوجـود معركتنـا ضد الاستعـمار وما تقتضيـه من تحالف جميـع القوى، ولـوجود عنصر التجـزئة، وأهميـة الحصول عـلى تأييـد كـل هـذه القـوى في البـلاد العـربيـة الأخرى. .

فـالشعب في داخل الجمهـوريـة المتحـدة، يتكـوّن أسـاسـاً من المثقفـين، ومن العـمال والفلاحين والموظفين، ومن التجار والممولين والرأسماليين الوطنيين. . والعثور على أسلوب في البنـاء يلتقي حولـه هؤلاء جميعـاً أمـر هـام: فبـذلـك ينتـظم هؤلاء جميعـاً في الـوقـوف ضـد الاستعـمار، وبذلـك تحصل دعـوة الاتحاد عـلى تـأييـد كـل هـذه الفئـات في البـلاد العـربيـة الأخرى. .

الملعقة! . .

عملية الوحدة تحتاج إلى عمل آخر ضخم، في غـير المستوى السيـاسي والاقتصادي. . وهو: المستوى النفسي. .

إن الاتصال والاحتكاك والتعارف المباشر بـين الأفراد العـاديين في سـوريا ومصر، أمـر هام وضروري. . ولا شك أن هذا أمر سيقع حتماً وبمرور الزمن، ولكننا في حاجـة إلى مجهود كبير لمضاعفة هذا الاتصـال وتوسيـع نطاقـه والتعجيل بـه. . مجهود يكـون أشبه بملعقـة كبيرة تقلب المواد الموجودة في البوتقة لكي تصبح مادة واحدة تماماً. .

والاقـتراحات التي تخـطر على البـال كثيرة. . ولكن المهم هـو أن تبدأ وزارتـا الارشـاد والتربية بتـأليف لجان عليـا تدرس الاقـتراحات المختلفـة وتقوم بهـذه المهمة فـوراً على أوسـع نطاق. .

فمنذ اليوم، يجب أن تبحث كل الاقتراحات التي تخلق موسماً سياحياً بين مصر وسوريا في الصيف المقبل، وتذليل كل العقبات سنة بعد أخرى. .

ومنذ اليوم يجب أن يكون جانب كبير من رحلات الطلبة والطالبات في مختلف المدارس والجامعات عبارة عن أسفار متبادلة بين سوريا ومصر.

ومنذ اليوم يجب أن تفكر كل نقابة. . نقابات المحامين والمهندسين والزراعيين وغيرها، ونقابات العمال ونقابات المعلمين. . الخ. . يجب أن تفكر جميعهـا في ترتيب رحـلات جماعيـة كبيرة يتحمل المسـافرون جـزءاً من تكاليفهـا ويتحمل صنـدوق النقابـة جزءاً آخـر منها لهـذا الغرض.

ومنذ اليوم يجب أن تكـون لكل الفـرق المسرحية والفنية مواسم منتـظمة مـوزعة بـين القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب. .

ومنذ اليوم يجب أن ينتقل كل معرض فني يقام في مصر إلى سوريا ليعرض فترة من الزمن.

إن التلميذ المصري، من أسيوط مثلاً إذا ذهب إلى سوريا سيعود إلى بلدته وقد تبلورت في نفسه الصغيرة حقيقة الوحدة، سيعود ليروي لعشرات ومئات من أهله وأصحابه ما رأى وما سمع وما أحس..

دموع حلف بغداد..

لو أن مؤلفاً مسرحياً بارعاً، أراد أن يكتب مسرحية مثيرة عن أحداث الشرق الأوسط، لما صنع أكثر من هذا الذي حدث..

ماذا يصنع أكثر من أن يجعل اعلان الجمهورية المتحدة يتم في أسبوع واحد مع انعقاد حلف بغداد؟

ماذا يصنع أكثر من أن يجعل دالاس وسلوين لويد يطيران إلى المنطقة، ويلتقيان بنوري السعيد ومندريس، في الوقت نفسه الذي يطير فيه رئيس جمهورية سوريا ووزراؤها ليلتقوا برئيس جمهورية مصر ووزرائها؟..

ماذا يصنع أكثر من أن يجعل اجتماع القاهرة صورة للنجاح والوحدة واجتماع أنقرة صورة للفشل والتفرق؟

لقد صرح مستر دالاس للصحف قبل أن يصل إلى أنقرة قائلاً: «ليس لدينا هذه المرة وقت لأي خلاف.. إن اختلاف الرأي في هذه الظروف ترف لا مكان له»!..

ومع ذلك فقد وجد مستر دالاس في الاجتماع الأول الذي يشهده لحلف بغداد خلافات عنيفة.. ووجد في انتظاره، دموعاً حارة سكبها نوري السعيد، ومندريس، ورئيس باكستان.. وهي دموع ليس مصدرها العاطفة الوطنية الخالصة، ولا الايمان بالمبادىء السامية، بل مصدرها الحرج والخجل والتورط.. لا أكثر ولا أقل..

رئيس وزراء الباكستان.. يبكي ويولول، لأن الهند، بعد اصرارها على الحياد، وبعد تشهيرها لسياسة الأحلاف، وبعد حصولها على المصانع الروسية، وبعد تحديها لأمريكا.. تحصل على قرض ضخم أمريكي يزيد على ٢٠٠ مليون دولار!..

لماذا إذن كانت تبعية باكستان، ودخولها الأحلاف، واتفاقها العسكري، وولاؤها، وانحيازها؟..

ونوري السعيد.. في موقف أشد من الجميع حرجاً:

إن شعب العراق من أكثر الشعوب العربية اقتناعاً بالوحدة العربية وجهاداً من أجلها، وبذور هذه العقيدة راسخة في أرضه من زمن بعيد وفي كل مرة كانت تبرز محاولة للاتحاد بين العراق وسوريا، كانت سوريا ترفض بسبب ارتباطات العراق السياسية وخضوعها للنفوذ

الغربي، وكان نوري السعيد يستطيع أن يقول دائماً: إن سوريا لا تريد الوحدة، ولكنها تنتحل الأعذار. ولكن ها هي سوريا تتحد، لا مع العراق الملاصقة لها، بل مع مصر التي يفصلها عنها بحر، فلا شيء إذا يفصل العراق عن خطوات الوحدة الأساسية. . التي يتزعمها نوري السعيد. .

وكل يوم تنال الجمهورية العربية المتحدة مكاسب جديدة. . وتتعلق بها آمال مزيد من أبناء الأمة العربية. .

والسبب الآخر الذي كان يبرر به انحيازه، وهو أن الغرب هو الذي يعطي السلاح والمصانع والخبرة الفنية، أصبح سبباً مفضوحاً، فالجمهورية العربية المتحدة حصلت على قروض ضخمة ومصانع وخبرات بشروط أحسن، ودون أن تفقد من استقلالها وحرية تفكيرها قلامة ظفر. .

فماذا يقول نوري السعيد لبني وطنه في العراق؟

إنه لا يريد أن يعود فارغ اليد، لأن وضعه هناك يتفاقم، إنه يريد أن يصنع الغرب له شيئاً. . أي شيء. . يشعر به العراقيون. إن الانحياز والأحلاف لها فائدة واحدة: مزيد من المال مثلاً. . محاولة للضغط على اسرائيل. . أي شيء. .

ولكن مستر دالاس لا تهز نفسه الدموع، ولا يتأثر لمنظر البكاء، إنه يعرف أن نوري السعيد سيضطر إلى أن يمسح دموعه ويصطنع ابتسامة عريضة عندما يصل إلى بغداد، فلماذا يحاول أن يكفكف دموعه؟ . . إن دموع نوري السعيد لا تساوي عند دالاس ملايين أخرى من الدولارات، ولا تساوي أي موقف عادل ازاء اسرائيل. .

ورفض دالاس أن يدفع مليماً واحداً. . ورفض أن يغير موقفه من اسرائيل. .

وبقي شيء واحد. . شيء واحد أدبي، طالب به نوري السعيد: أن تدخل أمريكا حلف بغداد كعضو كامل، فترفع بذلك من معنويات الأنصار، وتقنعهم بأنها لا يمكن أن تتخلى عنه ذات يوم. .

ولكن، حتى هذا الطلب المعنوي يرفضه دالاس! ويعود إلى واشنطن وقد ترك حلف بغداد غارقاً في «الترف» الذي تحدث عنه. . أي غارقاً في الخلافات!!

٤ ـ حكاية الايديولوجية العربية!(*)

ترددت في الأيام الأخيرة كثيراً عبارة «الايديولوجية العربية». .

وتردد هذه العبارة بكثرة وإلحاح، يعبر عن فرط الاحساس بحاجتنا إلى عقيدة متماسكة «تغطي» كل نواحي حياتنا وتتصدى بالحل لكل مشاكلنا. . وإلى أن تكون هذه العقيدة معبرة عنا حقاً، نابعة من ظروفنا ومشاكلنا. .

ولا شك أن عبارة «ايديولوجية عربية» في حد ذاتها عبارة تحمل كثيراً من أسباب اللبس والاضطراب. .

فنحن حين نقول «ايديولوجية» نقصد في الواقع «عقيدة اجتماعية»، في حين أن «العربية» صفة قومية، لا اجتماعية. . بمعنى أن هناك ايديولوجية اشتراكية، وايديولوجية شيوعية، وايديولوجية رأسمالية. . في حين أنه ليس هناك شيء اسمه ايديولوجية انجليزية أو ايديولوجية المانية أو فرنسية!. .

وبالتالي، فإنه يمكن أن يوجد ـ بل ويوجد بالفعل ـ في الوطن العربي الواحد من يؤمن بايديولوجية اشتراكية، ومن يؤمن بايديولوجية شيوعية أو رأسمالية. .

على أن ظهور عبارة «ايديولوجية عربية» قد كشف عن اتجاهين خاطئين، وخطيرين، وإن كانا على طرفي نقيض. .

الاتجاه الأول، يظن أصحابه أن وصف العقيدة التي نريدها بأنها «عربية» يعطيهم الحرية المطلقة في ابتكار ما يشاءون. يعطيهم الحق في أن «يخترعوا» أي شيء ويقولون: هذه ايديولوجيتنا العربية. . ونحن أحرار في صنعها.

(*) صباح الخير (٥ حزيران/ يونيو ١٩٥٨).

وهذا بالطبع هراء، إذ لا مفر من الأخذ بالقواعد المتفق عليها في الايديولوجيات الانسانية العالمية. ومحاولة اختراع ايديولوجية اشتراكية مثلاً لا صلة لها بالقواعد العلمية المتفق عليها، كمحاولة اختراع سيارة دون الأخذ بالقواعد العلمية الخاصة بعملية الاحتراق الداخلي التي تجعل السيارة تسير. إننا نستطيع أن نغير ما نشاء في تصميم شكل السيارة وحجمها وقوتها وما إلى ذلك، ولكننا لا نستطيع مطلقاً أن نتجاهل الحقيقة العلمية التي تجعل السيارة تسير، وإلّا أصبحت هذه كالسيارة التي تسير بواسطة «زمبلك» تمشي خطوات ثم تتوقف، ولا تصلح إلّا ليعبث بها الأطفال. .

أما الاتجاه الثاني الخاطىء، فهو يتطرف إلى النقيض تماماً، فيقول أصحابه إن الايديولوجية الاشتراكية مثلاً واحدة، بمعنى أنها متطابقة بحذافيرها، وكأنها جسم صلب، لا صلة له بالبشر، واحدة بمعنى التقليد الغشيم الأعمى، كأنها مادة صماء، يمكن أن نخرط منها بنفس المقص آلاف وملايين القطع المتشابهة في كل شيء.

أصحاب هذا الاتجاه الثاني يظنون أنه يكفي أن يقرأ الانسان كتاباً عما ماذا فعل الاشتراكيون في بلد من البلاد، لكي يعرف ماذا عليه أن يفعل في بلده هنا. . يفتح الكتاب أمامه، وينقل منه فقرة. . كما تفعل ربة البيت الخائبة حين تفتح كتاباً في طرق الطبخ وهي تطهي الطعام!. . وكأن مهمة السياسي كمهمة التلميذ الذي يؤدي الامتحان ليس عليه إلّا أن يكتب اجابة الاسئلة كما حفظها من الكتب المقررة!. .

ومن الغريب أن هذين الاتجاهين الخاطئين، بينهما تشابه «نفسي» غريب! إن أصحاب هذين الاتجاهين يشاركون في الكسل الفعلي، والعزوف عن التعب والجهد والعمل. فكل من هذين الاتجاهين يحمل إلى صاحبه راحة رخيصة. . راحة أشبه بغيبوبة المخدر!. .

راحة صاحب الاتجاه الأول في أنه لا حساب عليه! يخترع ما يشاء ويقول ما يشاء دون أن يكون هناك معيار علمي تحاسبه على أساسه. . كصاحب الصوت «النشاز» الذي لا صلة له بأي سلم موسيقي معروف!. .

وراحة صاحب الاتجاه الثاني في أنه يتنازل تنازلاً مطلقاً عن عقله، كالطفل الذي يكتفي بأن يلوذ بمن هو أكبر منه ويسلم له قياده. . أو كالفرد في «الكورس» الذي يكرر المقطع بعد أن يلقيه المغني، وعندما يشير إليه قائد الأوركسترا.

فأين الصواب إذاً؟. .

الصواب هو أن لا نكون «نشازاً» خارجاً عن القواعد. . وأن لا نكون مجرد أفراد في «كورس». .

الصواب هو أن تكون ايديولوجيتنا:

١ ـ اشتراكية. . بمعنى أنها في جوهرها الصلب تتفق مع الاشتراكية العلمية التي تنادي بالقضاء على الاستغلال، وبتحقيق المساواة، والديمقراطية السياسية والاقتصادية. .

٢ ـ عربية.. بمعنى أنها تستلهم في خطواتها وفي سيرها إلى هذه الغاية، ظروف الشعب العربي السياسية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية.

وهذا الطريق الصائب هو الطريق الصعب، لأنه يحتاج منا ـ أولاً ـ أن نكون عارفين فاهمين للحقائق العلمية التي وصلت الانسانية إلى اكتشافها، ويحتاج منا ـ ثانياً ـ أن نكون على درجة من الشجاعة الفعلية والقدرة الايجابية الخلّاقة..

هذا هو الطريق الصعب، ولكنه الطريق السليم.. الطريق الذي سيكتب له البقاء!..

٥ ـ الشعور بالقومية(*)

هناك عنصر من عناصر القومية، يثير بعض الجدل والخلاف، ذلك هو عنصر: الشعور بالقومية.

الكل يتفقون على أن اللغة والثقافة والبيئة والتكوين النفسي المشترك، كلها أشياء تساهم في ايجاد القومية الواحدة.. إنها كلها مواد لا بد منها لإيجاد القومية الواحدة.. ولكن هناك عنصر آخر لا بد منه. هو اليد التي تخلط هذه المواد، والنار التي تنضجها، هو: الشعور بهذه القومية..

هذا العنصر، عنصر الشعور، له اسم آخر، أطلقه عليه «ماتزيني» وهو: الارادة الشعبية العامة.. أي أن يكون مجموع الشعب شاعراً بهذه القومية كحقيقة حية في نفسه، راغباً رغبة أكيدة في الاتحاد مع كل الملايين التي تنضوي تحت لواء هذه القومية..

ولكن هناك خلاف حول تحديد قيمة هذا العنصر ومكانه..

بعض «المثاليين» يتكلمون عنه، وكأنه عنصر مستقل تماماً، وكأنه شعور يوجه من العدم، ويهبط علينا من الهواء، ويندس في نفوسنا من المجهول.. وهو بعد ذلك هو الشيء الوحيد الذي يخلق القومية..

وعلى العكس، هناك بعض «الماديين» يهاجمون عنصر الشعور والارادة، ويعتبرونه وهماً وضلالاً.. ذلك أنهم أيضاً يفهمون «الشعور بالقومية» نفس الفهم المثالي السخيف..

ولو أننا رجعنا إلى أبرز ممثلي المادية في العصر الحديث، لوجدنا لديهم البرهان على وجود عنصر الشعور وأهميته.. بما يحسم هذا الخلاف..

(*) صباح الخير (٣١ تموز/ يوليو ١٩٥٨).

إن ستالين يقول: «بعكس المثالية التي تقرر أن شعورنا فقط هو الذي يوجد في الواقع، وأن العالم المادي أو الموجود أو الطبيعة لا توجد إلّا في شعورنا واحساساتنا وتصوراتنا وأفكارنا.. تقوم المادية الفلسفية الماركسية على مبدأ أن المادة أو الوجود هي واقع موضوعي موجود خارج شعورنا ومستقل عنه، وأن المادة هي المعطى الأول لأنها مصدر الاحساسات والتصورات والشعور، بينما الشعور معطى ثان تابع، لأنه انعكاس للمادة أو انعكاس للوجود، وأن الفكر هو نتاج المادة عندما تصل في تطورها إلى درجة عالية من الكمال. فلا يمكن فصل الفكر عن المادة دون الوقوع في خطأ جسيم»[1].

ويقول لينين في ايضاح الفكرة نفسها «إن المادة مقولة فلسفية تدل على الواقع الموضوعي المعطى للإنسان في احساساته التي تنقل هذا الواقع وترسم صورته وتعكسه، دون أن يكون الواقع تابعاً لوجودها».

ويقول لينين أيضاً «الواقع الموضوعي يوجد مستقلاً عن الشعور الذي يعكسه...».

ومعنى هذا:

أولاً - أن الشعور كعنصر، موجود دائماً.

ثانياً - أنه لا يوجد من العدم، ولكنه كانعكاس لوجود مادي.. الوجود المادي هو الذي يمنحه الحياة، وليس هو الذي يمنح الوجود المادي الحياة..

فنحن إذاً حين نقول إن الشعور بالقومية عنصر هام لا توجد القومية بدونه، نكون صادقين إلى أقصى الحدود.

نحن ضد القول بأن عنصر الشعور غير هام أو غير موجود.. ونحن أيضاً ضد القول بأن الشعور عنصر هام ولكنه موجود بذاته، يولد أولاً وقبل أن توجد الأسباب الموضوعية له..

هناك شعور، وهناك أسباب مادية له.. ووجود الشعور في ذاته دليل على وجود أسبابه المادية.

بل إنه يمكننا القول إن توفر الأسباب المادية الموضوعية للقومية دون توفر الشعور بها، دليل على أن هذه الأسباب الموضوعية ليست موجودة بالدرجة الكافية، دليل على أن هناك خللاً ما في هذه الأسباب الموضوعية، دليل على أن هذه العناصر الموضوعية لم تتفاعل بالصورة التي تتولد عنها هذه الطاقة.. طاقة الشعور.

وهذا «الشعور» بالقومية، بتولده عن كل العناصر الموضوعية السابقة، يصبح بدوره عنصراً حاسماً، ويصبح طاقة هائلة وقوة ضخمة ودافعاً نفسياً عظيماً. إنه ذلك الشعور الذي يقف مفتوح الصدر أمام الرصاص!..

وقد يبدو لنا هذا «الشعور» أحياناً منفصلاً عن أسبابه، بشكل يغري بأن نقول إنه معلق في الفراغ. كأن نرى انساناً بسيطاً ولا يعي بالدقة العلمية عناصر قوميته، أو يعيها وعياً

---

(١) جورج بوليتزر، المادية والمثالية، ترجمة اسماعيل المهدوي ([د. م.: د. ن.]).

خاطئاً، ولكنه مع ذلك ممتلىء النفس بالشعور القومي، مستعد للتضحية من أجله.. ولكن الواقع أن الشعور بالقومية حتى لدى هذا الانسان له أسبابه. ولكنه في هذه الحالة «افراز» في نفسه لعناصر موضوعية تكوّن الفرد وتحيط به دون أن يعيها.. فضلاً عن أن هذا الشعور ينتقل من الواعي بها إلى غير الواعي بها بصورة أقرب إلى العدوى، والايقاظ، والهزة.

وإلا.. إذا كنا لا نعترف بأن هذا الشعور يصنعه واقع موضوعي.. فلماذا لا يهبط هذا الشعور بالقومية العربية مثلاً، على انسان يعيش في أوروبا أو أمريكا؟!.. ما الذي يجعل هذا الشعور قاصراً على المواطن في البلاد العربية فقط؟..

أليست هي عشرات العوامل التي تصنع ظروف هذه المنطقة؟

وإلاّ إذا كنا لا نعترف بأن هذا الشعور يصنعه واقع موضوعي، فأين إذن قيمة الدعوة ونشر الوعي؟.. كيف نقنع كل يوم مزيداً من الناس بالقومية العربية؟..

هل نعزله في غرفة مغلقة ونتركه حتى ينزل عليه الوحي ويورق في نفسه الايمان؟.. أم أننا نبصره، ونبرهن له، ونهزه، ونذكره وناقشه؟.. وبأي شيء نبصره ونبرهن له وناقشه؟.. بالأغاني والدموع فحسب أم بالواقع الموضوعي؟..

هذا ـ فيما أعتقد ـ هو الوضع الصحيح لهذا العنصر الهام من عناصر القومية الواحدة، عنصر الشعور والإحساس بها!..

٦ ـ مأساة العقل والقلب(*)

كلمة صحيحة قالها فيلسوف فرنسي: «إن أزمة الجزائر لا تمزق فرنسا.. إنها تمزق كل فرنسي!.. إننا نرى ـ على السطح ـ فرنسياً يؤمن بأنه يجب أن تبقى الجزائر فرنسية. ولكن الواقع الأعمق من ذلك هو أن كل فرد فرنسي يظن ساعة أنه يمكن ابقاء الجزائر فرنسية.. ويظن ساعة أخرى أنه لا مفر من أن تستقل الجزائر».

والعصيان الأخير.. إذ وقف الفرنسي أمام الفرنسي، وكلاهما يضع أصبعه على الزناد.. ليس إلّا صورة مادية لهذا التمزق.. لهذه الحيرة والبلبلة الخانقة.

وعلى المستوى الفكري.. نجد أيضاً الفرنسي يقف أمام الفرنسي.. كلاهما متحصن في خندق من منطق معين وفلسفة معينة.. يتصارعان.. وكل منهما في داخله صراع آخر خفي.

عن أمثلة ذلك.. كتابان أحب أن أقدمهما إليك: كتاب اسمه مأساة الجزائر للمفكر الفرنسي الكبير ريمون آرون. وكتاب صدر للرد عليه.. بقلم جاك سوستيل.. الوزير الخطير الذي طرده ديجول منذ بضعة أيام.. والرجل الذي تزعم حركة ١٣ أيار/ مايو لتدمير الجمهورية الفرنسية الرابعة، ووضع ديغول في مقعد الحكم، وأحد زعماء المتطرفين الفرنسيين المؤمنين بسياسة الحرب في الجزائر!

إن ريمون آرون يدعو إلى ترك الجزائر.. وسوستيل يدعو إلى الإبقاء عليها تحت سيطرة فرنسا.

وسوف نرى بعد قليل كيف أن سوستيل ـ وأمثاله ـ يرون صورة العالم مقلوبة.. وصورة التاريخ مقلوبة.. وسنضحك حين نقرأ كلامه.. تماماً كما نضحك عندما نرى صورة وقد علقها صاحبها في بيته بالمقلوب.

(*) آخر ساعة (١٠ شباط/ فبراير ١٩٦٠).

ولكن ماذا يقول ريموند آرون أولاً؟

إنه رجل عملي.. لا يتكلم كثيراً بلغة المبادىء والمثاليات.. ولكنه يتكلم بلغة الواقع الذي لا مفر من الاستسلام له.

إنه يدعو إلى شجاعة مواجهة الحقيقة.

إنه يردد كلمة قالها الفيلسوف رينان عند كارثة فرنسا بهزيمتها أمام المانيا سنة ١٨٧٠.. إذ قال: «إن شعبنا لا ينقصه القلب.. ولكن ينقصه العقل!».

ويحاول «آرون» أن يخاطب عقل فرنسا بمنطق بسيط:

«- إن فرنسا تقول إنها أكثر تقدماً من الجزائر وانها تريد أن تعطي الجزائريين حريات كالتي يتمتع بها الفرنسيون، ولنفرض جدلاً أن الحكم الوطني في الجزائر سيكون ديكتاتورياً، ولكن المؤكد أن كل شعوب افريقيا وآسيا اليوم تفضل الاستقلال مع الديكتاتورية على حكم الأجنبي «الديمقراطية..». ولو أننا خيرنا شعب فرنسا بين الاثنين، لاختار الشيء نفسه الذي تختاره آسيا وافريقيا.

- ثم.. كيف نقول إننا يجب أن «نفرض» الحرية. إن مجرد استخدام القوة ينفي وجود الحرية أصلاً.

- إن الذلة والمهانة ليستا في اعطاء الاستقلال لشعب ما. ولكن الذلة والمهانة هما أن «نضطر» إلى اعطائه الاستقلال تحت ضغط الثورة.. وكل انتظار لمزيد من الضغط، فيه مزيد من الذلة والمهانة لفرنسا!

- غير صحيح أن فرنسا ستتعرض لكارثة اقتصادية إذا «خسرت» الجزائر. إنهم يقولون إن فقد الجزائر معناه فقد افريقيا. وفقد افريقيا معناه أن تخسر فرنسا السوق الذي تبيع فيه ٢٠ بالمئة من قماشها و٤٠ بالمئة من سياراتها.. إلى آخره. إنهم يقولون إن العمال الفرنسيين يعملون يوماً من كل تسعة أيام للانتاج الذي يباع في شمال افريقيا. وفقد هذا السوق معناه أن يتعطل العامل الفرنسي يوماً كل تسعة أيام!

وبعض هذا صحيح ولكن يجب أن نذكر أن أندونيسيا مثلاً كانت أهم بالنسبة إلى الاقتصاد الهولندي.. وقد استقلت اندونيسيا ولم يخرب بيت هولندا! ثم إن تعود اقتصاد فرنسا على الأسواق «المحمية» التي لا ينافسه فيها منافس.. وضع يورث الكسل.. ويجعل اقتصاد فرنسا عاجزاً عن مواجهة التطور الاقتصادي والعالم كله المقبل على منافسات ضخمة!

- إن الحرب تكلف فرنسا ٤٠٠ ألف مليون فرنك في السنة، أي حوالى ٤٠٠ مليون جنيه. ولو أننا قررنا نقل كل الفرنسيين في الجزائر وتوطينهم في فرنسا ثانية فلن يتكلف الأمر أكثر من هذا المبلغ.. أي نفقات الحرب مدة سنة واحدة!

- إن مصالح فرنسا في المغرب وحدها تقدر بحوالى ٦٠٠ مليون جنيه. وهناك مصالح أخرى في تونس واستمرار حرب الجزائر يهدد مصالح فرنسا في كل شمال افريقيا.. لأن شمال افريقيا كله وحدة واحدة.. ولأن استمرارنا في الحرب يجعل حتى الراغبين في صداقة فرنسا مضطرين إلى التخلي عنها.

- إن أغلبية فرنسا تعترف بأن هناك ولو شيئاً اسمه «الشخصية الجزائرية»، وهذا الاعتراف معناه عدم استبعاد فكرة قيام دولة جزائرية على نحو ما، والاعتراف بذلك معناه عدم استبعاد فكرة أن تستقل هذه الدولة الجزائرية يوماً.. إذن ففيم المماطلة؟

- ويقول ريموند آرون: إن البعض يقولون إن فرنسا يجب أن تحارب لا لكي تمنع استقلال الجزائر، ولكن لكي تسلم هذا الاستقلال إلى ناس غير متطرفين، ينكلون بالمستوطنين، وهو يحبذ هذا الرأي!.. وهو رأي

يشبه الطريقة الانجليزية التي تطبق في بعض بلاد افريقيا وآسيا. ولكنه يقول: إذا لم يكن هناك مفر من الاختيار إما بين الحرب وإما بين الجلاء وترك الجزائر للمتطرفين.. فلا بد من اختيار الجلاء!

ـ إن اطالة الحرب وتأجيل الجلاء يجعلان بقاء المستوطنين بعد الاستقلال وتعايشهم على الجزائريين أكثر صعوبة.

ـ إن الجزائريين يتزايدون بنسبة أكبر من الفرنسيين.. اليوم نسبة الفرنسيين إلى الجزائريين هي واحد إلى ٩.. ولكن بعد ٢٥ سنة ستكون النسبة واحد إلى ١٥.. فكيف نتصوّر أنه من الممكن أن تظل الأقلية تحكم الأغلبية، وهي تزداد قلة؟!

ـ يقول دعاة الحرب إننا نحارب لكي نساعد الجزائر ونعمل على ترقيتها! ولكن أليس مضحكاً أن فرنسا تساعد الجزائر بإرسال نصف مليون جندي لها.. تساعدها بالدبابات والطائرات!! إن أي مساعدة مجدية للجزائر لا بد لها أولاً من شرط أساسي، هو السلام!

ـ يقول آخرون: يجب أن تبقى فرنسا في الجزائر بسبب البترول الذي اكتشف هناك. بالعكس، إن أحسن طريقة نفقد بها هذا البترول، هي أن نتمسك به كله، وأن يكون لنا بمفردنا! إن استثمار البترول يحتاج إلى علاقات حسنة آمنة مع كل شمال افريقيا..».

انتهى كلام ريمون آرون، الذي ركزته هنا تركيزاً شديداً. إنه ـ على أي حال ـ كلام يحاول أن يتمسك بالمنطق والعقل.

أما كتاب سوستيل في الرد عليه.. فليس فيه ذرة من العقل! إنه نار ورماد وصياح وزئير وغضب! إنه حالة عصبية تستغرق مائة صفحة.

إنه يقول:

«عندما احتل التتار بغداد من ٧٠٢ سنة، أقاموا نصباً تذكارياً لانتصارهم من جماجم ١٠٠ ألف من السكان.. والمثقفون الفرنسيون يخافون على جماجمهم.. وهم يتنبأون بانهيار الغرب!

إن راديو القاهرة ودمشق ليس في حاجة إلى اختراع مادة ضدنا! يكفي أن تقرأ هذه الاذاعات ما تنشره بعض الصحف الفرنسية والمثقفون الفرنسيون لكي تعرف أن الهزيمة تدب في فرنسا!».

ويقول سوستيل: «إنهم يرددون دائماً أن هذا هو عصر القوميات الحديثة.. وأنه لا بد من التسليم بحقوق القوميات كلها وخصوصاً القومية العربية، لأن انتصارها حتمي. ولكن لماذا لا يطالبون بحق القومية الفرنسية؟! لماذا يشك المثقفون الفرنسيون في كل شيء إلّا فيما يصدر عن الرؤوس التي تلبس الطربوش والشاشية (الشاشية هو الاسم المحلي للطربوش المغربي)؟».

أليس هذا مضحكاً؟.. إن القوميات تطالب بحرية بلادها.. ولكن سوستيل ينقل القومية الفرنسية إلى بلاد الغير، إلى الجزائر، ثم يطالب بها بوصفها من حقوق القومية الفرنسية.

لم يهاجم سوستيل فكرة حتمية التاريخ وضرورة انتصار العرب. ويضرب مثلاً بأنه منذ مئات السنين، اكتسحت الحضارة العربية كل شمال افريقيا، ثم غزت اسبانيا، ثم قرعت أبواب فرنسا لولا أن ملك فرنسا شارل مارتل وقف ضدها في معركة «بواتييه». فلو كان

المثقفون اليساريون موجودين في ذلك الوقت لنصحوا شارل مارتل بأن يفتح أبواب بلاده للعرب؛ لأن هذه هي حتمية التاريخ!!

ومرة أخرى.. لا نملك إلاّ الضحك إزاء هذا المنطق المقلوب ونقول له: إن القومية العربية تدافع الآن عن بلادها كما دافع شارل مارتل عن بلاده! إن هذا العصر هو عصر استقلال القوميات، وهذه هي الحتمية الوحيدة.. فهي حتمية الاستقلال وليست حتمية الغزو!

ويمضي سوستيل في المغالطة التي تثير الضحك فيقول: «إن آرون يقترح نقل المليون «جزائري» الذين من أصل أوروبي إلى فرنسا، لأنهم فرنسيون. ولكن الملايين التسعة المسلمين فرنسيون أيضاً.. فماذا نصنع بهم. هل ننقلهم أيضاً إلى فرنسا.. حتى لا تحكمهم جبهة التحرير الجزائرية..».

فسوستيل يناقش على أساس أن الجزائريين فرنسيون وأن هذه بديهية، مع أن بديهيته هذه بالذات هي المغالطة الأساسية! ولكنه يريد أن يبني على المغالطة نتائج سليمة!

ثم يعلن سوستيل بصراحة: أنه يعتقد أن ثلاث جهات تتآمر لفصل الجزائر عن فرنسا. هذه الجهات الثلاث هي القاهرة.. وموسكو.. وواشنطن. القاهرة تريد تحويل الجزائر إلى جزء من وطن عربي.. وموسكو تريد تحويلها إلى شيوعية.. وواشنطن تريد أن تأخذ بترولها وتقيم فيها قواعد عسكرية. وهو يقول إن خروج فرنسا لن يبقي الجزائر كجزائر ولكنه سيجعلها تصبح عربية أو أمريكية أو شيوعية!.. وإذا كان الأمر كذلك، فلتبق الجزائر فرنسية!

إن سوستيل يرى الدنيا كلها أشباحاً تتآمر على فرنسا! وهو يرفض أن من حق الجزائريين اختيار مصيرهم! والحل عنده هو الحرب.. الحرب.. الحرب!

وقد سقط سوستيل!

٧ ـ المرحلة الحرجة في حياة الوحدة(*)

من أهم الدروس التي يجب أن نكون قد تعلمناها من تجربة الانفصال، درس خطير هو: إن مجرد اعلان الوحدة واتمام تشكيلاتها الدستورية لا يعني أن بناءها قد تمّ، وان تحويل الدول الداخلة في الوحدة إلى دولة متحدة يستغرق زمناً طويلاً.. هو في الواقع فترة انتقال، مهما أطلقنا عليها من أسماء.. وهي أخطر الفترات في حياة الوحدة.

إن اعلان الوحدة يقضي على العناصر الظاهرة فقط من الانفصال، ولكنه لا يقضي على عناصره الكامنة، المتغلغلة. وإلى أن تلتحم الدول المتحدة التحاماً عضوياً، طبيعياً، كاملاً.. فهي في المرحلة الحرجة.. مرحلة الانتقال.. وهي بالتالي عرضة للانفصال.

وهذا يقتضي منا أن نعرف بالضبط أي شيء في بناء الوحدة يجب أن نربطه ونلحمه، وأي شيء يجب أن نؤجل عملية الالتحام بالنسبة إليه. فشخصية الجمهورية من الناحية الدولية ـ مثلاً ـ تلتحم من المرحلة الأولى في حين أن اقتصادها لا يلتحم على الفور، إنما لا بد له من اجراءات تدريجية، تقاس بمقياس زمني دقيق، حتى لا يقع فيها تسرع.. ولا ابطاء.

وهذه المرحلة الحرجة في حياة الوحدة هي موضوع هذا الحديث.

وقد كتبت في الأسبوع الماضي: ان الأساس الحديدي للوحدة في هذه المرحلة هو حكم شعبي قوي في كل قطر، قادر بقواه الذاتية على الاستقرار والصمود من جهة، وعلى دفع عجلة الثورة والتطور من جهة أخرى.

وقلت: «إن قيام الوحدة لا يعني أن توجد ـ أوتوماتيكياً ـ قوة جديدة تماماً تولد في أوج قوتها خلال يوم واحد، وتستطيع أن تقوم بالمهمة وحدها نيابة عن الحكم الداخلي في مصر وسوريا والعراق.. فإن كل ما يحققه

(*) الأخبار، ١٣/٤/١٩٦٣.

مجرد «انجاز» الوحدة أول الأمر، هو أن يوجد «المظلة» التي يتحرك الجميع في ظلها وتحت حمايتها المعنوية لا المادية».

قيام هذه النظم القوية المحلية الثلاثة ـ إذن ـ هو الخطوة الأولى.

ولكن ما هي الخطوة المنطقية التالية التي تكمل هذه الخطوة الأولى وترافقها من البداية؟

ما هي الروابط التي تربط بين هذه النظم الثلاثة، وتغذي وحدتها، حتى تجتاز ـ بالدولة الجديدة ـ مرحلة الخطر؟

إنها تتلخص في ثلاث:

- روابط سياسية...
- وروابط عسكرية...
- وروابط دستورية...

والروابط الدستورية تأتي في آخر القائمة، رغم أنها من الناحية الشكلية، تأتي في المقدمة، وذلك تأكيداً لأهمية الرابطتين الأوليين، اللتين لا يمكن أن تستند الرابطة الدستورية إلّا إليهما.

الروابط السياسية، أقصد بها الحركات الشعبية السياسية، سواء كانت أحزاباً أو تنظيمات شعبية أو جبهات قومية.

إن الخطر كل الخطر هو أن نضع الرابطة بين هذه الحركات الشعبية في أقل من مكانها الصحيح.

إن التنظيمات الشعبية هي قوام الحياة السياسية، وهي القوة الدافعة للمجتمع في كل بلاد العالم، مهما كانت نظمها وفلسفاتها، وسواء كانت تأخذ بنظام الحزب الواحد أو التنظيم الشعبي الواحد أو الأحزاب المتعددة.. فلا يمكن أن يقوم نظام ويستمر ويتزود بماء الحياة الدافق المتجدد ما لم يكن ملتصقاً بالأرض كما تلتصق النباتات بالتربة ترتوي جذورها دائماً من الغذاء الصاعد إليها.

وليس في هذا التشبيه أي محاولة لرسم صورة بلاغية، بل إن هذه هي الحقيقة الصلبة المجردة. إن التنظيم الشعبي هو الأداة الحديثة التي اكتشفتها المجتمعات مع بدء عهد مشاركة الشعوب في الحكم ونمو قوة الرأي العام.

إن التنظيم السياسي الشعبي هو القوة المحركة واليد الدافعة في حياة أي شعب وأي نظام. إن ما يفرزه العمل الرسمي أو الاداري يختلف تماماً عما يفرزه العمل الشعبي. الكفاءة في الجهاز الاداري هي كفاءة الطاعة والتنفيذ والحياد على أحسن الحالات. أما الكفاءة في الجهاز الشعبي فهي كفاءة التنبؤ والاكتشاف والنقد والتصحيح.. هي كفاءة القيادة وتحمل المسؤولية.

الفرد ـ نفس الفرد ـ صفته في الجهاز الاداري غير صفته في الجهاز السياسي. صفته في الجهاز الاداري أنه يقوم بوظيفة، يكسب رزقه، يؤدي واجباً مكلفاً به. أما في الجهاز السياسي فهو متطوع، يؤدي واجباً لأنه متحمس له ومؤمن به، ولم يكلفه به أحد. ومن الممكن أن نستغني عنه.. حتى انتظام هذا الفرد ـ نفس الفرد ـ في عمله الاداري غير انتظامه في عمله السياسي: هو في عمله الاداري يطيع رئيساً أعلى منه درجة في الكادر ولكنه في عمله السياسي يطيع قائداً، أو قيادة.. أقوى منه عزماً وأكفأ منه في النضال.

وإذا كانت المجتمعات ـ حتى المستقرة منها ـ في حاجة إلى هذه التنظيمات، فحاجة المجتمعات الثائرة النامية إليها أشد. ففي مراحل تحطيم القيم القديمة واقامة قيم جديدة، وعلاقات جديدة.. في المراحل التي ما زال النضال فيها قائماً والمعركة مفتوحة، يكون المجتمع في حاجة أشد إلى هذه التنظيمات الشعبية.

ولا أظن أن هناك حاجة إلى الاستطراد في هذا المعنى، الذي لا يختلف حوله أحد.

وعندما ننظر إلى واقع الأقطار العربية الثلاثة التي تريد أن تتحد، نجد أن فيها أكثر من حركة شعبية، تختلف في أعمارها وفي تجاربها وفي ظروف ولادتها.

كل حركة من هذه الحركات في مصر وسوريا والعراق جاءت من طريق.. وكل منها تحمل غبار الطريق الذي سلكته. ولا يمكن أن ننتظر أن يسقط عنها هذا الغبار بين يوم وليلة، فإن عبء التاريخ ليس بالأمر الهين بالنسبة لأي حركة سواء في مصر أو سوريا أو العراق.

وحين نرتب عملية ايجاد الرابطة السياسية الشعبية بين الأقطار الثلاثة، نجد أن نقطة البدء هي أن توجد القوة السياسية بهذا الوصف أولاً في كل قطر.

في مصر، يجب أن تنتهي مرحلة تكوين الاتحاد الاشتراكي بإيجاد تنظيم سياسي شعبي فعال، قادر على أن يكون طليعة تقدمية متفتحة مناضلة. وتصادف اتمام تكوين الاتحاد الاشتراكي مع اتمام الوحدة، يواجه الاتحاد بامتحان هام، امتحان أول لقاء جدي مع حركات شعبية أخرى.

وفي سوريا وفي العراق، لا بد أن تقوم جبهة بين الأحزاب والتنظيمات الشعبية ذات الوجه التقدمي، جبهة يكون هدفها أعمق من مجرد التحالف.. جبهة غايتها أن تغسل الجانب السياسي وتنمي الجوانب الايجابية التي تجعلها كتلة شعبية صلبة قادرة على حمل المسؤولية.

وإذا أمكن ايجاد هذا الوضع في كل قطر من الأقطار الثلاثة.. فإن الخطوة الحتمية التالية هي ايجاد لقاء بين التنظيمات السياسية في الأقطار الثلاثة.

ومرة أخرى، يجب ألّا تكون غاية هذا اللقاء مجرد التحالف، لأنه ليس من المنطق الوحدوي أن تتكون التنظيمات السياسية في الدولة الواحدة على أساس جغرافي اقليمي، إنما

تكـون غايـة هذا اللقـاء هي أيضاً تكـوين كتلة صلبة من الـداخل. . لا عن طـريق الحذف والاستبعاد، ولكن عن طريق التزاوج والتفاعل والوصول إلى نوع من القيادة الموحدة.

إن نجاح هذه التجربة هو حجر الأساس الأول في نجاح الوحدة، ولقد يحتاج الأمر في انجـاحها إلى درجـة هائلة من التجـرّد وانكار الـذات والثقة بـالنفس، ولكن حدث الـوحدة التاريخي، على نطاقه الضخم الجديد، لا بد أن يرفعنا جميعاً إلى مستواه.

ومن يتأمل الحركات الوحدوية التقدمية تأمـلاً عميقاً، في مصر وسـوريا والعـراق، يجد أن الخلافات المذهبية بينها في الأساس بسيطة، أقل بكثـير من الخلافـات والفروق التي تـوجد داخـل الحـزب الـواحـد. ولكن الـظروف الخـاصـة التي مـرت في كـل قـطر، جعلت بعض الحركات تصدر عن أحكام تاريخية مختلفة، أو جعلت بعضها يتأثر برد فعل أعنف ضد اليسار المتـطرف أو اليمين المتـطرف. ولكن هذه كلهـا وقفـات وتـأثـرات أصغـر من حجم القضيـة الكبير. ومع بدء الوحدة تصبح تركة التاريخ تراثاً نرجع إليه لنستفيد منه لا لكي نغدو عبيـداً له. ومع بدء الوحدة يصبح الحكم على المواقف الجديدة التي نتخذها في ظلها.

الرابطة الثانية هي الـرابطة العسكـرية. إن وجـود جيش واحد للدولـة المتحدة، يعـدّ بديهية من البديهيات. . فالجيش في مثل هذه الظروف هـو أول جهاز يتـوحد، لأنـه بطبيعتـه التنظيمية أسهل الأجهزة المستعدة أوتوماتيكياً للتوحيد. كذلك فإن الجيش بالذات هو الجهـاز الذي لا يمكن أن يكون متعدداً أو متفرقاً في أية دولـة من الدول، اتحـادية أو غـير اتحاديـة. . فـالجيش قوة قـومية، خـارج التقسيمات الجغـرافيـة وخـارج الحكم المحـلي وخـارج الجبهـات السياسية، وفي البلاد الاتحادية التي يشحب فيها سلطان الحكومة الاتحادية إلى أقصى الحدود، تبقى الحكـومة الاتحـادية سلطة لا شـك فيها ولا انتقـاص منها. . هي سلطتهـا على القـوات المسلحـة. . فأي شيء يقبـل الاقليمية إلاّ القـوات المسلحة. . فـلا بـد أن يكـون للجيـوش المتجدة من البداية قيادة واحدة، تمضي بها قدماً في عملية التوحيد.

وهنا أيضاً، نجد في حالة الوحدة العربية ظرفاً خاصاً. . .

فـالجيوش في بـلادنا خـلال جيل بـأكمله لم تكن جيوشـاً تقليديـة، ولكنها كـانت عـلى الدوام، بصورة أو بأخرى، شريكة في النضال السياسي، ومنفذة لإرادة الثورة الشعبية. . .

وفي الأمس القـريب، كان الجيش السـوري هو الـذي تقدم في حمـاية الارادة الشعبيـة ليطيح بـالانفصال، وكـان الجيش العراقي هـو الذي تقـدم في حمايـة الارادة الشعبية ليـطيح بحكم عبد الكريم قاسم.

ومع استمرار هـذا الاشتراك من القـوات المسلحة في العمـل السياسي، كـان لا بد أن تدخل إليه التشكيلات الحزبية، والميول المذهبية، ووجهات النظر المتعددة. . سـواء في صورة خلايا حزبية، أو تكتلات حول زعامات داخلية، أو ولاء لقيادات معينة.

وحين ننظر إلى «الحصيلة النهائية» لـدور الجيش السياسي في العـراق وفي سوريـا، نجد أنها كانت ايجابية من غير شك. . فقد ظهرت فيه انحرافات نحو زعامـات فرديـة ومغامـرات

شخصية مثل الشيشكلي وقاسم، ولكن الكتلة الكبرى من الضباط والجنود كانت قادرة دائماً على أن تصبر وتعيد تنظيم نفسها حتى تطيح بالانحراف وتعود بالقوات المسلحة إلى طريق الثورة الشعبية التقدمية الصحيحة.

ومرة أخرى، لا مفر من أن يترك هذا الواقع ظله بعض الوقت على الجيوش. لكن لا بد أن يكون أمامنا هدف واضح هو أن يتحول الجيش العربي الاتحادي مع الزمن إلى جيش قومي، يحمي الوطن الجديد ويحمي مبادئه التقدمية، ويقف خارج التكتلات والولاءات الشخصية الضيقة.

وهنا أيضاً، نجد أن نجاح عملية صهر التنظيمات الشعبية في صف تقدمي واحد واضح العقيدة، سوف يكون له انعكاس قوي، على السير بالجيوش سيراً حقيقياً في هذا الاتجاه ذاته.

بقيت الرابطة الثالثة، وهي الرابطة التشريعية، أي الرابطة التي تنظم شكل الدولة وسلطاتها واختصاصاتها.

وأياً كان الشكل الذي سوف يتوصل إليه الاتفاق، فالمهم فيه أن يجمع بين الاحتفاظ لكل قطر بحيويته وطاقاته كاملة من جهة، وبين القدرة على قيادة عملية التوحيد في المجالات الاقتصادية والتعليمية وغيرها من جهة أخرى.

ولكن المؤكد أن هذا الشكل الدستوري، مهما كان الأمر فيه، لن يكون سوى الهيكل الذي لا بد أن تنفخ فيه الروح.. ولن ينفخ فيه الروح إلاّ العمل السياسي الديمقراطي، المتفتح لكل تفاعل، القادر على استيعاب كل تجربة.. وتصحيح كل خطأ.

ولقد تخطر على بال الكثيرين من الناس عشرات من الاقتراحات.. ولكن المؤكد أن هذا ليس أوان مناقشتها.

إنما المهم الآن هو أن نتفق اتفاقاً أكيداً، صافياً، على المبدأ.

مبدأ تفاعل المنظمات السياسية الشعبية، وسعيها إلى ايجاد جبهة سياسية موحدة.

فالمهم الآن أن تكون هذه المنظمات أقوى مما بينها من تاريخ. المهم أن تثبت هذه المنظمات في مصر وسوريا والعراق، أن تاريخها ليس حملاً يثقل كاهلها، ولكنه مرجع يستفاد منه.

ومرة أخرى، ليس من قبيل الصورة الانشائية القول بأن الأجيال المقبلة سوف تحكم على سلوكنا جميعاً، ونحن نجتاز هذا المضيق الوعر، المحاط بالجبال، المليء بالأعداء، حاملين بين أيدينا أمانة العمر...

٨ ـ الردّ العربي ـ الكردي على اسرائيل(*)

كنت أقول دائماً: إن القضية الفلسطينية، سوف يكون حلها، على المدى البعيد، رهن بما يحدث في العالم العربي نفسه من تطورات.

قد نهزم اسرائيل مرة، أو قد تهزمنا مرات، والقوة العسكرية في هذا العصر ـ وفي كل عصر ـ سلاح أساسي من أسلحة الانتصار وتقرير المصير. ولكن القوة العسكرية وحدها في نهاية الأمر لا تحل شيئاً، إنما هي قادرة على أن تحل شيئاً إذا كانت سلاحاً مسلولاً في يد موقف حضاري حقيقي وصحيح.

وكنت أقول دائماً: إننا نتوقع مع الزمن أن يتغير الموقف داخل المجتمع الاسرائيلي ذاته، حين يعرف أنه مهما فعل في مجال القوة العسكرية والاعتماد على الخارج، فهو إنما يسير في طريق مسدود. ذلك أنه بالتركيب الحالي له، وبالمنطق الذي ينطلق منه.. إنما ينطلق من موجة تعاكس تيار التاريخ وتقامر على نقض الكثير من أسس التحضر الانساني العميق. ولكننا كما نتوقع مع الزمن أن يتغير الموقف داخل اسرائيل، فإننا نتوقع ـ بل ونعمل ـ لكي تتغير أشياء كثيرة في داخل العالم العربي.. لأن هذا أيضاً ـ وفي الدرجة الأولى ـ يساعد على تغيير المجتمع اليهودي في اسرائيل.

ولست أضع ـ بهذا القول ـ التغيير المطلوب هنا في مستوى التغيير المطلوب هناك.. ولكن العالم العربي حافل بالأقليات القومية والطوائف الدينية، أي حافل بمظاهر التعدد. فهذه المنطقة التي كانت مهبط كل الأديان، ومعبر عشرات من القوميات والهجرات والغزوات والحضارات، كان لا بد أن توجد فيها ظاهرة التعدد.

مع حركة القومية العربية الكبيرة، ومع تيارها الجارف نحو «التوحد» كان لا بد لها أن تجد صيغة عصرية تقدمية لهذا «التعدد» في اطار «التوحد»، وكان لا بد لها أن تجد أسلوباً يجعل من هذا التعدد مصدر خصب وثراء لا مصدر تفتت وتناحر وبغضاء.

(*) المصور (٢٠ آذار/ مارس ١٩٧٠).

وقد كانت علاقة الأكراد بالعرب، أحد الامتحانات الكبرى لحركة القومية العربية الحديثة.

فهذه القومية العزيزة، الملتحمة مع العرب عبر القرون، والتي ساهمت في التراث العربي والاسلامي وفي التاريخ العربي والاسلامي مساهمات ثقافية وفنية ومادية وعسكرية ـ ألم يكن صلاح الدين كردياً؟ ـ هذه القومية العزيزة: كان اختباراً كبيراً للقومية العربية، أن تجد صيغة عصرية تعيش بها معها في اطار واحد، اطار حي خلّاق، وليس اطاراً مختنقاً ضيقاً.

لذلك، كان نجاح الحكم العراقي في ايجاد هذه الصيغة وفي تقديم هذا الحل، نجاحاً للعرب جميعاً، ولحركة القومية العربية الحديثة، وورقة كبرى في المواجهة بين العرب واسرائيل.

ورقة في المواجهة العسكرية ضد اسرائيل، لأن هذا الحل كفيل أن يطلق طاقات العراق من اسارها؛ وورقة في المواجهة الحضارية ضد اسرائيل: فهذه الدولة التي تقيم فلسفتها على التشاؤم من مستقبل الانسانية، وعلى أن الصراعات العنصرية البائدة سوف تبعث من جديد، وعلى أن الاضطهاد الديني والعنصري الذي عرفته العصور الوسطى هو الشكل الطبيعي للحياة في الماضي والحاضر والمستقبل. هذه الدولة، وبهذه النظرة. . يواجهها رد عربي عملي وواقعي، في صورة تجارب أقطار عربية كثيرة في التعايش، وفي صورة هذا الحل لمشكلة من أكبر المشاكل وأعقدها، وأجدرها بالحل، وهي المشكلة الكردية.

. . ومنذ أسابيع قليلة فقط، كتب «أبا ايبان» وزير خارجية اسرائيل مقالاً طويلاً في جريدة السنداي تايمز الانجليزية، شرح فيه وجهة نظره التي تلائم وجود اسرائيل في المنطقة، وهي أن مستقبل المنطقة في التعدد، ولكنه ـ في مفهومه ـ تعدد بمعنى التفكك والانفصال، أي «شرذمة» المنطقة إلى مجموعة من الدويلات ذات الانتماءات المبعثرة. . وليس التعدد في اطار التوحد، أو التوحد في اطار احترام حقوق الأقليات.

ونحن نعرف إلى أي حد تعتمد القوى الاستعمارية في تخطيطها على انهاك العالم العربي من داخله. . بخلق العصبيات وإثارة النعرات وتوسيع شقة الخلاف. فإن انهاك أي قطر عربي من داخله يغني الاستعمار عن أي شيء آخر: فالاستعمار يناسبه جداً أن ينشغل كل قطر عربي بهمومه الداخلية، وأن ينكب على مواجهة نزيفه الخاص، فيبقى دائماً الطرف الضعيف في الحرب وفي الاقتصاد وفي السياسة جميعاً.

إن إنهاء المشكلة الكردية خطوة تحمل معاني الرد على كل هذا.

وبقي أن تبذل للاتفاقية الجديدة كل الظروف المؤدية إلى نجاحها، وألّا تنتكس أبداً مهما كانت الظروف.

وهذه مسؤولية العرب. . ومسؤولية الأكراد أيضاً. . فالأكراد المستنيرون المخلصون، يعرفون تماماً ويؤمنون ايماناً عميقاً بأن مستقبلهم جزء من المستقبل العربي. . وأن القومية الكردية التقدمية المستنيرة، ضمانها الحقيقي في قومية عربية تقدمية منتصرة مستنيرة.

٩ ـ ولكن . . ماذا يريد العرب حقاً؟!(*)

يقترب حزيران/ يونيو، حاملاً معه علامة مرور خمس سنوات على العدوان.

وقد شهد العالم وعرفت الشعوب حروباً استغرقت أطول من هذا الوقت، كما شهدت «الحروب» التي ـ في مثل حالتنا ـ ليست بالضرورة متصلة المعارك!

ولم يكن أقسى ما في هذه السنوات الخمس، أنها كانت طويلة إلى هذا الحد، رغم أن ذلك في حد ذاته بالغ القسوة! ولا كان أقسى ما فيها أن معظم أيامها يندرج تحت حالة اللاحرب واللاسلم رغم ضريبتها الباهظة على النفس والموارد والأعصاب! ربما كان أقسى من ذلك في تقديري أن العرب في مجموعهم، وكلهم يتحدثون عن التحرير المرتقب، ما زالوا بعد هذه السنوات الخمس التي مرت علينا وكأنها نصف قرن، ليست لهم بعد خطة موحدة، بل ولا حتى «تصور عام» لأسلوب المواجهة مع العدو. . . وأقول «المواجهة» حتى تشمل أشياء متعددة أكثر من مجرد «الحرب» بمعناها الساخن الملتهب!

ولا أريد أن أعود بهذا الحديث إلى قصة الشقاقات العربية، والمصالح المتضاربة، والذين ألسنتهم واحدة وقلوبهم شتى. . ولكنني في محاولة تبسيط ما لا يمكن بل ولا يجوز تبسيطه، ولجعل العقل العربي يواجه الأمور بشيء من التحديد يختلف عن العموميات التي يسبح ويهيم فيها. . أريد أن أقول إن الأمة العربية في وجه عدو يرفض التنازل شبراً واحداً، ويصمم على تركيع العالم العربي كله. . ويمارس سياسة الأمر الواقع التي توشك أن تنهي ـ أمام أعيننا ـ إحدى الجبهات التي طال الحديث عنها وهي الجبهة الشرقية. . ازاء هذه المواجهة التي تفرض نفسها علينا فإن الأمة العربية أمامها ثلاثة طرق، أو ثلاثة اختيارات أساسية. وإذا كنت سأحاول أن أعطي هذه الاختيارات أسماء، وأن أشبهها بأمثلة، فليس ذلك ايماناً بإمكانية التكرار الحرفي والتقليد، ولكن للتوضيح والتبسيط.

(*) الأهرام، ١٩٧٢/٤/٢.

هذه الاختيارات، التي يكاد يكون لا مفر للأمة العربية من مواجهة أحدها هي:

- الاختيار الياباني.
- الاختيار الصيني.
- اختيار انجلترا وحلفائها في الحرب العالمية الثانية.

ولعل بواعث هذه الحروب، والاختيارات غير بواعث حربنا. كما ان أهدافها غير أهدافنا التي يمكن أن نقرر الممكن منها ونحدده ونصمم عليه ونعمل على فرضه. ولكن الحديث هنا ليس عن البواعث والأهداف، ولكنه عن «الأسلوب» فقط.

ونبدأ بالاختيار الياباني

لقد أصيبت اليابان في الحرب العالمية الثانية بضربة قاصمة، ومثلها المانيا التي لقيت حظاً أتعس بتقسيمها تقسيماً شبه نهائي. ألقيت على اليابان قنبلتان ذريتان، فأدركت أنها قد خسرت الحرب، رغم أنه كان لا يزال لديها جيوش جرارة ولم يكن العدو قد وطىء أرضها بعد. ولكن هذا العدو باستخدامه السلاح الذري، كان يقول لها انه قد أصبح متفوقاً عليها تفوقاً تكنولوجياً لا يمكن أن تلحق به والحرب قائمة، وان استمرارها بالتالي في القتال عبث، فرفعت يديها مستسلمة!

عرفت أنها قد خسرت الحرب فاعترفت بذلك، ورضخت لإرادة المنتصرين عليها رضوخاً كاملاً، ووقّعت على أشد الشروط اذلالاً، حتى الاحتلال العسكري المباشر لها، وهي امبراطورية الأمس الفخور، قبلته منكسة الرأس!

وكان منطقها، أنها وقد خسرت طريق المغامرة العسكرية فسوف تحاول العودة إلى القمة والقوة من طريق آخر، هو طريق التقدم العلمي والتكنولوجي، الذي علمها وقع القنبلة الذرية بعضاً من مذاقه المر..

وانصرفت اليابان، كما نعرف، إلى التنمية والاختراع والتقدم العلمي والتكنولوجي بحماس مذهل وبحمية أشبه بالحمية الوطنية، بل إن أمريكا حين بدأت تحلل سر المعجزة اليابانية وجدت أن اليابانيين يعملون في الصناعة والتحسين والاختراع والمنافسة وكأنهم يخوضون حرباً. وقد كانت حرباً بالفعل، انتهت بعد ربع قرن من التسليم وهي ثالثة قوة صناعية في العالم، والدولار يخفض رأسه أمام «الين»، وحلفاؤها الذين اشترطوا عليها ساعة الهزيمة أن تجرد نفسها من السلاح، يطلبون منها، ويرجونها، أن تعود إلى حمل شيء من السلاح!

ورغم أنني أكتب هذا الحديث لمجرد شرح الاحتمالات دون الذهاب إلى آخر الشوط في تحليل آثارها والموازنة بينها، إلّا أنه لا بد من اكمال صورة كل حالة ببعض الملامح المتممة لها: فاليابان ـ ومثلها المانيا ـ هزمت كل منها هزيمة سافرة نهائية أمام قوى عالمية ضخمة. واليابان لم يكن مطلوباً أن تنتزع منها إلى الأبد أراض كانت لها لكي تفقد هويتها اليابانية نهائياً، في حين أن هذا ما تطلبه اسرائيل من العرب: أن يتركوا لها أجزاء أخرى، جديدة،

تفقد هويتها العربية نهائياً، وتصبح اسرائيلية. ثم إن اليابان كان لديها رصيد ضخم سابق من التقدم الصناعي والعلمي، مكنها من أن تسترد بسرعة، وفي اطار الانصراف إلى النشاط الصناعي والعلمي السلمي، ما فقدته بالحرب، أن تصبح دولة كبرى متقدمة من جديد، عن غير طريق الحرب والغزو والاستعمار. كذلك فإن المائة مليون ياباني تضمهم بالفعل دولة واحدة وارادة قومية واحدة، في حين أن المائة مليون عربي موزعون بين دول مختلفة ونظم مختلفة وإرادات مختلفة بل وقرون مختلفة، فقبول الهزيمة كما قبلتها اليابان، يهددهم، من بين ما يهددهم، بالمزيد من التفكك والتشرذم ازاء العدو الذي يترقب الفرصة للنفاذ من خلال هذه التشققات إلى مراكز السيطرة والنفوذ.

الاختيار الثاني هو الذي يمكن أن نسميه بالاختيار الصيني

لقد انتصرت ثورة الصين، ولكن العالم الغربي، متحصناً بقوته البحرية والجوية المتفوقة، حرمها من السيادة على بعض أراضيها الوطنية. . مثل هونغ كونغ، وجزر ماتسو وكيموي القريبة من شاطئها، وفي الدرجة الأولى فورموزا أو تايوان.

هنا وجدت الصين الضخمة المنتصرة نفسها أمام أحد اختيارين: إما أن تقدم على عمل عسكري غير مأمون العاقبة وهو الهجوم على فورموزا، التي يحرسها الأسطول الأمريكي وسلاح الجو الأمريكي. . وإما أن تنصرف إلى انجاز ثورتها وتدعيم مركزيتها، معتمدة على أنها إذا صمدت وتقدمت واستقرت، فسوف تبدأ عوامل «الجغرافيا السياسية» التي لا مهرب منها تفعل فعلها، وسوف تكتشف أمريكا نفسها أنها إذا أرادت أن تتعامل مع آسيا فهي لا تستطيع أن تتجاهل الصين وتكتفي بفورموزا.

لقد آثرت الصين بصراحة عدم الانتحار في معركة رأتها خاسرة. . . وإن كانت تمسكت بمبدئها حتى النهاية.

لقد اكتفت الصين بالرفض. رفضت الاعتراف بشرعية فصل فورموزا. ورفضت أن تقبل فكرة وجود دولتين صينيتين، وصممت على أنها ـ ذات يوم ـ سوف تحرر فورموزا وتجعلها جزءاً من الصين. فرفضت تماماً أن تقبل منطق العدو حتى وإن كانت غير قادرة على تغييره، ثم مضت تنمي قوتها الذاتية بالطريقة التي تفرض بها نفسها على كافة الأطراف في مستقبل معلوم.

لم تحارب في حقيقة الأمر أي حروب دفاعية. حاربت في كوريا إلى جانب كوريا الشمالية التي كانت تريد تحرير كوريا الجنوبية. ولكنها حاربت فقط حين تخطت الجيوش الأمريكية «نهر يالو» وبات واضحاً أن أمريكا تريد انتهاز الفرصة لضم كوريا الشمالية إلى الجنوبية والوقوف بقواتها براً على حدود الصين مباشرة. وانتهى الأمر بعد الحرب الدامية بالعودة إلى خط التقسيم الذي أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية، أي ببقاء كوريا قسمين. ونفس الشيء ازاء حرب أمريكا في فيتنام بصورة أو بأخرى.

ولكن الذي جعل الاختيار الصيني يؤتي ثماره ليس مجرد رفض منطق العدو، وترديد

الشعارات، ثم السكون، وليس مجرد ضخامة مساحتها وكثرة عدد سكانها. فالمساحة والعدد أشياء هامة بشرط أن تتحول إلى «طاقة» ولا تكون مجرد جسد مترهل ثقيل. إنما الذي جعل رفضها يؤتي ثماره هو أنها انصرفت إلى انجاز ثورتها الاجتماعية ـ بضرف النظر عن الأسلوب الذي اختارته ـ وإلى التنمية الاقتصادية التي وضعتها على الطريق كقوة كبرى. وأبرز دليل في هذا المجال هو نجاحها في صنع القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية والصواريخ الموجهة.

كان هذا النجاح اشارة إلى الجميع تعني أنها قد بدأت تملك أسباب القوة الحديثة، وأنها لم تعد ذلك الكيان السلبي الذي يتحكم فيه الآخرون، أو ذلك الكم المهمل الذي يمكن الإغضاء عنه، إنما أصبحت طرفاً قوياً يزداد قوة، ولا بد أن يحسب حسابه في أي مستقبل لآسيا أو للعالم بوجه عام.

هنا بدأت الصورة تتغير، وبدأ نيكسون يدق أبواب بكين، وبدأت السفارات تغلق أبوابها في فورموزا!

الاختيار الثالث، هو الذي اختاره الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ضد هتلر. . .

فقد وجهت المانيا، وحلفاؤها، إلى أعدائها ضربات خاطفة قاصمة، لم تكن تنتظر منهم بعدها إلّا الركوع. ولكن انجلترا في الدرجة الأولى ومعها حلفاؤها قررت أن لا تقبل نتيجة الاجتياح السريع والامتحان الأول للسلاح. وقررت أن تقاوم وتصابر حتى تتمكن من تحويل الموج. وقد اقتضى هذا منها أن تتلقى ضربات موجعة في مختلف أنحاء العالم، وأن تمنى بهزائم تاريخية، وأن تتحمل غارات الطائرات الالمانية بالآلاف على مدنها شهوراً وسنوات.

كانت من ناحية تثبت كل يوم أنها مستعدة أن تدفع الثمن مهما كان باهظاً. وكانت هي وحلفاؤها من ناحية أخرى لا يكفون عن ارهاق العدو واشغاله واستفزازه حتى ولو جعله ذلك يوجه إليهم ضربات أشد ايلاماً. وكانت من ناحية ثالثة توجه كل طاقتها وطاقة حلفائها إلى الحشد الشامل الذي يغير وضع كفتي الميزان: فبينما العدو المنتصر، المحتل تجف موارده أو ينزف دماً. كان الحلفاء ينزفون دماً كذلك، ولكن مواردهم وأسلحتهم وقدراتهم كانت تتعاظم بالنسبة إلى العدو بشكل مستمر.

هذا المثل فيه أكثر من شبه بموقف العرب. نحن هنا ازاء دول عربية شتى، ليست دولة واحدة ذات ارادة واحدة. وكما كانت الدول المعادية لالمانيا فيها المحتل بالفعل، والواقف على خط النار مباشرة، والبعيد الذي يفصله عن الخطر ألف ميل. . كذلك نحن. ولكن الزمن وتصرفات المانيا والنضال العسكري والسياسي، جعل جميع الحلفاء ـ القريبين والبعيدين ـ يشعرون بأن الخطر يهددهم جميعاً بالفعل، وجعلهم يدخلون ساحة القتال واحداً بعد الآخر حتى تجمعت من تكتلهم قوة هائلة. وكانت حربهم تمر بشهور من الركود، ولكنها كانت بوجه عام لا تكف عن الاشتباك حتى ولو أدى ذلك إلى توسيع رقعة القتال وازدياد عدد الضحايا واتساع دائرة الخسائر.

* * *

هذه نماذج تاريخية ثلاثة، لردود فعل مختلفة في مجتمعات واجهت هزيمة مفاجئة. . .

فأي نموذج يختاره العرب؟

المشكلة أن العقل العربي العام يريد من كل شيء أحسنه، ولا يريد أن يدفع ثمنه، وبالتالي تقل فعاليته في توجيه الأحداث بالتدريج. .

ـ يرفض الاستسلام، ولكنه يتركه يمر على أجزاء. . .

ـ لا يريد الرفض الكامل للعدو، لأنه لا يريد مثلاً أن يوجع أمريكا بطرد كل مصالحها تماماً ونهائياً من العالم العربي كله حتى يضعها أمام الاختيار الحاسم، ولكنه يسب أمريكا ويشتمها بأكثر مما يشتمها ألد أعدائها.

ـ ويفضل القتال والنضال لاسترداد الأرض. . لكنه لا يعبر عن رغبة حقيقية في دفع الثمن واحتمال التضحيات وتجميع القدرات، وجعل الحرب على المستوى العربي كله، حرباً متصلة يقتنع العالم بحتميتها إذا لم يتغير موقف العدو.

رغم أن الشرعية معنا، والأهداف معنا والقرارات الدولية معنا، ولكن «تصديق العالم لنا». . ليس معنا.

وهذه الحالة التي تسود العقل العربي العام هي التي تؤدي إلى موقف اللاسلم واللاحرب، الذي هو، إن كان نموذجاً رابعاً، فهو أخطر النماذج، وأسوؤها على حاضر ومستقبل هذه الأمة.

لقد بنيت بعد الحرب مباشرة آمال كثيرة على انسحاب اسرائيلي سريع سوف يرغمها العالم عليه «خوفاً من الانفجار في منطقة حساسة». ثم تبخر هذا الأمل وصار العالم يرى أنه قادر على «احتواء امكانية الانفجار، وابقاء كل مصالحه في المنطقة الحساسة».

ثم بنيت آمال على أن اسرائيل لا تريد في مقابل الانسحاب الكامل إلّا الاعتراف والسلام، ثم صار واضحاً أنه حتى الاعتراف لا يعنيها بقدر ما يعنيها ضم الأراضي وامتلاك أكبر قدر مما تسميه «أرض اسرائيل التاريخية». . وأنه حتى ما استولوا عليه بالفعل هو أيضاً مرحلة. . تنتظر مناسبة تاريخية أخرى لتضيف إليها «بعض الرتوش!».

على الجانب الاسرائيلي، هناك هدف محدد وصيغة واضحة، تتفتح على التنفيذ يوماً بعد يوم.

وعلى الجانب العربي لا توجد صيغة: يضيع الوقت بين المزايدة والمناقصة، بين الالتزام بالقول والتنصل بالعمل، بين الرغبة في «ابراء الذمة أمام التاريخ» ولو كان هذا يسمح مع ذلك بتغيير التاريخ والجغرافيا معاً!

١٠ ـ ماذا يراد بمصر؟(*)

ذهبت إلى بغداد أياماً قليلة، وكأنني لم أذهب إليها. فقد قضيت تلك الأيام القليلة هناك داخل قاعات مؤتمر اتحاد الصحفيين العرب.

على أن المرء لمجرد عبوره «حاجز اسرائيل» إلى المشرق، يجد تأملات أخرى في الموقف الراهن تطرأ على باله، وزوايا أخرى للرؤية تنفرج أمام ناظريه..

وتعبير «شرقي السويس» ولد كمصطلح سياسي في غرب أوروبا وفي لندن بالذات بعد حرب سنة ١٩٥٦، التي كانت فاصلاً بين عصرين على مستويات كثيرة، فاصلاً أخذ منه غيرنا العبرة واستخلص النتائج، ولم نأخذ نحن ـ موضوع الصراع ـ منه عبرة ولم نستخلص نتائج، فواجهنا ١٩٦٧ بتصورات ١٩٥٦، وكنا بذلك كما يقول الاصطلاح «نحارب معركة سابقة!».وقد دعا إلى ولادة هذا الاصطلاح عدة اعتبارات: منها ما حدث خلال حرب ١٩٥٦ من اغلاق مؤقت لقناة السويس، ومنها ظهور مدى اعتماد غرب أوروبا على البترول العربي، الواقع شرقي السويس (فلم يكن قد ظهر بعد بترول ليبيا والجزائر كعوامل مؤثرة)، ومنها تداعي نفوذ الامبراطورية البريطانية نتيجة هزيمتها في تلك الحرب ونشوب الثورة في أكثر من مكان «شرقي السويس»، وقرارها بالانسحاب العسكري.

وكان أول القائلين بعدم جدوى البقاء العسكري البريطاني «شرقي السويس» هو وزير البحرية البريطاني في حكومة العمال كريستوفر مايهيو، ثم استقال لأن حكومته لم توافق على رأيه. ثم لم تلبث حكومة العمال أن وجدت أن لا مفر من ذلك فانسحبت من اليمن الجنوبية، وأعلنت موعداً لانسحابها من الخليج العربي. ويومها أعلن حزب المحافظين أنه إذا عاد إلى الحكم فسوف يلغي هذا الالتزام بالانسحاب من «شرق السويس»، ولكن المحافظين

(*) الأهرام، ١٩٧٢/٤/٣٠.

جاءوا.. ولم يجدوا للسياسة التي تقررت بديلاً، فمضوا في طريق الانسحاب العسكري من شرق السويس، مكتفين بالعمل على حماية مصالحهم بوسائل أخرى...

على أنه لم يكن ممكناً أن يتم هذا الانسحاب دون آثار، ودون ردود فعل ظاهرة وترتيبات خفية.. فايران أسرعت إلى احتلال جزر أبو موسى وطمب الكبرى والصغرى، وأمريكا أسرعت إلى استئجار قاعدة بحرية عسكرية في البحرين، والاتحاد السوفييتي عقد معاهدة مع العراق، وذهب كوسيجين إلى بغداد، وزارت السفن الحربية السوفيتية ميناء البصرة وأبحرت أول ناقلة بترول تحمل بترول العراق المنتج وطنياً إلى روسيا.

وسقطت دائرة الضوء بشدة على منطقة «شرق السويس»، وساهم في هذا عدة اعتبارات، أدخلت على الموقف عناصر جديدة.

أولاً: استسلام دول العالم المعنية إلى احتمال بقاء قناة السويس مغلقة زمناً طويلاً. وكان لهذا أثره الاقتصادي في التوسع في بناء ناقلات البترول الضخمة وأثره العسكري الاستراتيجي في فصل البحر المتوسط عن المحيط الهندي بحاجز يسد بينهما.

ثانياً: تعاظم دور البترول العربي في العالم بوجه عام. فبالإضافة إلى أنه ما زال هو المخزون الرئيسي للطاقة في العالم، وأنه المصدر الأساسي للطاقة في ركني المعسكر الغربي الكبيرين: اليابان شرقاً وغرب أوروبا غرباً... فقد ظهر عنصران جديدان أولهما أنه ظهر أن أمريكا تتزايد حاجتها إلى استيراد البترول والغاز من العالم العربي لاستهلاكها المحلي، فلم تعد مصلحتها فيه مصلحة مالية وتسويقية ونقدية فقط ولكنها بعد سنة ١٩٨٠ ستصبح معتمدة على البترول والغاز العربيين لاستهلاكها المحلي وللاحتفاظ باحتياطي استراتيجي معقول لها داخل أراضيها، وأنه ظهر أن الاتحاد السوفييتي كذلك سيصبح بسرعة دولة مستوردة، وبالتالي دولة منافسة للبترول، بعد أن كان دولة مصدرة له فحسب.

ثالثاً: اندفاع الصراع العالمي بين القوى الكبرى إلى المحيط الهندي وجنوب القارة الأسيوية، وهناك يوجد إلى جانب الخصمين التقليديين روسيا وأمريكا، مارد ثالث قريب دخل الساحة، هو الصين. وللصين ارتباطات واتفاقات وخبراء في اليمن الجنوبية مثلاً وفي تانزانيا في غرب افريقيا على الطرف الآخر من مدخل البحر الأحمر.

رابعاً: الأشكال الجديدة التي يتخذها الصراع العربي - الاسرائيلي. ولست أضع هذا العنصر في آخر القائمة لأنه أقلها شأناً، ولكن لأنه الباعث على هذا الحديث كله.

ذلك أننا في هذه المرحلة مهددون بخطرين اثنين مرتبطين معاً: الأول، هو انتقال «مركز التوتر» من «السويس» أي من خط المواجهة بين مصر واسرائيل إلى «شرق السويس»، أي إلى الخليج وما يحيط به، والخطر الثاني، المرتبط بالأول والمترتب عليه، هو العمل على «تسكين» منطقة «السويس» وتهدئتها حتى لا يؤثر التوتر هنا على التوتر هناك فتختلط اللعبة وترتبك حسابات الحاسبين.

ومصر، هي حجر الزاوية في هذا كله..

ولتوضيح ذلك لا بد من نظرة سريعة إلى التاريخ . . فمن وجهة نظر الغرب ـ أوروبا قديماً ثم أمريكا حديثاً ـ كانت مصر غنيمة مقصودة لذاتها. كانت بالنسبة إلى الغرب أكبر مزرعة للقطن، وأكبر سوق بشرية للتجارة، والاستثمار، وكانت بسبب قناة السويس صاحبة أهم مركز استراتيجي يهم الامبراطوريات. هكذا دار الصراع أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن على احتلال مصر وامتلاكها، وقبل ذلك على انتزاعها هي بالذات من الامبراطورية العثمانية المتآكلة . .

وحتى في تاريخ وأسباب قيام اسرائيل ذاتها نجد تلك المذكرة السرية الشهيرة التي قدمتها المخابرات الانجليزية إلى الرئيس الأمريكي ويلسون في مباحثات فرساي بعد الحرب العالمية الأولى، تبرر له فيها الدعوة إلى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بأن هذا يخلق مع الزمن نقطة حراسة قريبة من قناة السويس!

ثم جاءت التغييرات السياسية والأحداث الكبرى لكي تجعل الغنيمة الأساسية التي يريدها الغرب في المنطقة ليست مصر في حد ذاتها: لقد ظهر البترول وأصبح هو الغنيمة الأساسية، وظهرت اسرائيل كعازل بين مصر وسائر العالم العربي يقلّل من تأثيرها المرهوب، وقلت قيمة قناة السويس من الناحية الاستراتيجية وجاءت تجربة اغلاقها مرتين في عشر سنوات فجعلت الغرب ـ أوروبا ـ يرتب مصالحه على أساس ورود هذا الاحتمال، وجعل دولة غربية ـ أمريكا ـ أكثر من ذلك تفضل استمرار غلقها، كعقبة تحول دون السفن الروسية والوصول السهل إلى الخليج وبحار الهند، أكثر مما تضايق أمريكا وتحول دون سفنها وأساطيلها المتجولة في تلك البحار.

ولكن بقي أن مصر تظل «مطلوبة» لا لذاتها ـ وبالمعنى الاقتصادي والاستراتيجي ـ ولكن لنفوذها في المنطقة: وأثرها على الأحداث والتغييرات التي يمكن أن تجري فيها.

وهذا يلقي ضوءاً آخر ـ إلى جانب الأضواء الأخرى الكثيرة ـ على تطور السياسة الأمريكية بالذات ازاء مصر وتوافقها مع السياسة الاسرائيلية.

لقد كتب معلق اسرائيلي مطلع هو «زئيف شول» المحرر العسكري لجريدة جيروزاليم بوست منذ أسبوعين يقول: «إن بعض الدوائر الاسرائيلية بدأت تعترف بأنه لو لم تنشب حرب ١٩٦٧ في الظروف التي وقعت فيها، لكان على اسرائيل أن تجد حجة أخرى لهذه الحرب بعد ذلك، وهذا ليس بعيداً عن رأي الكثيرين ـ وأنا منهم ـ الذين يعتقدون أن حرب ١٩٦٧ كان فيها عنصر كبير من الاستدراج لنا، الاستدراج الذي انسقنا وراءه ووقعنا في حباله بسهولة».

والمعلق الاسرائيلي يعلل ذلك بأنه لم يكن ممكناً أن تترك اسرائيل مصر وفيها كل هذه القوة العسكرية المكدسة، وهي جملة يمكن أن نقرأها أيضاً «انه لم يكن ممكناً أن تترك أمريكا مصر وفيها كل هذه القوة العسكرية المكدسة»، خصوصاً وأن أمريكا وجدت.أن هناك حالات ذهبت فيها قواتنا العسكرية إلى خارج مصر: في اليمن على نطاق واسع، وفي العراق وفي الجزائر في بعض الظروف على نطاق محدود. كما وجدت أمريكا لهذه التحركات أثرها «المعنوي» الخطير

في المنطقة، جعلت مصر في بعض الظروف على قمة قيادة المنطقة شريكاً يحسب حسابه في كل حركة يتحركها أحد من المحيط إلى الخليج.

ومن هنا أيضاً تأتي تلك الملاحظة الذكية الهامة التي قالها العقيد معمر القذافي في ندوته في **الأهرام**: «إن اسرائيل لن تقبل الانسحاب قط ولدى مصر القوة العسكرية الضخمة التي صارت لها بعد النكسة، ومهما كانت شروط الانسحاب، لأنها هي وأمريكا لن تقبلا أقل من تدمير القوة الضاربة المصرية نهائياً ومنع قيامها من جديد».

هذه القوة المصرية، وهذا النفوذ المصري كان وما زال مطلوباً تدميرهما.. خصوصاً إذا أضيف إلى عوامل القوة المصرية الذاتية عنصر آخر، هو ما تعتبره أمريكا انحيازاً للاتحاد السوفييتي أو اعطاء الاتحاد السوفييتي جواز مرور مصرياً إلى العالم العربي.

الآن، ماذا نرى؟

الغنيمة الرئيسية إذن صارت شرق السويس، حيث هناك بترول وأموال مكدسة وأراضٍ غير مسكونة وكيانات صغيرة.

وأمريكا ـ بمساعدة اسرائيل التي تلتقي مصالحهما عند هذه النقطة ـ تحاولان تجميد التوتر عند السويس، وصولاً إلى تكثيف عزل مصر...

وعزل مصر يتم بوسائل شتى:

ـ بقاء اسرائيل حيث هي، حتى تبقى مصر مغلولة اليد في قضية وتحول دونها ودون الانشغال بهموم العالم العربي على نطاق واسع.

ـ استمرار اغلاق قناة السويس تقليلاً من أهمية مصر الاستراتيجية، ووصولاً إلى محوه تماماً إذا أمكن.

ـ في هذا الجو، تذهب أمريكا إلى الخليج ـ وسوف نرى المزيد من ذلك ـ لتحل محل الانجليز ولتحول دون السوفييت ـ هكذا تدخل أمريكا المنطقة من الشرق، وتدخل اسرائيل إلى المنطقة «شرق السويس» من الغرب، ومشروع الملك حسين أول خطوة في هذا المجال.. تربط بين سهمي الغزو الجديد.

فالمصلحة الاسرائيلية هي أيضاً بين «حذف» مصر من حسابات «شرق السويس» وانفتاحها هي على العالم العربي «شرق السويس». فإذا فتحت لها الأبواب، صار سهلاً عليها أن ترتع بالنفوذ والارهاب والاقتصاد والسيطرة بعيداً عن «الرادع» المحصور خلف القناة المغلقة وصحراء سيناء المحتلة.

ذلك أن اسرائيل أيضاً لا تريد مصر لذاتها..

ماذا يمكن أن تأخذه اسرائيل من «مصر» ذاتها؟

إن مصر بلد كثيف السكان، مستقبله تصدير الخبرة وتصدير السلع، فهو منافس لاسرائيل وليس مكملاً لها، وليس في مصر مال مكدس في البنوك الأجنبية ولا ثروات طبيعية

سهلة، ولها أراض شاسعة غير مستغلة، كما في «شرق السويس» ثروة مصر هي نتاج عرق أبنائها. إن مطامع اسرائيل هناك، انها تريد أن تنطلق من عقالها إلى هناك. مصر بالنسبة إليها عقبة، إما أن تعزل، وإما أن تقلم أظافرها.

هكذا نرى أن أمريكا واسرائيل ترسمان «خطاً جديداً» غير خط السويس التقليدي: خط يمتد من الخليج شرقاً حيث تطمع أمريكا ـ وحلفاؤها هناك ـ في تثبيت أمورها وضمان سطوتها على البترول حتى نهاية هذا القرن.. إلى المنطقة الجديدة التي يراد لها أن تكون مفتوحة: شرق الأردن ـ الضفة الغربية ـ اسرائيل. أي من الخليج إلى البحر المتوسط، فوق حدود مصر، شمال وشرق السويس..

ومن هنا جاءت ردود الفعل الحادة للاتفاقية العراقية السوفييتية، إذ جاءت هذه الاتفاقية بمثابة «اختراق» لهذا الخط وقطع اتصاله عند نقطة ما بين الخليج والبحر..

هذا الخط الجديد الذي يستهدف عزل مصر، وتقليل شأنها، وحرمانها من الدور العربي وحرمان السياحة العربية منها، ماذا يكون موقفنا تجاهه؟

الرد على ذلك هو أن نسأل أنفسنا:

- كيف تبقى «القوة الذاتية المصرية» قائمة؟

- كيف يبقى «التأثير المصري» في المنطقة قائماً؟

- كيف تبقى «الارادة المصرية» حرة، قادرة على اتخاذ قراراتها، لا أن تتحول ـ كما يريدونها ـ إلى ريشة في مهب رياح الحرب الباردة والساخنة..

إن هذا أمر بالغ الأهمية. إنه قضية اليوم الحقيقية.. أمر بالغ الأهمية لمصر، لأن عزل مصر وحذفها من الحساب فيه خنقها وأمر بالغ الأهمية للعالم العربي، لأن عزل مصر وحذفها من الحساب يجعل باقي المشرق ـ كل المشرق ـ لقمة سائغة لمن يشاء.

وليس عزل مصر بالعملية السهلة. والأعداء يدركون ذلك، ولهذا فهم يلجأون إلى صراع طويل وأساليب معقدة متنوعة، واستخدام متصاعد للقوة المباشرة.

إنهم يريدون إنهاء دور عمره ـ في العصر الحديث ـ مئة وخمسون سنة على الأقل. وعلينا أن نواجه هذا بما يتطلبه من جهد شامل.

ذلك أن تأثير مصر الحضاري والاجتماعي والبشري والسياسي في المنطقة عميق وقديم، وليس ابن التيارات السياسية الجديدة كما يتوهم العالم الخارجي أحياناً. وأبناء البلاد العربية الأخرى أكثر من سواهم وعياً بهذه الحقيقة. ولكن هذا لا يجوز أن يعفينا من الجهد، ومن أن نجعل قدرات مصر كلها، العسكرية والسياسية والفكرية والفنية والثقافية، وارادتها القتالية في أحسن حالات قدرتها على التحرك والتفاعل، ونجعل ثقل هذا كله يبدو محسوساً بل وحاسماً، في سنوات التحدي الكبير المقبلة.

١١ ـ الوحدة عندنا وعندهم(*)

الخبر الذي لم تهتم الصحافة العربية بإبرازه، وأحياناً ولا حتى بنشره، فضلاً عن التعليق عليه. . كان قادماً من بروكسل، عاصمة السوق الأوروبية المشتركة. وكان يقول إن دول السوق التسع، بعد مباحثات مضنية معقدة دامت سنوات، قد توصلت أخيراً إلى قرار بأن يتم تكوين أول برلمان أوروبي منتخب عن طريق الانتخاب المباشر. وأنه قد تم الاتفاق على أن تجري أول انتخابات أوروبية عامة مباشرة في سنة ١٩٧٨، أي بعد أقل من سنتين.

وكانت المشكلة التي اعترضت القرار طوال سنوات، هي الوصول إلى توزيع لعدد المقاعد فيه درجة من العدالة، بين الدول الكثيرة السكان كالمانيا وفرنسا، وبين الدول القليلة السكان مثل الدانمارك، في حين أن كل دولة أيا كان حجمها لها ارادتها المستقلة كدولة. وايجاد برلمان موحد منتخب انتخاباً مباشراً، مهما كانت اختصاصاته قليلة في البداية، فيه درجة من تنازل كل دولة عن جزء من ارادتها الوطنية، تخضع فيه لإرادة مجموعة أكبر، هي مجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة.

وكانت هناك دول تطالب بمقاعد أكثر، كانجلترا، لكي تضمن تمثيل أهل اسكتلندا وويلز وغيرها من أجزاء انجلترا ذات الأصول المختلفة نسبياً، ودولة مثل ايطاليا تطالب بمقاعد أكثر لكي تمثل أحزابها الكثيرة العدد. وهكذا، وأخيراً توصلوا إلى أن يكون المجلس النيابي الأوروبي المنتخب انتخاباً مباشراً من ٤١٠ أعضاء: ٨١ مقعداً لكل من انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا الغربية، ثم ٢٥ مقعداً لهولندا، و٢٤ مقعداً لبلجيكا، و١٦ مقعداً للدانمارك، و١٥ مقعداً لايرلندا، و٦ مقاعد لدوقية لوكسمبرج.

وإذا كان هذا سيكون بمثابة برلمان لأوروبا، فسيكون رؤساء حكومات الدول التسع بمثابة مجلس وزراء لأوروبا.

. . وإذا كنت قد سردت كل هذه التفاصيل، فلم أسردها لذاتها، ولكن لكي أوضح

(*) العربي، العدد ٢١٤ (أيلول/ سبتمبر ١٩٧٦).

الطريقة التي يتوصل بها الأوروبيون إلى حل مشكلة الوحدة بينهم، أخطر مشكلة يمكن أن تواجه مجتمعاً ما، في صبر وأناة، وبالمناقشة والمثابرة والدأب، سنة بعد سنة، منذ سنة ١٩٦٠، أي منذ ستة عشر عاماً، ولكنهم رغم كل الخلافات، يتوصلون إلى حلها، طالما أنهم قد اقتنعوا بأن الوحدة هدف ضروري لمستقبلهم، وبالتالي فإنهم يرتبون عملهم ليسير في اتجاه ما توصلوا إليه من اقتناع، مهما كانت الظروف.

إن هذا القرار الذي توصلت إليه دول السوق الأوروبية المشتركة قرار تاريخي، لقد سبقته قرارات وخطوات هامة وطويلة، خصوصاً في المجالات الاقتصادية، من إلغاء الرسوم الجمركية، إلى توحيد بعض السياسات الاقتصادية، إلى اندماج بعض شركات الانتاج التي تعمل في مجال واحد، إلى محاولة الوصول إلى درجة من التنسيق في بعض المواقف السياسية، وإن ظل هذا من أصعب الأمور عليهم إلى الآن، بحكم تنوّع مصالحهم الخارجية من جهة وبحكم وطأة النفوذ الأمريكي عليهم من جهة أخرى.

ولكن هذا القرار الجديد، قرار تكوين برلمان موحّد يتم انتخابه على مستوى الدول التسع بالاقتراع العام المباشر، يعتبر من أهم وأخطر ما اتخذوه من قرارات إلى الآن، ذلك أن هذا، كما ذكرت سابقاً، خطوة في طريق التنازل عن جزء من «السيادة الوطنية» لسيادة «قومية» أعلى . . .

طبعاً، واضح أن هذا الحديث كله، القصد منه أن يسوقنا إلى المقارنة بين حال الأوروبيين في مجال السعي إلى الوحدة، وبين حالنا نحن العرب.

وقد أريق مداد كثير لإثبات وتوضيح أن ما يربطنا نحن العرب أقوى وأعمق بكثير مما يربط بين شعوب هذه الدول الأوروبية التسع. فلن أضيف إلى القول في هذا المجال جديد، إلّا لمجرد التسجيل فقط.

لقد بنيت «فكرة» الوحدة الأوروبية على أساس من المصلحة الاقتصادية في الدرجة الأولى والمصلحة السياسية في الدرجة الثانية. هذه الدول الأوروبية التي قضت القرون في حروب مدمرة بين بعضها البعض، أحياناً على أرضها ذاتها، وأحياناً صراعاً في قارات أخرى على المستعمرات، وجرَّت العالم كله معها مرتين إلى «حربين عالميتين»، هذه الدول وجدت نفسها بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تضاءلت بين عملاقين جديدين، شابين، هما الاتحاد السوفيتي شرقاً والولايات المتحدة الأمريكية غرباً. صحيح أنها ـ دول أوروبا ـ استردت صحتها وعافيتها الاقتصادية إلى حد كبير، ولكن أين لها، وهي منقسمة، أن تنافس في معركة المستقبل روسيا وأمريكا؟ ثم الصين الآتية بعد قريب؟ . . أي دولة منها، بمفردها، ألديها الأعداد البشرية الضخمة التي لدى العمالقة الجدد؟ ومن أين لها الثروات الطبيعية الهائلة المتوفرة لدى العمالقة الجدد، خصوصاً بعد أن خسرت ـ أوروبا ـ مستعمراتها؟ وأين لها الميزانيات الضخمة والأعداد الكبيرة من الفنيين التي تسابق في ميادين هائلة للتكنولوجيا المتقدمة والتي تصنع الصواريخ العابرة للقارات والقنابل النووية بالآلاف، فضلاً عن السلع التجارية المألوفة؟

من هـذا المنطلق، الأمني، العسكـري، الصناعي، ولـدت فكـرة الـوحـدة الأوروبيـة بمعناها الحديث، غير معناها في العصور الوسطى، وبدأ الخطو إليها بإقامـة السوق الأوروبيـة المشتركة، ثم التدرج بها خطوات، فبهذا قد يوجد يوماً كيان سياسي اقتصادي تعـداده الحالي ٢٥٠ مليوناً، يحفظ لها مكانها بين العمالقة الجدد.

وليس هـذا على أي حـال بالمنـطلق البسيط، «فالحـاجة» هي أقـوى الحوافـز، والتطور الاقتصادي السياسي من العوامل الحاسمة في التحوّلات التاريخية الكبرى.

وفي حالتنا نحن العرب، فإن عنصر «الحاجة» هذا نفسه الـذي كان العنصر الأسـاسي في قيام الوحدة العربية، موجود في حالتنا، وإن كان عنصر «الحـاجة» في حـالتنا ليس العنصر الأساسي ولا الوحيد، كما هو الحال في أوروبا..

ألا يستشعـر العرب أنهم في عـالم اليوم المتغـير المضطرب، عـالم اليوم الـذي تنهار فيـه كيانات وتقوم فيه كيانات جديدة، وتتغـير موازين القـوى، وتتشابـك فيه المصـالح الـدولية، وينهض فيه عالم بأكمله كان «مخصوماً» من حسابات القـوى الدوليـة، وهو العـالم الثالث؟.. ألا يشعر العرب في عالم هذا شأنه، انهم من الناحية «الأمنية» في حاجة إلى التقارب والتماسك والتناسق، ولا نقول الوحدة؟

في هذا العالم الذي يقفز فيه العلم والتكنولـوجيا وبـالتالي الاقتصـاد و «نوعيـة» الحياة، قفزات هائلة كل يوم بل كل ساعة.. في عالم هذا شأنه ألا يشعر العرب بحاجة «اقتصـادية» إلى السير جدياً وحثيثاً نحو درجات من التكامل الاقتصادي، والتكامل الصناعي الانتـاجي، والتنسيق والتكـامل في مجـالات البحث والعلم؟ ألا يشعر العـرب أن المال بغـير بشر لا ينتج الكثير، والبشر بغير مال لا ينتج الكثير، وأن الكفاءات العلمية هي أغلى عملة في عالم اليوم، وأن تجميعها، وتوجيهها إلى قنوات البحث ذات الصلة بظروف العالم العربي.. هي الوسـائل التي لا مفر منها إذا أردنا أن نكون أمة عربية، لها قدرة على المنافسة الاقتصـادية والانتـاجية، وليست مجرد أرض غنية مؤقتاً بالخامات، وأنـه بدون هـذا لن يكون لنـا خلال سنـوات قليلة فرصة الرقي والحياة في المستوى اللائق؟

إن عنصر «الحاجة».. الحاجة إلى «الأمن» ازاء عناصر التهديـد الخارجي والحـاجة إلى التقدم والقدرة على المنافسة وتحسين قيمة الحياة.. عنصر «الحـاجة» هـذا العنصر «الغريـزي» قبل أن يكون سياسياً ولا فلسفياً.. هذا العنصر الذي هو الـدافع للوحـدة في أوروبا.. إنني أراه موجوداً في حالتنا نحن العرب بدرجـة أقوى وأشـد إلى حد كبـير. وإذا كنت أركّز عليـه فلأنه العنصر البديهي، العملي والواقعي جداً، والذي لا يحتاج إلى مناقشة أو تدليل أو دخول في نظريات وفلسفات يمكن الخلاف عليها.

فـما بالنـا، إذا كان هـذا العنصر الغريـزي، ليس هو العنصر الـوحيد في حـالتنا نحن العرب؟

نحن العرب نتكلم لغة واحـدة ودول السوق الأوروبيـة المشتركـة تتكلم سبع لغـات،

ونحن العرب تراثنا واحد، فلو سألت فرداً عربياً في أي مكان عن شاعره المفضل مثلاً فسيقول لك المتنبي أو أبو العلاء أو أحمد شوقي.. بصرف النظر عن كون هذا الفرد مغربياً يطل على المحيط أو كويتياً يطل على الخليج، في حين أنك لو سألت الأوروبي لاختلف الأمر قطعاً. فالانجليزي سيقول لك إن شاعره هو شكسبير. والألماني سيقول لك «جوته» والفرنسي سيقول لك «فيكتور هيجو» وهكذا..

وإلى جانب وحدة اللغة والتراث توجد عشرات من وشائج الوحدة المعروفة التي لا تتوفر في مكان آخر. وبوجه عام فالوحدة في أوروبا «فكرة» عملية طارئة، في حين أن الوحدة العربية حقيقة عاشت قروناً ولربما تقطعت أوصالها سياسياً في مراحل لاحقة ولكن ظلت الحقيقة على مستوى الشعوب قائمة وجذورها عميقة.

ولكن الأوروبيين بدأوا مسيرتهم سنة ١٩٦٠ وقطعوا فيها أشواطاً طويلة.. والجامعة العربية قامت سنة ١٩٤٥، ولم تقطع بعد معشار الشوط الذي قطعه الأوروبيون دون ضجة ولا مضاربات.

ربما لأن الأوروبيين يتناولون أمورهم بأسلوب عقلاني مطلق للعاطفة فيه مكان. وهذا ليس نفياً لقيمة العاطفة، فالعاطفة عنصر حافز ودافع قوي بالتأكيد، ولكن الاعتماد عليه وحده دون درجة كافية من العقلانية، يبدو أنه لا يوصل إلى شيء، لأن العاطفة بطبيعتها متقلبة، سريعة التأثر، يتراوح عليها المد والجزر، والحساب العقلي ليس كذلك.

أو ربما لأن الأوروبيين لهم علينا ميزة أن المستوى الحضاري بين دولهم التسع مستوى متقارب، ونظمهم السياسية والاقتصادية متماثلة أو شديدة التشابه، وقيمهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم واحدة. وهذه أمور تسهل التكامل والتوحيد كثيراً. وهي أمور يجب أن نعترف أنها ليست متوفرة لدينا.

ولكننا في نفس الوقت نعرف من تجارب كثيرة أن عدم توفر هذه الظروف ليس بالعقبة التي لا يمكن تجاوزها.

ولكن المشكلة أن كل مشروعاتنا في مجالات الاقتصاد وتسهيل الاتصال والانتقال وتنسيق الخطط وتكامل المشروعات، نحطمها دائماً على صخرة الخلافات السياسية، وبين نظم الحكم لا بين الشعوب، فلا تمضي هذه المشروعات إلاّ وتتوقف. ولا تتصل هذه الشرايين في الجسد الواحد إلاّ وتتقطع.

ولو فصلنا بين الخلاف السياسي وبين المجالات الأخرى، التي تزيد في تلاحم جسد الأمة العربية لتغيرت أمور كثيرة.

ولكن... ماذا أقول؟؟..

إننا نعيش ما هو أسوأ، نعيش في مرحلة حروب أهلية عربية!!..

فهل ما نزال في المرحلة التي مرت بها أوروبا بهذه الحروب؟

أي نعيش القرون الوسطى؟!

١٢ ـ نحو نظرية أمن عربية شاملة
جبهات الهجوم علينا تتزايد. . ونحن لا نتحرك بالسرعة الكافية(*)

لست أحب أن يظن القارىء العزيز، أنني أنظر إلى المستقبل العربي نظرة قـاتمة، وأنني لذلك أحب أن أطلع عليه أول كل شهر بحديث ملؤه التحذير والنذر.

كلا. إنني على العكس متفائل بالمستقبل العـربي. متفائـل باليقـظة الشاملة في الضمـير العربي العام. متفائل بالتطلعات العربية حتى وإن كانت متعجلة. متفائل بالامكانات المتاحـة للأمة العربية مادياً وبشرياً، مهما شابها من فوضى أو سوء استعمال أو إهدار.

وإذا كنت أميل إلى جانب التحذير، فـإنه لهـذا السبب ذاته. فلو كـانت الأمة العـربية كمية مهملة، أو كانت أرضها عاقر، أو عقلها غـافل. . أو خـالية من التـطلعات. . إذن لما اهتم بها في العالم أحد، ولما تربص بها عدو، ولا أحاطت بها أطماع.

ولكن بقدر امكانات الأمة العربية الواسعة، وبقدر طموحاتها المشروعـة، وبقدر مـا لها من سابق تاريخ يثبت قدرتها على النمو والقوة والابـداع، بقدر مـا علينا أن نتصـور المخاوف التي تثيرها هذه الأمور لدى الآخرين، وما يمكن أن ترتبه هذه المخاوف والتوقعـات لديهم من سياسات. .

من أجـل ذلك فـإنني لست أحب أن ينام المـواطن العربي عـلى حريـر من الـرضـا عن النفس، والاطمئنان إلى المستقبل.

إننا ما زلنا نعيش في عالم لا تسوده السلوكية الأخلاقية، ولا قواعد القانون الدولي، ولا مبادىء العدالـة الانسانيـة. نحن نعيش في عالم سيـظل زمناً طـويلاً تحكمـه شريعة الغـاب، والظفر والناب.

(*) العربي، العدد ٢٢١ (نيسان/ ابريل ١٩٧٧).

وإذا كانت بعض العلاقات الدولية تبدو أكثر «تشذيباً» مما مضى، فهذا مظهر فقط، وتغير في الأساليب لا غير. الأساليب غير المباشرة اليوم أخطر مائة مرة من الأساليب المباشرة. المواجهات المباشرة كانت على الأقل ظاهرة للعيان، أما اليوم فأسلحة الفتك بدولة ما أو بمجتمع ما، ليست فقط محصورة في الأسلحة والجيوش، ولكن لها أسلحة أخرى ما خفي منها هو الأعظم، ابتداء من افساد الذمم والضمائر على مستويات عالمية، إلى تأليب عناصر الفتنة والتخريب بأيد مجهولة خفية، إلى الإيقاع بين الاخوة والجيران، إلى إثارة الحروب المحلية التي يستفيد منها طرف ثالث بعيد، دون أن تتلوث يداه.

ورجوعاً إلى ما سبق أن قلته في هذه الصفحات، وأكرره، من أن ثمة حرباً صليبية شاملة ـ بالمعنى الحديث ـ تشن حالياً على العالم العربي، فإنه لا بد إلى التنبيه إلى بعض مظاهر ما نتعرض له بالفعل، وما يمكن أن يكون مقدمة لأشياء أكبر وأخطر، في المستقبل القريب. . .

خصوصاً وأنه لا بد أن يسجل المرء، مع الأسف، أن كثيراً من دولنا ومجتمعاتنا والتيارات الفكرية لدينا، تقع في بعض هذه الشراك المنصوبة، دون أن تراها. . .

إن العالم الأجنبي، خصوصاً قواه المؤثرة والفاعلة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، يهمه بوجه عام أن ينشغل العالم العربي بنفسه، بصراعاته وخلافاته ومشاكله بشتى أنواعها، وأن يمزق نفسه بنفسه، بحيث تتعطل فاعليته تماماً، على الأقل لمدة تتراوح في حساباتهم بين العشر سنوات والعشرين سنة المقبلة، حسب تقديراتهم للفترة اللازمة إما لاستنفاد النفط، وإما لإنهاء دوره الاستراتيجي كسلاح فعال بظهور المصادر البديلة للطاقة، ولإجهاد الأمة العربية خلال هذه الفترة بوجه عام، بحيث تكون فترة ارهاق واستنزاف وتمزق وضياع، ولا تكون فترة بناء وتعمير وتنوير ووضع أسس القوة العربية الذاتية لقرون عديدة مقبلة.

والزوايا التي يمكن معالجتها كثيرة.

ولكن لننظر مثلاً إلى الحدود العربية، أو الجبهات التي على الحدود العربية. فقبل ظهور قوة البترول وتعاظمها، وقبل ظهور امكانية التضامن العربي عسكرياً كما حدث في حرب اكتوبر، وقبل التزام العرب بمساعدة بعضهم البعض بالمال والمواد الاستراتيجية والسلاح. . .

قبل هذا كله، وطوال ربع قرن، كانت «الجبهة» الوحيدة التي تشغل بال «الأمن العربي» ـ فضلاً عن الحق المسلوب ـ هي جبهة اسرائيل. . .

الآن ماذا نرى؟. . .

جبهة اسرائيل اتسعت، واستشرت، وتفاقم خطرها. . .

. . ثم هناك جبهة الخليج. . وقد بدأت السفن الحربية الأجنبية تسبح فيها من حين لآخر، ولا يمر يوم دون مئات المقالات في صحف العالم عن المخاطر المحتملة فيها. .

. . ثم جبهة «باب المندب» والبحر الأحمر بوجه عام. فالدول الكبرى تسعى إلى إقامة

قواعد عسكرية على مقربة من مدخل البحر الأحمر الجنوبي. . . واسرائيـل ذاتها تجـرب بعض قطعها البحرية، وتحصل على طائرات تصل إلى هناك. . وصار على من يفكر في الأمن العربي أن يكرس اهتماماً كبيراً بأمن البحر الأحمر. . .

. . «ثم جبهة افريقيا». . في المشاكل التي تتعرض لها حدود السودان، المطلة على تسع دول افريقية، ومحاولات تقسيمه وتمزيقه. .

فالجبهات المعرضة زادت، وتعددت، والتحرشات توالت. أو في القليل ارهاصات هنا وهنـاك تشير بـأن مداخل العالم العـربي ومفاتيحـه الجغرافيـة، صـارت محـل اهتـمام واضعي الاستراتيجيات الأجنبية، الأمر الذي يفرض على واضعي الاستراتيجيـات العربيـة أن يضعوا هذه الأمور الأضخم، والأوسع، في حساباتهم الجديدة، بما يلقيه هذا عليهم من أعباء بشرية ومالية ضخمة.

وحين نتأمل هذه الجبهات التي انفتحت علينا، وقد ينفتح غيرها غـداً، نجد أن الأمـة العربية باتت في أشد الحاجة إلى نظرية أمن جـديدة، وإلى اسـتراتيجية مـوحدة شـاملة للأمن القومي العربي كله.

وحين أقول نظرية أمن عربية جديدة، أو «استراتيجية أمن قـومي» شاملة. . فـلا يجب أن ينصرف الذهن إلى المعنى العسكري وحده.

إن العنصر العسكري هو جزء واحد فقط من أجزاء كثيرة تتكون منها «الاستراتيجية». فاستراتيجية الأمن تشمل سياسة الدفاع العسكـري، وسياسـة الاقتصاد، وسيـاسة التعمـير، وسياسات أخرى كثيرة. . .

الاستراتيجية مثلاً تفترض وجود حد أدنى من التنسيق السياسي ازاء العالم.

والاستراتيجية تفترض دراسة «مخارج» البترول العربي، وغيره من الـثروات الهامـة جداً التي يطغى عليها البترول حالياً كالفوسفات والكـبريت، بحيث تتنوع هـذه «المخارج» وتتـوفر لها البدائل، بما يحتاجه ذلك من مشروعات. . .

والاسـتراتيجية تفـترض رسم سياسـات لملء الفـراغـات الجغـرافيـة الحـدوديـة للعـالم العربي. . بتعميرها وإسكان الناس فيها. . .

والاسـتراتيجيـة تفـترض ربط أجـزاء العـالم العـربي بشتى أنـواع المـواصـلات، ليس بالطائرات وحدهـا، ولكن بالـطرق البريـة والسكك الحـديديـة، حتى تترابط شرايـين الوطن العربي ترابطاً ينعكس على صحته في حالات السلم والخطر على السواء. . .

وهكذا. . .

وهذا يجرنا إلى زاوية أخرى من زوايا الهجمة الشاملة المتنوعة المصادر والأغراض، على الأمة العربية. .

تلك هي الهجمة، أو الهجمات، من الداخل. . .

إنني من أشد الرافضين لفكرة القاء اللوم دائماً على الغير، وبالتالي اعفاء أنفسنا من المسؤولية. .

ولكن هذا لا يجب أن يقودنا إلى سذاجة تجعلنا ننكر أن ثمة أيد أجنبية كثيرة تتحرك بشتى الوسائل المعقدة، لإحداث أنواع من الصراعات الداخلية في بلادنا. . .

. . وإلاّ، فكيف تقبل عقولنا أن نجد في هذه الظروف بالذات جيوشاً عربية تواجه جيوشاً عربية. . . على حدود بين أقطار شقيقة. . . في أكثر من مكان من الوطن العربي؟

. . وكيف تقبل عقولنا توالي الفتن، بأشكال شتى، من حروب أهلية إلى درجات أقل، في سلسلة من الأقطار العربية في هذه الظروف نفسها؟

. . . وكيف تستريح ضمائرنا، ونحن نرى ما نرى، أي أن ما هو أشد هولاً قد يكون كامناً في طريقنا، وإن لم يتبين لنا ذلك بعد؟ . . .

إن خطة اسرائيل في التوسع تقوم في الدرجة الأولى على أساس تمزيق الكيان العربي من الداخل. .

والأساليب المؤدية لذلك كثيرة جداً، وليست مباشرة بالطبع، ولكن لها مسارب خفية تصل إلى استخدام بعض العرب ضد بعضهم وهم لا يعرفون. .

ولاسرائيل حلفاء أقوياء في هذا المجال، في القارات الخمس!

فمتى تقف الحرب الأهلية العربية نهائياً؟

وإلا فكيف يمكن، قبل ذلك، الحديث جدياً، عن نظرية أمن عربية جديدة؟

١٣ ـ سنة التمزق العربي!!(*)

ومن الواجب أنها ليست أول سنة يمكن أن يطلق عليها هذا الاسم. عرفنا قبلها سنوات وربما سنعرف بعدها سنوات، يمكن أن تحمل بدورها هذا اللقب. ولكن الذي لا شك فيه، هو أن سنة ١٩٧٧ التي انقضت تستحق هذا الاسم عن جدارة واستحقاق.

والذي يجعل هذه الحقيقة أقسى على النفس، أنها كانت سنة حافلة بالامتحانات القاسية التي واجهت الأمة العربية: الامتحانات التي من شأنها أن توحد الصفوف، وتجمع الشتات. سنة من سنوات الضغط على العالم العربي في مجالات كثيرة. ضغوط تذكرنا بكلمة جمال الدين الأفغاني حين اشتد الاستبداد وضاق الحال بالعباد، فقال في تفاؤل «بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة، والأزمة تلد الهمة!».

ولكن هذا الذي حدث في عالمنا العربي كان غير ذلك. فأمام الضغط والتضييق لم تلتحم الأجزاء المبعثرة، بل زادت تبعثراً...

ونحن في هذا المنبر، لا نتعقب الأحداث في تفاصيلها. فالمجلة الشهرية وجدت لتأمل الأحداث في مجموعها، وللنظر إليها من بعيد، لأن الفرق في تفاصيل الأحداث له ضرورة. كما أن تأمل الأحداث في مجملها ومن بعيد له ضرورة أخرى. فالمشهد من المكانين مختلف. ورؤية المشهد من المكانين ضرورية، لا تغني احداهما عن الأخرى، خصوصاً حين تكون المناسبة ـ أول عام جديد ـ تدعو إلى رؤية احداث ٣٦٥ يوماً في نظرة كلية شاملة. ولا أقول كذا ألف ساعة، لأن عالم اليوم تتلاحق فيه الأحداث بالساعات أحياناً وليس بالأيام فحسب.

فحين نسترجع ما جرى خلال سنة ١٩٧٧، سوف نجد ظواهر تلفت النظر..

(*) العربي، العدد ٢٣٠ (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٨).

- في السياسات العامة ازاء القضايا القومية الشاملة - اسرائيل، البترول، الصراع في القرن الافريقي (الصومال واثيوبيا واريتريا)، الحرب الأهلية اللبنانية - لا نجد موقفاً قط تجمعت فيه كلمة الدول العربية كلها، أو على الأقل توحدت فيه كلمة «أغلبية ساحقة» من هذه الدول. . ازاء القوى الخارجية. .

- في السياسات العربية الداخلية - أي بين العرب وأنفسهم وليس بين العرب والعالم - نجد أن الخلافات تصاعدت ولم تتراجع. فأكثر من حدود عربية - عربية، جوها مكهرب، وسماواتها مكفهرة، محملة بالنذر الخطيرة. وأحياناً وصل الأمر إلى حد القتال، وجرح لبنان الذي توقعنا أول سنة ١٩٧٧ أن يندمل، ظل ينزف حتى آخر شهر من تلك السنة تقريباً.

- وبنفس النظرة إلى الأمور من بعيد، نرى ظاهرة أخرى خطيرة، ربما لا نحس بها حين نصادفها في جزئياتها كل يوم بيومه، ولكننا نراها واضحة حين نجمع الجزئيات في «كل» واحد.

هذه الظاهرة، هي تصاعد النبرة الاقليمية في الكثير من الأقطار العربية، القديمة منها والناشئة.

وبالنسبة إليّ، فإنني لم أكن أبداً من القائلين بالتعارض الحتمي بين الروح الوطنية المحلية والروح القومية العامة. فالروح الوطنية لا يمكن قهرها، وليس من الصواب قهرها بأساليب مصطنعة أياً كانت. وهي إذا ظلت في حدودها المعقولة ليست سلبية الآثار على النزعة القومية. ثم إن ظهور الروح القومية العربية وتصاعدها في الربع قرن الأخير، اقترن بمولد كيانات عربية جديدة في صورة دول مستقلة، فكان على المواطن في أقطار عربية كثيرة - لم تكن دولاً من قبل، أو كانت هويتها محل نزاع - كان على المواطن في هذه الحالة مواجهة مرحلة قلق بين الصفة المحلية والصفة القومية، حتى يصل إلى الانسجام المطلوب.

ولكن المشكلة التي أشير إليها واعتبرها ظاهرة سلبية، في كشف حساب سنة ١٩٧٧، هي حين تكون الدوافع إلى اذكاء الروح الوطنية الاقليمية سلبية، مضادة لمسيرة الاتجاه القومي بوجه عام. .

والسبب بالطبع يرجع إلى التفسخ العربي العام في سياساته ازاء الغير. .

ويرجع ثانياً إلى ما حدث من تفاوت شديد بين الدول العربية في حظوظ الفقر والثراء. . .

ويرجع ثالثاً إلى الحرب الصليبية الشاملة التي يشنها العالم بمختلف قواه على الأمة العربية، وسأتحدث عن هذا السبب بمفرده بعد قليل. .

ويرجع رابعاً إلى سبب قد يبدو غريباً، وهو حاجة العرب النفسية بصفة عامة، حاجة ماسة، إلى «نصر عربي» كبير، نصر من أي نوع، نصر عسكري أو سياسي أو معنوي. فالعربي يشعر أن لديه المال، ولديه الخبرة، ولديه التراث، ولديه العقيدة، ولديه الموقع

الاستراتيجي، ولكنه لا يحرز نصراً ما، بمستوى هذه الأشياء المتوفرة له. والتعطش الشديد في هذه الحالة، يولد نفسية سلبية خطيرة. في ظل هذه المحن كلها، يسهل على الحاكم أحياناً أن يدعم وجوده بإذكاء روح اقليمية متعصبة، وهي روح من السهل دائماً اشعالها. وأحياناً يسهل على دولة أخرى أن تبعد بسفينتها عن بحر السياسة العربية الهائج، عن رغبة في النجاة من الأخطار، فتجد نفسها تنمي الروح الاقليمية ولو دون أن تدري.

وأحب هنا، أن أقف قليلاً عند البند «ثالثاً» عن الحرب الصليبية الشاملة التي يشنها العالم بمختلف قواه على الأمة العربية.

فمنذ أكثر من سنة كتبت في هذا المكان تحت عنوان «نحن نعيش الآن الحرب الصليبية العاشرة» ولا أريد أن أعيد ما كتبته من قبل.

ولكن الأمر خلاصته أن الحروب الصليبية القديمة والحديثة كانت دوافعها سياسية واقتصادية وقومية وحضارية وليست مجرد دينية. وكان السبب الديني يشحب مع الزمن ويزيد أثر العوامل الأخرى تدريجياً حتى عصرنا الراهن..

ولكن الحقيقة تبقى قائمة. كان الغرب التوسعي، الذي يتقدم في اطراد، يريد أن يغزو، أو يخترق أو يحطم تلك الكتلة الكبرى التي استوعبتها يوماً عقيدة واحدة وثقافة واحدة.. من قلب القارة الهندية إلى المحيط الأطلنطي.

وفي العصر الحديث حين ظهرت القوميات، بقيت المنطقة العربية على الأقل من هذا العالم متماسكة. متماسكة في جذورها وفي تراثها وفي عقيدة أغلبيتها الساحقة، حتى ولو مزقتها الاحتلالات، ورسمت حدودها اعتسافاً على موائد بعيدة في لندن وباريس.

وفي الوقت الراهن، وقد تحررت الأمة العربية من الاحتلال الأجنبي لكل أجزائها وبعد أن أحرزت انتصارات مرموقة في فترات ما، وبعد أن أضيف إلى أهميتها الاستراتيجية، وإلى احتمالات توحدها أو تكاملها بأي شكل كان، بعد أن أضيف إلى هذه العناصر، عنصر آخر هو تركز معظم مخزون البترول في العالم، وهو المادة التي قامت عليها الحضارة الحديثة إلى الآن، وما تلا ذلك من تدفق المال من خزائن الغرب إلى هذه المنطقة.. بعد هذا كله صار للأمة العربية امكانات هائلة، لن يسمح لها العالم الخارجي بسهولة أن تلتقط أنفاسها، وتنفض غبار التخلف عن ثيابها، وتضع أقدامها بثبات على عتبات قوة جديدة، تجعلها قادرة على أن تزاحم بكتفيها القوى الأخرى المتحكمة في عالم الأمس واليوم.

هذا وضع يتحدى الأوضاع العالمية الأخرى.
هذا مستقبل عربي يحاربه العالم أجمع.

وإذا كنت لا أقصد العالم أجمع تحديداً، فإنني أقصد معظم القوى الأساسية الفاعلة في العالم..

الولايات المتحدة لا تقبل هذا الوضع، وقد أصبحت دولة مستوردة للبترول، فضلاً عن مصالحها كدولة كبرى.

الاتحاد السوفيتي لا يرضيه هذا الوضع، إذ يصبح له جار قوي آخر، قريب جداً منه، ويتحكم في كثير من منافذه.

كتلة غرب أوروبا لا ترضى بهذا الوضع، إذ تصبح معظم سواحل البحر الأبيض المتوسط متجمعة في ارادة واحدة. وتصبح هذه المنطقة الفاصلة أو الموصلة بينها وبين باقي افريقيا متجمعة في ارادة واحدة، تحدثها كما تحدث العالم بلغة واحدة.

ولقد قلت في حديث آخر منذ زمن، العالم سيشن على العرب خلال السنوات الحالية والمقبلة، إلى آخر الثمانينيات على الأقل، حرباً صليبية شاملة، متعددة الوسائل والأهداف والاتجاهات... حتى يستنفد طاقته، ويبدد ثروته، ويضيع على أمتنا فرصة لم تسنح لها منذ ألف سنة، للانتفاض.

ونستطيع هنا أن نتحدث عما رأيناه وشهدناه فعلاً، دون أن نلجأ إلى الاستنتاج والتخمين...

ـ إن الخلافات العربية أمر نحن المسؤولون عنه قبل غيرنا، وما عدنا أطفالاً سذجاً. ولكن هذا لا ينفي وجود الدور الأكيد للأيدي الأجنبية في إذكائها. ومن يراجع الوثائق القديمة التي نشرت، والمراجع الجديدة عما يحدث وراء الكواليس، والمبالغ الهائلة التي تدفع.. إلى آخره.. لا يجوز له أن يستبعد دور هذه الأيدي الأجنبية بهزة رأس.

إن وسائل هذه الأيدي لا تنتهي، وهي تفوق في غرابتها الخيال. وما تجنيه من هذا الدهاء كثير. من الناحية السياسية تنعدم القوة العربية تقريباً ازاء العالم وتصبح كما قال كاتب عربي كبير «قوة صوتية» فقط. ومن الناحية الاقتصادية تنقذ قوى الغرب نفسها، بإيجاد ظروف تجعل الدول العربية تدفع لها آلاف الملايين كل سنة ثمناً لشراء أسلحة أغلب الظن أنها لن تستعمل يوماً فيما وجدت من أجله. ومن الناحية المالية، تلعب الأموال العربية أكبر دور في استمرار الحركة المالية في دول عالم الغرب. ومن الناحية البترولية، يستخدمون بترولنا ويحتفظون قدر الطاقة بمخزون بترولهم.

ثم إنه ليس مصادفة اشتعال كل هذه الحرائق على الحدود العربية، وعلى مقربة من الحدود العربية، كالحرائق الناشبة في بلاد القرن الافريقي، وحيرة العرب ازاء أشياء ومفارقات تجري كالألغاز في الصومال واثيوبيا واريتريا، والعرب فيها أحياناً طرف، وأحياناً ليسوا بطرف، وتحرك الدول الكبرى عند هذا الجزء العربي، ثم الواقع عند خط التماس بين العرب وسائر افريقيا، فضلاً عن كونه موقعاً حاكماً لمدخل البحر الأحمر.

لماذا قفزت روسيا من الصومال إلى اثيوبيا؟ ولماذا سكتت أمريكا ـ حتى الآن ـ عن قفزة روسيا إلى اثيوبيا، أحد أهم معاقل أمريكا حتى وقت قريب، أهم لها على الأقل من انجولا التي جربت التدخل فيها؟ ولماذا شجعت أمريكا وغرب أوروبا الصومال أول الأمر، وعدوها بالسلاح، فلما تورطت الصومال تماماً، تركوها لشأنها وسحبوا الوعود..؟

أمور تحتاج إلى تأمل عميق، لا تجرفنا فيه التيارات السطحية كالعادة..

وهي أمور هامة، لأنه ربما يتوقف على المسلك العربي، في هـذه المنطقـة التي تتداخـل فيها العروبة بالافريقية الزنجية، ويتداخل فيها الاسلام بالمسيحية والوثنية والقبائلية. . أقول ربمـا يتوقف عـلى المسلك العربي في تلك المنـطقة المعقـدة، علاقـات العـرب بكـامـل العـالم الافريقي. . وقوى كثيرة وكبيرة تريد عزل العرب عن العـالم الافريقي، وليس من مصلحـة العـرب أن يحاط بهم من الجنـوب ولا خلق خط من العـداء عـبر القـارة الافـريقيـة، عـداء مصطنع وغير حقيقي وليس في مصلحة أي من الطرفين. . إنما هو في مصلحة الذين يدبرون لنا «حرب الانهاك والاستنزاف» أينما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ومن السلبيات العربية الهامة، التي تحدث دائماً، حتى تعودنـا عليها منـذ زمن، ظاهـرة أخرى لم تنفرد بها سنة ١٩٧٧، ولكنهـا تكررت فيهـا، ولا بد من اثـارتها لـدى الرأي العـام العربي وخلق تيار من الاعتراض عليها.

إن الحكومات العربية تختلف عـلى أمور هـامة أو بسيـطة. حسن. هذا أمـر لا نتمناه، ولكن ليس من السهل المطالبة بإيقافه. وكل دول العالم، حتى المتحـالفة منهـا، أو الداخلة في حركة وحدة كأوروبا، تختلف.

ولكن. .

لمـاذا إذا اختلفت حكومـات على قضـايا سيـاسية، يمتـد هذا إلى حيـاة الأفـراد، أبنـاء الشعوب العربية في حياتهم العادية والبعيدة تماماً عن القضايا السياسية محل البحث؟

لقد تعودنا. . إذا اختلفت حكومات عربية، أياً كانت، أن يقترن بذلك اجـراءات غير جائزة ولا تؤدي إلى أي غرض. .

- طرد رعايا هذه الدولة أو تلك. . .

- قطع طرق المواصلات البرية أو الجوية أو البحرية. . .

- اغلاق الحدود في وجه الناس العـاديين الـذين يتنقلون من أجل تجـارة أو قرابـة، أو تحصيل ودراسة، أو حتى سياحة.

- اغلاق مكاتب التجارة، أو مرافق تعاون اقتصادي، أو مكاتب طيران، أو غيرها.

لماذا؟

ضرورات الأمن - في مفهوم حكوماتنا - لا نستـطيع الاعـتراض عليها. ولكن مـا قيمة أجهزة الأمن - الكثيفة جداً في العالم العربي - إذا كانت لا تستطيع تحمل مسؤولياتها، مع بقاء شرايين الحياة العادية متصلة والدورة الدموية العربية غير مقطوعة؟

إننا لا نعرف عن بلد عربي كسب قضيته ازاء بلد عربي آخر بمثل هذه الاجـراءات. . وإلّا لفهمنا أن هناك ما يبررها.

فهي مجـرد تعبير عن غضب، عن سخط. ثم تعـود الأمور بعـد شهور إلى مـا كـانت عليه.

ولكن أثر هذا التقطيع لـلأوصال لا يقتصر عـلى الأسابيع والشهور التي يستمـر فيها فقط. إنـه يزعـزع كل ثقـة، ولا يشجع عـلى استمرار وتـواصل الحـركـة بـين المجتمعـات العربية. فهـذا الاستمرار يحتـاج إلى اطمئنان، وإلى شعـور بأن خـلافات السيـاسة لن تمتـد إليـه، إلى حياة المـواطنين المسـالمين العـاملين في شتى الميـادين، فهم ملح الأرض، ومجمـوع نشاطهم هو أكثر ما يضيف إلى التواصل والتكامل العربي.

.. في القاهرة، اكتشف السياح والأجانب قرية اسمهـا «كرداسـة»، قرب نهر النيـل، وعلى الحافة بين الخضرة والصحراء، لأنها تصنع أقمشة جميلة غير مألوفـة، وصار كـل أجنبي يأتي لا بد أن يحج إليها ويشتري. وحين زرتها وجدتها قرية غريبة. كل بيت فيـه نول يـدوي أو أكثر. والرجال والنساء والأطفال يصنعون عليه الأقمشة التقليدية أو أنواع السجاد. أنـوال قديمة جداً ومتخلفة جداً. وسألت طبعاً، لمن كانت هذه القريـة تبيع قبـل أن يصبح انتـاجها «تقليعة» وموضة بين الأجانب وسكان القاهرة. وقـال أهلها لي: منـذ مئات السنـين وقريتهم وعـدة قرى مشـابهة، تصنـع كل ثيـاب البدو من أول الصحـراء الغربيـة، إلى آخر ليبيـا من الطرف المغربي! تتقلب السياسة وتتوالى العصور وهذا الخيط الطبيعي مستمـر.. بالقـانون أو بالتهريب.. فهذه حاجة الناس هنا وهناك اتصلت بهذا الخيط الرفيـع عبر مئـات الأميال من الصحراء القاحلة...

... وفي كوم امبو، في آخر صعيد مصر، زرت القرى النائيـة، فاكتشفت أن «طـريق الأربعـين» الذي قيـل لنا في المـدارس انـه انـدثـر، مـا زال مـوجـوداً وحيـاً ومستعمـلاً... والعائلات في جنوب مصر وشمال السودان، متصاهرة، ومتشاركة في تجارات شتى، وتتزاور في المواسم، عبر هذا الطريق البدائي جداً، الشاق جداً.. حيث عجزت الحكومات منذ الحكم الانجليـزي أن تخلق طرقـاً جديـدة، من سفن نيلية، أو سكـك حديـدية، أو طـريق ممهـد، تستطيع أن تستخدم وسائل النقل الحديثة من لوريات وسيارات.

حقائق، وحقائق عميقة، لأن الجسد العربي فعلاً جسد واحد. وكـما أن جسم الانسان يقاوم الجروح ويلتئم بنفسه، كذلك فهذه أمثلة من مقاومة الجسم العربي لعمليات التقـطيع، أو لعوادي الزمن، أو حتى لتحديات العصر الحديث...

ولست أشك أن أمثلة ذلك، بين شتى الأقطار العربية، متكررة وموجودة...

فهل يقبل بعد هذا، استمرار تلك الظاهـرة السلبية، وهي اقـتران كل خـلاف سياسي بتقطيع ما وصله التاريخ، دون انتظار أي عائد فعلي، سوى ابداء السخط والغضب...

مسـألة ليست فـرعيـة أبـداً، وقـد آن الأوان للوقـوف في وجههـا. إن هـذه الصـلات واستمـرارها، أهم من اجتـماعات وزراء العـدل العرب.. ووزراء الـطب العرب.. ووزراء

الأوقاف العرب. . إلى آخر القائمة، رغم أن هذا في ذاته أمر نـرحب به ونتمنى أن تكـون له نتائج فعلية، أكثر من المظهريات في الصحف وعلى شاشات التلفزيون!

ولماذا لا تتقدم دولة عربية بمشروع لأول اجتماع للجان عربية تستصدر بـه قراراً بفصـل الخلافات السياسية تماماً عن هذه الاجراءات؟

إنني أستأذن في انتهاز فرصة بدء عام جديد، وما يبدو أنه مرحلة جـديدة في العـلاقات العربية «الرسمية»، لكي أوجه هذا التحذير إلى الأمة العربية كافة!. . .

إن الفترة الذهبية المتاحة من أجل القيام بقفزة كبرى في الحياة العربية والقوة العربية. . لا تزيد عـلى عشر سنوات. . عـلى الأكثر حتى نهايـة ١٩٨٠! والوقت يجـري بسرعة مـذهلة! فكثيرون منا قالوا مثل هذا الكلام في أول سنة ١٩٧٠، وكأننا كنا نقوله بالأمس القـريب، في حين أننا بدأنا نشرف على سنة ١٩٨٠!

راجعـوا الصحف العربيـة في الشهر الأول من سنـة ١٩٧٠ مـع الصحف العـربيـة في الشهر الأخير من سنة ١٩٧٧، أي بعد سبع سنوات!

سوف يصاب من يفعل هذا بالذعر! فكأن شيئاً قط لم يحدث في هذه السنوات السبـع! نتقـدم أحيانـاً، أو نقفز، ثم لا نلبث أن نعـود إلى ما كنـا فيـه. . من قضـايـا، ونـزاعـات، ومقالات هي المقالات نفسها، وخطابـات هي الخطابـات نفسها، واجتـماعات تعقـد وتنقضي تحت العناوين نفسها!

لا شيء جديداً؟

نعود وندور ثم نعود إلى نقطة البدء؟

هل هذا معقول؟

هل هذا قابل للاستمرار في عالم يلهث من سرعة الجري؟

أي صدمة يحتاجها العرب كي يفيقوا؟

أي هجمة نحتاجها لكي نخترق، ولو بأفكارنا أول الأمر، دائرة تلك البحـيرة من الماء الراكد التي نتحرك داخلها؟

إن العالم العربي لا ينقصه التحليل. . . ولكن ينقصه التصرف!

بعكس العالم المتقدم.

أغلقنا قناة السويس - مثلاً - سنة ١٩٥٦ فاهتزت الدنيـا وارتبك العـالم، فلما أغلقناهـا سنة ١٩٦٧ كان العالم قد استعد للاحتمال واستفاد من التجربة. . إذ بنى الناقلات العملاقة، ووضع كل ما يجعله قادراً على مواجهة تكرر الدرس مرة أخرى.

في سنة ١٩٧٣ أوقفنا ضخ البترول. وها نحن نرى العـالم المتقدم يستعـد لأي احتمال، بتخزين بترول يكفيه ستة شهور، ثم سنة، للصمود! وبتحويل بعض الناقلات العملاقـة إلى مخازن راقدة في الموانىء الكبرى، وبوضع خطة لمساعدة بعضهم البعض إذا تعرض أحدهم أو بعضهم لهذا الإجراء. . وتصرفات أخرى كثيرة.

العالم العملي يحلل الظروف، ويتصرف. ونحن بعكسه، كلنا خبراء في التحليل. ولكننا لا نسأل أنفسنا بعد ذلك: ماذا نفعل إذن؟

أو أن غرائزنا، وأهواءنا، وأفكارنا الضيقة، أقوى منا، بحيث إنها تكبلنا وتمنعنا من التصرف والتحرك!

إن العالم العربي في حاجة إلى أن يعيد ترتيب أولوياته!

ومن أجل ذلك هو في حاجة إلى اطلاق حرية المناقشة المسؤولة، حتى يشعر الجميع بالمشاركة في ترتيب هذه الأولويات!

وإلاّ بقينا عشر سنوات أخرى، ندافع فيها عن أنفسنا فقط ضد هبات الأمواج، ولا نتحكم في هذه الأمواج أبداً!

١٤ ـ من التحديات التي تواجهها القومية العربية: شرعية السلطة في العالم العربي(*)

سألوني، عن التحديات التي تواجهها القومية العربية . .

وكان ذلك في ندوة عامة، في مقر رابطة الأدباء . .

وقلت لهم: إن التحديات التي تواجه القومية العربية كثيرة، منها مثلاً الوصول بها إلى نوع من أنواع الوحدة العربية، ومنها حل مشكلة التخلف الاجتماعي والاقتصادي، ومنها تحدي المحافظة على الاستقلال القومي بين تيارات وعواصف القوى الكبرى، ومنها تحدي الحفاظ على الثروة البترولية الاستراتيجية وحسن استثمارها . . إلى آخره.

ولكنني، قلت لهم، أفضل أن لا أتحدّث عن «التحديات الخارجية» المعروفة، وأن أركّز على ما يمكن تسميته «تحديات داخلية»، أي تحديات فينا وفي نفوسنا ومجتمعاتنا. ذلك أنني أعتقد أنه لو استقامت أمور الأمة العربية الداخلية، وحياتها مع نفسها، لتغير الموقف تماماً بالنسبة إلى كل شيء. وحتى التحديات الخارجية سوف يتغير وضعها وسوف تسهل مواجهتها إلى حد بعيد.

وقد اخترت من هذه التحديات، ثلاثة . .

ثلاثة أمور تحتاج إليها المجتمعات العربية بدرجات متفاوتة. وقد تبدو للبعض نوعاً من الترف الشكلي، لأنها «صفات» و «قيم» وليست «أشياء مادية». ولكن الواقع أن الحاجة إليها صارت ماسة بل ومتفاقمة.

فالقوة المادية لا يمكن أن تأتي إلاّ في أعقاب قوة معنوية.

وكل مجتمع ناهض، لم يحقق نهضته وتقدمه المادي إلاّ بعد أن استتبت لديه «قيم» و «مؤسسات» و «نظم» تسمح بقيام هذا التقدم المادي واستقراره على أساس متين.

(*) العربي، العدد ٢٤٢ (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩).

إن من الشعارات البرّاقة الرائجة هذه الأيام، في مؤتمرات وعلى أقلام الباحثين وألسنة الزعماء والحكام. . عبارة «نقل التكنولوجيا»، التي نستخدمها في اطار البحث في سبل تطوير وتقوية مجتمعاتنا العربية. .

ولكن التكنولوجيا لا يشتريها المال، ولا ينقلها عشرات أو مئات من الخبراء الذين يتعلمونها في الخارج. هذه وسائل مساعدة. ولكن التكنولوجيا لا تنتقل حقاً وتصبح لها جذور إلّا في تربة صالحة ومهيأة لذلك. والتربة لا تكون صالحة إلّا إذا توفرت لها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية معينة. .

وحتى لا يظن القارىء اني أشغله بقضية هامشية أسرد قصة صغيرة سردتها قبلاً في مجال آخر، تدل أي انسان مدرك للمسؤولية، أن البلاد لا تتقدم بالصناعة والزراعة واصلاح التليفونات وحدها!

منذ أكثر من عشرين عاماً، وأنا في مطلع حياتي الصحفية، تعرفت بحكم المهنة على الملحق الصحفي الشاب في سفارة اليابان بالقاهرة (وقد لقيته أخيراً سفيراً لليابان في دولة الكويت). ثم عرفت منه بالمصادفة يوماً أنه يواظب على حضور حصص اللغة العربية في مدرسة المنيرة الثانوية في شارع المبتديان. ودهشت. وقلت له إن هناك وسائل أخرى أسهل لتعلم العربية بالنسبة إليه. وقتها قال لي: إنه حقاً مبعوث ليعمل ملحقاً صحفياً لليابان في مصر. ولكن مطلوب منه شيء آخر، هو دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة عميقة تمكنه من أداء غاية معينة بعد سنوات وهي: ترجمة كتاب «مقدمة ابن خلدون» إلى اللغة اليابانية.

هذه الواقعة الحية، لا تبرح ذهني أبداً. فكتاب مقدمة ابن خلدون من أهم كتب التراث العربي القديم. وهو من أهم مراجع علم الاجتماع في العالم كله. ولذلك لم تكتف اليابان بأن يطلع عليه المتخصصون في لغات أخرى ـ انجليزية وفرنسية ـ ولا إلى اشارات المؤلفين العالميين إليه. ولكنها كلفت أحد أبنائها بالقيام بهذا الجهد سنوات طويلة، حتى يوجد هذا الكتاب كاملاً، في لغة اليابان، متاحاً لكل شاب أو دارس ياباني في علم الاجتماع!

وقتها، كانت اليابان خارجة من كبوتها وهزيمتها في الحرب العالمية الثانية. لم تكن قد هجمت على العالم كله بعد بسياراتها وترنزيستوراتها وتلفزيوناتها وكل صناعاتها التي تذهل العالم وتزعزع أعتى الدول الصناعية الأخرى.

والبعض يظن ـ في سطحية ـ أن اليابان عكفت على اتقان هذه الصناعات وحدها!

كلا! فنفس الجهد الذي كانت تبذله اليابان في مجال البحث العلمي والانتاج الصناعي كانت تبذله ـ بالتوازي ـ في مجالات البحث الأخرى كالعلوم الانسانية. . وتترجم مقدمة ابن خلدون من العربية رأساً إلى اليابانية.

عرفت اليابان قيمة الكلمة والورقة كما عرفت قيمة الجهاز الالكتروني الصغير!

وبغير هذا ما كانت اليابان لتحرز ما أحرزته من تقدم مذهل!

ففي حياة كل الأمم، لم يحدث أبداً ان تم التقدم في مجال واحد دون مجال. المجتمع أو الشعب إما أن يتقدم في المجالات كافة، لأنها تكمل بعضها، وإما أن لا يتقدم!

والتقدم غير القوة المادية العابرة!

* * *

وقد اخترت ثلاثة تحديات داخلية، أو ثلاثة أشياء علينا أن نحققها في بلادنا أولاً، ونقيم عليها حياتنا، ونجاهد فيها أنفسنا..

أولاً: الديمقراطية وحرية الرأي، وأمرهما واضح.

ثانياً: العقلانية، وليس ذلك معناه الغاء العاطفة. فالعاطفة في حياة الشعوب أمر أساسي. حب الوطن عاطفة. وحب العدل عاطفة. إنما علينا أن نقرن التأثر بالعاطفة مع درجة كافية من العقلانية، فيكون فكرنا وتصرفاتنا وسياساتنا كلها قائمة على العقل والقلب معاً.

ثالثاً: الشرعية..

وقد تكون «الشرعية» هي أكثر «الشروط» حاجة إلى الايضاح والتفسير. ذلك أنها تختلط، من الوهلة الأولى، «بالقانونية»، أي بالجانب القانوني، والشكلي، للشرعية.. في حين أنها في مجال فلسفة السياسة والحكم أوسع من ذلك وأعمق في معناها ومغزاها..

المفكر السياسي «ماكس ويبر» يقول: «من دون الشرعية، فإن أي حكم، أو نظام، يصعب عليه أن يملك القدرة الضرورية على «ادارة الصراع» بالدرجة اللازمة لأي حكم مستقر لفترة طويلة».

وهذا صحيح. فالحكم في محاولته امتلاك عنان الأمور. والقدرة على مواجهة المشاكل والتحديات، تختلف قدرته وكفاءته اختلافاً كبيراً.. بين حالة يكون فيها الناس معه، وحالة يكون فيها الناس ضده، أو ليسوا معه، سواء كانوا ضده بالاعتراض والرفض والمقاومة، أو بالسلبية، والإهمال وعدم التفاعل معه.

وأي حكم، قد يتمكن من تحقيق «استمرار وضع ما» عن طريق القوة، أو العادة.. ولكن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تظل قلقة، مصدر ضعف للسلطة وللوطن معاً «إلى أن يقتنع المحكوم بجدارة الحاكم، وأحقيته في أن يحكم ويدير له أموره عنه».

فاقتناع الشعب «بأحقية السلطة وجدارتها»، هذا الاقتناع هو جوهر الشرعية ومغزاها. لا تغني عنه كل أشكال السطوة والرهبة والنفوذ، حتى ولو أحاطت نفسها بعشرات الدساتير والقوانين!

ويقول دافيد ايترن في هذا المعنى ذاته: «.. قد يقبل المواطن بسلطة الحكم عليه لألف سبب وسبب. ولكن الشرعية هي أن يجد المحكوم أن من المقبول عنده، والمناسب له، أن يطيع متطلبات النظام السياسي القائم، إذ يجد أنها تتسق مع قيمه ومبادئه وأخلاقياته وأمانيه. ذلك ليس لمنفعة شخصية مباشرة له، ولكن بمعنى المنفعة العامة وعلى المدى الطويل».

والشرعية بهذا المعنى أوسع من التأييد أو المعارضة. فقد يكون هناك من يعارض السلطة، وقد يتذمر الناس من بعض قراراتها وسياساتها. ولكن هذه أمور طبيعية بل وحتمية. لا تنفي الشرعية، طالما شعر المواطنون أن السلطة في توجهها العام، سلطة وطنية، منطقية مع التاريخ الوطني، ومخلصة في المجموع لادارة الشعب، وللقيم العامة التي تربط أبناء الوطن الواحد بعضهم ببعض.

ولتوضيح هذا المعنى نعطي نموذجاً من بلد عربي يصعب فيه قيام الشرعية إلى حد بعيد، كصورة «متطرفة» نفهم منها «روح الشرعية». وهذا النموذج هو لبنان.

في لبنان، يصعب الحديث عن «قيم واحدة وارادة وطنية عامة.. الخ» تجمع بين كل أبناء شعب لبنان. فلبنان قام على توازن طائفي، وتكرس هذا التوازن الطائفي في مصالح اقتصادية وانتماءات سياسية شتى. وزادت هذه الأوضاع تعمقاً بعد الاستقلال بدلاً من أن تزول. فالماروني والسني والشيعي والدرزي، لا يمكن الكلام عن «تصور عام واحد لمصلحة الوطن» يضمهم جميعاً. ولا يمكن الكلام عن «مستقبل واحد» يتصورونه ويطمحون إليه كلهم على السواء. وتعمق ذلك بأن التعليم الوطني لم يوجد بل وجد أكثر من تعليم. كل تعليم يعلم أبناءه صورة مختلفة عن الوطن. والمؤسسات الوطنية كالجيش والبوليس والقضاء لم يتم الاحساس بأنها للوطن كله، إنما يحسبها كل فريق له أو ضده حسب وضعه وانتمائه.

كانت الشرعية الوحيدة في لبنان قائمة على أساس ضعيف وهو: اتفاق الأطراف على نصيب كل طرف من «الكيان الواحد». فظل الكيان كياناً ولم يتحول إلى وطن. وحين اختلف الأطراف على الأنصبة في هذا الكيان، وحين وقعت في المنطقة أحداث وضعت هذه الأطراف أمام اختيارات حاسمة بالنسبة إلى هويتها وانتمائها، فاختلفت هذه الاختيارات.. حين وقع هذا انهارت «الشرعية» وقامت الحرب الأهلية..

لبنان صورة متطرفة، ولكن قيمتها أنها تشرح لنا فكرة الشرعية الأساسية..

الصورة الأخرى الواضحة التي تبين لنا أن «السلطة الشرعية» غير مجرد الوجود في الحكم هي صورة الاحتلال الأجنبي.

قد تحتل دولة من الدول دولة أخرى. وقد يستمر الاحتلال مائة أو مئات من السنين. ولكن مجرد الوجود في السلطة هذا الزمن لا يجعلها شرعية، لأنه لا يتصور أن يكون هناك احتلال ما يتفق مع رغبة الناس، ويعبر عن ارادتهم ويترجم أمانيهم ولو بأضعف المعاني.

إنه وجود بحكم القوة لا بحكم الرضى. إنه «استمرار» لا «استقرار». إنه اغتصاب للسلطة وليس تفويضاً بها.

وإذا كانت صورة الاحتلال الأجنبي أيضاً صورة متطرفة، إلاّ أنها كذلك تشرح لنا جانباً آخر من جوانب فكرة الشرعية.

وحتى الثورة حقاً، إذا كانت ثورة حقاً، فإن هدفها النهائي يفترض أن يكون «اقامة

شرعية جديـدة». بل إن مـا يفرق بـين الثورة وبـين الانقلاب هـو هذا المعيـار الهام. الثـورة والانقلاب كلاهما يغتصب السلطة. ولكن الثورة تغير المجتمع وتقيم شرعية جديدة يعيش بها مـرحلة استقـرار جـديـدة، أمـا الانقـلاب فهـو يغتصب السلطة فحسب. وإذا بقي فيبقى باغتصاب السلطة المستمر، وليس بمنطق شرعي جديد مستقر.

وقد يحيط مغتصب السلطة نفسه بكـل «أشكال» الشرعيـة. فأي حكم قـد يتمكّن عن طريق القوة من اقامة برلمان مثلاً واجراء انتخابات، واصدار قوانين وتشريعات. ولكنهـا تبقى كلها ستائر تخفي عدم الشرعية ولا تحل محل الشرعية. فالقانـون ليس أي ورقة عليهـا توقيـع الحاكم. القوانين أحكام خارجة من ضمير الناس معبرة عنهم في الأساس. وما عدا ذلك فهو قوانين لا تساوي في ميزان الشرعية أكثر من ثمن الحبر الذي كتبت فيه.

وتـرى الناس في مثـل هذا الـوضع تتلقى هـذه القوانـين بالإذعـان. وقد تنفـذهـا عن خوف، أو قد لا تقاومها عن سلبية وعدم اقتنـاع. ولكنها ليست بـالنسبة إليهم «مشروعـة»، وليست لها في ضمائرهم أية مرتكزات.

وكما قلنا إن الشرعية غير «القانونية الشكلية»، وغير مجرد القدرة على البقاء في السلطة، وأنها تختلف عن التـأييد والمعـارضة لقـرارات السلطة. كذلـك فـإن الشرعيـة غـير الـوصف السياسي لنظام الحكم: ملكي أو جمهوري، موروث أو جديد، فالملكية والجمهـورية وغـيرهما من نظم الحكم، لا ترتبط بالضرورة بالشرعية، لأن الشرعية كما هو واضح مما سبق ذكره هي معيـار مستمر من «نـظرة الرعيـة إلى السلطة» وليست مستمـرة من طـريقـة وجـود السلطة أو الأسلوب الذي سلكته للوصول إلى الحكم. إنما هـذه أشكال للسلطة وليست هي التي تحـدد إذا كان موقع السلطة من الناس هو موقع «القوة» أو موقع «النفوذ». والسلطة، في كل زمـان ومكان، تحتاج إلى القوة لضبط حياة المجتمع. ولكنها لا تكـون شرعية إذا كـانت تعتمد عـلى «القوة» فقط. إنما تكون «شرعية» يكون لها لـدى الناس «قـوة النفوذ» لا «نفـوذ القوة». فمن غير هذه الرابطة المعنوية بين السلطة والرعية.. لا تكون هناك شرعية!

* * *

وإذا كنا نسوق هذه الأحاديث النظرية كلها، فإن الغاية ليست الغرق في النظريات..

إنما الغاية أن نقول أولاً إن «الشرعية» بهذا المعنى عنصر حاسم في قوة الشعوب والدول أو ضعفهـا، وأن نقول ثـانياً إن الشرعيـة بهذا المعنى غـائبـة أو ضعيفـة في كثـير من أقـطارنـا العربية، وأن نقول ثالثاً إن الأحداث إذا كانت قد علمتنا أهمية الديمقراطية والعقلانية فقد آن أن نـدرك الأهمية الكـبرى للشرعية. لأن الشرعيـة في النهـايـة هي الانسجـام بـين الحـاكم والمحكوم. وبغير هذا الانسجام الداخلي لن تـرقى لنا حيـاة في داخل بـلادنا، ولن يقـوى لنا عدد في خارج بلادنا، ولن يكون في سياساتنا وممارساتنا أي انسجام.

ولكن السؤال الذي لا بد أن يـطرحه كـل قارىء هـو: إذن، كيف نتعرّف عـلى وجود هذه الشرعية من عدم وجودها.. وقد قلنا إنها غير «القانونية»، وغير «السطوة» وغير الأشكال الدستورية؟

وهو سؤال وجيه . .

وقد تكون الإجابة عنه غاية في السهولة والبساطة . . وقد تكون غاية في الصعوبة والتعقيد!

يمكن أن تكون الإجابة غاية في السهولة، إذا قلنا: لنترك كل هذه الحذلقات جانباً، ولنلجأ فقط إلى حس الناس البسيط وفطرتهم السليمة. ما هو شعورهم العام لدى الحكم القائم لديهم؟ . . هل يشعرون أنه يمثلهم، يناسبهم، ينتمي إليهم؟ إذن فالحكم شرعي (مرة أخرى، بصرف النظر عن الموافقة أو المعارضة لبعض قرارات السلطة، فهذا أمر عادي) وهل يشعرون بغربة مع نظام حكمهم، بعزلة عنه، بانقطاع الصلة بينهم وبينه؟ إذن فهو حكم لا شرعية له!

وهذه حالة لا تخفى على أي مراقب عادي.

أما إذا حاولنا بعض الاجابات الصعبة، فإننا نحاولها أساساً لكي نتعرف على المزيد من ملامح الشرعية أو عدم الشرعية، ومن الصفات السلبية التي يشعر بها الحاكم والمحكوم معاً . .

فنحن نلاحظ أننا لو أخذنا مثلاً سياسة أي بلد متقدم، له نظم سياسية مستقرة، فرنسا مثلاً أو ايطاليا أو أي بلد من هذا النوع، سنجد أن البلد قد تتغير أحزابه الحاكمة، وقد تتبدل وزاراته، ولكن سياساته العامة ثابتة، عناصرها واضحة، توجهاتها معروفة مقدماً، ردود فعله يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير.

لكننا أحياناً ما نجد بلاداً عربية سياساتها عرضة للتقلبات الحادة حتى دون تغير الوجوه والأشخاص، أهدافها مغلفة بالغموض، دوافعها إما الخوف من المجهول وإما أن هذه الدوافع لا توجد معلومات كافية عنها لدى المواطنين. والاعتبارات الشخصية لها قدر كبير في توجيه هذه السياسات . . بسبب المزاجية، واعتبارات المجاملة، والعلاقات الفردية بين الحكام، والنزعات العاطفية. وبالتالي فإننا نجد رد فعل الرأي العام ازاء هذا هو إما المقاومة، والحالة هنا تكون واضحة، وإما السلبية المطلقة، وعدم توفر «المصداقية» وعدم القدرة لدى الناس بالتنبؤ عن اتجاهات السلطة، وعدم استبعاد أن تنقلب هذه الاتجاهات فجأة بين يوم وليلة، وعدم توفر المبررات والأسباب والمعلومات الكافية لدى المواطن.

ونحن نجد أن معظم النظم العربية، باختلاف ظروفها التاريخية وأوصافها الدستورية والبيئات التي أفرزتها، تعد المواطن بالأشياء نفسها تقريباً، وتتحدث بلهجة تكاد تكون واحدة في أمور كثيرة. ولكن هذا يتعارض مع الواقع المؤلم. فهناك مسافة واسعة بين المبادىء التي يبشر بها وبين حقائق الممارسات السياسية والادارية. وتكون النتيجة احباطاً عاماً لدى المحكومين وعزوفهم عن الاهتمام الجدي أو المشاركة الفعلية أو مجرد التصديق. وأحياناً يكون هذا الاحباط عند الحكام أنفسهم إذا كانوا حسني النية ولا يدركون العلة، وذلك بسبب احساسهم ـ لعدم توفر المصداقية هذه ـ بعدم القدرة على تحقيق طموحاتهم، أو على العثور

على صيغة لتنفيذ سياساتهم، واصطدامهم بعقبات كالسلبية أو الفساد، وانتشار روح الانتفاع أو عدم تفهم الناس لأهداف السلطة أو ربما عزوفهم عن مجرد محاولة تفهمها!

والمثل الذي يضربه «مايكل هدسون» الأستاذ الأمريكي صاحب كتاب **البحث عن الشرعية في العالم العربي** هو حكاية محاولة القيام بإحصاء علمي لعدد السكان. فالناس أحياناً يكذبون في الأرقام التي يقدمونها حتى عن هذا الشيء البسيط، أحياناً لتخلفهم، وأحياناً لخوف موروث من كل ما هو آت من «السلطة» وشكهم في نواياها ودوافعها.

ويعتقد المؤلف نفسه «مايكل هدسون» أن أكبر عقبة في طريق الشرعية، هو عدم توفر المساواة بدرجة كافية، وهو لا يقضي بالمساواة كما تفسرها النظم السياسية والاقتصادية المختلفة. فكما أننا نقصد الشرعية بمعناها الواسع الرحب فكذلك يرى أن الناقص هو توفر المساواة بمعنى واسع ورحب. فالناس في العصر الحديث ترى في الاحساس بالمساواة شرطاً أساسياً لتقبّلها الاختياري لوضع ما. والمساواة معناها العدالة، ومعناها روح الانصاف، ومعناها الجدية في القوانين المنسجمة في نظر المواطن مع المنطق وصدق الرغبة في تنفيذ هذه القوانين، ومعناها المعقولية في التصرفات، وعدم التحيّز لمذهب أو عقيدة أو فئة.

وقد تكون صعوبة تحقيق «الشرعية» كامنة في الشعوب نفسها، قبل حكوماتها. هذا بوجه عام حال معظم الشعوب النامية، خصوصاً تلك التي لم يتحقق لها من قبل «انسجام وطني» بدرجة كافية. فهناك شعوب تسهل مهمة اقامة «الشرعية» فيها، مثل مصر، حيث جعلتها ظروفها التاريخية شعباً مندمجاً متكاملاً له بوجه عام القيم والمعايير والانتماءات نفسها.

فمصر ليست مقسمة إلى طوائف، لا يقال فيها إن هذا سني وذاك شيعي مثلاً. وحتى الأقلية القبطية الكبيرة فيها مستوعبة في اطار الأغلبية، حيث لا يوجد مثلاً اقليم يتركز فيه الأقباط إنما هم في كل قرية ومدينة جنباً إلى جنب مع المسلمين. وليس فيها تعصب لاقليم دون اقليم. فإذا تشكلت وزارة لا يسأل أحد إذا كان هذا الوزير من طنطا أو من أسيوط، بعكس الصورة المتطرفة الأخرى في لبنان حيث يراعى تمثيل الطوائف. وداخل الدين الواحد يراعى تمثيل السنة والشيعة، وتمثيل الموارنة والارثوذكس مثلاً. وداخل المذهب الواحد في الدين الواحد يراعى تمثيل سنة بيروت وسنة طرابلس، وشيعة الجنوب وشيعة بعلبك والهرمل، وهكذا.

وحين قاد هواري بومدين مثلاً حركة التعريب في الجزائر وإلزام الكل باستخدام اللغة العربية بعد تاريخ معين، كان يقضي على أحد أسباب التفرقة ويضع أحد أسس امكانية قيام الشرعية (بعكس لبنان كما ذكرنا حيث لم يوحد التعليم بعد الاستقلال).

وفي مرحلة الانتقال من الوطنية إلى القومية العربية، تعارضت ـ وما تزال ـ الولاءات. فالولاء للوطن المحلي أم للأمة؟ ويجب أن نعترف بهذه الحقيقة ونحن نتحدث عن القومية العربية. فتلك أحد أهم قضاياها التي يجب حلها، بتحقيق الانسجام بين الأهداف الوطنية والأهداف القومية وليس بترك الساحة لنمو التنافر بينهما.

ثم إننا عندما نتأمل أهم عنصر يؤثر في حياة الأمة العربية ويربط بينها، نجد أن هذا العنصر هو الإسلام بغير جدال..

ولكن لأننا شعوب نامية، ولأن نسبة الأمية في بلادنا فوق السبعين في المئة، ولأننا في مرحلة تحول وتطور سياسي واجتماعي وحضاري، نجد أننا حتى في نظرتنا إلى هذا العنصر الموحد لنا، مختلفون.. بعكس الغرب مثلاً حيث نجد أن نظرته إلى المسيحية واحدة (بصرف النظر عن المذاهب والخلافات وحتى ما بين المؤمن والملحد من تباعد). أما نحن فإننا على العكس: فريق يركّز في نظرته إلى الإسلام على السلطة والطاعة وعلى العقاب بوجه عام.

وفريق يركّز في نظرته على العدالة والمساواة والشورى والتسامح..

ولا بد لنا من نظرة شاملة تضع كل عناصر الاسلام في اطار واحد متوازن ومتكامل، ونظرة شاملة إلى التراث والانتقاء منه والتمييز بين ما كان سبباً في تطور المجتمع الاسلامي وبين ما علق به في فترات اضمحلاله وتخلفه..

وللشرعية حديث آخر طويل، وتشعبات أخرى كثيرة، تشمل أمور الحاكم وأمور المحكوم معاً.. وإلى مناسبات أخرى.

١٥ ـ العناصر الناقصة.. في القوة العربية(*)

السؤال يطرحه كل عربي على نفسه، ولا يجد له جواباً...

مهما كان القطر الذي ينتمي إليه المواطن العربي، ومهما كانت الفئة الاجتماعية التي هو منها، ومهما كانت درجة التعليم أو المستوى الثقافي الحاصل عليه.. فهو يطرح هذا السؤال على نفسه، وعلى الآخرين حين يحاورهم، بصيغة أو بأخرى من صيغ التساؤل.. تناسب ظروفه الثقافية والاجتماعية والبيئية التي يعيش فيها.. ولكن السؤال في الجوهر هو السؤال نفسه..

والسؤال يقفز، كلما شعر أي واحد منا ـ وهو الشعور السائد ـ في معظم الأحوال أن هناك فرقاً كبيراً ومسافة شاسعة بين ما «نعتقد ونتصور» أن العرب قادرون عليه وبين ما يحققونه بالفعل سواء في داخل بلادهم، أو فيما بينهم وبين العالم الخارجي من قضايا ومشكلات.

السؤال هو:

ـ إننا نحن العرب لدينا من أسباب القوة كذا وكذا وكذا.. فكيف لا نستطيع أن نفعل كيت وكيت؟

إننا أكثر من مئة مليون، وأكثر من عشرين دولة، وعشرين جيشاً، ولدينا الموقع الجغرافي الاستراتيجي، ولدينا السلعة الاستراتيجية الأولى وهي البترول. فلماذا نقف منذ ثلاثين سنة هذا الموقف المتردي، من اسرائيل، ومن القوى الخارجية بوجه عام...؟!

يطلق المواطن العربي هذا السؤال على نفسه أو على غيره، كلما هاجت الخواطر أو ثار

(*) العربي، العدد ٢٤٧ (حزيران/ يونيو ١٩٧٩).

نقاش، ثم ينتهي إلى حالة من الحيرة والإحباط وعدم الاقتناع بما يلقى أمامه أو ما يعثر عليه هو من حيثيات ومبررات. . .

السؤال هام، وغير نظري. . بل إنه واقعي جداً، بل إنه هو «السؤال»! . . .

وربما كانت البداية الصحيحة، في محاولة العثور على رد مقبول، هو أن نرد على السؤال بسؤال:

ـ نعم. . إن لدينا من عناصر القوة كذا وكذا وكذا، ولكن ما هي يا ترى عناصر القوة التي تنقصنا؟ . . .

وهل يا ترى نستطيع أن نستكملها؟ وكيف؟ . .

إن «القوة» ليست شيئاً مجرداً، يكون أو لا يكون، إنما القوة مجموعة عناصر، ربما يغيب بعضها فيؤثر على سائرها، كالموقع الجغرافي مثلاً، أو الثراء. إنها عناصر هامة في تركيب «القوة»، ولكنها بمفردها قد تنقلب إلى عوامل ضعف: كأن تصبح الدولة الغنية أو ذات الموقع الهام، مطمعاً للآخرين، ومصدراً لإثارة شهية القوى الخارجية ضدها.

والتعدّد مثلاً، قد يكون مصدر قوة إذا عرف كيف يتكامل، وقد ينقلب إلى مصدر ضعف إذا كان سبباً في التفكك والتناحر. . .

* * *

مجلة الشؤون الخارجية (Foreign Affaires) الأمريكية، التي تصدر مرة كل ثلاثة شهور، أصدرت عدداً خاصاً بمناسبة مرور خمسة وخمسين عاماً على صدور أهم مجلة في نوعها، كرست معظمه لعدد من أكبر المفكرين والساسة يناقشون فيه موضوع «القوة»! بمعنى «القوة» في السياسة الدولية طبعاً. . .

وهناك طبعاً، عناصر «القوة» التقليدية المعروفة، نسجلها هنا في ايجاز، حتى نصل إلى ما نريد التركيز عليه.

فمن أبرز عناصر القوة، بمعناها التقليدي منذ القدم:

ـ القوة العسكرية، وأمرها معروف وحاسم طبعاً.

ـ القوة الاقتصادية والمادية، وهي أيضاً أمرها معروف. وهي في الواقع ـ أي القوة الاقتصادية والمالية ـ هي التي تنتج إلى حد كبير العنصر الأول وهو القوة العسكرية. فالدولة إذا كانت صناعية متقدمة، ولديها مصادر الخامات المطلوبة، تصبح أقدر من غيرها على انتاج السلاح وحشد الجيوش، وانتاجيتها تجعلها أقدر من غيرها على احتمال تمديد الحرب زمناً أطول من خصومها.

ـ قوة عدد السكان والموقع الجغرافي. . .

فالصين مثلاً دولة متخلفة مثل دول العالم الثالث، إذا أخذنا في الحساب مستوى

المعيشة ومعدل دخل الفرد وغير ذلك. ولكن مجرد أنها دولة تضم حوالى ألف مليون، يجعل لها هيبة خاصة وخطراً خاصاً، ولو كان خطراً مستقبلاً وليس آنياً، ولكنه يدخل بالتأكيد في كل حساب.

وكذلك الهند، وما يليها من بلاد.

وفي الصراع العربي - الاسرائيلي مثلاً، رغم أن اسرائيل خرجت منتصرة في معظم الحروب، إلاّ أن مجرد أن عدد سكانها ثلاثة ملايين والعرب أكثر من مائة وعشرين مليوناً، يجعلها في نظر العالم في وضع المدافع عن نفسه، وضع من لا يملك المستقبل.

ولا شك أن التقدم العلمي الهائل، وانعكاسه على قدرة القوة العسكرية، قد قلل من قيمة «العدد» ورفع من قيمة «النوع»: أي نوع الأسلحة التي في يد الجنود، ومدى كفاءة وتعليم الجنود الذين يحملون السلاح..

ففضائل الجيوش في الحروب القديمة، حروب السيف والرمح، من شجاعة وحماسة وكثرة عدد، حلت محلها فضائل أخرى هي درجة التعليم، ودرجة استيعاب الأسلحة الحديثة والتحكم فيها، وقوة النيران لا قوة الأفراد.

وليس مصادفة أن نجد أن «القوتين الأكبر»، أمريكا وروسيا، كلتيهما تتجمع لهما أكبر درجة من عناصر القوة سالفة الذكر:

العدد الكبير (٢٢٠ مليوناً أمريكياً - ٢٥٠ مليوناً روسياً)، والقوة الانتاجية الهائلة وتوفر معظم المعادن الخام المطلوبة للصناعة داخل أرضها (حديد - فحم - بترول.. الخ)، فهما ليستا مثل اليابان أو المانيا، اللتين هزمتهما، إلى جانب أسباب أخرى، ندرة البترول المستورد كله من الخارج.

القدرة على التحالف!

يأتي بعد ذلك عنصر هام وإن بدا غريباً، وهو: قدرة الدولة على التحالف مع آخرين.

فهناك دولة تكون على درجة من الذكاء السياسي، والمرونة، وبراعة التخطيط، بحيث يكون لها دائماً حلفاء من دول أخرى تقف بجانبها في الحرب أو السلام على السواء..

فألمانيا مثلاً خسرت حربين عالميتين، لأنها كانت معزولة في أوروبا، ولأنها في الحربين لم تتمكن من كسب تضامن حلفاء مهمين معها.

وانجلترا بالمقابل هزمت نابليون، ثم هزمت الامبراطور غليوم، ثم هزمت هتلر.. لأن انجلترا كانت دائماً لا تخوض حرباً بمفردها قط، إنما تخوض حروبها دائماً مع حلفاء. وكما قال تشرشل عندما أمكنه التحالف مع أعدى أعدائه، الاتحاد السوفييتي، خلال الحرب، من أنه

مستعد «للتحالف مع الشيطان» لكسب الحرب، كان دائماً هو شعار الامبراطورية في أوج مجدها، وقبل زوال شمسها. .

واسرائيل، لم تكسب موقعة حرب أو موقعة سلام، إلاّ بمحالفات مع دول قوية، مع انجلترا سنة ١٩٤٨، ومع فرنسا وانجلترا سنة ١٩٥٦، ومع أمريكا سنة ١٩٦٧.

وإذا كانت هذه الصفة «القدرة على التحالف مع الآخرين» مهمة للقوى الكبرى، وقد رأينا صراع الأحلاف في العقدين الماضيين وكيف كانت ضراوته، فإنه ألزم للدول الصغيرة والنامية. وفي هذا المجال يمكن ملاحظة المزايا التي استفادتها دول هذا النوع في دائرة التجمع العربي، أو التجمع الاسلامي، أو التجمع الافريقي، أو تجمع دول عدم الانحياز. فلا شك أن التجمع على هذه المستويات قد ساعد في حالات كثيرة على تحقيق استقلال أقطار لم تكن مستقلة، وحماية مصالح بلاد أخرى. .

وربما نلاحظ لهذا السبب أن الدول الكبرى أو العالم الصناعي المتقدم كله، ينفر من هذه التجمعات، ويحاول تخريبها أو تفكيكها قدر الامكان.

والواقع أن بند «القدرة على التحالف مع الغير» إنما يشير - بين عناصر القوة - إلى عنصر الحذق السياسي، وبعد النظر، واكتشاف المجالات المشتركة مع الغير - سياسياً واقتصادياً - وكيف تضع الدولة قضاياها في موضع القضايا العادلة التي «تقنع» الغير فوق ذلك.

ونستطيع أن نضيف في اطار وسائل الاعلام الحديثة، ذات القوة الساحقة، من سينما وصحافة واذاعة وتلفزيون. وهنا أيضاً من السهل أن نلاحظ قيمة هذا العنصر، إذا تذكرنا ما حققته اسرائيل من نتائج، بسبب تأثيرها على أجهزة الإعلام في الخارج، وكسبها للرأي العام العالمي خلال فترة طويلة، قبل أن يتنبه العرب إلى خطورة هذا السلاح وقيمته. . .

الأوبيك!

وقد وجد الباحثون والمفكرون ما وصفوه بأنه نوع جديد تماماً من أنواع «القوة» لم يسبق له مثيل خلال التاريخ الانساني كله، وهو ليس موجوداً حتى اليوم إلاّ في حالة واحدة فقط: هي دول منظمة «الأوبيك» أو منظمة الدول المصدرة للبترول.

نحن هنا نواجه نموذجاً جديداً تماماً: دول تفتقد معظم عناصر القوة التقليدية - في رأيهم - دول قليلة السكان، ضعيفة عسكرياً، وغير ذات موقع استراتيجي هام. ولكن تكوين الكرة الأرضية أعطاها ما يشبه الاحتكار لسلعة باتت أهم سلعة في العالم وهي البترول.

ولو كانت كل دولة مصدرة للبترول، منفردة بنفسها، لكانت قوتها أقل بكثير. ولكن قدرتها على التجمع ونجاحها فيه، جعلها ذات نفوذ عالمي من نوع خاص.

فهي تستطيع بقرار منها أن ترفع أسعار كل شيء في العالم أو تخفضها، أي أن أثر قراراتها يصل إلى كل بيت وليس إلى كل دولة فحسب. والدول العربية منها متقاربة جغرافياً، ولها قضايا سياسية مشتركة ازاء العالم، وبالتالي فهي قادرة على استخدام البترول كسلاح سياسي مباشر. وقد حدث هذا بالفعل بعد حرب تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣.

وبعد أن كانت الشركات العملاقة، المتعددة الجنسيات، تملي شروطها على دول البترول، انعكست الآية تماماً.

ويضرب الخبير «جون كامبل» مثلاً بالتأثير السياسي، إذ يذكر كيف أن الدول الأكثر اعتماداً على البترول العربي ـ اليابان وغرب أوروبا ـ هرولوا ساعة الحظر إلى محاولة انقاذ علاقاتهم. وكان هذا موضع خلاف شديد بين هذه الدول وحليفتهم الأساسية، الولايات المتحدة الأمريكية..

وحتى الآن ـ يقول جون كامبل ـ نجد أن هذه الدول الأكثر اعتماداً على البترول العربي، إن لم تأخذ خط السياسة العربية تماماً، بسبب وجود الولايات المتحدة، إلاّ أنها على الأقل مضطرة «لمجاراة» العرب أحياناً، أو على الأقل «مداراتهم» حتى لا تتدهور الأمور إلى وضع خطير.

وقد كان ممكناً أن تفعل دول أخرى ما فعلته دول البترول، أي أن تظهر «أوبيك» تضم الدول المنتجة للفوسفات، وهكذا بالنسبة إلى السلع الأخرى الأساسية.

ولو أن تلك الدول المنتجة للخامات تمكّنت من عمل تكتلات مثل تكتل دول البترول، لتغيرت موازين القوى في العالم كله، ولأصبحت الدول الفقيرة المنتجة للخامات في وضع قوي جداً، ازاء الدول الصناعية المتقدمة، المستهلكة لمعظم خامات العالم..

ولكن هذا لم يحدث إلى الآن، ربما لأن السلع الأخرى ليس لها أهمية البترول. ولكن من يخطط للمستقبل عليه أن يضع في حسابه هذا الاحتمال..

البعد الداخلي

يأتي بعد ذلك عنصر من عناصر القوة، ربما كان أقدم العناصر، والكثيرون يعتقدون أنه أهم عناصر القوة.

ذلك هو: البعد الداخلي... أي الظروف الداخلية لأي دولة تريد أن تكون ذات قوة ما في الحياة الدولية..

فكل العناصر السابقة.. من مال أو سلاح أو صناعة أو اقتصاد.. إنما هي في النهاية أسلحة في يد الدولة أو المجتمع الذي يملكها...

فهي كلها ـ مجتمعة أو متفرقة ـ بمثابة السيف. وكما أنه من المهم أن يكون سيفاً قاطعاً، فإنه من الأهم أن تكون «اليد» التي تمسك بهذا السيف ثابتة...

فقد رأينا ـ مثلاً ـ امبراطوريات أعرق وأكثر حضارة وانتاجية وقوة عسكرية . . تنهار أمام المد الاسلامي، البسيط، القادم من صحراء فقيرة . . ذلك أن هذه الامبراطوريات كانت قد شاخت، ودبت فيها عوامل الانحلال، فانهزمت رغم قوتها أمام قوة أضعف منها في كل شيء إلاّ في طاقة الايمان، والاقتناع، وقوة الاندفاع.

والشيء نفسه حدث للامبراطورية الاسلامية عندما وصلت إلى ذروة حضارتها، ثم دبت فيها عوامل الانحلال، فصارت تتساقط قطراً بعد قطر، أمام زحف أوروبا الجديدة، التي استردت شبابها.

وشروط «الوضع الداخلي» لأي بلد، كثيرة، وفي تقديري أنها معروفة لأي قارىء. . .

ولكن ذلك الحوار توصل إلى أن هناك شرطين أساسيين، لا غنى عن وجودهما قط، حتى يصبح المجتمع مجتمعاً قوياً، والدولة دولة قوة. . .

بلهارسيا الأمية

الشرط الأول هو التعليم.

والشرط الثاني هو الاطار السياسي والاجتماعي.

بالنسبة إلى الشرط الأول، فهو بالفعل شرط بديهي، فقد دانت الدنيا في عصرنا هذا بالذات للعلم. والعلم ليس بمعنى العلوم التطبيقية وحدها ـ الكيمياء والطبيعة والهندسة والذرة ـ ولكن العلم بمعنى الأخذ بالأسلوب العلمي، من أكبر الأمور إلى أصغرها، وهذا لا يتوفر إلاّ بوجود قاعدة واسعة «متعلمة».

وغياب هذا العنصر، من أقتل الأشياء للقوة العربية الممكنة. .

إن وجود نسبة من الأمية تدور حول ٧٠ بالمئة في العالم العربي بوجه عام، أمر لم يعد مقبولاً، وعبء على كاهل الأمة العربية يفترس حيويتها، كما تفترس الأمراض المتوطنة جسد الانسان.

ولو وضعنا تاريخاً مقبولاً في معظم الحالات، من نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم توالي حصول الدول العربية على استقلالها، نجد أن دول الاستقلال قد ضيعت ربع قرن من الزمان، دون أن تختفي الأمية أو حتى تقل بدرجة ملحوظة. إنما نكاد نلهث لملاحقة عدم زيادة النسبة مع تزايد عدد السكان.

وقد أخذت قضية الأمية في نظرنا مأخذ الترف، أو الشيء الذي لا حل له، وهذا غير صحيح، إذا اطلعنا على تجارب بلاد أخرى. . .

من المحراث في الزراعة، إلى الصاروخ في الحرب، تتضاعف قيمة أي أداة بمدى تعلم الفرد وتدريبه وتعوده التعامل مع أدوات العصر.

إن هذه هي إحدى الثورات الكبرى التي يحتاج إليها العالم العربي، وبغيرها لا يمكن اجتياز حد معين من حدود القوة.

والأساس الأساس، في انفصام الشخصية العربية، هو وجود فئة متعلمة مثقفة، وفئة غائبة تماماً عن كل هذا، الأمر الذي يجعل الحوار في داخل الأمة «حوار طرشان» وينتج تمزقات وتصادمات في القيم والعادات والأهداف والمثل العليا.

الانسجام الاجتماعي

والشرط الثاني الذي هو الاطار السياسي الاجتماعي السليم، القوي المرن في الوقت نفسه، كذلك شرط يبدو بديهياً.

والمقياس الذي يقيس به أي مفكر غربي مدى توفر هذا الشرط هو: مقياس الديمقراطية وحرية الرأي.

وهو بالتأكيد مقياس سليم: فالشعب الذي يستطيع أن يحقق الاستقرار مع توفر الديمقراطية وحرية الرأي، هو الذي يمكن أن يقال عنه إنه شعب منسجم مع نفسه، قد تعمقت جذوره.

ولكننا لا نضع بالضرورة صورة واحدة للديمقراطية وحرية الرأي، منقولة حرفياً من عالم آخر...

إنما نقول إن المطلوب توفر هذين العنصرين، بشكل ينسجم مع تقاليد وقيم كل شعب، ونوع تطلعاته وأهدافه.

وذلك بدوره عنصر ناقص في كثير من بلادنا العربية..

وبالتالي فهو عنصر قوة ينقصنا ونحن محرومون منه.

وما أشد ما تتعاظم القوة التي يملكها شعب، إذا استطاع بمحو الأمية ونشر الثقافة وتكريس صورة الديمقراطية، أن يشارك كل الشعب ـ وليست فئة قليلة منه ـ في الحوار الأبدي، الدائر باستمرار داخل كل أمة، صاعدة، ناهضة، تنوي حقاً أن تهزم مشكلاتها وأن تحصل على أهم أسباب القوة.

١٦ ـ الازدهار اليهودي في ظل الامبراطورية الاسلامية: حرية الرأي والعقيدة كانت المفتاح السحري في يد العرب(*)

الصراع العربي ـ الاسرائيلي، له أبعاد مثيرة جداً ومتعددة. ساعة تبدو عناصره الأساسية بسيطة واضحة، وساعة تبدو معقدة التركيب إلى آخر الحدود.

ولسنا نعني هنا، فضلاً عن أننا لا نقوى ـ في مجلة شهرية ـ على ملاحقة التطورات المتسارعة لهذا الصراع. ولكن من الممكن أو من الضروري التعرض للخطوط الكبرى والأهداف العامة لقضيتنا العربية ازاء اسرائيل، خصوصاً إذا كانت معها خلفية فكرية أو ثقافية...

الحرب والسلم، أو للاحرب واللاسلم، علاقات تتوالى بين الدول، أو الشعوب، أو القوميات أو النظم.

وتتراوح حظوظ الأطراف يوماً عن يوم، تبعاً لعلاقات القوة في فترة ما، وللظروف المحلية، والظروف الدولية، وغيرها، خصوصاً ونحن في عالم يزداد تقارباً وتأثراً متبادلاً، فلم تعد هناك أزمة أو مشكلة أو قضية، يمكن عزلها عن ظروف العالم الذي نعيش فيه، وتفاعلاته المتغيرة...

من هذا المنطلق، كنت ولا أزال لا أتصور للصراع العربي ـ الاسرائيلي إلاّ نهاية بعيدة. قد تتوالى الفصول وتتعدد الوقفات والنهايات الوقتية، ولكن نهاية «طبيعية» حقيقية، لا سياسية فحسب، لن تكون إلاّ بوجود مجتمع يهودي، مهما كان الاسم السياسي الذي سوف يحمله، يعيش تحت ظل وارف من وجود مجتمع عربي واسع كاليم، له قيمه الحضارية والانسانية التي تتسع لهذا الوجود وأمثاله في البحر العربي الفسيح.

بمعنى آخر: مجتمع يهودي يرضى عنه العرب، بل ويكونون هم حفاظ عليه، وليس

(*) العربي، العدد ٢٥٢ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩).

«قـوة كبرى محليـة»، روابـطهـا وشخصيتهـا أجنبيـة تمـامـاً، تمـارس دور الارهـاب والفـرض والاقتناص من هذا العالم العربي الفسيح.

كيف يكرر التاريخ نفسه

والتاريخ لا يكرر نفسه، على الأقل لا يكرر نفسه بالأسلوب نفسه. ولكن هذا لا ينزع عن الشهادة التاريخية قيمتها تماماً، ذلك أن التاريخ لا تتكون أحداثه من فراغ، ولكن وقائعه تنشأ من ظروف معينة. فهو يتشابه ولو بوسائل شتى بتشابه الظروف.

والظرف المتشابه الذي ينطلق منه تفكـيرنا، هـو وجود حضـارة عربيـة قويـة متجددة، يمتزج فيها أحسن ما في ماضيها بأحسن ما يمكن أن نحققه في حاضرها ومستقبلها.

لو قام هذا الظرف ـ وما أظن إلّا أنه يوماً سيقـوم ـ فلا يمكن تصـور أي صيغة أخـرى للعلاقة العربية ـ الاسرائيلية أو غيرها من العلاقات في المنطقة.

تجربة الأندلس

وقبل أن نخوض في المراجع الاسرائيلية، من حقنا أن نعود إلى مؤلفات المؤرخ العـربي الكبير النزيه عبد الله عنان، أهم من أرّخ للأندلس في العصور الحديثة.

ينقل الأستاذ عبد الله عنان عن «ابن خلدون» قوله: «إن شمال افريقيا الغربي كـانت توجـد فيه قبل الفتح الاسلامي قبائل يهودية، تلقت تعاليمها الـدينية من بني اسرائيـل في المشرق. ولكن تلك الأقطار كانت تحت حكم الامبراطورية قبل الاسلام، وكانت تتعرض لغزوات «الوندال» من شواطىء فرنسا واسبـانيا، وكانت الامبراطـورية الـرومانيـة تعمل عـلى تنصير الأهـالي بالقـوة، فمنهم من تنصر ومنهم من تعرّض لعـذاب شديد.

«وكان يهود الجزيرة (شبه جزيرة ايبيريا التي هي حالياً اسبانيا والبرتغال) كتلة كبيرة عـاملة، ولكنهم كانـوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد. وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعـدها ونفوذها تحاول تنصير اليهـود، وتتوسـل إلى تحقيق غايتهـا بالعنف والمطاردة. ففي عهد الملك سيـزبوت فـرض التنصر عـلى اليهود أو النفي أو المصـادرة، فاعتنق النصرانية كثير منهم كـرهاً وريـاء (سنة ٦١٦ ميـلاديـة). ثم توالت عليهم بعد ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، حتى ركنوا مرة إلى التآمر وتـدبير الثـورة، وتفاهمـوا مع يهـود المغرب على المؤازرة والتعاون. ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤ ميلادية)، وكـان ذلك في عهـد الملك راجيكا، فقرر أن يشتـد في معاقبتهم، واجتمـع مؤتمر الأحبـار في طليطلة للنـظر في ذلك. وأجـاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يتآمرون على سلامتها، ولأنهم ارتدوا عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل. وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الاسبانية وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدي للنصارى، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن يشاء، وأن لا يسمح لهم باسـترداد حريـاتهم ما بقوا على اليهودية، وأن ينزع أبناؤهم منذ السـابعة ويـربون عـلى دين الناصريـة، وألّا يتزوج عبـد يهودي إلّا بنصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني. وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف. فكانـوا قبيل الفتح الاسلامي ضحية ظلم لا يطاق وكانوا يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويرون في أولئك الفاتحين الذين يتركون للناس حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة، ملائكة منقذين».

كانت هذه الصورة للواقع اليهودي في المغرب والأندلس بين سنتي ٦١٦ و٦٩٤ ميلادية

تقابل ـ في المشرق ـ الفترة الواقعة بين الهجرة النبوية تقريباً وخلافة عمر وفتح الشام وفارس ومصر والعراق، وخلافة علي، وقيام الدولة الأموية، ثم أول اصطدامات ضد البيزنطيين في ديارهم ذاتها، وأول حصار للقسطنطينية سنة ٦٧٩ ميلادية. ولم يتأخر فتح الأندلس (٧١١م) كثيراً.

ولا شك أن كسر العرب لشوكة الامبراطورية الرومانية في عقر دارها، كان أكبر عامل لسكان شمال افريقيا واسبانيا على الثورة، وأكبر أمل لهم في الخلاص.

وصول طارق بن زياد

ولذلك لم يكن غريباً، حين عبر طارق بن زياد بجيوشه إلى اسبانيا، أن اليهود كانوا يعاونون المسلمين في تلك الفتوح. وعندما وصل طارق بن زياد بجيوشه إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس، كان القوط قد فروا، ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من بقي من سكانها، وترك لأهلها الكنائس، وترك لأحبارها حرية اقامة الشعائر الدينية.

يقول المؤرخ الأمريكي سكوت: «كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة، والأحبار يزاولون شؤونهم في سلام!».

حرية الرأي والدين والعقيدة

حرية الرأي والدين والعقيدة، كانت مفتاح الحضارة العربية الذي فتحت به الأبواب على ظلام العصور الوسطى في أوروبا نفسها، وما زالت ولا تزال في كل مكان مفتاح كل تقدم.

يقول المستشرق الاسباني جاينجوس: «لقد سطعت في اسبانيا أول أشعة لتلك المدنية التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية، وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء. وإلى حكمة العرب، وذكائهم، يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها».

ويقول المؤرخ لين بول: «أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى! بينما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية».

ويعود الأستاذ عبد الله عنان، وقد استقرت الأندلس وازدهرت فيقول في سياق حديثه: «أما اليهود فقد كانت منهم أقليات في معظم المدن الأندلسية تتمتع بحماية الحكومات الاسلامية ورعايتها. وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة في الدولة، وغلب نفوذها في بعض المناطق، كما حدث في مملكة غرناطة، وظهرت كذلك في ميدان العلوم والآداب، ونبغ منها علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره».

أول مرة تشيع القراءة والكتابة

وفي سياق آخر من تاريخ عبد الله عنان الضخم عن الأندلس، يروي أن الأندلس كانت أول بلد في أوروبا تشيع فيه القراءة والكتابة بين الناس، بينما كانت في بقية أوروبا مقصورة تقريباً على رجال الدين. وفي عصر «الحكم المستنصر» الذي أنشأ المكتبة الأموية الكبرى، شاع اقتناء الكتب واقتناء المكتبات الخاصة. «وكانت سوق الكتب في قرطبة من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة، وسرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود» بعد أن شاعت اللغة العربية بينهم «وكان كثيرون منهم يتذوقون ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها، وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودي حسداي، طبيب الحكم الخاص، وفي ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية، وألفوا بها مختلف الكتب. وكان من أشهر المكتبات الخاصة فيما بعد، مكتبة يوسف بن اسماعيل ابن نغرالة اليهودي، وزير باديس أمير غرناطة».

ومن أكثر الفقرات دلالة، قوله: «ويجب أخيراً أن لا ننسى الأقلية اليهودية. فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية في ظل ذلك التسامح الاسلامي المأثور، ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة إلى ذروة النفوذ والرخاء. وفي أيام الناصر تولى أحدهم، وهو العلامة حسداي بن شبروت، الاشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظي برعاية الناصر لخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديستوريدس عن الأعشاب الطبية، من اليونانية إلى العربية، وهو الكتاب الذي أهدى قيصر منه نسخة إلى الناصر. وفي ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة، أيام الناصر وولده الحكم، وقامت في ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، ومؤسسها الرابي بن حنوش، وازدهرت في ظلها البحوث التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث. واستمرت الخلافة الأموية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها. وكان يهود قرطبة يرتدون الزي العربي، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة».

دراسة اسرائيلية جديدة

وفي بحث حديث جداً، منشور منذ شهور قليلة، للكاتب الاسرائيلي «الفريد مورابيا»، عنوانه «الثقافة اليهودية في اسبانيا الاسلامية»، نجده يعطينا تقريباً الصورة نفسها التي رسمها المؤرخ العربي الكبير، ومن أخذ عنهم من المؤرخين الاسبان.

ويستهل «الفريد مورابيا» دراسته بكلمة للأستاذ ج. فاجولا، يقول فيها: «لم يحدث طيلة العصور الأولى وحتى آخر القرون الوسطى أن حققت اليهودية المبعثرة ذاتها في بيئة غير يهودية، كما فعلت في اسبانيا»، يقصد بذلك العصر الأندلسي الاسلامي هناك.

ومعظم هذا البحث، يقدم لنا ما يشبه القائمة الطويلة لأسماء أهم اليهود الذين ترعرعوا في ظل الدولة الاسلامية في الأندلس وتأثروا بها وتركوا لليهود أهم تراثهم.

وهو يركز ـ من باب الاختصار ـ اختياره في مجالات أربع هي: الدين، واللغة، والشعر، والفلسفة...

والقائمة طويلة جداً...

ولكن، يكفي تسجيل بعض الملاحظات عليها:

أولاً - إن القائمة، التي هي على سبيل المثال لا الحصر، طويلة جداً وغزيرة. وإن أبحاث هؤلاء العلماء لم تتناول فقط علوم الحياة كالطب والهندسة، ولكن الكثير منها تخصص إما في تعميق وايجاد أسس للغة العبرية، وإما لتعميق وتحليل وشرح أسس الديانة اليهودية.

والدين واللغة أمران من أهم الأمور التي تحفظ استمرار أي شعب. والتسامح الاسلامي في هذا المجال بالذات يلفت النظر وله أهمية خاصة، لأنه يدل على اتساع الحضارة الاسلامية العربية لهذه الأعمال التي أصبحت أهم مراجع التراث اليهودي. في حين كان الشائع في غير ذلك العصر، تشجيع أصحاب الأديان الأخرى فقط على الأمور الدنيوية من طب وهندسة، لأنها تفيد الجميع.

ومؤرخون يهود - مثل أبا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق - يحاولون إذا ذكروا فضيلة التسامح أن يبرروا بروز اليهود بأبحاثهم الدنيوية فقط، أو كفاءتهم في الطب مثلاً. وسنعود لذلك بعد قليل.

ولكن دلالة التسامح والتشجيع في صدد دراسات تستكمل وضع قواعد اللغة العبرية والديانة اليهودية، أكبر وأعمق. فهي تدل فوق استنارة السلطة الحاكمة وتسامحها في حرية العقيدة، على ثقة هائلة بالنفس.

ثانياً - إن معظم هذا التراث اليهودي، في تلك المواضيع وغيرها مكتوب باللغة العربية التي كان يتعلمها ويتقنها هؤلاء. وأبا ايبان نفسه يعترف في أحد كتبه بأن حوالى ٦٠ بالمائة من التراث اليهودي ما زال غير مترجم إلى العبرية بعد.

ثالثاً - إن هؤلاء المؤلفين، لم يكن عملهم مقصوراً على انتاجهم هذا في الأندلس الاسلامية فقط، إنما نجد الكثيرين منهم جابوا آفاق العالم الاسلامي العربي في ذلك الوقت من بغداد شرقاً إلى طليطلة غرباً، بعضهم طلباً للعلم، وبعضهم لينشر أفكاره عن اليهودية بين يهود العالم العربي في شتى أماكنهم، كما يقول المؤلف الاسرائيلي الفريد مورابيا في بحثه هذا الذي نعرض له! كان التسامح إذن يشملهم في كل العالم العربي الاسلامي، بينما كانوا لا يجسرون على الحركة في نصف العالم الآخر في ذلك الوقت: كل ما هو شمال البحر الأبيض من دول أوروبية مسيحية، فنجد مثلاً:

اسحق الفاسي، الذي ولد في «قلعة حماد» بالقرب من قسنطينة (الجزائر الآن) واستمد اسمه من فاس التي عاش فيها معظم عمره، وتلقى دروسه في القيروان، وعاش حتى الخامسة والسبعين من عمره بين المغرب والأندلس. يقول المؤلف الاسرائيلي إنه من أهم من فسروا التلمود، ونشر تعاليمه بين تلاميذه مثل يوسف بن ميجاش ويهوذا هالفي، وافرايم الحمادي (نسبة لقلعة بن حماد) وباروخ بن الباليه، وكان يرسلهم إلى أنحاء العالم الاسلامي حيثما وجد مجتمع يهودي لنشر تعاليمه.

- مناحم ابن ساروق، صاحب أهم قاموس عبري تلمودي إلى الآن، والوحيد الذي

كتب قاموساً حتى ذلك الوقت بالعبرية مباشرة، إذ كان معظم الكتاب اليهود يكتبون بالعربية، ثم تترجم بعض أعمالهم إلى العبرية.

- دوناش بن الأبرط، الذي ولد في بغداد، وتتلمذ على يد «سعيد بن جاعون» ثم جاب العالم العربي حتى استقر في فاس، وكان لغوياً وشاعراً.

- يهودا بن داود الذي يعتبر مؤسس قواعد اللغة العبرية إلى الآن، وقد ولد في فاس، وكتب مؤلفاته في تأصيل قواعد اللغة العبرية باللغة العربية، وترجمت بعد ذلك. واستعان بكثير من قواعد اللغة العربية في وضع قواعد جديدة للغة العبرية.

- موسى بن عزرا: أحد أهم الشعراء العبرانيين. وأهم مؤلفاته اسمه بالعربية **كتاب المحاضرة والمذاكرة**.

- يهودا الحريزي الذي وصفه المؤلف بأنه كان يسافر كثيراً بين الأندلس، ومصر، وفلسطين أو سوريا، وما بين النهرين (أي العراق) يقدم أعماله الفنية والفكرية لكل مجتمع يهودي. وهو أول من أخذ شعر «المقامات» من العرب واستخدمها باللغة العبرية.

- وفي مجال الفلسفة يقول الباحث الاسرائيلي إن الأندلس الاسلامية كما أعطت للعالم كله ابن طفيل وابن رشد وغيرهما، فقد تربى ونشأ في أعقابهم أهم فلاسفة اليهودية مثل «باهي بن باقودة» الذي ألف أحد أهم كتب الفلسفة اليهودية بعنوان **كتاب الهداية إلى فرائض القلوب**. ولم يترجم كتابه إلى العبرية إلّا بعد مائة سنة من تأليفه.

. . . إلى آخره. . إلى آخره. . .

المؤرخ. . والسياسي

وإذا عدنا بعد ذلك إلى «أبا ايبان» المؤرخ والسياسي قبل أن يكون أستاذ تاريخ، نجده لا ينكر شيئاً من هذا في الأساس.

بل يقول في كتابه «**قصة اليهود**» إن اليهود لم يعرفوا درجة من الازدهار وتحقيق الذات طوال التاريخ كله إلّا مرتين: مرة في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، ومرة في الأندلس الاسلامية منذ قرون!

ونقول له إن هناك مع ذلك فارقاً: فما وصلوا إليه في الولايات المتحدة جاء بعد العصر الحديث وانتشار التنوير في العالم كله، في حين أنهم وصلوا إلى ذلك في الأندلس، في العصور الوسطى، ووسط ظلامها، وفي أوج التعصب والاضطهاد الديني في أوروبا!

ثم إن أبا ايبان - كما سبق وذكرت - يركّز على الذين برزوا في ظل العالم العربي في تلك الحقبة بمهاراتهم الشخصية في الطب أو المال أو الهندسة أو الترجمة. ومن الطبيعي أن لا يبرز ولا يوضع في كتاب التاريخ إلّا أسماء الأكفاء والمشهورين. ولكن أليس هذا البروز بحاجة، فوق الكفاءة، إلى شيء آخر، وهو جو التسامح واحترام حرية العقيدة؟

إن النابهين لا يبرزون فجأة في عصر دون عصر، ولا في قطر دون قطر، إنما يبرزهم عنصر أساسي يسمح للموهبة أن تتفتح إلى أقصى قدراتها، وذلك هو جو احترام حرية العقيدة.

أي دور يريدون؟

والغريب أن أبا ايبان يقول في إحدى صفحات كتابه عن «**قصة اليهود**» إن سبب بروزهم قام على اتقانهم اللغات المختلفة، بحكم وجودهم في أقطار مختلفة، وبالتالي كانوا ضروريين للنقل والترجمة بين تلك الأقطار، وبين عالم العرب وعالم أوروبا مثلاً في تلك الحقبة التي نتحدث عنها. وهو من حيث لا يشعر يحاول أن يجعل هذا دوراً خالداً لليهود، يميزهم عن سائر الدنيا، ويجعلهم ضروريين لتسيير هذه الدنيا.

وهو بهذا يهزم قضيته من وجوه كثيرة دون أن يدري.

صحيح أنهم قاموا طويلاً بدور المبعوثين والمترجمين بين الدول. . .

ولكن هذا يفترض دوام وجودهم في «الشتات»، بعكس العقيدة الصهيونية التي تريد جمعهم في وطن واحد.

ثم إن هذا كان مفهوماً في عالم كانت القراءة والكتابة ودراسة اللغات كلها مقصورة على القلة النادرة، لضرورات الفكر والاطلاع أو لضرورات العامل التجاري والسياسي، وكانت مقصورة تقريباً على رجال الدين.

أما الآن، وقد أصبح التعليم ومعرفة اللغات شيئاً شائعاً وأساسياً بل ومفترضاً وجوده في أي مجتمع انساني، فإن هذه الوظيفة الخاصة قد انتهى دورها، ولم يعد دور اليهودي العالمي مطلوباً!

والواقع أن الاسرائيلي حين يكتب يحتار دائماً بين اختيار دور المواطن الصهيوني وبين دور المواطن العالمي. وهما نظرتان مختلفتان.

ولنا عودة إلى كتابات أبا ايبان، فهي آلاف من الصفحات.

وبعده. . .

فلم يكن موضوع هذا الحديث كل العلاقة العربية الاسلامية ـ اليهودية، وإلّا لطال الحديث، ولذكرنا آلاف الأدلة على أن ازدهار العرب وتحضرهم وقوتهم كانت تلقائياً تعطي اليهود فرصة أكبر. . .

وانه ليكفي أن نذكر أن عمر بن الخطاب هو الذي أعادهم أول مرة إلى القدس بعد أن حرم الرومان عليهم سكنى المدينة.

وإن صلاح الدين الأيوبي هو الذي أعادهم مرة ثانية بعد أن هزم الصليبيين، الذين حرموا اليهود بدورهم من مجرد الاقتراب من القدس.

ولكن الحديث انصرف أساساً إلى تجربة واحدة، هي التجربة الأندلسية، التي لم يتسع المجال مع ذلك إلاّ لمجرد سرد لمحات خاطفة منها، تثبت صواب ما ذهبنا إليه في أول هذا الحديث على المدى التاريخي.

* * *

إن النظرة التاريخية المفصلة، تثبت قول بعض الباحثين اليهود أنفسهم، من: أن عصر التنوير العربي في أوج الامبراطورية الاسلامية وحضاراتها، هو الذي لعب أكبر دور في حفظ استمرارية اليهود كبشر، وكتراث، وتاريخ، ومعتقدات.

فلم يكن لهم طول التاريخ مكانٌ آخر يتنفسون فيه.

١٧ ـ خطة السنوات العشر لكسر شوكة البترول(*)

أرجو أن نكون قد فهمنا أبعاد مؤتمر قمة الدول الغربية الأخير في فينيسيا، وذلك بدون تهويل في أهميته، ولا تهوين من قدره، كما يحدث عندنا نحن العرب كثيراً.

وفي حدود هذه المحاولة لفهمه، فإنني أعتبره مؤتمراً خطيراً، وإن كان قد بدا وكأنه انتهى بلا نتائج. كلا. إنه مؤتمر لم يتخذ قرارات لها دوي اعلامي كبير، ولكنه سوف يكون نقطة تحوّل، ربما نذكرها فيما بعد، إنما المهم أن نستعد لها من الآن...

فالعالم المتقدم، إذا قام بتحليل موقف ووصل إلى قناعة ما، فإنه يتصرف على أساسها. بعكسنا نحن العرب، فنحن لا نقل عن أي أحد في براعة الفهم والتحليل، ولكننا لا نتصرف بناء على ذلك. مشكلتنا عدم اقتران العلم بالعمل، عدم اقتران الوعي بالإرادة.

سنة ١٩٥٦، حين أغلقت مصر قناة السويس لأول مرة، فوجىء العالم وأخذ على غرة. وكان لهذا أثره الساحق في النتيجة العامة لحرب السويس. سنة ١٩٦٧، حين أغلقت مصر قناة السويس للمرة الثانية، لم يحدث الأثر نفسه. فالآخرون أخذوا العبرة، وكانوا قد أتموا بناء ناقلات النفط العملاقة وغيرها، ولم يعد اغلاق قناة السويس ساعتها سلاحاً هاماً.

سنة ١٩٧٣، أوقف العرب ضخ البترول. وفوجىء العالم الذي ظل لا يصدق أن العرب يمكن أن يستخدموا البترول كسلاح سياسي. ومن ساعتها أتجه الغرب فوراً إلى سياسة تكوين مخزون استراتيجي هائل من البترول، هو الذي يستنزف البترول العربي الآن. وإذ صار الغرب يتحمل مواجهة إذا قطع النفط مرة أخرى، في حين أننا لا نتحمل في تقديره قطع ما نشتريه من الغرب ونعتمد عليه في كل أمور حياتنا.

(*) الوطن، ١٩٨٠/٦/٢٩.

ولكن، استجدت مشكلة أسعار النفط، وصار النفط محور ألف قضية وقضية، سياسياً واستراتيجياً واقتصادياً وعسكرياً.

وعندما اجتمع أقطاب العالم الغربي في فينيسيا، كان جـدول أعمالهم الفعـلي، وبترتيب الأهمية، هو:

- البترول والطاقة.
- التضخم العالمي.
- العلاقات المتوترة مع الاتحاد السوفييتي.
- قضية فلسطين.
- العلاقات المتدهورة بين دول التحالف الغربي.
- الحوار بين الشمال والجنوب، أي بين الدول الغنية والدول الفقيرة.

وعند النظر إلى هذا الجدول، نجد أن موضوع البترول هو أهمها جميعاً، لسبب بسيط، وهو: أن البترول فوق أهميته الـذاتية مصـدر الطاقـة الرئيسي في العـالم، فهو في الـوقت نفسه العامل المشترك في باقي بنود جدول الأعمال، ودون استثناء.

- فالبترول والطاقة، كما يسجلون في بيانهم الختامي، هو عندهم السبب الأول والأخير في التضخم العالمي، وكل ما يعقبه من آثار اقتصادية مدمرة.

- والعلاقات المتوترة مع الاتحاد السـوفييتي، سببها المبـاشر هو غـزو الاتحاد السـوفييتي لأفغانستان، وبالتالي اقترابه من منطقة البترول.

- قضية فلسطين، محورها - لديهم - أثرها على البترول واستقرار منـاطقه، إنمـا البعض يرى أن اسرائيل هي الضمان لفرض ارادة الغرب، والبعض يرى أن العـرب - حيث البترول نفسه - هم الضمان الأسلم.

- العـلاقات المتـدهورة بـين دول التحالف الغـربي، مرجعهـا الأخير أيضـاً البـترول. فأوروبا ترى أن تحيّز أمريكا الـزائد لاسرائيـل، وردود فعلها العنيفـة ازاء الاتحاد السـوفييتي، تضر الغرب في المدى البعيد، ولذلك تتقدم أوروبا إلى العرب، حتى تمـلأ «الفراغ السيـاسي» الذي تخلقه السياسة الأمريكية. . وأمريكا ترى في هذا محـاولة من أوروبـا للاستقـلال، تقلل من قوة أمريكا وهيبتها، وتحرض العرب على التشدد في مطالبهم.

- الحوار بين الدول الغنية والفقيرة، نرى أنهم - في بيانهم نفسه - يرجعون سبب تـأخر الدول الفقيرة في التنمية هو ارتفاع أسعار البترول، ويقولون إن على دول البترول تحمل عبء مساعدة الدول الفقيرة.

هكذا، نجد أن البترول كان هو الموضوع الماثل أمامهم في أي مـوضوع آخـر تعرضـوا له.

وليس هذا مجال مناقشة كلامهم هذا بالتفصيل.

ولكن من الواضح أن دول الغرب الصناعية، وقد عجزت عن حل مشاكل خلقتها بنفسها، يناسبها أولاً أن تجعل البترول وأصحابه هم المسؤولون عن كل مشاكلها. ويناسبها ثانياً اقناع الرأي العام في بلادهم، ثم اقناع العالم كله، بأن أصحاب البترول هم المسؤولون.

أما هم الأقوياء الأغنياء، المتصرفون في شؤون الدنيا منذ قرون، فلا مسؤولية عليهم في التضخم، ولا البطالة، ولا الكساد، ولا تخلف المستعمرات القديمة ولا المجاعات المنتشرة.

نحن العرب، وسائر أصحاب البترول ـ فقط المسؤولون عن هذا كله!

وهم طبعاً يعرفون أن هذا باطل.

ولكنه صورة اعلامية تناسب الزعماء الستة ازاء شعوبهم، وتناسب شعوب العالم الثالث كله!

رسم هذه الصورة ـ في حد ذاته ـ أمر بالغ الخطورة لأنهم يملأون به عقول شعوبهم، ويغسلون به عقول العالم الثالث كله، بما لديهم وليس لدينا من وسائل اعلام كاسحة النفوذ، عميقة التأثير.

وإذا لاحظنا، عشرات السنين التي احتجنا إليها حتى ينفذ بصيص من النور عن «الحقيقة في فلسطين»، ويتزعزع تضليل العالم طويلاً حول حقوق اسرائيل، فإنه يمكننا أن نعرف ما نحتاج إليه ـ من الآن ـ لمصارعة هذه الصورة الكاذبة.

ثم إنهم ـ بتثبيت هذه الصورة في الأذهان ـ إنما يهيئون الرأي العام عندهم وعند غيرهم لأي عمل عدواني يقدمون عليه ضدنا. فإذا كان أصحاب البترول هم العدو رقم واحد.. المسؤول عن التضخم، وبطالة المتعطل، وتخلف الفقير، وإشعال الحروب، فإن أي عمل إذن، للسيطرة على البترول، أو تأديب أصحابه، يصبح عملاً مقبولاً، بل ومطلوباً!

بعد ذلك، نجد أيضاً أن موضوع البترول كان الموضوع الوحيد الذي اتفقوا عليه، وسجلوا ذلك في بيانهم الختامي المعلن.

كل صحف أوروبا وأمريكا لخصت نتائج المؤتمر في أنه «توصل إلى الاتفاق على خطة للعشر سنوات المقبلة هدفها كسر القبضة المالية والاقتصادية لدول الأوبيك».

فقد وجهوا اللوم الشديد في بيانهم إلى سياسة الأوبيك في رفع الأسعار، وأعلنوا أنها مسؤولة عن التضخم العالمي، وعن الانكماش الاقتصادي الذي بدأ يظهر، وعن تفاقم البطالة، وعن توقف خطط التنمية في الدول الفقيرة، بل استخدموا عبارة «تدمير» التنمية في العالم الثالث وأنه يهدد الدول الصناعية تهديداً خطيراً.

وبناء على هذه الأسباب، اتفق زعماء الدول الصناعية السبع على كسر العلاقة القائمة حالياً بين حركة النمو الاقتصادي وبين استهلاك البترول.

وذكروا بعد ذلـك ما اتفقـوا عليه من خـطط: من تقليل لاستهـلاك البترول، والبحث عن بدائل لـه، من الطاقـة الشمسية، إلى الـطاقة النـووية، إلى مضـاعفة انتـاج الفحـم، إلى آخره.

ولو كان الأمر هو أمر توفير الطاقة وتقليل اعتماد العالم على البترول، لكان جديراً بنا أن نصفق لهم اعجاباً ونرسل لهم برقيات تأييد.

ذلـك أن دول البترول تنـادي، بل تنـاشد، العـالم أن يقلل استهـلاكـه للبـترول، وأن يبحث عن بدائل، لأن الدول البترولـيـة لا مصلحة لهـا في استنفاد مخـزونها في أقصر وقت إنما مصلحتها هي في إطالة عمر رصيدها البترولي أطول فترة ممكنة. وهـذا على الأقـل يحرر ارادة دول البترول في التصرف بثروتهـا القوميـة، فتنتج بقـدر ما تحتـاج، لا بقدر مـا يطلبـه العالم، ويضغط عليها لانتاجه.

ولكن بيان زعماء الـدول الصناعيـة السبع، يسجـل أنه لـو نجح في تنفيـذ خطة العشر سنوات هذه، فإنه سيخفض نسبة البترول في مصادر الطاقة التي يحتاجها من ٥٣ بالمئـة حاليـاً إلى ٤٠ بالمئة سنة ١٩٩٠!

أي ان العـالم، سنة ١٩٩٠، سيـظل محتاجـاً إلى البترول لتـوفير ٤٠ بـالمئة من الـطاقـة المستخدمة.

ومعنى ذلك أن التغير لن يكون أساسياً ولا حاسماً، وستظل دول العـالم الصناعي تنـظر إلى البترول نظرتها نفسها الآن: نظرة التلمظ والتربص والرغبة في العدوان على السيادة.

هذا سيكون قائماً حتى بعد سنة ١٩٩٠.

فما بالنـا بما يكمن من أخـطار في السنوات العشر المقبلة علينـا الآن؟.. وما سيحـدث فيها حتماً من تطورات سياسية وتقلبات دولية.

عشر سنـوات.. سيرتفـع فيها التضخم، وسـتزداد البطالـة في العالم الصنـاعي خـلال السنـوات المقبلة.. وستسقط زعـامــات وتـأتي زعـامـات.. دعــك من صراعـات الشرق والغرب.. ومفاجآت وانقلابات العالم الثالث.

على أي حال، تلك خطتهم «المعلنة» للسنوات العشر المقبلة، وتلك «حيثياتهم»، وهي الأهم.

فماذا لدى العرب من استراتيجية، أيضاً لعشر سنوات مقبلة؟

١٨ ـ اللامعقول(*)

اللامعقول هو ترك هذه الحرب بين العراق وايران مستمرة، والاكتفاء بتحركات بسيطة قليلة، شكلية إلى حد بعيد تقوم بها الدول الكبرى ربما لمجرد ملء صفحات الصحف.

إن ما قلناه وقاله معظم المعلقين قد بات واضحاً: وهو أن الغرب يريد لهذه الحرب أن تستمر، حتى يستنزف العراق وايران على السواء. وكل ما فعله الغرب ـ أو أمريكا بالذات ـ أنها ضمنت استمرار الحد الأدنى المطلوب من النفط، وضمنت تحديد الحرب في «ملعب العراق وايران» فقط. وهي لا تريد لأحد الطرفين أن ينتصر انتصاراً حاسماً، وتريد أن تحتفظ لنفسها «بصفارة الحكم» في الملعب، توقف ـ هي ـ الحرب وقت تشاء! بعد أن تكون قد ضمنت خروج أكبر قوتين في المنطقة منهكتين، وقد حلّ بهما أكبر قدر من الدمار العسكري والاقتصادي. وضمنت لنفسها التواجد الكافي في منطقة الخليج، عسكرياً وسياسياً، بحجة يصعب الاعتراض عليها وهي «احتواء القتال» و«المحافظة على مصادر البترول وعلى ممراته».

ولكن، لهذه الأسباب بالذات، يصبح العمل من أجل ايقاف القتال أمراً أكثر ضرورة والحاحاً.

كذلك يجب أن نعرف تمام المعرفة أن أمريكا في الاختيار الأخير، لا تفضل انتصار العراق نصراً حاسماً على ايران.

أمريكا تريد استرداد ايران من الخميني فقط لا غير، ايران أكثر أهمية لأمريكا من العراق. وهي أقدر على استئناسها والوثوق بها، لأن ايران ـ خميني أو غير خميني ـ لن تقود إلا ايران. لا توجد كتلة أكبر تتحرك فيها، في حين أن العراق مؤهل لزعامة عربية، وفي أقل القليل ينتمي إلى كتلة عربية هائلة، لا تريد أمريكا ولا غيرها أن تراها قوية متكتلة، فمراسها مع أمريكا سيكون أصعب، وخطورتها على اسرائيل ستكون أكبر.

(*) الوطن، ١٢/١٠/١٩٨٠.

فهوى أمريكا في الحساب الأخير مع ايران قوية موحدة، ولكن لحسابها طبعاً.

والحرب لا تتوقف من تلقاء نفسها، وفي هذه الحالة بالذات، حيث يدور القتال بين طرفين كل منهما مؤمن برسالة إلى أقصى حد، فخور بنفسه وتراثه وماضيه، يفضل الموت على الهزيمة، اللهم إلاّ بانهيار داخلي في ايران، أو انقلاب عسكري. ولكن حتى الذين يفكرون في هذا داخل ايران يصعب عليهم التحرك ـ كما هو الأمر دائماً ـ في حالة حرب. إنما تزيد هذه الامكانيات بعد أن تسكت المدافع، وتبدأ مرحلة الحساب، ومراجعة الأخطاء والمسؤوليات.

إنما الحرب في هذه الحالة يمكن أن تتوقف فقط بتدخل أطراف أخرى، وبالوصول إلى أكثر الصيغ محافظة على ماء الوجه.

والمشكلة أصعب بالطبع في الحديث مع ايران.

ـ فإيران هي الطرف الخاسر عسكرياً حتى الآن، وبالتالي فالقبول بوقف اطلاق نار غير مشروط أصعب نفسياً عليها.

ـ وايران في حالة ثورة، وبالتالي فهي في حالة استشهاد لا ترى إلاّ الصمود أو الموت. والخميني بالذات ـ في مكانه الرئيسي ـ رجل في الثمانين من العمر، لم يبق له الكثير، وقد خاض أهم معاركه، وتاريخه صار خلفه وليس أمامه، فهو يفضّل بالتأكيد أن يستشهد ولو دمرت ايران كلها على أن يعيش مع هزيمة ما. بل لعله يطلب الموت والاستشهاد طلباً، حتى يصبح أسطورة في حياة بلاده ومريديه، على أن يعيش وتنتهي هذه الأسطورة.

ـ ورغم سطوة الخميني الداخلية، إلاّ أنه لا توجد في ايران سلطة منظمة تقوى على التراجع كما تقوى على التقدم. وقد رأينا في قرار أقل أهمية بكثير، حول الرهائن الامريكيين أن أعضاء مجلس الشورى عندما ناقشوا الأمر عجزوا عن اتخاذ قرار، وتضاربوا بالأيدي، واعتدى نائب شاب على نائب من كبار رجال الدين واتهمه بأنه عميل أمريكي، لأنه دعا إلى انهاء مشكلة الرهائن، وقد كان عدم حل مشكلة الرهائن لما يقرب من سنة، سببه عدم القدرة على اتخاذ قرار، وليس لأنه هناك قرار بعدم اطلاق سراحهم.

ـ كذلك فإن ايران، بخطأ فاحش من قياداتها الدينية ولعدم تقديرهم لضرورات الدنيا، رفضت التعامل مع العالم طبقاً لأي شريعة دولية. وكثير من الشرائع الدولية ظالمة أو فاسدة، ولكنها أحياناً تكون «عملة» وحيدة متداولة ولا بد من التعامل بها في السوق مهما كان الرأي فيها. وبالتالي فالأبواب بينها وبين العالم مغلقة ومجرد فتحها يحتاج إلى جهد جهيد.

هذه الظروف ـ وغيرها ـ جعلت في سياسة ايران عنصراً، «غير عقلاني» يصعب جداً التعامل معه.

أما عن العراق، فقد أعلن أنه يرفض وساطة أي دولة عربية، لأنه يفترض ـ ايديولوجياً ـ أن أي دولة عربية لا بد وأن تكون مع العراق العربية أولاً.

ولكن كل هذه الصعوبات في تقديري لا تعفي الدول العربية من مسؤولية التوسط،

فالوساطة هنا لا تتعارض مع تأييد الدول العربية للعراق، ذلك أن الوساطة ليس معناها أخذ «موقف وسط» بين الطرفين بالضرورة، إنما هي محاولة فتح باب الحوار مهما كان صعباً في البداية.

وفي أقدم وأحدث دروس المعارك الحربية يقولون دائماً: «حاصر عدوك، واترك له منفذاً يخرج منه، حتى لا يقاتل إلى الموت». وهذا ينطبق على الدبلوماسية.

وبالتالي فإن كانت وساطة الدول العربية مرفوضة ـ من الطرفين في الواقع ـ إلّا أن الدول العربية تستطيع أن تضغط وتنشط دون كلل لدفع قوى أخرى للوساطة الجدية، وليس لوسطاء «أداء الواجب الشكلي» فحسب. الدول العربية تستطيع أن تتحرك وتحت مجموعة الدول الاسلامية، ومجموعة دول عدم الانحياز، ومجموعة دول غرب أوروبا، بل وحتى الدول الكبرى.

إن المهمة تبدو شديدة الصعوبة. . والخطورة.

ولكن مخاطرها تهون أمام مخاطر ترك القتال يستمر، فإما أن يزداد تدخل القوى الخارجية في المنطقة وتفرض الوصايا الدولية على البترول للعشرين سنة القادمة، وهو رأي قوي في مختلف أنحاء العالم، وإما أن تعمد ايران ـ في حالة اليأس والشعور بالحصار والاختناق ـ إلى عمل انتحاري يائس، ينشر الحرب والدمار خارج اطاره الحالي.

وليس هناك في السياسة أو في النضال شيء اسمه اليأس. والتحرك السياسي المكثف المتواصل نوع من النضال.

وهذا التحرك السياسي ـ نجح أو فشل ـ لا بد أن يستمر دون انقطاع، لأنه ـ في حد ذاته ـ له مردوده الهام.

فمن المهم جداً عدم ترك الساحة للدول الكبرى، وأن نثبت للعالم أن هناك طرفاً أصيلاً في الخليج وفي العالم العربي والاسلامي، يقوم بدوره، وله نصيب في تحريك الأحداث.

إن خصومنا يحاولون اثبات وتأكيد ما رددوه دائماً على أسماع العالم: من أن العرب وأصحاب النفط عموماً ليسوا أهلاً للمحافظة عليه.

وإذا كانت النار قد اشتعلت في النفط فعلاً، وبدأ هذا يصبح ذريعة لكل صاحب مطمع، فلماذا لا نحاول أن نطفىء هذه النار، حتى ولو احترقت أصابعنا لبعض الوقت؟

١٩ ـ عصبيات سياسية . . لا مذاهب دينية(*)

انظروا إلى تلك الحرب الدامية التي قاربت السنوات الأربع بين العراق وايران. . إن اصرار ايران المستمر على مواصلتها هو قرار سياسي محض، وإن كانوا يحشدون له الشعب الايراني بشعارات ودوافع «دينية».

إن الانشقاق المذهبي الأول في الاسلام منذ أربعة عشر قرناً، هو الذي أوجد الاسلام السني والاسلام الشيعي. ولكن الاسلام واحد، وقد نزل بلا مذاهب. والمذاهب من صنع البشر، وعشرات الفرق الاسلامية الموجودة حالياً، تجد عند دراسة جذورها وأسبابها أنها سياسية تماماً، لا دخل لها بالإسلام.

وانني لأتساءل دائماً: لنفرض جدلاً أن المسلمين اتفقوا اليوم وأجمعوا على أن البيعة لأبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان قبل علي بن أبي طالب كانت صحيحة، أو لنفرض العكس، أي أن المسلمين أجمعوا على أن علياً بن أبي طالب كان صاحب الحق قبل سائر الخلفاء الراشدين: أي نتيجة يمكن أن تترتب اليوم بعد أربعة عشر قرناً، على وقوع الإجماع في هذا الرأي أو ذاك؟

أي شيء يمكن أن يتغيّر في حياة المسلمين، في قرآنهم الثابت الراسخ المحفوظ، وفي ايمانهم وعبادتهم، وكل ما شمله القرآن من أحكام دينية ودنيوية؟

إنه إذن الاستخدام السياسي للدين مرة أخرى، واثارة نعرات لا علاقة لها بالدين الاسلامي، ومعارك حوربت وصارت تاريخاً منذ أربعة عشر قرناً ولا تغير من التاريخ شيئاً.

ولو احتكمنا إلى «الايمان» السليم، لما ثارت أي مشكلة. . ولكن اثارة «التعصب»

(*) المساء، ١٩٨٤/٢/٢٩.

وإحلاله محل الايمان السليم، الواسع العقل والصدر، هو الذي يقاد من أجله الآلاف من المسلمين إلى مصارعهم ومقاتلهم كل يوم.

وقد دعوت مرة، ربما منذ عشرين سنة إلى لجنة للتقريب بين المذاهب الاسلامية. وأذكر أن هذه اللجنة قد عقدت مرة أو مرتين ولا أعرف ما الذي رمى بها إلى غياهب النسيان.

وأظننا اليوم في حاجة إلى أن تتصدى دولة اسلامية لهذه القضية، وتجمع العلماء من أنحاء العالم الاسلامي للنظر في هذه المسألة. إنها واجب ازاء الأمة الاسلامية والشعب العربي، تقوم اعوجاجاته وتنقي تراثه وتزيل «العصبيات السياسية» التي تحاول لبس ثياب الدين، وتبرىء جوهر الدين من هذه العصبيات.. وكفى اهداراً للدم العربي الاسلامي والجهد العربي الاسلامي».

٢٠ ـ فكرة القانون وقضية الشرعية في العالم العربي(*)

هذا الحديث.. استئناف لحديث سابق، كتبته قبل سنتين. وأعرف أن هذه مقدمة غير جذابة لأي حديث. ولكن ماذا نفعل وقضايانا بطيئة، ومردود الكلام قليل، وقد ينهل المطر فتثمر البذور وتخضر الأرض، أو يستمر الجفاف فتموت البذور المنثورة وتبقى الأرض قاحلة.

وقد وعدت القارىء وقتها باستئناف ذلك الحديث عن «شرعية السلطة في العالم العربي». ولكن الأحداث تقاطعنا، وتجبرنا على الانعطاف عن الطريق الرئيسي إلى اتجاهات جانبية، بسبب الحفريات والمطبات التي تجعل المرور متعذراً.

وقد أعادني إلى هذا الحديث كتاب من سلسلة «عالم المعرفة» التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وهي أرقى سلسلة في اللغة العربية، وتضارع أرقى سلسلة بأي لغة. والكتاب معروف لأهل القانون ـ وأنا خريج حقوق ـ وهو كتاب «فكرة القانون» بقلم القانوني الانجليزي الشهير دينيس لويد. وقد ترجمه وراجعه قانونيان عربيان: سليم الصوص، وسليم بسيسو. وقد سعدت بترجمته لأنه صار في متناول الجميع، أي من غير أهل القانون المتخصصين.

ونحن الذين درسنا القانون نعتقد أنه كما أن الفنون والآداب والثقافة يجب أن تكون مشاعة بين كل أهل التخصصات والمهن والمواطنين الآخرين، فكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة إلى القانون...

وليس معنى ذلك أن يعرف كل مواطن مواد القانون المدني والجنائي والتجاري وغيرها، كما يعرف عبد الوهاب وأم كلثوم وفيروز.. ولكن أن يعرف «فكرة القانون»، وما هو «القانون»؟

(*) العربي، العدد ٢٨٠ (آذار/ مارس ١٩٨٢).

ذلك أن الناس ـ حتى المسؤولين في معظم الحالات ـ يظنون أن أي ورقة مرت بالمراحل «التشريعية» المختلفة حسب نظام كل بلد، أي من حاكم فرد أو من مجلس قيادة أو من برلمان أو حتى من استفتاء شعبي، تصبح «قانوناً» جديراً بهذا الإسم الجليل.

وهذا غير صحيح.

ومن هنا يعتبر هذا الحديث مكملاً للحديث عن مشكلة «الشرعية في العالم العربي»، وما خلصنا إليه من أن انعدام الشرعية في أي مجتمع ـ على اختلاف ألوان الشرعية، هو أعمق مشكلة واجهها العالم العربي في البحث عن صيغة لحياته حاضراً ومستقبلاً. ولأذكر القارىء بأن «الشرعية» قد تكون وراثية وجمهورية انتخابية أو ثورية، ولكن هناك شروط هي التي تضفى على هذه «الأشكال»، تتلاءم مع كل مجتمع وتراثه، وتكوينه، وحاجته الطبيعية في الاستمرار، وفي التغيير، بما يلائم ظروفه في المرحلة التي يعيشها. و«التشريع» غير «الشرعية».. وإن تشابهت الكلمتان.

من أفلاطون إلى باكونين

والتشريع ـ الذي هو القانون ـ لا يهمنا هنا ـ كما قلت ـ تفاصيله، ولكن يهمنا فكرته، فلا حياة لأي مجتمع دون قانون ما. فهو موضوع يهم الجميع، وأبسط الناس وأقلهم معرفة يعيش من خلال «قوانين» دون أن يعرفها.

كما ان «القوانين» التي تحكم حياة الناس ليست كلها «مكتوبة» في مواد، كما قد يتصور الناس.

إن أول «مجتمع» انساني، بل «جماعة» انسانية، وجدت على الأرض، ما كانت «تجتمع» إلّا على «قانون»، أو مجموعة من الأعراف والتقاليد والسلوكيات متعارف عليها، تتبعها الأغلبية، ومن يعصيها يكون خارجاً عليها.

وعندما نجد أصل كلمة «الخليع» في اللغة العربية ـ منذ الجاهلية ـ نجد أن أصلها ذلك الذي «خلعته» قبيلته عنها، وتخلت عن حمايته ازاء القبائل الأخرى، لأنه خرج عن قيم وأعراف وسلوكيات قبيلته.

ففي أكثر المجتمعات بدائية كان هناك قانون. وبغير ذلك ما قامت مجتمعات من الأصل، حتى المجتمعات التي تؤمن بالجن والشعوذة وتعبد الشمس أو النار أو المطر وتقدس رئيس القبيلة، وتعطيه الحق في مائة زوجة أو في كل نساء القبيلة، كالحال في أواسط افريقيا.

وهذا لم يمنع أن يكون كثير من أكبر المفكرين العقلانيين من أعداء فكرة القانون ذاتها، أو في فكرة شيء من هذا، من أفلاطون ـ صاحب الجمهورية المثالية التي هي قانون عنيف ـ إلى «باكونين» و«كروبتكين» زعماء المذاهب الفوضوية في القرن التاسع عشر الذين بشروا باختفاء الدولة أي باختفاء القانون.

وما زالت صيحة «جان جاك روسو» تدوّي في الآفاق، حين قال: «إن الشر بدأ في العالم كله حين وضع أول انسان أول علامة على قطعة أرض وقال «هذه ملكي»، فمنذ تلك اللحظة بدأت الحدود والقيود، وبدأت الصراعات، وولدت القوانين. وان الحل هو العودة إلى الطبيعة، حين لم يكن هناك نص مكتوب. .».

وقد لعبت هذه الصيحة دوراً كبيراً في قيام الثورة الفرنسية، وتأثر بها ـ وما زال ـ مفكرون كثيرون بطرق شتى. ولكن هذه الصيحة كانت «أولاً» رد فعل على تراكم «قوانين» ظالمة صارت سدوداً في طريق تقدم البشرية، لأن هذه «العلامة» الأولى التي وضعها أول انسان على قطعة أرض وقال هذه ملكي، تحوّلت عبر القرون إلى عسف أمراء الاقطاع وإلى رقيق الأرض، إلى آخره. وكانت «ثانياً» مستحيلة، لأن العالم الذي تقدم بعد عصر النهضة وازدحم، وعرف المدن الكبيرة، والعلاقات المعقدة، لم يكن ممكناً أن يعود إلى حياة الرعاة من جديد.

عندما يلتقي النقيضان

والغريب أن فكرة الغاء الدولة والغاء القانون يلتقي عندها أقصى اليسار وأقصى اليمين. فالفوضويون ـ وهو مذهب له فلسفته، ينتمي إليه فيما اعتقد منظمات مثل «الألوية الحمراء» في ايطاليا ـ يرون أن «الدولة» هي مصدر كل شر، لأن الدولة للأقوياء، ولو اختفت لساد العدل. والمحافظون المتطرفون ـ مثل رونالد ريجان ـ يرون أيضاً أن الدولة هي مصدر كل شر، وأنه كلما تركت الدولة الناس وشأنهم فسوف يسود قانون آخر عكسي يؤمن به، وهو: أن يكون البقاء للأقوى، وأن هذه هي سنة الكون!

ومنذ البداية كما ذكرت، وبشكل تلقائي، لم يجتمع ناس في جماعة إلا حول «قانون» أو «عرف» غير مكتوب، له نفس وظيفة القانون. . .

ولكن، منذ بداية نشوء الفكر وقيام الحضارة، كان هناك تفريق بين قانونين يتحمس كل فريق من أهل القانون لأحدهما:

القانون الطبيعي.
والقانون الوضعي.

وكان طبيعياً أن يبدأ الفكر الانساني بالانتماء إلى القانون الطبيعي. فقبل رسالات السماء، وقبل العلم، كان الانسان متأثراً في كل نواحي حياته بالطبيعة، وبقوى غيبية لا يدركها، وبالتالي لا بد أن يكون هو نفسه جزءاً من هذه الطبيعة. إذن فالقانون السليم ـ مكتوباً أو غير مكتوب في البداية ـ هو المستمد من الطبيعة، وغايته يجب أن تكون هي محاولة تحقيق أكبر درجة من الانسجام بينه وبين الطبيعة.

كان من حقائق الطبيعة مثلاً أن البقاء للأقوى، في الغابة كما في المجتمع البشري.

فكما أن من حق الأسد الذي خلق سيداً على الحيوانات أن يأكل أي فريسة، فمن حق أي قبيلة أو جماعة قوية أن تقتل وتسلب وتسبي قبيلة أو جماعة أقل منها قوة.

ومع تقدم الانسان البطيء، أدرك أن هذا ليس «عدلاً» وان إحدى غايات أي قانون لا بد أن تكون تحقيق درجة من العدل.

الانسان والقانون الوضعي

ومع ذلك فقد امتدت فكرة القانون الطبيعي عبر القرون. فقد أخذ بها الاغريق ولكن من زاوية «عقلية»: فأهم دور للاغريق في الحضارة هو تقديسهم للعقل الذي ظل مؤثراً إلى الآن، وبالتالي قالوا: إن هذا الكون ـ بالتحليل العقلي ـ لا بد وأن له منطقاً أوجده، وقوة خلقته، وقانوناً يسيره. فالانسان إذن عليه أن يتلاءم مع هذا الكون، ولكن من منطلق التحليل العقلي لا الاكتفاء بالظواهر كما فعل البدائيون. لقد حاولوا فهم ما وراء هذا العالم. ما هي «فكرته» الأساسية؟ وأن القوانين التي يضعها الانسان يجب أن تحاول الاقتراب من الفكرة المثالية الكامنة وراء هذا الكون والقوانين التي تحكمه والتي يمكن معرفتها بالعقل المجرد. فالطبيعة هي أمر واقع، وهي المقياس، الذي يجب استخدامه في معرفة ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي.

وتنوّع العزف على هذه النغمة الأساسية ابتداء من أفلاطون وأرسطو إلى من جاءوا بعدهما، ولكن مع عصر النهضة في أوروبا لم يعد لدى الانسان سلاح واحد هو العقل المجرد، لقد ظهر العلم، ومع العلم ظهرت «التجربة». وبدأ عصر الشك الذي جسّده «ديكارت»، بل وضع الشك في مقام عال حين قال: أنا أشك إذن فأنا موجود! أي جعل الشك معيار الوجود.

في هذا العهد الجديد ظهر النوع الثاني بعد القانون الطبيعي وهو «القانون الوضعي».

والفكرة واضحة من الاسم: إن علينا أن نبحث ـ علمياً وفكرياً ـ ما هو موجود. ما هو طبيعي، ولكن ليس علينا أن نعتبره مثلاً أعلى لا عن طريق الخرافة ولا عن طريق العقل المجرد. الطبيعة فيها الخير والشر، وليس صحيحاً أن الانسان طيّب وخيّر بالسليقة والأصل. فقد قتل قابيل أخاه هابيل، وبالتالي فيجب أن «يضع» الانسان قوانينه ويقلل الشر ويزيد الخير، ويعالج الأدواء المولودة مع الطبيعة.

كان فرسان هذه القضية «كانت» و «لوك» و «هيوم» وغيرهم كثيرون.

وقال «كانت» قولاً شهيراً: «إن هناك ما هو كائن بالفعل، وهناك «ما يجب أن يكون». وعلى الانسان أن يتدخل فيما هو كائن ليقترب به إلى ما يجب أن يكون...».

ألسنا نروّض الأنهار التي تغرق الناس بفيضاناتها؟ ألسنا نقاوم الأمراض والأوبئة؟ إذن علينا أن نروّض المجتمعات البشرية، بالقانون «الوضعي». وسيطر منطق القانون الوضعي وما يزال.

دور هام للرسالات السماوية

ولكن كان هناك تيار وسط، لم يجد تعارضاً حاداً بين الطبيعي والوضعي، بل حاول أن يجعلهما متكاملين، في طلب الحياة الأحسن.

وأياً كان منبع هذا التيار، ففي تقديري أن منبعه الأكبر هو الرسالات السماوية والأديان. فالأديان تعطي «الطبيعة» - مادية وبشرية - قيمة كبيرة لأنها من خلق الله. ولكل شيء حكمة، الخير والشر على السواء، إذن فهناك احترام كبير للإبقاء على الصلة بين الانسان مهما بلغ علمه وعقله، وبين الطبيعة. وبالتالي فالقانون الطبيعي سيظل دائماً له حكمة وله نفع وله مكان، والانسلاخ عنه مستحيل.

وفي الوقت نفسه، نزلت الأديان بأحكام تقترب وتبتعد عن القوانين، ولكن فيها قدر من القانون، بعضها وضع مجرد قيم أخلاقية، طالب بها البشر، فهي قانون - والفرق بين القانون والأخلاق قضية كبيرة، ليس مجالها هذا الحديث - ولكنها في هذا المجال قانون، وبعضها - الاسلام بالذات - نزل بالقيم والأخلاق، ولكنه أضاف اضافة هائلة مختلفة نوعياً لا كمياً، إلى بند ما يعتبر قانوناً، فقد نزل مقنناً لأشياء كثيرة تنظم حياة الانسان بل وتنص على العقوبات، وفي مجال كالزواج والطلاق والإرث مثلاً ينظمها تنظيماً شاملاً محدداً.

ومع ذلك فهو لم يلغ العقل ولم يحرم الانسان من حق التفكير والاجتهاد على ضوء نصوصه، وتغيير التفكير والاجتهاد وتطويره من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان.

فهو إذن قوة كبرى في ساحة الأخذ بالقانونين معاً، الطبيعي والوضعي، أو الطبيعي والإلهي والوضعي، وفي ساحة الأخذ بمنطق الحث على التكامل والانسجام بينها حين يضع الناس قوانينهم مفصلة.

ولعلي أسرفت في هذه المقدمة التاريخية، التي لا بد منها في تصوري، لكي نقترب من موضوع فكرة القانون كما يجب أن نفهمها في حياتنا المعاصرة، والتي ينقص مجتمعنا ادراكها والتي تكمل فكرة «الشرعية»، لأن التشريع ووضع القوانين هو ترجمة الشرعية وأسلوبها في ممارسة شرعيتها.

سيادة القانون..
عندما تصبح «نكتة»!

إن ما ذكرته في الحديث السابق عن «شرعية السلطة في العالم العربي» ينطبق على هذا الحديث.

فالمعيار واحد.

السلطة حقيقة موجودة، وتتخذ أشكالاً شتى.

ولكن شرعيتها ليست في مجرد وجودها، فهذا معيار شكلي، والاقتصار عليه يؤدي إلى المهالك، لأنه يؤدي إلى الانفصام بين المجتمع والسلطة التي يفترض أنها تمثله.

والتعريف المأخوذ به في كتب العلوم السياسية هو أن شرعية السلطة توجد «إذا كانت السلطة تمثل الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام بنسبة كبيرة، تشارف الأغلبية، في المجتمع».

فهو ـ كما نرى ـ معيار موضوعي، لا شكلي.

الشكليات ليست الأساس.

دستور غير ملائم لهذه الشروط، برلمان لا يمثل هذه الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام، وزارة منتخبة من هذا البرلمان، كل هذا لا يوجد الشرعية.

فما أسهل فرض الدساتير، وتزوير الانتخابات وتزوير الاستفتاءات. فالشكل شرعي ولكن الجوهر غير شرعي.

الشيء نفسه ينطبق على القانون... وهذه هي «فكرة القانون».

لا بد ـ في فهمي وقناعتي ـ أن يكون القانون فيه جزء نابع من «طبيعة» المجتمع، كما ينبع الماء من مصدر طبيعي. لا بد أن يكون جزءاً من الطبيعة البشرية لمجتمع ما، كالماء الذي هو جزء من الطبيعة الجيولوجية. فكل مجتمع له «جيولوجيا» في تراثه وبيئته وتاريخه وتكوينه النفسي وقيمه السلوكية والدينية والأخلاقية.

ولا بد أن يكون القانون فيه جزءاً وضعياً «ولكنه لا بد أن يكون وضعياً بالشروط والتعبيرات السابقة» معبرا عن الارادة العامة والعقل العام والمزاج العام للنسبة الغالبة في المجتمع لأن الاجماع شبه مستحيل.

حتى في «الشرعية الثورية» التي تأتي لتحطم شرعية وتقيم شرعية جديدة، والتي تستهدف تغيير المجتمع، لا بد لكي تنجح أن تكون رد فعل لمشاكل حقيقية وآتية بحلول تعبر عن العقل العام والضمير العام والإرادة العامة لأغلبية المجتمع، بصرف النظر عن «شكل التعبير» الذي قد يكون ركيكاً أو بليغاً، ولكن شرط البلاغة أساسي في «موضوعية التعبير».

إذن؟

فحين نتحدث عن سيادة القانون فهذا عنوان عام جميل، لكن لا يجب الاستسلام له، مهما أحيط بشكليات القوانين: من توقيعات، واقرارات، واستفتاءات، كلها جريحة ومجرحة بشكل أو بآخر.

سيادة القانون هنا نكتة.

وهذا سر رد فعل الشعوب حين لا تستطيع ـ في أغلبيتها ـ القوانين، وتقابلها بسلبية هائلة. إنها «تخضع» لها بحكم القوة لا بحكم احترام القانون.. «والخضوع» على العكس

يعلم الناس عصيان القانون، ولكنها لا «تطيع» إلاّ القوانين المعبرة عن الارادة العامة والضمير العام. يطيعها حتى المخالف لها، ومن حقه أن يـدعو إلى تغيـيرها، وهـو يفعل ذلـك سلمياً، ذلك أنه يعرف أنه ولو خالفها فهي تعبير عن ضمير عام وإرادة عامة، ولا سبيل أمامه إلاّ أن يقنع الضمير العام والارادة العامة بأن يتغيرا.

هذه الفجوة بين «روح القانون» المتصاعدة من هذه الينابيع وبين «القوانين» النابعـة من السلطة «والقوة» وحدهما، هي الفجوة الثانية بين الشرعية واللاشرعية.

وهي السبب في الزلازل والبراكين المفاجئة، والنهايـات العنيفة، والأخـاديد التي تشقق المجتمع الواحد وتقطع سبل الحوار والتطور البناء المطرد.

وهو أمر إدراكه مسألة حياتية ومصيرية للأمـة العربيـة وهي في مرحلة انتقـال حضاري متـلاطمة الأمـواج لا يعصمها من الغـرق في دواماتهـا، إلاّ هذه الشرعيـة الموضـوعية، بكـل مستوياتها، وكافة وجوهها.

٢١ ـ تقارب.. أو تفاهم أو تكامل العرب![*]

لم ينجح مشروع تطوير الميثاق الأساسي لجامعة الدول العربية، وليس معنى ذلك فشل جامعة الدول العربية.

ولكن معناه أن «الدول العربية» هي التي ترفض التطوير بعد أربعين سنة من وضع الميثاق، وأن جامعة الدول العربية، التي هي «سكرتارية» للدول العربية اقترحت وعرضت، ثم سجلت قرار الدول العربية بالرفض أو التأجيل، وانتهى الأمر.

ولا أزعم أنني قرأت المشروع الجديد حتى أهاجمه أو أدافع عنه، ولكن الصحف أشارت إلى نقطتين هما الأساس:

الأولى: اتخاذ القرارات بالأغلبية لا بالإجماع كما هو الحال الآن؟

والثانية: إقامة محكمة عدل عليا عربية.

وأي «تجمع اقليمي» لعدد من الدول مهما كان لونه، قومياً أو جغرافياً أو اقتصادياً، لا يمكن أن ينجح وينمو، إلاّ بأن تتنازل كل دولة عضو فيه عن جزء من «سيادتها»، وهذا بالتأكيد ليس بالأمر السهل ولكنه في عالم اليوم ليس بالأمر المستحيل.

وليس مطلوباً أن تقفز مرة واحدة، إلى القول بأن أي قرار لجامعة الدول العربية يجب أن يكون بالأغلبية ولا أن أي موضوع يترك الفصل فيه لمحكمة عدل عربية.

ولكن من المؤكد أنه كان من الممكن أن نبدأ ببعض الموضوعات، نخرج بها عن السيادة المطلقة للدولة، يجوز فيها فقط دون غيرها أن يؤخذ فيها الرأي بالأغلبية، أو يجوز عرضها على محكمة العدل العربية العليا والخضوع لقراراتها.

(*) المساء، ١٩٨٤/٤/٨.

وإنه لغريب أن نقبل سلطة محكمة العدل الدولية في هولندا، ولا نقبل سلطة محكمة عدل عربية.

بعض قضايا الحدود العربية الداخلية مثلاً، وهي كثيرة، بعض اجراءات اغلاق الحدود واغلاق الفضاء الجوي واغلاق أنابيب البترول ضد دولة عربية أخرى، وأمثلة أخرى كثيرة، لو أننا أخذنا فيها برأي الأغلبية أو بحكم محكمة عدل عربية، لما وقعت من البداية، لأن صاحب أي قرار في أية دولة عربية، سيحسب مقدماً حساباً لرأي الأغلبية ولحكم محكمة العدل العربية.

نتحدث عن الوحدة العربية، ونرفض النزول عن أجزاء من حقوق السيادة السياسية، ازاء رأي عربي أوسع!.

إذن فنحن نتحدث عن القفز إلى الوحدة العربية، لنلغي أي امكانية للتحرك تدريجياً نحو درجة من التقارب أو التفاهم أو التكامل العربي.

المعادلة العربية مستحيلة، أن تكون الدول أعضاء في الجامعة، وأن يكون لكل منها حق الانفلات الكامل من أي منطق عربي عام، دون أي ضابط أو رابط أو حد أدنى من الالتزام!

٢٢ ـ هل عندكم قارىء كف
يقرأ خريطة العالم العربي . . بعد عشر سنوات؟![*]

كنا نقول إن حل مشاكل العالم العربي، يبدأ من داخل العالم العربي نفسه، فليس في هذا القول أي جديد. فالذين سبقونا، قالوا هذا الكلام قبل ربع قرن، وقالوه بالتأكيد قبل نصف قرن، لأنه أحد البديهيات ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1].

ولكننا نتحدث عن هذا المعنى من زاوية محددة.

فكل من يراجع تاريخ الانقلابات والثورات في المنطقة العربية، بطولها وعرضها، يجد أن أول بند في حيثيات كل انقلاب أو ثورة هو تحرير فلسطين. وقد تتابعت هذه الأحداث السياسية تحت شتى العناوين الداخلية والخارجية، ولكن لم يحدث، في ما يتعلق بقضية فلسطين، أي شيء جديد، سوى التراجع العربي المستمر، وضياع المتبقي من أرض فلسطين، ومن أراضي دول عربية أخرى.

وليس هذا نقداً لمرحلة الثورات والانقلابات والاضطرابات في العالم العربي فقط، فالأنظمة التي سبقت هذه المرحلة، أي تلك التي كانت قائمة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٩، ومؤتمر فرساي الذي كان أول محفل دولي يتوجه العرب لمحاولة الحصول على شيء فيه، إلى قيام حرب ١٩٤٨ التي أقامت البناء الأول لدولة اسرائيل، هذه الأنظمة لا تقل مسؤولية عن الأنظمة التي جاءت بعدها.

فقد وصلت في نهايات وجودها إلى اقامة البناء الأول لدولة اسرائيل، أي رأس الجسر في العالم العربي الذي انطلقت منه جحافل الصهيونية بعد ذلك تتوسع وتضيف إليه عند كل منحنى تاريخي.

(*) المساء، ١٩٨٤/١١/٢٦.

(١) القرآن الكريم، «سورة الرعد،» الآية ١١.

وليس معنى ذلك أيضاً أننا نقارن بين أنواع مختلفة من أنظمة الحكم، فنقول هذا ملكي وهذا جمهوري، أو هذا تقدمي وهذا رجعي. فنحن ربما نكون أكثر البلدان استهلاكاً للأسماء، وتفريغاً لها من محتواها، وخلط حابلها بنابلها، وربما لو شئنا أن نطبق المقاييس المتعارف عليها بالقواميس السياسية على أنظمتنا لصعب علينا العثور على اسم واضح أو ملامح واضحة متكاملة لأي نظام منها. فالأسماء شيء والواقع شيء آخر. الأسماء، أسماء أنظمة الحكم، تتغير أحياناً أو تبقى كما هي أحياناً. فهي ديكتاتورية أو ديمقراطية أو غير ذلك، ولكن الواقع يبقى نفسه بطريقة أو بأخرى، أنواع من القبائلية، قبائلية واقعية متناسبة مع ظروفها في بعض البلدان، وقبائلية في بلاد تنكر هذه الكلمة ولكنها فعلاً قبائلية، بمعنى قيام هياكل الحكم فيها سواء على العلاقات الشخصية، أو على القرابات، أو على الشلل، أو على أبناء مناطق معينة. . الخ. فهي قبائليات ولكنها تلبس ثياباً عصرية حديثة.

إذن، ليس المهم هو هذه الأسماء والمظاهر ولكن المهم هو الجوهر.

وأيضاً لا أريد أن أناقش حتى هذا الجوهر في هذا الحديث، لأن كل بلد قد يناسبه نظام أو آخر، سواء بجوهر معين أو باسم معين. ولكن النقطة التي أريد أن أصل إليها هي: انعدام فكرة الاستقرار والاستمرار في العالم العربي.

ليس الاستقرار المطلوب لذاته، وليس الاستقرار بمعنى عدم وقوع حوادث، وليس الاستقرار الذي هو نتيجة القمع أو الردع أو القبضة الحديدية في الحكم.

ولكن الاستقرار والاستمرار بمعنى العثور على شكل ما مناسب لظروف البلد، والذي يصبح بالتالي قابلاً للاستقرار والاستمرار مدة طويلة.

لماذا نتحدث عن هذا الاستقرار والاستمرار؟ وما علاقة ذلك باسرائيل وفلسطين؟

العلاقة، أننا يطيب لنا دائماً أن نتحدث عن روابط اسرائيل بأمريكا من نواح كثيرة، تارة باللوبي الصهيوني، وتارة بأصوات الناخبين اليهود، وتارة بالتحالف الاستراتيجي بينها وبين أمريكا. . الخ. ولكن هذه كلها، وإن كانت حقائق، إلّا أنها تعبر عن حقيقة أعمق منها جميعاً. فعندما يتحدث المرء حديثاً حميماً صميمياً مع أي مسؤول أمريكي، يقول لك في النهاية:

«إننا نستطيع أن نتصور اسرائيل بعد عشر سنوات أو عشرين سنة. إنها ستكون نفس اسرائيل التي نعرفها الآن، بمؤسساتها ونظمها واتجاهاتها السياسية وانتماءاتها الدولية بشكل أو بآخر، سواء ذهب فلان أو جاء علان. ولكن هل تستطيع أن تقول لي كيف سيكون شكل العالم العربي بعد عشر سنوات ولا أقول بعد عشرين سنة؟ إننا ـ يستطرد أي أمريكي قائلاً ـ حين نتعامل مع اسرائيل نتعامل مع مستقبل معروف. ولكن حينما نتعامل مع العالم العربي نتعامل مع مستقبل مجهول. وأي دولة حريصة على مصالحها في المدى الطويل تفضل أن تكون العلاقة الأساسية لها مع المعروف، وليس مع المجهول القابل للتغيير في اي وقت».

هذه القضية لا يقولها الأمريكيون لنا فقط، ولكنها النغمة التي تعزف عليها اسرائيل أساساً عند أمريكا، اسرائيل في كل مرحلة تكرر لأمريكا، سواء كانت أمريكا تفكر في

مصالح محلية كالبترول أو طرق المواصلات المائية أو في قضايا كونية في مواجهتها مع الاتحاد السوفييتي، اسرائيل تقول لأمريكا دائماً: «هذا نحن، تعرفون ما نحن عليه وما سنكون عليه. ولكن هل باستطاعتكم أن تقولوا لنا كيف سيكون شكل العالم العربي بعد عشر سنوات؟» هذه النقطة التي تعزف اسرائيل عليها في اذن أمريكا باستمرار، هي العنصر الأساسي الذي يقود الاستراتيجية الأمريكية إلى أن تضع اسرائيل في قمة الثوابت في مخططاتها في المنطقة. وبعد تركيز علاقاتها مع هذا الطرف الثابت، لا بأس من أن تنظر إلى علاقاتها مع الأطراف الأخرى، بشكل أو آخر، على أساس عدم الاطمئنان وعدم الاستقرار.

هذه النظرة إلى بلادنا العربية، على أننا في مرحلة انتقال ومرحلة اضطراب ومرحلة عدم استقرار، ليس بمعنى الاستقرار الأمني الذي يفكر فيه الحكام، ولكن بمعنى استقرار المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، هذه النظرة ليست قاصرة على أمريكا ولكن الشيء نفسه ينطبق على أوروبا الغربية، وينطبق على الاتحاد السوفييتي، أي ينطبق على أهم الكتل المؤثرة في العالم.

الفرق فقط أن أوروبا، لأنها ليست مطالبة كأمريكا بعمل شيء، فهي تستطيع أن تعطينا كلاماً معسولاً أكثر ودعماً معنوياً لا تدفع ثمنه، على أساس أنها في المدى القصير تحصل على بترولها بسلام وبأحسن الشروط، وهذا أيضاً ينطبق على الاتحاد السوفييتي، الذي تعلم من تجاربه مع العرب أن العرب يتحالفون مع الاتحاد السوفييتي لإغاظة الأمريكان وإلى أن يستطيعوا الوصول إلى اتفاق مع الأمريكان، وبالتالي ربما ما زال الاتحاد السوفييتي مستعداً لأن يبيعنا السلاح، ولكن ليس بالمعنى القديم.

إنه يبيعنا السلاح لكي يحصل على ثمنه عملة صعبة مباشرة، أو لكي يحتفظ لنفسه بنفوذ في منطقة أو أخرى في العالم العربي، كجزء من الصراع الدولي بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه لا ينظر إلى أي بلد عربي بمنطق المحادثات الطويلة التي تستمر عشرات السنين، لأنهم يعرفون الشيء نفسه الذي تعرفه أمريكا والذي تردده اسرائيل دائماً، وهو أن أحداً لا يعرف ما سيكون عليه حال الأمة العربية بعد عشر سنوات ولا نقول بعد ربع قرن. وأي دولة مسؤولة لا تفكر في مصالحها السياسية لزمن أقل من ربع قرن في العالم.

وإذا كان جزء من هذا يمكن أن ينسب إلى مرحلة النضج السياسي التي حققنا بعضها ولم نحققها كلها، كدول مستقلة حديثة، ولكن جزءاً أساسياً منه يعود بالتأكيد إلى أشياء أخرى نحن مسؤولون عنها مهما تحدثنا عن درجة النضج أو عدم النضج في مجتمعاتنا بوجه عام.

فيكفي العالم أن يرى الدول العربية عاجزة عن التفاهم على موقف سياسي موحد ازاء قضية يقولون باستمرار إنها قضيتهم المركزية، أو المحورية، إلى آخر هذه العبارات التي فقدت معناها، وأنهم ليسوا فقط غير قادرين على توحيد مواقفهم من هذه القضية المركزية الأساسية المحورية، ولكنهم عاجزون عن اتخاذ موقف موحد من أية قضية من القضايا. قضية الحرب العراقية ـ الايرانية، هناك أكثر من موقف عربي ازاءها. قضية البوليساريو. .

هناك أكثر من موقف عربي ازاءها. فإذا ابتعدنا عن السياسة قليلاً نجد أن الدول العربية عاجزة عن اقامة أي نوع من العلاقة المستمرة في مجال الاقتصاد مثلاً، أو السوق العربي المشترك الموضوع في أدراج الجامعة العربية، كمثل آخر، أو مشروعات التكامل العربي المتراكمة أبحاثها منذ عشرات السنين، أيضاً في أدراج جامعة الدول العربية، ولا يستجيب لها أحد. والعلاقات التي تقطع بين الدول العربية يوماً وتعود بعد أيام قليلة أو أسابيع أو سنوات حسب الظروف.

وإذا كنا نتحدث في صحفنا بلهجة المجاملة أو الرغبة في تخفيف الخلافات أو التغطية على الثغرات، فهذا لا يضلل العالم الخارجي. فالعالم الخارجي يعرف أن هناك أنظمة عربية تعمل على اسقاط أنظمة عربية أخرى، أو أن عنف الخلاف بين نظام عربي ونظام عربي آخر يأتي في المقدمة في ذهن الحاكم قبل خلاف النظام مع اسرائيل أو مع أية قوة خارجية.

وفي النهاية لا بد أن نسأل أنفسنا بنزاهة: هل يمكن فعلاً التنبؤ بخريطة المنطقة العربية بعد عشر سنوات؟ إن المنطقة تغلي بالخلافات بين الدول، وهي خلافات معروفة وظاهرة على السطح. والمنطقة تغلي بالتيارات السياسية التي بعضها ظاهر على السطح وبعضها الآخر مكتوم، ولكننا كلنا نعرف بوجوده. ومن النادر أن نجد في بلد عربي تحوّلات اقتصادية واجتماعية وسياسية، بالمعنى الكبير، أي بالمعنى الذي يقود إلى استقرار واستمرار، بمعنى التوازن، المجتمعي، لا بمعنى كفاءة سلطات الأمن. هل في ظل هذا كله نستطيع أن نرسم صورة للخريطة العربية، سياسية واقتصادية واجتماعية بعد عشر سنوات؟

الفصل الثالث

الصراع العربي - الإسرائيلي

أحمد بهاء الدين ولقاء في القدس

حافظ طوقان(*)

أحسن صنعا المسؤولون عن أمر المركز العربي لبحوث التنمية والمستقبل، ومركز دراسات الوحدة العربية، حينما قاموا بالعمل على نشر نماذج من كتابات المفكر العربي الكبير أحمد بهاء الدين، والتي عبرت بصدق عن العطاء المتواصل على مدى أربعين عاماً، وعكست الفكر العربي في مجالات مختلفة. وهذا العمل تحية خالصة للرجل في ذكرى ميلاده السابع والستين.

بدأ شريط الذكريات يمرُّ أمامي وأنا جالس في مكتبي بمدينة نابلس، إلى جانب الهاتف الذي كنت أستعين به حينما كانت الدنيا تضيق في وجهي، في سنوات الاحتلال الإسرائيلي البغيض، وعلى مدى خمسة وعشرين عاماً، وخصوصاً سنوات الانتفاضة.

كنت أتصل به على الدوام، وأطلعه عبر الهاتف على أحداث هامة وقعت داخل الأراضي العربية المحتلة، ولم تنقل وسائل الاعلام شيئاً عنها، وكنت أطلب رأيه فيها، وكثيراً ما كتب في يومياته في **الأهرام** عن هذه الأحداث، ونتيجة لذلك تعرضت لمضايقات من سلطات الاحتلال. ويمر في شريط الذكريات بداية، اللقاء الأول معه في مكتبه بمجلة **روز اليوسف** في العام ١٩٥٤، وكانت يومها المجلة الأولى في الوطن العربي. وتعددت اللقاءات وتوطدت بيننا علاقة كبرت مع الزمن، وكثيراً ما كنت أزوره في مكتبه بدار **الهلال** بعد أن أصبح رئيساً لمجلس ادارتها، ونقل هذه المؤسسة نقلة نوعية هائلة. كان بيته ومكتبه أشبه بجامعة للشعوب العربية، كتاب ومثقفون وطلبة جامعات من مختلف الأقطار العربية، يجتمعون حوله، يسألونه ويستمعون إليه. أذكر حادثة لن أنساها ما حييت، في شهر نيسان/ابريل من العام ١٩٦٥ وكنت أزوره في مكتبه بدار **الهلال**. حدثته يومها عن مشاهدتي، ولأول مرة، عن القافلة التي تخرج كل شهر مرة واحدة من القدس الغربية، مخترقة القدس

(*) الكاتب الفلسطيني ورئيس بلدية نابلس السابق.

الشرقية عبر شوارعها، لتصل إلى مقر الجامعة العبرية ومستشفى هداسا القديمين، لتغيير عدد من الجنود الاسرائيليين الموجودين هناك، ووفق ترتيب معين نصت عليه اتفاقية الهدنة الأردنية ـ الإسرائيلية، التي تم التوقيع عليها بجزيرة رودس في العام ١٩٤٩.

وصفت له ذلك المشهد الذي رأيته لأول مرة في حياتي، بعد أن مضى عليه ستة عشر عاماً ولم أره من قبل: سيارات إسرائيلية مصفحة، ذات نوافذ صغيرة جداً، بداخلها جنود إسرائيليون لا يستطيع أحد أن يراهم، تتقدم هذه السيارات المصفحة سيارة جيب عسكرية بيضاء اللون، بداخلها عدد من مراقبي الهدنة التابعين للأمم المتحدة يلبسون القبعات الزرقاء ويحملون علم المنظمة العالمية، وسيارة أخرى ومراقبون آخرون مثلهم يستقلون السيارة الثانية التي كانت تسير خلف هذا الرتل من السيارات مع حراسة مشددة على الطريق التي سلكها ذلك الرتل العجيب يقوم بها أفراد من الجيش الأردني، وبترتيب مع رجال الهدنة التابعين للأمم المتحدة، تتم هذه العملية كل شهر.

كان الأستاذ بهاء يستمع إلي باهتمام شديد، وقال لي على الفور: من الضروري أن أزور القدس والضفة الغربية والخطوط الأمامية في وقت قريب. سأكون في بيروت بعد شهر من الآن. سأتصل بك من هناك. واتفقنا أن لا يعلم أحد بأمر الزيارة، لأنه لا يريدها زيارة رسمية، لا سيما وأنه اعتذر أكثر من مرة لمسؤولين أردنيين كبار، لم يتمكن من تلبية أكثر من دعوة وجهوها إليه لزيارة القدس وعمان. وذكر أنه سيبعث إلي ببرقية من بيروت يحدد فيها اليوم وموعد وصوله إلى مطار القدس، وستكون البرقية موقعة باسم «بهاء». وبالفعل وصل إلى مطار القدس مساء يوم العاشر من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٥ وكنت في استقباله وهو يجد نفسه يقف على أرض فلسطين لأول مرة، بعد أن حجزنا له غرفة في فندق الامبسادور في القدس. وأذكر حينما وصلنا مدخل حي الشيخ جراح الشهير، عند مدخل القدس الشمالي، وهو الطريق الموصل إلى مطار القدس ومدينة نابلس مروراً بمدينة رام الله، سألني ما هذا المبنى الذي أراه أمامي، وكانت السيارة تتجه بنا نحوه، قلت: انه الفندق الذي ستنزل فيه، وطلبت إليه أن ينظر نحو الغرب حيث بدت القدس الغربية المحتلة، وبدت معها البيوت ذات الطابع العربي، المسقوفة بالقرميد، والتي اضطر أصحابها إلى تركها بعد معارك القدس عام ١٩٤٨. سألني عن اسم تلك المنطقة وأجبته أنها القدس المحتلة... وهنا طلب إلي أن نتوقف، ونزل من السيارة ليجد نفسه على بعد مئات الأمتار فقط من إسرائيل، التي كتب عنها الكثير، مطالباً بدراستها من الداخل، ومنبهاً إلى مطامعها التوسعية وخطرها، ليس فقط على البقية الباقية من القدس وفلسطين، بل على أمن ومستقبل الأمة العربية بأسرها.

وراح يمعن النظر باتجاه القدس المحتلة، وقد بدت عليه امارات التأثر الشديد، وكان الحزن العميق مرسوماً على ذلك الوجه الذي كان قبل دقائق ضاحكاً ومنشرحاً وهو يقف في مطار القدس، وسط ترحيب حار وعفوي من المسافرين والعاملين، بعد أن تعرفوا إليه، ولن أنسى ذلك الطفل الفلسطيني الذي أقبل عليه وهو يقول: «سلم لي على جمال عبد الناصر وأخبره أن القدس تريد أن تراه».

استمرت زيارته خمسة أيام، زار خلالها الخطوط الأمامية في مناطق القدس وبيت لحم والخليل. وقد رافقته أثناء زيارته للخطوط الأمامية القريبة من الساحل الفلسطيني المحتل، في منطقة طولكرم وقلقيلية، ورأى الوطن المحتل من مسافة أمتار قليلة، لا يفصلنا عنه الا خط الهدنة. تحدث مع الناس الذين كانوا موجودين في تلك المناطق، يقومون بكل شجاعة بزراعة أراضيهم، التي قسمها خط الهدنة والسلك الشائك إلى قسمين، حيث ضاعت أكثريتها منهم وأصبحت داخل فلسطين المحتلة لا يستطيع أصحابها الوصول إليها وهم يشاهدونها كل صباح... !!

قال أحد المواطنين، وكان يقف معنا: انظروا إلى هذه الأرض المزروعة، انها أرضي، وهذا الصوت الذي نسمعه، هو صوت موتور البئر الذي حفرته في العام ١٩٤٦، بعد أن أنفقت على انشائه كل ما أملك، واستدنت من البنوك من أجل ذلك. لقد أخذوا كل شيء وهو جاهز، انهم يكذبون حينما يدعون أن فلسطين كانت أرضاً خراباً، وهم الذين أصلحوها، لقد كذبوا على العالم وخدعوه. وأشار إلى مزارع أشجار الحمضيات وتقدر مساحتها بآلاف الدونمات ومضى يقول: ان برتقال هذه المزارع الذي يصدرونه إلى العالم ويقولون انه انتاج اسرائيلي، هو برتقال فلسطين، الذي اكتسب شهرة عالمية وحمل اسم «يافا»، المدينة التي كانت تسمى بعروس فلسطين، قبل قيام إسرائيل بعشرات السنين وقبل أن يظهر اسم تل أبيب. وقال الرجل: ها نحن هنا بانتظار يوم العودة، وسيأتي هذا اليوم طال الزمن أم قصر. بعد هذه الزيارة المثيرة، والتي وصفها بأنها تحمل الكثير من المعاني والدلالات، قال: «انها كانت ضرورية ومفيدة بالنسبة إلي». قضى يوماً كاملاً في مدينة نابلس، حيث التقى بالعديد من رجالاتها وشبابها الذين عبروا له عن سعادتهم بلقائه، أثناء حفل العشاء الكبير الذي اقامة على شرفه صديقه المرحوم قدري طوقان في بيت آل طوقان الأثري في البلدة القديمة، ذلك البيت الذي كتب عنه أكثر من مرة بعد الاحتلال، حينما كانت تتعرض نابلس للحصار، وبعد أن نسف جزء منه بالديناميت على يد جنود جيش الاحتلال الإسرائيلي، يوم ذبحوا التراث الذي بُني قبل أربعمئة عام بمتفجراتهم. يومها كتب الأستاذ بهاء في شهر آذار/ مارس عام ١٩٨٩، وبعد أن أخبرته عن وقوع تلك الجريمة فقال:

«نقبت في بيتي، في أكداس الصور التي أريدها إلى أن وقعت عيناي عليها، حتى انهمرت دموعي، سيل أوقفته وكبحت جماح نفسي بصعوبة، صور ترجع إلى سنة ١٩٦٥، حينما كنت أزور القدس ونابلس والخطوط الأمامية في الضفة الغربية، قبل حرب حزيران/ يونيو مرة أولى وأخيرة في حياتي، والصور التي أنقب عنها صور لتلك الزيارة المفصلة في حفل أقامه لي صديقي المرحوم قدري طوقان، وزير خارجية الأردن الأسبق ومؤسس جامعة النجاح الوطنية بنابلس، مع رجالات وشباب مدينة نابلس في بيت آل طوقان القديم، وهذا البيت مبني كالقلعة لا تهدمه المدافع، في قلب المدينة القديمة، عمره يناهز عدة قرون، وفيه مكتبة نادرة من أغنى المكتبات في فلسطين كلها، اعتدى الإسرائيليون عليه ونسفوا جزءاً منه، ان استنفار اليونسكو هو أضعف الإيمان».

وطالب أن يرسل اليونسكو على الفور لجان تحقيق لوضع الضفة الغربية وتراثها التاريخي تحت حماية دولية.

وجاء في مقالة أخرى، بعد أن عانت نابلس وأهلها من حصار رهيب استمر بضعة أسابيع، وكان ذلك بعد وقوع الاحتلال بثلاثة أشهر، أي في شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧

وهي بعنوان: «نابلس. . والخبز المر»: «المدن عندي كالأشخاص، هناك الشخص الذي تحبه من أول مرة، وتنجذب إليه من الوهلة الأولى، وكذلك المدن، ونابلس العربية من المدن التي وقعت في حبها من النظرة الأولى، زرتها مرة واحدة وقضيت فيها يوماً أو بعض يوم، وأصبحت على الفور قطعة عزيزة من نفسي، ويوم بكيت المدن العربية وهي تسقط في أيدي العدو، بكيت نابلس بكاء خاصاً، وساعتها قفزت إلى مخيلتي على الفور، كل الوجوه التي عرفتها هناك، وكل المرافق والآثار وكل المشاهد، الحديقة التي تتنزه فيها العائلات على صوت النافورات، بيت طوقان القديم الذي يبلغ من العمر مئات السنين، وكل الذين سهرت معهم حتى الصباح، نتحدث ونتناقش في صحن القصر القديم، الذي يشبه صحن المسجد المكشوف، المباني والشوارع القديمة التي تشعرك وأنت تسير فيها كأنك في الغورية والمغربلين. الآن هذه المدينة الأبية الفخور، تعيش تحت حصار الاحتلال الإسرائيلي، ويتربص في جنباتها الموت، تغلق فيها المدارس، ويصمت صوت النوافير فلا يسمع الناس إلا صوت الرصاص.

أتذكر الوجوه العذبة التي جلست معها حول صواني الكنافة النابلسية الشهيرة نأكل ونضحك، أي خبز مرّ تأكله هذه النفوس الآن؟! ان نابلس في قلب المقاومة والنضال، وهي مركز العذاب».

هكذا كان ارتباط أحمد بهاء الدين بالقضية الفلسطينية وبمدنها وبأصحابها. وكان أول من نادى بقيام دولة فلسطين يوم كان مجرد الحديث في هذا الموضوع جريمة لا تغتفر، وطرح الموضوع على الرأي العام الفلسطيني والعربي، من خلال سلسلة من المقالات كتبها ونشرها على صفحات مجلة المصور، بعد هزيمة حرب حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧، وفتح باب النقاش واسعاً، وشارك فيه عدد من المفكرين المرموقين في الوطن العربي بين مؤيد ومتريث ومعارض أمثال: **وليد الخالدي، أنيس الصايغ، أمين الأعور، الياس سحاب، برهان الدجاني، مازن البندك، كلوفيس مقصود وشفيق الحوت وغيرهم.**

وصدر بعد ذلك كتاب جديد للأستاذ بهاء بعنوان: **اقتراح دولة فلسطين**(١). وقال في مقدمة الكتاب: «إن اقتراح إقامة دولة فلسطين ليس أكثر من المطالبة بإعادة الأمور إلى نصابها، ليس أكثر من المطالبة بأن يعود شعب فلسطين بأهله وقدراته وأرضه إلى الوجود، وإلى مكان الطليعة في هذه القضية بالذات. لقد خسر العرب الكثير جداً في محاولات (التدثر) بأغطية من عدم التفكير في جرأة وشجاعة، يوماً بعد يوم، إلى أن أصبح الرأي العام العربي في ظروف كثيرة، يبدو أشبه بالجسم الذي تعود التدثر والتحصن بالأغطية، حتى ضعفت مناعته وأصبحت أي لفحة هواء تصيبه بالعطب».

وذكر في كتابه الذي نحن بصدده، صفحة ١٥٧، وهو يتحدث في موضوع الطريق إلى دولة فلسطين: «إننا يجب أن لا نخشى المناقشة أو نتهيبها، ولا يجب أن نسمي كل محاولة للتفكير بصوت مرتفع تشويشاً أو بلبلة، وإذا كان السكوت والصمت يعطي (مظهراً) للوحدة والقوة، فإنه كما ثبت أخيراً انما يخفي (حقيقة) من الضعف وعدم الوضوح الفكري، فلنتصور المناقشة والتفكير بصوت عال في أكثر الموضوعات حيوية، ان هذا لا يخلق بلبلة ولا يهزم التصميم أو وحدة الصفوف، انه على العكس يجعل أفكارنا وخطواتنا في حالة تبلور مستمرة، وقد ثبت أن أكبر نقطة من نقاط الضعف العربي العام هو عدم القدرة على الوضوح والنظر إلى الحقائق الأساسية في عينها والتصرف بناء عليها».

ومما قاله أيضاً في الصفحة ١٨٠: «يجب أن تقوم دولة فلسطين تضم ما احتل بعد الخامس من حزيران/ يونيو بالإضافة إلى شرق الأردن، وتكون هي نقطة التجمع والقاعدة والتعبير المباشر عن الإرادة، يجب

(١) أحمد بهاء الدين، اقتراح دولة فلسطين وما دار حوله من مناقشات (بيروت: دار الآداب، ١٩٦٨).

أن يتبع ذلك إعادة شعب فلسطين تدريجياً، وبالاختيار، في ظروف معقولة إلى أرض فلسطين، أي يجب أن يكون الفلسطينيون لفلسطين حتى تكون فلسطين للفلسطينيين، يجب أن يتوقف تبعثر الطاقات الفلسطينية بحكم الضياع وعدم الهوية والمخيمات، وأن يتحول النزوح إلى إقامة وبقاء وتعليم وتدريب وتسليح.

يجب أن لا تستمر الصورة السابقة، إسرائيل تحوّل مهاجرين إلى مواطنين ملتصقين بالأرض، ونحن نحول أصحاب الأرض إلى مهاجرين، هذا هو أول الطريق الحقيقي ووضع الاستعداد السليم».

وبعد ذلك بسنوات قليلة جاء مشروع المملكة العربية المتحدة، الذي طرحه الملك حسين في مطلع العام ١٩٧٢، وكنت يومها واحداً من الرافضين، وهوجم المشروع ورفض على المستوى الرسمي والشعبي على الفور كرد فعل عاطفي قبل أن يدرس ويناقش، واتضح فيما بعد أن الجميع وقعوا في خطأ جسيم وهم يرفضون، بالطريقة العشوائية التي تعودنا عليها، وثبت أننا لم نستفد درساً واحداً من الهزيمة الساحقة التي حلت بنا.

بعد طرح المشروع بأيام قليلة ذهبت إلى القاهرة والتقيت بالأستاذ بهاء وطلبت رأيه فقال: «أتمنى على الله أن يتحقق مشروع المملكة المتحدة وأن نكون هذه المرة أكثر وعياً وادراكاً من السابق وأن لا نتسرع بالرفض».

دهشت من الإجابة وقلت: «يا أستاذ بهاء قبل يومين فقط كان ثلاثة من الإسرائيليين وهم أساتذة كبار في الجامعة العبرية يعملون الآن مستشارين لوزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان لشؤون الضفة والقطاع، ويجيدون اللغة العربية إجادة تامة، وهم مناحيم ملسون رئيس قسم الأدب العربي في كلية الآداب بالجامعة العبرية، وأمنون كوهين رئيس المعهد الآسيوي الافريقي في الجامعة نفسها، أما الثالث فهو ديفيد فرحي أستاذ تاريخ الشرق الأوسط وهو ذو حظوة كبيرة عند ديان ومقرب منه. هؤلاء الثلاثة جاؤوا إلى مدينةنابلس والتقوا برجالاتها، وكنت يومها واحداً منهم، وكان هدفهم اقناعنا بقبول فكرة مشروع المملكة العربية المتحدة، وكان حماسهم بالغاً للمشروع، وكان رفضنا قاطعاً له». قال الأستاذ بهاء على الفور: «لقد أوقعوكم في الفخ الذي نصبوه لكم. ما جاؤوا إليكم إلا لرفض المشروع، وفعلتم أنتم لهم ما أرادوا، وما كانت تريده القيادة السياسية في إسرائيل. قالوا: نحن نؤيد وعندها هم يرفضون. وهذا هو المطلوب، وهذا ما حصل.».

ومضى الأستاذ بهاء يقول: «هناك فجوة كبيرة بين طريقة تفكيرنا وتفكيرهم، هم يدرسون ويخططون، ونحن دائماً متسرعون بإصدار أحكامنا على الأمور وبعدها نندم حيث لا ينفع الندم، وهذا ما سيحصل بعد حين». وذكر لي يومها أنه التقى ليلة أمس مع د. مراد غالب وزير خارجية مصر آنذاك وتحدث معه في أمر البيان الثلاثي الذي وقع عليه مع زميليه وزيري خارجية كل من سوريا وليبيا، والذي أدان المشروع بشدة، فقال وزير الخارجية: «لقد كانت غلطة كبيرة فالبيان لم يكن بمستوى المشروع، ولا يتعدى كونه واحداً من منشورات حزب البعث، وسندفع ثمنها في المستقبل».

وسط هذا الجو الرافض رسمياً وشعبياً خرج أحمد بهاء الدين، بخبرته الطويلة والغنية وبشجاعته الفكرية النادرة، يؤيد المشروع وحيداً وسط عاصفة هوجاء وسيل من الفوضى والارتجال، فكتب سلسلة من المقالات في الأهرام تحت عنوان: «حديث الأحد» وقال في واحدة من هذه المقالات، والتي نشرت في التاسع عشر من آذار/ مارس العام ١٩٧٢: «يجب

أن نسجل أن مشروع الملك حسين الخاص بانشاء (المملكة المتحدة) بدلاً من (المملكة الأردنية الهاشمية) تتكون من أقليم أردني واقليم فلسطيني، قد صيغ بذكاء شديد، وأن التوقيت الذي أعلن فيه قد تم اختياره بدقة كبيرة.

براعة التوقيت جاءت في أنه اختار لإعلانه مرحلة تتلخص ملامحها في عدة أشياء: صمت عسكري عربي شامل، تعثر في كل المبادرات السياسية التي طرحت، توقف في مهمة يارينج مبعوث الأمم المتحدة آنذاك، وفي مباحثات الدول الأربع الكبرى، وفي كل الوساطات الدولية الأخرى، ووصول القيود المفروضة على العمل الفلسطيني إلى أقصى مآزقه بسبب الوضع العربي، وبسبب الانحسار القتالي، وبسبب التفكك الداخلي، وبسبب عدم أي انفتاح أمامه في الأفق من الحلقة المفرغة التي يدور فيها.

هذا هو التوقيت الذي اختاره الملك حسين لإعلان مشروعه الجديد، صمت وحيرة عربيان، ارتباك فلسطيني، ركود دولي، بروز ملامح جديدة لمخطط إسرائيلي شامل، وهو قيام إسرائيل بانتخابات محلية جديدة في الأراضي المحتلة، ومهما قيل في عدم شرعيتها، وعدم قانونيتها، فهي تهدد بابراز أمر واقع جديد، وقد تعلمنا، أو أرجو ان نكون قد تعلمنا، أن وجود كل الحجج الشرعية معنا، ووجود الأمر الواقع مع العدو، معناه أن المحصلة الأخيرة بالنسبة لنا هي الصفر، أما عن براعة «صياغة» المشروع فتكمن أساساً في أنه إذا حوسب بمنطق إزالة آثار العدوان، وتنفيذ قرار مجلس الأمن، فهو لا يخرج عنه ولكنه فعل ذلك بطريقة «الترك» لا بطريقة «التسجيل»، وكما ان هذا هو مكمن البراعة فهو نقطة الطعن في المشروع ومصدر التشكيك فيه.

انه لم يذكر شيئاً فيه خروج على قرار مجلس الأمن «٢٤٢» ولكنه لم يتحدث عن القرار إطلاقاً ولم يؤكد تمسكه بالبنود التي تهم العرب منه، الأمر الذي ترك مجالاً للارتياب والتشكيك. والتساؤل: أينَ هي نقطة الاتفاق يا ترى مع الطرف الآخر، إذا كان هناك اتفاق؟ أو ما هي حدود الأبواب المفتوحة للبحث على الأقل، إذا كان القصد من المشروع مجرد «فتح الباب»؟». وينهي الأستاذ بهاء مقاله بالقول: «إن مفتاح حل قضية الشرق الأوسط كلها، هو حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، وبات مسلماً به أنهم موجودون وان لهم دوراً في حسابات أي مرحلة، ولمعركة يبدو أن هذا المشروع يريد أن يحسمها، وهي من يمثل الفلسطينيين ويتحدث باسمهم وإلى أي مدى..؟ وبغير قيادات واسعة الأفق ومستعدة لاستيعاب كل أطراف ومشاعر الشعب الفلسطيني، سيواجه الفلسطينيون بالمشروع الجديد مذبحة سياسية بعد مذابحهم العسكرية..».

بهذه العقلية النيّرة، وبهذا الأسلوب الواعي كان يعالج الأستاذ بهاء أخطر القضايا وأصعبها، ويأتي لنا بالحل دون تردد أو خوف.

فلو أخذ أهل السلطة والحكم برأي أهل الفكر من أمثال أحمد بهاء الدين، لما أضعنا كل هذا الوقت وخسرنا هذه الخسائر، ولما افتقدنا خيرة أبنائنا من الشهداء الأعزاء الذين ضحوا بحياتهم.

في هذا الصدد أشير إلى المقال الذي كتبته في مجلة المصور بتاريخ ١٢ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٩١ بعنوان: «أحمد بهاء الدين ويوميات هذا الزمان» وذكرت فيه موقف الأستاذ بهاء من مشروع المملكة العربية المتحدة قبل عشرين عاماً من الآن، وثبت أنه كان الموقف الصحيح، وأنه كان محقاً حينما قال: سنندم على هذا الرفض حيث لا ينفع الندم، فقد حملت المقال، بعد نشره، إلى الصديق الأستاذ عدنان أبو عودة رئيس الديوان الملكي الهاشمي بعمان آنذاك، وكان واحداً من الذين استعان بهم الملك لإعداد المشروع، وطلبت إليه أن يطلع جلالته على رأي الأستاذ بهاء قبل عشرين عاماً، يومها قال الأستاذ أبو عودة:

«إن أحمد بهاء الدين من المفكرين العرب المرموقين، ميزته أنه كان سابقاً الجميع بتفكيره عشرين سنة على الأقل». واعلمني بعد ذلك أنه أطلع الملك حسين على المقال وقال لي: «إن جلالته يكن للأستاذ بهاء تقديراً واحتراماً خاصين».

نأتي الآن إلى مرحلة جديدة من مراحل نضاله، وبعد أن أقعد المرض أحمد بهاء الدين في شهر شباط/ فبراير من العام ١٩٩٠ وفرض عليه عزلة إجبارية بعد أن توقف قلمه وغابت عنا كتاباته وآراؤه في زمن كنا أحوج ما نكون فيه إلى فكره وبعد نظره ورؤيته الثاقبة الصائبة. وقلنا يومها مع القائلين «وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر».

ثلاث سنوات مرت على هذا الوطن العربي، شهد خلالها من الأحداث الجسام، ما لا تقل خطورة عن الأحداث التي سبقتها، والتي هزت كيان وضمير هذه الأمة، وما زلنا نعاني من آثارها الخطيرة والسلبية حتى الآن، وسنظل كذلك لسنوات أخرى قادمة، بدءاً بقرار التقسيم الجائر العام ١٩٤٧ الذي أضاع فلسطين وشرد شعبها في العام ١٩٤٨، مروراً بجريمة الانفصال في العام ١٩٦١، هذه الجريمة النكراء التي أعادت الأمة العربية إلى الوراء مئة عام على الأقل، والتي لولاها لما كانت هزيمة العرب جميعاً في حرب حزيران/ يونيو من العام ١٩٦٧، تلك الجريمة التي جرّت وراءها كل هذه المصائب والنكبات، فوصلنا إلى ما وصلنا إليه في هذه الحقبة المأسوية من تاريخنا.

ويمكننا القول بأنها كانت حقبة التخلف العربي وحقبة القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي التي أعطاها أحمد بهاء الدين كل عمره وجهده وعقله وكانت شغله الشاغل على مدى أربعين عاماً، فقدم لها قمة عطائه من خلال عشرات الكتب والندوات ومئات المقالات التي تناول بها القضية الفلسطينية، وحاضر ومستقبل أمته، بأسلوبه الحكيم والمبسط والمتميز.

في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٩٠، وتحديداً في الرابع عشر منه، خرج اسحق شامير، وكان رئيساً لوزراء إسرائيل وزعيم الحزب الحاكم فيها، ليعلن أمام العالم بكل صراحة ووضوح ويقول: «إن هجرة اليهود السوفييت وبأعداد كبيرة قد بدأت وان هذا الوضع الجديد يتطلب «إسرائيل كبرى»»، وأضاف: «إن قدومهم إلينا معجزة أنقذت الشعب اليهودي. وأن الانتفاضة لن تستطيع ايقاف تدفق أبناء شعبنا نحو أرضهم ووطنهم»...!!

هذا الحدث الخطير الذي أعلن عنه رسمياً، وبصورة علنية على لسان شامير، جاء قبل أن يداهم المرض أحمد بهاء الدين بشهر واحد، وسرعان ما أدرك أبعاد ومخاطر ذلك الحدث الذي أطلق عليه اسم «جريمة العصر». في تلك الأثناء كنت موجوداً في عمان واتصلت هاتفياً بالأستاذ بهاء وتحدثت معه في هذا الأمر الخطير، وذكرت له أنني كتبت مقالاً نشر صباح ذلك اليوم في صحيفة الدستور الأردنية، وكان ذلك في السابع عشر من كانون الثاني/ يناير من العام ١٩٩٠ بعنوان «الأمن القومي للأمة العربية في خطر» وذكرت فيه أن أقوال شامير حول هجرة اليهود السوفييت خطيرة ويجب أن تؤخذ وعلى مستوى الوطن العربي بجدية كاملة،

ومن الخطأ القاتل الاستهانة بها وعدم التصدي لها، وأن وقوفنا منها موقف المتفرج أشبه بعملية انتحار جماعية.

في تلك الأثناء، الأيام الأخيرة من شهر كانون الثاني/ يناير والأولى من شهر شباط/ فبراير، وقبل أن يداهم المرض أحمد بهاء الدين وينهك قواه، كان مدركاً أكثر من غيره مخاطر ذلك الحدث الذي أسماه «جريمة العصر» ومدى خطورته على مستقبل هذه الأمة فأصبحت شغله الشاغل، فقرر أن يقود بنفسه الحملة المضادة وعملية التصدي، فكتب العديد من المقالات وفتح في يومياته بالأهرام باب النقاش على أوسع نطاق والذي شارك فيه عدد من الشخصيات العربية وخصوصاً من أبناء مصر منهم: حسين الشافعي عضو مجلس قيادة الثورة المصرية ونائب رئيس الجمهورية إبان عهد الزعيم الخالد جمال عبد الناصر، وطلال بن عبد العزيز الذي تبرع بمليون دولار لمواجهة الكارثة الجديدة، والسفير صلاح دسوقي والمحامي عادل علوبة وعلاء أبو زيد عضو المنظمة العربية لحقوق الإنسان وغيرهم.

وكان آخر عمل وطني وانجاز فكري للأستاذ بهاء، هو ذلك البيان الرائع الذي أعده وكتبه بخط يده ودفع من ماله الخاص لصحيفة أخبار اليوم القاهرية الأجر لنشر البيان، وكان على صفحة كاملة، وقد وقع عليه عدد من الشخصيات المصرية من كبار الكتاب والسياسيين والصحفيين والفنانين بلغ عددهم ثمانية وثمانين من أصل مئة، وقبل أن يكمل عملية الحصول على التواقيع المتبقية، وبعد أن بذل جهداً شاقاً وخارقاً، سقط على الأرض فاقداً الوعي.

حدثتني السيدة الفاضلة زوجته كيف هوى أمامها على الأرض، وهو ممسك بالبيان الذي أعده، والذي أدان فيه من ارتكبوا جريمة العصر وخصوصاً الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة والمجتمع الدولي المتفرج، وباليد الآخر كان يمسك سماعة التلفون وقد أوشك على الانتهاء من آخر عمل وطني وقومي، بعد أن تصدى لهذه الجريمة وقاد الحملة ضدها بكل الوسائل التي كان يملكها بعد أن فقد صحته، وكاد أن يفقد حياته لولا لطف الله.

وبعد أن روت لنا شريكة حياته ورفيقة دربه تفاصيل تلك الساعات العصيبة وما تلاها من أيام كانت بالغة الخطورة، وهو فاقد الوعي بالكامل، وكنا نجلس في غرفة أعدت خصيصاً لاستقبال الزائرين، وقد أخذتنا الصدمة جميعاً، قلت يومها للجالسين، وكان الألم يعتصر كل واحد منهم: «سيذكر التاريخ يوماً أن أحمد بهاء الدين كان فارساً من فرسان القضية الفلسطينية، سقط عن جواده وهو يناضل في ساحة المعركة ويقود معركة من أخطر معارك أمته ووطنه، وهو يرى جريمة كبرى ومؤامرة دولية أخرى تحاك ضد الشعب الفلسطيني وقضيته التي تكالبت عليها قوى الشر الكبرى، خدمة لمصالحها الاستعمارية، بالإضافة إلى تهديد حقيقي لسلامة كل مواطن عربي، مهما كان بعيداً عن ساحة المعركة. انه الفارس الشجاع صاحب القلم النظيف والضمير النقي والنفس الأبية والشجاعة الفكرية النادرة».

عرفته منذ أربعين عاماً لم يتزحزح عن المبادىء التي آمن بها وعمل من أجلها قيد أنملة، ودفع في سبيل ذلك الثمن وكان باهظاً، وكثيراً ما كان على حساب صحته وسلامته الشخصية، وهذا ما أكسبه الاحترام والتقدير حتى في نفوس من حاولوا الإساءة إليه والتطاول عليه محاولين عبثاً النيل منه.

وهذا الوضع العربي المتردي والبالغ السوء، وتلك النهاية المفجعة والمأساوية لحرب الخليج، هي التي أوصلتنا إلى مدريد، فكان الطريق سالكاً والجو مهيأ فانعقد مؤتمر مدريد للسلام، في أضخم تظاهرة عالمية واعلامية، وجلست الوفود العربية المشاركة وجها لوجه أمام الوفد الإسرائيلي برئاسة اسحق شامير نفسه، الذي أبعد وزير خارجيته ديفيد ليفي عن المؤتمر، وبعد أن فرض شروطه على راعيي المؤتمر بأن لا يحضر أي مسؤول من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، فتحدث يومها نيابة عن الشعب الفلسطيني د. حيدر عبد الشافي ود. حنان عشراوي أمام العالم عبر وسائل الإعلام المختلفة، ونالا يومها أعجاب وتقدير العالم بأن شاهدهما واستمع إليهما مئات الملايين من مختلف أنحاء العالم وهم يتابعون أحداث ذلك المؤتمر التاريخي.

وقبل أن تنتهي الجولة الحادية عشرة من المفاوضات التي عقدت في مبنى وزارة الخارجية بواشنطن بتسعة شهور، وفي مطلع هذا العام ١٩٩٣ كانت تشهد إحدى ضواحي العاصمة النرويجية أوسلو مفاوضات فلسطينية - إسرائيلية من نوع آخر، أحيطت بسرية تامة بدأت وانتهت بعيدة عن الأضواء وعن وسائل الإعلام، وبدأت عملية تسريب الأخبار شيئاً فشيئاً. وإذا بنا نقف أمام أحداث يوم الاثنين الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر من العام ١٩٩٣ والذي أطلقوا عليه اسم يوم الاثنين العظيم، نرى ونسمع ولا نكاد نصدق ما يجري أمامنا من وقائع ذلك الحدث الكبير، الذي وصفه الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بأنه من أكبر الأحداث التي شهدها العالم في القرن العشرين، وإذ بآخرين يشبهون ما وقع بالزلزال الكبير الذي هزَّ الدنيا بأسرها.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن حالة اليأس والاحباط التي تعيشها المنطقة العربية، ودخول الانتفاضة عامها الخامس بكل هذا الزخم وهذه التضحيات قد ساعدت على تعاظم المدّ الإسلامي، ليس على أرض فلسطين في الضفة والقطاع فحسب، بل وعلى أرض دول عربية أخرى، وهذا ما فرض على الولايات المتحدة، وبعد أن انفردت في العالم كقوة عظمى وحيدة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، أن تضع القضية الفلسطينية على رأس سلم أولوياتها بالنسبة لأكثر قضايا العالم أهمية، وذلك من أجل خدمة مصالحها وحفاظاً على كيانها، وبعد أن تراجع اقتصادها بدرجة كبيرة في الداخل والخارج.

بعد أن انتهينا من مشاهدة ذلك الحدث التاريخي المذهل وأخذنا نلتقط أنفسنا شيئاً فشيئاً، سألني صديق كنا نشاهد واياه ما بثه التلفاز لنا وللعالم أجمع من إحدى حدائق البيت الأبيض، ويكاد كل واحد منا يسمع دقات قلب الآخر:

هل تعتقد أن الصراع العربي الإسرائيلي قد انتهى، وأن كامل فلسطين لنا، وإسرائيل الكبرى بالنسبة لهم قد انتهت وان صفحة عمرها مئة عام قد طويت لتأخذ بدلاً منها صفحة جديدة ومختلفة؟

قلت للصديق: علينا أن لا نسرف في التفاؤل أو التشاؤم، وأن لا ندع العاطفة تتغلب على العقل وعلينا، وأن لا نستبق الأحداث لأنها أكبر منا جميعاً، وأمام هذا المنعطف الخطير

تـذكرت أحمـد بهاء الـدين وقلت للصديق: إننـا بحاجـة إليه فهـو أقدر من يجيب عـلى هـذه التسـاؤلات، أنا أعلم أنـه يوجـد في الأمـة مفكـرون لهم وزنهم ولهم احـترامهم يستـطيعـون الإجـابة، ولكن من الصعب أن نجـد واحداً يملك الشجـاعة الفكـرية التي كـان يتحـلى بهـا الرجل. انه لم يتردد يوماً أن يجهر برأيه وأن يدافع عنه دفاع الأبطال.

نادى بإقامة دولة فلسطينيـة بعد هـزيمة ١٩٦٧، وكـانت مثل تلك المنـاداة تعتبر خيـانة وربما تكلف صاحبها حياته.

قَبِلَ مشروع المملكة العربية المتحدة ودافع عن وجهة نظره في وقت هاجمت فيه الأنظمة والشعوب هذا المشروع وتبين بعد فوات الأوان صواب الرجل وخطأ الآخرين.

لم يـتردد يومـاً بقول الحقيقـة وإن كانت تغضب الشـارع ولا تلقى قبـولاً لـدى الـرأي العام، كان في تفكيره وطريقة تحليله للأمور سابقـاً الكثيرين من أهـل الحكم والقلم بسنوات وسنوات.

أقول بكل تواضع، لقد تأثـرت كثيراً بمـدرسة أحمـد بهاء الـدين الفكريـة وتعلمت منها الكثير. لقد سمعته مرات عديدة وهو يتحدث عن الصهيونية العالمية كـونها حركـة توسعيـة، وكيف كان يحذر من خطرها وأطماعها في المزيد من الأرض العـربية، وكيف أن هـذه الحركـة تتبع سياسة القضم والهضم ضمن جدول زمني مدروس، وأن لها مخططاتها وأسـاليبها، بغض النظر عن الحزب الحاكم في اسرائيل، سواء كان العمل بقيادة بن غوريون أو رابين أو التكتل بقيادة بيغن أو شامير، فالحزبان الكبيران هناك وجهان لعملة واحدة.

وقلت للصديق: حينما تسألني هل انتهى الصراع العربي - الإسرائيلي بعد اليوم أقـول: من واجبنا أن نكون حذرين ومتيقظين على الدوام، ان هجـرة اليهود وخصـوصاً يهـود الاتحاد السوفييتي لن تتوقف وستبقى مستمرة وهذا معناه أن الخطر سيظل قائماً.

ستستمر الهجرة دون تـطبيل أو تـزمير بـل بهدوء مصـطنع عـلى خلاف مـا كانت تفعله حكومة شامير السابقة، وهـذا هو أسلوب حـزب العمل، وهـو بنظري وبتجـربتي المتواضعـة خـلال ربع قـرن عشتها تحت نـير الاحتلال الإسرائيـلي، أخطر علينـا من التكتل لأنـه يتبـع أسلوب التـلاعب بالألفـاظ ويمارس لعبـة المناورة والمـداورة، وحينما تـأتي ساعـة فرض الأمـر الواقع، يكون الأكثر قسوة والأشد بطشاً. ومـا حوادث قتـل الأطفال وتـدمير المنـازل بمدافـع الدبابات وعمليات الابعاد الجماعية إلى مرج الزهور التي مارستها حكومة حزب العمل برئاسة رابين في سنتها الأولى، إضافة إلى أسلوب المماطلة والتعطيل الذي اتبعـوه في المفاوضـات التي جرت في واشنطن، ما كل ذلك إلا دليلاً واضحاً على صحة ما نقول.

ومن حقنا أن نفكر ونتساءل: هل تتسع هذه الـرقعة من أرض فلسـطين التي هي الآن بحوزتهم لهذه الملايين الجـديدة من المهـاجرين اليهـود إن هم قدمـوا إليها؟ الجـواب المنطقي يقول: لا. الا يحتاج هؤلاء القادمون بهذه الاعداد الضخمة التي يريـدها قـادة إسرائيل، إلى مزيد من الأرض والمياه؟ الجواب المنطقي يقول: نعم.

هل تستطيع إسرائيل ان تستورد أرضاً وماء من الخارج لهؤلاء اليهود الذين تطلب منهم القدوم إليها؟

الجواب المنطقي يقول: لا.

التوسع إذاً سيكون على حساب الأرض والمياه العربية... الذي أريد أن أقوله: إننا نحن الفلسطينيين، المؤيدين منا والرافضين، وجدنا أنفسنا ونحن نركب هذا القطار الذي أعد لنا ولم تجد القيادة الفلسطينية حلا سواه في هذه الظروف التي وصلت درجة من السوء قلما وصلنا إلى مثلها، ان لا خيار لنا سوى أن نركب هذا القطار الذي اتفق العالم عليه ويعطيه الآن قوة دفع لتجعل من المستحيل ايقافه في الوقت الحاضر، فعلى المؤيدين والرافضين والمتحفظين، وأنا واحد منهم، وإن كنت لا أقر بعضاً من مواقف الرافضين ولكنني أحترم معارضتهم إذا كانت ستندرج في اطار الصالح العام وبالاسلوب الديمقراطي والحوار البناء، أن نعمل معاً وأن يحترم كل فريق منا اجتهاد الفريق الآخر، وانها لظاهرة صحية أن تتعدد الآراء والاجتهادات، ولكن علينا أن نتخلص وبسرعة من طريقة العمل التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه. فالسنوات التي سبقت حرب حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧ ومقدمات تلك الحرب هي التي جاءت بكل هذه المآسي والنكبات التي حلت بنا وعانينا منها وسنظل نعاني لسنوات أخرى قادمة، فطريقة عملنا كانت خاطئة ومدمرة، حيث اننا لم نتعلم شيئاً من أخطاء الماضي ولم نأخذ منها درساً واحداً، بل ان أوضاعنا ازدادت سوءاً، وخلافاتنا ازدادت حدة، وانقسمنا على أنفسنا أكثر فأكثر على امتداد وطننا العربي الكبير، وخصوصاً في صفوفنا نحن أبناء الشعب الفلسطيني، فتحولت مجموعات من أبناء شعبنا المنكوب والمشرد إلى شيع وأحزاب،وكثيرون منهم من وجدوا أنفسهم محسوبين على بعض أنظمة الحكم العربية ويأتمرون بأمرها، فتجمعت في الساحة الفلسطينية كل بذور الشقاق والانقسام وأصبحت هذه الساحة مسرحاً لخلافات وتناقضات تلك الأنظمة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه لدرجة أن أشهر الفلسطيني سلاحه بوجه أخيه الفلسطيني واستحكم بينهما العداء، وقد أسهم هذا الوضع الفلسطيني المتردي اسهاماً كبيراً في ايصالنا إلى ما وصلنا إليه اليوم. والآن علينا أن نسأل أنفسنا السؤال الكبير أمام هذا الوضع الجديد وهذه الأحداث والمتغيرات التي تسير بسرعة مذهلة:

ما العمل لمواجهة كل ذلك؟ فالقطار بدأ يتحرك شئنا أم أبينا، ومن الصعب بل من المستحيل ايقافه. اننا نقف اليوم كعرب وفلسطينيين في هذه المرحلة أمام خصم يعرف عنا كل شيء ولا نعرف عنه إلا القليل، خصم آمن بالتخطيط وبالعمل الجماعي ونحن ما زلنا منقسمين نتخبط في الفوضى والارتجال. ولكن علينا أن لا ننبهر بهم أكثر من اللازم وأن لا نخشى مواجهتهم، وباستطاعتنا أن نقف أمامهم إذا ما تعاملنا معهم بالطريقة نفسها والعقلية التي يتعاملون بها مع الأحداث. وان لدينا من الامكانات والقدرات التي تمكننا إذا ما أحسنا استغلالها، من التفوق عليهم في العديد من المجالات، والدليل على ذلك حرب تشرين الأول/ اكتوبر عام ١٩٧٣ التي خطط لها العرب جيداً، وأديرت بالأسلوب العلمي، وتمكن

الجندي العربي خلالها من استعمال أحدث الأسلحة المعقدة والمعدات الالكترونية، يومها أوشكت إسرائيل على الانهيار وبعثت جولدا مئير ببرقياتها الشهيرة إلى الرئيس الأمريكي نيكسون وقالت فيها: استسلم لكم أم للعرب؟!

علينا إذن أن لا نكون خائفين أو مترددين بل واثقين من أنفسنا. ان الإعداد لمعركتنا القادمة يجب أن يتم بروح تشرين الأول/ اكتوبر العظيم، تضامن عربي وفلسطيني كامل، والاتفاق على وحدة الصف والهدف وحشد الخبراء والمختصين، وانشاء مراكز للدراسات والبحوث تدرس فيها إسرائيل من الداخل دراسة واعية ومستنيرة، إننا بحاجة إلى غرفة عمليات لتدير المعركة القادمة، فمطامع إسرائيل في هذه المرحلة ليست من النيل إلى الفرات، كما كانت، بل من الخليج إلى المحيط، انها تخطط لاكتساح وطننا العربي هذه المرة اقتصادياً، وسيكون التحدي الحضاري، المعركة الفاصلة، فغرفة العمليات التي ذكرناها يجب أن تضم علماءنا وخبراءنا في علم التاريخ والجغرافيا والبيئة والاقتصاد والتربية والتعليم، وأن نُدخل اللغة العبرية كمادة أساسية في مناهجنا التعليمية، وأن نشجع الدراسات العليا في الشؤون الإسرائيلية، مضافاً على ذلك خبراء في الشؤون السياسية والعسكرية.

إن دراسة إسرائيل من الداخل دراسة جادة ومعمقة، فكرة نادى بها أحمد بهاء الدين قبل هزيمة حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧ بسنوات وهو القائل في مقدمة كتابه ـ إسرائيليات، الذي طبع ونشر عدة مرات: «إن إسرائيل لا تقنع بما حققت بل انها لا تكف عن طلب المزيد من المهاجرين، وعينها دائماً على المزيد من الأرض العربية بهدف التوسع».

إسرائيل بهذا المعنى المباشر الماثل للعين المجردة تتحدث كل يوم وكل ساعة، ولكن الذي لا تتحدث عنه كثيراً ولا نتوقف عنده إلا نادراً، هو إسرائيل بمعنى التحدي الحضاري الذي تنطوي عليه.. التحدي الحضاري لهذه الأمة العربية، فقد كان قيام إسرائيل بحد ذاته علامة من علامات ضعف المنطقة العربية وتخلفها الحضاري. والكيان العربي الذي يستطيع أن يواجه تحدي إسرائيل ويتخطاه، ليس مجرد حشد عسكري قوي أو عمل سياسي بارع، ومع أن هذه أيضاً عناصر هامة، ولكن الأهم منها أن يكون هذا الكيان العربي نفسه مستكملاً سائر أسباب القوة الحضارية، من تقدم مادي ومعنوي وثقافي وعلمي. المطلوب أن تكون الجبهة التي نواجه عليها إسرائيل أوسع من الكيلومترات التي تتكون منها حدودها الجغرافية، لأن هذه بالفعل، شئنا أم أبينا، أطول من هذه الحدود وأعمق بكثير.

إن أكثر ما يجب أن ننتبه إليه وأن نضعه دوماً نصب أعيننا هو خطر التوسع الصهيوني واستمرار هجرة اليهود وخصوصاً يهود الاتحاد السوفييتي السابق، فقد وصل من هؤلاء إلى إسرائيل في النصف الأول من هذا العام عشرات الألوف، من بينهم ١٦٤٠ عالماً في مختلف التخصصات وفق ما جاء في احصائية نشرتها العديد من الصحف الإسرائيلية في شهر آب/ اغسطس من هذا العام ١٩٩٣.

أمام هذه الأخطار، وهي مصدر تهديد للأمة العربية بأسرها، يجب العمل على تكثيف العنصر البشري الفلسطيني في الضفة والقطاع، وأن يلازم هذا التكثيف البشري كل ما

تتطلبه هذه العملية من بنية تحتية ومرافق عامة ومشاريع سكنية اضافة إلى المشاريع الصناعية والزراعية والسياحية، وأن يقام كل ذلك وفق خطة مدروسة، وبالأسلوب العلمي، حتى نخلق مجتمعاً فلسطينياً جديداً يكون قادراً على استيعاب المرحلة المقبلة، وأن يكون ملتصقاً بالأرض حتى يصعب اقتلاعه منها مرة أخرى. ومثل هذا المجتمع الفلسطيني يجب أن تقام مجتمعات أردنية وسورية ولبنانية مماثلة في المناطق المحاذية لحدود فلسطين الدولية أيام الانتداب البريطاني، والتي كانت تشكل جميعها قطراً عربياً واحداً عرف بـ «بلاد الشام» قبل أن تحولها بريطانيا وفرنسا إلى أربعة أقطار، خدمة لمصالحهما الاستعمارية.

إننا لا نريد أن نضع على حدود إسرائيل الجيوش بمعداتها العسكرية، بل سنأتي بمعدات البناء واصلاح الأرض واستغلال المياه من أجل مستقبل أفضل لأطفالنا ولأطفالهم.

إن من حقنا أن ندافع عن أنفسنا أمام أخطار محتملة، بأن نقيم شبكة من المشاريع السكنية والصناعية والزراعية يسكنها ويديرها مئات الألوف من مواطنينا، وبذلك يمكننا أن نواجه أخطر تهديد نتعرض له، وتكون هذه الحدود العربية، الفلسطينية والأردنية والسورية واللبنانية، خط الدفاع الأول عن الأمة العربية بأسرها والركيزة الرئيسية للأمن القومي العربي، وعلى هذه الأمة جميعها أن تتقدم وتشارك بالمال والرجال والعقول والخبرات، ويخطىء من يظن أن الخطر بعيد عنه ولن يصل إليه، فالمعركة هذه المرة معركة حضارية وسيلعب الاقتصاد فيها دوراً رئيسياً، وستكون الساحة هذه المرة ممتدة من الخليج إلى المحيط.

ولا بد لنا ونحن ننهي هذه المقدمة، أن نقول شهادة للتاريخ وللأجيال القادمة من بعدنا، ان أحمد بهاء الدين كان أول مفكر عربي نادى بدراسة إسرائيل من الداخل، بالأسلوب العلمي والعقلاني، ونبّه إلى أن معركتنا معها ليست سياسية وعسكرية فحسب، بل هي معركة تحدٍ بين حضارتين. أولاً وقبل كل شيء ان علينا أن نفهم العوامل القديمة والجديدة التي تدخل في تكوين هذا التحدي، وندرك أن إسرائيل أكبر وأوسع من الكيلومترات التي تتكون منها حدودها الجغرافية...!!

وأود هنا أن أسجل أنه من حق الأجيال القادمة من بعدنا أن تقرأ فكر أحمد بهاء الدين وتدرسه وتتعلم منه. لقد كوّن مدرسة فكرية خاصة امتازت ببعد النظر والرؤية الواضحة والصحيحة والشجاعة الفكرية.

مرة أخرى أقول: إن المركز العربي لبحوث التنمية والمستقبل، وبالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، يستحقان الشكر وهما يقدمان للأمة العربية خدمة كبيرة ونافعة من خلال هذا الكتاب الذي سيعبر عن تطور الفكر العربي في المجالات المختلفة، والتي كتبها الأستاذ بهاء في ظروف مختلفة، ولم تجمع في كتاب واحد من قبل.

إن من حق الأجيال القادمة من بعدنا أن تقرأ أفكار أحمد بهاء الدين التي طرحها في هذا الزمان الرديء الذي نعيشه هذه الأيام، حتى يعلموا أنه لو أخذ أهل الحكم والسلطة برأي أهل الفكر من أمثال الأستاذ بهاء لما وصل حالنا إلى ما وصل إليه ولما تعذبت هذه

لأجيال العربية كل هذا العذاب، ولما خسرت الأمة كـل ما خسرتـه، والذي كـان بالإمكـان تجنب الكثير منه.

إن كتابات أحمد بهاء الدين التي التزمت بالصدق والأمانة والوعي الدقيق، ستعتبر تراثاً تاريخياً ضخماً لهذه الأمة، بكل ايجابياتها وسلبياتها، وستكون خير مرشد لمن سيقرأون التـاريخ لعربي المعاصر من أجيالنا القادمة من بعدنا.

نَمَاذِجُ مختَارَة مِنَ المقَالات

١ - إسرائيل أولاً . .
أم قناة السويس؟(*)

هذا سؤال، ألقاه الاستعمار، في سماء العرب! . .

ظهر هذا السؤال في صحف الاستعمار، وعلى لسان أذنابه، عندما أفزعهم الالتفاف العربي حول قضية قناة السويس، والصدور التي التحمت حول القناة تحميها، عندما صوب الاستعمار إليها حرابه!

وحكمة إلقاء هذا السؤال، هي نفس الحكمة في اعتداءات إسرائيل المسلحة على الأردن. . . والذين يطرحون السؤال يؤدون نفس الدور الذي يؤديه جنود إسرائيل عندما يقتلون العرب، ألا وهو زعزعة الصفوف، وتفكيك الوحدة، وايجاد نقطة للشقاق والخلاف. .

على أننا لا نخشى مجابهة السؤال! وهو لا يحرجنا كما قد يظنون!

ان قضية إسرائيل قائمة منذ زمن بعيد، منذ تسع سنوات على الأقل. وفي خلال هذه المدة شهد الشرق العربي أحداثاً كثيرة. . أحداثاً كالثورة في مصر، وكسقوط الشيشيكلي في سوريا، وكمؤتمر باندونج وجلاء الانجليز عن مصر، وطرد جلوب، ومشروع الوحدة بين سوريا ومصر، ورفض حلف بغداد، وتأميم القناة. .

كانت هذه كلها أحداثاً هامة دعمت صفوف العرب، وأثارت غضب الاستعمار علينا، فهل كان مطلوباً منا أن يتجمد تطور البلاد العربية وتحررها في كل الميادين، لأن مشكلة إسرائيل ما زالت قائمة؟

إن كل تطور يقوي البلاد العربية، ويدعم استقلالها، هو جدار في وجه تمدد إسرائيل، وخطوة نحو خنقها. وإذا كان هناك دمل في الجسم ولم يأت الأوان لأن يفقأ، فالطبيب يقوي الجسم بأدوية تقوي مناعته، وتطهر خلاياه، وتعزل جرثومة المرض وتضعفها. .

(*) صباح الخير (١١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٦).

وعندما نرجع إلى الأسباب الأساسية لهزيمة فلسطين، فإننا نجدها في: الاستعمار!.. في سيطرته على تسليح جيوشنا، وقيادته المباشرة لجيش الأردن، وتآمره مع القادة والحكام الذين يعيشون من مصالحه. فكل بلد تنزع هذا الشوك من لحمها لا تكون بذلك قد انصرفت إلى معركة داخلية خاصة بها، انما هي تطهر الجسد العربي كله..

ثم تعالوا ننظر إلى أصل مشكلة قناة السويس: ان الواضح المؤكد الذي لا يختلف فيه اثنان هو أن حملة الدول الاستعمارية علينا ليس سببها تأميم قناة السويس، ولكن الغرض منها تدمير سياسة مصر الاستقلالية، الحيادية، التي برزت بقوة في رفض حلف بغداد، وعقد صفقة الأسلحة. الدول الاستعمارية منذ ذلك الوقت تريد تدمير سياسة مصر، فعمدت إلى سحب عرض السد العالي، والتشهير بسمعة مصر المالية، الأمر الذي أدى إلى تأميم القناة.. فهل يذكر الأذناب لماذا عقدت مصر صفقة الأسلحة؟

لقد عقدتها عندما اعتدت إسرائيل على مصر، عقدتها لكي تقلب ميزان القوى في الشرق العربي إلى صالح العرب بعد أن كان في صالح إسرائيل.

إن مصر لا تتعرض للخطر بسبب قناة السويس.. انها تتعرض للخطر بسبب السياسة التحررية، وبعث القومية العربية، وكسر تفوق إسرائيل العسكري! فليعارض المعارضون هذه السياسة صراحة! فليقولوا انهم ما زالوا يؤمنون بضرورة التبعية للغرب.. الغرب الذي أوجد إسرائيل!!

٢ ـ كتيبة المؤخرة!(*)

لا يمكن أن توصف إسرائيل وصفاً أدق من الوصف الذي قاله الرئيس عنها أمس: انها الطعم المأخوذ من طين البرك، لكي يستخدم ضدنا!..

إن التاريخ لا يذكر دولة قامت بدور أتعس من هذا الدور الذي تقوم به إسرائيل!

ان الجريمة التي أرتكبت بخلق إسرائيل أعمق من مجرد ايجاد دولة مصطنعة.. وأعمق من مجرد تشريد مليون عربي وتحويلهم إلى لاجئين، وأعمق من مجرد شن عدوان مسلح غادر من حين لآخر، كلما أشار لها الأسياد.

إن الجريمة أعمق من هذا كله.. إن الغاية الأساسية منها هي تعطيل حركة التطور العربي كلها، بوضع هذا اللغم في طريق التطور. فبفضل وجود إسرائيل تعيش الدول العربية في حالة حرب، وتنفق على جيوش كبيرة، وتعتمد ميزانيات تسلح ضخمة، وتصطدم بمشكلات مع الدول الأخرى تارة، وفي ساحة الأمم المتحدة تارة أخرى.

كل هذا لكي يؤخر وحدة الأمة العربية، ويؤخر تصنيعها، ويؤخر تحويل مجتمعها إلى مجتمع تقدمي قوي.. وذلك بجعل العرب يعيشون في حالة حرب باردة دائماً.. وحرب ساخنة أحياناً!

ولكننا استطعنا أن نجعل من وجود إسرائيل سبباً للقوة لا سبباً للضعف، وضرورة تملي علينا الوحدة.. لا التفرقة!

إن إسرائيل هي كتيبة المؤخرة في جيش الاستعمار المنسحب! تدافع عن مواقعه الأخيرة في الشرق العربي! ولا مصير ينتظرها إلا مصير المؤخرة في أي جيش منسحب!

(*) الشعب، ١٩٥٩/٧/٢٧.

٣ - القومية الميكانيكية!(*)

أهل الفكر في إسرائيل يعترفون اعترافاً حزيناً: إن «المواطن الإسرائيلي» لم يولد بعد!

صحيح أن كل واحد من المليونين يحمل اسم إسرائيل.. ولكن ما زال هذا بولندياً وهذا يمنياً وذاك مغربياً..! والتفرقة العنصرية بينهم متفاقمة..

وهذا طبيعي، لأن القومية ليست أجزاء آلية يمكن استحضارها من الخارج، وتركيبها محلياً!!

إن الفرق بين أي قومية طبيعية وبين «قومية إسرائيل» كالفرق بين الإنسان العادي والإنسان الميكانيكي الذي يصنعونه من حديد وازرار. انه قد يقوم ببعض مهمات الإنسان، ولكنه لا يمكن أن يقوم بها كلها، ولا يمكن أن يستمر.

والقومية الطبيعية تولد ولادة طبيعية، شرعية. تولد من ظروف بشرية واجتماعية واقتصادية وجغرافية وتاريخية، تتفاعل تفاعلاً طبيعياً، ولكن إسرائيل لم تولد هكذا. انها «صنعت» ولم تولد! فلا توجد قومية تتكون باستحضار آلاف الناس، على السفن، من شتى أنحاء العالم، لتلفيق أمة وترقيع دولة!

(*) الشعب (١٩٥٩).

٤ ـ الخليفة المنتظر؟(*)

موشي ديان، كان قائداً هاماً لجيش إسرائيل، ثم استقال منذ شهور. ولم يستقل موشي ديان بنيّة في اعتزال العمل، ولكنه استقال حتى يعد نفسه لأن يكون خليفة لبن جوريون.

لقد كان واضحاً منذ زمن أن نجم بن جوريون في أفول، وانه سوف يسقط عندما تحين لحظة مناسبة لهذا السقوط، أما سبب أفول نجمه، فهو انه صاحب سياسة فرض الصلح على العرب بالقوة، والمبشر بالعدوان المسلح على العرب كوسيلة لتدعيم كيان إسرائيل. وقد ظن بن جوريون، يوم بدأ عدوانه على سيناء، انه سيتوج سياسته هذه بالنصر، ووقف يومذاك في برلمان تل أبيب يعلن ضم سيناء إلى إسرائيل! ولكن ظهر أن سيناء هي التيه الذي فقد فيه بنو إسرائيل آمالهم مرة أخرى! وعندما سقط بن جوريون منذ أسابيع، لم يكن سقوطه بسبب أجهزة القنابل اليدوية الألمانية، انما كان سقوطه بسبب سياسته هذه، ولم تكن هذه الصفقة إلا الفرصة التي انتهزها خصومه، لسحبه في التراب قبل الانتخابات العامة بشهور.

ومنذ بدأ أفول نجم بن جوريون، بعد انسحابه من سيناء، والقوى الموالية له تبحث عن رجل جديد، يحمل نفس عقيدة العدوان، ليحل محل السياسي الآفل!

ولقد عثرت هذه القوى على موشي ديان، فاستقال ليعد نفسه لهذه المهمة.

ولما سقط بن جوريون، بدأ ديان يحاول الظهور بمظهر المنتظر، ويتحدث بلهجة الرجل القوي، وعينه الباقية على الانتخابات المقبلة!

ولا شك أن إنذار الرئيس أول أمس، كان صفعة قاسية لآماله! فهو قد نزع عنه ستار البطولة الزائف وأظهره عارياً واقفاً في الوحل، ينتظر هجوم انجلترا وفرنسا ليحرر نصراً رخيصاً، الهزيمة أشرف منه!

(*) الشعب (١٩٥٩).

٥ ـ سياسة الأفيون!(*)

تعاطي المخدرات لم يعد جريمة عادية. لقد أصبح خيانة عظمى! فبعد أن ثبت أن إسرائيل هي التي تهرب هذا السم، أصبح الفرد الذي يتعاطى المخدرات، ليس مجرد مجرم في حق نفسه وفي حق المجتمع، بل متواطئاً مع العدو!..

وحرب الأفيون ليست شيئاً من اختراع إسرائيل، ولكنها من تجارب الاستعمار العريقة!..

عندما كان البوليس في مصر يقوده ضباط انجليز وكونستبلات انجليز، كان الانجليز يستخدمون سلطتهم للتستر على مهربي الحشيش، ولنشره في البلاد.

وفي تاريخ الصين، أن الاستعمار الأوروبي عندما أراد أن يقتحم البلاد لأول مرة، عمل على نشر الأفيون فيها.. فكانت سفن انجلترا تذهب محملة بالأفيون، وتعود محملة بالبضائع والثروات!.. وكثير من أضخم الشركات الانجليزية الكبرى، بدأت نشاطها بباخرة صغيرة تنقل الأفيون!.. وعندما تمكن نفوذ الاستعمار هناك، كان يقاوم كل محاولة تبذل لمحاربة المخدرات.

ومن القصص التي يضرب بها المثل في الصين الشعبية، قصة الجنرال «تشوتيه» القائد العام لجيش الصين الشعبية خلال حرب التحرير الطويلة، وكيف أنه كان في شبابه رجلاً غنياً، وكان من مدمني المخدرات بشراهة. ثم كيف أنه عندما اعتنق قضية تحرير بلاده، قام بمجهود نفسي هائل، استغرق شهوراً طويلة من العذاب، حتى استطاع أن يتخلص تماماً من هذا الداء الذي كان ينهش في مواطنيه، ثم أصبح بطل الصين العظيم، والرجل الثاني في ثورتها بعد ماوتسي تونج!

إن ما ظهر من قيام إسرائيل، مباشرة، بتهريب المخدرات إلى بلادنا ليس عملية تجارية. انه عملية سياسية بحت، ويجب أن ننظر إليها على هذا الأساس!

(*) الشعب، ١٩٥٩/٧/٣٠.

٦ ـ الشعب المعتقل!(*)

هل تعرف أن إسرائيل فيها ربع مليون عربي؟...

انهم أولئك العرب الذين عجزت كل فظائع إسرائيل ومذابحها عن إخراجهم من بيوتهم وأرضهم!...

إن هؤلاء الربع مليون عربي يعيشون في جحيم، لا يعيش فيه الملونون في جنوب افريقيا، ولا الافريقيون تحت حكم الاستعمار البريطاني في كينيا وروديسيا...

لقد حددت إسرائيل إقامة ربع مليون إنسان، منذ عشر سنوات!... حددت إقامتهم في خمس مناطق، كل منطقة تحكمها «حكومة عسكرية» لا مدنية، وأحكام عرفية خاصة!... يجوز بمقتضاها للحاكم العسكري الإسرائيلي اعتقال العربي وتفتيشه وطرده من بيته ونقله إلى أي جهة، بغير تحقيق ولا حتى استجواب!..

والعربي في أي منطقة من هذه المناطق الخمس، لا يجوز له أن يبرح المنطقة التي يعيش فيها.. لا يجوز له أن ينتقل من قرية إلى قرية.. إلا بإذن خاص مكتوب من الحاكم العسكري! وهو لا يعطى الأذن بالطبع!... وكل منطقة محاطة بأسلاك شائكة، ونقط حراسة، كأنها حظائر، ولا نقول كأنها معسكرات اعتقال.. لأنها بالفعل معسكرات اعتقال!...

إن تاريخ الاستعمار كله، لم يحدث فيه أبداً أن قامت الدولة المعتدية الغازية باعتقال الشعب المستعمَر كله.. وتحديد إقامة الشعب صاحب البلد، في قطعة صغيرة جرداء من أرض البلد!... ولكن هذا هو شأن ربع مليون عربي، تشبثوا بأرضهم حتى الموت! هذا هو شأن خمسين ألف عربي وعربية ولدوا في هذه السنوات العشر في المعتقل الكبير! ولدوا في وطنهم دون أن يكون لهم حق مشاهدته ولا التجول فيه!.. يسمعون عنه من آبائهم ولا يرونه، كأنهم يبعدون عنه ألف ميل!!

(*) الشعب، ١٩٥٩/٨/١.

٧ ـ الورقة الأولى في المرحلة الراهنة(*)

دائماً كنت أقول: ان قضيتنا مع إسرائيل ليست قضية عسكرية، قد نشتبك مع إسرائيل عسكرياً مرة ومرات، من حين لآخر. ولكن هذا جانب فقط من الصورة الشاملة للصراع، وإن معركتنا مع إسرائيل معركة «حضارية»، معركة مع الغرب المتقدم القوي، وإن إقامة «مجتمع سليم عصري متحضر، ودولة عصرية حديثة هي المعركة الجدية التي تحسم هذا الصراع في مداه الطويل». وليس هذا كلاماً أقوله للقارىء اليوم في أعقاب نكسة عسكرية، ولكنه خلاصة وعبرة كتاب كامل كتبته لكي أثبت هذه القضية.

هل كنا محتاجين إلى دليل يثبت لنا أن إسرائيل هي الغرب وأمريكا؟ ها قد جاءنا بالتدخل الأمريكي في الحرب الأخيرة ـ دليل جديد.

هل معنى ذلك اننا يمكن أن نضع الصدام العسكري جانباً؟ كلا. فالعدو نفسه ـ لأنه إسرائيل والغرب، والاستعمار ومصالحه الاستراتيجية الدولية ـ لا ينحي الصدام العسكري جانباً. وإذا لم نفرض عليه هذا الصدام العسكري فهو يفرضه علينا. لهذا فلا بد أن يكون العنصر العسكري في حسابنا دائماً، ولا بد أن نعيد بناء جيش قوي مهما كانت الظروف، لأن الغرب القوي القادر المتقدم، كلما أعيته الحيل في الضغط على العالم العربي وكلما عجز عن التأثير عليه من الداخل، لجأ إلى سلاحه الأخير: إسرائيل.

إسرائيل تحارب للغرب وتحارب لنفسها أيضاً، تحقق للغرب بعض أهدافه، وتحقق هي في ظله وبالمناسبة وكثمن للقتال، أهدافاً خاصة بها.. على أن الحديث في هذه الآفاق الواسعة للصورة قد يطول، ونحن الآن أمام موقف قاس محدد وإزاء وقت ضيق، والسؤال الملح المباشر هو: ما العمل؟ أو ما هي الأوراق التي في يدنا الآن بعد النكسة القاسية؟

(*) المحرر، ١٩٦٧/٦/٢٩.

الجبهة الداخلية

إن أول ورقة هامة في يدنا هي: الجبهة الداخلية . .

إن الأخطاء كبيرة وكثيرة. ونحن في تقدمنا السريع الشامل خلال السنوات الماضية وعلى جميع الجبهات السياسية والاجتماعية والصناعية، والعسكرية والدولية، غفلنا عن فجوات وتخلخلات خطيرة، خرجنا من دائرة القطر الزراعي الراكد المحتل المحدود إلى دائرة البلد الكبير النامي المتحرك المناضل المؤثر في العالم، ولكننا في هذه الرحلة حملنا معنا الكثير جداً من عيوبنا القديمة: الفردية والشللية والحساسية الشخصية والتسلق الاجتماعي والاهتمام بأداء الواجب مظهرياً دون أدائه واقعياً وبحذافيره، نقلنا معنا من عالمنا القديم عيوب عدم التنظيم وعدم الدقة العلمية إلى عالم أصبح التنظيم فيه والدقة العلمية أشياء تحسب بواحد على ألف من السنتيمتر وواحد على ألف من الدقيقة والثانية.

الأخطاء إذن كثيرة، والناس يريدون أن يعرفوا أن الأخطاء يحاسب عليها بالفعل، لأن هذا هو الطريق الوحيد لتلافيها في المستقبل وهذا مطلب عادل وواقعي ومشروع، دون أن نقع في دوامة مبالغ فيها من الندم ولوم النفس يجعلنا نتكفىء على وجوهنا ونصاب بالشلل إزاء موقف خطير لا يحتمل منا أي جمود.

ونحن مهما ساعدنا الأصدقاء فأهم شيء أن نساعد أنفسنا، بل ان الأصدقاء سوف يساعدوننا بقدر ما ننظم أنفسنا ونصمد، والأعداء سيحسبون حسابنا بقدر ما ننظم أنفسنا ونصمد.

القضية الاقتصادية

وإلى جانب إعادة بناء القوة المسلحة، والبدء في رصد الأخطاء تبرز قضية هامة ذات أثر كبير على الجبهة الداخلية وهي القضية الاقتصادية.

إن من أكبر أسلحتنا في معركة تصفية آثار العدوان هو قدرتنا على الصبر، والصبر والصمود يكلفنا فقد مورد قناة السويس وفقد مورد السياحة وربما موارد أخرى لفترة من الوقت قد تطول. علامة عزمنا على احتمال هذا الثمن هو أن نبدأ فوراً في اتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة هذا العبء، وكل تأخير في اتخاذ هذه القرارات يجعل ثمنها أكبر. لا بد لنا إذن من «اقتصاد حرب» حتى يعرف الأعداء أننا سوف نحفر خنادقنا ونصمد فيها.

والشعب إزاء الموقف الخطير مستعد للتضحية إذا وجد أنها تضحية تشمل الجميع، تشمل القادر قبل غير القادر، وأن حصيلة هذه التضحية تستخدم بحرص وفي مجالها الصحيح ولن نجد فرصة مثل هذه للقضاء على كافة صور الاسراف الداخلي والخارجي.

شيء آخر اعتقد أنه بالغ الأهمية في بناء الجبهة الداخلية، هو أن نعيد النظر في سياستنا نحو الرأي العام، المحلي، والعربي والعالمي أيضاً، وإن كان هذا بحثاً آخر.

الإعلام العلمي

لقد كنا في معظم الأحوال نحاول من حيث لا نشعر أن نقدم للرأي العام الجوانب المشرقة للصورة، وأن نعبئه بمزيد من الأمل المطلق، ونطلق العنان لمن يكتبون ويدعون ويذيعون ويتصاعدون في فصاحتهم وفي وعودهم بشكل مقلق، وكأننا نشعر أن الرأي العام هش قابل للكسر لا يتحمل تقبل الحقائق بتعقيداتها وبظلالها الحقيقية وهذا تصور غير دقيق، ان الرأي العام يجب أن يواجه بالحقائق وبالمعلومات الصحيحة وبالآمال والمحاذير في أحجامها الحقيقية، هذا الجو يضيف انتباه العقل إلى قوة العاطفة، هو الذي يربي الرأي العام تربية صحيحة، وهو الذي يجعله ـ نفسياً ـ في موقف المشترك في المسؤولية لا المتفرج.

ولنضرب مثلاً صريحاً على ذلك بشعار: تدمير إسرائيل. إن هذا الشعار ليس موضع التحقيق خلال هذه المرحلة لكل الأسباب الدولية والاقتصادية والاستعمارية المعروفة. ومع ذلك نرفع هذا الشعار والحديث عنه وكأنه يمكن أن يحدث غداً يجعلنا ندفع ثمناً فادحاً من اعتراض الرأي العام العالمي، دون أن يكون في مقابل هذا الثمن إمكان تحقيقه. المرحلة الحالية مرحلة تقوية وتنمية وتجميع وتموين امكانيات الوطن العربي، ومرحلة العمل لكي تضعف كفة الاستعمار بكل صوره في المنطقة أساساً، وفي العالم بوجه عام، بوصف أن الاستعمار هو سند إسرائيل الحقيقي ومرحلة تعرية وجه إسرائيل الحزبي العنصري العدواني المرتبط بالاستعمار، ومرحلة عزلها وهي على هذا النحو عن كافة القوى التقدمية، ومرحلة استخدام المصالح الدولية المرتبطة بالعرب لتكون مع العرب لا ضدهم.

لا أحد في العالم كله ـ الأصدقاء والأعداء والمحايدون ـ يوافق على محو إسرائيل، فهم جميعاً يفهمون الأمر فهماً تاريخياً خاطئاً، على درجات بالطبع، فليست هذه نقطة البدء السليمة معهم الآن، وليس هذا الشعار كما قلت موضع التحقيق في هذه المرحلة، ولكن رفع هذا الشعار جعل إسرائيل تكسب أول معركة دعائية ضدنا، قبل أن تنطلق رصاصة واحدة. احتاج العالم إلى وقت حتى يفيق إلى أن إسرائيل هي الترسانة العسكرية، وهي التي تعمل يداً بيد مع قوى أجنبية، وهي التي بدأت بالعدوان العسكري، هذا فضلاً عن أن رفع هذا الشعار في غير أوانه يعبىء الرأي العام العربي الداخلي تعبئة خاطئة، تصور له أن المشكلة كلها يمكن أن تحل بضربة واحدة.

بقي شيء آخر يخطر على البال في الحديث عن ورقتنا الأولى في المعركة، أي هي الجبهة الداخلية. تلك هي التدريب العسكري.

المقاومة الشعبية

إن الانطباع الذي يتكون لي من قراءة الصحف ـ وقد يكون انطباعاً خاطئاً ـ هو أننا ندرب أكبر عدد من الناس، كل من يتطوع، تدريباً سريعاً بسيطاً.. في حين أن الواجب في هذه المرحلة وإزاء الموقف الراهن أن نحدد هدفاً عددياً معيناً، ثم نختار له من بين المتطوعين أنسبهم في السن والوعي والقابلية وندربهم تدريباً حقيقياً عنيفاً على أسلحة متنوعة متقدمة.

في إسرائيل في الحرب والسلم على السواء، كل فرد حتى سن الخمسين يتدرب يومين كل شهر، وشهراً كل سنة، لكي يكون على الدوام جندياً حقيقياً متكاملاً متطوراً على أحدث الأسلحة وأحدث التكتيكات، لا على مجرد ضرب النار فحسب.

ونحن في حاجة إلى أن يعرف الجميع أن وراء الجيش المقاتل شعباً مستعداً للقتال لا بالحماسة وروح التضحية والفداء فحسب، ولكن بالحساب والخطة والدراية العسكرية لمثل هذا النوع من حروب المقاومة.

٨ ـ من الذي بدأ العدوان ليست قضية نظرية(*)

نظرية الهجوم المفاجىء

يهز بعض ساسة الغرب وكتابه أكتافهم هذه الأيام ويقولون صراحة: مسألة من الذي بدأ العدوان أصبحت الآن مسألة نظرية. لا يهم الآن ما إذا كانت إسرائيل أم مصر هي التي بدأت العدوان. علينا فقط أن ننظر في نتائج الموقف الراهن. . يقولون ذلك طبعاً بعد أن افتضح تزييفهم الأول وزعمهم أن مصر هي التي بدأت القتال.

ولكننا نقول لهم: كلا هذه ليست مسألة نظرية، إنها مسألة شديدة الأهمية، لا بالنسبة للأزمة الراهنة في الشرق الأوسط، ولكن بالنسبة للعالم كله!

إن الخديعة والمفاجأة تعطيان أحد الطرفين في القتال ميزة كبرى. ولو شاع القول بأن مسألة البادىء بالعدوان مسألة نظرية، فسيكون سهلاً أن يتكرر هذا في أماكن كثيرة من العالم: أن تجمع إحدى الدول كل قوتها، تركزها في توجيه ضربة عنيفة مفاجئة إلى عدوها، ثم تحاول الهرب بغنيمة العدوان! لو استقر هذا فلن ينام الليل أي شعب له مشكلة مع دولة أخرى!

لقد عاشت الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها زمناً طويلاً مصابة بعقدة الهجوم المفاجىء الغادر! كانت اليابان تفاوضها وتوهمها بأن لا حرب في ذلك الوقت «تماماً كما سبق الهجوم الإسرائيلي إيحاء بأن المباحثات السلمية ستبدأ» وفجأة انقضت اليابان في الهجوم الجوي الشهير على «بيرل هاربور» وعلى شتى قواعد أمريكا البحرية والجوية في المحيط الهادي. وكانت الضربة مفاجئة وقاصمة لدرجة جعلت أمريكا هي وحلفاءها تحارب متقهقرة حتى فقدت الشرق الأقصى بأكمله وانسحبت من بورما والملايو والفيلبين وأندونيسيا والهند الصينية. . قبل أن تسترد قوتها وترد الضربة.

(*) المصور (٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٦٧).

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كان الفكر السياسي والعسكري في العالم كله مركزاً على: طريقة الوقاية من الهجوم المفاجىء!

مسألة من البادىء بالعدوان المفاجىء إذن ليست مسألة ثانوية أو نظرية. إنها مسألة أساسية. والعقاب عليها واتخاذ موقف حاسم منها أمر يمس نظام العالم كله!

وإذا لم يحل العالم مشكلة الغدر بالقانون.. فسيكون عليه أن يدخل في سلاسل من معالجة الغدر بالغدر... أو الغدر بالثأر!

تدويل قضية العدوان

من أغرب وأطرف النغمات التي عزفت عليها صحافة الغرب وساسة الغرب عندما حقق الهجوم الإسرائيلي المفاجىء الغادر أهدافه: مناشدتهم الاتحاد السوفييتي الا يتدخل، ولا يقف إلى جانب العرب، لأن هذا معناه تدويل الأزمة، وإيجاد مواجهة جديدة بين روسيا وأمريكا، وتهديد السلام العالمي!!

يريدون بالطبع أن يطمسوا حقيقة كبرى في الموقف: إن تدويل القضية قد تم من طرف أمريكا بالفعل. وهم بهذا المعنى يحبذون التدويل من جانب واحد.. التدويل بمعنى تدخل الغرب وحده. والتدويل حيث يخدم إسرائيل وحدها!

والرد هو: متى كانت إسرائيل، منذ خلقت، بنت الظروف المحلية في المنطقة العربية وحدها؟ وكيف كان يمكن أن تنشأ إسرائيل من الأساس، لو كان الأمر للظروف المحلية وحدها؟

أمريكا وانجلترا خلقتا إسرائيل. وأمريكا بالذات تسلح إسرائيل وتمولها وتتآمر معها وتساعدها بوسائل المخابرات الخفية لكي تحقق أهدافاً عسكرية وسياسية معينة ضد البلاد العربية، وتدخل الاتحاد السوفييتي ليس إلا رد فعل لهذا التدويل الذي فرضته أمريكا.

أمريكا تريد أن يكون تدخلها في أي منطقة من العالم أمراً عادياً وتدخل غيرها يتنافى مع «المحلية»!

أمريكا تريد أن يكون كل مكان من العالم بيتها.. مباحاً لها وحراماً على غيرها!!

إسرائيل هي التي تعيش بتدويل القضية.. وتموت بعدم تدويلها! ولكنها تريد فوق ذلك.. أن يكون التدويل من جانب واحد!

قال كاتب انجليزي منصف: مشكلة إسرائيل مع العرب ليست في كونها مجتمعاً يهودياً يريد أن يكون جزءاً من الشرق الأوسط، ولكن في كونها مجتمعاً غربياً، يريد أن يكون رأس جسر للغرب في الشرق الأوسط!!

سوف ينسحبون

تتحدث إسرائيل عن عزمها على البقاء في الأراضي التي فتحتها بالغزو المفاجىء الغادر والعون الأجنبي! وهي أول العارفين أنها ـ بالحرب أو السلم ـ لا بد أن تنسحب!

سنة ١٩٥٦، قالوا أكثر مما يقولون الآن.

ـ أعلن بن جوريون في الكنيست ضم سيناء إلى إسرائيل.

ـ نشرت الصحف الإسرائيلية بحثاً قانونياً خلاصته أن سيناء ليست جزءاً من مصر. ولكن «الدكريتو» العثماني التركي أعطى مصر سنة ١٨٩٢ «إدارة» سيناء فقط، لا سيناء كقطعة منها..

وقف نائب انجليزي في مجلس العموم، كابتن ووتر هاوس، وردد هذا الكلام!

ـ جريدة جويش أوبزيرفر الصهيونية حاولت رشوة الغرب فقالت: إن إسرائيل يمكن أن تعطي حلف الأطلنطي قاعدة عسكرية في سيناء، في حين أن مصر لا يمكن أن ترضى باعطائه مثل هذه القاعدة!

ـ أعلن بن جوريون أن المنطقة التي تسمى شرم الشيخ كانت عبرية من آلاف السنين واسمها «مفراتزشلومو» وان جزيرة تيران كان اسمها من آلاف السنين «يوت فات» وكانت توجد فيها دولة يهودية مستقلة!!

هذه الذكريات تعلمنا أمرين: الأول أن إسرائيل لها بالفعل مطامع توسعية. والأمر الثاني، أنها سوف تبتلع دعايتها مرة أخرى.. وتضطر إلى الانسحاب طالما وقفنا صامدين..

رومانيا.. وإسرائيل

لماذا تقف رومانيا هذا الموقف الشاذ، بين كل دول المعسكر الشرقي، في عدم إدانة إسرائيل؟

أستأذن القارىء في إعادة نشر كلمة كتبتها في هذا المكان قبل العدوان الإسرائيلي بثلاثة أسابيع.

«منذ أسابيع وقّع «بنحاس سابير» وزير مالية إسرائيل مجموعة من الاتفاقات الاقتصادية مع حكومة رومانيا، وتقول مجلة الايكونومست الانجليزية في وصف أهمية هذه الاتفاقات، انها ليست مقصورة على التجارة بين البلدين فقط. ولكن رومانيا بمقتضى الاتفاقية تتخذ إسرائيل منفذاً للتجارة مع أسواق محرومة منها، مثل أسواق أمريكا وغرب أوروبا وبعض بلاد افريقيا.. وفي مقابل ذلك تتخذ إسرائيل من رومانيا منفذاً إلى أسواق محرومة منها مثل روسيا ودول أوروبا، أي انها محاولة من الطرفين لتخطي الحواجز السياسية التي تعرقل تجارة كل منهما مع المعسكر الآخر! والاتفاقية لا تقف عند حد تبادل شراء السلع، ومنها ما يعاد بيعه في أسواق أخرى، ولكنها تقضي بإقامة مصانع في كل من البلدين. وتقول مجلة الايكونومست: ان رومانيا عندما وجدت أنه من الصعب عليها فتح حوار تجاري مباشر مع أمريكا في وقت تمارس فيه أمريكا سياستها العدوانية في فيتنام، قررت استخدام إسرائيل كقناة تجارية توصل بطريق غير مباشر بين رومانيا وأمريكا!!».

٩ ـ اقتراح محدّد: إعادة «دولة فلسطين» في الأردن وغزّة(*)

ـ مطلوب البحث عن بداية جديدة للقضية الفلسطينية كلها!

ـ من العبث إقامة «كيان فلسطيني» دون دولة وأرض. . !

ـ يجب أن يكون الفلسطينيون لفلسطين. . حتى تكون فلسطين للفلسطينيين.

هذا الشعار هو بغير شك الشعار المنطقي والمناسب للمرحلة التي نحن فيها. إنه يحدد حجم «الخطوة الأولى والضرورية» التي لا بد لنا من إنجازها أولاً وهي إعادة قوى العدوان إلى خطوط حزيران/ يونيو قبل أن نفكر في خطوة أخرى.

ومع ذلك، فإن تصور أن «إزالة آثار العدوان» معناها عودة كل شيء في الواقع العربي إلى ما كان عليه تماماً وبالضبط، تصور خاطىء!. .

كثير من الأوضاع سوف تتغير، وكثير من الأفكار والأساليب سوف تتغير. . .

ولهذا يجب أن نفكر، من الآن، في بعض هذا الذي يجب أن يتغير، خصوصاً بعض ما يتعلق بقضية فلسطين بالذات.

أبسط ما يجب أن نتعلمه من النكسة هو أن نسأل أنفسنا، هل كانت الطرق التي سلكناها لمحاولة تحريك قضية فلسطين طرقاً سليمة أم ان هناك طرقاً ومبادرات أخرى يجب أن نفكر فيها. . للحصول على الحق العربي الكامل؟

إن كثيراً من الأوضاع العربية بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧، أدت إلى تجميد الموقف العربي ازاء قضية فلسطين. كانت الحصيلة التي خرج بها العرب، بعد ما يقرب من عشرين

(*) المصور (١٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٧).

سنة هي مجرد «الرفض» اللفظي للوضع الذي تخلف عن سنة ١٩٤٨، حتى كسرت إسرائيل بعدوانها هذا التجمد وأصبحنا الآن أمام واقع ساخن جديد. . .

وفي هذه الأيام التي نسمع فيها أنباء المقاومة الفلسطينية الباسلة في الأراضي المحتلة - أول شيء جدي يجب أن يتم ويتدعم - يجب أن نستخلص من هذه الحقيقة أهم درس من دروس النكسة. . .

ان أبسط وأهم شيء «للدفاع» ضد إسرائيل، قبل أن نتمكن في ظروف أخرى من الخروج من خنادق الدفاع، ولاحياء قضية فلسطين هو: أن تكون هناك أولاً فلسطين. .

الغزو الصهيوني سنة ١٩٤٨ نجح في اقتطاع جزء من فلسطين. ولكننا بدلاً من أن نبقي ما تبقى من فلسطين متماسكاً وصامداً ومطالباً، قمنا نحن العرب بتفكيك ما تبقى في أيدينا من فلسطين. . .

الغزو الصهيوني سنة ١٩٤٨، بدأ في تجميع المهاجرين واللاجئين اليهود من شتى أنحاء العالم ليحولهم إلى مواطنين: مزارعين وصانعين ومحاربين. والعرب قبلوا تحويل المواطنين الفلسطينيين إلى مهاجرين ولاجئين. . .

وعندما مرت السنون بعد السنين، وبرزت فكرة ايجاد كيان فلسطيني وتنظيم فلسطيني، وجدت المنظمة، وهي فاقدة أهم شرط من شروط التعبير عن شعب وعن وطن: الأرض! هذا مع أن الأرض، مهما كانت قد تقلصت، موجودة. . فأصبح «النضال» الفلسطيني يدار من القاهرة وبيروت وغيرهما من البلاد العربية. . إلا فلسطين!. .

وقد كان هذا كافياً لأن يعطي العالم إحساساً عاماً بأنه لم تعد هناك فلسطين، ولا شعب مطالب بأرضه هو شعب فلسطين. . انما هي دول عربية مجاورة تقاوم دولة أخرى اسمها إسرائيل!!

لقد فرضت الظروف الدولية والاستعمارية أوضاعاً أخرى مشابهة - مع الفوارق العديدة طبعاً - في بلاد أخرى، فرضت التقسيم في كوريا. . ولكن كل جزء يدعي انه هو الأصل لم يحل وجوده لأن الاستعمار اغتصب جزءاً آخر. وفي فيتنام فرضت القوى الخارجية التقسيم، استسلمت لانتصار الثورة الوطنية في فيتنام الشمالية واحتفظت بقاعدة استعمارية في الجنوب. ولكن الوطن الناقص الذي لم يتمكن من كسب حقه كاملاً لم يحل نفسه بل دعم وجوده وجعل من نفسه قاعدة لتحرير الجزء المستعمر المغتصب. . .

إذن؟

إذن فنقطة البدء البديهية والضرورية التي لا بد أن تدرس بل وتقرر من الآن هي: أن تعود إلى الوجود دولة اسمها فلسطين!

دولة تضم الأردن، بالضفة الغربية للنهر والضفة الشرقية له، وتضم قطاع غزة. . أي

تضم كل ما تبقى من فلسطين زائداً ما كان يسمى شرق الأردن واندمج في السنوات الماضية بفلسطين. . .

قد يقال: ولكن هذا اقتراح لا يغير شيئاً. . فهو مجرد تبديل اسم باسم.

والرد على ذلك: ان أي مبادرة سياسية يمكن أن تقف عند العنوان فقط وتبقى كالاناء الفارغ من محتواه، ويمكن بالعمل الدؤوب أن تصبح تغييراً جوهرياً، يملأ الاناء الفارغ بمحتوى جديد. . .

إن إعادة اسم فلسطين في حد ذاته وكمجرد اسم، سوف يكون له أثر معنوي، وبالتالي سياسي كبير إزاء العالم وفي المراحل التالية للقضية: فها هو الاسم الأصلي القديم للبلاد قد عاد. ها هي دولة فلسطين التي اغتصب منها جزء تقف صامدة في الخط الأول أمام الاغتصاب تطالب بحقها المشروع. . .

يأتي بعد ذلك أن إعادة اسم فلسطين إلى أرض فلسطين، يجب أن يستتبع إعادة شعب فلسطين إلى أرض فلسطين. . .

ماذا كان يحدث بصراحة في السنوات التسع عشرة الماضية لشعب فلسطين، باستثناء من بقوا في ديارهم الأصلية في الضفة الغربية؟. . .

لم يكن أمام الفلسطيني إلا أحد أمرين: إما أن يكون لاجئاً عاجزاً في الخيام. . وإما أن يتحول إلى فلسطيني سابق. يهاجر إلى آفاق الدنيا كلها، من كندا إلى أمريكا اللاتينية إلى البلاد العربية كلها من الجزائر غرباً إلى الكويت شرقاً.

ومن الذين كانوا يهاجرون؟. . أكثر أبناء فلسطين قدرة أو كفاءة وموهبة. الذين تحولوا إلى رجال ناجحين. . كرجال أعمال أو مهندسين أو أطباء أو اقتصاديين أو صحفيين.

كل العناصر المتقدمة من هذا الشعب الكفء الذكي لم يكن أمامها إلا الهجرة، والعمل خارج فلسطين، والتجنس بجنسيات غير جنسية فلسطين، فمن بقي له أهل في الأرض الأصلية بقي على صلة بها، ومن لم يعد له أهل انقطعت بينه وبين الأرض الأصيلة كل الصلات. . .

هكذا. . بينما كانت إسرائيل لا تترك باباً إلا وطرقته لتجتذب يهود اليمن أو أوروبا أو المغرب، لكي تحولهم إلى مواطنين، ولكي تكثف وجودها البشري والحضاري والاجتماعي. . . كان العرب يتركون الكيان البشري والحضاري الفلسطيني يتفرق ويتبعثر ويخسر أغلى كنوزه من الكفاءات البشرية بالتدريج. . .

إعادة اسم فلسطين ودولة فلسطين إذن لا تكون له قيمة كبيرة ما لم يصحبه عمل حقيقي لكي يتحول الموج من اتجاه الهجرة والتبعثر إلى اتجاه العودة والتكثف، وهذا هو الأمر الطبيعي، فقبل أن نتحدث عن «العودة» إلى الأرض الفلسطينية المحتلة يجب أن نحقق العودة إلى الأرض الفلسطينية التي لا تزال فلسطينية. والجدار العربي المواجه لإسرائيل لا

يمكن أن يكون منطقة من الفراغ، ومخيمات اللاجئين، والمجتمع الذي يتزايد فيه الفاقدون يوماً بعد يوم. . إنما يجب أن يكون جداراً حضارياً قوياً: اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وبالتالي عسكرياً.

لا بد أن تقوم في وعاء «فلسطين» هذا حياة مختلفة، حياة تستوعب كفاءات الشعب ولا تغريهم بالهجرة، حياة تغري من هاجر بالعودة. . من باب الواجب والوطنية والرغبة في دفع القضية إلى الأمام، وان كان يلزم هذا أن يكون هناك أيضاً باب للعمل والحياة والنمو مفتوحاً ومتسعاً للجميع. . .

هذه الدعوة إلى العودة إلى فلسطين التي في أيدينا ليست قضية جانبية ولا ثانوية. فمع كل الظروف الدولية والسياسية المحيطة يجب أن تكون هناك فلسطين. صاحبة القضية يجب أن تكون حاضرة موجودة ماثلة مطالبة ضاغطة. ولا شك أن الإحساس بأهمية هذا العنصر هو ما دعا مؤتمرات القمة إلى إيجاد كيان فلسطيني ممثل في منظمة التحرير. . ولكن ما هو مقتل المنظمة وعنصر ضعفها؟ . . . إنها منظمة من غير أرض وغير شعب متكامل. منظمة أضعف كياناً من الوكالة اليهودية نفسها قبل قيام دولة إسرائيل: فالوكالة اليهودية والحركة الصهيونية ذاتها لم تكتسب فعالية إلا من الالتصاق بالأرض. بالتمركز في أرض فلسطينية هي مستعمراتها الزراعية ثم مدنها وتجمعاتها السكانية التي كانت تسيطر عليها.

وهذه الدعوة إلى العودة ليست مسألة ثانوية. ان العنصر البشري هو العنصر الحاسم في هذا الصراع القومي. . هذا التصادم الحاد بين أقدار قومية أصيلة وأقدار شعوب غازية تريد أن تخلق قومية جديدة. العنصر البشري هو السلاح الحاسم في النهاية. والعنصر البشري الفلسطيني أولاً، ثم معتمداً على العنصر البشري العربي كعون له وجزء منه وعمق استراتيجي له. . والعنصر البشري الفلسطيني ليس في العدد، ولكن في النوع أيضاً. في التعليم والكفاءة والانتاجية والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية للوطن.

لا يهم بعد هذا نظام الحكم، ملكي أو أي شيء آخر. الوطن قبل نظام الحكم. الناس يختلفون في نظام الحكم وشروطه ولكن الناس لا يختلفون في الوطن. لا أحد يشترط لكي يعيش في وطنه ويعمل ويناضل فيه أن يكون نظام الحكم فيه على هواه، أولاً وقبل أن يتحرك، وشعور الفلسطيني بالعودة والعمل والنضال ومواجهة القضية لا يجب أن يكون أقل من شعور اليهودي الذي يهاجر من آخر أطراف المعمورة إلى وطن لم يره ولم يعرفه وحتى لا يتكلم لغته. والشعور الفلسطيني بالتأكيد ليس أقل. . .

لتكن أمام الفلسطيني الذي يحمل اليوم جنسية لبنانية أو كويتية أو أرجنتينية فرصة أن يحمل جنسيته الفلسطينية، ولا شيء غيرها. .

الفلسطينيون لفلسطين، وبعدها ستكون فلسطين للفلسطينيين!!

والذين يحملون أرواحهم على أكفهم، ويناضلون اليوم في الأراضي المحتلة في أقسى الظروف، يبرهنون على أن هذا هو الترتيب السليم للقضية وعلى أن هذا الترتيب ممكن تماماً!

هـذا الاقـتراح يلمس، فـوق ذلـك، مـوضـوعـاً دقيقـاً حســاسـاً هـو: الـلاجئــون الفلسـطينيون. . أقصـد الذين ظلوا يسكنـون المخيمات حـول حدود اسرائيـل. . في غزة وفي سوريا وفي لبنان وفي الأردن. . .

منذ سنة ١٩٤٨، أي منذ حوالى عشرين سنة، عاش ما يقرب من مليـون فلسطيني في مخيمات اللاجئين. . يعيشون على دقيق هيئات الإغاثة الدولية، ولا يشكلون أي حيـاة مدنيـة كاملة من أي نوع: لا يزرعون ولا يصنعون ولا يتعلمون بالدرجة الكافية. . .

عاشوا في المخيمات، لأنهم يشكلون الكتلة الكبرى من الذين طردوا طرداً من أراضيهم وبيوتهم، ولأنهم رمز تصميم الشعب الفلسطيني على العودة إلى دياره. . أو على الأقل تـطبيق القرارات المتتالية للأمم المتحدة في شأنهم.

ولا أحد يريد أن يصفي مشكلة هؤلاء اللاجئين بالشكل الذي يؤدي إلى اسقاط حقهم في العودة أو إلغاء وضعهم في موضع المطالب بذلك. .

ولكن السؤال هو، هل تبقى هذه الكتلة الكبيرة من الشعب الفلسطيني، وبعد عشرين سنة في المخيمات، زمناً آخر في نفس المخيمات، زمناً لا أحـد يعرف بـالضبط متى ينتهي وهل سيقصر أو يطول؟. . .

أعتقد أن هذا مستحيل، وانه غير منصف لهم. وانه غير مفيد.

واعترف هنا أنني لا أملك اجابة محددة إزاء هذه القضية، في إطار هذا الاقتراح الشامل الذي اتحدث عنه عن إحياء «دولة فلسطين». .

ولكنني أستطيع أن أحدد هدفاً، أطرحـه على الكتـاب والخبراء والمفكـرين والسياسيـين للمناقشة في طريقة تحقيقه. . .

والهدف مزدوج:

- أن تتحول هذه الكتلة السكانية حيثما كانت إلى أرض فلسطين التي بين أيـدينا، وأن تتحول في أرض فلسطين إلى مجتمع قوي يتعلم ويتصنع وينمو ويسـتزرع ويتسلح. . . ليكون «بيئة قويـة» على الخط المـواجه لإسرائيـل. . . لا ليبقى هكذا في أسـار العجز والأميـة وعدم القدرة وعدم النمو. . .

- والا يتم شيء ينهي حقهم في المطالبة بـالعودة أو يكـون فيه مسـاس بأصـل قضيتهم وأساسها. . .

ولا أظن أن هذا مستحيل. . .

من المهم جـداً أن تبقى قضيتهم مـاثلة، لأن قضيتهم هي «رأس الحـربـة» في القضيـة الفلسطينية بوجه عام.

ولكن من المهم أيضاً أن يتحولوا إلى قوة ذات فعالية وأثر. أن يكونـوا طاقـة فلسطينيـة عربية، ومرة أخرى لنتذكر أن اليهود يستقدمون المهاجرين وينشئون لهم المعسكـرات، ولكنها معسكرات العمل والتدريب والتسكين والانتاج. . .

هذا هو الاقتراح الذي أطرحه. . وأسمح لنفسي أن أكرر مرة أخرى، ان قضية سكنى الأرض والالتصاق بها، وتحويلها إلى قاعدة قوية، قـد تبدو غـير حاسمـة وغير مؤديـة إلى حل حاسم وسريع. ولكن القضايا الكبرى ليس فيها عـادة حل سهـل حاسم وسريـع، إنما فيهـا مبادرات وقرارات وتصرفات تخلق مع الزمن واقعاً قوياً مؤثراً.

وإسرائيل تدرك هذا تماماً، وقد تصرفت دائـماً بناء عليـه. ما تكـاد تتمكن من شبر من الأرض الا ويسرعـون إلى إقامـة مستعمرة فيـه، أي وحدة سكـانية انتـاجية مقـاتلة، تلتصق بالأرض التصاقاً حياً، أي يسرعون إلى خلق حقيقة بشرية جغرافية سياسية جديدة.

هكذا كانوا يفعلون منذ ما يقرب من قرن، عندما بدأت الهجرات اليهوديـة الأولى إلى فلسطين. . وهكذا فعلوا منذ أيام عندما بدأوا يقيمون مستعمرات جديدة بالقـرب من مدينـة القدس.

١٠ ـ ٥ مليون جنيه استرليني مجمدة...
والفدائيون يبحثون عن القروش(*)

أول ما يلاحظه الزائر للفدائيين الفلسطينيين في مواقعهم: قلة السلاح والعتاد بين أيديهم، واقتصار هذا السلاح على أنواع عادية بسيطة من الأسلحة.. نظلمها كثيراً حين نطلب منها الصمود أمام آخر مستحدثات الأسلحة العلمية والالكترونية التي تستعين بها إسرائيل في مقاومتهم، والتي اقتبستها من دروس ومخترعات السلاح الأمريكي في مقاومته لثوار فيتنام..

والسبب الأول لذلك هو أن المال قليل في أيدي الفدائيين المقاتلين.. بل إنه بالنسبة لبعض منظمات المقاومة، نادر وشحيح إلى آخر الحدود.

وحتى الآن، تعيش هذه المنظمات على التبرعات، وقد بدأت تظهر دعوات إلى التبرع بين أبسط فئات الأمة العربية كاقتراح التبرع بأجر يوم من العمال وما إلى ذلك..

ولكن.. يسمع المرء من ناحية أخرى أن منظمة التحرير الفلسطينية، لديها خمسة ملايين جنيه استرليني بالتمام والكمال، من أيام دعم مؤتمرات القمة العربية لها..

خمسة ملايين جنيه استرليني مجمدة في البنوك، لا ينفق منها إلا أقل القليل على المصاريف الإدارية للمنظمة.. مكاتب ومرتبات وأجور سفر بالطائرات.. في حين أن المقاتلين في ساحة الموت لا يجدون المال لشراء السلاح.

إن نفقات أي مقاومة شعبية مسلحة، ليست ثمن البندقية والرصاصة فحسب: فهناك الغذاء والكساء والمواصلات، وهناك العلاج والاسعاف للجرحى، وهناك العناية بأسر الشهداء، وأسر الذين تركهم أعز أبنائهم ـ وربما كسبة قوتهم ـ لكي يحاربوا.. وهناك.. وهناك..

(*) المصور (٢٤ أيار/ مايو ١٩٦٨).

والقتال المسلح الذي يقوم به الفدائيون الفلسطينيون، ليس من النوع الذي تفيد فيه كثرة عدد المقاتلين، بقدر ما يفيد فيه «نوعية» المقاتل ودرجة كفاءته وتدريبه من جهة، ثم حداثة أسلحته وكثافتها وفعاليتها من جهة أخرى.

معنى هذا أنهم - كما رأيت - يحتاجون إلى أسلحة متقدمة جداً، وأشياء أخرى كثيرة وغير الأسلحة المباشرة من الأجهزة غير المباشرة كاللاسلكي والالكترونيات الخفيفة، خصوصاً وأنهم يقاتلون أمام عدو يعتمد إلى حد كبير على توفر أحدث الأسلحة لديه، ويستفيد من تجارب أمريكا في حرب فيتنام ومستحدثات السلاح الأمريكي على ضوء حرب فيتنام.

وهذا غير متوفر لهم، وتكفي نظرة عين الخبير - مثلي - لكي يتبين كما قلت في أول هذا الحديث أنهم يحاربون بأسلحة بسيطة وعادية جداً وغير كافية..

السؤال هو: ماذا تنتظر منظمة التحرير الفلسطينية، لكي تدفع من هذه الأموال المجمدة للمقاتلين، على اختلاف منظماتهم؟

أي استخدام لهذا المال يمكن أن يكون اليوم أهم وأولى من هذا الاستخدام؟..

١١ ـ سؤال موجّه إلى كل فرد:
ماذا تقترحون. . من أجل القدس؟(*)

القدس، زهرة المدائن، تدوسها الجرارات كل يوم، وتدق فيها المعول، طبقاً لخطة إسرائيل الموضوعة لتهويد المدينة كلها. . ! يغيرون معالمها، ويهجرون الأهالي، ويحاولون إسكان أكبر عدد من الإسرائيليين داخلها، وفي مواقع استراتيجية تحيط بها من كل جانب، وهم في هذا كله يسابقون الزمن، ويحاولون ايجاد أمر واقع يسبق أي حل عسكري أو سياسي.

ولا شك أنه يمكن القول: إن هذا جانب من المعركة الشاملة. وان ما يحسم المعركة الشاملة سوف يحسم قضية القدس. وهذا جزء من الصراع الشامل الدائر، المتصاعد، على ضفاف القناة، وعبر نهر الأردن، وفي قلب القدس وحيفا وتل أبيب ذاتها.

وهذا صحيح. . .

على أن هذا لا يعني الاغضاء عما يدور في القدس، أو معاملته معاملة ما يدور في سائر الأراضي المحتلة.

إن القدس هي أخطر وأعز مطالب إسرائيل. إنها الدرة التي تعلن يومياً أنها سوف تتمسك بها، حتى ولو سقطت من يدها باقي الأماكن والأشياء. ومن أجل هذا ـ فوق العمل المباشر الذي تمارسه إسرائيل في القدس ـ فقد استطاعت إسرائيل أن تخلق في العالم الخارجي وهماً خطيراً هو أن اسرائيل لا يمكن أن تتخلى عن عاصمتها مهما كان، حتى الذين لا يؤيدون إسرائيل يشيرون دائماً إلى تصميم إسرائيل فيما يتعلق بالقدس وكأنه أمر لا حيلة للعالم فيه. ولا يمكن إلا التسليم به!

والواقع ان القدس بالذات، هي التي يجب أن نجعل من قضيتها أكبر نقطة ضعف في موقف إسرائيل السياسي، على عكس ما تحاول هي أن تقر في الأذهان!

(*) المصور (١١ تموز/ يوليو ١٩٦٩).

إن العالم يمكن تضليله حول عديد من المدن والانهار والمساحات غير المعروفة. ولكن ليس هذا شأن القدس، التي يعرفها ويعرف قيمتها الدينية ومغزاها التاريخي أي طفل في أي مدرسة في العالم!

إن الدول العربية مطالبة أن تصعد حملتها العالمية من أجل القدس، وأن تركز الكثير من جهودها حول القدس بالذات.. فلو انكسر في الذهن العام ادعاء إسرائيل حولها، فقد انكسر قلب الادعاء الإسرائيلي كله.

وإننا في هذا المجال لنتساءل، خارج نطاق العالم العربي، عن الدور الذي قام به العالم الإسلامي؟..

إننا يجب أن نقول ان أصوات الدول الإسلامية، ثم الدول ذات الكتل السكانية الإسلامية الكبيرة، ان أصواتها في الأمم المتحدة لا تكفي! وجهودها الدبلوماسية وتصريحات ساستها لا تكفي! إنما يجب أن تتحرك فيها حملات شعبية واسعة وعميقة.. تخلق سداً معنوياً هائلاً في وجه إسرائيل وفي وجه كل القوى المتآمرة معها في العالم!

وليس تحريك هذا البحر الواسع تحريكاً حقيقياً عميقاً وحاداً بالأمر المفتعل، لأن البئر التي يمكن أن ينبع منها هذا المد موجودة. ولكن الأمر مع ذلك يحتاج إلى من يتحرك ويخطط ويعمل ولا يكل!

إن العالم يجب أن يشعر أن إسرائيل إنما تلعب بالقرب من نار هائلة قابلة للاشتعال!

وهذا بالتأكيد سوف يجر وراءه، وبالعمل أيضاً، تحركاً أكثر في العالم المسيحي الذي ما زال راقداً خامداً خموداً عجيباً ازاء هذه القضية!

وليس معنى هذا اننا نريد أو نختار أن نعيد العالم إلى عهد الحروب الدينية القديم. ولكننا يجب أن نضع إسرائيل في مكانها الحقيقي.. في قفص الاتهام متلبسة بهذه التهمة!..

ثم ان تفكير إسرائيل في هذه القضية ليس دينياً فحسب، وإن كان التعصب الديني أحد وجوهه. بن جوريون وموشي ديان وجولدا مئير كلهم يعلنون رسمياً أنهم ملحدون. وهم أحرار في ذلك. ولكنهم يعرفون قيمة القدس المعنوية والتاريخية والحضارية. يعرفون أنهم طالما بقوا في «نصف القدس» فهم ما زالوا دون هدفهم. وإنهم إذا أخذوا القدس كلها فقد كسبوا قلب المنطقة، وكسبوا جولة تاريخية، وكسروا قلب مائة مليون عربي وأربعمائة مليون مسلم، وألقوا موجة التاريخ كلها إلى منعطف آخر تماماً..

إن ما يريدونه أكثر من حائط المبكى، وأكثر من مباني المدينة القديمة، وأكثر من موقعها الاستراتيجي والجغرافي، انهم يريدون أيضاً موقعها «الاستراتيجي المعنوي» من مشاعر وثقافات وعواطف آلاف الملايين من البشر من شتى الأديان.

ليس هناك ساحة يمكن أن «ينقلب فيها السحر على الساحر» أفضل من قضية القدس بالذات.

إن القوة العسكرية وحدها لم تحمل إسرائيل إلى القدس. إنما هي قد عبرت بقوتها العسكرية فوق جسر معنوي هائل من تضليل العالم، وتخديره، وتحميس اليهود، واثارة مخيلتهم، واستدرار شجونهم.

وما هو متاح لنا في هذا المجال أكبر وأوسع بكثير. بشرط ألا يتأخر هذا. بشرط أن يشب قبل أن تنهي الجرارات والمعاول هدفها..

ألا يمكن أن نوجه لأنفسنا جميعاً، كتاباً وقراء ومفكرين وبسطاء سؤالاً واحداً: ما هي اقتراحاتكم من أجل القدس؟

إننا ننتظر منكم الاجابات!

١٢ ـ أسئلة جديدة تنتظر من يجيب عليها
مطلوب بداية جديدة للعمل الفلسطيني(*)

تحدثت عن أبرز المتناقضات في المعالجة العربية لقضية فلسطين، بعد هزيمة ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ثم عن أثر من آثار هذه المتناقضات وهو: وجود مليون فلسطيني في الأراضي التي احتلتها إسرائيل في العدوان الأخير. ووجودهم معلقين في الهواء، بغير خطة عربية متكاملة. ورويت تفاصيل عملية الهضم التي بدأتها إسرائيل نحوهم، وكيف انها سوف تصل في نيسان/ ابريل المقبل ـ أي بعد شهرين ـ إلى قمتها: بإجراء الانتخابات البلدية في الضفة الغربية، حيث توجد الكتلة السكانية الفلسطينية الكبرى تحت الاحتلال. وكيف أن اسرائيل تستهدف من وراء ذلك «إيجاد ممثلين جدد للشعب الفلسطيني» وتساءلت: ما العمل؟ . . موجهاً هذا التساؤل إلى كل من يمثل شعب فلسطين أو يهتم بقضية فلسطين. . .

ولقد قال لي بعض من تحدثت معهم من الفلسطينيين: ان من تفرزهم مثل هذه الانتخابات، التي تجري في ظل الاحتلال، لن يكونوا أبداً وبأي معيار قانوني أو جماهيري «ممثلين» لشعب فلسطين.

وهذا أمر لا أناقش فيه، وان كانت الحجة «القانونية» هنا غير ذات قيمة ازاء «الأمر الواقع»، لأن الاحتلال نفسه غير قانوني ولكنه «واقع». . ثم ان إسرائيل لا يهمها بالطبع ـ وهذه بديهة أخرى ـ أن تخرج بما يمكن أن يكون «قيادات حقيقية» أو «ممثلين حقيقيين» للشعب الفلسطيني. . انها على العكس تطارد كل من يمكن أن يحمل لمحة من هذه الأوصاف. ان ما يهمها هو الشكل. يهمها، كما قال لي قادم من الضفة الغربية المحتلة، أن يواجه أبا ايبان العالم قائلاً: هذا هو الشعب الفلسطيني، وهؤلاء «ممثلوه» الذين انتخبهم. . وهم يوافقون على كذا وعلى كيت. وهم لا شأن لهم بقيادات وممثلي «الخارج».

يريدون أمثال أولئك العرب الذين جعلوهم نواباً للوزراء في إسرائيل من باب

(*) الاهرام، ٢٣/ ١/ ١٩٧٢.

الدعاية، مع طحن مجموع الشعب الفلسطيني طحناً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً حتى تهضمه المعدة الإسرائيلية هضماً سهلاً. . .

القضية المطروحة ليست قضية دفوع قانونية أو شرعية إذن. فالشرعية معنا منذ ربع قرن ولكن الأمر الواقع كان معهم دائماً. . .

إذن؟

إذن فالمطلوب هو أن ينظر العرب ـ وتنظر القيادات الفلسطينية بالذات ـ إلى «واقع» وجود مليون فلسطيني تحت الاحتلال الجديد ونصف مليون تحت الاحتلال القديم وأن تسأل نفسها: ماذا نفعل بهذا «الواقع» لنجعله مؤثراً على الأحداث عبر مراحل المواجهة الطويلة؟. . .

عندما يكون هناك مجتمع معيّن تحت الاحتلال الأجنبي، خصوصاً تحت احتلال من نوع خاص يهدده بالتهجير والافناء والقضاء على شخصيته القومية، يكون هناك أمام المدافعين عن هذا المجتمع، المتكلمين باسمه، أحد احتمالين، أو كلاهما:

ـ **الاحتمال الأول**: هو «تثوير» هذا المجتمع، أي أن يكون في حالة ثورة شعبية شاملة، تستهدف زعزعة هذا الاحتلال وطرده. وهنا تكون المهمة الأولى وربما الوحيدة هي المهمة القتالية بأشكالها المتعددة.

ـ الاحتمال الثاني: هو ألا يكون هذا المجتمع في حالة «ثورة» بهذا المعنى. وفي هذه الحالة يكون المفروض أن يتخذ هذا المجتمع أساليب أخرى في المواجهة، والمقاومة، والدفاع عن كيانه وعن شخصيته القومية. ويكون من المهم جداً عمل كل ما من شأنه تدعيم هذا المجتمع مادياً وثقافياً واجتماعياً وقومياً، حتى يكون مؤهلاً للصمود في وجه محاولات الاقتلاع. . ومؤهلاً لأشكال المواجهة الأخرى الأشد عنفاً، إذا آن أوانها وتوفرت أسبابها. .

الموقف الراهن. .

وحين نتأمل، بالمصارحة التي حاولت أن أتحدث بها الأحد الماضي، الموقف في الأراضي الفلسطينية المحتلة. . نجد أن قطاع غزة في حالة شبه ثورة، ولذلك فالجهود الإسرائيلية تنصب كلها على القطاع لترويضه وإدخاله في حالة «السكون». . ونجد أن الضفة الغربية التي توجد فيها الكتلة السكانية والعمرانية الفلسطينية الأساسية، تسودها حالة «السكون» هذه. .

ونجد الإدارة الإسرائيلية تفعل فعلها الهادىء المطّرد في هضم هذه المناطق اقتصادياً وتجارياً. . ثم سياسياً بانتخابات البلديات في نيسان/ ابريل المقبل، أي بعد شهرين!

ولقد سألت بعض من قابلت من القادمين من الضفة الغربية، وأثق في تقديرهم، سؤالاً صريحاً:

إذا أجريت الانتخابات البلدية هذا الأسبوع.. هل سيتقدم لها مرشحون؟

وكان الجواب: نعم. أولاً من أولئك الذين تورطوا مع إسرائيل بالفعل فلم يبق لهم إلا مواصلة الشوط. وثانياً من بعض الأسر التي تتعرض لضغط إسرائيلي متصاعد لهذا السبب.

وسألت: هل ستكون نسبة الاقبال على التصويت عالية؟ أو مرضية لإسرائيل على الأقل؟

وكان الجواب: نعم. فهناك غيبة أيّ ضغط عربي جدي من الخارج. وهناك صمت اعلامي يكاد يكون شاملاً. ثم ان هناك أربعين ألف عامل يعتمد رزقهم اليومي على إسرائيل، وعشرات آلاف آخرين مصالحهم الاقتصادية في يد السلطة الإسرائيلية... وركود النضال العربي بوجه عام، كل هذا جعل تنظيم اضراب شامل ناجح مثلاً أيام الانتخابات ـ والتي ستجري على دفعات ـ أمراً صعباً، ويحتاج إلى عمل وإعداد وتفاصيل كثيرة، منذ الآن...

وكما قال أحدهم: «الفلسطينيون هناك.. يشعرون أن الجدار الذي يفصلهم عن العرب يزداد سمكاً يوماً بعد يوم!».

ومواجهة هذا الواقع تحتاج إلى خطة عاجلة من الآن. مطلوب فيها الإدانة السياسية المستمرة، والضغط الدولي، والقتال المسلح من الداخل، أي «خوض المعركة» على مصراعيها من هنا حتى نيسان/ ابريل المقبل.

كما ان مواجهة واقع الاحتلال كله ـ غير الانتخابات ـ يحتاج إلى خطة أكثر شمولاً..

تدعيم المجتمع

وفي تقديري ان خطة العمل العربي والفلسطيني على السواء، يجب أن تهتم بالعملين العسكري وغير العسكري على قدم المساواة.

ولن أدخل هنا في بند العمل العسكري أو «تثوير» المناطق المحتلة، فهذا أمر له خبراؤه، ولا يناقش علناً على أي حال.. ولكنني أريد أن ألفت الاهتمام إلى البند الثاني الهام الذي أعتقد أنه لم يلق العناية الكافية، وهو: تدعيم المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال مادياً وثقافياً واجتماعياً وقومياً.. حتى يكون مؤهلاً للصمود.

إن ٧٥ بالمئة من اقتصاد الأراضي المحتلة أصبح بالفعل مرتبطاً بإسرائيل! ويمكن أن يصبح هذا الرقم ١٠٠ بالمئة إذا نفذت الدول العربية المقاطعة الشاملة لمنتجات الضفة الغربية بحجة أن فيها نسبة من منتجات إسرائيل [وربما كان هذا صحيحاً] وهو ما تطالب به بعض الجهات العربية دون دراسة كافية.

وآخر البيانات المتاحة تقول: ان أربعين ألف عامل فلسطيني يعملون في إسرائيل وفي

المشروعات الإسرائيلية. وأربعون ألف عامل معناها أنهم يعولون ما لا يقل عن ربع مليون نسمة.

وفي الضفة الغربية ذاتها لا توجه مشروعات عربية لعدم وجود المال. وإذا وجد المال لم تعد توجد الأيدي العاملة التي تأخذ من إسرائيل أجراً أكبر. فالخطة المطبقة والتي نبدو مستسلمين لها، هي نفسها التي طبقت على العرب الذين بقوا في إسرائيل بعد احتلال ١٩٤٨: العزل عن العالم العربي ـ تدمير الثقافة القومية والغاء امكانية التعليم العالي أو الفني أو النمو الذاتي ـ تحويل الفلسطينيين إلى طبقة عاملة جاهلة ترضى بأجر تراه مرتفعاً نسبياً وإن كان أقل من أجر الإسرائيلي.

لماذا يا ترى: لم يذهب «مال» عربي إلى الأراضي المحتلة، كاف لإقامة مشروعات، ومدارس، ومستشفيات ومساكن عربية لحساب سكان الأراضي المحتلة؟...

إن هذا يبدو سؤالاً محرجاً، وربما جارحاً: مال عربي يذهب إلى الأراضي المحتلة؟ وربما يضطر للذهاب عبر قنوات دولية أو إسرائيلية؟ وربما تأخذ إسرائيل منه شيئاً؟..

سؤال، بالفعل يواجهنا بحقائق اليمة وجارحة.

ولكن، هل يمكن أن أقول للعامل الفلسطيني الذي يعمل في إسرائيل وفي بناء مساكن للمهاجرين اليهود الجدد بالذات.. هل يمكن أن أقول له: عليك أن تختار بين العمل في تعمير إسرائيل وتدعيمها وبين أن تموت جوعاً؟ مستحيل، وهو لم يفلح على أي حال. حتى حين ألقت بعض المنظمات القنابل على هؤلاء العمال وقتلت منهم من قتلت، لم يتوقف العمل، لأن البديل الآخر هو: الجوع! وجوع الأم والزوجة والأبناء!

ولكن، كان ممكناً، وربما لا يزال ممكناً، لو أوجدنا له عملاً عربياً فلسطينياً في أرضه الفلسطينية ومشروعاته الفلسطينية أن نقول له: عليك في سبيل بلدك أن تترك عملك عندهم وتعمل هنا ولو بأجر أقل!

وفيما أظن، فإن أحد مؤتمرات القمة العربية، في الرباط على الأغلب، اعتمد مبلغ ١٧ مليون جنيه لتدعيم الصمود في الأراضي المحتلة.

ولا أظن أن هذا البند قد نفذ منه شيء، أو دفع منه شيء.

وانني أعرف جيداً أن فتح هذا الباب الجديد من أبواب النضال ليس بالأمر السهل. إسرائيل ستحاول أن تقاومه. وبعض الجماعات الفلسطينية قد تعارضه. والسبل إليه شديدة التعقيد. ولكن لا أظن (أولاً) أن تدبير المال بكميات كافية من أطراف هذه الأمة العربية المتخمة بالمال مستحيل. (ثانياً) لا أظن أن ايجاد السبل التي يدخل بها المال إلى الأراضي المحتلة، دون اعتراف من الدول العربية أو تعامل رسمي مع سلطة الاحتلال مستحيل. (ثالثاً) لا أظن أن قيام المقاومة ذاتها بهذا العمل أو اشتراكها فيه، من وراء ستار مستحيل.

من الممكن جداً تكوين منظمات أهلية خيرية عربية، أو مختلطة عربية أوروبية مثلاً،

تكـون هي من الناحيـة الشكلية الهيئـات التي ترسم خـطة مسـاعـدة الأراضي المحتلة وبحث مشروعاتها الحيوية المتجمدة، ودفع المال عن هذا الطريق، وعن كل الـطرق عبر كـل الهيئات الدولية وغير الدولية لهذه المشروعات التي تحفظ المجتمع الفلسطيني، وتنميه، اقتصادياً وثقافياً وقومياً، وترد قوتـه العاملة إليـه، وتسلب إسرائيل المزايا التي تجنيهـا من قوة العمـل العربي، ومن جعل اقتصاد الأراضي المحتلة كله معتمداً ـ وتابعاً ـ لاقتصاد إسرائيل . .

اغراءات إسرائيل

منذ سنة تقريباً، مثلاً، فاجأت السلطة الاسرائيلية الزعامات العربية المحلية في الضفـة الغربية بأن هناك تبرعاً من جمعية أمريكية لكي يقيم الفلسطينيون جامعة في الضفة الغربية . . وأن إسرائيل موافقة. وأن شرطها الوحيد أن لا تكون في الجامعة مواد معادية لدولة إسرائيل .

ووقع العرب هناك في حيرة شديدة . . ان اقامة جامعة في فلسـطين أمل قـديم عزيـز، وكل أسرة تريد أن تعطي ابنها وبنتها هـذه الفرصـة لكي يتخرج ويبقى في الـوطن، بدلاً من صعوبات السفر إلى الخارج من جهة، واحتمالات عـدم العودة من الخـارج من جهة أخـرى، وبالتالي هذا الفاقد المستمر في الكفايات الفلسطينية .

وفي نفس الـوقت، لا يمكن أن يكـون هـذا المشروع ـ حـين يجيء من إسرائيــل ـ إلا لحاجة في نفس يعقوب، وستكون إسرائيل مهما كان الأمر هي التي أقامت الجامعة .

وحاول أهل الضفة الغربية عبثاً أن يجدوا نصيحة لـدى العرب ولـدى الفلسطينيـين في «الخارج» . .

ولا أزعم أن لديّ اجابة . .

ولكن ـ وأقـولها دون دراسـة ـ ألم يكن ممكناً أن تـدرس جهات عـربيـة محض مشروعـاً عربياً مضاداً، ليس «منحة من مؤسسة أمريكية» ستكون لها بالتأكيد سطوة عليها؟ . . .

إنني في مقال الأحد المـاضي وهذا الأحـد لا أُفتي بآراء قـاطعة، ولكنني أطـرح جوانب قضيـة هامـة، أشعر أن العـرب لا يفكرون فيهـا، لأنهم لا يؤمنون بـالعمل النضـالي المتعدد الوجوه، ولا يؤمنون بخطورة «الأمر الواقع» وأثره في تكوين الحقائق السياسية مـع الزمن كـما تؤمن إسرائيل، ولا يدركون أن أخطر ما حدث لفلسطين كان الهجـرة منها، وأخـطر ما يمكن أن يحدث لها هو الهجرة منها، وهجرة الكفايات بالذات، وابقاء من يلزمون إسرائيل في أعمال معينة لا غير.

إنها قضية معنوية هامة يمكن احراج إسرائيـل فيها احـراجاً خـطيراً، افليس سهـلاً أن ترفض مالاً ذاهباً من ناس إلى ذويهم، أو من أجل مشروعات تعليمية أو انتاجية وغيرها؟

هذا جانب.

الجـانب الآخـر، انـه لا بـد من تنـظيم نشـاط سيـاسي غـير عسكــري في الأراضي المحتلة . . .

إن العمل العسكري له دوره الذي لا مفر منه.

ولكن حيث يكون العمل العسكري متاحاً وحيث لا يكون، نجد أن المنظمات والنشاطات السياسية التي تستطيع أن تنظم أشكالاً أخرى من المقاومة السلبية أو المدنية أو الاقتصادية ذات الطابع السلمي، هامة جداً. انها سوار يحيط بالعمل المسلح وهي قاعدة لتغذية جذوة الاحتجاج المستمر أمام المحتل وأمام العالم وهي قادرة على احراج إسرائيل ومنازعتها سواء في عقر دارها، أو في الأراضي المحتلة بعد حزيران/ يونيو، أو في الساحات الدولية.

خلاصة القول ان العمل الفلسطيني - بعد أن يرد على المتناقضات الأساسية التي طرحتها يوم الأحد الماضي - يجب أن يكون عمله متعدد الوجوه: وجه عسكري وسياسي متمثل في إرادة المقاومة الفلسطينية المسلحة، ووجه سياسي مدني داخلي له وسائله الأخرى في الداخل، ووجه اقتصادي ثقافي تعميري يستهدف الحفاظ على بقاء المجتمع الفلسطيني ونموه وهويته ويحول دون عمليات الاقتلاع أو التذويب التي يتعرض لها بشدة، أو التي أحد مواعيدها الحاسمة نيسان/ ابريل المقبل.

إن الشعب الفلسطيني يواجه الآن أياماً بالغة الخطورة.

فإزاء التفكك العربي، والتمزق الفلسطيني، وعمليات الهضم والاستيعاب وتثبيت الأمر الواقع التي تتم بسرعة فائقة، والعجز عن ايجاد منطلقات أساسية جديدة: توجه النضال الفلسطيني وتحركه بكافة جوانبه العسكرية والسياسية والفكرية والاقتصادية والثقافية.. إزاء هذا كله بات الفلسطينيون معرضين للعودة إلى الشتات النفسي الذي يهون دونه الشتات المادي في أنحاء الأرض.

ولا مفر من أن تلتقي القيادات الفلسطينية في اطار جديد يضم طاقات هذا الشعب العسكرية والفكرية والمادية والسياسية، يكون قادراً على الاستفادة من هذه الطاقات، وقادراً على خوض النضال من هذه الوجوه المتعددة الجبهات.

على الشعب الفلسطيني أن يترجم الشعار الاستراتيجي العام إلى برامج عمل متعددة المراحل، متعددة الجبهات تستقطب كل امكانات النضال الفلسطيني على جميع مستوياته.

ولو توحد الفلسطينيون فسيعاملهم العرب، والنظم، معاملة أخرى، ولو وضعوا هذا البرنامج، فسوف يضعون كل هؤلاء أمام مسؤولياتهم بوضوح.

١٣ ـ «مفتاح» آخر لفهم مشروع «المملكة العربية المتحدة»
الملك حسين اتخذ موقفاً استراتيجياً جديداً:
إما أن يقبل الفلسطينيون الحل الذي يأتي به وإمـا أن «تستقل الأردن» عن فلسطين!(*)

دائماً أعتقد أنه ليس من حق المعلق السياسي أن يقدم إلى قرائه، في قضية ما، أحكامـاً نهائية قاطعة من غير حيثيات أو مبررات. كـذلك لا أعتقـد في جدوى الكتـابة التي تخـاطب غـرائز القـارىء، لأنها بذلـك لا تحترم عقله. لـذلك كنت أعتقـد دائماً أن من واجب المعلق السياسي أن «يشرك» القارىء معـه في التأمـل والتحليل وفي الـوصول إلى النتيجـة. الوظيفـة الأسـاسية للمعلق السيـاسي هي أن يضع أمـام القارىء مجمـوع ما يصـل إليـه عـبر السمـع والقراءة والمعرفة السابقة، وأن يقدم له تفسيراتـه واستنتاجـاته، وهي سـاحة مفتـوحة للخـطأ والصواب.

كذلك على المعلق السياسي أن يضع أمام صانعي السياسة في بلاده كـل الاحتمالات.. التي يجب أن تدخل في حساباتهم وأن يرتبوا عليها مواقفهم.

ولقد حذرت وأنذرت منذ يوم النكسة إلى أن اسرائيل ستعمل على خلق كيان فلسطيني على نحو ما، وطالبت بأن يكون للعرب موقف مبادرة يتخطى مجرد الرفض.

وقبل أسابيع، وحين لاحظت أن هناك صمتاً شاملاً غريباً حول قضية انتخابات الضفة الغربية، كتبت ثلاث مقالات متوالية محذراً ومنذراً، ومستنـداً لا إلى الأوهام والأحـلام ولكن إلى «حقـائق الأمـور» التي تحـدث في الضفـة الغـربيـة وحتى لا يكـون ردنـا نحن العـرب في الساعات الأخيرة.

وقـد كان محـور هـذه المقـالات: أننـا نحن العـرب نهتم معـظم الأحيـان «بـالـظاهـرة السيـاسية» وحـدها، ولا نـذهب بعيداً إلى أعـماقها الاقتصـادية والاجتـماعية.. هنـاك حيث تتصاعد تصريحات إلى اسرائيل حتى تنتهي إلى خلق واقع تصبح «الـظاهرة السيـاسية» نتيجـة

(*) الأهرام، ١٩٧٢/٣/٢٦.

حتمية إليه. وحاولت أن أدعو إلى التفكير في قضية الأراضي المحتلة من هذه الزوايا كلها، وطالبت بايجاد خطة شاملة «للصمود» هناك، اقتصادية واجتماعية وسياسية وقتالية.

وما زال خوفي الأكبر ـ واعترف بذلك ـ أن إسرائيل عبر شتى المناورات السياسية، وعبر الاستفادة بالصراعات العربية وبعدم الوضوح العربي، تعمل على تحويل عرب الأراضي المحتلة من سكان في أرض احتلال ينتظرون يوم التحرير إلى «أقلية قومية» كعرب ما قبل ١٩٦٧ داخل إسرائيل: يضطرون عبر ظروفهم الحياتية إلى أن يهبط صراعهم من مستوى الصراع السياسي إلى صراع طلب الحقوق المدنية وحل المشاكل المعيشية الصغيرة.. ونحن نتفرج.. ساكتين أو صارخين بخلافاتنا..

وقد شرحت في مقال الأحد الماضي ما تصورت أنه حكمة للتوقيت وأهداف مشروع الملك حسين واحتمالاته.

هذه المرة، أريد أن أشرك القارىء، وصانعي السياسة في الدول العربية وفي قيادات المقاومة الفلسطينية في استنتاج آخر، من زاوية أخرى.

تطور صورة «الفلسطينيين»

الثابت من كافة الاتصالات، والقراءات، أن كل القوى المتصلة بالقضية دولياً ومحلياً، كانت تصل في النهاية إلى نقطة لا يمكن تخطيها وهي: انه لا يمكن حل القضية مع تجاهل الفلسطينيين!

محاولات كثيرة جرت لحل القضية عسكرياً أو سياسياً، عقب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ مباشرة، انطلاقاً من أنها حرب بين اسرائيل وثلاث دول عربية هي مصر والأردن وسوريا.

إسرائيل كانت تقول انه لا يوجد شعب فلسطيني، وانها تريد سلاماً كاملاً مع ثلاث دول مجاورة... أما مشكلة «اللاجئين الفلسطينيين» فهي قضية إنسانية تحل في مؤتمر دولي تشترك فيه إسرائيل والدول العربية والعالم المستعد للتبرع بالمال لتوطينهم في البلاد العربية الأخرى [وارجعوا في هذا إلى خطب أبا ايبان الرسمية في دورات الأمم المتحدة المتعاقبة].

وكان منطلق الدول العربية هو تنفيذ قرار مجلس الأمن وهو انسحاب الاحتلال من أراضي ثلاث دول عربية مع «المحافظة على الحقوق المشروعة لشعب فلسطين» ولم يكن هناك تعريف رسمي دولي واضح لهذه الحقوق، إذا استثنينا موقف الدول العربية المستمر قبل الحرب وهو «تخيير اللاجئين الفلسطينيين بين العودة إلى ديارهم أو التعويض».

وكانت نقطة الخلاف هنا واضحة للطرفين:

- إسرائيل تريد «انهاء قضية الفلسطينيين» وبهذا يتم «السلام» حقاً. ويغلق الباب نهائياً، وبغير ذلك لا جلاء!

- الدول العربية تريد الجلاء، وتريد ابقاء تلك الصيغة الغامضة «الحقوق المشروعة

لشعب فلسطين» لأن بقاءها معناه الاحتفاظ بحق «المطالبة» في المستقبل، وعدم قفل الباب نهائياً أمام الفلسطينيين في انتظار ظروف أحسن. وهذا الباب هو بالتحديد ما تريد إسرائيل أن تغلقه. ويمكن أن نضيف: وما تريد معظم القوى العالمية أن تغلقه، لأنه بغير ذلك يبقى «دمل» الشرق الأوسط كامناً، تعود آلامه وأخطاره إلى التجدد مرة بعد مرة.

هنا يأتي أثر الفدائيين وانجازهم الكبير. فالمقاومة الفلسطينية بكل التضحيات التي قدمتها، بدأت تلفت الأنظار بشدة إلى وجود «الفلسطينيين» كطرف أساسي لا يمكن تجاوزه.

ثم بدأ وضع «الفلسطينيين» في عين العالم والأطراف المعنية، بفضل المقاومة، يتطور: من «اللاجئين»، إلى «فلسطينيين» بالذات، ثم «شعب فلسطين»، إلى «حقوق قومية لهذا الشعب الفلسطيني». . .

وإذا كان هذا التطور قد ظهر في تعليقات المعلقين في العالم الخارجي، وظهر لدى قطاعات في الرأي العام الإسرائيلي ذاته، بدليل المثل الذي ذكرته الأسبوع الماضي من حديث سكرتير عام حزب العمل الحاكم في إسرائيل «اريه الياف» عن تحديد وتأكيد وجود كل ما يكوّن «شخصية وطنية فلسطينية» و«شعباً فلسطينياً». . . فإن الأهم من ذلك أن الدول الكبرى ذاتها وصلت إلى هذا الاقتناع، الاقتناع بأنه: لا بد من وضع «الشعب الفلسطيني» على خريطة الأحداث، ولا بد من الاعتراف به كطرف في الصراع. . .

ـ وأظن أن معلوماتي صحيحة في أن الدول الكبرى الأربع مثلاً ـ أمريكا، روسيا، انجلترا، فرنسا ـ حاولت كل منها في وقت ما أن تعرف بطرق شتى ماذا يريد الفلسطينيون، ممثلين في حركة المقاومة، من هذه المرحلة. . وحاولت أكثر من مرة أن تدخل معهم في حوار. . .

ـ وأظن أن من السهل إعادة قراءة خطاب ريتشارد نيكسون نفسه في العام الماضي عن الموقف العالمي ـ خطابه قبل الأخير ـ والذي كانت فيه اشارات أكثر من واضحة إلى الفلسطينيين، يشير فيها إلى أن البحث ممكن ولازم حول مستقبل شعب فلسطين، وانه لا بد من مواجهة هذا السؤال. . وكان في هذا يوجه الخطاب لهم، بصرف النظر عما في رأسه من وجهة نظر خاصة بطريقة حل مشكلتهم. .

ـ وأظن أن الدبلوماسي العربي السابق الكبير، كان صادقاً حين قال لي مرة: ان «جونار يارنج» قال له عقب إحدى جولاته القديمة في المنطقة: «إحدى المشاكل في مهمتي أني لا أستطيع أن أقابل الفلسطينيين!» وأيضاً لا يهمني هنا رأي الفلسطينيين في مهمة يارنج أو في قرار مجلس الأمن، ولكن يهمني تأكيد الاستنتاج القائل بأن العالم بدأ يعترف بأن هناك «شعباً فلسطينياً» وأنه طرف أصيل.

في تلك اللحظة، وحين كانت المقاومة الفلسطينية اسهمها عالية، حدث أمران غريبان:

الأمر الأول: هو أن الملك حسين تكوّن لديه اقتناع عميق، أو على الأقل لدى

الكثيرين ممن يحيطون به، أن هناك مؤامرة عالمية ضده. وان الدول الكبرى ـ حتى حلفائه ـ والدول العربية، تهيء الظروف لحل المشكلة عن طريق الإطاحة به واعطاء الفلسطينيين دولة تضم الأردن شرق النهر وغربه على السواء، أي التضحية به في سبيل حل مشكلة «الشعب الفلسطيني» عن طريق اعطائهم دولة.

الأمر الثاني: إن المقاومة الفلسطينية لم تستجب لأي شيء من ذلك قط، سواء كان قد ورد حقاً أم لم يرد. كان لدى المقاومة الفلسطينية خوف عميق من أن قبول الدولة معناه وضعهم في إطار الشرعية الدولية وجرهم إلى الاعتراف بإسرائيل وهو ما لا يقبلون به. وفي نفس الوقت رفضوا أو عجزوا عن أن يستجيبوا للحوار، مجرد الحوار، مع القوى الأخرى لعدة أسباب: لأنهم «تمترسوا» وراء شعارات لا تتيح فرصة الحوار، ولأن تصرفات المغامرين والمزايدين طفت على السطح وظنت أن قطوف النصر دانية ولم تفكر في شتى العواقب والاحتمالات، ولأن الروح القتالية في العالم العربي بوجه عام كانت تبدو أعلى مما هي عليه الآن، ولأن المقاومة لم تتمكن من اقناع العالم بأن لها قيادة واحدة تستطيع أن تكون لها الكلمة النهائية المطاعة المهابة لدى كل الفلسطينيين كما كان الشأن بالنسبة لجبهة التحرير الجزائرية قبل استقلال الجزائر.

في اللحظة التي كان يمكن أن يكون فيها الفلسطينيون طرفاً قوياً، رفضوا ذلك. وكان هذا في تقديري هزيمة سياسية كبرى الحقوها بأنفسهم أخطر من الضربات العسكرية التي تلقوها. ان النضال العسكري في جميع الحروب والثورات على السواء انما يخدم اتجاهاً سياسياً محدداً، متطوراً، متصاعداً، وليس الهدف منه مجرد الصدام.

وليس معنى ذلك أنه كان على الفلسطينيين أن «يقبلوا» ما تفكر فيه الأطراف الأخرى. ولكن كان عليهم أن «يشغلوا مكانهم» في الساحة بقيادة موحدة لا تقبل الشك في صفتها التمثيلية وفي شمول قاعدتها. ومن تلك النقطة تتحدث، وتدلي بآرائها، فتتحرك إلى المستقبل وتتخذ المواقع التي تشاء...

رفضت المقاومة الفلسطينية إذن ما كان الملك حسين يخشى أن يقبلوه! ولم تنجح المقاومة الفلسطينية في أن تحقق إحدى صيغتين سياسيتين!

إما وحدة قوية فلسطينية شاملة تفرز الشعب الفلسطيني كله عن غيره من الشعوب العربية، وان كانت مرتبطة بها، وتصبح هي الطرف الفلسطيني الوحيد...

وإما اقامة جبهة تدمج الشعبين الفلسطيني والأردني، الممتزجين منذ ربع قرن، في معركة واحدة، وتضم قيادات الشعبين معاً في قضية واحدة.

هل يمكن برنامج بديل؟

الآن، وفي تبسيط يسمح لنا بتلخيص القضية إلى عناصرها الأساسية، ما هو الموقف؟

الموقف هو كالآتي:

الكل ـ الدول الكبرى، العرب طبعاً، وربما . . إسرائيل ـ يعترفون بأن هناك شعباً فلسطينياً، وانه طرف لا بد من ايجاد دور له.

ـ ولكن بعض الدول الكبرى، وربما إسرائيل يريدون: شعباً فلسطينياً معيناً، يختارون جمهوره، ويعينون له قيادته، وبالتالي يوجهونه عبر سلسلة من الاجراءات التي يخلق كل منها «أمراً واقعاً جديداً، إلى قبول الحل الذي يريدون». . .

ـ والرأي العام العربي، والفلسطيني، يعترف بوجود شعب فلسطين: ولكن بشرط أن يضم كل من هو فلسطيني، ودون شرط مسبق لهذه «الفلسطينية» يضعه أحد، ويكون له بهذا الوضع حق اختيار قياداته وممثليه الحقيقيين. . وبالتالي اختيار المستقبل الذي يريد. .

وحول هذا سيدور الصراع، كما قلت الأسبوع الماضي. .

ولن يكسب الصراع من يرفض ويسكت. ولكن سيكسبه الطرف الذي يستطيع أن يبني قيادة فلسطينية شاملة، تضم بين جوانبها فئات الشعب الفلسطيني كافة، حامل البندقية وحامل الفكر، رجل الحرب ورجل السياسة ورجل الاقتصاد. فلسطيني «الداخل» وفلسطيني «الخارج». . وهو الطرف الذي يستطيع أن يعطي هذا الجسد برنامجاً حقيقياً للتصرف والعمل، برنامجاً لليوم القريب وبرنامجاً لليوم البعيد، برنامجاً لهذه المرحلة وللمراحل المقبلة.

وإذا لم تتمكن المقاومة الفلسطينية، من أن تحقق هذا العمل ـ الذي أعرف صعوباته الضخمة ـ فإنها تعرض نفسها وتعرض الشعب الفلسطيني لخطر جسيم.

هل يمكن وضع برنامج بديل! أعتقد أنه ممكن!

ولكنه حديث آخر.

١٤ ـ مشروع الملك حسين في لعبة الدول الكبرى(*)

هل يمكن القول إن هناك صلة بين مشروع الملك حسين وبين لقاء نيكسون وبريجينيف بعد أسابيع؟

في فهم التحركات السياسية الرئيسية، يقع الكثيرون أحياناً في خطأ محاولة ارجاعها إلى سبب واحد. وأحياناً يدور جدل ونقاش بين هذا السبب وذاك من الأسباب المطروحة للبحث.

إن العملية السياسية عادة معقدة ومتشعبة الأطراف والقرار الاستراتيجي الهام تدفع إليه في العادة مجموعة أسباب متراكمة، ربما كان منها ما يسمى «بالسبب المباشر» ولكن السبب المباشر لا يكفي عادة لفهم كل حوافز القرار.

وفي عالم اليوم، المتشابك الذي يتبادل التأثر والتأثير إلى حد كبير، نجد في كل خطوة سياسية كبيرة الاعتبارات المحلية والاعتبارات الدولية تفعل فعلها جنباً إلى جنب. فوجود الصراع الدولي بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا مثلاً يعكس ظله على الصراعات المحلية، وان كان هذا غير القول بأنه العنصر الوحيد. لذلك ليس غريباً، في محاولة فهم حوافز مشروع الملك حسين ودوافعه، أن نتصاعد في التحليل والتأمل من العوامل المحلية إلى العوامل الدولية، وأن نتأمل الخرائط المبسوطة على موائد عمان وتل أبيب كما نتأمل الخرائط المبسوطة على موائد البحث في موسكو وواشنطن.

ـ نستطيع أن نتصور أن الخرائط والحسابات المطروحة في إسرائيل تقول: **ان الحد الأقصى لمطالب إسرائيل هو الاحتفاظ بكل الأراضي المحتلة، مع إقامة وضع دستوري خاص يجعل الكتلة العربية السكانية المركزة في الضفة الغربية وغزة متمتعة باستقلال ذاتي داخل**

(*) الأهرام، ١٩٧٢/٤/٢٩.

إسرائيل، يسمح لإسرائيل، مع الوقت والتهجير، باستيعاب المنطقة كلها، ويسمح لها في هذه الأثناء باستخدام اليد العاملة العربية الرخيصة ولا يهددها بخطر تساوي السكان العرب في الحقوق مع السكان اليهود، مما قد يغير وبسرعة كيان دولة إسرائيل ـ دولة اليهود الخالصة ـ من الداخل.

وإن الحد الأدنى لمطالب إسرائيل هو الانسحاب من ثلثي سيناء تقريباً مع الاحتفاظ بثلث سيناء، على الأقل، لمدة لا تقل عن عشرين سنة تنتهي أثناءها كل احتمالات مواجهة عربية اسرائيلية جديدة، واعادة أجزاء من الضفة الغربية وغزة، مع تعديلات أساسية في الحدود، إلى سلطة الملك حسين سواء جعل من هذه الأجزاء قطراً فلسطينياً أم لا، بشرط الحدود المفتوحة بين الدولتين.

ـ ونستطيع أن نتصور أن الحدّ الأقصى لمطالب الملك حسين هو أن يسترد جزءاً من الضفة الغربية بالاضافة إلى غزة وأن يتكون منهما قطر فلسطين ـ كما قال في مشروعه ـ مع ضمانات لإسرائيل لا نعرفها بعد، ولكن أصبحنا نعرف من تصريحاته الأخيرة أن الحدود المفتوحة جزء مقبول منها.

ولكن الملك حسين ـ في تقديري ـ ليس واثقاً حتى من إمكان انجاز هذا الحل، سواء لأن إسرائيل ستمارس لعبتها التقليدية في افشال المشروع والمبادرة تدريجياً، أو لأنها قد تفرض شروطاً يتعذر عليه قبولها، أو لأن المقاومة الفلسطينية والعربية قد تنجح في افشال المشروع.

لذلك، ما زال تفسيري لمشروع الملك حسين هو كما قلت في حديث سابق: انه قد اتخذ به موقفاً استراتيجياً جديداً يسمح له بالتحرك في الاتجاه الذي سيجده مفتوحاً من بين اتجاهين متاحين:

ـ إما أن ينجح المشروع، ويجد تمثيلاً فلسطينياً يتمكن به من تمريره فتكون له المملكة المتحدة ذات القطرين.

ـ وإما أن يفشل المشروع، فيكون لديه «دولة شرق الأردن» من جديد مهما كان اسمها، ينفك معها «الالتزام الفلسطيني الخاص».. ويصبح إحدى الدول العربية التي تعمل لحل قضية قطر آخر منفصل هو فلسطين، ليس عليه في هذا المجال التزام أكثر من التزام أي دولة عربية أخرى وترك مصير الشعب الفلسطيني داخل بلاده للأقدار.

ماذا إذن عن التوقيت؟.

إذا تصورنا «الحوافز المحلية» التي دفعت الملك حسين إلى اختيار هذا التوقيت فسوف نجد انها:

أولاً ـ الأزمة التي تمر بها المقاومة الفلسطينية.

ثانياً ـ الجمود الذي ساد الموقف العربي بوجه عام.

ثالثاً ـ تحرك إسرائيل إلى إجراء الانتخابات البلدية. وهذا عنصر يحتاج إلى شرح موجز خاص.

فإسرائيل في الواقع كانت في غنى عن إجراء الانتخابات البلدية لو كان الأمر مجرد الاحتفاظ بالوضع الراهن. ولكن تحركها إلى اجراء هذه الانتخابات وتجشم الصعوبات التي تجشمتها، والتجاءها إلى القسر والضغوط التي لجأت إليها، يعني انها تريد من ذلك أمراً. هذا الأمر معناه: إما ان توجد هي بالتدريج، وعلى مر سنوات، «الولاية الفلسطينية» الداخلة في دولة إسرائيل، وإما أن تضطر الملك حسين إلى التعامل معها والقبول بنصف نتيجة: فيكون له رجاله في الانتخابات وتكون هذه «الولاية الفلسطينية» تابعة له قانوناً، محاطة بكل الشروط الإسرائيلية والضمانات التي نعرف بعضها ولا نعرف بقيتها.

وقد أثمرت الحركة الإسرائيلية أولى ثمارها: اضطر الملك حسين إلى التحرك للاتصال بإسرائيل وملاقاتها في منتصف الطريق.. وطرح التنازلات التي طرحها. وقد تمثل ذلك في تغير موقفه من معارضة الانتخابات في البداية معارضة شديدة إلى مهادنتها ثم التعامل معها.. وانفتاح كثير من الجسور بين الطرفين.. ثم اعلانه مشروعه الذي هو بداية الحوار العلني للحل الممكن بينهما، في نقطة ما بين «الحد الأقصى والحد الأدنى» لمطالب كل منهما، كما سبق أن شرحت في أول هذا الحديث..

ولكن.. لم تكن الإرادة الأردنية والإرادة الإسرائيلية هما الوحيدتين اللتين تحركان قطع الشطرنج في هذه اللعبة. ولكن كانت هناك في تقديري يد ثالثة تدفع وتحرك على الجانبين وهي: الولايات المتحدة الأمريكية..

وهذا ينقلنا من رقعة الشطرنج المحلية إلى رقعة الشطرنج العالمية، التي لا يكتمل التفسير إلا بفهمها...

إن مصالح الولايات المتحدة الأساسية في المنطقة هي:

أولاً ـ حل مشكلة الصراع العربي ـ الإسرائيلي حلاً نهائياً، بالشروط المواتية لإسرائيل، حتى تنتهي هذه الساحة من ساحات المنافسة الأمريكية ـ السوفييتية التي تضع أمريكا دائماً ضد العرب وبالتالي تضع الاتحاد السوفييتي معهم وتيسر لهم المزيد من الكسب.

ثانياً ـ إخراج الوجود السوفييتي العسكري من المنطقة إذا تم الحل، ثم زعزعة الوجود السياسي الاقتصادي له. أو إذا لم يتم الحل: محاصرة هذا النفوذ، وتضييق الخناق عليه، واحراجه باستمرار.

ثالثاً ـ المحافظة على النظم الموالية لأمريكا والحفيظة بالتالي على مصالحها في المنطقة، فلا تعاني من دمغها بأن إسرائيل هي الحارس الوحيد لها في المنطقة، الأمر الذي يجعل وضعها على المدى البعيد قلقاً ومهدداً بالعزلة.

وهنا يأتي عنصر التوقيت...

ان هناك موعداً مهماً مقبلاً بعد أسابيع قليلة: لقاء نيكسون مع بريجنيف في موسكو. . .

وقد قال نيكسون نفسه أن رحلته إلى موسكو هي المحطة الأخيرة في لقاءاته مع رؤساء دول العالم الكبرى، وانها في سياسته الجديدة لإعادة ترتيب العالم، هي أهم المحطات وأهم اللقاءات.

وقد بدت زيارة بكين مثلاً أكثر بريقاً من الناحية الاعلامية، لغرابتها وطرافتها ولانقطاع كل سبل الحوار بين أمريكا والصين ما يقرب من ربع قرن. ولكن اجماع المحللين الأمريكيين كان دائماً هو «أن الصين هي المنافس القوي المحتمل بعد زمن، ولكن الاتحاد السوفييتي يظل هو المنافس الحقيقي الخطير، الراهن». . . بقوته الذرية المعادلة لقوة أمريكا، بأساطيله النامية في البحار السبعة، بتجارته وعلاقاته الاقتصادية الدولية النامية والتي تعكس نمواً اقتصادياً كبيراً. . وبموقعه الجغرافي الفذ الذي يجعله ملاصقاً لكل نقطة حساسة أو جبهة ذات أهمية بين الشرق والغرب: فهو يطل شرقاً على اليابان، وجنوباً على الهند وإيران وباكستان، وبينه وبين البحر الأبيض تركيا فقط، وغرباً له وحلف وارسو نصف أوروبا. . بل انه في مياه أمريكا ذاتها له حليف راسخ هو كوبا.

من هنا، يمكن أن نرى بسهولة، كيف أن الطرفين يستعدان للقاء موسكو بتحركات عالمية واسعة وسريعة ومتلاحقة، بعضها ساخن ملتهب بالفعل، وبعضها هادىء بارد، وبعضها بين بين: منذر بالخطر، أو بالوصول إلى حافة الهاوية، في أي لحظة. . .

ولأن اللعبة الدولية بين موسكو وواشنطن، ليست هي الموضوع الأساسي لهذا الحديث، فما زال موضوعنا هو الشرق الأوسط، وبالذات مشروع الملك حسين. . فإنني لا أريد الخوض في تفاصيل تلك المواجهة الدولية الشاملة، ولكن يجب فقط رصد «عناوين» هذه التحركات لنضع في اطارها المشروع الأردني:

واشنطن، تستعد لهذا اللقاء بالتحركات التالية:

- لقاءات نيكسون مع زعماء المعسكر الغربي: بومبيدو، وهيث وبراندت، وايزاكو ساتو. . لتهدئة خواطرهم واعطائهم تأكيدات بأن لا يتم أي اتفاق «فوق رؤوسهم».

- محاولة حل الأزمة المالية الأمريكية واصلاح نظام النقد في العالم الغربي.

- رحلة الصين، وهي الورقة أو المفاجأة الكبرى، سواء لمحاولة عزل روسيا نهائياً عن الصين أو على الأقل لجعل باب الصين مفتوحاً لأمريكا وروسيا على السواء.

- تقوية وضع السياسة الأمريكية في فيتنام، وعدم الظهور بمظهر المتساهل المنسحب، ومن هنا، رغم سياسة نيكسون في سحب القوات البرية لارضاء جبهته الداخلية، كثف غاراته الجوية بشكل ليس له مثيل ليكسر ظهر أي امكانية هجوم فيتنامي واسع ووقف مباحثات باريس.

ـ عقد اتفاقية القاعدة البحرية الأمريكية العسكرية في البحرين، تأكيداً لوجود أمريكا في الخليج . . .

ـ التغاضي عن اعتراضات أمريكا السابقة على نظام الحكم في اليونان، والخضوع لطلبات الأسلحة الضخمة التي طلبتها اليونان، مقابل عقد اتفاقية اقامة قاعدة عسكرية بحرية في «بيريه» وارتباط هذا بالضغط على مكاريوس لخلعه من رئاسة قبرص وانهاء محاولة الحياد التي يمارسها منذ سنوات وتحويل قبرص إلى قاعدة مباشرة لحلف الأطلنطي.

ـ وفي تقديري أن جزءاً من هذا الاستعداد هو: التخطيط لمشروع الملك حسين واختيار هذا التوقيت له.

لماذا؟ . . .

لا شك أن منطقة الشرق الأوسط، ببترولها، وحجمها التجاري الضخم، وقوتها الاستثمارية الضخمة، واطلالها على طول ساحل البحر الأبيض، وكل البحر الأحمر، والخليج العربي، والمحيط الهندي . . وبالصراع الناشب فيها بين العرب وإسرائيل، وباحتمالات التحول الاجتماعي فيها . . كل هذه الأسباب تجعلها من أكثر مناطق العالم حساسية في الصراع الدولي.

وبصدد الجانب المباشر من هذه الجوانب كلها، وهو الصراع العربي ـ الإسرائيلي وانحياز أمريكا لإسرائيل . . تريد أمريكا أن تذهب إلى موسكو وفي يدها «ورقة هامة» في المنطقة:

انها عقدت صلحاً بين إسرائيل وبين الدولة العربية الحليفة لأمريكا من دول المواجهة وهي الأردن، وانها حشرت الفلسطينيين في الحل بشكل أو بآخر.

سواء تم هذا المشروع فعلاً قبل لقاء أيار/ مايو، أو لم يتم، فإن أمريكا يهمها أن يذهب نيكسون إلى موسكو والمشروع على الأقل «ما زال حياً» وقابلاً للتنفيذ: عازلة بذلك دول المواجهة الأخرى مع فلسطين، وجاعلة بذلك دائرة الصراع مقصورة على إسرائيل والدول الصديقة للاتحاد السوفييتي.

هنا أيضاً نجد لسياسة أمريكا حداً أقصى وحداً أدنى تطلبه: الحد الأقصى أن تنجح في فرض الحل، والحد الأدنى أن تبقيه على الأقل ماثلاً على قيد الحياة حتى لقاء أيار/ مايو المقبل، كورقة للضغط على موقف الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط وفي قضية المواجهة العربية ـ الإسرائيلية.

وبالمقابل، نجد الاتحاد السوفييتي يستعد لمواجهة أيار/ مايو المقبل في شتى المجالات بالتالي:

ـ في أوروبا، تلوح موسكو بمزيد من التساهل والتشجيع لفيلي برانت حتى يبرم الاتفاقات التي عقدها مع موسكو.

ـ بعد عودة نيكسون من الصين، وصل وفد سوفييتي إلى بكين للبحث في حل مشاكل الحدود بين الدولتين: اشارة إلى أن هذا الباب لم يقفل نهائياً.

ـ الانتصار السوفييتي الهندي في بنجالاديش، ومع ذلك استقبال علي بوتو رئيس باكستان في موسكو.

ـ الهجوم الفيتنامي الجديد، الذي يزعزع موقف نيكسون الداخلي، ويذكره بأن تورطه في فيتنام والهند الصينية كلها لم يقترب من نهايته وأن سياسة فتنمة الحرب لم تنجح.

ـ وفي الساحة العربية، بالإضافة إلى علاقات موسكو مع مصر وسوريا: زيارة كوسيجين للعراق، وقبلها أول اتفاقية بين ليبيا والاتحاد السوفييتي.

مشروع الملك حسين اذن، فوق دوافعه المحلية، له دوافع دولية تؤكد أن يد أمريكا ليست بعيدة عنه، وربما وراءه مباشرة.

وهو كما يحقق لها ـ لو نفذ ـ هدفاً محلياً تتمناه، فهو يحقق لها ـ ببقائه ماثلاً قابلاً للتنفيذ حتى أيار/ مايو ـ ورقة هامة تلعب بها.

من هنا، كان لا بد للأمة العربية أن لا تقبل وضعها قطعة قطعة على رقعة الشطرنج العالمية. . . ولا تقبل أن يذهب نيكسون وفي يده هذه الورقة.

صحيح أن اثر الصراع الدولي موجود في منطقتنا، كما هو موجود في كل ركن من العالم.

ولكن دراسته دراسة دقيقة، ومعرفة اختيار لحظة التحرك واتجاه الحركة الصحيح، فوق تصميم الصمود وعدم الخضوع. . كل هذا كفيل بأن يجعل لارادتنا القومية مسافة كافية للتحرك فوق رقعة الشطرنج هذه، والمشاركة في صنع الأحداث والتأثير على مسارها.

١٥ - في المواجهة العربية - الإسرائيلية
اليوم القريب . . واليوم البعيد(*)

لعله ليس من المبالغة القول ان أخطر ما حدث بعد سنة ١٩٦٧ ، لم يكن مدى الهزيمة العسكرية وحدها، ولكن أيضاً رد الفعل العربي على الهزيمة، أو النتائج التي استخلصها العقل العربي العام من الهزيمة.

ولكن كيف؟

قبل سنة ١٩٦٧ ، أستطيع أن أقول ان البعض حاولوا، وضع صورة الصراع العربي - الإسرائيلي في اطارها الصحيح، واظهار أبعاد التحدي الإسرائيلي إزاء مكامن القوة-العربية ومكامن ضعفها على السواء، ولكن هذه الأصوات كانت نقطة في بحر، وامتلأت الأذن العربية بصيحات أخرى من نوع ما كان يقال عن إمكان هزيمة إسرائيل عسكرياً في ثلاثة أيام، وفي قول آخر في ثلاث ساعات.

وجاءت حرب ١٩٦٧ ، مع الأسف، لتثبت أسوأ التوقعات، ولسنا في صدد التفسير لكل ملامح حرب ١٩٦٧ ، ولكن لا شك أنه قد انعكس فيها كل مظاهر عدم الحساب، والقدرة على الانزلاق، واستنفار الجيوش العربية للقتال على طريقة استنفار فرسان القبائل قبل قرون، وكل مظاهر اللانظام العربي العام، وكل ما جعل الجيوش العربية تنشغل بمشغوليات ليس في مقدمتها القتال.

وظهرت المقاومة الفلسطينية، ثم لم تلبث عقب عدة انتصارات أحرزتها ان أصبحت الشماعة التي يعلّق عليها الناس كل الآمال، بينما وجد آخرون فيها ظاهرة تمتص رد فعل الهزيمة لفترة من الوقت. ومرة أخرى، كان هناك من زينوا للمقاومة الآمال الكبار، وحملوها المسؤوليات الجسام، وكان هناك من هم من سوء حظهم أن يكونوا المحذرين المنذرين والذين

(*) الأهرام، ١٩٧٣/١/٧.

لا يعرفون ركوب الموجات، وهكذا كنت من بين الذين حذروا المقاومة مقدماً من كل «الغام الطريق»، ومن كل المعطيات التي أخذت تتبدى بعد ذلك يوماً بعد يوم: الالتزام الدولي بإسرائيل، القوة الذاتية الإسرائيلية، الضعف الذاتي العربي، الذي يزيد منه التفكك والتناحر واللانظام والمأزق الذي سوف تقودهم كل هذه الظروف إليه، مهما كانت درجة استبسالهم.

لكننا نحن في البلاد العربية نفضل عادة أن نسمع ونقرأ ما «نحب» أن نسمعه، لا ما «يجب» أن نسمعه، نحب أن نسمع دائماً لحناً مفضلاً يريحنا، لا درساً ثقيلاً ربما كان ألياً ولكنه كالعلاج بالكي.

وأعود إلى نقطة البدء في هذا الحديث وهي أن أسوأ ما حدث بعد الهزيمة العسكرية كان رد الفعل العربي بوجه عام.

ربما بقيت معظم النظم كما هي تبشر بما اعتادت أن تبشر به، وبقيت الحكومات والدول وبقيت الخريطة العربية بوجه عام كما هي، ولكن ليس هذا ما أقصده، ولكنني أقصد «نسيج المجتمع العربي» ذاته بوجه عام، ودور المفكرين فيه بوجه خاص.

لقد أصيب العالم العربي بدرجة أكبر من الفوضى والبلبلة، وزادت سوق المزايدات والمناقصات والمتاجرة بالقضية الفلسطينية، وكأن الهزيمة لم تكن كافية لاغلاق هذه السوق وانهاء مهمة العملة المزيفة المتداولة فيها. واتسعت حرفة الكلام الذي يراد به أشياء غير القضية: تثبيت نظام، احراج خصم، إبراء ذمة، اكتساب شعبية، افتعال أزمة للابتعاد عن ساحة القضية، أي شيء غير خدمة القضية الفلسطينية، أي شيء غير الأمانة الفكرية والعقلية.

وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على بعض عناصر أو مظاهر هذه الفوضى الذهنية الشاملة، وما كان يقترن بها أحياناً من تناقضات مذهلة، فإن من بينها مثلاً:

ـ القفز من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أو العكس. رأينا كتاباً ومفكرين يمينيين يقفزون فوق كل الرؤوس إلى أقصى اليسار، ويزايدون يساراً على الجميع، ويظنون أنهم كلما زادت لغتهم يسارية ازدادوا «ثورية». كما رأينا الذين قفزوا بالعكس. ومعنى ذلك ـ في أبسط الأحوال ـ أن هؤلاء لم تكن اقتناعاتهم القديمة راسخة بالدرجة الكافية، وبالتالي فيمكن الاستنتاج كذلك بأن اقتناعاتهم الجديدة أيضاً ليست راسخة بالدرجة الكافية! ومع ذلك فقد دافعوا عن مواقعهم الجديدة بنفس التطرف، وطالبوا، ممسكين بالعصا الفكرية الغليظة، أن يقفز الناس معهم من هنا إلى هناك أو بالعكس.

ـ الانفصام الشديد بين الذين أرادوا الاكتفاء بتفسير الهزيمة تفسيراً أخلاقياً والذين أرادوا الاكتفاء بتفسيرها تفسيراً مادياً. هناك من قالوا مثلاً اننا هزمنا لأننا نسينا الله!

لا أعرف حتى الآن كيف؟ [وان كنت طبعاً لا أدافع عن كثير من الأخلاقيات السائدة] وهناك في الطرف الآخر من جعلوا الفجوة في التقدم العلمي والتكنولوجي اسطورة أو عقبة لا

يمكن اقتحامها قط. وقد قلت «الانفصام» لأننا لا نريد أن نعترف بأن التقدم والصمود وغيرهما لها مقوماتها وقيمها المعنوية والاجتماعية والمادية على السواء، مجموعة القيم غير المتنافرة ولا المتعارضة: ان تطويل ثوب المرأة بضعة سنتيمترات لا يحل المشكلة وليس هو العلامة الأخلاقية الوحيدة، كما ان شراء آلة أو سلاح دون تغيير الإنسان ونوع العلاقات والقيم التي يدافع عنها لا يحل المشكلة.

- ثم هناك مثلاً الانفصام بين الذين رأوا أن الهزيمة ردها أن تتجه الجهود إلى الاعداد لجولة أخرى بأسرع ما يكون ممكناً مع إسرائيل، وبين الذين أعطوا ظهورهم لساحة القتال كلياً، على أساس أنه لا بد من تغيير الواقع العربي كله [كم يستغرق هذا من سنوات!؟] قبل أن يكون تحرير أراضينا المحتلة ممكناً [الانفصام بين الطريق القصير جداً، والطريق الطويل جداً!].

- ثم هناك الذين أخذوا يضعون شروطاً مذهبية للمجتمع القادر على النصر. وبصرف النظر عن أن لي رأياً خاصاً في نوع المجتمع الذي تتوافر له درجة أكثر من مقومات التقدم والعدالة والتحضر، كما لا بد أن لكل واحد رأيه في هذا، إلا أن الحقيقة التاريخية تقول ان البلاد المختلفة التي احتلت أراضيها حاربت واستبسلت تحت نظم شتى، بلاد شيوعية وبلاد رأسمالية على السواء، فالوطن كان هو المتعرض للاعتداء. وللمجتمع المستعد للقتال مقومات أخرى لا تغني عنها عناوينه المذهبية، لقد انهارت فرنسا الرأسمالية سنة ١٩٤٠ لأن سوس الانحلال الاجتماعي والفساد الاقتصادي وانعدام روح المقاومة كان قد نخر فيها، وصمدت انجلترا بنفس النظام الاجتماعي لأنه حتى طبقتها الارستقراطية الحاكمة كانت تحارب، وتضحي، وتتحمل، بمثل ما يتحمل أبناء الشعب. لم يكن الارستقراطيون والأغنياء في قصورهم يطالبون الشعب بالقتال. أبناء وبنات تشرشل كانوا في الساحة. شقيق انطوني ايدن قتل في الحرب الأولى. شقيق كينيدي قتل وهو يقود قاذفة قنابل جوية. كينيدي نفسه كاد يقتل في زورق طوربيد. كانت صيحة المعركة حقيقة يدفع ثمنها الجميع. وليست كفرنسا وقتذاك صيحة تطلق وذوو المصالح يتلفتون إلى مصالحهم ويستعدون للفرار أكثر مما يستعدون للصمود.

إذن ماذا؟..

يخيل إليّ أن جوهر المشكلة أو جوهر البلبلة كلها نتج عن الخلط بين أمرين هما: اليوم القريب، واليوم البعيد.. قد يبدو هذا تبسيطاً شديداً للأمور ولكنه في يقيني هو جوهر الارتباك.. والحقيقة دائماً بسيطة.

ولعل اللغات الحية كلها لا يتكرر فيها ذكر كلمة الاستراتيجية كما تتردد في اللغة العربية منذ الهزيمة، ولكنها صارت في لغتنا الغنية تعبيراً فصيحاً آخر، مجرداً من أول معانيه: التفرقة بين الهدف القريب والهدف البعيد، مع ادراك ما يربطهما معاً في التحليل الأخير.

لو خلطنا الأوراق، ولم نحاول ترتيبها بالانتماءات إلى اليسار واليمين والشمال والجنوب،

سنجد في كل المعسكرات والفئات والمدارس الفكرية درجة كبيرة من نفس هذا الخلط بين: اليوم القريب واليوم البعيد، بين الآن والغد.

ناس لا يرون إلا اليوم البعيد، وهو نهاية للصراع العربي - الإسرائيلي لمصلحة العرب بشكل حاسم. يرونه بطرق شتى، بعضهم يراه بالحرب اليوم التي لا تنتهي إلا بنهاية إسرائيل، وبعضهم على النقيض يراه من خلال الاستكانة والاعتماد على حتمية التاريخ، التي سوف تحل لهم المشكلة يوماً برجحان كفة العرب بحكم عددهم وثرواتهم.. إلى آخره.

وناس على العكس لا يرون إلا اليوم القريب، سواء منهم الذي يرى أن الهزيمة قد وقعت ولا بد من قبول نتائجها ولا شيء غير ذلك، غير مدركين خطورة الاستسلام البالغة على امكانات تشكيل هذا «اليوم البعيد»، أو الذين يرون بنفس النظرة المحصورة في اليوم القريب، ان تنشب الحرب غداً، دون أن يتفقوا حتى على تحديد هدف هذه الحرب، يرونها الحرب الأخيرة التي تبرم كل شيء نهائياً، نصراً أو هزيمة.

إنني أعتقد أن الفوضى الفكرية العربية الضاربة أطنابها قد صارت أمراً بالغ الخطر.

وأبسط محاولة للبدء في ادخال نوع من النظام على هذه الفوضى التي تشترك فيها حكومات وأحزاب وفصائل من المقاومة ومنظمات سياسية شتى، هي أن تجرى محاولة جادة للتفرقة بين: اليوم القريب واليوم البعيد.

ماذا يمكن عمله اليوم، في الأجل القريب، لتجميع أقصى طاقات عربية عسكرية وسياسية واقتصادية لتحقيق هدف محدد: يضيّع على المزايدين والمناقصين والمتنصلين جميعاً فرص هذه الممارسات.

ثم، بفكر أعمق، ما هو الذي يمكن التفكير فيه، وتصوره لليوم البعيد، يوم توضع نهاية للمواجهة العربية - الإسرائيلية تعيد للمنطقة أمناً عادلاً نابعاً من المنطقة، وليس «سلاماً إسرائيلياً مفروضاً»؟

ولا يظن أحد أن التفرقة بين «اليوم القريب واليوم البعيد» معناها الفصل بينهما: فتلك غلطة قاتلة. انهما متصلان تمام الاتصال، بمعنى أن كلاً منهما يؤثر في الآخر تأثيراً شديداً.

مثلاً: لو تركنا إسرائيل تحتفظ بانتصارها الساحق في ١٩٦٧ وتنال ثماره، فسوف ينعكس هذا بالضرورة على أي تصور «لليوم البعيد»، في حين أننا لو قاتلنا وناضلنا، وجعلنا إسرائيل تخرج من مغامرة ١٩٦٧ صفر اليدين، فلهذا انعكاسه الآخر تماماً على هذا التصور «لليوم البعيد».

ما هو مطلوب ليس الفصل بين الموعدين، لأن هذا معناه تحقيق سياسة إسرائيل في ترتيب المستقبل كله على النتائج التي خرجت بها من ١٩٦٧، وهو ما تفعله اليوم، بمجمل تصرفاتها العسكرية إزاء الدول العربية، وتصرفاتها السياسية والاقتصادية والسكانية داخل

الأراضي المحتلة لحل «المشكلة الفلسطينية» وانهاء «الهوية الفلسطينية» على طريقتها وبما يضع العرب جميعاً أمام واقع جديد تماماً!

ولكن المطلوب هو التفرقة بين مسؤولياتنا وخططنا ازاء كل من الموعدين، دون هذا الخلط بينهما، الخلط الذي لم تكن له نتيجة بعد خمس سنوات إلا أن العالم ما زال يتساءل وسط الضجيج العربي المتنافر، ماذا يريد العرب بالضبط؟ الأصدقاء في هذا التساؤل قبل الاعداء!

اكتب هذا والمجلس الوطني الفلسطيني منعقد في القاهرة، ومجلس الدفاع العربي المشترك ـ كل وزراء الدفاع ووزراء الخارجية العرب ـ سيجتمعون بعد أيام . .

فهل هذا ممكن؟

١٦ ـ نحو دولة فلسطين(*)

مؤتمر القمة العربي السابع ـ والحافل ـ احتفظ بمعظم قراراته سرية. ومن الواجب احترام هذه السرية أولاً التزاماً بالقضية الكبرى، وثانياً لأن القرارات الهامة والحساسة تكون في العادة هشة أول الأمر حتى تدعمها وتعمقها الممارسة والتجربة، قبل أن يتلقفها الجدل. . . ما الذي يمكن أن يقال اذن؟

يمكن أن يقال ان المؤتمر قد قطع بالفعل شوطاً بعيداً جداً في طريق بدا في اليوم الأول أنه طريق مقفل تماماً.

لقد كان المؤتمر مؤتمر فلسطين أولاً وأخيراً. . وكان موقف الجانبين المباشرين ـ الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ـ متباعداً لآخر الحدود كما كان منطلقهما متباعداً. .

الحكومة الأردنية لها منطق يتسلسل هكذا ـ بصرف النظر عن رأيهم في طريقة ضم الضفة الغربية إلى القدس عن طريق مؤتمر أريحا سنة ١٩٥٠، وقد تحدث الملك حسين عن هذا طويلاً ـ ان منطق الحكومة الأردنية يقول انه إما أن يكون لها دور، وإما أن لا يكون لها دور على الاطلاق.

إذا كان العرب يرون أن الضفة الغربية قد استقلت وانفصلت نهائياً عن الأردن، إذن فالأردن ليس له دور في المطالبة بها، وبالتالي فلا توجد صفة شرعية تبرر الذهاب إلى جنيف أو دخوله إلى أي اجتماعات خاصة بأي انسحاب، تحت بند فك الاشتباك أو سواه. يتولى هذا غير الأردن، ويصبح الأردن مجرد دولة عربية أخرى تعطي المطالبين المساعدات أو التمنيات.

ولكن ـ يضيف المنطق الأردني ـ أن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد. فهذا الانسحاب

(*) الأهرام، ١٩٧٤/١١/١.

الأردني يؤدي إلى انهيار، ويعطل اجراءات الانسحاب والحل كلها، فضلاً عن أن الولايات المتحدة بالذات لم تطلب من إسرائيل أن تنسحب لكي تسلم الضفة الغربية للمقاومة.

ومنطق الفلسطينيين ـ بدأ بالقول: لتنسحب الأردن إذا شاءت، هذا مجرد تهديد. ثم إن الخروج من جنيف لن يعطل جنيف. فإنه حتى الولايات المتحدة حين ترى العرب والعالم ـ من خلال الأمم المتحدة ـ يرى أعطاء الفلسطينيين وطناً ودولة، سوف تغير من استراتيجيتها، مهما كانت هذه الاستراتيجية الآن.

وتاريخ الفلسطينيين مع الأردن لا يسمح بالتساهل في هذه النقطة. على أنه بين هذين المنطقين كانت ثمة اعتبارات هامة:

ـ إن الفلسطينيين، عبر نضال مرير سبقته آلام عظام، قد كسبوا حقاً لانزاع فيه بأن يكون لهم وطن. ومن حقهم بعد ذلك في وطنهم أن ينظموا علاقاتهم الحياتية بالدول العربية الأخرى، وفي مقدمتها الأردن ذاته كضرورة بشرية وجغرافية.

ـ إن البدء من نقطة أن فلسطين جزء من الأردن يضعف مجمل القضية. انه يحول القضية الفلسطينية إلى قضية عربية داخلية. انه يحدد هدف إسرائيل النهائي في تصدير قضية فلسطين إلى العرب وغسل اليد من كل آثارها. في حين أن البدء من نقطة أن في فلسطين شعب له حق في وطن ودولة وكيان يعيد تصدير القضية إلى إسرائيل، ويفرضها عليها فرضاً، ويبدل فكرة [الوطن البديل] وينسف دعوى إسرائيل بأنه لا يوجد من يسمون بالفلسطينيين. ولا يمكن أن ينطلق العرب من هذه المقولة الإسرائيلية في الوقت الذي بدأ العالم يستجيب لنضالهم ويعترف بأن هناك فلسطينيين وان لهم حقوقاً قوية. اننا لا يمكن أن نفوّت هذه الفرصة التي وصلنا إليها بكفاح ونضال وتضحيات وحرب، ونعود إلى الوراء أو نرفع ضغط القضية الحقيقية عن إسرائيل.

ـ ان الأردن أيضاً يجب أن يكون موجوداً كما ان الفلسطينيين يجب أن يكونوا موجودين. فهذه قضية الأمة العربية مهما كانت الظروف، وكل قادر على استرداد شبر فلسطيني عليه ألا ينكث، وكل شبر فلسطيني يسترد يجب أن يكون للفلسطينيين، وكل شبر سوري للسوريين وكل شبر مصري للمصريين. والعلاقات العربية بعد ذلك أبعد وأعمق من أن تقف عند هذه الظروف.

ـ انه لا يجوز الفصل بين أسلوب تحرير الأرض وبين مستقبل الأرض المحررة، وبالاحرى لا يجوز ترك هذا الموضوع نقطة خلاف بين الأخوات العربيات وهي تعمل معاً وصولاً إلى تحرير الأرض.

لا يجوز الوقوف عند تحديد مستقبل الأرض وتحطيم امكانات الحصول عليها، ولا يجوز الاتفاق على وسائل استردادها وترك مستقبلها غير محدد مما يظل يزرع الشكوك ويهدد بانقسام التضامن العربي كله في أي لحظة.

فلا بد إذن من الاتفاق على الأمرين معاً.

وقد يقال عن الحديث عن مستقبل الأرض قبل تحريرها مثل الخلاف على بيع جلد الدب قبل اصطياده. ولكن هذا القول لا ينطبق على هذه الحالة. لأن الخلاف هنا، كما سبق ذكره، يهدد كل القضية بالخطر. وقد ضيع علينا حتى الآن بالفعل الكثير من الفرص.

- وقبل كل شيء - وبعد كل شيء - فلا يجوز استمرار هذا الموقف الذي لا يناسب إلا إسرائيل، ولا مفر من أن يكون الموقف العربي بتفاصيله محدداً حتى نلزم الآخرين بالتحديد وحتى لا نقف صماً بكماً أمام سؤال العالم الدائم [ماذا يريد العرب؟] أو أن نرد عليه بضجيج من الأصوات المتضاربة. تلك هي الأفكار التي وجهت المؤتمر.. وفيها كل الأخبار!..

١٧ ـ منطق حروب المائة سنة(*)

لـو أردنا أن نصف تـاريخ الصراع العـربي ـ الإسرائيلي، منـذ بدئـه حتى كتـابـة هـذه السطور. . لوصفناه بأنه: حرب المائة سنة!

فإذا اعتبرنا أن ميلاد فكرة إقامـة دولة يهـودية في فلسـطين، في ذهن المبشر الأول بها في العصر الحديث، تيودور هيرتزل، كان بمثابة الاعلان عن بـدء هذا الصراع، لـوجدنـا أننا لا نتجاوز كثيراً في وصفها بأنها حرب المئة عام.

على أن هذا المعنى لا يستقر في أذهاننا، إلا إذا فهمنا «الحـرب» بمعنى آخر، غـير المعنى المباشر، وهو القتال المسلح . . .

القتال المسلح يحدث لشهور، ومع تقدم الأسلحة وتضـاعف طاقتهـا التدمـيرية، صـار يحسم في أسابيع بل وأيام. وفي تصور الخبراء اليوم لأي «سيناريو» عن الحرب العالمية المقبلة ـ لو وقعت ـ نجد أنهم يعتقدون أن نتيجة الحرب الكونية سوف تحسم في الساعات الأولى، لمـا سـوف يستخدم فيهـا من صواريـخ وأسلحة هيـدروجينية وذريـة، تسحق في دقائق مـا كـان يسحقه السلاح العادي في سنوات.

فهي حرب المئة عام، حتى وان كانت أيام القتال الفعلي فيها لا تزيد عن شهور. . .

إذن، لا بد أن نفهم الحرب ـ في هذا الحديث على الأقل ـ بـالمعنى الأشمل: السيـاسة والاقتصـاد والقتال. التـدبير والـترتيب والتنظيم. تكـوين نوع المجتمـع المهيأ للقتـال. المكـر والخداع والدهـاء. كل هـذه أشياء تـدخل في حـديثنا هـذا تحت كلمة الحـرب، لأن الحرب بمعناها القتالي هي محصلة كل هذا وأكثر منه.

فميلاد الفكرة الصهيونية وتحديد هدفها، ومكان قيامها، جزء من هذا.

(*) العربي، العدد ٢٣١ (شباط/ فبراير ١٩٧٨).

ثم بدء الهجرة الأولى، بشكل سلمي، وإقامة أولى المستوطنات في فلسطين، بحيث تكون المستوطنة سكناً ومقراً للعمل، للانتاج ومعسكراً وحصناً في الوقت نفسه.

ثم دخول المال اليهودي الكبير «روتشيلد ولورد مونتيفيوري وغيرهم» لشراء الأرض بقوانين الاحتلال الانجليزي. هذا أيضاً حرب. ويكفي قول المفكر اليهودي الفرنسي الكبير «ماكسيم رودنسون»: «إن دخول «روتشيلد» مشترياً ازاء فلاح فلسطيني فقير، هو علاقة استعمارية، للتباين الشاسع بين قوة الاقتصادين، بين قوة هذا المصدر وذلك، بحيث لا يمكن أن تسمى هذه العلاقة علاقة بيع وشراء حرة، مهما كانت ضآلتها». . .

وجاء بعد ذلك ظهور التنظيمات الأوسع نطاقاً، سواء نقابات العمال، أو المؤسسات الاقتصادية أو الهيئات المتفرغة لاجتلاب المهاجرين، والمنظمات العسكرية والارهابية. وكان هذا كله يتنامى ويتشكل تحت مظلة أساسية، أشبه بحكومة هي: الوكالة اليهودية. . .

وفي هذه الأثناء كلها، كان نشاط يهود الخارج لا يقل حجماً وأثراً عن نشاط يهود الداخل، جمع الأموال، ارسال المتطوعين، والسعي لدى الجهات الأجنبية التي لها القوة والتأثير على الأرض المطلوبة وهي فلسطين: بدأت الحركة الصهيونية اتصالاتها بالباب العالي في تركيا، حين كانت الامبراطورية العثمانية هي صاحبة الأمر في فلسطين.. فلما نشبت الحرب العالمية الأولى كان فريق من الصهيونيين في برلين يقتنصون الوعود من القيصر الالماني وفريق آخر في لندن يزين الاغراءات للحلفاء الذين يقاتلونه، حتى تكون لهم كلمة لدى أي فريق ينتصر. بينما شد فريق ثالث رحاله إلى أمريكا، حين تشمموا أنها ستكون المارد الجديد.

والشيء نفسه كرروه بصور أخرى في الحرب العالمية الثانية، وما بعدها. غير أنهم نقلوا مركز ثقلهم الخارجي إلى أمريكا.

فحين قامت «حرب» ١٩٤٨ كان كل شيء معداً لإعلان الدولة. كانت لديهم المنظمات العسكرية والمدنية، وهيكل الدولة، والتأييد العالمي، وقوة الضغط الأمريكي، ومصادر السلاح المفتوحة، والدعاية الكاسحة.

هذا نموذج نأخذه لمعنى الحرب بمعناها الواسع، الحديث، الذي نستخدمه في هذا المقال. .

فالذي انتصر سنة ١٩٤٨ وأقام دولة إسرائيلية ليست قوات الهاجاناه والأرجون وشتيرن وغيرها فقط، إنما الذي انتصر هو هذا النضال الطويل، منذ قال تيودور هيرتزل الكلمة. فهو نصر استغرق اعداده أكثر من نصف قرن، وليس نصراً تم احرازه في بضعة شهور من القتال الفعلي. . .

ولم تتغير القصة منذ ذلك الوقت، حتى يومنا هذا. . .

فيما مضى من الصراع العربي - الإسرائيلي، خليق بتلك التسمية التي أطلقت في التاريخ على بعض حروب أوروبا الدينية والدنيوية التي نشبت في العصور الوسطى: حرب المائة سنة!

ولكن، ما المعنى من طرح القضية المألوفة من هذه الزاوية وبهذا الأسلوب؟

المعنى، هو أن الطرف الإسرائيلي نظر إلى معركته من منظورها الصحيح. رآها منذ البداية صراع أجيال، فيه الحصول على المدفع ليس أكثر أهمية من الحصول على آلة المصنع، وفيه اعداد رجل القتال لا يزيد أهمية عن اعداد رجل الاقتصاد أو رجل العلم أو رجل السياسة، وفيه النصر في موقعة سياسية لا يقل عن النصر في موقعة عسكرية، وفيه الفوز بحليف لا يقل عن الفوز بموقع استراتيجي.

ذلك أن طبيعة الصراع الإسرائيلي ـ العربي، ليست شأن أي صراع بين دولتين متجاورتين على قطعة أرض.

ليس مثل صراع المانيا وفرنسا مثلاً على الالزاس واللورين.

وليس مثل صراع أمريكا واليابان على جزر المحيط الهادىء.

انه شيء أعمق وأكبر وأطول مدى من كل هذا...

وبالتالي، فإن من مظاهر التصور العربي الدائم خلال حرب المائة سنة الماضية، نظر العرب دائماً إلى يومهم دون النظر إلى مساحة أوسع من الأيام، واهتزازهم بالرضى أو السخط، وانقلابهم إلى التفاهم أو التصارع فيما بينهم، حول العابر من الأحداث، مهما بدا كبيراً في يوم، دون الباقي البعيد الأمد، العميق الأثر. وأيضاً تركيزهم على «مظاهر» الصراع ووسائله، ولا أريد أن أقول «قشوره» أحياناً، دون جوهره.

ولو عرف العرب منذ مائة سنة، إنها حرب مائة سنة، كما عرف الإسرائيليون، لربما تغيرت سياساتهم وأساليبهم وأولوياتهم، عما فعلوا في هذه المجالات.. ولما وصلنا يقيناً إلى ما وصلنا إليه اليوم من حال...

واترك جانباً حالة دول البترول، التي حباها الله بثروة دافقة جعلت معدل تقدمها دافقاً.. وأسأل سائر أمتنا سؤالاً اليماً واحداً: كم فعلنا لمحو الأمية بين أهلنا وكم فعلت الحركة الصهيونية لأهلها؟

كم فعلنا لإشاعة الديمقراطية والعدالة وكرامة الإنسان وكم فعلوا؟

كم بذلنا لكسب المعرفة الحديثة وقيم التنظيم وتنمية الكفاءة وتطوير القدرات وكم بذلوا؟

كم ركزنا على سياسة تسجيل المواقف العلنية، وكم ركزوا على احراز النتائج العملية؟

والأمثلة لا نهاية لها...

* * *

وإنني بهذا القول لا أحب أن أدخل في عداد الذين يتخصصون من بيننا في تعذيب الذات، والذين ترفعهم ساعة نصر إلى تذكر ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[1] وتهبط بهم ساعة أزمة إلى أن العرب لا فائدة منهم وأمراضهم لا مثيل لها ولا شفاء منها. . .

هذه الموجات تمر ـ وقد مرت ـ بكل شعوب العالم ذات الحضارات. . .

إننا نرى التمزق العربي رغم الأخطار المشتركة المحدقة فنظن أنه أمر لا مثيل له في التاريخ. .

ولكنني كنت أقرأ بالمصادفة وأنا أكتب هذا الحديث، كتاباً ضخماً جليلاً ألفه مؤرخ انجليزي جليل هو «لورد كينروس» باسم «القرون العثمانية» عن نهضة الامبراطورية العثمانية وانهيارها. .

وكانت الدولة العثمانية هي تلك القبيلة التركية الصغيرة في الركن الأقصى من آسيا الصغرى، التي تحولت إلى دولة ثم امبراطورية، والتي كان حظها التاريخي تدمير الدولة البيزنطية نهائياً، وانهاء آخر الحروب الصليبية وملاحقتها في معاقلها في قلب أوروبا. فاحتلت البلقان كله، وحكمت نهر الدانوب، ودمرت بودابست تدميراً، ووصلت عند حدود فينّا، قلب أوروبا النابض في ذلك الوقت. . .

كانت الامبراطورية البيزنطية كلها في حالة تآكل. وكان ملوك المسيحية بل وقساوستها كما كان فرسان الحروب الصليبية الغابرة مختلفين بين أنفسهم أكثر من خلافهم ضد من رأوا أنه عدوهم الحضاري، وهو الزحف الإسلامي. . .

ولكننا نرى العجب ونحن نقلب تلك الصفحات الرهيبة. نرى أن بابا روما الكاثوليكية يسكت ضمناً عن سقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح نكاية في رئيس الكنيسة الأرثوذكسية. وكان ملوك فرنسيون والمان يتآمرون سراً مع الغزاة العثمانيين ضد حلفائهم، «الظاهرين» في دول فينسيا والمجر ويوغوسلافيا. وكان العدل الذي زحف مع غزاة عظام مثل «سليمان القانوني» يجعل الناس في الأراضي المحتلة يغيرون دينهم طوعاً واختياراً حتى يتمتعوا بالأمن الجديد بدل ظلم أمراء الاقطاع المسيحيين في أوروبا. . .

فلما بدأت الامبراطورية العثمانية تشيخ، شاخت من الداخل وهي في أوج قوتها الدولية، دون أن يلحظ ذلك أحد.

ويروي لورد كينروس في كتابه هذا، ان كبير وزراء الامبراطور سليم الثاني، كان سلجوقياً من أعداء الأتراك القدامى، وكان يرى الفساد يستشري في البلاط أو في «الباب العالي» وكان كبير الوزراء يدفع إلى الفساد ويشجعه، حتى نجح يوماً في أن يجعل الامبراطور نفسه يقبل الرشوة شخصياً كرجاله، فخرج يومها من عنده هامساً لصحبه: اليوم انتقمت لأجدادي السلاجقة من الأتراك! اليوم لمس السلطان مال الرشوة! اليوم بدأ انهيار الدولة العثمانية.

ثم كان الترف المفسد هو المسمار الثاني الكبير.

ولم يكن في قوله هذا كاذباً!

* * *

رويت هـذا، لكي أشرح للقارىء أن مـا وقعنا فيـه أحيانـاً قد وقـع فيـه غـيرنـا، وان الرذائل ليست أمـراً خاصـاً بنا، وانمـا هي ظروف بـالغة التشعب والتعقيـد، تؤدي إلى نفس النتائج في أي أمة في مراحل معينة من تاريخها. . .

أردت بذلك أن أخرج بنفسي، وبقرائي إذا أمكن، من صفوف «الساديين»، المعذبـين لأنفسهم، المتاجرين بنقائص شعوبهم، دعاة اليأس الدوريين.

* * *

بعد هذا، أريـد أيضاً أن أخـرج بنفسي، وبقرائي إذا أمكن، من صفـوف المتراخـين، المتفائلين القاعدين، الحاسبين أن التاريخ لهم حتى ولو لم يفعلوا شيئاً. . .

ولعلني قد كتبت كثيراً في هذا المعنى، وربما أكون قد أسرفت فيه. . .

ولكن عشرين سنة من معالجـة هذه القضيـة لم تغير من قنـاعاتي في هـذا المجال شعـرة واحدة، ولقد تأتي مناسبات القول المفصل يوماً.

وما أكثر مـا يكون ثبـات صحة مـا ذهـب إليه المرء يومـاً، مصدر حـزن عميق له، لا مصدر زهو وافتخار. . .

لقد قلت دائماً ان الـوطن العربي، عـالم مطلوب اخضـاعه من كـل قوى الـدنيا المؤثـرة تقريباً. وقلت ان خطر إسرائيل ليس في أنها دولـة يهوديـة، ولا في صيرورتهـا يومـاً إلى مجتمع يهودي يعيش في كنف عربي، أو شرق أوسطي. فما ازدهـرت حضارة اليهـود في تاريخهم كـما ازدهـرت في أندلس العـرب والمسلمين، كـما قال أبـا ايبان وزيـر خارجيتهم العتيـد في كتابـه الضخم «قصـة شعبي». وحتى الآن فإن ثـمانية في المـائـة من تـراث اليهـود مكتـوب بـاللغـة العربية، لا بالعبرية ولا بالانجليزية أو غيرها.

ولكن الجانب الخطر في إسرائيل هو في أنها جاءت كرأس حربة لعـالم أوروبي أمريكي، توالت بعده الطعنات من حـول الأمة العـربية ومن شتى الجبهـات. . جاءت في حقبـة تنبىء بيقظة العرب، وتقدمهم، وتوفر الامكانـات لديهم وبـامكانيـة عودتهم إلى دورهم الحضـاري العظيم، تريد أن تكبلهم وتضعفهم وتمتص طاقتهم، حتى تفلت منهم الفرصة تماماً. . .

وتلك هي حـرب المائـة سنة المقبلة، بـالمعنى الذي أسلفتـه أول هـذا الحـديث لكلمـة الحرب.

ولن يتمكن العرب من استقبال المـائة سنـة المقبلة، إلا إذا أخذوا بـأسباب التحضر في كافة المجالات وفي نفس المستوى.

لا يمكن أن تكون للعرب قوة عسكرية، وسائر حياتهم في حالة ضعف. فقد عرفنا موجات من القوة العسكرية وحدها، كالتتار والمغول اجتاحت وانتصرت ثم انتهت لأنه ليس بالحرب وحدها تعيش حضارة وتزدهر.

ولا يمكن أن تكون للعرب قوة سياسية فقط، دون قوة عسكرية تحميها، وقوة اقتصادية ذاتية تعززها، ومجتمع متقدم قادر على النهوض بهذا كله. . .

ولا يمكن أن يقوم في أمة العرب مجتمع له هذه الصفات، إلا باحترام الحقوق الأساسية للإنسان، والا بمسايرة أعظم انجازات الدنيا وهي روح الديمقراطية. وروح الديمقراطية ليس برلماناً صحيحاً أو مزيفاً، ولكن روحها تكمن في معرفة الشعب بالحقائق، وشيوع المعلومات الصحيحة، والثقافة السليمة وحق التعبير البناء، واعلاء قيمة العقل والفكر على قيمة الغرائز والشهوات، وذوبان الشعوبية العربية في أمة واحدة، وتراجع مصالح الحكام فيها ازاء مصالح الشعوب، وكون أكرم أبنائها هو أتقاهم.

وكل ما هو دون هذا التغيير العميق. . فهو تفاصيل، وهو وقائع أيام، أشبه بالصفحات التي تقلبها اليد سريعاً في كتاب ضخم كبير، له خلاصة شاملة ومنطق قائد صحيح.

١٨ ـ اعلان إسرائيل دولة ذريّة
يقضي على حجتها في الحدود الآمنة(*)

ما زلت أعتقد، أنه يمكن أن يتجه الحديث الواحد أحياناً إلى دول الرفض، ودول الصمود، ودول الحل، ودول الجمود كلها من موقع واحد. . .

وما زلت أعتقد، أنه مهما سار كل منهم في طريقه، فإن الرابطة العربية ستقوى على احتمال واجتياز المحنة الراهنة. . وهي أعظم محنة واجهتها في تاريخها، دون أن تنكسر هذه الرابطة

ذلك أن هناك في كل الأقطار شعوراً شعبياً عميقاً، وتزيده الأحداث عمقاً، بضرورة وحيوية هذه الرابطة، بعكس ما يتوهمه بعضهم، انعكاساً لسياسات الحكام والنظم والدول. . الزائلة بحكم الطبيعة.

وذلك أن هناك قضايا مصلحية عليا، الكل مطالب بالتحرك إزاءها على حد سواء مهما اختلفت المواقف. . .

وانني هنا أطرح موضوعاً محدداً، واقتراحاً محدداً، أرى انه واجب على كل الدول العربية، دون استثناء. . . وأرى أنه حيوي بالنسبة لكل المواقف المتقاربة التي قد تتخذها هذه الدول في مجالات أخرى. . .

* * *

إن الجميع يتفقون بغير شك على أن النضال السياسي ضروري للعمل على استرداد الحقوق العربية كافة.

وفي ضوء هذه الحقيقة، فإن الاقتراح المحدد الذي أطرحه هنا هو:

العمل بكل الوسائل: السياسية، والقانونية، والدولية، والاعلامية، على إعلان

(*) الأهرام، ٢٩/١٠/١٩٧٨.

وتسجيل إسرائيل كدولة ذريّة، وسأعود إلى تفصيل ذلك بعد قليل، حتى أشرح أولاً أهمية وآثار هذا التحرك، بل وضرورته. . .

لقد صار من المتفق عليه ـ تقريباً ـ بين كافة الأطراف العربية أن الهدف المطلوب تحقيقه الآن هو إعادة إسرائيل إلى حدود ٤ حزيران/ يونيو سنة ١٩٦٧.

وإسرائيل في النهاية تقاوم العودة إلى هذه الحدود بشكل أو بآخر، هنا أو هناك، لأسباب بعضها معلن وبعضها غير معلن، ولأسباب يؤمن بها فريق من الاسرائيليين، وأسباب أخرى يؤمن بها فريق آخر من الإسرائيليين. . .

هناك ـ في إسرائيل ـ من يريد التوسع، لأسباب عقائدية خلاصتها نصوص التوراة التي تتحدث عن أرض إسرائيل التاريخية. . .

وهناك من يريدون التوسع لأسباب عملية خاصة بمستقبل الدولة. . إذ ان في تكبير حجم الدولة تأميناً لأحلامها في استيعاب ملايين جديدة من البشر. . .

* * *

ولكن الكل في إسرائيل، وأياً كانت دوافعهم، يخاطبون العالم في هذا المجال بحجة أساسية، بل وحيدة، وهي: ضمان أمن إسرائيل. . .

إنهم لا يستطيعون أن يخاطبوا العالم بلغة التوراة، بل ان فريقاً كبيراً وقوياً من اليهود أنفسهم لا يحملون لغة التوراة هنا على محمل الجد.

وهم لا يستطيعون أن يخاطبوا العالم قائلين انهم يحتاجون إلى التوسع لأسباب مادية تجعلهم مضطرين لأخذ أرض الآخرين. . .

لا يستطيعون أن يقولوا هذا في محفل دولي، ولا في منظمة عالمية، ولا على ألسنة الرسميين فيهم، ولا على مائدة مفاوضات. . .

ولكنهم يستطيعون فقط أن يتحدثوا في هذه المجالات بلهجة دفاعية لا هجومية. . لهجة وقائية. . فيقولون ان هذا أو ذاك لازم لهم للدفاع عن أنفسهم. . لضمان الأمن لهم.

وقد تمكنوا خلال ثلاثين عاماً من أن يثبتوا ويرسخوا في أذهان العالم أنهم شعب صغير معتدى عليه من جيرانه. . مهدد من العالم العربي الواسع المحيط بهم. . مستغلين في ذلك ـ فيما استغلوا ـ تهديدات العرب المستمرة، أو وفرة أقوال العرب وانعدام أعمالهم في هذا المجال. . .

وعبثاً نقول للعالم انهم هم الذين حاربوا في كل المرات مهاجمين. وعبثاً نقول للعالم انهم أوفر سلاحاً وأكثر قوة من العرب مجتمعين. فهم يردون بجمع أرقام ما لدى العرب جميعاً من المحيط إلى الخليج من دبابات وطائرات حتى يثبتوا أن ما لدى العرب أكثر بكثير. . وهو أمر صحيح، وان كان صحيحاً من الناحية الرقمية فقط.

ثم ان وجودهم الطارىء المتنازع عليه ووجود العرب الـذي لا نزاع عليه حاضـراً ولا مستقبلاً، يجعلهم يستثمرون هذه الحقيقة في أن العدوان يفترض إذا حدث يومـاً أن يجيء من الطرف المستمر القائم، الطرف غير المتنازع على وجوده، الطرف صاحب الحق.

* * *

ولو تمكنت الدول العربية بكـل الوسـائل الـدعائيـة والقانـونية والـدولية من اثبـات أن إسرائيل دولة ذرّية، لانهارت حجج إسرائيل الأمنية انهياراً تاماً، ولما صدق أحد لا من الرأي العام ولا على مائدة بحث رسمية أن تلك الدولة التي تملك وحدها القنبلة الذريـة في المنطقـة تحتاج حقاً إلى الكيلومترات التي تطالب بها على أي جبهة، من أجل ضمان أمنها!

* * *

وقد كان يبدو لي غريباً على الدوام سكوت الدول العربيـة على هـذا الأمر، ليس بمعنى العمل على امتلاك العرب القنبلة الـذرية، فـإنني غير مؤمن بجـدواها بـالنسبة لنـا سواء إزاء إسرائيـل أو العالم الخـارجي، ولكن أقصد السكـوت السيـاسي والـدولي عن حقيقـة امتـلاك إسرائيل للقنبلة الذرية.

هل السبب أننا لا نريد أن نواجه هذه الحقيقة بشكل نهائي وقاطع؟

هل السبب أن حكومـاتنا إذا أعلنت وسجلت ذلـك بشكل قـاطع تصبـح مطالبـة أمام شعوبها بامتلاك قنبلة ذرية في المقابل؟

إنني أفضل أن نسلك سبيل ترشيد الرأي العام لا تهييجـه، وبالتـالي تثقيفه لا تجهيله. وفي هذه الحالة يكون علينا أن نعلن امتلاك إسرائيل للقنبلة الذريـة ونقنع الـرأي العام لـدينا بعدم جدوى امتلاك قنبلة مقابلة في هذه الظروف.

وقد بات هذا الأمر الآن ضرورة أساسية، ضرورة تفنيد الرافض العربي وتفنيد المفاوض العربي، وتفنيد «النصف ـ نصف».

أولاً ـ لأن هذا الأمر حقيقة.

وثانياً ـ لأنه يهدم حجج إسرائيل الأمنية تماماً ونهائياً.

وثالثاً ـ لأنه يربك الدول الكبرى والمجتمع العالمي الذي نتفق جميعاً على أنـه في النهايـة لا يتبنى الحق العربي كاملاً، أو كما نحب أن يتبناه.

* * *

أما ان إسرائيل تمتلك بالفعل أكـثر من قنبلة ذرية واحـدة، فإن هـذا الأمر لم يعـد محل شك لدى أي جهة رسمية أجنبية مهتمة بهذه الأمور، ولا لدى أي أكاديمية أو مؤسسة أبحاث علمية أوروبية أو أمريكية.

والأدلة متوفرة.. سواء في مـواصفات المفـاعل الـذري الإسرائيلي، أو في رفضهـا لأي

تفتيش على هذه المفاعل، أو في التعديلات التي أدخلتها على بعض الأسلحة ـ كالطائرات ـ لتصبح قادرة على استخدام القنبلة، أو في ما ثبت رسمياً من أنها هي التي «سرقت» خمسين طناً من المادة المستخدمة في استخراج الوقود الذري من سفينة في عرض البحر منذ أكثر من عشر سنوات، وقد صدر حول هذا الموضوع كتاب كامل، مدعم بالأدلة والبراهين الدقيقة، وأشارت إليه كل الصحف العالمية الكبرى ولم يكذبه أحد، أو في رفض إسرائيل توقيع معاهدة الحد من انتشار الأسلحة الذرية . . إلى آخره.

إن كل المراجع التي أشير إليها في إثبات ذلك هي مراجع غربية، أوروبية وأمريكية. ولا توجد دراسة في هذا الموضوع الذري بوجه عام صادرة عن أي مؤسسة أو معهد علمي إلا وتقرر هذه الحقيقة. وانني افترض أن ما لدى الحكومات العربية في هذا المجال أكثر وأوفر مما لدي. وإذا لم يكن لديها ما يكفي، فإنها تستطيع أن تجند أجهزتها للحصول على هذه المعلومات حيث هي منشورة، وللمطالبة بنشرها أو بإبداء الرأي فيها حيث تكون غير منشورة.

وفي إيجاز شديد، ومن باب المعلومات، يمكن تركيز «تاريخ إسرائيل الذري» في الآتي:

– في سنة ١٩٥٧، وكرد فعل لحرب ١٩٥٦ ودروسها، قرر بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل وقتذاك ضرورة امتلاك إسرائيل للقنبلة الذرية تحوطاً للمستقبل، وكضمان مطلق لأمن إسرائيل، فبدأ في انشاء «مركز ديمونا» في صحراء النقب. ولما كانت فرنسا وقتها هي الحليف الأول لإسرائيل، فقد أقيم المعمل سراً بالتعاون مع فرنسا. أما أمريكا فقد أخفي عنها الموضوع وكان الرد الإسرائيلي الرسمي هو أن المعمل الجديد مصنع للنسيج.

ومحافظة على السرية المطلقة، رفضت إسرائيل السماح للهيئة الدولية للطاقة النووية بالتفتيش. وحتى أيام جون كنيدي ظلت إسرائيل ترفض السماح للولايات المتحدة بالتفتيش.

– وورث موشي ديان هذا الخط بالذات عن بن جوريون، وكان يشبهه بخط الجنرال ديجول في فرنسا. وهو ضرورة حصول إسرائيل على رادع قوي خاص بها، حتى لا تتعرض لشبهة خطر نتيجة أسباب أو ظروف خاصة بسياسات القوتين الكبريين ـ روسيا وأمريكا ـ بل ان تملك إسرائيل لهذا السلاح يجعلها قادرة على التأثير على سياسات روسيا وأمريكا معاً في المنطقة.

– وبعد حرب ١٩٦٧، وأيام رئاسة جونسون لأمريكا، صارت الولايات المتحدة هي الحليف الأساسي لإسرائيل بعد أن تغير موقف فرنسا. وفي خلال حرب الاستنزاف بالذات ـ في ١٩٦٩ ـ حين طلبت إسرائيل المزيد من الطائرات والأسلحة المتقدمة استخدم جونسون الفرصة ليجعل إسرائيل توقع ـ في مقابل الأسلحة المتطورة ـ على الاتفاقية الدولية لمنع انتشار الأسلحة النووية. ولكن إسرائيل رغم كل شيء رفضت، وكانت حجتها انها ستحترم توقيعها بينما لن يحترم العرب توقيعهم! وحصلت إسرائيل من جونسون على كل ما تريد.

– وفي خلال رئاسة ليفي أشكول للحكومة الإسرائيلية عقد اتفاقاً يعطي أمريكا «حقاً

محدوداً» في التفتيش مقابل أسلحة ومواقف سياسية أمريكية أكثر تحيزاً، ولكنه هوجم بشدة. وعندما جاءت جولدا مئير إلى الحكم توقف تنفيذ الاتفاقية. وعندما جاء نيكسون إلى رئاسة أمريكا ومعه هنري كيسنجر كوزير لخارجيته توقفت أمريكا عن أي مطالبة أو أي بحث للموضوع الذري مع إسرائيل. [المراجع كثيرة، ولكن المرجع المباشر هنا هو دراسة هامة للباحث الإسرائيلي «شلومو أرسونون» نشرها مركز دراسات الحد من الأسلحة في جامعة كاليفورنيا].

.. وقد يسأل سائل هنا، ولماذا تحرص أمريكا على أن لا تمتلك إسرائيل أسلحة ذرية؟

والاجابة هي: انه مهما كان الأمر فأمريكا لا تحب أن ترى تزايد استقلال الإرادة الإسرائيلية عنها تماماً، فضلاً عن أن موضوع الأسلحة الذرية ليس مقصوراً في نتائجه على نزاع الشرق الأوسط. انه يمس في الصميم أخطر موضوع في العلاقات بين روسيا وأمريكا، وبالتالي أخطر موضوع في استراتيجية أمريكا الدولية، فلو سمحت أمريكا لدولة صغيرة حليفة لها كإسرائيل بامتلاك السلاح الذري، فهناك دول أخرى كثيرة قادرة على امتلاك السلاح الذري، والدولتان الأقوى ضد انتشار هذا السلاح لأنه يقلل سيطرتهما.وقد حاولت أمريكا منع فرنسا من امتلاك سلاح ذري مستقل وحاولت روسيا منع الصين من امتلاك سلاح ذري، رغم انهما في عداد الدول الكبرى. وكان هذا من أعمق أسباب خلاف أمريكا مع ديجول وروسيا مع الصين، فما بالنا إذا لحقت إسرائيل بهما، وماذا يمنع روسيا من اعطاء سلاح ذري تحت أي ستار لإحدى الدول الحليفة لها في مقابل ذلك، وماذا يمنع دولاً أخرى من امتلاك هذا السلاح، مثل دول جنوب افريقيا، الشريك السري لإسرائيل في توفير مادة البلوتونيوم وفي أبحاث وتجارب صنع القنبلة الذرية بالذات.

* * *

.. وإذا عدنا بعد هذا الإيضاح إلى سياق الحديث، فإن السر الإسرائيلي قد تسرب وفي نفس الوقت تغيرت سياسة إسرائيل من الانكار المطلق إلى سياسة فيها «نصف انكار ونصف إعلان»، سياسة أطلق عليها اسم «القنبلة الذرية في السرداب»: أي أن تترك العالم يخمن، أو تتركه يعرف أن لديها قنبلة ذرية، ولكن دون أن تعترف هي، أو يسجله أحد عليها رسمياً.

انها بهذا تحقق عدة أهداف في وقت واحد.

ـ ترهب أعداءها.

ـ وتحرج حلفاءها، كما تحرج الدولتين الكبريين بالذات، فلو أنها أعلنت أو اعترفت رسمياً بامتلاكها القنبلة الذرية فسيفلت زمام الأمر بسرعة من يد روسيا وأمريكا معاً، بدل أن يفلت ببطء شديد وعلى نطاق محدود (قنبلة الصين ثم التفجير النووي الهندي، وكل منهما دولة كبيرة، ومدى فعالية ما لديهما مشكوك فيه حتى الآن). أي انها بهذه السياسة، تصبح في موقف يسمح لها بابتزاز الدولتين الكبريين معاً، فإن كانت امتلكت القنبلة الذرية فعلاً، إلا أن بقاء الأمر محوطاً بالشكوك أو مغلفاً بالنسيان، خير من تقريره رسمياً ودولياً.

ولكن مصلحتنا نحن العرب هي أن «نقلب المائدة» في هـذا الموضـوع فقد يخسر غـيرنا ولكننا نحن لن نخسر شيئاً، بل إن كسبنا مؤكد.

فالدولة الوحيـدة التي تمتلك القنبلة الذريـة، سوف تتهـاوى حجتها في أنها تـريد هـذه الكيلومترات هنا أو هنـاك لحاجـة أمنية، وكـل قصة الحـدود الآمنة سـوف تتهاوى حتى أمـام الشعب الإسرائيلي نفسه. وسوف يكون على إسرائيل الذرّية إمـا أن تواجـه العالم بـأنها تريـد أراضي الآخرين لنفسها وأنه التوسع السافر، وإما أن لا تجد ما تقوله للعالم.

فماذا ننتظر؟..

إن المطلوب من الدول العربية ـ متفرقة ومجتمعة ـ ومن جامعـة الدول العـربية أن تثـير كلها الموضوع فوراً في كل المحافـل الدوليـة، وأن تطلب من أي جهـة ذات صلة التحقيق في الأمر، وأن تطلب الضغط على حكومة إسرائيل لإصدار بيانات صريحة لا غموض فيها حـول هذا الموضوع، وان تجمع المعلومات المنشورة وغير المنشورة حول هذا الموضوع. وإذا لم تصـل إلى اعـتراف رسمي من إسرائيل أو من الـدول الأخرى، فعليهـا على الأقـل أن ترسـخ هـذه الحقيقة في الذهن العالمي، لاقتلاع ما رسخته إسرائيل من أنها الدولة الصغيرة المهددة بالخـطر والمحتاجة إلى حدود آمنة!

* * *

هل يمكن أن يفعل العرب ولا يكونوا دائماً «رد فعل»؟

هل يمكن أن يؤمنوا بأنهم قادرون على توجيه الأحداث، والتأثير فيهـا، بالعمـل الجدي المضني، المتواصل.. لا بحماسة الساعة العابرة؟

١٩ ـ قراءات في الصحافة الإسرائيلية(*)

سنة ١٩٦٥ أصدرت كتاباً اسمه «إسرائيليات»، وفوجئت بإقبال شديد عليه. فقد طبع ٧ مرات بين تاريخ صدوره سنة ١٩٦٥ وقيام حرب ١٩٦٧. وقد امتنعت عن إعادة طبعه بعد ذلك على أساس أن الأحداث قد تخطته وتجاوزته. ولم يكن في الكتاب أي شيء جديد إلا أنه مجرد استعراض لتيارات إسرائيل الداخلية، ذلك أنه قبل ١٩٦٧ كان العالم العربي يهمل اهمالاً تاماً هذا الجانب، الأمر الذي جعل كل ما في الكتاب يبدو وكأنه جديد أو غريب للعين العربية. وبعد ١٩٦٧ التفتنا كثيراً إلى هذا الموضوع، فقد نشطت حركة الترجمة عن الكتب العبرية التي تصدر في إسرائيل إلى درجة وصلت أحياناً إلى حد الدعاية لإسرائيل.

على أي حال فإنني أعتقد أن الاطلاع على ما يقوله الإسرائيليون في حواراتهم الداخلية من المهم أن نطلع عليه من حين لآخر ولا يكفي أن نكتفي بما تنقله وكالات الأنباء الأجنبية من أشياء صغيرة خاصة بأحداث تقع من حين إلى آخر.

ولذلك وجدت أنه من المناسب أن نقدم لقراء المستقبل من فترة إلى أخرى بعض القراءات من الصحافة الإسرائيلية، ومن الندوات والكتب الإسرائيلية التي لا يتاح للقارىء أن يطلع عليها.

– في جريدة دافار، كتب أحد الكتاب الإسرائيليين يعلق على زيارة ياسر عرفات لمصر ومقابلته للرئيس حسني مبارك فقال: لماذا تثير مقابلة مبارك وعرفات هذا الغضب الحاد والعميق في دوائر الحكومة الإسرائيلية؟ ولماذا يزداد هذا الغضب لدرجة تجعل الحكومة الإسرائيلية تجري إلى واشنطن تشكو من هذه المقابلة وتحتج عليها وتطلب من أمريكا التدخل لعدم تكرار ذلك؟

(*) المساء، ١٩٨٤/٤/٩.

الواقع ان لدي إجابتين على هـذا السؤال: الإجابـة الأولى هي أن الحكومـة الحاليـة ما زالت تريد أن تقدم فشلها في لبنان على أنه نجاح بأية صورة من الصور. وبـالتالي فـإن عودة ياسر عرفـات إلى المسرح العربي بـأية صـورة من الصور بـل في بلد يعقد معـاهدة سـلام مع إسرائيل ينفي الحكمة التي أذاعتها الحكومة الإسرائيلية وروجت لهـا من أن الغزو الإسرائيـلي للبنـان سوف يستـأصل نهائيـاً منظمـة التحريـر وكل قيـاداتها عـلى الاطلاق. والسبب الثـاني لغضب الحكومة الإسرائيلية العنيف في تقديـري، هو سبب أيـديولـوجي خاص بـالإرهاب. فالحكومـة الحاضرة تتميـز بأن أمجـاد كل أعضـائها تـرجع إلى أيـام الإرهاب، وعـدد كبير من الوزراء والنواب في كتلة الليكود سبق أن وضعوا قنابل في الأسواق وفي سيارات الأوتـوبيس، كما يفعل الفلسطينيون هذه الأيام. ولو لم تكن منظمـة التحريـر كمنظمـة «ارهابيـة» موجـودة لكـانت كتلة الليكود قـد عملت على اخـتراعها، ذلـك أنه من دون اخـتراع وجـود منـظمات ارهابية ما كان للحكومة الإسرائيلية مثلاً أن تقوم بهذه العملية التي أسمتها «سلام الجليل» في حين أن أهدافها لا علاقة لها بسلام الجليل. إن الحكومة الإسرائيلية تصرخ من حين إلى آخر إذا قتل جندي إسرائيلي وتتحدث عن «الـدم اليهودي» ولكن نفس الحكـومة تثـور إذا حصل لقاء بين مبارك وعرفات، وكأن هذا في حد ذاته عمل ارهـابي، في حين اننـا جميعاً نعـرف أن نفس هذه الحكومة كانت تزود حكومة الأرجنتين بالسلاح، حكـومة الجنـرالات في الأرجنتين التي كانت تضطهد اليهود وتريق الدم اليهودي وذلك للحصول على مكاسب اقتصاديـة خلال أزمة إسرائيل الاقتصادية العنيفة.

- نشرت جريدة يديعوت احـرونوت خبـراً تقول فيـه ان الميجر جنـرال بن غال قـائد الجبهة الإسرائيلية الشمالية ألقى مؤخـراً محاضرة في تـل أبيب عن حرب لبنـان أذاع فيها سـراً جديداً إذ قال: إنه قبل الهجوم الإسرائيلي على لبنان بسنة تقريباً كـان قد وضـع خطة وافقت عليها أعلى المستويات في إسرائيل هدفهـا النزول في قلب بـيروت والقبض على يـاسر عرفـات وقادة منظمة التحرير احياء والعودة بهم إلى إسرائيل، وان هذه الخطة لم يتم انجازها لعقبـات مفاجئة ولكثرة تحركات قادة المقاومة الفلسطينية وعدم بقائهم في مكان واحد وقتاً كافياً في تلك الفترة.

- في جـريدة جـيروزاليم بوست كتب روفن البيـد أستاذ التـاريخ في الجـامعة العـبرية معلقاً على وجهة نظر كاتب آخر اسمه موردخاي نيسان هـو من دعاة التـوسع دون تحفظ كـما يقول المعلق، انه ليس مجرد توسع جغرافي وليس رد فعل للخطر وليس بحثاً عن الأمن ولكنه «ضرورة يهودية».

ويقول إن إسرائيل تعيش في منطقة الشرق الأوسط وان السيـاسات في الشرق الأوسط كلهـا تتميز بـالعدوانيـة والعنف وانعدام الـديمقراطيـة واستخدام القـوة للوصـول إلى السلطة واستخدام القوة للمحافظة على السلطة أيضاً.

وبالتالي فإن إسرائيل ليست محتاجة لأن تعتذر عن استخدامها العنف والقوة والعدوانية في تحقيق أغراضها وأهدافها، فإذا قررت مثـلاً أن تضم الضفة الغـربية إليهـا فهذا هـو حقها

الشرعي طبقاً لمنطق المنطقة التي تعيش فيها إسرائيل لأن النظم في المنطقة لا تتميز بشرعية أكثر من شرعية القوة والسلطة. ويستطرد الكاتب قائلاً: إن مطالبة الدولة اليهودية بأن تتميز بالديمقراطية هو مجرد كلام عن الترف. إن المهم والأساسي هو المحافظة على النقاء اليهودي والسيطرة اليهودية وتحقيق كل ما تستطيع تحقيقه من مكاسب، ذلك أن الارتباط بالقيم الديمقراطية في إسرائيل قد يكون «انتحاراً ديمقراطياً».

ويستطرد الكاتب نفسه قائلاً: ولكن الفرصة لم تفت أحداً تماماً، اننا ما زلنا نستطيع الاستيلاء على نصف لبنان. إن المشكلة الوحيدة هي أن أمريكا تمنعنا من ذلك. أمريكا في محاولتها إرضاء الطرفين تحول بيننا وبين تحقيق هدف أساسي. أمريكا تعارض اقتسام لبنان بين إسرائيل وسوريا تماماً كما عارضت بعد الحرب العالمية الثانية اقتسام ايران بين انجلترا وروسيا. ولكن لو أن أمريكا توقفت عن القاء المواعظ الأخلاقية فإن الفرصة قد تكون متاحة لنا لأن نحقق هذا الاقتسام الذي يمكن أن يصبح طبيعياً مع الزمن. والنائبة المشهورة غئولا كوهين ذكرتنا مائة مرة بصفحات التوراة التي تثبت أن دولة الملك سليمان، كانت تشمل جنوب لبنان بل لقد كان جنوب لبنان بالتحديد هو إسرائيل.

- جريدة دافار الإسرائيلية نشرت تقول إن زعماء حزب العمل يحذرون دائماً من خطر أن تصبح إسرائيل دولة متعددة الجنسيات وهذا هو السبب الجوهري لعدم موافقتهم على ضم الضفة الغربية كلها. هم يرون أن ضم الاعداد الكبيرة من العرب في المناطق المحتلة سوف يتحول مع الزمن إلى عبء كبير يتعذر على الدولة اليهودية أن تتحمله. وهم يستشهدون بحرب لبنان على أن إسرائيل قد وصلت إلى أقصى حدود التوسع بدليل أن وجودها في لبنان لم يمكن تثبيته وما زال مقلقاً وهو يستنزف إسرائيل، وبالتالي فقد آن الأوان لكي تسأل إسرائيل نفسها عند أي حد تتوقف وما قيمة حدود آمنة في وقت تصل فيه الصواريخ العابرة للقارات من واشنطن إلى موسكو في ٣٠ دقيقة ويصل الصاروخ بين أية دولتين في العالم العربي في أقل من دقيقتين.

على أن أخطر ما نشر حول هذا الموضوع، أي مشكلة التغير السكاني في الأراضي التي تحتلها إسرائيل، مضافاً إليها إسرائيل القديمة هو ما كتبه الكاتب داني زدكوني في جريدة دافار.

قال هذا الكاتب: إننا لو أخذنا بالحساب كل الأراضي التي تحكمها إسرائيل حالياً، سواء أراضي دولة إسرائيل قبل ١٩٦٧ أو الأراضي التي تحتلها حالياً في غزة والضفة الغربية وجنوب لبنان، واعتبرنا أن هذه ستكون حدود إسرائيل كما تطالب بذلك الحكومة الحالية في الأمر الواقع، فإن الاحصاءات تقول ان ثلثي كل الأطفال الذين يعيشون في كل هذه المنطقة هم من العرب، وان ثلث الأطفال والصبيان في حدود هذه السن في كل هذه المناطق هم من اليهود. وهذا يعطينا فكرة واضحة عن أن الهدف الإسرائيلي من إقامة دولة يهودية لا يمكن أن ينجح في البقاء في احتلال أراض يسكنها السكان العرب. ويقول الكاتب انه يتفق مع الجنرالات الصقور في ضرورة استقلال الشعب اليهودي. ولكنه يختلف معهم في كونهم

يتصورون أن استخدام القوة العسكرية يحقق هذا الهدف في حين أن القوة العسكريـة التي لا تستطيع إلا أن تتوسع، في الواقع تدمر هـذا الهدف لأنها تهـدد عدد السكـان الإسرائيليين في إسرائيل بالتناقص تدريجياً.

ـ كتب الياهو سال بيتر في جريدة هآرتس يتحدث عن الموقف الاقتصادي في إسرائيـل وتدهوره الذي لم يسبق له مثيل والعجز الهائل في الميزانية، ويقول ان هذه الأزمـة الاقتصاديـة قد غيرت وجهة نظر كثيرين من السكان الإسرائيليين، فقبل الأزمة الاقتصادية كان ٧٢ بـالمائة من الإسرائيليين يوافقون على سياسة بيجن التوسعية عن طـريق إقامـة مستوطنـات في الضفة الغربية. وقد تغير هذا تماماً. وفي استفتاء أخـير سئل فيـه عدد كبـير من الإسرائيليين عن أي قطاع في اقتصاد الدولة الإسرائيلية يجب تخفيض ميزانيته وقد أجاب ٧٠ بالمئة من السكان بأن هذا الوفر في الميزانية يتم من ايقاف بناء المستوطنات في الضفة الغربية، وبعد ذلك من مكـان ثان قال عدد من الإسرائيليين ان هذا يتم بإيقاف المشروعات الصناعية الخاصة في إسرائيـل. وهذه كلمة يقصد بها مشروع بناء طائرة القتال الحـديثة المسـماة «لافي» ومشروع حفر قنـاة من البحـر الميت إلى البحر الأبيض المتـوسط لا يثق الإسرائيليون أنهم سيبقـون حـولهـا كثيـراً لـو حدث أي تغير في الضفة الغربيـة، ثم خمسة بـالمائـة فقط من الإسرائيليين طـالبوا بـأن يكون الاختصار من التعليم العالي وبعض الخدمات.

٢٠ ـ الأمر رقم ١١٠٨(*)

هـو الأمر الفـريد من نـوعه في العـالم وفي التاريـخ، ولأنه أمـر من الحـاكم العسكـري الإسرائيلي في الضفة الغربية فإن له صفة القانون والمحاكم ملزمة بتطبيقه.

إنه ما اشتهر في العالم باسم قانون مقاومة الأحجار، لأنه يعاقب بـالسجن عشر سنوات أو عشرين سنة، من يلقي حجراً، بعد ان لم يعد لدى السكان العـرب في الضفة مـا يعبرون به عن مقاومتهم للاحتلال إلا القاء الأحجار. .

يقول الأمر رقم ١١٠٨ ـ صدر هذا العدد الهائل من الأوامر منذ الاحتـلال:

١ ـ كل من يلقي (شيئاً) بما في ذلك الحجارة بطريقة تصيب، أو يحتمل أن تصيب الحـركة في طريق عام يعاقب بالسجن عشر سنوات.

٢ ـ إذا ألقى شخص شيئـاً على شخص أو عـلى أملاك وأصـابها أو ألقى هـذا الشيء بهذا القصد يعاقب بالسجن عشر سنوات.

٣ ـ إذا ألقى هذا الشيء على وسيلة نقل متحركة بقصد إصابتها يعـاقب بالسجن عشرون سنة.

أي ان العربي إذا ألقى حجراً عـلى (ممتلكات) أي عـلى حائط مثـلاً مملوك لإسرائيلي أو أذا ألقى الحجـر (بقصد) اصـابة شخص، أي حتى إذا لم يصبـه اطلاقـاً فهو يتعـرض ـ طبقاً للنصوص السابقة ـ للسجن بين عشر وعشرين سنة!

إذا ألقى العربي حجراً على جماد. . أو على انسان ولم يصبه وبالتالي لم تسل منه قطرة دم

(*) المساء، ١٤/٦/١٩٨٤.

واحـدة، فالعقـوبة تصـل إلى السجن عشرين عاماً. . . ! التي هي في العـالم عقـوبـة القتـل المتعمد.

وإذا نسف إسرائيلي مسجداً. . أو إذا أدت وحشية جندي إسرائيـلي إلى قتل فتى عـربي فعقوبته التوبيخ. . !

وفي البرلمان الإسرائيلي منذ أسبوع قال نـائب رئيس الكنيست ان الصبي العربي الـذي يلقي حجراً على إسرائيلي يجب أن تُقلع عيناه!

الأمر الذي اضطر رئيس البرلمان الإسرائيلي إلى الاعتذار عما قاله نائبه. .

فإقامـة المستوطنـات وسط الأحياء العـربية تستفـز المشاعـر، وتؤدي إلى العنف المتبادل وبالتالي إلى اصدار تلك القوانين اللامعقولة.

هذا حال شعب بأكمله، ولكن أمريكا والغرب اهتمامهم مركـز على زخـاروف، الفرد الواحد المضرب عن الطعام في بلاده التي يفترض انه ينتمي إليها. . وهي روسيا.

٢١ ـ هذه هي خطة بيريز السرية التي يريد عرضها على العرب(*)

بعد مجيء شيمون بيريز إلى الحكم بقليل، قال إن لديه «خـطة سرية» للسـلام، سوف يعرضها أولاً على مصر. فلما سأله الصحافيون: لماذا تحتفظ بها سراً؟ ردّ شيمون بيريز قائـلاً: «لأنه لا داعي لأن أدخل معركة مع اسحق شامير، حول مشروع يرفضه العرب بعد ذلك»!

وهو طبعاً موقف رابح، خصوصاً بالنسبة لنا نحن العرب، الـذين نتشاجـر على الشيء قبل أن يكون في أيدينا. . . على طريقة «بيع الدب قبل اصطياده».

ولكن «شيمـون بيريـز» لم يقدم حتى الآن ـ في حـدود ما نعلم ـ أي مشروع محـدد، لا لمصر ولا للأردن، وان كان، على الأغلب، قد لمح إليه في مجلس وزرائـه، مما أثـار موجـات السخط لـدى حزب الليكـود، وما تبعـه من سباب علني بـين بيريـز وشارون كـما رأينـا منـذ أسابيع، دون أن نفهم بالضبط، ما هو موضوع هذا الخلاف الشديد؟ . . .

يقول المحللون، والمطلعون، ان البحث في أي مستقبل واضح للضفة الغربية أمـر غير وارد.

الحلول الواضحة هي:

أن تنسحب إسرائيل من الضفة وتسلّمها للأردن وهذا غير ممكن بالنسبة لإسرائيل.

أو أن تعلن ضم الضفة الغربية وتنهي الأمر كما تريد كتلة الليكود. ولكن بـيريز وكـثرة من اليهود يرفضون الضم لأنه سيقيم دولة غير يهودية بحكم الكثافة السكانية الفلسطينية.

هل هناك حل غير الطرد، وغير «الضـم»؟

هنـاك طبعاً. . «الاقتسـام» أي أن تأخـذ كل من إسرائيـل والأردن جزءاً من الضفـة،

(*) المستقبل، ١٩٨٥/١٢/٧.

ولكن اتصالات إسرائيل اقنعتها بأن الملك حسين ليس مستعداً للخوض في مثل هذا الحديث..

إذن، هل يوجد حل آخر؟

الحل الآخر، هناك نموذج منه في اتفاقية كامب دايفيد التي عقدها مناحيم بيغن مع أنور السادات، ولكنهما لم يلبثا أن اختلفا على تفسيرها. وحاول كارتر التوفيق بينهما عبثاً، حتى قتل أنور السادات، وتقاعد بيغن، وصارت صيغة «الحكم الذاتي» مرفوضة من الجميع...

يقول المحللون الإسرائيليون: ان اتفاقية الحكم الذاتي فيها ـ من الناحية العملية ـ ميزة، وفيها عيب.

الميزة، في نظرهم، أنها تقدم حلاً موقتاً يعاد البحث فيه بعد ٥ سنوات، لا يعرف أحد كيف ستتطور الأمور بعدها. ولذلك فإن المشروع السري لشيمون بيريز سينطوي على بند يحدّد «فترة انتقال» من هذا النوع لأن كلا الطرفين ليس مستعداً للتعامل فجأة مع وضع آخر كالضم أو الانسحاب.

أما العيب في اتفاقية الحكم الذاتي، في رأي الإسرائيليين من هذه المدرسة، والذي جعل قبوله من العرب مستحيلاً، فهو:

إن الحكم الذاتي يتحدث عن السكان الفلسطينيين وليس عن الأرض.

الحكم الذي يفترض أن وجود الفلسطينيين في غزّة والقطاع أمر موقت، لهم حق البقاء كما شاؤوا، وأمر ادارة شؤونهم المحلية كما يريدون، ولكن ليس لهم حق الملكية والسيادة على الأرض. وليس معقولاً أن يقبل أي طرف عربي «تأشيرة خروج للفلسطينيين» على هذا النحو، ولو بعد ٥ سنوات...

هنا، يأتي «السرّ» الذي يحتفظ به بيريز، وهو خلاصة أبحاث دستورية ودولية قديمة وجديدة، انشغل بها الجنرال ابراهام تامير وآمن بها، وهو مدير مكتب بيريز للشؤون السياسية وأقرب مساعديه إليه.

سيقترح بيريز بدلاً من «الحكم الذاتي» صيغة أخرى هي الـ«Condominium» التي قد تكون أقرب ترجمة لها هي: الملكية المشتركة. فحين يقال إن هذه العمارة السكنية (كوندومينيوم) فمعنى ذلك انها ملك مشترك لسكانها جميعاً.

كيف؟..

سيعترف بيريز في مشروعه السرّي بحق العرب في الوجود والأرض، في الضفة مثلاً.

وسيعترف في نفس الشيء لليهود الذين استوطنوا في المستوطنات التي أقيمت في الضفة.. مع تعهد بأن لا تزيد هذه المستوطنات عمّا تمّت إقامته وسكناه بالفعل.

وسيعترف للأردن بالسيادة...

أما «المشترك» فهو: حكم وادارة الضفة والقطاع: أي يكون الحكم الذاتي الإداري فلسطينياً ـ إسرائيلياً، ويكون الحكم السياسي، وقوات الأمن، ومواقع معسكرات القوات المسلحة، أردنياً وإسرائيلياً، على أن ينص على أن هذا الوضع هو وضع موقت لمدة خمس سنوات، يعاد البحث فيه، بعد مرور هذه المدة.

إن إسرائيل حريصة جداً على أن تجرّب التعايش السلمي مع العرب، وأن يعتاد العرب على التعامل معها كجار عادي. ولكن، حتى «معاهدة الصلح» مع مصر، لم تخلق مثل هذه العلاقة بين مصر وإسرائيل.

ولكن صيغة الـ «Condominium» لمدة خمس سنوات، فيها مزايا إسرائيلية متعددة.

فهي «تعيد» السلطة الأردنية إلى الضفة الغربية، في صورة وجود عسكري وأمني وإداري.

وهي لا تقضي بانسحاب الجيش الإسرائيلي من الضفة وإنما بتقليص عدده فقط.

وهي تؤجل البحث الأخير ٥ سنوات، يبتعد فيها شبح الحرب عن المنطقة، ويعفي إسرائيل من مصروفات عسكرية باهظة.

ثم هي ستفضي إلى شيء مهم جداً بالنسبة لهم.. الا وهو إجراء تجربة عيش حقيقية بين العرب والإسرائيليين في هذه المنطقة دون وجود سلطة عسكرية ولا حركة مقاومة، لعلها تمتد مع الزمن إلى باقي العالم العربي، وهو مستقبل إسرائيل الوحيد.

* * *

والمقارنة بين ظروف الضفة وغزة وشمال إيرلندة غير واردة طبعاً..

لكن لعله من المفيد قراءة المشروع الذي اتفقت عليه حكومتا انجلترا وايرلندة، على أن يكون لدولة ايرلندة رأي في حكم ايرلندة الشمالية، إلى جانب رأي انجلترا...

وهو نموذج دولي جديد في العلاقات الدولية.

وقد استقال بسببه عدد من نواب انجلترا من البرلمان احتجاجاً..

كذلك، يقول بعض معارضي مشروع بيريز السابق ذكره: «إننا لن نسمح بوجود سلطة غير إسرائيلية على أي منطقة أرض من أرض إسرائيل التاريخية...».

ولكن بيريز ومعه مجموعة أساسية من حزب العمل، يعتقدون أنه يمكن تمرير هذا المشروع من الرأي العام الإسرائيلي.. لأنه أقصى ما سوف يقدمه للعرب.

٢٢ ـ جريمة العصر
يوميات(*)

ـ ١ ـ

إحدى جرائم العصر الكبرى بكل المعايير، عملية نقل حوالى نصف مليون يهودي روسي إلى إسرائيل، ليشغلوا الضفة الغربية بالكامل، ويتم بناء على ذلك طرد الفلسطينيين من جهة، ومضاعفة قوة إسرائيل من جهة أخرى. . .

وأبادر بالقول بأن المجرم فى هذه الجريمة الكبرى ليس الاتحاد السوفييتي، فالعالم كله تقريباً ركز حربه ونقده ضد الاتحاد السوفييتي على موضوع حقوق الإنسان. ومن أول حقوق الإنسان حقه في أن يعيش حيث يشاء. وكنا نحن العرب في مقدمة المهاجمين لما أسميناه مع الغرب انعدام حقوق الإنسان في روسيا. وبصرف النظر عن سوء أحوال «حقوق الإنسان» في البلاد العربية، فقد كان البعض منا يتسابق في الحملة على الاتحاد السوفييتي، في هذا المجال!. . وفي معظم الحالات بوجه عام لم يأخذ الاتحاد السوفييتي من العرب مقابل مساعداته وأسلحته ومصانعه إلا السب والشتم والتشهير والطرد.

لكن الاتحاد السوفييتي، وإن كان لا مفر له في الظروف الجديدة، إلا فتح الأبواب، بما في ذلك طبعاً فتح أبواب هجرة اليهود إلى إسرائيل. . طالما أنه كان لنا مطلب هام هو تحقيق حقوق الإنسان في روسيا كما يراها الغرب، وقد تحقق لنا هذا المطلب، فليس لدينا ما نشكوه من فتح روسيا أبوابها ليهاجر من يشاء إلى حيث يشاء. . إلا أن الاتحاد السوفييتي، وهذا غريب لم «يساوم» على هذه الهدية التي لا تقدر بثمن لإسرائيل.

نشرت «الجيروزاليم بوست» أول أمس أن مسز تاتشر لا توافق على أن يكون لروسيا دور في حل مشكلة الشرق الأوسط لأنه لن يكون وسيطاً أميناً (لاحظوا تجاربنا مع الوسطاء

(*) الأهرام، ١٩٩٠/١/٢٧.

الآن، الانجليز والأمريكان من بالفور إلى كيسنجر إلى. . إلى. . من نماذج الأمانـة الشهيرة). واشار ارينز وزير خارجية إسرائيل إلى أن اشتراك روسيا سوف يعقد الحل لأنهم يدافعون عن فكرة المؤتمر الدولي، وانهم مرفوضون.

كيف فات الاتحاد السوفييتي ـ وهذا مـوضوع سيـاسي غير حقـوق الإنسان ـ أن يسـاوم إسرائيل ـ لحسابنا طبعاً ـ على هجرة نصف مليون يهودي؟

ولكن. . ألم يفت الدول العربية أن تتدخل لدى الاتحـاد السوفييتي في الـوقت المناسب من الفردية السياسية أيضاً وعلى الأمل في اختيار موعد القرار؟؟. . ولا أقول «نسـاوم» الاتحاد السوفييتي. فماذا لدينا لكي نساوم عليه؟. .

ألسنا إذن شركاء في جريمة العصر؟

جريمة العصر

يوميات(*)

- ٢ -

على الأقل يجب أن نجعل الدولتين الكبريين. . روسيا وأمريكا ـ تفهمان اننا لسنا أطفالاً! وان عليهما أن يكفا عن مخاطبتنا مخاطبة من يخاطب أطفالاً.

كانت أمريكا تضغط وتقيم الدنيا وتقعدها باسم «حقوق الإنسان» لإرغام روسيا على فتح أبوابها لهجرة اليهود الروس. وهي تعلم تماماً معنى ذلك، ولا تخفي هدفها وهو نقل مليون روسي يهودي إلى فلسطين، لإنهاء القضية لصالح إسرائيل. استجابت روسيا للضغط ـ ضعفاً أو رضوخاً ـ وهي تعرف نفس المعنى. كذلك حين سمحت لليهود بالهجرة، اغلقت أمريكا الباب، ليضطر اليهود الروس للذهاب إلى إسرائيل، إذ كانوا يفضلون الذهاب إلى أمريكا.

ماذا نسمع ونقرأ الآن؟

تقول روسيا إنها ضد توطين مهاجريها في الضفة الغربية، وانها وقد اعتنقت المفهوم الأمريكي لحقوق الإنسان لم تعد تملك شيئاً! ولكنها ضد توطينهم في الضفة الغربية!

وتقول أمريكا لنا وتنشر كلامها في صحفنا انها ترفض استخدام مساعداتها المالية لإسرائيل في توطين اليهود الروس في الضفة الغربية!

تحدثنا الدولتان الكبريان بهذا الكلام الفارغ الذي ترفضه عقول الأطفال! وكأننا لم نسمع عن نظرية الأواني المستطرقة التي يدرسها الأطفال في المدارس الابتدائية.

إن المساعدات الأمريكية تدخل إسرائيل من النوافذ والأبواب ومن تحت عتبة الباب

(*) الأهرام، ٢/٢/١٩٩٠.

ومن المال العام والخاص ومن آلاف الطرق. وهي لن توضع بالطبع أو يوضع جزء منها تحت عنوان توطين المهاجرين الروس ولكنهم سيوطنون بالطبع بمساعدة المال الأمريكي أساساً، تحت بنود البناء والصناعة والزراعة والمدارس والمستشفيات. هل يمكن لأمريكا، حتى لو كانت تريد، أن تفرز ما يذهب لإسرائيل وما يذهب للمهاجرين الجدد يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة.

والمهاجرون الروس: هل سترسل روسيا جنوداً يراقبون من يسكن في الضفة الغربية رأسا ومن يسكن في إسرائيل مكان مهاجر سابق يذهب للضفة الغربية؟..

كلام فارغ. وعيب أن تقوله لنا الدولتان وعيب أن ننشره فهو محاولات تزويق لما يجب أن تواجها به وان تعرفا بوضوح أنهما ترتكبان معاً، وباسم حقوق الإنسان (!) جريمة العصر الصارخة.. وانهما سوف تدفعان الثمن.. ولو بعد مائة سنة.

٢٣ ـ جريمة العصر
يوميات(*)
رسالة جيمس بيكر!!

ونحن في وسط هموم الانتفاضة وجريمة العصر يجري تنفيذها بجسر جوي ينقل اليهود الروس من موسكو إلى تل أبيب وأمريكا تضع القيود في وجه اليهود الراغبين في الهجرة إليها.. والحركة بطيئة نحو اجتماع وزراء الخارجية الثلاثة.. دعك من الحوار الفلسطيني الإسرائيلي.. أرسل جيمس بيكر وزير خارجية أمريكا منذ أيام رسالة سرية إلى السيد الشاذلي القليبي أمين عام الجامعة العربية.. يطلب فيها ماذا؟..

يطلب جيمس بيكر أن تقدم الدول العربية المزيد لاثبات حسن نيتها نحو عملية السلام مع إسرائيل! «ثاني»؟ بل ثالث وعاشر؟!

المهم أن جيمس بيكر هذه المرة يقترح طلبات محددة.. أو طلبين محددين بمعنى أدق: الأول أن تلغي الدول العربية كل قراراتها وقوانينها الخاصة بمقاطعة إسرائيل!!.. كيف؟

مرة أخرى يخاطبوننا كالأطفال. الدول العربية ـ غير مصر ـ ما زالت في حالة حرب قانونياً مع إسرائيل! والقاعدة في كل العالم وفي طول التاريخ وعرضه أن تنتهي الحرب ويقوم السلام أولاً، ثم تلغى المقاطعة بمجرد انتهاء الحرب وقيام السلام، وهذا ما فعلته مصر. ولا أعرف حالة واحدة في العالم ولا في التاريخ انهيت فيها المقاطعة قبل نهاية الحرب!!

وإذا انهيت كل مظاهر المقاطعة ـ وهي ليست هدفاً في حد ذاتها على أي حال ـ فماذا يبقى للسلم، وللتعب من أجل السلم، ولماذا تحتاج إسرائيل بعد ذلك إلى السلم؟..

والطلب الثاني أعجب: أن تسعى الدول العربية لإلغاء قرار الأمم المتحدة منذ سنوات، الذي قرر أن الصهيونية حركة عنصرية! كأن تسعى الدول العربية لإقناع الأمم

(*) الأهرام، ١٩٩٠/٢/٧.

المتحدة بأعضائها المائة والخمسين من الدول بذلك؟ هل هذه مسؤولية الدول العربية؟ هل هو من واجباتها؟ . .

وهذا وذاك في مقابل أي شيء؟ قمع الانتفاضة، قتل الرجال والنساء والأطفال ونسف البيوت؟ . . اعلانات شامير عن رفضه «الأرض مقابل السلام»، بيانه الشهير عن تهجير الفلسطينيين. . أخيراً وليس آخراً، سعيه لتنفيذ تهجير ملايين اليهود السوفييت لشغل الضفة الغربية مع طرد أهلها؟ . . رفضه إلى الآن أن يعطي الفلسطينيين مجرد اختيار أعضاء وفد يمثلهم في المباحثات؟!

كانت رسالة مستر بيكر إلى الأمين العام في الشهر الأول من ١٩٩٠! هديته إلى الوطن العربي في التسعينيات!! هل ذهب خيال أحدكم إلى مثل هذا؟ من لا يصدق سأرسل له نص الرسالة!

٢٤ ـ جريمة العصر
في ضمير التاريخ وفي طيات المستقبل(*)

نحن أبناء الأمة العربية في طليعة المطالبين بحقوق الإنسان، ليس لأن حقوق الإنسان جاءت أول ما جاءت في بلادنا عبر الأديان المقدسة فحسب، ولكن لأن المظلومين عادة هم أول وأخلص المطالبين بحقوق الإنسان. ونحن في هذا العصر مظلومون.

ومن أول حقوق الإنسان حقه في أن يرحل إلى حيث يريد ويعيش حيث يريد. وما تاريخ الدنيا إلا تاريخ هجرات عمرت أرجاء الأرض مكتشفة قارات جديدة بأكملها.

ولكن تهجير ملايين اليهود من روسيا إلى إسرائيل لا يندرج في هذا الإطار، بل بالعكس تماماً. فقد كانت الهجرات دائماً عفوية اختيارية غير منظمة وخالية من أي نية غزو أو عدوان. أما تهجير اليهود الروس إلى فلسطين فهو ولأول مرة في التاريخ يتم بتواطؤ دولي، وعلى يد الأقوياء، واغتصاباً لأرض الآخرين وعدواناً ومحواً لحقوق الإنسان في أرضه الأصلية.

وحق الإنسان في الهجرة لم يقترن أبداً بكل الإجراءات التي ترغمه على الاضطرار للذهاب إلى مكان معين. فليس سراً أن المهاجر اليهودي الروسي يريد أن يذهب إلى أمريكا في الأساس أو غيرها من دول الغرب. وأن كافة الإجراءات اتخذت لكي يرغم المهاجرون على الذهاب رأساً من روسيا إلى إسرائيل دون توقف في مكان يقرر فيه بملء حريته إلى أين يريد الذهاب. فهو عمل يبدو تحريرياً من طرف وإرغامياً من طرف في نهاية الرحلة وهي عملية غزو متكاملة لأركان الغزو. وهي لم يستخدم فيها أسلحة القتال ولكن المستخدم فيها أسلحة القدرات المادية الطاغية الأخرى، من مال غزير وطائرات كثيفة وسطوة دولية بغير حدود، وأساسها طرد العرب من أراض لهم لا تصل إلى واحد من المائة من أراضي الدولتين الأكبر يسكنها ثلاثة ملايين مواطن إزاء عملية إجبارية تفرض عليهم من دولتين بهما أكثر من

(*) أخبار اليوم.

خمسمائة مليـون مواطن، لتقتلعهم اقتـلاعاً وتمحـوهم محواً، وتنـتزع من ذاكرة البشريـة جمعاء أرضاً مقدسة ولد فيهـا أنبياء من شتى الأديـان، وفيها مقـدسات لـلإنسانيـة جمعاء، بنـاءً على صورة في غياهب التاريخ عن وعد بين الله وبين شعب مختار منحـه بمقتضاه قلب الـدنيا، مـا بين النيل والفرات.

مـا هي عناصر الغـزو؟ الإرغام والفـوضى. الاحتـلال والاستيـطان من قبـل الغـزاة. استخدام القوة البـاغية. والقـوة ماليـة وماديـة وسياسيـة وعدديـة. وهذه أول مـرة في تاريـخ البشرية يتم فيها غزو على هـذا النحو، غـزو تقوم بـه أكبر دولتـين، بموافقـة أكبر معسكـرين للدول، وعلى مرأى ومسمع من عالم بأكمله كله من المستضعفين في الأرض.

والأخـطر من هذا كله أن هـذا يجري في إطـار من الدجـل السياسي عـلى مستـوى من حكام العالم المتجبرين وتحت عنوان «حقوق الإنسان».

وما هذا البيان إلا لتسجيل الجريمة في ضمير التاريخ، ولتأكيد أن ما يرتكبه المستكبرون في حق المستضعفين في صفحة من صفحات التاريخ سوف ينقلب عليهم ذات يوم في صفحة أخرى من صفحاته الكثيرة.

إبراهيم الدسوقي اباظة
إبراهيم بدران
إبراهيم حلمي عبد الرحمن
إبراهيم زكي قناوي
إبراهيم سعد الدين
إبراهيم شكري
إبراهيم فرج
أحمد بهاء الدين
أحمد حروش
أحمد عبد المعطى حجازي
أسامة الغزالي حرب
أسامة أمين الخولي
السيد يّس
ألفريد فرج
أمينة السعيد
بهجت عثمان
ثروت عكاشة
جاذبية سري
جلال أمين
جمال بدوي
جمال الغيطاني
حازم الببلاوي

حامد أبو النصر
حسن إسماعيل
حسين كامل بهاء الدين
حلمي التوني
خالد محيي الدين
رتيبة الحفني
رضوى عاشور
رعاية النمر
سامي منصور
سعاد حلمي
سعيد سنبل
سكينة فؤاد
سمحة الخولي
سناء البيسي
شكري عياد
صافيناز كاظم
صلاح حافظ
عادل إمام
عادل حسين
عادل حمودة
عبد الخالق الشناوي
عبد العظيم أنيس

عبد الغني أبو العينين
عصام الدين رفعت
عطية عاشور
علي الدين هلال
علي الراعي
فاتن حمامة
فاروق أبو عيسى
فتحي غانم
فيليب جلاب
كامل زهيري
كمال أبو المجد
كمال الطويل
كمال النجمي
لطفي الخولي
ليلا تكلا
مأمون الهضيبي
محفوظ الأنصاري
محسن محمد
محمد إبراهيم كامل
محمد السيد سعيد
محمد العزبي
محمد سيد أحمد

محمد حلمي مراد
محمد عبد اللاه
محمد عودة
محمد فائق
محمد وفاء حجازي
محمود أباظة
محمود السعدني
محمود المراغي
محمود عبد الفضيل
مصطفى الحسيني
مصطفى بهجت بدوي
مصطفى نبيل
مكرم محمد أحمد
ممدوح جبر
ميلاد حنا
نجيب فخري
نعمان جمعة
نيبال منيب
يحيى الرفاعي
يوسف إدريس
يوسف القعيد
يوسف عبد الرحمن

الفصل الرابع

التحولات السياسية في مصر

الملتزم الرصين

اسماعيل صبري عبد الله(*)

يتعين على من يريد دراسة فكر أحمد بهاء الدين السياسي في أصولياته وتفاصيله أن يتفرغ لتلك المهمة سنتين على الأقل. لم يجف قلم بهاء طوال عقود أربعة. وتوزعت كتاباته السياسية بين عدد كبير من الصحف والمجلات ونشر عدداً من الكتب. كما ان كثيراً مما كتب في موضوعات غير سياسية يمكن ردها إلى مفاهيم ومواقف سياسية. ويقتضي البحث في هذا المجال إجراء مقابلات مع زملائه المقرَّبين في فترات مختلفة وكذلك مع عدد من أصدقائه يختارهم الباحث من بين الشبكة الواسعة من أصدقاء بهاء. وهذا كله يستحق أن يصبح موضوع رسالة ماجستير أو دكتوراه في كلية الإعلام أو كلية الاقتصاد والعلوم السياسية. ولذلك أنبّه القارىء أن ما أكتبه هنا بحكم ما بيننا من تواصل فكري ومودة راسخة لن يعطي الموضوع حقه. وأقصى أملي أن أثير الاهتمام بين شباب الباحثين لعل واحداً منهم ينهض بالأمر ويعطيه من الوقت ما يلزم.

لقد جمعتني وبهاء مدرجات كلية الحقوق في الأربعينيات. ولم تتحول الزمالة إلى صداقة لأنني كنت طالباً مشاغباً في المدرج وخارجه، عالي الصوت، كثير التهكم، وكان بهاء في صباه كما في مراحل النضج والتجربة هادئاً رصيناً يبتعد عن المشاغبات التي قد تتحول إلى مشاجرات. وقد سافرت عقب التخرج للدراسة بباريس حيث أمضيت قرابة الخمس سنوات وعدت مدرساً في جامعة الاسكندرية حيث أقمت حتى خريف ١٩٥٤ ولم أتردد كثيراً على القاهرة. ولكنني كنت أقرأ له في روز اليوسف بانتظام وإعجاب. ثم جمعتنا الظروف حين نقلت لجامعة القاهرة ولكن سرعان ما ذهبت إلى المعتقل والسجن لعدة سنوات. وهكذا لم ترسخ علاقتنا الشخصية إلا في النصف الثاني من الستينيات. وأذكر كل هذا ليعرف القارىء أنني في سنوات البعثة وسنوات السجن لم أقرأ الصحف المصرية إلا لماماً. ومع ذلك أحس بأننا كنا قريبين بالعقل والقلب طوال تلك العقود.

(*) رئيس منتدى العالم الثالث بالقاهرة.

وبمراجعة الوثائق التي أتاحها لي الأستاذ جميل مطر عادت الحياة إلى ذكريات كاد الـزمن أن يضيع معالمها واستطعت أن اقتبس من كتاباته نصوصاً تؤيد ما أقـول. وفي ضوء ذلـك كله أعتقد أن ثمة ثوابت في فكر بهاء السياسي تغير أسلوب التعبير عنهـا باختـلاف أوضاع الـوطن والمجتمع عبر تلك العقود الحافلة بـالأحداث الجسـام والتغيرات الحـادة التي لاحقها بـالكلمة المكتوبة يوماً بعد يوم.

ولن يجادل أحد ممن يعرفون الكاتب الكبير أن أول أصل من أصول فكـره هو الـوطنية الصادقة الثـابتة والمنـاضلة. ولا غرو في هـذا، فقد دخـل جيلنا ونحن نستهـل العشرين من العمر مرحلة نضال وطني ضد الاحتـلال البريـطاني فور انتهـاء الحرب العـالمية الثـانية. فقـد تميزت تلك الحرب عن غيرها من حروب أوروبية أو أمـريكية بـالهجوم الفكـري المكثف ضد الفاشية فكراً وممارسة. رفع الحلفاء ضد ألمانيا الهتلرية شعارات التحرر والديمقـراطية. وأعلن روزفلت أن الأمم المتحدة (أي حلفاء أمريكا وبريطانيـا والصين، وليس المنـظمة التي أنشئت بعد الحرب) يقاتلون من أجل حريات أربع: (التحرر من الخوف، التحرر من الجوع. . .). ولهذا اشتد عود حركة التحرر الـوطني وبدأ التخلص من ربقـة الاستعمار القـديم (ما يسميـه البعض الكولونيالية) وأعلن مؤتمر باندونغ ضرورة تصفية الاستعمار. وخـلال سنوات الحـرب وما تلاها من سنوات، ظهرت بوادر التشقق في بنية النظام السياسي والاقتصادي والاجتـماعي الموروث القائم على قاعدة اجتماعية ضعيفة للغاية نخر فيها الفساد. ولذلك لم يكن غريبـاً أن يظهر بيننا اتجاه واضح ضد فاروق والنظام الملكي كله. ولم يسبق للحركة الوطنية المصريـة أن طرحت القضية على هذا المستوى بل كان أقصى ما وصل إليه الوفد، مثلاً، هو احترام دستور ١٩٢٣ نصـاً وروحاً. كما أدرك جيلنا أهميـة تحريـر الاقتصاد المصري من سيـطرة الأجـانب. وأحـل شعـار «الاستقـلال السيـاسي والاقتصـادي» محـل شعـار «الاستقـلال التـام أو المـوت الزؤام». ومن يراجع كتابات هذه الفترة وحتى أواسط الخمسينيات يلمس بوضوح اهتمام بهاء بتاريخ الحركة الـوطنية المصريـة منذ أبعـد المصريون البـاشا المعـينّ من قبل السلطان العثماني واختاروا محمد علي. وحين يشير بهاء إلى هذا الماضي إشارة بالغة الدلالـة، يكتب: «أنا هنـا لا أتحدث عن نظام الحكم في عهد محمد علي ولا عن سياسته. المهم أن مصر في ذلك العصر - إلى جانب النهوض بالزراعة - اتجهت إلى الإنتاج الصناعي ولن أقدم لك كشفاً طويلاً بالصناعـات التي وجدت وتـرعرعت في مصر منذ مائـة وعشرين عامـاً، ولكن إليك فقط هـذه العينة»، ثم يـذكر ثـلاثة عشر مشروعـاً صناعيـاً كان مصيرها التفكيك والبيع للأجانب نتيجـة لتدخـل الاستعمار[1]. وبهـذا يظهـر مدى الـربط في فكره بين الاستقلال السياسي والنهضة والتنمية وخاصة التصنيع الذي بدونه يصعب تماماً رفع مستوى المعيشة. ويظهر هذا التواصل والشمول في تاريخ الحـركة الـوطنية في أجمـل صوره في مقال له بعنوان «٧٤ سنة من العمـر»، يذكّـر القارىء فيـه بالـدور التاريخي لكـل من: جمال الدين الأفغاني، أحمد عرابي، مصطفى كامل، طه حسين، سعد زغلول، مصطفى النحاس، سلامة حجازي، سيد درويش، محمود عزمي، محمد حسين هيكل - وآخرين غـيرهم، ويختم المقال بقوله: «وإنما نحيي كل الذين حملوا قبلنا شعلة التطور وأزاحوا من طريقنا كل هـذه العقبات وأعـطونا

(١) روز اليوسف (٢٧ تموز/ يوليو ١٩٥٣).

الفرصة لنبدأ اليوم معركة جديدة لتحقيق العدل والحرية والسلام»[٢]. ويتسع مفهوم الوطنية عنده ليشمل المواطنين ولا يقتصر على تحرير أرض الوطن. فالاستقلال عنده بداية وليست نهاية. وهنا يظهر أصل ثانٍ من أصوله الفكرية «حرية المواطن». وهو حين يطرح قضية الديمقراطية يوضح أنها كانت منذ ثورة عرابي على الأقل تتضمن المطالبة بالحياة الدستورية. وكانت كل معارك الحرية في أوروبا دارت حول ضرورة وجود وثيقة قانونية جوهرية تحدد للحكام حدوداً لا يجوز أن يتخطوها وتؤكد أن الأمة مصدر السلطات. وكانت المطالبة بالدستور وباحترامه السمة الرئيسية لما نسميه الديمقراطية. فحين شكلت ثورة تموز/ يوليو، بعد وصول الضباط الأحرار لمواقع السلطة، لجنة من خمسين عضواً لوضع دستور جديد للبلاد، سعد بهاء بهذا التوجه وسارع بمخاطبة أعضاء اللجنة على صفحات روز اليوسف[٣] ليوصيهم بما يجب أن تراعيه اللجنة في صياغة الدستور، واقتبس من خطابه فقرة واحدة ذات أهمية لكل من يريد ديمقراطية كاملة. يقول بهاء: «إياكم والتحفظات. إذا آمنتم بشيء فسجلوه في نص صريح. إذا آمنتم بأن الشعب هو الذي يختار البرلمان فلا تعطوا أحداً حق حله. وإذا آمنتم بأن البرلمان هو الذي يختار الوزارة فلا تبيحوا لأحد أن يقيل الوزارات. وإذا رأيتم أن الصحافة حرة والرقابة محظورة فلا تقولوا إلا إذا...». ولكن بهاء كان في ذلك الوقت رومانسياً ككثير من أبناء جيلنا يقنع بصياغة دستور يؤكد الحرية السياسية ويسد ثغرات التحايل عليها. ولكنه كالقليل منا حاول أن يتحاشى التناقض الزائف بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية. لقد كان واعياً تماماً بظروف الفاقة والروابط العائلية الموروثة وبتاريخ مصر الحديثة في تجارب الانتخابات وتلاعب بعض الأحزاب وتأثير نفوذ الحكومة. وأعتقد أنني لا أتجاوز فكره حين أزعم أن «جناحي» الديمقراطية متلازمان بمعنى ضرورة السير في طريق الإصلاح السياسي والإصلاح الاجتماعي معاً. وأن الديمقراطية السياسية تتيح فرصة أكبر لتغيير الأوضاع الاجتماعية. كما أن كل تقدم اجتماعي يرسخ الديمقراطية السياسية في حياة المواطنين والمجتمع.

والأصل الثالث لفكر بهاء هو القضية الاجتماعية. فقد شغلته أوضاع الظلم الاجتماعي قبل ثورة تموز/ يوليو. ولم يفارقه يوماً واحداً مصير الطبقات المحرومة. وغداة الثورة ظهرت دعوة للتقشف بقصد زيادة الإدخار لتمويل الاستثمار اللازم لمشروعات التنمية. وكتب بهاء عندئذ: «يجب أن نراعي عدم الضغط على الطبقات الفقيرة إلا عند أقصى الضرورات. فهذه الطبقات الفقيرة مجهدة ومرهقة من قديم. وما أصعب إقناع الجائع بالإدخار»[٤]. وقد تعمدت الإقتباس من نص قديم لأبيّن للقارىء أن بهاء كان واعياً بأهمية التغيير الاجتماعي باتجاه العدل الاجتماعي المتزايد ولم يكن واحداً من الكتّاب الكثيرين الذين صنّفوا المقالات والكتب في الثناء على «الاشتراكية العربية النابعة من واقعنا» لأن السلطة أعلنت تصميمها على التحول الاشتراكي. ويعرف كل من خالط بهاء عن قرب أن فكره في هذا الصدد اشتغل بثلاثية زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع وتحديث المجتمع، وكل ذلك في إطار وطني يرفض السيطرة الأجنبية على اقتصادنا، وكذلك

---

(٢) روز اليوسف (١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٧).
(٣) روز اليوسف (٢٣ شباط/ فبراير ١٩٥٣).
(٤) روز اليوسف (آذار/ مارس ١٩٥٣).

حرية المواطن، هذا البعد الذي استقر في عميق وجدانه وظهر عبر السنين في تعبيرات تختلف باختلاف الظروف.

والأصل الرابع في فكر بهاء كان الحرص على المعرفة العلمية وإعمال العقل في كل شيء. فهو من المثقفين الذين اقتنعوا تماماً بالدور المحوري للتقدم العلمي في بناء الحضارة الغربية. والواقع يثبت أن استغلال الرأسمالية للطبقة العاملة، واستغلال الدول الأوروبية للمستعمرات ما كانا كافيين لبناء حضارة شامخة. فاستغلال طبقة لطبقة أخرى ظاهرة قديمة شاعت بدرجات متفاوتة وأشكال متنوعة في غالبية المجتمعات البشرية التي نعرف تاريخها. وقد أفرزت تلك المجتمعات إسهامات معرفية لا يستهان بها. ولكن العلم كمطلب دائم ملحّ يتراكم مردوده لا في مستوى المعرفة النظرية فقط، ولكن يتحول إلى وسائل للتزايد المستمر في إنتاجية العمل البشري الذي استقرّ في إطار الحضارة الغربية. كذلك اجتاح الغزاة عبر التاريخ المعروف أقطاراً وشعوباً كثيرة ونهبوا ثرواتها. ولكن المنهوب استُهلك، ولم يحدث «التراكم الرأسمالي» اللازم لزيادة مطردة في الانتاج. ولا يرجع هذا إلى أي ميزة خلقية في سلالات عرقية معينة بحيث تعجز الشعوب الأخرى عن أن تأتي بمثله. فاستخدام العقل واتّباع المناهج العلمية والدعم الثابت لجهود البحث العلمي أمور تفتح أمام شعوبنا باب الإبداع وليس فقط باب المحاكاة. إن كل حضارة لا تنتج معارف ومهارات جديدة تتجمد ثم تتدهور ثم تمزّق ثم تندثر. ويظهر هذا الأصل في كل ما كتب بهاء. فهو يمتحن صحة الخبر قبل أن يعلق عليه، وهو يقلب الأمر على وجوهه المختلفة ثم ينتقي العبارة الدقيقة التي تشبه أن تكون لغة علمية، وإن كانت لبهاء قدرة فائقة في باب ما قلّ ودل: الجملة القصيرة، والفكرة الواضحة والنص المحكم الذي لا يدخل في أي استطراد.

والأصل الخامس، وهذا الترتيب لا يعني التراجع في الأهمية، هو قضية العروبة. وأقر هنا بكل أمانة أنه سبق كثيرين منا في تعامله مع هذه القضية بالغة الأهمية. لقد كنا جميعاً نحس بنوع من التعاطف غير محدد المعالم بين الأقطار العربية. ولكن غلب علينا في الأربعينيات مفهوم ضرورة تحرير كل قطر أولاً ثم البحث في التعاون بعد الاستقلال. فقد كان الوطن العربي كله فيما عدا اليمن العربية والسعودية مستعمراً. وحين نشأت جامعة الدول العربية وقّع ميثاقها سبعة أعضاء فقط لأن الخمسة عشر قطراً التي انضمت إليها عبر الفترة من منتصف الأربعينيات إلى بداية السبعينيات لم يكن لأي منها حكومة تمثله. نعم كنا نضرب في ذكرى وعد بلفور وتظاهرنا ضد فرنسا لتعترف باستقلال سوريا ولبنان، ودافعنا عن وحدة وادي النيل تحت شعار «شعب واحد وطن واحد». وكنا لا نعرف الكثير من كتابات ساطع الحصري أو غيره ممن كتبوا عن القومية العربية. وكان تعليمنا المدني يؤكد على كل ما هو قطري وينقل إلينا تاريخ أوروبا الحديث ولا شيء عن التاريخ العربي في مجمله. وكان التعليم الأزهري بطبيعته يدرّس الإسلام الذي يعلن أنه «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». وكان بعض علمائه الأجلاء يخشى أن تفعل دعوى القومية الدور الذي لعبته الشعوبية عندما بدأ تفكك الدولة العباسية. ونسوق مثلاً مبكراً يبرز توجه بهاء القومي العربي. فقد كتب إحسان عبد القدوس، رئيس تحرير روز اليوسف، مقالاً بعنوان «مصر

أولاً»، دعا فيه إلى تركيز جهود التغيير والتقدم في مصر قبل أن تنصرف إلى جمع خليط الأنظمة الحاكمة في أقطار العرب. وردّ بهاء على رئيس التحرير متقصياً ما أسماه «الواقعية في السياسة المصرية» وضرب مثلاً عليها موقف اسماعيل صدقي الذي لم يوافق على دخول مصر حرب ١٩٤٨ حين طرح الموضوع على مجلس البرلمان. ولم يُدِن بهاء الواقعيين وإنما ناقش الأساس الفكري لمواقفهم والذي يمكن إيجازه في مقولة إن مصر التي سبقت جاراتها في مضمار التحديث والتقدم لن تكسب شيئاً من العرب، وعليها أن ترتبط أكثر بالدول المتقدمة منبع العلم والصناعة والثراء. وفنّد بهاء تلك الحجج ورصد بياناً بالعناصر التي تجمع العرب، ومنها اللغة والدين والموقع الجغرافي وتاريخ الخضوع للسلطان التركي ثم للاحتلال الغربي (١١ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٤). وأجمل ما في الأمر تعقيب إحسان على مقال بهاء، جاء فيه: «الوحدة قضية مسلّم بها لا ينكرها إلا كافر أو مجنون. ولكنني عندما تكلمت ناقشت السبيل إلى الوحدة ـ لا الوحدة نفسها ـ وقلت إن السبيل هو تنسيق المصالح بحيث تكون وحدة عربية، ولكي نبين وحدة المصالح يجب أن تفكر كل دولة عربية في مصالحها أولاً». وللقارىء أن يتذكر مثلاً معاصراً لمحرر يعارض موقف رئيس التحرير وينشر مقاله في الجريدة نفسها ويعقّب رئيس التحرير على رد المحرر بأدب جم وروح زمالة حقيقية.

وفي ضوء هذه الأصوليات الخمس يجب طرح موضوع موقف بهاء من ثورة ٢٣ تموز/ يوليو. وللأسف الشديد ليس فيما بيدي من وثائق مقالات كتبها في عام ١٩٥٢. ولكنني واثق أنه شارك معظم المثقفين في الشعور بالسعادة لسقوط نظام الحكم العفن وببعض القلق في ما يمكن أن يتحول إلى حكم عسكري على النحو المتكرر في أمريكا اللاتينية. فلم نكن نعرف الكثير عن الضباط الأحرار رغم الإطلاع على بعض منشوراتهم وإعجابنا بما جاء فيها. فكما ذكرت كان النظام الحاكم مهدداً بالانهيار تلقائياً وكان المجتمع يغلي بالسخط إلى حد أن الواعين من أثرياء مصر بدأوا يرون في شخص الملك خطراً يدفع إلى الثورة دفعاً. واتفق البريطانيون مع الأمريكان على أن إزاحة فاروق عن العرش أصبحت ضرورية لدفع «خطر الشيوعية». وقد انتشر التذمر فيما وراء النضال من أجل جلاء المحتلين. تكاثرت إضرابات العمال وتعاظم سخط الموظفين وشهدت البلاد حدثاً فريداً يندر أن يقع في أي بلد وهو إضراب ضباط الشرطة. ودخل العنف مجال السياسة طوال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢. فقتل اثنان من رؤساء الوزارة ورئيس محكمة الجنايات وحكمدار (مدير أمن) القاهرة وانفجرت قنبلة في سينما مترو. كما لجأت الحكومة نفسها إلى الإرهاب حين أمرت باغتيال حسن البنّا. وشكّل الملك شبكة إرهابية سميت بالحرس الحديدي... وهكذا حتى بلغنا القاع بحريق القاهرة. ولم يبق بيد النظام الفاسد من رأسه إلى أخمص القدم إجراء يمكن أن يستوعب كل هذا السخط. وظن الحكام أن عودة الوفد إلى الحكم يمكن أن تغير الجو كله وتهدىء الأحوال. ولكن هذا الحزب كان جامداً لا يتطور وأغلق الباب تماماً أمام أي محاولة لطرح القضية الاجتماعية كما فعلت أحزاب وطنية كبيرة في رأسها حزب المؤتمر الذي ما زال يحكم الهند بفضل اتجاهه إلى اليسار في مرحلة ما بعد جلاء البريطانيين. بل لقد تراجع عن مواقف تاريخية اقترنت باسمه وفي مقدمتها الحكم الدستوري الذي يحد من سلطات الملك. وكان

المثل البارز لهذا التراجع أن قَبِل مصطفى النحاس، وهو شيخ، يد الملك الذي كان في الماضي يعامله من موقع النِدِّيّة. وتزايد الفساد في ظل وزارة الوفد الأخيرة، ولم ينجح هذا الحزب في الحصول على أي كسب وطني في مفاوضاته مع بريطانيا، وحين عرف أن الملك يعتزم إقالة الوزارة أعلنت الحكومة ونوابها إلغاء معاهدة ١٩٣٦ مقدرين أن الملك سيرفض التصديق على هذا القرار وسيقيل الوزارة فيخرج الوفد من الحكم بطلاً وطنياً. ولم تضع الحكومة أي خطة لمواجهة كل ما يمكن أن يتبع هذا القرار من نتائج ومخاطر. وتركت التصدي لجيش الاحتلال لمجموعات الفدائيين وبلوك النظام (ما يقابل الأمن المركزي حالياً). وفي اليوم التالي لحريق القاهرة أعلنت حكومة الوفد الأحكام العرفية، وأخذت أجهزة البوليس السياسي في اعتقال الفدائيين في منطقة القناة. وبعدها بيوم أقالها الملك وعيّن علي ماهر رئيساً للوزراء، وأمر الوفد الأغلبية التي كانت له في مجلس النواب بمنح الثقة للوزارة الجديدة. وقد ساعدت ظروف هذه الفترة على ظهور قوى منظمة جديدة أضعف من أن تصل إلى الحكم بالانتخاب حتى لو فرضنا عدم تزييف النتائج. وظهر الحزب الوطني الجديد، وتحول حزب مصر الفتاة إلى اتجاه تقدمي، وبدأ الإخوان المسلمون نشاطهم السياسي، وتعددت المنظمات الشيوعية. كنا نعيش نهاية عصر ولا نجد البديل القوي، وكان آخر مكان ننظر إليه في التفتيش عن بديل هو القوات المسلحة التي كانت «السراي» تسيطر عليها رغم معارضة لها من بعض الضباط الشبان. ولست بصدد التأريخ لهذه الفترة بأحداثها المتسارعة وتصريحات السياسيين الذين أرادوا ركوب الحركة. ولم يعرف الجمهور قادة الثورة إلا بالتدريج، ولم تكن تصريحاتهم متّسقة بل كثيراً ما شابها التعارض. ورغم أنني لم ألتقِ ببهاء في تلك السنوات الأولى لوجودي في الاسكندرية، فإنني أعتقد أن قدرته في البحث عن وسائل يستفيد منها الشعب في أي لحظة تاريخية وبُعده عن العجلة في إصدار الأحكام وإيمانه بأن الوجود في الساحة أفضل دائماً من الهروب منها، قد حملته على إبراز ما يراه مفيداً والتحذير من المزالق. وهنا لا بد من الإشارة إلى واقع هام وهو رفض بهاء الارتباط التنظيمي بأي حزب معروف في الساحة شرعياً كان أو محظوراً. ولم يكن هذا الانفراد لتفادي المخاطر وإنما للحرص على ألاّ يلزمه الحزب بالدفاع عن أمر يراه خطأ. ولهذا الانفراد ثمن باهظ من الصحة والأعصاب كان يخفف منه قدرة بهاء الفائقة على الحوار مع الآخرين مهما اختلفت آراؤهم وإحساسه العميق بنبض الشارع وأماني الجماهير. وأعتقد أن تأميم قناة السويس كان حدثاً حاسماً أسقط معظم تحفظاته على النظام. كما أنه تفهّم الأبعاد التي تميّز بها جمال عبد الناصر وجعلت منه شخصية استثنائية من تلك القلة التي تجعل للفرد دوراً بارزاً في حركة التاريخ. كما عرف حقيقة انحياز عبد الناصر المتأصل إلى الجماهير المحرومة. وقد أصبح بهاء علماً يقرأ له الملايين داخل مصر وخارجها في عهد عبد الناصر. وقد يتوهم البعض أنه تقرب أو تملق. لم يفكر بهاء يوماً في دخول ساحة السياسة اليومية. ولم يطمع في منصب تنظيمي أو برلماني أو وزاري. مرة أخرى قاوم بهاء أن يحتويه أي حزب أو جماعة. لقد بدأ حياته في الصحافة ولم يقنعه أي شيء بترك العمل الصحفي. ومن الإنصاف أن أقول إن قدراته في هذا المجال كان يمكن أن توصله إلى هذه المكانة البارزة أياً كان شكل الحكم في مصر ـ لقد أيد الثورة وأشاد بقائدها عن إيمان نجد تفسيره في الأصوليات الخمس ـ ولم يكن بهاء أبداً في

قائمة من انتفعوا شخصياً من ثـورة تموز/ يـوليو. وبـالمقابـل نراه حـين عيّنه السـادات رئيساً لتحرير الأهرام، يدافع في صفحاتها عن الثورة ومنجزاتها مما كان بالضرورة مؤدياً لأزمـة حادّة بين الرجلين.

ولن أتعرض لدور بهاء في الثمانينيات، فتلك أمور حديثة معـروفة لـدى كل أصـدقائـه ومعظم من يتابعون مقالاتـه، وهم جمع غفـير. ولكنني لا أستطيـع أن أختم هذا المقـال دون إشارة إلى وجه آخـر من نشاط بهـاء. فمن يسترجـع كتابـاته يـرى كيف يعيش الكاتب حيـاة شعبه اليوميـة وكيف كان يعـبر عنها بـدقة وإيجـاز بليغ. وأحسب أن مـا من أمر شغـل الرأي العام ورجل الشارع لم يكن له صـدى في عمود بهـاء مما يجعـل جمع تلك التعليقـات الرشيقـة والصادقة ونشرها في كتاب أمراً لا يقل أهمية عن جمع مقالاته وكتبه السياسية. إن الملايـين في بلداننا العربية تدعو الله أن يعيد عمود بهاء. ولا أقل من أن نتيح لهـا قراءة مجمـوعة مكتملة في كتاب يبقى معنا جيلاً بعد جيل.

لقد تعمدت الحرص الشديد على الموضوعية، وتجنّبت الحديث عن صداقتنا وعن قرينة بهاء وعما ضمنا من لقاءات المحبـة الخالصـة. ولم أكن أملك إلا هذا الصمت لأنني أخشى إن كتبت أن تحلّ العبرات محل الكلمات.

نَمَاذِجُ مختَارة مِنَ المقَالات

١ ـ هذه الضرائب التي تدفعها(*)

إن مشكلتك الكبرى اليوم هي: الغلاء. كل واحد منا يشكو من أن النقود لم تعد تكفيه. وبالرغم مما تدفعه الحكومة والمؤسسات من علاوات وإعانات وغيرها، فأنت تعلم أن الجنيه الواحد لم يعد كما كان بالأمس، وأصبحت قدرته على الشراء تافهة.

إن هذا الجنيه الذي يتبدد في يدك بسرعة بمجرد شراء بعض السلع التافهة، هذا الجنيه جزء صغير منه هو الذي يمثّل تكاليف السلعة التي تشتريها فعلاً. والباقي يتفرق بين ربح للمنتج، وربح لتاجر الجملة، وربح لتاجر التجزئة. وأخيراً يذهب جزء منه إلى الدولة في صورة ضرائب أو رسوم جمركية!

وأنت لا تشعر بهذه الضرائب مباشرة ولذلك سميّت الضرائب غير المباشرة، ومع ذلك فأنت تدفعها، كل يوم وكل ساعة، بل إنك لتدفع من كل جنيه واحد حوالى العشرين قرشاً، ضريبة!

فلو دخنت وأنت تقرأ هذا المقال سيجارتين، فتكون قد دفعت حوالى ثلاثة مليمات ضريبة. وهكذا يمكنك أن تحسب الضريبة التي تدفعها من حيث لا تشعر كلما اشتريت شيئاً أو استعملت مرفقاً.

إن هذه الساعة التي تحملها والتي يزيد ثمنها على ستة جنيهات قد دفعت فيها أكثر من خمسين قرشاً ضريبة. وهذه البذلة التي تلبسها كذلك، وكذلك الحذاء والقميص والنظارة والمناديل، وكل شيء تستعمله، ولو جمعت الضرائب التي دفعتها لوجدتها مبلغاً كبيراً.

والطعام أيضاً. تعال إلى البقال مثلاً. إن البقال يدفع ضريبة عن كل هذه السلع التي تشتريها. الزبد والجبن والأرز... الخ. وهو يدفع ضرائب أخرى عن إيجار المحل. وعن

(*) الفصول.

التليفون. وعن كل هـذه الأدوات المستعمَلة في المحل. وهـو لا يدفعهـا من جيبه طبعـاً. إنه يضيفها ببساطـة إلى أثمان الجبن والـزبد والبيض التي تشـتريها. وهكـذا فأنت تـدفع ضرائب أخرى. وأنت الذي تتحمل نفقات تجميل المحل وما إلى ذلك.

وفي بيتك ستكتشف أنك دفعت ضرائب أخرى عن كل مـا فيه. فهـل تريـد أن تخرج للنزهة؟ لو دخلت السينما أنت وزوجتك فستدفع أكثر من ثلاثين قرشاً ثمنـاً لتذكـرتين، فيهـا ستة قروش ضريبة. أو إذا جلستما في ملهى وشربتـما فنجانـين من القهوة ودفعت عنهـا عشرة قروش فإن فيها قرشاً أو قرشين يذهبان إلى الدولة، ضرائب.

ولو اردت أن تتعقب المسألة، فانظر مثلاً إلى قطعة الخبز هذه التي تلتهمها في إفطارك. وكم مرة تعرضت للضرائب، التي تحملتها أنت كلها آخر الأمر. لقد دفع الفـلاح الذي زرع القمح ضريبة، وأضافها إلى الثمن الـذي باعـه به إلى المـطحن. ودفع المـطحن الذي حـوّل القمح إلى دقيق ضريبة وأضافها إلى ثمن الدقيق الذي باعه لتاجر الدقيق. ودفع تاجر الدقيق ضريبة وأضافهـا إلى الثمن الذي بـاع به إلى المخبـز. ودفع المخبـز ضريبة أضـافها إلى الثمن الذي اشتريت به قطعة الخبز هذه!

والآن. . . أنت تشعر ولا شك بكثرة هذه الضرائب التي تلاحقك في كل حركة ولفتة، وبأثرها الذي لا شك فيه في زيادة الغلاء وارتفاع الأسعار، بالإضافة إلى أسبابه الأخرى.

ولكن، ولا تغضب أو يأخذك السخط على الدولـة التي ترهقـك بهذه الضرائب. فمن هذه القروش التي تدفعها كل ساعة، يجتمع للدولة الجزء الأكبر من ميزانيتهـا التي تبلغ ١٨٠ مليوناً من الجنيهات. وبهذه الميزانية توفر لك الدولة حاجات كثيرة لا غنى لك عنها في مجتمـع متمدْين. . . الجيش الذي يحميـك والبوليس والقضـاء اللذان يوفـران لك السـلامة والأمن. هـذه المـدارس التي يتعلم فيهـا أولادك، والمستشفيـات التي تعـالـج فيهـا. هـذه الشـوارع المرصوفة، والكباري والجسور، والمصابيح المضيئة. كل هذا وغيره لا بد للدولة من المال لكي تقوم به.

فأنت إذاً لا تكره هذه الضرائب ولا تطالب بـإلغائهـا. ولكن، لا شك أنـك لاحظت أنها كثيراً ما تكون غير عادلة.

فإن الأمة تضم من هم أغنى منك كثيراً، كثيراً بحيث قد لا تتصور. كما تضم من هم أفقـر منك كثيـراً، كثيراً بحيث قـد لا تشعر بـه. ومع ذلـك فأنتم جميعـاً ـ الأغنياء والفقـراء والمتوسطون ـ سواء أمام هذه الضرائب غير المنظورة. غير المباشرة.

فأنت تدفع في أقة الخبز مثلاً ضريبة قدرها قرش، وخادمك يـدفع في هـذه الأقة قـرشاً أيضاً، والمليونير يدفع فيها نفس المبلغ الذي يدفعه خادمك!

وهكـذا يستـوي من يبلغ دخله ألف جنيـه في الشهـر مـع من دخله ألف مليم في الضرائب التي يدفعونها للدولة عن الغذاء والكساء وغيرها.

ألا ترى أن هذا ظلم لا شك فيه؟ ومع ذلك فإنه من المستحيل أن تذهب أنت ومواطنك المليونير إلى مخبز واحد. فتشتري أنت أقة من الخبز بسعر، ويشتريها هو بسعر آخر. أو أن يصل الشاي الوارد من الخارج إلى الجمرك فتفرض الدولة على بعضه رسوماً قليلة، وعلى بعضه الآخر رسوماً مرتفعة لأن الأول ستشتريه أنت والثاني سيشتريه مواطنك المليونير!

إذاً، فما هو الحل، وكيف تحقق الدولة العدالة وتحتفظ في الوقت نفسه بميزانيتها؟...

إن الدولة تستطيع أن تخفف هذه الضرائب غير المباشرة تدريجياً إلى أقصى حد ممكن، وتستعيض عنها بزيادة الضرائب المباشرة... الضرائب التي تُحتسب على أساس الدخل الحقيقي لكل فرد.

إن إيراد الجمارك وحده يزيد على سبعين مليوناً. وهذا كثير، يجب إنقاصه لتحل محله ضرائب أخرى على الأرباح والإيرادات ورؤوس الأموال.

وتستطيع الدولة أيضاً أن تخفف من الضرائب والرسوم المفروضة على الضروريات وتضاعفها في الوقت نفسه على الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها، أو لا يستعملها إلا المترفون.

فالفقير ستتأثر ميزانيته ويشعر بفارق كبير لو رفعنا ثمن المتر من القماش الذي يرتديه قرشاً واحداً. أما الغني فلن يتأثر لو رفعنا ثمن السيارة التي يشتريها بألف من الجنيهات، إلى ألف ومائتين مثلاً!

فهل تعجبك هذه الحلول؟ إن كثيراً من الدول التي ترعى مبادىء العدل الاجتماعي تأخذ بها. فإن كانت تعجبك فما عليك إلا أن تطالب الدولة بتطبيقها.

وعليك أيضاً أن تحتج وترفع صوتك بالاحتجاج، إذا رأيت الدولة تبذّر في ميزانيتها، تشتري سيارات لموظفيها وترسلهم للنزهة إلى الخارج، وتسمح لبعضهم باختلاس مئات الآلاف، فإنك ستذكر حينئذ أن هذه الآلاف المضيعة إنما دفعتها أنت وأنت تشتري رغيف الخبز، وعلبة السجاير، والحذاء الجديد.

٢ ـ دعاة النفوذ الأمريكي في مصر
وبرنامج النقطة الرابعة(*)

ظهر في مصر في الشهور الأخيرة ـ بل في السنين الأخيرة ـ من يدعون إلى النفوذ الأمريكي والصبغة الأمريكية في كل شيء. وقد يكون مقبولاً من كاتب تثقف الثقافة الأمريكية وأعجب بالحضارة الأمريكية أن يدعو مثلاً إلى أن نحذو في مصر حذوهم في أمريكا. أن نرسل إليها البعوث ونهتم بالتقدم العلمي والتصنيع الواسع ورفع مستوى المعيشة ونشر الجامعات في كل مكان. وقد يكون معذوراً هذا الذي ارتبطت مصالحه الاقتصادية والتجارية بأمريكا فيدعو إلى توسيع نطاق التعامل معها أو إلى زيادة شراء السلع الأمريكية على العموم.

ولكن الذي لا نرى له عذراً، ولا معنى، أن يدعو البعض في صراحة عجيبة إلى إخضاع مصر للنفوذ الأمريكي السياسي والاقتصادي، وربطها إلى عجلتها بـرباط المتبوع إلى التابع، بحجة أن أمريكا هي معقد الآمال، ومناط الرجاء، وجسد الحضارة، وروح الحرية! والعبرة التي يخرجون بها من كل ما يكتبون أن أمريكا هي منقذتنا الوحيدة من الفقر والجهل والتأخر و. . . الخ! حتى ان كلامهم ليشبه أحياناً دعوة موجهة إلى أمريكا أن تأخذ بيدنا. . . إلى أين؟ إلى الاستعمار التعس والاستغلال البغيض!

وهؤلاء الدعاة يريدون الرأي العام المصري أن ينسى أو يتناسى مواقف العداء الصريح التي وقفتها أمريكا من كل قضايانا. وأن معظم مشاكلنا الحاضرة تعود في جانب كبير منها إلى أمريكا هذه التي يزعم هؤلاء الدعاة أنها هي التي ستنقذنا! وهل نذكر أنها خلقت دولة إسرائيل، وشردت اللاجئين العرب، وهربت الأسلحة التي تستعمل ضد مصر رغم قرارات الحظر؟ وهل نذكر أنها أيدّت وما زالت تؤيد ـ بقاء جيوش الاحتلال في مصر، والسودان؟

(*) الفصول.

وهـل نذكـر أنها لا تكف عن الإلحـاح عـلى انجلترا لكي تخفض ديـونها الاسـترلينيـة لمصر أو توقف عن دفعها تماماً؟

ولكن الدعاة «المتأمركين» يحبون أمريكا حباً صادقـاً، فهم مستعدون أن ينسـوا كل مـا كان منها وما سيكون. ولا مـانع لـديهم من أن نُذلّ لهـا صاغـرين. فهذه هي شريعـة الحب والمحبين!

وقد تلّقف دعاة النفوذ الأمريكي في مصر فـرصة المؤتمـر الديبلومـاسي الأمريكي الـذي انعقد أخيراً في القاهرة وما اقترن بـه من حديث حـول برنـامج «النقـطة الرابعـة» ليعودوا إلى منـاجاة أمـريكا، وتملّقهـا، وإقناع الـرأي العام المصري بـأن أمريكـا تعقد المؤتمـرات وترسم البرامج والمشروعات لكي تحقق الخير لمصر والشعوب الشرقية عامة. ولا شيء في خاطرها غير هذا الغرض «العذري» النبيل! والرأي الصريح في بـرنامـج النقطة الـرابعة هـذا، من وجهة النظر المصرية الصميمة، هو أن هذا البرنامج لا لزوم له في مصر أولاً، وأنه خطر عـلى كيانها السياسي والاقتصادي ثانياً.

لا لزوم له

هو برنامج لا لـزوم له في مصر. كـما ان مصر «متخلفة اقتصـادياً» بمعنى أنها لم تستغـل بعد كل مواردها الـظاهرة والخفيـة. ولكن برنـامج النقـطة الرابعـة لم يوضـع للدول المتخلفة اقتصادياً فقط. بل المفروض أن تظل هذه الدول ـ إلى تخلفها ـ عاجزة عن استغلال مواردهـا لعدم توافر المال اللازم لديها. وليس هذا هو الوضـع الحاضر في مصر. فمن المعـروف أن في الخزانة المصرية احتياطي كبير من المال. ومن المعروف أن المدخرات الأهلية والأموال الزائـدة عن حـاجة الاستهـلاك في مصر طائلة. وكـل قرض طـرح في السـوق، أو أسهم شركـة من الشركـات، كانت تغـطى في أيام بـل في سـاعـات. بـل إننـا نشكـو تضخـماً نقـديـاً يقـترح الاقتصاديون لعلاجه امتصاصه من السوق بعقد القروض.

فالمال اللازم لاستغلال منابع الثروة في مصر متوفر بقدر كاف. ولكن الذي ينقصنـا هو العـزم والتصميم والتنفيـذ، وليست هـذه بـالسلع التي تستـورد من الخـارج. ورأس المـال المصري، بعد كل شيء، أحق بالأرباح من رؤوس الأموال الأجنبية.

خطر على كياننا

ثم إن مشروعات المساعدة الأمريكيـة خطر عـلى كيانـنا الاقتصادي والسيـاسي. ولكي نفهم حقيقة هذه المساعدات، يجب أن نلقي جانباً مـا يقولـه هنا الأمـريكيون والمتـأمركـون. ولنقرأ ما يقولونه هناك في أمريكا عن هذه المشروعات والدعوة إليها.

إنهم يقولون إن هـذه المساعـدات تساعـد على زيـادة الاستثمار الفـردي الأمريكي وإن الحكـومة الأمـريكية يجب أن تهتم بضـمان سلامـة هذه الاستثـمارات في الخـارج حتى تـطمئن رؤوس الأموال الأمريكية المصدرة إلى مستقبلها في تلك الدول المتخلفة اقتصادياً.

فـرؤوس الأموال الأمـريكية تتكـدس اليوم في الـولايـات المتحـدة. وهي مضـطرة إلى تصديرها إلى الخارج، إلى بقاع بكر، لتدرّ عليها أرباحاً جديدة. فحين تأتي الأموال الأمريكية إلى مصر وتستغل هنا، فمعنى ذلك أن معظم الأرباح الناتجة من استغلال الثروة المصرية تعود عـلى المموليـن الأمريكيـين. وسيكون كـل دورنا في المـوضوع تقـديم الأيدي العـاملة بأجـور زهيدة، وشراء السلع الناتجة من هذا الاستغلال.

وهناك ملاحظة جديرة بالنظر. إن كل المشروعات التي ترسمها أمريكا لمساعـدة الدول الشرقيـة، مشروعات «زراعيـة». ذلك أن هـذه المشروعات تـزيد القـوة الشرائيـة للشعـوب الشرقية فتزيد فرص بيع السلع الأمريكية في أسواقها. على حين أن التصنيع قد يغني الأسواق المحلية بمصر بعض الغناء عن هذه السلع الأمريكية.

وقد أصبح مقرراً أن البيئة الزراعية متخلفة عن البيئة الصناعية تخلفاً لا شك فيه.

أما ان النفوذ الاقتصـادي يستتبع خلفـه تدخـلاً سياسيـاً، فقد أثبت التـاريخ القـريب والبعيد أنه بديهية لا شك فيها. فالسياسة تجري خلف الاقتصـاد. والتوسـع السياسي للدول الاستعمارية جميعاً لا يقصد به إلاّ حماية مصالحها الاقتصادية الواسعة. و«الضمـانـات» اللازمـة لحـماية الاستثـمار الأمريكي التي يتحـدثون عنهـا ليس غريبـاً أن تتطور حتى تصـل إلى مـرتبـة الاحتلال العسكري.

وبعد ذلك، نسأل دعاة النفوذ الأمريكي في مصر. ما مصلحتهم من هذه الدعوة، وما مصلحة وطنهم من ورائها، وما الفارق بين هذه الخطط الأمريكية البعيدة المـدى وبين خـطط الاستعمار المعروفة؟

إنها الاستعمار في القرن العشرين.

٣ ـ تأميم القطن . .

يعود بالفائدة على الدولة والفلاحين(*)

تناقلت الألسنة، وبعض الأقلام، في الشهر المنقضي حديثاً جديداً عن تأميم القطن. وقد كان هذا النوع من التفكير يبدو غريباً حتى أعلن أن نائباً قد تقدم به إلى البرلمان في صورة اقتراح. وبالرغم من أن الأمل ضعيف، بل منعدم، في أن تقر الحكومة مثل هذا الاقتراح أو يوافق عليه البرلمان، وبالرغم من أننا لا نعرف بعد تفاصيل الاقتراح، إلا أنه من الخير لنا أن نفهم معنى تأميم القطن بوجه عام. فإنه إن رُفض اليوم، فله عودة بعد حين.

وما يبعث على التفكير في تأميم القطن، غير الحالة الحاضرة لهذا الانتاج الكبير، وما هي الحالة الحاضرة؟

يزرع الفلاحون القطن، ويقترب موعد الجني، وهنا تبدأ المناورات: تبدأ في بعض المكاتب المنتشرة في شتى أنحاء الريف، يديرها سماسرة من الأجانب أو المصريين أو شركة بين الإثنين. وهم الذين يسمّون تجار التجزئة. ومهمتهم أن يطوفوا بالقرى يشترون قطنها من الزارعين، كل واحد ومهارته في الشراء بأرخص الأسعار طبعاً. والمهارة هنا معناها القدرة على استغلال ظروف الفلاح السيئة إلى أقصى حد. فالسمسار يعرف أن هذا الفلاح مديون، وفي حاجة إلى المال. فيخفّ إليه ويعرض عليه أن يشتري منه قطنه، الذي لم ينضج بعد ـ على أن يدفع له الثمن ـ بعضه أو كله ـ الآن وفوراً. ويقبل الفلاح عادة أن يبيع بالسعر البخس، ليتخلص من مأزق أشد. أما السمسار فعنده المال، يستطيع أن يبذله اليوم، ليتسلم القطن ويغنم الربح بعد شهور.

وليس هذا الوضع قاصراً على الفلاح الفقير فحسب، بل وعلى كثير من كبار المزارعين أو كبار الملاك. وبعض الأغنياء في أشد الحاجة إلى المال من الفقراء.

(*) الفصول.

وقد تتعقد العلاقة بين الفلاح وبين سمسار معين فيصبح الأول في حالة مديونة دائماً، مربكة، لهذا السمسار. ويضطر دائماً إلى البيع له، والارتباط به، والخضوع لتحكمه، وإلا «خرب» بيته. . .

ثم يمضي القطن فيصعد سلّماً طويلاً، من يد إلى يد، حتى يشحن أخيراً على الباخرة إلى الخارج. . . وكل مرحلة تحوي هذا الاستغلال، وتحظى بربح، وتضيف إلى ثمن القطن ريالات.

ومن أبشع المراحل التي يمر بها هذا الذهب الأبيض، مرحلة المضاربة، والبورصة.

ولن نطيل عليك في شرح ما يجري وما تنشره الجرائد. . . ويكفي أن تعلم أن البورصة تقوم على جماعة من المضاربين، وهم قوم لا ينتجون القطن ولا يزرعونه ولا يغزلونه ولا ينسجونه. ولكنهم فقط يشترونه ثم يعيدون بيعه للحصول على فروق الأسعار. وقد يبيعون قبل أن يشتروا. والفرق في القنطار قد يكون جنيهاً واحداً وقد يكون عشرة! تبعاً لبراعة المضارب ودهائه.

وقد ارتفع مستوى البراعة والدهاء بين المضاربين. فأصبحوا يرفعون الأسعار ويخفضونها كما يشتهون، حتى يظفروا بأوفر الأرباح. نعم، يرفعونها ويخفضونها بغض النظر عن أي قانون اقتصادي آخر كالعرض والطلب، وتكاليف الانتاج، والأسعار العالمية. . . إلى آخره. أما وسائلهم في ذلك فشهيرة، وغير نظيفة في كثير من الأحيان. وأهونها إطلاق الإشاعات الكاذبة، وإخفاء العقود، وبث الذعر أحياناً أو الطمأنينة الكاذبة أحياناً أخرى، والتظاهر بالشراء، والبيع في الخفاء، وكثير غير ذلك لا نعرفه ولا ندريه!

وقد حارت الحكومات المتعاقبة في أمر هذه البورصات. كل سنة تشرع لائحة مستحدثة أو قانوناً جديداً. وعبقرية المضاربين فوق كل قانون أو لائحة. فهم يجدون دائماً المنافذ والمخارج والأبواب. والحكومة تجري خلف السراب. فالعملية نفسها ـ الشراء والبيع للحصول على فرق السعر ـ لا لزوم لها على الإطلاق ولا معنى لها غير اقتصاص جانب من ربح المنتج وآخر من مال المستهلك ومضاعفة السعر.

وكم من مرة ـ ونحن جميعاً نذكر ـ فاحت فيها رائحة البورصة ودسائس المضاربين، من هذا الفريق أو ذاك. وكم اضطرت وزارة المالية إلى إصدار البيانات والاحصاءات والقرارات. وآخرها بيان معالي وزير المالية الذي أعلن فيه أسفه لما يحدث في البورصة، وناشد فيه المضاربين أن يرعوا وجه الصالح العام، والإجراءات التي اتخذتها الوزارة لمطاردة المضاربين ومنعهم من الاجتماع حتى في المقاهي، بل وسقوط مندوب الحكومة في البورصة مغشياً عليه لمجهوده الجبار في مطاردة المؤامرات. ولم ينس المضاربون استغلال إغماء المندوب لخفض الأسعار!

وكيف تطلب من المضاربين رعاية الصالح العام إذا كان هذا الصالح العام التعس يتعارض مع صالحهم الخاص، وإذا كان انتهاكهم له يدرّ عليهم مئات الألوف ربحاً؟

والنتيجة النهائية إضرار بالفلاح الذي يبذر ويحرث ويروي طول السنة، وإضرار بسمعة مصر في الخارج، وإضرار بمركز القطن المصري، وهو حتى الساعة عماد الثروة المصرية الأول.

من أجل ذلك كله ـ وأكثر من ذلك كله ـ فكر البعض في تأميم القطن. وهو عملية بسيطة جداً، تغنينا عن هذه التغييرات والمنحنيات التي يتربص فيها المتربصون، وتتلخص في أن تشتري الحكومة القطن كله من المنتجين، بالسعر المجزي الذي تحدده في كل سنة، بعد دراسة تكاليف الانتاج والعرض والطلب ومستوى السعر العالمي إلى آخره. ثم تقوم الحكومة ببيعه للمستوردين الأجانب بالشروط التي توفّق إليها.

وهذا التأميم يعود بالفائدة المحققة على فريقين: الفريق الأول هو الفلاح نفسه الذي يطمئن إلى بيع محصوله، وإلى بيعه بسعر مناسب، وإلى تخليصه من براثن سماسرة عتاة.

والفريق الثاني هو المصريون جميعاً، أو الدولة نفسها، التي تستولي على أرباح السماسرة وأرباح المضاربين ـ وهي ملايين ـ تضيفها إلى ميزانيتها، وتواجه بها مسئولياتها الضخمة، التي يقصد بها الخير العام حقاً.

ولكن التأميم يمحو طبقة السماسرة والمضاربين والوسطاء والمستغلين، هؤلاء الذين يكسبون مئات الألوف من إشاعة كاذبة يطلقونها، أو مناورة يدبرونها، أو ورقة يحررونها وهم جالسون على مكاتبهم، لا يرون القطن ولا يلمسونه ولا يشمون رائحته أو يعلق بهم غباره.

٤ ـ قبل إقرار الميزانية

الاقتصاد في خدمة السياسة(*)

نكتب هذه السطور قبل أن يقدم معالي وزير المالية أُولى ميزانياته إلى البرلمان. وما نحسب إلا أن الوزير الجديد سيكون مجدداً في ميزانيته، لا يضع نفسه في القوالب القديمة التي كانت تقيد الأولين. وما نحسب إلا أنه سيتجنب تلك النظرة «المصرفية» التي ينظر بها البعض إلى الميزانية، باعتبارها مجرد حساب متوازن بين الإيراد والمنصرف. فلم يَعُد التوازن شيئاً يطلب في الميزانية لذاته، بقدر ما أصبح مطلوباً منها أن تحقق في النهاية نوعاً من التوازن المعقول بين شتى الطبقات.

وقد أصبح الإحساس قوياً وعاماً بأن المشاكل المستعصية التي تعاني منها مصر، لم تعد تجدي معها الحلول الجزئية التي كانت تنهض بها بعض الحكومات. فقد كانت هذه الحلول الجزئية تترك دائماً الفرصة أمام هذه المشاكل كي تستمر وتقوى. ولما كانت الميزانية هي المقياس الحقيقي لحالة الاصلاح، فيمكننا أن نقول إن الميزانيات السابقة ساهمت ـ على غير قصد ـ في الإبقاء على الظروف التي تنمو فيها جراثيم هذه المشاكل وتحتفظ بضراوتها.

والذين يطالبون بعد ذلك بحركة إصلاح عميقة شاملة، يعلمون أن المال هو أهم العقبات، وأن ميزانيتنا بصورتها الحاضرة عاجزة عن القيام بهذه المطالب. فهي من ناحية أقل مما ينبغي لمطالب دولة تعيش في القرن العشرين، وهي من ناحية أخرى غير عادلة.

أما عجز الميزانية، فعلاجه في البحث عن موارد أخرى لها. فبالرغم من كل ما يتردد ويقال، فإننا نرى أن أرض الضرائب عندنا ما زالت أقل إذا قيست بغيرها في سائر الدول. وقد أصبح من القول الشائع الآن ان الضرائب قد أصبحت ثقيلة مرهقة، وانها كادت تذهب برؤوس الأموال أو تنفّرها وتُكرهها على الفرار من مصر. ولكنه قول لا يجد تصديقاً من الرأي العام. فمن المعلوم جيداً أن الضرائب في مصر أقل بكثير منها في سائر الدول،

(*) الفصول.

والأرقام معروفة لا تحتاج إلى بيان. فليس من المعقول أن تفر رؤوس الأموال إلى الخارج لتستجير من الرّمضاء بالنار.

فسلع الترف الاستهلاكية التي تبعثر عليها الأموال لماذا لا تحتمل ضريبة عادلة؟ وهذه الأرباح الاستثنائية لماذا ترفع الضريبة عنها، وهي ما زالت بعد أرباحاً استثنائية؟ والأرباح غير الموزعة لماذا لا تفرض عليها ضريبة كذلك؟ والضريبة العقارية التافهة لماذا لا ترتفع، وتتصاعد؟

إن زيادة الميزانية من هذه الأبواب وغيرها، إن لم تؤدِّ إلى إفساح المجال أمام مشروعات الإصلاح، فلا أقل من أن تحمل مواردها بدلاً من موارد أخرى للدخل لا يجب لها أن تظل مرتفعة بهذه الصورة. بل أحرى بها أن تنكمش لتساهم في التخفيف عن أغلبية الشعب من الفقراء، كالرسوم الجمركية، وأجور الخدمات العامة التي تتقاضاها الحكومة عن بعض المرافق كالسكك الحديدية وغيرها.

إن الرسوم الجمركية بالذات، ضريبة أيضاً. ولكنها ضريبة غير مباشرة، يشترك في حمل عبئها الغني والفقير بنسبة متساوية، على حين أن قوة احتمالهم غير متساوية. ونحن في مصر نرفع هذه الرسوم حماية للصناعات المحلية. ولو خفضت لحُلت مشاكل كثيرة.

والواقع إننا في مصر قد تعودنا تدليل الصناعات المحلية. حتى لقد أصبحت حماية الصناعة المحلية وكأنها تُطلَب لذاتها، لا باعتبار أن خيراتها يجب أن تكون في صالح المجتمع أولاً وقبل كل شيء. فنحن نحميها بالرسوم الجمركية. وندللها بعدم تحديد أسعار منتجاتها تسعيراً عادلاً للمستهلك، ونزيد في تدليلها فنمنحها في حالات كثيرة «إعانات». فكانت النتيجة ما نراه الآن: أرباحاً طائلة لا تأخذ منها الدولة نصيباً عادلاً، ومكافآت سخية ـ بل خرافية ـ لأفراد معدودين، وحرمان قاسٍ لآلاف هم عمال هذه الشركات، وأسعار مرتفعة تطحن الباقين من أفراد الشعب. وفي الوقت نفسه لم تتقدم هذه الصناعات لكي تستطيع منافسة الصناعات الأجنبية في سوقها المحلي. ولا نقول الأسواق الخارجية القريبة، فإذا قيل إرفعوا الضرائب أو اخفضوا الأسعار أو افسحوا المجال للاستيراد صرخوا واستغاثوا لحماية الصناعات القومية!

ولا نريد أن نستطرد في هذه النقطة ـ وهي موضوع مستقل ـ ولكننا أردنا أن نضرب مثلاً يسيراً للكيفية التي تدار بها الأمور.

ولو أردنا الاختصار الذي يغنينا عن كل إطالة، لقلنا إن الاقتصاد يجب أن يكون في خدمة السياسة. عليه أن يهيء لها الوسائل وييسر لها التنفيذ. والإجماع السياسي اليوم ينعقد على أن في مصر فقراً مزرياً وجهلاً مهيناً، وأن الفروق بين الطبقات واسعة جداً وهي تزداد كل يوم اتساعاً. فعلى وزارة المالية أن تضع نصب عينها هذه الحقيقة أولاً وقبل كل شيء. وما عداها من اعتبارات لا تتقدم في أهميتها عن المحل الثاني.

الميزانية المصرية في شتى السنين

السنة	الإيرادات	المصروفات
١٩٢٥	٣٩,٥٨٣,٠٠٠	٣٤,٢٠٥,٠٠٠
١٩٣٠	٤١,٢٢٣,٠٠٠	٣٨,٥٨٤,٠٠٠
١٩٣٥	٤١,١٢٩,٠٠٠	٤٠,٥٤٦,٠٠٠
١٩٤٠	٤٣,٦٧٧,٠٠٠	٤٢,٥٥٩,٠٠٠
١٩٤٥	١٠٣,٥٠٠,٠٠٠	٩٥,٣٠٤,٠٠٠
١٩٤٨	١٤١,٥١٠,٠٠٠	١٨٣,٤٣٥,٠٠٠

٥ ـ أصبحت القناة لمصر . . .
بعد أن كانت مصر للقناة!!(*)

كانت سبعة صناديق من الخشب، مصفحة بالحديد.

ووقفت عربة بسيطة أمام مبنى وزارة المالية المصرية، ودخل عدد من الحمّالين إلى قبو في مبنى الوزارة، وحملوا الصناديق السبعة إلى حيث وضعوها على العربة التي عادت تخترق بحمولتها شوارع القاهرة.

كانت هذه الصناديق السبعة تحمل استقلال مصر، كانت تحمل ١٧٧ ألف سهم هي نصيب مصر في قناة السويس، هي نصيب مصر في هذا المجرى الذي حفرته بأسنانها، وأظافرها، وأرواح أبنائها.

ولم يذكر لنا التاريخ هل تمّت هذه العملية في وضح النهار أم في وجه الليل، هل سارت العربة متسترة بالظلام أم هل مضت في ضوء النهار تسعى بين الناس وهم لا يعرفون.

وركب الجنرال ستانتون قنصل انجلترا قطاراً خاصاً مع الصناديق السبعة إلى الاسكندرية، وهناك أشرف على شحنها في الباخرة «مالابار»، التي كانت آتية من الهند وأمرتها الحكومة الانجليزية أن تتوقف في الاسكندرية لتأخذ حمولتها الثمينة، وفي ميناء بورتسموث صعد إلى السفينة موظف أخذ الصناديق السبعة إلى أقبية بنك انجلترا حيث ما تزال موجودة إلى الآن!

كان ثمن هذه الصناديق السبعة أربعة ملايين جنيه! كان الخديوي اسماعيل في حاجة إلى مال يسد به أفواه الدائنين، وكان مستعداً لأن يبيع استقلال مصر نفسه لقاء أي مبلغ من المال. وعلم بذلك دزرائيلي رئيس وزراء انجلترا، فعرض عليه بذكاء المرابي أن يشتري هذه الأسهم وكان البرلمان الانجليزي في عطلة، ودزرائيلي لا يستطيع أن يفتح اعتماداً عالياً،

(*) صباح الخير (٢ آب/ اغسطس ١٩٥٦).

فاقترض من المرابي العالمي روتشيلد هذه الملايين الأربعة، التي أصبحت انجلترا بواسطتها تملك نصف أسهم قناة السويس! وأصبحت مصر لا تملك شيئاً!

بأربعة ملايين جنيه باع اسماعيل نصيب مصر في القناة، وهو الذي أنفق على حفلة افتتاح هذه القناة ١٦ مليون جنيه!

بأربعة ملايين جنيه، لم يذهب مليم واحد منها إلى جيب مصري واحد، إنما عادت كلها إلى انجلترا كأرباح لديون سابقة اقترضها اسماعيل من انجلترا!

لقد ذكرتُ الصناديق السبعة، والعمليات التي دارت في الظلام، والمال الذي تبدد في الحرام. ذكرتُ ذلك كله وأنا أستمع إلى جمال عبد الناصر وهو يعلن تأميم القناة، ويقارن بين ديلسبس ويوجين بلاك، وينتزع حق مصر من أنياب الأسود، على رؤوس الأشهاد!

والآن، علينا أن نفكر في مسألتين:

أولاً، ما هي أسباب هذه الثورة الهائلة التي اشتعلت في الغرب ضد قرار التأميم؟

ثانياً، ما هي الاجراءات التي يمكن أن يتخذها الغرب؟

أعتقد أن هذه الثورة الغربية لا ترجع فقط إلى الربح الذي فقدته الدوائر الرأسمالية فيها، من الصناديق الميتة في خزائن بنك انجلترا وأشباهها، رغم أهمية هذه الأرباح.

إنما هذه الثورة ترجع إلى سببين رئيسيين:

الأول ـ إن جمال عبد الناصر بإقدامه على تأميم القناة قد أفسد تماماً الأثر الذي كانت ترمي إليه أمريكا من وراء رفضها لتمويل السد العالي.

والثاني ـ إن تأميم القناة يصيب أعمق جذور الكيان الاقتصادي للغرب بهزة عنيفة.

إن أمريكا عندما رفضت أن تمول السد العالي كانت تتمشى مع منطق النظام الرأسمالي الاحتكاري القائم فيها. فالدولة الرأسمالية الاحتكارية التي تعيش على احتكار خامات وأسواق الدول الأخرى لا يمكن أن تساعد هذه الدول على إقامة مشروعات صناعية وزراعية تغنيها عن الإنتاج الأمريكي تماماً، كما ان مصنع القماش لا يمكن أن يقرض الآخرين ليقيموا مصنع قماش آخر ينافسه!

وأمريكا عندما رفضت تمويل السد العالي كانت تتمشى مع سياستها في تدعيم إسرائيل، التي لا يمكن أن يقوم مستقبلها إلا على أساس بقاء الدول العربية المحيطة بها مجرد أراضٍ زراعية، فقيرة، ضعيفة.

ولكن أمريكا كانت ـ بهذا الرفض ـ تريد أن تكسب معركة سياسية أخرى بالغة الأهمية.

كانت أمريكا تريد أن تهزم سياسة الحياد!

لقد أحرزت سياسة مصر المحايدة نجاحاً لا مثيل له. وأصبحت مئات الملايين من الناس في آسيا وافريقيا ينظرون إليها ويقتدون بها ويتحرقون للسير تحت لوائها. وهبط إلى الحضيض نفوذ الحكومات التي آثرت الارتباط بأحلاف الغرب كحكومات تركيا وباكستان والعراق. وبدأت شعوب هذه البلاد تتذمر وتقارن بين الخسائر التي لحقتها من الارتباط بالغرب وبين المكاسب الهائلة التي تنالها الدول المحايدة كل يوم. وتبلور هذا الحياد تبلوراً واضحاً في مؤتمر بريوني الذي ضم ثلاث دول تتزعم الحياد هي الهند ويوغوسلافيا ومصر. وكان لا بد لأمريكا من عمل حاسم تصيب به سمعة سياسة الحياد، وتقنع به توابعها بأنها سياسة خاسرة. فرفضت أمريكا تمويل السد العالي. وسجلت صراحة أن السبب هو عدم رضاها عن سياسة مصر. أي انها تقول لحلفائها: من ليس منا، فهو علينا.

ولكن تأميم جمال عبد الناصر للقناة أعاد إلى معسكر الحياد أسبقية العمل والمبادرة، وأعاد إليه سمعته الضخمة التي تنال كل يوم مزيداً من الكسب والنفوذ.

فخسارة أمريكا السياسية إذن ليست في مصر وحدها. إنما هي تخسر معركة عالمية، ستقرر نتيجتها الكثير من مستقبل هذا العالم.

هذا عن السبب الأول لثورة الغرب.

أما السبب الثاني، وهو أن تأميم القناة يصيب أعمق جذور الكيان الاقتصادي للغرب، فأمره واضح.

إن الدول الغربية نظامها رأسمالي. وأساس رأسماليتها ليس محلياً فقط، ولكنه عالمي.

الشركات الانجليزية ـ مثلاً ـ لا تعيش على موارد انجليزية فقط، إنما تعيش على موارد افريقية وآسيوية، على احتكار بترول أو مطاط أو مجرى ماء في هذه البلاد أو تلك. ولأن هذا النظام هو الأساس في كيان الدول الغربية، فهي لذلك حريصة على أن تدافع عن هذا النظام من كل خدش يصيبه: فعندما قضت جواتيمالا على احتكار الفاكهة الأمريكي فيها دبرت أمريكا لها غزواً خارجياً دمر حركتها الوطنية. وعندما ألغت إيران احتكار البترول الانجليزي، دبّر الغرب انقلاباً زج مصدق في السجن، وأعدم فاطمي، وأعاد البترول إلى حظيرة الغرب. ومنذ أسابيع قال ايدن في مجلس العموم إن انجلترا ستحارب دفاعاً عن بترولها في الشرق الأوسط.

إلى هذا الحد يستميت الغرب في الدفاع عن الاحتكار الرأسمالي العالمي. ومن هنا يجيء المظهر الثاني لعمق الضربة التي لحقت الغرب بتأميم قناة السويس!

إن هذه الضربة ستشمل الرغبة في ضربات أخرى هنا وهناك، في حركات أخرى لتحرير الاقتصاد القومي والموارد الحيوية للثورة في كل البلاد!.

فهل يقف الغرب أمام هذه الضربة مكتوف الأيدي؟

هل يترك هذه المعركة تضيع منه دون أن يبدي أنيابه ومخالبه، ويظهر للآخرين قوته؟

هل يترك مصر هكذا قدوة ناجحة للجميع؟

لقد رددت الصحف الأجنبية كلاماً عن محكمة العدل الدولية، ومجلس الأمن، وتجميد الأرصدة الاسترلينية، وغير ذلك. ولكن الغرب يعلم جيداً أن القضية إذا انتقلت إلى هذا الميدان القانوني فقد خسرها.

فماذا يصنع؟

إنه لا يستطيع أن يدبر غزواً خارجياً كالذي صنعه في جواتيمالا. فهناك استطاع أن يجد فريقاً من أبناء جواتيمالا الخارجين عليها يكونون جيشاً ينتحل صفة وطنية. أما بالنسبة لمصر فليست هناك حكومة في النفي. وليس هناك أبناء لها يمكن أن يأتوا إليها في جيش مبهم. وليست مصر في موقعها وحجمها وقوتها كجواتيمالا؟

والغرب لا يستطيع أن يدبر هنا انقلاباً داخلياً كما صنع في إيران. فوجود العرش في إيران كان بمثابة وجود بؤرة تلتف حولها كل العناصر الرجعية والمتحالفة مع الاستعمار مكونة بذلك جرحاً غائراً في الكيان الداخلي.

ولا يستطيع الغرب أيضاً أن يفرض حصاراً على القنال يمنع استعمالها. إن القناة هي الشريان الذي تسبح فيه على الأقل ناقلات البترول الذي يدير مصانع أوروبا. والنفقات التي سيتحملها الاقتصاد الغربي من جراء إرسال سفنه حول افريقيا ستكون باهظة. وليست القناة في الاقتصاد المصري مصدراً أساسياً كالبترول في اقتصاد إيران. فتعطيل استثمار البترول الايراني خنق الدخل القومي هناك، أما في مصر فتعطيل القناة لا يؤثر في الدخل القومي أي تأثير هام.

فماذا بقي للغرب؟

بقيت له إسرائيل. إسرائيل هي الأداة الوحيدة التي يثير بها الغرب ما يشاء من متاعب في البلاد العربية.

ولكن إسرائيل ليست سلاحاً جديداً في يده. إن إسرائيل جرح قديم في بلادنا، وقد بدأنا ـ منذ اشترينا السلاح ـ نعرف كيف نحصره في مكانه.

فالمعركة في القناة رابحة. وليس للغرب آخر الأمر إلا أن يذرف الدمع، وأن يلقي ما في الصناديق الموجودة في أقبية لندن وباريس طعاماً للفيران!؟

٦ ـ قديمة(*)

ليست هذه أول مرة تعقد فيها انجلترا، وفي لندن، مؤتمراً دولياً ضد مصر.

كان المؤتمر الأول قبل مائة سنة.

لم يكن هناك شيء اسمه قناة السويس.

وكانت مصر قد ثارت على الاستعمار التركي وأعلن محمد علي استقلاله عنه، ثم انتزعت مصر من الاستعمار التركي بلاداً عربية أخرى، هي الآن سوريا ولبنان والجزيرة العربية وفلسطين.

وبزغت في الوجود دولة قوية فتية خرجت من عفونة الامبراطورية التركية وركامها.

وثارت انجلترا، كما تثور اليوم، دفاعاً عن الامبراطورية التركية.

وصرخ بالمرستون رئيس وزرائها كما يثور ايدن اليوم!

وأخذ يتصل بأمبراطوريات ذلك الزمان، التركية والروسية والنمسوية، ودعا الدول الكبرى إلى مؤتمر يعقد في لندن لمواجهة هذا «الإعتداء الغاشم» على الامبراطورية التركية!

وانعقد المؤتمر الدولي في لندن تحت رعاية بالمرستون، واتخذ قرارات بتجريد القوات المسلحة لتحطيم الجيش المصري، ولتقليم أظافر مصر، ولإعادة الشرق العربي إلى حظيرة الامبراطورية التركية!

هل كانت انجلترا حقاً تدافع عن الامبراطورية التركية؟

(*) صباح الخير (١٦ آب/ اغسطس ١٩٥٦).

لقد كانت انجلترا في واقع الأمر تحول دون قيام دولة قوية مستقلة في هذه المنطقة من العالم، منطقة الشرق الأوسط.

كانت انجلترا تعرف أنها تستطيع أن ترث الامبراطورية التركية المتهاوية في أي وقت تشاء. ولكنها لا تستطيع أن تقتحم هذه المنطقة لو شبّت فيها، ومن جوفها دولة قوية فتية. فقام بالمرستون يجمع هذه الدول إلى مؤتمر في لندن، لخنق نهضة مصر.

واليوم يلبس أنتوني ايدن ثياب سلفه بالمرستون. ويجلس هذا الصباح على رأس المؤتمر الذي عقد في لندن. لماذا؟

ما هي الحجة التي يتعلل بها لعقد المؤتمر؟

إنه يقول إنه يدافع عن معاهدة ١٨٨٨ التي تكفلت حَيْدة القنال وحرية الملاحة فيها.

أتعرفون بماذا تقضي معاهدة ١٨٨٨؟

إنها تقضي بأن تكون القناة «حرة مفتوحة لجميع الدول في حالتي الحرب والسلم». وتحرِّم أن تحاصر إحدى الدول القناة أو تتخذها مكاناً للأعمال الحربية أو تقيم على جانبيها المعسكرات!

وقد ظلت انجلترا تدوس هذه المعاهدة - التي تبكي عليها اليوم - سبعين سنة بلا انقطاع!

كانت تتخذ قناة السويس مكاناً لأعمالها الحربية. وكانت تقيم على جانبيها المعسكرات وكانت تغلقها في وجه خصومها في حالة الحرب!

نعم، كانت انجلترا قد دست في آخر المعاهدة نصاً مؤقتاً يستثنيها في أحكام المعاهدة وخلال احتلالها المؤقت لمصر. ولكن هذا «الاحتلال المؤقت»، هذا «الاستثناء القصير الأمد»، دام سبعين عاماً.

إن معاهدة ١٨٨٨ تريد أن تضمن حياد القناة، وانجلترا لم تكن في تاريخها كله محايدة قط، أما الذي يضمن حياد القناة، فهو صاحبتها مصر.

وانجلترا تعرف ذلك جيداً. تعرف أن مصر هي التي تستطيع أن تضمن حَيْدة القناة وحرية الملاحة فيها.

فلماذا إذن تعقد المؤتمر؟

لنفس الغرض القديم: لخنق مصر، وخنق أي دولة عربية قوية يمكن أن تقوم في هذا الركن.

إنها ضد أن يتسلح جيش مصر. وضد أن يقوم السد العالي في مصر. وضد أن تكون القناة لمصر. وضد أن تتحد البلاد العربية مع مصر. وضد أن تزول إسرائيل من جوار مصر.

إن مصر اليوم هي العنصر الذي يزعج امبراطوريات الانجليز والفرنسيين في كل مكان، وكل قوة جديدة تكسبها مصر هي في نفس الوقت قوة جديدة للتحرر العربي، وإزعاج جديد للاستعمار الانجليزي والفرنسي.

وقد قال كريستيان بينو هذا المعنى صراحة في مجلس النواب الفرنسي.

قال: «لو ضاعت القناة، فقد ضاعت الجزائر وشمال افريقيا كله، إن شمال افريقيا كله فيه الآن تياران: تيار ما زال على ولائه الروحي للغرب، وتيار يتجه ولاؤه إلى العروبة ووحدة البلاد العربية ومصر، ولو كسبت مصر هذه المعركة، فمعنى هذا أن ينعقد النصر للتيار العربي في شمال افريقيا».

ومنذ أيام خرجت جريدة الإكسبريس الفرنسية تحمل عنواناً ضخماً يقول: «الجزائر اليوم عاصمتها السويس!».

إنها إذاً ليست قضية قناة السويس وحدها، ولكنها قضية الاستعمار كله.

وما تأميم قناة السويس إلا ضربة أصابت عصباً حساساً في الاستعمار ارتعش لها الجسد كله!

ولكن أنتوني ايدن، وهو يلبس صباح اليوم ثياب بالمرستون، ينسى ما أصاب الزمن من تغير منذ أيام بالمرستون.

كان الاستعمار أيام بالمرستون شمساً بازغة وهو الآن شمس غاربة.

كانت حركة محمد علي لتوحيد هذا الجزء من العالم حركة مصطنعة مفروضة من أعلى، أما اليوم ففي هذا الجزء من العالم انبعاث وطني وقومي عميق. انبعاث لا يفرضه فرد، إنما تصنعه عشرات الملايين.

كانت الدول الكبرى أيام بالمرستون كلها دول استعمارية، تستطيع مهما اختلفت أن تتفق آخر الأمر في وجه القوى الجديدة المتحررة، أما اليوم فهناك جزء كبير قوي من العالم، هو المعسكر الشرقي، منفصل تماماً عن المعسكر الاستعماري، وواقف في وجهه في صلابة كبيرة.

كان الرأي العام العالمي أيام بالمرستون هو الرأي العام في لندن وباريس وفيينا. أما اليوم فالرأي العام العالمي ينبع أيضاً من دلهي وبكين ودمشق والخرطوم.

إن هذا المؤتمر الذي يعقده ايدن، مؤتمر لا يجاري الزمن.

إنه يثير السخرية تماماً كما لو خرج ايدن إلى شوارع لندن وقد وضع شعراً طويلاً مستعاراً ولبس كما كان يلبس بالمرستون، منذ أكثر من مائة عام!

٧ ـ المعركة مفتوحة... في البلاد العربية(*)

ربما كانت أزمة قناة السويس في طريق الحل.

ربما. إذا لم تكن انجلترا وفرنسا قد تعمدتا إثبات أن الفيتو الروسي وحده هو الذي يعرقل سياستهما في حين أن كل أعضاء مجلس الأمن ـ باستثناء روسيا ويوغوسلافيا الشيوعيتين ـ يؤيدون وجهة نظر انجلترا وفرنسا، في الإدارة الدولية وسلطة هيئة المنتفعين. وإذا لم يكن في ضمير انجلترا وفرنسا أن تستمر سياستهما العدوانية إزاء مصر، وأن تتعقد المفاوضات، وأن يعود الموقف ـ بعد عبور مرحلة مجلس الأمن ـ إلى تأزمهما القديم: مصر ترفض التدويل وانجلترا وفرنسا تصممان عليه.

ربما كانت أزمة قناة السويس، بعد هذا كله، في طريق الحل!

على أن هذا لا يعني أن الأزمة الرئيسية قد انتهت.

فمنذ بداية مشكلة قناة السويس، وأنا أقول إن المشكلة ليست مشكلة قناة السويس. إنها مشكلة السياسة المصرية التي اتجهت نحو بناء وطن عربي مستقل محايد فعلاً، يشمل استقلاله كل منطقة الشرق الأوسط، واصطدامها في هذا الحقل بالسياسة الغربية، التي تريد أن تبقى هذه المنطقة ضعيفة، جريحة الاستقلال، ممزقة لأنها في هذا الجو تستطيع أن تأمن على مصالحها.

هذه هي الأزمة!

والذين ينسون كل شيء إلا قناة السويس، ويظنون أن الضجة كلها تثور بسبب قناة السويس، يجب أن يذكروا أن الأزمة بدأت بسحب الدول الغربية لعرضها الخاص بالسد

(*) صباح الخير (١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦).

العالي. وأن الغرض من هذا السحب كان توجيه ضربة إلى سياسة الحياد والاستقلال، وإرغام مصر والشرق العربي على الإذعان والرضوخ لمصالح الغرب.

الأزمة إذاً أزمة هذا الوضع الجديد، المحايد المستقل، الذي تريد البلاد العربية أن تصير إليه.

وفي هذا الميدان، نجد أن البلاد العربية قد انقسمت إلى جبهتين:

جبهة هي العراق، أو بالتحديد الحكومة العراقية وعلى رأسها نوري السعيد، ما زالت تؤمن بأن البلاد العربية يجب أن تبقى كما كانت تابعة للغرب، تحرس مصالحه في الشرق الأوسط وتحاول أن تستفيد في مقابل ذلك. ولهذه الجبهة أنصارها، وعملاؤها، في كل البلاد العربية.

وجبهة ثانية تتزعمها مصر، تؤمن بأن العرب قد وصلوا إلى المرحلة التي يجب فيها أن يستقلوا بسياستهم وبمصالحهم. وإذا كان لهذه الجبهة تأييد «رسمي» متردد هنا أو هناك، فإن لها تأييداً شعبياً ساحقاً في جميع البلاد العربية، بما فيها العراق.

وانجلترا وفرنسا لا تحاربان مصر وحدها، ولكنهما تحاربان هذه الجبهة العريضة التي تتزعمها مصر. وإذا كان الهجوم على القلب صعباً في بعض الظروف، فلا بأس من أن يتجه الهجوم أولاً إلى الأطراف، تمهيداً للإحاطة بهذا القلب.

وبناءً على هذا المنطق، فإن انجلترا وفرنسا سوف تتجهان إلى البلاد العربية الأخرى في هجومهما السياسي المقبل، بعد أن فشل هجومهما السياسي الأول على قناة السويس.

والحق أن انجلترا بالذات لم تنتظر. فإن هجومها السياسي على البلاد العربية قد بدأ بالفعل.

جلوب من العراق

في الأردن، حيث الانتخابات التي ستجري بعد ثلاثة أيام، وقعت الاعتداءات الإسرائيلية على الحدود من ناحية واحتشد الجيش العراقي على الحدود من ناحية أخرى. ثم اشترط نوري السعيد لدخول جيوشه في الأردن أن تتعهد إسرائيل بأن لا تعتبر هذا العمل استفزازاً لها فتهجم هي الأخرى! واشترط أيضاً أن لا تشتبك جيوشه مع جيوش إسرائيل في اشتباكات الحدود!

استنجدت به الأردن لدفع خطر إسرائيل، فاشترط أن لا يكون له شأن بخطر إسرائيل! أي أنه يريد احتلال الأردن لكي تصبح الأردن في قبضته!

وقدمت له انجلترا هذا التعهد! أبلغته رضاء إسرائيل عنه وتقديرها لنواياه! ولا فرق عند انجلترا بين أن تستولي إسرائيل على الأردن أو أن يستولي عليه جيش العراق أو جيش

حلف بغداد! الذي يقوده ضباط انجليز وايرانيون واتراك. رأيتهم بعيني، في ابريل الماضي، في مقر الحلف في بغداد، وفي مبنى وزارة الدفاع العراقية!

ويومها يصبح سفير العراق في عمان بمثابة المندوب السامي البريطاني القديم! ويقوم قائد الجيش العراقي بما كان يقوم به جلوب المطرود! وتسترد انجلترا بالشمال، ما تركته باليمين!

وفي سوريا..

إن الوضع في سوريا مختلف. ودخول جيوش حلف بغداد فيها أمر مستحيل. فالاعتماد الأول للاستعمار يجب أن يكون على الأصدقاء المحليين.

والأصدقاء المحليون الذين يؤمنون بسياسة نوري السعيد هم - بصراحة: حزب الشعب، وبعض عناصر الحزب الوطني.

إن حزب الشعب هو حزب الاندماج مع العراق وهو الحزب المؤيد لحلف بغداد. وهو الحزب المتمسك بالإقطاع الزراعي الداخلي الذي تتمثل سيطرته المطلقة في نظام دولة العراق.

لقد رأيت بعيني وسمعت بأذني زعماء هذا الحزب - مثل فيضي الأتاسي - عندما كانوا في بغداد. رأيت وسمعت ولاءهم لنوري السعيد، وتأييدهم لحلف بغداد، ودعايتهم لهذا الحلف في كل مكان.

هذا الحزب هو حزب الأغلبية البرلمانية في مجلس النواب السوري!

وهو عنصر أساسي في الوزارة القومية التي تحكم سوريا.

وهذا الحزب لا يقوى ولا يجرؤ على معارضة سياسة مصر التحررية علناً، ولكنه، وراء الكواليس، يقيم العراقيل ويبحث عن الثغرات. خذوا مثلاً على ذلك حادث قرية «حارم».

مذبحة قرية حارم..

إن «حارم» قرية سورية صغيرة، انعقد فيها يوماً اجتماع صغير للجنة حزب البعث في القرية. ولكن القرية واقعة في منطقة نفوذ بعض العائلات الاقطاعية الكبرى التي يتكون منها حزب الشعب، والتي تدين بالولاء لحلف بغداد حفاظاً على إقطاعها. وفوجىء المجتمعون من حزب البعث الاشتراكي بهجوم مسلح من الفلاحين الأجراء لدى الملاّك من حزب الشعب. هجوم بالبنادق والمسدسات والمدافع الرشاشة انتهى بسقوط القتلى والجرحى من أعضاء حزب البعث!

وقع هذا الحادث الاستفزازي الخطير وأزمة قناة السويس في أوجها. ولم يخفَ مغزى هذا الحادث على أحد. ولم يخفَ على أحد ما يمكن أن يؤدي إليه هذا الحادث من اضطراب حبل الأمن، ومن... ومن...

وأعلن حزب البعث أنه يدرك مسئولياته إزاء الموقف السياسي الأكبر. وأنه يرفض الاستجابة لهذا الاستفزاز، ويتنازل عن حقوقه إزاء القتلة المجرمين، حتى لا يشغل الناس عن قضايا الوطن العربي الكبرى ضد الاستعمار. وهو الغرض الذي يسعى إليه المجرمون!

وفي داخل الوزارة القومية السورية يقيم حزب الشعب العراقيل.

آخر العراقيل التي أقامها حول مشروع إنشاء معمل تكرير البترول. وهو المشروع الهام للاقتصاد السوري، الذي تردد بين الوزارات السورية المتوالية دون نتيجة.

لقد استدعت الوزارة السورية مهندساً مصرياً طاف أوروبا وفحص العطاءات، واختار أخيراً أفضلها، وهو العطاء المقدم من روسيا وتشيكوسلوفاكيا. وقررت الوزارة قبول هذا العطاء. ولكن وزراء حزب الشعب عادوا فجأة فوضعوا العراقيل والاعتراضات. وعادت صحفهم تنشر أخباراً مبهمة تقول إن هناك عروضاً أمريكية جديدة، وليس هناك في واقع الأمر عروض.

الإقطاع يحمل السلاح!

إن الإقطاع في سوريا يحمل السلاح! انه بما يملك من الأموال يستطيع أن يشتري الأسلحة بنفس الكثرة التي يصدر بها الصحف! وهو يحاول أن يدخل في صفوف الجيش بدعوى هي أن سوريا أصبحت دولة شيوعية وأن على الجيش أن يوقف هذا التيار، حتى أعلن قائد الجيش السوري أخيراً أنهم يبحثون عبثاً عن «زاهدي» آخر في الجيش السوري. والإرهاب المستتر يهدد حتى الزعماء الوطنيين التقدميين، الذين يتلقون أحياناً تهديدات بالقتل، والذين لا يستبعد الكثيرون أن تقع محاولات لاغتيال البارزين منهم، كما اغتيل عدنان المالكي منذ قريب!

وفي لبنان، ماذا في لبنان؟

إن «الكتائب» اللبنانية التي يقودها بيار الجميّل، والتي يحمل أفرادها السلاح، يتنادون بأن فرنسا هي أمهم الرؤوم، وأن الوحدة العربية الزاحفة خطر على كيانهم!

وشركة البترول العراقية الإنجليزية تضغط على لبنان بفصل الموظفين بالمئات، وبمحاولة خلق حالة بطالة، وما تؤدي إليه من سخط على الحكومة التي تساير سياسة مصر.

هذه هي بعض زوايا المعركة المفتوحة الآن في البلاد العربية كلها.

إن المعركة تتبلور الآن في خطر واضح.

إن إنجلترا تحاول أن تقنع كل الطبقات الحاكمة ذات المصالح بأن التحرر العربي لن يقتلع مصالح إنجلترا وحدها ولكنه سوف يقتلع مصالح هذه الطبقات أيضاً. وهي تنشر بين

هذه الطبقات دعاية واسعة بأن التحرر العربي سائر إلى الشيوعية بخطوات سريعة! وهي تشجع هذه الطبقات بالمال والسلاح، وتحقنها بالأمل، وتدفعها إلى رفع راية العصيان في وجه الرأي العام، وهي وراءهم!

انجلترا حكمت الشرق العربي منذ دخلته بنفوذ العائلات الإقطاعية وشيوخ القبائل ورؤساء العشائر، ووكلاء الشركات الانجليزية، والعملاء الذين صنعت منهم الوزراء والمديرين. وهي اليوم تريد أن تسترد لهؤلاء نفوذهم القديم. تريد أن تعود مقاليد الأمور إلى قبضتهم، أي إلى قبضتها.

ولكن الانجليز لا يقدّرون القوى الجديدة النامية! لا يقدّرون قوة رأس المال الوطني، والطبقات المتوسطة المتطورة، والمثقفين، والعمال، والذين يلتحقون كل سنة بالمدارس، ويقرأون الصحف، ويستبشرون بالمستقبل، ويعرفون أين طريقهم!

٨ ـ المصالح الحقيقية التي تحاربنا![*]

إكتشف ايدن بعد أن تورط في مغامرته المسلحة، أنه قد دخل في منازعات ضخمة مع ثلاث قوى: أولاً شعب مصر والشعوب الصديقة، ثانياً: حزب العمال الكبير داخل بريطانيا نفسها، ثالثاً: الولايات المتحدة الأمريكية، أكبر حلفاء إنجلترا التقليديين وأكبر دول المعسكر الغربي.

لماذا اصطدم ايدن مع هذه القوى كلها؟ وما الذي وضعه في هذا المأزق التاريخي الذي لم يستطع ذكاؤه أن يتنبأ به؟

السر هو أن ايدن يجلس على رأس أقدم نظام رأسمالي، احتكاري، استعماري، في العالم كله، والنظام الرأسمالي في مرحلة الاحتكار والاستعمار، تكون له ثلاث صفات أساسية:

الصفة الأولى ـ انه نظام يقوم على أساس تقسيم العالم إلى أسواق ومناطق نفوذ، وبالتالي يصطدم بالدول الاحتكارية الأخرى المنافسة له.

الصفة الثانية ـ انه نظام يقوم على استغلال الشعوب الأخرى لصالحه، ومن هنا تنشب الثورات ضده.

الصفة الثالثة ـ انه نظام يخص بالخيرات طبقة معينة، هي التي تتشبث بالاستعمار، في حين أن الطبقات الأخرى التي لا تستفيد مباشرة، ترفض أن تضحي إلى ما لا نهاية من أجل بقاء هذا الاستعمار. ومن هنا ثارت جماهير حزب العمال في وجه ايدن ونظامه.

ولكن، ما هو هذا الاحتكار الرأسمالي الاستعماري؟

(*) صباح الخير (١٣ كانون الاول/ ديسمبر ١٩٥٦).

هـو ـ باختصـار ـ أن الشركات التي تمتلك وسـائل الانتـاج والـثروات الـطبيعيـة ينتهي تصارعها إلى أن تنتصر وتنفرد بالسوق شركة واحدة، أو أن تتحد أكـثر من شركة في مؤسسـة واحدة، تحتكر سلعة من السلع أو نوعاً معيناً من أنواع الانتاج.

مثـلاً شركة«ا. س. ا» أي شركـة الصناعـات الكيـهائيـة الامـبراطـوريـة، إنها شركـة انجليزية ضخمة جداً، تحتكـر تجارة وإنتـاج كل المـواد الكيـهائيـة في ما يقـرب من ثلث العالم كله! والمواد الكيمائية تدخل في تركيب أشيـاء كثيرة جـداً وحساسـة جداً: من الصـابون، إلى الديناميت، إلى القنابل الصاروخية، إلى الأسلحة الذرية، إلى الأدوية الطبية والعقاقير.

ومن احتكـارات مشابهـة، في الفحم والحديـد والنقل والسفن والتـأمين وغـيرها، ومن ثمانية بنوك كبرى تسيطر على السـوق المالي، تتكـون امبراطـورية انجلترا، ومن مصـالح هـذه المؤسسات العملاقة تتكون مصالح بريطانيا.

هذه المؤسسات العملاقة، لهذا السبب، تهتم دائماً بأن تضع يدها عـلى جهاز الحكم في انجلترا، بل وعلى جهاز الجيش أيضاً، كما سوف نرى بعد قليل.

فحمَلة الأسهم في هذه المؤسسات الكـبرى هم أعضاء مجلس اللوردات، وهم العمـود الفقري لحزب المحافظين، ولكن هذه المؤسسات الاحتكـارية والبنـوك، لا تكتفي بهذا، إنما هي تهتم بأن تضع رجـالها في منـاصب الحكم والوزارة واللجـان العليا، كـما تهتم بأن تـأخذ رجال الحكم والوزارة وتلحقهم بمناصبها، لكي يتعودوا على رعاية شؤونها، وتنفيذ سياستها.

ولننظر إلى أبرز وزراء الحكـومة الـبريطانيـة الحاضرة، ورجـال المحافـظين، انهم جميعاً يشغلون عندما لا يكونون وزراء مناصب المديرين في المؤسسات الآتية:

أنتوني ايدن: بنك وستمنستر، وشركة فونكس للتأمين.

بتلر: شركة كورتوالد للحديد والصلب.

أوليفر لتلتون: اليانس للتأمين ـ اتحاد التعدين ـ شركة لندن للصفيح.

لورد سالسبوري: بنك وستمنستر

هارولد ماكميلان: شركة ماكمبلان للطباعة والنشر والورق.

لورد وولتون: شركـة برمنجهـام للأسلحـة الصغيرة ـ رويـال للتأمـين ـ اتحاد لـويس للاستثمار.

وكلّهم ـ إلى جانب مناصبهم ـ من كبار حَمَلة الأسهم في هذه المؤسسات!

وشركـات الأسلحة بـالذات لا تصنـع هذا مـع رجال الحكم فقط، ولكن مـع رجـال الجيش البريطاني أيضـاً. فهي حريصـة على أن تلتقط كـل ماريشـال أو اميرال يـترك الخدمـة وتدخله ضمن موظفيها، حتى يصبح ازدهار هذه المؤسسـات التي تنتج السـلاح هو المستقبـل

الأخير لكل قائد كبير ذي سلطة في الجيش، فهؤلاء القواد الكبار هم الذين يضعون سياسة التسلح، ويطلبون كمياتها وينادون بمضاعفتها.

وأبرز مثل معاصر على ذلك، ما حدث بعد الحرب العالمية الأخيرة! فالسِّير أميرال ج. روس أكبر اسم في الأسطول البريطاني مثلاً عُيِّن ضابط الاتصال بين شركة «هوكر سيدلي» لبناء السفن وبين الأميرالية البريطانية، وماريشال الجو لونج، عُيِّن مديراً في شركة هافيلاند، أكبر شركات بناء الطائرات الحربية.

ولكن، هل تشتغل هذه الشركات الضخمة بالسياسة حقاً؟ وبالسياسة العالمية بالذات؟

هل يمكن أن يكون لهذه الشركات ادوار مباشرة في توجيه السياسة الخارجية؟

إن مجرد كون رجال الشركات يتنقلون بين مناصب الوزارة ومناصب الشركة وبالعكس، كافٍ لأن يجعل مصالح الدولة في نظرهم هي مصالح هذه الشركات.

ولكننا يمكن أن نجد ـ إلى جانب ذلك ـ شبهات أخرى كثيرة.

ولنأخذ مثلاً شركة من شركات الأسلحة الكبرى في انجلترا، وهي شركة فيكرز، صاحبة المدافع التي اشتهرت باسمها.

لقد ضُبطت هذه الشركة ثلاث مرات تشتغل بالسياسة اشتغالاً مباشراً، كالآتي:

ـ قبل الحرب العالمية الأولى، حوكم بعض وكلاء شركة فيكرز لأنهم دفعوا رشاوى لبعض الرسميين في اليابان، حتى يقوموا بإقناع الدولة هناك بأن حالة خطر حرب موجودة، ولا بد من مضاعفة المشتريات من السلاح.

ـ وفي سنة ١٩٣٣، طُرد وكيل الشركة فيكرز من تركيا بتهمة التجسس ودفع الرشاوى.

ـ وفي سنة ١٩٤٣، اتُّهمت الشركة بأنها باعت سراً بارجتين لحكومة كولومبيا، بينما كانت عصبة الأمم في ذلك الوقت قد قررت منع توريد السلاح لدولتي كولومبيا وبيرو حتى تقف الحرب التي كانت ناشبة بينهما.

هذه الشركة ما زالت موجودة وتؤثر في السياسة: ففي خلال الحرب الثانية عُيِّن مدير الشركة سير تشارلز كرافن مستشاراً لوزارة الانتاج، وعين مديرها الآن سير رونالد ويكس رئيس أركان حرب الأسطول البريطاني والحاكم العسكري لبرلين في سنة ١٩٤٥، عين مديراً لشركة فيكرز.

مثل آخر من أمثلة توجيه هذه الاحتكارات للسياسة، وأعود فيه إلى شركة الصناعات الكيمائية الامبراطورية التي ذكرتها في أول المقال.

هذه الشركة كانت داخلة في اتفاق عالمي، مع شركة احتكارية ألمانية اسمها شركة

ا. ج قبل الحرب العالمية الأخيرة، اتفقتا فيه على تنسيق انتاجها، وأصبحت الشركة الانجليزية بالتالي مشتركة اشتراكاً مباشراً في تسليح هتلر، وهي تعلم أن معاهدة فرساي تحرم على ألمانيا صنع أنواع معينة من المفرقعات! ولهذا السبب أصبحت الشركة مهتمة جداً بأن تدوم العلاقات السلمية بين ألمانيا وانجلترا بأي ثمن، على أمل بعيد هو أن تهدئة انجلترا سوف تصرف هتلر إلى الحرب مع روسيا، ومن هنا ولدت سياسة التنازل التي تزعّمها تشمبرلن، وفريق كبير من حزب المحافظين.

كان تشمبرلن نفسه من كبار مساهمي الشركة. ومثله كثيرون.

وفي قمة الأزمة بين انجلترا وألمانيا تبرعت الشركة بمبلغ ضخم لتأسيس وتدعيم حملة «الصداقة الانجليزية الألمانية» وإنشاء جمعية بهذا الاسم.

وبعد أن اكتسح هتلر تشيكوسلوفاكيا آخر ضحاياه، واحتدام الغليان في البرلمان الانجليزي ظلت الشركة واثقة من المستقبل حتى لقد عقدت اتفاقات أخرى مع مؤسسات ألمانية أخرى لصناعة المفرقعات!

هذه بعض معالم النظام الاقتصادي في انجلترا، والمصالح الحقيقية هناك.

أو... هذه بعض نماذج لسيطرة الاحتكار على السياسة والحكم في انجلترا، وخلال حكومات المحافظين بالذات.

وكل هذه المؤسسات الاحتكارية تعتمد على السوق الخارجي، وعلى بلاد أخرى غير انجلترا تستورد منها خاماتها وتصدر إليها بضاعتها المصنوعة. فهي صاحبة المصلحة الكبرى المباشرة في أن تحصل على خامات البلاد الأخرى بأبخس التكاليف ولو أدى الأمر إلى الاحتلال المسلح، وإلى الدخول في مغامرات حربية. فبهذه الحروب تروج صناعات السلاح والحديد والصلب والطائرات والسفن والمواد الكيمائية من جهة، وبهذه الحروب الاستعمارية تتم حماية حقول البترول ومناجم المعادن التي تستنزفها هذه المؤسسات.

والمثل المعاصر الملموس للنشاط السياسي لهذه المؤسسات، مثل شركة البترول الانجليزية التي تحتكر بترول العراق.

فهذه الشركة لها في العراق مخابراتها الخاصة بها، ولها الساسة المحليون الذين يأخذون منها مرتبات ثابتة ولها عملاؤها بين العشائر العراقية يزودونها بالمال والسلاح. والجهة الأساسية التي تنفق المال على العملاء وتهرب السلاح في سائر البلاد العربية المجاورة ليست حكومة العراق، ولكنها شركة البترول الانجليزية في حراسة حكومة العراق وبالتفاهم معها طبعاً!

وبهذا النفوذ الخطير، تستطيع هذه الشركة أن تعقد صفقات سياسية بالغة الضخامة، كأن تجعل حكومة نوري السعيد وعدداً من الرسميين فيها، يرضون بأن ترسل الشركة بترولها

في الأنابيب إلى حيفا بإسرائيل، رغم ارتباط العراق رسمياً بأن يمنع وصول أي نقطة بترول إلى معامل تكرير حيفا منذ تأسيس دولة إسرائيل!

وآخر معركة سياسية كسبتها هذه الاحتكارات في انجلترا نفسها، معركة الانتاج الذري.

كانت في انجلترا وجهتا نظر: الأولى تقول إن الصناعات الذرية لخطورتها وضخامتها وأهميتها واتصالها المباشر بالسياسة العليا للدولة، بل وللعالم كله، يجب أن تبقى في يد الحكومة، وكان هناك رأي آخر في حزب المحافظين ينادي بجعلها في يد المؤسسات الاحتكارية الأهلية، وتشكلت لجنة اختارت الحل الثاني، وكانت اللجنة تتكون من: لورد سالسبوري مدير بنك وستمنستر، وسيرجون اندرسون مدير شركة فيكرز، وسير ولاس آكرز مدير شركة الصناعات الكيمائية الامبراطورية، وسير جون وودز مدير شركة انجلش الكتريك. فهي وصية معقولة جداً من هذه اللجنة النزيهة. وبعد. . .

هل فهمنا المصالح الحقيقية التي تحاربنا، وتحارب كل الحركات الاستقلالية، وتحارب البسطاء من الشعب الانجليزي نفسه؟

هل عرفنا المصالح الحقيقية التي تحرك ايدن وبتلر، وماكميلان، وكل ممثلي حزب المحافظين؟

وهل عرفنا ـ أخيراً ـ أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه الشعب الانجليزي نفسه؟!

٩ ـ التفسير الأيديولوجي . .

لخطبة جمال عبد الناصر(*)

الخطبة الأخيرة التي ألقاها الرئيس جمال عبد الناصر في الاسكندرية يوم ٢٦ يوليو، لها أهمية خاصة. فهي لم تتحدث عن السياسة العملية فقط، ولكنها ذهبت إلى مستوى الوضع النظري، وتحديد «الايديولوجية» التي تحكم هذه السياسة، في الداخل والخارج على السواء.

والآراء النظرية التي تحدّث عنها الرئيس جمال عبد الناصر تستوجب التفسير والشرح والتعليق، نظراً لما انطوت عليه من أهمية بالغة.

والتفسير الذي أقدمه هنا، إنما اكتبه مسترشداً بالعقيدة التي أومن بها، وهي العروبة، والاشتراكية، والديموقراطية.

وأول النقط النظرية التي انطوى عليها هذا الخطاب هي:

أولاً ـ إننا ما زلنا في معركة ضد الاستعمار، على أساس ان الاستعمار يحاربنا إلى الآن بأساليب مختلفة، وعلى أساس أن معركتنا تشمل الوطن العربي كله.

ثانياً ـ إن التضامن العربي سوف يتوقف إلى أن تصبح القيادات المتحالفة معنا قيادات وطنية، حتى لا يتكرر ما حدث خلال حرب فلسطين عندما غدرت بنا القيادات الغير وطنية في ساحة القتال.

المرحلة! . .

إن أول مفتاح لفهم أي موقف سياسي هو: معرفة المرحلة، والظروف التي تمر بها البلاد.

(*) صباح الخير (١ آب/ اغسطس ١٩٥٧).

إن العمل السياسي بطبيعته يحتاج إلى مراعاة المراحل والظروف، فالطريقة الطبيعية لصعود درجات السلم هي الصعود درجة درجة. وقد تكون لدى الإنسان قوة تجعله يصعد السلم درجتين درجتين. ولكنه إذا حاول أن يقفز أكثر من طاقته، فالمؤكد أن توازنه سوف يختل، وانه سوف يسقط، وقد تدق عنقه!

وكذلك الحال بالنسبة للكفاح السياسي. فالاشتراكي ـ مثلاً ـ يؤمن بملكية المجتمع لوسائل الانتاج، ولكن ليس معنى ذلك أن يطالب بتحقيق هذا الهدف كاملاً وبجرة قلم في أي وقت من الأوقات وفي أي بلد من البلاد، لأن في هذا إهمالاً لظروف كثيرة. ولو كان الأمر كذلك لأصبح العمل السياسي مجرد قراءة كتب والايمان بمبادىء والمناداة بتطبيقها كما جاءت في مؤلفات الفلاسفة، ولأصبح كل من يقرأ هذه النظريات ساسة ناجحين، كلا. إن السياسي يؤمن بغاية كبيرة، ثم ينظر في طريقة الوصول إليها، وهل يتم بضربة واحدة أو بالتدرج السريع أو البطيء.

كذلك لا بد من دراسة ظروف كل بلد. فمهما أحضرنا تصميمات ناجحة من الخارج، فإن تفصيل الثوب لا بد أن يكون من قماش محلي!

المهم أن صاحب العقيدة، في مراعاته للمرحلة والظروف، لا يضل الطريق إلى الغاية التي يؤمن بها، ولا يضحي بقيمة أساسية من القيم التي يؤمن بها.

الديمقراطية الموجهة

والظروف التي مرت وتمر ببلادنا ـ وفي مقدمتها أننا في معركة مع الاستعمار، وأننا نعمل على تصفية الاقطاع ـ هذه الظروف قد انتجت النظام الحاضر الذي نعيش فيه، وأصدق كلمة تطلق عليه هي أنه: ديمقراطية موجهة.

هو «ديمقراطية» لأن رئيس الدولة قد انتخبه الشعب، ولأن انتخاب المجلس النيابي تم بالتصويت العام السري.

وهو ديمقراطية «موجهة» لأن هناك قوانين تحرم فريقاً من الناس من حقوقهم السياسية، هم ساسة العهد الماضي، ولأن الاتحاد القومي كان له حق الاعتراض على بعض المرشحين، ولأن تكوين الأحزاب السياسية ما زال ممنوعاً.

والديمقراطية الموجهة، عرفتها بلاد كثيرة في السنوات الأخيرة. تريد بذلك أن تواجه الظروف الحرجة التي تمر بها، وأن تنفذ بعض الاصلاحات الثورية التي قد تعرقلها الاجراءات العادية، وتريد في الوقت نفسه أن لا تتخلى عن الإيمان بالديمقراطية كغاية وكوسيلة في نفس الوقت.

على أنه يجب أن نلاحظ بشأن الديمقراطية الموجهة ملاحظتين هامتين:

الأولى ـ إن الديمقراطية الموجهة لا تحجر على حقوق أحد إلا الفئة التي قامت

الاجراءات الاستثنائية ضدها، ففي معركة ضد الإقطاع مثلاً، تحجر الديمقراطية الموجهة على عناصر الاقطاع، ولكنها لا تتعرض لحرية الفئات الأخرى المؤيدة للقضاء على الإقطاع.

الملاحظة الثانية ـ إن الديمقراطية الموجهة ليست نظاماً للاستمرار، ولكنها نظام مؤقت، ومرحلة انتقال أخرى، حتى تزول الأسباب التي استلزمتها، ثم تصبح ديمقراطية فقط بلا توجيه.

وقد عبر جمال عبد الناصر عن هذه المعاني الديمقراطية، وعن هذه الحاجة إلى مزيد من الديمقراطية عندما تحدث عن نقطتين: الأولى توسيع الديمقراطية والرغبة في أن يظهر مجلس الأمة قيادات جديدة، والثانية عن التفكير الطبقي ومقاومة الفكرة بالفكرة. وهما نقطتان يجب الوقوف عندهما قليلاً.

توسيع الديمقراطية

إن تعبير «توسيع الديمقراطية» الذي استخدمه الرئيس جمال عبد الناصر تعبير ينطوي على آفاق وأغوار عميقة.

إن الديمقراطية ليست الهيكل السياسي للدولة فقط، وليست الحريات العامة المعروفة كحرية القول والنشر والاجتماع فحسب، إن الديمقراطية أسلوب في الحياة بجميع صورها.

هناك مثلاً ديمقراطية الجهاز الحكومي بشقيها:

ديمقراطية في داخل الجهاز الحكومي نفسه، فلا تكون السلطة الرئاسية من أكبر موظف إلى أصغر موظف سلطة غاشمة، إنما تكون علاقة رئاسة لا تلغي شخصية الموظف الصغير، الذي سيصبح مع الزمن موظفاً كبيراً.

وفي هذه الناحية نجد مجال العمل واسعاً، فقد حرمت بعض القوانين كثيراً من الموظفين من التظلم إلى القضاء الاداري، الأمر الذي يسلبهم كيانهم إزاء أي رئيس مسؤول عن الترقيات والتنقلات وغيرها، ونظرية «التعسف في استعمال الحق» داخل الأداة الحكومية إنما وجدت لتحمي ديمقراطية الجهاز الحكومي من الداخل، على أساس أن هذه الديمقراطية تكفل إنتاجاً أكبر وأسلم.

وهناك الشق الثاني، وهو ديمقراطية العلاقة بين الجهاز الحكومي والشعب، فالأصل أن هذا الجهاز يعمل لخدمة الشعب وتحت رقابته، وليس العكس، وفي هذا المجال أيضاً نجد مجالاً كبيراً لتوسيع الديمقراطية. فمثلاً القانون الذي يحتم على من يتهم موظفاً عمومياً أن يثبت الاتهام في خلال خمسة أيام وإلا اعتبر مذنباً، هذا القانون يضيق فرصة نقد الجهاز الحكومي إلى حد بعيد، ويكاد يجعل هذا الجهاز فوق مستوى النقد.

ثم هناك مشروعات الحكومة الخاصة باللامركزية الإدارية والحكم المحلي.

كل هذه آفاق عظيمة لتوسيع الديمقراطية، يجب العمل فيها بسرعة خالية من التسرع!

الخلاف الطبقي

وقد اقترن حديث الرئيس جمال عن توسيع الديمقراطية، بحديث آخر قال فيه إن الدولة لا تحرّم الخلاف بين الأفكار، وإنها لا تقاوم الفكرة بالقوة، إنما تقوّمها بفكرة أخرى، وإنه لا مفر من وجود تفكير طبقي وخلاف طبقي، دون أن يكون هناك «حرب طبقات».

واستخدام تعبير التفكير الطبقي والخلاف الطبقي بدلاً من تعبير حرب الطبقات له معنى هام.

إن تعبير «حرب الطبقات» يرتبط في أذهان البعض بطريقة معينة لتطوير المجتمع هي الثورة المسلحة، وهو تعبير مرتبط بتفسير معين لتطور المجتمع يقول: إن الرأسماليين سيزدادون مع الزمن غنى والأجراء سيزدادون فقراً، حتى إذا وصلوا إلى مرحلة الموت جوعاً فإنهم سيثورون ويستولون على الحكم ويقضون على الرأسمالية بضربة واحدة.

هذا التنبؤ القديم لم يقع دائماً بحذافيره، لقد حدثت تجارب عديدة هائلة في انجلترا وغرب أوروبا وفي جمهوريات شرق أوروبا، وفي الصين والهند وغيرها. هذه التجارب الهائلة ادخلت تغييرات كثيرة على النظم الاشتراكية وعلى النظم الرأسمالية على السواء. وقد أثبتت أن التطور يمكن أن يتخذ أسلوباً ديمقراطياً برلمانياً؟ وهذا النوع من التطور يقع على الأغلب في البلاد التي لا تتجمد فيها الدولة أمام التطور، إنما تخضع له وتتراجع أمامه تدريجياً.

في مثل هذه الظروف يمكن أن يقال إن هناك خلاف طبقات لا حرب طبقات، وفي مثل هذه الظروف يتخذ الخلاف الطبقي صورة الصراع الديمقراطي البرلماني. فالطبقة الصاعدة كلما زادت قوتها كلما زاد نصيبها من التمثيل النيابي ومن السيطرة على الرأي العام، وكلما استطاعت بالتالي أن تملي المزيد من إرادتها.

النظام الاقتصادي

وقد تحدث الرئيس جمال عبد الناصر ـ أخيراً ـ عن النظام الاقتصادي، فقال إنه قد ظهر اتجاه يميني يعارض تمصير البنوك والمؤسسات ويشكك في قدرة رأس المال الوطني على النهوض بمفرده بهذه التبعات. كما ظهر اتجاه يساري ينادي بتخفيض الحد الأعلى للملكية الزراعية من ٢٠٠ فدان إلى ٥٠ فداناً، كما ينادي بالاستيلاء على الصناعات الوطنية.

وقد اختار جمال عبد الناصر الطريق الوسط. فهو يصر على التمصير ويثق به، وهو لا يرى الوقت مناسباً للاستيلاء على رأس المال الوطني، وتوزيع المزيد من الأرض، لأن القضية الكبرى أمامنا الآن هي زيادة الانتاج.

وهو اختيار سليم تماماً.

وهو يستمد سلامته ـ أولاً ـ من «الظروف والمرحلة» التي نمر بها، ظروف المعركة ضد الاستعمار، والتي تستلزم أن لا نقوم بأعمال تذكي الخلاف الطبقي ما دامت هذه الأعمال غير ضرورية ولا عاجلة.

ويستمد سلامته ـ ثانياً ـ من التجارب التي مرت بها بلاد أخرى كثيرة، والتي أثبتت أن التأميم الكامل السريع، في بلاد مستواها المعيشي منخفض وصناعتها مبتدئة ـ ليس هو الطريق الأمثل لزيادة الانتاج، وزيادة الانتاج في هذه الظروف أمر ضروري وحاسم، فهو الذي تعود ثمرته المباشرة إلى المواطن العادي، الذي يبني حكمه على أي نظام بدرجة توفر حاجياته الأساسية، والسير على أي سياسة تهمل حاجيات الشعب الأساسية قد يؤدي إلى قيام هوة عميقة بين الشعب ونظام الحكم، لا تسدها أي تفسيرات أو تحليلات نظرية أو فلسفية!

والملحوظ أن الدولة في مصر تتدخل في الحياة الاقتصادية بطريقة أخرى غير التأميم، هي المساهمة في رأس مال الشركات والمؤسسات خصوصاً الجديدة منها.

وقد أصدر حزب العمال البريطاني منذ أسبوعين، تقريراً هاماً بعنوان «الصناعة والمجتمع» تحدث فيه الحزب عن هذه المسألة بالذات، مسألة اشتراك الدولة في رأسمال الصناعات الهامة.

ووجهة النظر التي عبّر عنها حزب العمال البريطاني هي أنه ـ في غير مجال التأميم ـ فإن اشتراك الدولة في الصناعات والمؤسسات يعتبر خطوة إلى الأمام، فالحاصل أن حَمَلة الأسهم العاديين في أي شركة أو مؤسسة ليس لهم أي إشراف حقيقي على شئونها ما داموا يقبضون الأرباح آخر العام، وهذه الشركات تؤثر في حياة الشعب تأثيراً كبيراً، فمن المستحسن أن تتدخل الدولة للإشراف عليها، إذ لا يعقل أن تكون هذه الشركات غير مسؤولة أمام المجتمع على الإطلاق، ثم إن أسهم الشركات مملوكة كلها لأقلية من الناس، فامتلاك الدولة لجانب من الأسهم يؤدي إلى مزيد من العدالة الاجتماعية، إذ يجعل المجتمع مالكاً لجانب معقول من هذه الأسهم ويجعل جزءاً من إيرادات هذه المؤسسات يذهب إلى الدولة التي تنفق إيراداتها على المجتمع كله، بدلاً من أن تذهب كل الايرادات إلى جيوب أفراد قليلين. هذا فضلاً عن أن ملكية الدولة لجانب من الأسهم يجعل للدولة من النفوذ ما يمكنها من توجيه الاستثمار والصناعة إلى خدمة الوطن كله.

انتهى كلام حزب العمال، وهو كاف لتبرير اشتراك الدولة في المؤسسات الكبرى.

وأضيف إليه أنه يجب الانتباه هنا إلى أمر هام، هو: أن لا يؤدي هذا إلى إخضاع هذه المؤسسات للبيروقراطية الحكومية. فاشتراك الحكومة في مؤسسة ليس معناه أن تتدخل في كل شيء فيها حتى تعيين أصغر موظف، إنما مهمتها أن تقف كالمساهم اليقظ: توجه المؤسسة نحو الخدمة العامة، وتقف دونها إذا أساءت التصرف أو أسرفت على مديريها أو استغلت عمالها.

وبعد...

فهذه هي بعض الخواطر التي عنت لي في التعليق على هذه المبادىء الهامة، وهي مبادىء يجب أن يتأملها ويشرحها ويكتب عنها كل كاتب ومفكر يشعر بمسئوليته نحو سنواتنا القادمة.

١٠ ـ البطل!(*)

انتهى اليوم الأول من زيارة جمال عبد الناصر للمنيا. خرج من السرادق الضخم الذي ظل ساعتين يشتعل حماسة، وفي السيارة المكشوفة المثقلة بالجماهير. عاد إلى القطار ليقضي ليلته. وتحرك القطار بضعة كيلومترات ثم سكن في قلب الحقل والليل.

في خمس دقائق، انتقلنا من التصفيق والهتاف الذي يشق عنان السماء إلى السكون المطلق، كأن أمواج البحر الجياشة قد توقفت مرة واحدة عن الهدير.

ووقفت أمام نافذة القطار أتأمل أضواء المدينة البعيدة، وأعواد الزرع التي تتحرك في صمت، والبطل الذي كانت تهتف له الجماهير منذ دقائق في جنون، والذي يقضي ليلته في نفس القطار، ونفس السكون!

البطل؟

من هو البطل؟ ما هو البطل؟ ما هو سره، وتفسيره؟

حينما كنت صبياً، كنت مولعاً بمتابعة البطولة، والقراءة عن الأبطال. كنت أرى التاريخ حقلاً يزرعه الأبطال، أو «طيناً» يصنع منه الأبطال تماثيل شامخة. كنت لا أرى غيرهم! وكنت أسرف في تقصيّ أخبارهم، حتى أعرف ماذا كان يأكل نابليون، وماذا كان يلبس صلاح الدين، ولماذا كان بسمارك ثقيل الظل؟

وحين صرت شاباً، وقرأت التفسير المادي للتاريخ، انقلبت الصورة في نفسي انقلاباً عنيفاً. هبط بصري من القامات الشامخة إلى الناس العاديين البسطاء. واقتنعت تماماً بأن تغير علاقات الانتاج وحده هو الذي يصنع التاريخ. اقتنعت تماماً بقول تولستوي: إن البطل

(*) صباح الخير (٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨).

انسان عادي جداً، ولكنه ولد بالصدفة على موجة التاريخ. صار همي هو أن أثبت أن كل إنسان بطل. فالموظف الصغير الذي يستدين لكي يعلّم ابنه الهندسة، بطل يصنع التاريخ، لأنه يساعد عملية التطور. صار همي أن أتسقط من أخبار «الأبطال» كل ما يثبت أنهم عاديون وما ينتقص قيمتهم. فأطرب حين أقرأ لصديق يوليوس قيصر كيف كان يسخر من تقديس الناس لبطولة يوليوس قيصر، لأن هذا الصديق رأى يوليوس قيصر مرة يصرخ كالأطفال حين كان يسبح في نهر التيبر وكاد يغرق. وأطرب حين أقرأ كيف ارتبك نابليون واصفر وجهه أمام نواب فرنسا وخرج مذعوراً مرتجفاً، لولا أن أخاه أنقذ الموقف وفضّ الجلسة ودعا الجنود إلى طرد النواب الذين فروا مذعورين بدورهم!

وبعد فترة أخرى من القراءة والتأمل والتجربة، وصلت إلى درجة من «التوازن» بشأن هذه القضية، لم أعد أجد أي تعارض بين التفسير العلمي للتاريخ، وبين الاعتراف بوجود «البطل» وبالدور الذي يقوم به.

وأذكر بالذات، من بين المفكرين الذين ساعدوني في الوصول إلى هذا القرار كاتباً انجليزياً ماركسياً هو نفسه بطلاً، إذ استشهد في الحرب الاسبانية، وهو يحارب متطوعاً في صفوف الديمقراطيين. ذلك هو: كريستوفر كودويل.

لقد ذكرت، وأنا واقف أنظر من نافذة القطار الراقد في حضن الحقول، ذكرت «كودويل»، وبحثه الممتاز عن «البطولة»، ومضيت أستعرض ماذا قال، أناقشه في ذهني وأوافقه وأخالفه، واقفاً معه أمام تلك الأسئلة والألغاز:

من هو البطل؟ ما هو سره وتفسيره؟

ما الذي يجعل البطل بطلاً؟

هل هي الشجاعة؟ كلا! فأقصى ما يستطيع الشجاع أن يفعله هو أن يضحي بحياته. وكثيرون جداً ضحوا بحياتهم، دون أن يكونوا من أبطال التاريخ.

هل هو الذكاء؟ ولكننا نصادف كثيراً من الناس ذوي الذكاء الخارق.

هل هو العلم؟ العلماء ليسوا هم أبطال التاريخ!

هل هو ا لنجاح؟ أبداً. فهناك كثيرون جداً من القادة العسكريين الذين لم يهزموا في معركة واحدة دون أن يذكرهم التاريخ كأبطال. وهناك من ختمت حياتهم بالقتل أو الإعدام أو الهزيمة ولكنهم في ذمة التاريخ وفي ضمير الشعوب أبطال غيّروا وجه التاريخ!

إذن، فما الذي يجعل البطل بطلاً؟

إن البطل محتاج إلى كل هذه الصفات السابقة: الذكاء الخارق والشجاعة الفائقة والعلم والقدرة على «تحقيق» هدف أو ضرب مثل. ولكنه يتميز إلى جانب هذا كله بشيء آخر بالغ الأهمية:

القدرة على استخدام الظروف والأحداث لتحقيق غاية ضخمة، وأسلوب باهر أخّاذ في التنفيذ، وموهبة فذة في استخدام الأشخاص والأشياء على السواء.

يقول كودويل:

«إن البطل فيه جانب من صفات الزعيم الديني وجانب من صفات رجل العلم. فالإمام الديني يقول للناس ماذا يصنعون. والعالم يقول للناس كيف يصنعون. الأول يحكم الروح والثاني يحكم المادة. أما البطل فلا بد أن يكون فيه من الاثنين فهو يقول للناس ماذا يفعلون وكيف يفعلون. يقدم لهم الغاية والوسيلة معاً. إنه يعلم بالضبط ماذا يريد أن يصنع. قد لا يستطيع أن يعطيك تنبؤاً بالمستقبل البعيد، ولكنه يعرف بوضوح تام ماذا عليه هو أن يفعل، وماذا على الناس أن يفعلوا!».

والبطل يبدو للناس وكأنه يتحكم في القدر. فهو يؤثر في الأحداث أكثر مما تؤثر فيه الأحداث. وهو لسيطرته على الأحداث والأشخاص يصبح صاحب إرادة حرة في التصرف. والإرادة الحرة تعطيه طاقة أكبر وقوة أعظم.

ولكن البطل لا يستطيع أن «يحكم» الأحداث ويسيطر عليها إلا إذا كان فاهماً لظروف عصره وقوانينه، ومدركاً تمام الادراك لأسرار عملية التفاعل التاريخي الحادث في عصره. إنه لا يستطيع أن يحكم الأحداث دون أن يكون مدركاً لأسرارها إدراكاً صحيحاً واضحاً. فالبطل لا ينتصر بالإرادة وحدها، ولكن بالفهم قبل كل شيء.

ومن هذه النقطة بالذات نستطيع أن نقول: إن البطل هو ابن الأحداث وصانعها في نفس الوقت. وانه لا تعارض بين أهمية التفسير العلمي للتاريخ وبين أهمية دور البطل في التاريخ. إن المهندس الغشيم لا يستطيع أن يدير آلة معقدة مهما كان شجاعاً أو مصمماً. المهندس الذي يدرك سر الآلة هو الذي يستطيع أن يديرها. وهكذا يقف البطل أمام عجلة التاريخ! إن التحالف بين عبقرية البطل وبين منطق التاريخ، هو الذي يصنع المعجزة! أما إذا تعارضت عبقرية البطل مع منطق التاريخ، فلا يمكن أن يتم شيء!

وما أكثر ما يقول الناس إن البطل محظوظ، وإن الأقدار تحابيه. والواقع إنه لا محاباة هناك ولا تحيز. ولكن الإدراك الفطري الصافي لسر العصر وتفاعلاته، هو الذي يجعله يكسب دائماً. إنه يحارب من أجل أشياء قابلة للبقاء!

ومن رأي كودويل أن موهبة البطولة لا صلة لها بدوافعها فالبطل يكون بطلاً بصرف النظر عن الدوافع التي تدفعه إلى البطولة. فقد تكون دوافع كبيرة أو صغيرة. ويوليوس قيصر كان يقدم على المغامرات الهائلة وهو لا يعرف أنه يضع أساس الحضارة الرومانية كلها. ولكن هذا الرأي غير صحيح. فالبطولة في ذاتها مقترنة بتحقيق عمل نبيل. وبالتالي لا يمكن تجريدها من دوافعها. وإلا اعتبرنا القائد الطاغية الذي يفتح بلداً آخر ويستعبد أهله، بطلاً!

الماضي والمستقبل

ومن صفات «البطل» انه، بالرغم من أنه يصنع المستقبل الجديد، إلا أنه شديد التأثر بالماضي. إنه يستلهم الماضي دائماً ويفكر فيه، وينظر إليه، ويذكر الناس بماضيهم لكي

يشجعهم على بناء مستقبلهم. والسبب في ذلك أن كل انسان في نفسه جانبان: جانب جاف صلب، هو ابن الماضي وأفكاره وعاداته وتقاليده، وجانب متطور متجدد، هو ابن العقل والتفكير والمقارنة والتطلع. وكل انسان ينشب في نفسه الصراع بين الجانبين. ومن هذا الصراع يولد «الجديد» الذي يحققه ويدعو إليه. والبطل فيه كل هذا بشكل مضخم مجسم:

القديم يؤثر فيه ويتشبث به ويذكره، والجديد واقف ينتظر على أبواب نفسه غير محدد ولا متشكل تماماً، ولكنه موجود هناك. ويندفع البطل إلى العمل، تحت ضغط نابع من أعماق نفسه، تحت ضغط القديم والجديد معاً!

هذا الاحساس يعرفه الفنان خلال عملية الخلق، ولكنه لا يعرفه بجانبيه المتلازمين كما يعرفه البطل. فالبطل يصنع شيئين في وقت واحد: يدمر أوضاعاً وأشكالاً قديمة تمنع مولد الجديد، ويصنع أوضاعاً جديدة تستقبل هذا المولود.

والبطل يهتم «بالعمل» قبل أي شيء آخر. يهمه أن يصنع العمل المناسب قبل أن يبحث عن منطق يبلوره ويفلسفه. لذلك كثيراً ما نجد البطل التاريخي يختلف مع أذكى مثقفي عصره، ويتفوق عليهم، لأنه «يصنع» و«يخلق» فلسفة أنسب للزمن من الفلسفة التي يؤلفها مثقفو عصره! فالمثقف من حيث لا يشعر - وبالرغم من ارادته - يستخدم منطق الحاضر الذي تربى فيه، لا منطق المستقبل الذي لم يوجد بعد، والذي يصنعه البطل!

وأشهر خلافات التاريخ في هذا الباب: خلاف يوليوس قيصر مع شيشرون، وخلاف الاسكندر الأكبر مع أرسطو: يوليوس قيصر سحق شيشرون في انطلاقه إلى تأسيس الحضارة الرومانية لأنه كان يتكلم بلغة المستقبل، والاسكندر الأكبر انطلق إلى تأسيس الحضارة الهيلينية بينما كان أرسطو يضيع وقت تلاميذه في تدريس دساتير ١٥٨ دولة من «دولة المدينة الواحدة!» البالية.

ولغة البطل - من أجل ذلك - قد تبدو للمثقف في عصره غير واضحة ولا متكاملة، ولكن الجماهير التي «توالي البطل» تفهم مقصده جيداً! إنهم يحسون في أعماقهم بنفس الدافع الذي يجيش في نفس البطل، ويفهمون منه أشياء لا تقال بالكلام، ولكن تقال بالأفعال! إن فطرتهم من نفس منبع فطرته، وهذا من أسرار سيطرة البطل الغريبة على رجاله!

الثورة.. والثورة المضادة!

ولكن هناك زعماء دجالون يستولون على الجماهير ويؤثرون فيها، بل وينومونها لبعض الوقت. فكيف نميز بين الدجال وبين البطل؟

إن الدجال يملك قوة التأثير على الناس. ولكنه لا يملك السيطرة على قوانين عصره ولا يعرف أسرارها كما ذكرنا من قبل، ولذلك فالدجال بعد أن يستولي على الناس، نجده يقودهم في طرق قديمة مسدودة، وخلف دعوات رجعية لا تلبي حاجة الزمن.

فكما أن هناك «ثورة» وهناك «ثورة مضادة» كذلك فهناك «بطل حقيقي» و«بطل مضاد»!

والدجال يظهر في نفس لحظة ظهور البطل، بل ولنفس الأسباب التي أوجدت البطل! ان كيرنسكي وهتلر وموسوليني ظهروا لنفس الأسباب التي أظهرت لينين: التوتر بين الرأسمالية وبين تطور المجتمع والأشكال الجديدة للانتاج. وقد يبدو في أول ظهورهم أن هتلر هو البنّاء الذي يحافظ على المجتمع ولينين هو الهدام. ولكن سرعان ما يثبت العكس. فالأول يضلل الناس ويبدد قواهم فيما لا ينفع ليحرف التطور الاجتماعي، ثم ينتهي إلى لا شيء. في حين أن الثاني كان يهدم ليبني، في نفس اللحظة، وبنفس الضربة.

والبطل لديه شهية فطرية للعمل والانتاج، ولديه دائماً نشاط غير عادي، كأن موجاً عاتياً في داخله يحمله ويدفعه ولا يدعه يسكن لحظة واحدة. إنه يندفع اندفاعاً غريباً باسلاً نحو المستقبل. وأي شيء أكثر جاذبية من المستقبل؟

١١ ـ من الملك مينا . . إلى المستر دالاس!

نهر النيل . . ينتسب إلى أمة أكبر(*)

في أقدم اللوحات، تلك التي ترجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، كان الفنان المصري القديم يرسم حاكم مصر، في يده فأس، يضرب بها حافة النهر. وكان اللقب الذي يحمله ويزهو به هو لقب «حافر القنوات!»

وبعد أربعة آلاف سنة، نجد هذه الفأس يحل مكانها «زرار» كهربائي صغير، تضغط عليه اليوم اصبع جمال عبد الناصر، فينفجر الجبل، وتتمزق صورة الطبيعة التي تبلغ من العمر مئات الألوف من السنين، لتحل محلها صورة جديدة.

ان هذا النيل العظيم، ليذكر في تاريخه منذ مئات الآلاف من السنين تغيرات قليلة حاسمة!

انه يذكر يوم كان ينتهي «كنهر» عند بلاد النوبة. يوم كان البحر المالح تتلاطم أمواجه عند أسوان، ثم كيف أخذ النهر يحمل طينه سنة بعد سنة، ألف سنة بعد ألف سنة، حتى أقام هذه الوادي الخصب، وطارد المياه المالحة حتى شاطىء الاسكندرية ودمياط ورشيد!

وإنه ليذكر، هذا النهر، يوم تحول مجراه، منذ أربعة آلاف سنة.

وإنه ليرى ـ هذا النهر ـ اليوم، ليذكر بعد ألف سنة، هذا الانفجار الهائل، يبدد صمت آلاف السنين، ويحول الصخر الذي سيتطاير دهشة وعجباً. يحوله إلى بحيرة، ونهيرات، وتوربينات!

لا أذكر من هو المؤلف أو المؤرخ الذي قال: إن نهر النيل يفقد حريته بمجرد وصوله إلى النوبة! فهو، النهر الهائل الجبار، سليل الأمطار والبحيرات والجبال والمستنقعات، والأب

(*) أخبار اليوم، ١٩/١/١٩٦٠.

الذي أنجب التمساح والدرفيل، والطاغية الذي يسكر أحياناً بخمر قوته فيعربد ويغرق ويفيض. هذا المارد الجبار يفقد حريته عند حدود الاقليم المصري! فسكان هذا الوادي يتجمعون حوله من قديم الزمان، يقتسمون أطرافه ويهذبونه ويكبلونه بالجسور والسدود والسواقي، فيتحول إلى خصب وخير.

جسد الوادي.. يختلج!

إن النيل لا يفقد حريته في بلادنا. إن سكان هذا الوادي لم يسجنوه ويكبلوه ويذلوه! إنهم على العكس قد أقبلوا عليه في شغف، يدرسون أطواره، ويفهمون تقلباته، ويسجلون ارتفاعه وانخفاضه! وفي سبيل حبهم له، تعلموا دراسة النجوم والأفلاك ليعرفوا مواعيده. وابتكروا المقاييس ليفهموا مزاجه الصاعد الهابط! إنهم لم يقتلوا حريته، ولكنهم كانوا يقدمون المعرفة الإنسانية إلى ابن الطبيعة هذا، لكي يؤدي رسالته.

وإذا كانت أقدم حضارة في الدنيا، وأقدم دولة عرفها البشر، قد قامت في هذا الوادي، فهذا النهر هو السبب! كان العالم المسكون كله قبائل موزعة، ولكن هذا النهر هو الذي جعل القبائل التي تسكن الوادي تلتقي عنده، وتلتف حوله. فالتفاهم مع النهر لا يمكن أن يتم في بقعة واحدة، إنما يتم بمحاولة فهمه من النوبة إلى شاطىء البحر. وكان هذا اللقاء هو الذي ربطهم، وهو الذي علم القبائل لأول مرة أن تلتقي في وطن، وفي دولة!

من يستطيع أن يتخلص من هذه الخواطر الموغلة في القدم، وهو يرى أو يسمع اليوم هذا الحدث الفذ؟ يرى الاصبع السمراء تلمس هذا الزر لمسة سحرية يتكهرب لها جسد الوادي بأكمله، فيختلج من قمة رأسه إلى أخمص القدم. يختلج بالأذرع التي تعمل، والفئوس التي تهوي، والآلات التي تدور!

وقد جاء هذا الحدث، والنهر لا ينتمي إلى سكان هذا الوادي فحسب، ولكنه ينتمي إلى أمة أكبر وأوسع هي الأمة العربية كلها! فقوة هذا الوادي قوة للعرب، وتجدد شبابه تجدد لشباب العرب. والنيل لم يعد نهراً وحيداً بنفسه، ولكنه أصبح يرتبط بأخوة وأبناء عمومة، بدجلة والفرات والأردن والعاصي وغيرها.

انقلاب سياسي

ولكن السد العالي ليس حدثاً علمياً أو صناعياً أو قومياً فحسب، إنه أيضاً حدث سياسي بل إنه أول حدث له مغزى ضخم في حياة العالم، في هذا العصر الجديد الذي بدأ بسنة ١٩٦٠.

فالمعركة السياسية التي اقترنت بالسد العالي، هي التي اكسبت السد شهرته العالمية، وهي التي جعلت له قيمة أكبر من عدد أطنان الصخر الذي سيستخدم فيه، وفدادين الأرض التي سيرويها!

لقد ولد مشروع السد العالي، والحرب العالمية الباردة في أحرج أوقاتها! ولد المشروع عندما كان المعسكران الدوليان الكبيران ينظران إلى الحياد الايجابي وكأنه مخلوق غير طبيعي لا يمكن أن يعيش طويلاً، ويجب ألا يعيش طويلاً. وعندما كان الغرب بالذات لا يقبل من أي دولة مستقلة إلا أن تنضوي تحت لوائه، بالأحلاف أو القواعد العسكرية أو غيرها، والدولة التي لا تقبل التبعية السياسية والعسكرية والاقتصادية لا ينتظرها إلا الجوع والاختناق، وربما الاحتلال!

وبهذا المنطق سحب جون فوستر دالاس العرض الأمريكي لبناء السد، بعد مفاوضات طويلة مضنية انتهت إلى القبول! وجلس دالاس ينتظر أن يخر سكان الوادي راكعين.

ولكن جمال عبد الناصر، بإدراك هذا المغزى الخطير، لسحب السد العالي، أعلن تأميم القناة! أعلن تمرد الدول الصغيرة على وضعها كأتباع! وكان لا بد أن يشن الكبار حملة تأديبية على هذا الثائر الذي بدأ يقلده الآخرون! وتولى أنتوني ايدن هذه المهمة. والباقي معروف! ففي هذا الأسبوع ينشر أنتوني أيدن مذكراته ويعلن جمال عبد الناصر البدء في بناء السد: الأول ينشر الحساب الختامي لماضيه، والثاني يفتح حساباً جديداً للمستقبل! ولم يكن الغرب يتصور أن رفضه المساهمة في تمويل السد العالي سيجعلنا نقبل عرض الاتحاد السوفييتي لإقامة السد:

إن العالم كله يتحدث اليوم عن تغير الجو السياسي العالمي، وعن انتهاء سياسة خطر الحرب وحافة الحرب. عن انتهاء سياسة الحصار والمقاطعة وعدم التفاهم بين المعسكرين...

ومن يتعقب التطورات التي أدت إلى هذا التغير، يجد أن أكثرها بدأ من معركة السويس، التي كانت أيضاً معركة السد العالي!

وعندما يذهب الإنسان إلى أصغر البلاد وأحدثها، غينيا مثلاً، ويجد البعثات والخبرات تأتي إليها من الشرق والغرب على السواء، دون ضجة ولا حرب ولا أزمات، يذكر على الفور معركة السد العالي، التي شقت هذا الطريق، وقررت هذا المبدأ!

وعندما يسمع الإنسان كل أقطاب العالم يقولون إن عصر ١٩٦٠ سيكون عصر التنافس السلمي في البناء وفي مساعدة البلاد الناشئة، يذكر على الفور معركة السد العالي، فهي قمة المخاض الذي سبق ولادة هذا العصر!

ومن هنا كان تفجير جمال عبد الناصر لهذه التلال صباح اليوم، طلقة انتصار وأمل لألف مليون رجل وامرأة وطفل.

١٢ - لا يا شيخ؟؟(*)

كثيراً ما يحار المرء كيف يعامل هؤلاء الناس. وهؤلاء الناس هم بعض رجال الدين الذين يريدون أن يحتكروا تفسير الدين، وبالتالي يحتكروا تفسير الحياة. الذين يحسبون أن الآيات القرآنية عجينة في أيديهم يكيّفونها كيفما تشاء لهم عقولهم المتحجرة في أغلب الأحيان.

أقول إن المرء يحار في طريقة معاملة هؤلاء الناس، فالواحد منا يحترم فيهم أحياناً سنهم الكبيرة، ويعذرهم فيما بينه وبين نفسه لأنهم عاشوا حياتهم العقلية أسرى بين جدران كتب معينة محدودة، لم يعرفوا سواها ولم يدركوا من التجارب الإنسانية غيرها، ولهذا يؤثر الإنسان حتى إذا ناقشهم ألا يخرج معهم عن حدود الأدب.

ولكن بعض رجال الدين هؤلاء، يبرهنون من الوهلة الأولى على أن الدين لم يترك فيهم أول أثر من آثاره وهو الأدب والمناقشة المهذبة والمجادلة بالتي هي أحسن، ويحار المرء كيف يعاملهم، هل يكيل لهم بنفس الكيل أم يقدّر أن التطور يحطم رءوسهم فتثور أعصابهم ويطير صوابهم على هذا النحو الذي نراه أحياناً.

النموذج الذي أثار في الذهن هذه الخواطر هو الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.

فقد خرجت مجلة «منبر الإسلام» تحمل مقالاً للشيخ أبو زهرة يسبّني سبّاً مقذعاً. ويستعدي عليّ الله، والدولة، وأصحاب المؤسسة التي أعمل فيها، طالباً أن تطردني المؤسسة من عملي وأن تضعني الدولة في سجونها، وأن يسوقني الله إلى جهنم يوم القيامة!

والاستاذ أبو زهرة لم يذكر اسمي صريحاً في هذا المقام. أغلب الظن لأنه خشي أن أنال على يديه شهرة لا أستحقها! ولكنه اكتفى بأن يشير إلي بأوصاف مثل «هذا المنحرف» الذي

(*) أخبار اليوم، ١٩٦١/٨/١٩.

اشتهر «بانحراف التفكير وفساد الغايات، والتمرد على الحقائق الدينية». والذي ينادي بآراء هي آثام يحمل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة!

لماذا؟

لأن الشيخ لم يعجبه بعض ما كتبت في الأسابيع الأخيرة، محاولاً أن أشرح ما أفهمه من المبادىء الاشتراكية، والقيم الاشتراكية، والأخلاق الاشتراكية!

ما الذي لم يعجبه!

ما الذي جعله يلبس ثياب قضاة محاكم التفتيش ويطالب بإلقائي إلى النار؟

ما الذي أثاره وجعل الدم يغلي في عروقه من هذه المحاولات في الكتابة عن الاشتراكية والقيم الاشتراكية، والأخلاق الاشتراكية؟

المرأة!

... دائماً المرأة!

فقرة عابرة كتبتها عن الأسرة وعلاقة الرجل بالمرأة ووضع المرأة في المجتمع الاشتراكي!

المشايخ.. والنساء!

ألا تلاحظون معي أن هؤلاء المشايخ لا يكاد يعنيهم شيء في الوجود إلا المرأة؟

ألا تلاحظون انهم أكثر الناس تفكيراً في المرأة؟

أليس هذا غريباً حقاً؟

ألا يحتاج هذا إلى محلل نفسي أكثر مما يحتاج إلى جدل عقلي؟

الأغرب من ذلك أن ما يعني هؤلاء المشايخ من المرأة ليس «الإنسانة» ولكن «العورة».

المرأة في عقلهم الباطن مخلوقة حقيرة مستعدة أن تبيع عرضها لأول عابر سبيل إذا غفل الرجل لحظة واحدة عن حراستها!...

المرأة في مفهومهم لا تصلح إلا لشيء واحد هو أن تسلم نفسها للرجال، ولهذا يجب أن تقام حولها الأسوار، وتتفتح حولها العيون الحمراء...

حرية المرأة ليس لها معنى إلا الفساد...

مسئولية المرأة عن نفسها لا نتيجة لها إلا الانحلال!

خروج المرأة من بيتها لا يؤدي إلا إلى أن ينقضّ عليها الرجال!

الجنس، والجنس وحده يدوّي في عقولهم دائماً وباستمرار!

التفسير الجنسي للتاريخ هو التفسير الوحيد الذي يفهمونه ويدورون حوله دون انقطاع!

قصة الحياة على الأرض هي قصة رجال يقومون بحراسة النساء من خطر الرجال الآخرين.

تفكير مكبوت محصور منحرف!

وإلا، فبماذا يمكن أن نفسر هذا الذي يقوله الشيخ؟

لقد تحدثت في المقال الذي يهاجمه الشيخ عن المساواة بين الزوج والزوجة، والمساواة بين الأخ والأخت، أي المساواة بين الرجل والمرأة!

فكيف فهم الشيخ هذا الكلام؟

فهمه على أنني أقول بأن لها أن تخرج من البيت كما تشاء وفي أي وقت تشاء، كما أن للرجل أن يخرج من البيت في أي وقت يشاء، ثم قال عني: «ويكاد يقول إن لها أن تصاحب من تشاء».

هكذا وصل الشيخ في فهم المساواة إلى أن معناها أن للمرأة أن تصاحب من تشاء من الرجال!

وليس لهذا سوى معنى واحد هو أن الرجل في رأي الشيخ من حقه أن يصاحب من يشاء من النساء!

أليس كذلك يا شيخ؟

أليس معنى كلامك هذا أن الرجل من حقه أن يصاحب من النساء من يشاء؟

لماذا؟

لأنه رجل!

لأنه سيد!

لأنه فحل!

أما أنا فأفهم المساواة على معنى آخر تماماً! لأنني لا أشارك الشيخ في الرأي الذي تورط فيه من حيث لا يدري، الرأي القائل بأن من حق الرجل أن «يخبِّص» كما يشاء!

أنا لا أفهم المساواة على أن كلاً من الرجل والمرأة يخرج على هواه وكيفما شاء. ولكنني أفهمها على أن كلاً منهما مقيد في دخوله وخروجه وتفاصيل حياته برأي الآخر ومشورته واقتناعه! وعلى أن الأخلاق الكريمة مطلوبة من الرجل ومقيدة له كالمرأة سواء بسواء!

وبهذا يكون الرجل والمرأة طبقة واحدة! ليس فيها سيد غاشم مطلق ومخلوقة خاضعة ذليلة ضائعة!

الشيخ لا يطيق حكاية الطبقة الواحدة!

ولكن الشيخ لا يطيق حكاية الطبقة الواحدة والمجتمع الذي ليس فيه طبقات! ويقـول إن المساواة معناها أن تكون المـرأة «من غير عـاصم يعصمها ولا راع يـرعاهـا ولا حام يحميهـا ولا بيت يؤويها!».

ألم أقل لكم؟

ألم أقل لكم إن الشيخ يعتقد أن المرأة بغـير القيود والسـدود، لو تـركت لنفسها، فهي ستتحول إلى بهيمة سائبة لا حـامي يحميها من الـرجال الآخـرين ولا عاصم يعصمهـا من أن تفرّط في نفسها ولا بيت يؤويها لأنها سوف تعرض نفسها في الشوارع؟

ألم أقل لكم إن هذا هو رأي هذا النوع من المشايخ في المرأة؟ وإنها تنتظر لحظة انكسار القيد والخوف والبطش لكي تسلّم نفسها لأول عابر طريق؟

هذا هو المـرض العميق الذي يمنعهم من فهم المسـاواة. إنهم لا يرون في المـرأة مخلوقة إنسانية، يمكن أن تكون شريفة عفيفة متوازنة مرتبطة بالبيت باختيارها وبإرادتها!

على أن هذا كله ـ بكل بشاعته واهانته للمرأة ـ أقل أهمية وخطراً مما سيجيء.

الشيخ يفضح نفسه

فلو كان الأمر في خروج المرأة أن تذهب إلى السينما مع زوجها وصاحباتها، أو ما شـابه ذلك لهان الأمر، ولكن الشيخ يفضح نفسه ويكشـف عن مكنون سخطه حـين يصل بحـديثه إلى مربط الفرس وهو: عمل المرأة!

هـذا الموضـوع الذي يُحسب أحيانـاً أنـه انتهى وتقرر وأن الجـدل فيه تكـرار ممل فـات أوانه!

ولا أظن أن كلام الشيخ ـ في هذا الموضوع ـ سوف يمنع فتاة واحدة من العمل. ولكني أقف عنـد هذا الكـلام لأنه نمـوذج يكشـف لنا حقيقـة الفكر الكـامن في «تلافيف» مـخ هـذا الشيخ وأمثاله، لا ما يقولونه باللسان، يدارون به أمورهم.

يقول الشيخ: «إن عمل الرجل خارج المنزل وعمل المرأة داخل المنزل فقط. وإنه يجب منع المرأة من أن تخرج وتعمل إلا لضرورة ملحّة لا مناص منها، كأن تفقد العائل، أو أن يعجز الـزوج عجزاً مـطلقاً فـإنه في هذه الحالة فقط لها أن تتولى عملاً لمصلحة البيت ولسد الخلل فيه، وذلك استثناء، والاستثناء لا يصح أن يكون قاعدة».

هذا هو نص كلام الشيخ بلا زيادة ولا نقصان!

ومعنى ذلك أن الشيخ يريد لبلادنا أن تعود إلى الوراء بسرعة مخيفة!

إنهيار القوة العاملة

ما معنى ذلك؟

معناه أن القوة العاملة المستقبلية في هـذه البلاد يجب أن تهبط إلى النصف أو إلى الثلث على الأقل! وبينما كل بلاد الدنيا تعمل بقوتها البشرية الكاملة، نميل نحن بنصف قوتنـا، لأن نساءنا في رأي الشيخ إذا خرجن سوف ينقضّ عليهن الرجال ويفسد الأمرا

فمن المقـرر المعروف أن عجلة الانتـاج والتصنيع والتـوسع الـزراعي حين تنـدفـع إلى الأمـام، سوف تستـوعب كل الـرجال. سـوف تمتصهم الأعمال الشـاقة في المصـانع والمنـاجم والأراضي المستصلحـة. فتخلو مئات الآلاف من الأعـمال الأقل صعـوبة، وتصبـح في حاجـة ماسة إلى أن تشغلها النساء: وظائف السكرتارية وعاملات المهن الخفيفة كالنسيـج وعامـلات المحلات... إلى آخره. هذه الطاقة الانتاجية الضخمة يـريد الشيـخ إلغاءهـا والحكم عليها بالشلل، ولو أدى الأمر إلى استمرار بقاء الفقر والتخلف. فلا الفقر يهم ولا التخلف يهم ولا الجهل يهم، ما دامت كل امرأة معصومة في بيتها، معصومة من الخروج، إلى الخطيئة الحتمية التي تتربص بها في الشارع والمكتب والمصنع.

ولكن الجنس والخطيئة لا يستبدان بعقول آلاف الرجال والنساء كما يعتقد الشيخ.

إن لدينا الآن عشرات الآلاف من المـوظفات والعـاملات في جميـع المستويـات دون أن تخرب بيوتهن أو يتمردن على أزواجهن. إنمـا اكتسبت كل منهن في بيتهـا نفسه كـرامة جـديدة واحتراماً جديداً...

عشرات الآلاف من الموظفات والعاملات... وسوف يزيد عددهن بسرعة كبيرة.

ومن غير المتصور أن يكون إنجاز مضاعفة الدخل ـ مثلاً ـ ممكناً في عشر سنوات لو أننا طبقنا موعظة الشيخ واستبدت بنا أفكار الخطيئة والجنس، ومنعنا عمل المرأة.

منطق القناعة وتمجيد الفقر!

هـذا على المستـوى الاجتماعي. وتعـالـوا نـنظر إلى الأمـر عـلى مستـوى الفـرد والبيت والأسرة...

إن السبب الوحيد الذي يبيح عمل المرأة في رأي الشيخ هو الضرورة الملحّة كأن تفقـد عائلها أو يعجز الزوج عجزاً مطلقاً، مؤكداً أن «هذا استثناء، والاستثناء لا يصح أن يكون قاعدة».

لا بد أن يموت أبوها أو زوجها وأن تصبح مهددة بالجوع، لكي تعمل.

أما إذا كان أبوها أو أخوها أو زوجهـا موجـوداً، وإذا كانت تعيش عـلى الكفاف، فـلا يصحّ أن تعمل.

وليبق البيت كله في مستـوى الكفاف! لأنـه لا يصـحّ لهـا أن تـطمـح إلى حيـاة أحسن لبيتها، فتعمل لكي تضيف إلى دخل زوجها أو أبيها أو أخيها دخلاً.

هذا المنطق في القناعة بالكفاف وتمجيد الفقر وتبريره، هو الذي حكم على مجتمعنا بالتأخر مئات السنين المظلمة الطويلة.

المجتمع ينهزم من الداخل فقط!

هذا المجتمع العربي والإسلامي لم يتأخر ولم ينحدر ولم يتردّ في هوة الفاقة والذلة والمهانة بسبب حراب الانجليز أو الفرنسيين أو الأتراك أو التتار! كلا. إنما تأخر وتردى وانحدر مئات السنين المظلمة الطويلة بفعل هذه الأفكار المظلمة المتردية. المجتمع ينهزم من الداخل قبل أن ينهزم من الخارج. العفونة الداخلية التي نشرها هذا النوع من التفكير هي التي أوجدت الفراغ، والفراغ هو الذي استدعى الأجنبي.

لا يلزم أن نتقدم.

لا يلزم أن يرتفع مستوى الفرد والبيت والمجتمع.

يجب ألا نترك سعادة الفقر والإملاق والتخلف، ما دامت النساء في البيوت وما دام الرجال يقومون بمهمتهم الكبرى وهي حراسة النساء حتى لا ينحرفن إلى الرذيلة الكامنة في طبيعتهن والتمرد الذي ينتظر لحظة الانطلاق.

هذا هو منطق الشيخ وأمثاله.

ومنطق الشيخ يصل في نتيجته الحتمية إلى عدم تعليم البنت.

سيقول لكم: كلا... التعليم شيء آخر.

ولكن اذكروا أن بعض المشايخ أمثاله عارضوا تعليم المرأة في بداياته. وفي تاريخ المشايخ أن الشيخ «القابسي» الفقيه القيرواني القديم أفتى بأن يقتصر تعليم البنت على «ما يرجى له سلامة، ويؤمن عليها من فتنة، وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها». فحتى تعلّم المرأة الخط فيه خطر عليها، فقد تجد معه طريقاً إلى بيع نفسها.

وحتى إذا أباح الشيخ تعليم المرأة دون عملها فهو لن يكون منطقياً مع نفسه.

فالتعليم بقصد المعرفة فقط، يكفي فيه أن تتعلم البنت القراءة والكتابة وبعض المعارف العامة. ولكنها إذا كانت لا تعمل فلا مبرر لأن تتعلم حرفة أو مهنة، كالطب أو الهندسة أو التدريس أو المحاماة أو غيرها. إذ من غير المعقول أن تدرس فتاة الطب مثلاً في سبع سنوات مضنية لمجرد الاستعداد للحظة التي قد يموت فيها زوجها أو أبوها وتحل بالبيت كارثة، فتفتح عيادة.

النشرة الجوية حرام والتخطيط حرام!

وإنني أستاذن القارىء لحظة، اترك فيها الشيخ أبو زهرة إلى شيخ آخر لا يقل عنه طرافة.

ولا أريد أن أسمي الشيخ الآخر، لأنه ليس طرفاً في هذا النزاع. وإنما أردت أن أضرب به المثل وأقدم نموذجاً فذاً عجيباً.

هذا الشيخ أستاذ أزهري ومن العلماء، وعندما كنت مسئولاً عن تحرير إحدى الصحف منذ سنوات قليلة، أرسل شكوى ضدي إلى السلطات، لأنني أنشر في تلك الصحيفة الإنحلال والإلحاد والفسق. . .

وفي جلسة لا أنساها، شهودها ما زالوا أحياء، ناقشنا الشيخ الذي أومن بإخلاصه وصدقه مع نفسه ـ في هذا الذي يراه إلحاداً وانحلالاً وفسقاً.

وكانت الحقيقة أغرب من الخيال.

وكانت قائمة الاتهامات لا تخطر على بال.

في مقدمتها ـ مثلاً ـ ان الجريدة تنشر النشرة الجوية كل يوم بجوار مواقيت الصلاة. والنشرة الجوية في رأي الشيخ تنجيم ورجم بالغيب. والتنجيم كفر، وقد كذب المنجمون ولو صدقوا.

تهمة أخطر. . .

إنني كنت أكتب بحماسة أكثر من اللازم عن التخطيط وخطة مضاعفة الدخل وكانت في أول عهدها. والتخطيط هو تدخل في قدرة الله. ولذلك فهو رجس من عمل الشيطان.

نعم التخطيط كفر، هذا ما قاله استاذ الأزهر بالحرف الواحد. إذ كيف نقول إن الدولة تضع أساساً علمياً للمستقبل. كيف نقول إن الفرد يستطيع ـ بناء على ذلك ـ أن يحدد رزقه وزيادته خلال كذا سنة مقبلة، في حين أن المستقبل علمه عند علام الغيوب، والأرزاق من عند الله، يعطي من يشاء ويحرم من يشاء بغير حساب.

ولقد يظن القارىء أن هذا الذي أرويه قصة فكاهية. ولكنه حقيقة أليمة.

حقيقة أليمة أن يقف أستاذ شيخ يحمل لقب «عالم» إزاء الطقس كما كان يقف الإنسان البدائي. لا يعرف أن هناك علوماً حديثة وأجهزة حساسة وأساليب محددة لمعرفة تقلبات الجو، وأن بهذه الأجهزة تطير الطائرات وتسترشد السفن.

حقيقة، أليمة أن يقف أستاذ شيخ ذاهلاً أمام كلمة «علام الغيوب» لا يفسر ما في حدودها المعقولة. بل يفسرها على أنها إلغاء لكل مجهود بشري وكل عمل إنساني وكل محاولة لتغيير الواقع المادي الذي يحيط بنا. ومرة أخرى، بهذا الاستسلام الجاهل، بل أقول استسلام الكافر الذي لم يقل به دين قط، عرفت الأمة العربية والشعوب الإسلامية قروناً طويلة من أتعس أيام الانحطاط والضعف.

ما رأيك في هذه الحقائق!

وأعود مرة أخرى إلى الشيخ أبي زهرة أختم به هذا الحديث.

أعود لأقول له: إنها طريقة هزيلة أن تنتهز فرصة حديث عابر في مقال كاتب مثلي، لكي تنفجر هذا الانفجار، منفساً عن حقدك الدفين على إلغاء الطبقات ونشر المساواة، وتحرير المرأة.

إنني أضعك هنا لا أمام مقال من المقالات، ولكن أمام عدة حقائق مادية ضخمة في حياة هذا البلد، لتقول لنا موقفك منها على ضوء هذا الرأي الذي سجلته في مقالك، لأنها حقائق أولى بسخطك وغضبك وانتحالك صفة التحدث باسم الدين وسلطة تكفير الناس والحكم عليهم بدخول الجنة أو النار.

- إن هذه الدولة تبيح للمرأة حق الخروج والمشاركة في الانتخاب والترشيح أو عضوية الهيئات النيابية على جميع المستويات، وإن لك في مجلس محافظة القاهرة زميلات أعضاء. فما رأيك في هذا «الخروج»؟

- إن التليفزيون الذي تتصدر فيه المجالس يذيع كل يوم ساعات طويلة من التمثيليات التي تشترك فيها النساء، والبرامج التي تقدمها النساء، والأغاني التي تغنيها المطربات وصورهن ظاهرة للجميع. فكم ساعة من ساعات الكفر في رأيك يعرضها التليفزيون كل يوم؟

- إن الدولة ترسل إلى الخارج، وفي جميع أنحاء العالم، بعثات من البنات. البنت تذهب بمفردها إلى أوروبا أو أمريكا لتدرس العلوم أو الهندسة أو الذرة، رغم أن عائلها لم يمت ولم يصب بكارثة. فما رأيك في هذا الخروج؟

- إن الأندية الرياضية والحفلات الرسمية فيها آلاف من الفتيات يقدمن التمرينات والألعاب والاستعراضات. فما رأيك في هذا الإلحاد؟

- إن المعامل والمصانع والمتاجر والوزارات والمؤسسات فيها عشرات الآلاف من النساء العاملات، وأغلبهن يمكنهن ترك العمل دون أن يمتنَ جوعاً، ولكنهن يعملن إما مساهمة في الحياة العامة وإما بحثاً عن تعبير سامٍ لوجودهن وإما لرفع مستوى معيشتهن إلى أحسن. فهل ترى انسحاب الجميع من هذه الحياة، أم أنهن جميعاً ذاهبات إلى النار؟

أترى أيها الشيخ إلى أي حد انت معزول عن موج الحياة؟ أترى إلى أي حد تقف في مكانك مطالباً بموت هذه الأمة لا بحياتها؟ أيكون هذا هو ما يحرج صدرك ويثير حفيظتك فتنفجر هذه الانفجارات الطائشة منفِّساً من كربك الشديد؟

إن الذين يعملون على رقي بلادهم، وتحرير مواطنيهم وتطوير مجتمعهم أعرَف بروح دينهم من محترفي التلاعب بالنصوص وتلبيسها معاني مزورة تلائم عقدهم النفسية لا أكثر ولا أقل.

١٣ ـ المهمة الكبرى «للثورة» هي أن تتحول إلى «نظام»(*)

بعد أسبوع واحد، ينعقد المؤتمر الوطني للقوى الشعبية.

سيقدم قائد الثورة ميثاقاً قومياً إلى المؤتمر كي يناقشه ويصدره.

وهذا الحديث لا ينصبّ على «موضوع» الميثاق ولا يناقش ما يمكن أن يكون فيه من مبادىء وتفاصيل، ولكنه حديث عن الميثاق «من الخارج» أو عن «الظروف» التي يولد فيها هذا الميثاق والمهمة التي تواجهه.

وقد خطر لي أن أطرح سؤالاً عاماً هو:

ما هي المهمة الكبرى للثورة، في العشر السنوات المقبلة مثلاً؟

إن المهمة الكبرى لأي ثورة من الثورات، هي أن تتحول إلى «نظام». وكلمة «نظام» هنا معناها أن يكون الكيان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمع قادراً على أن يحمي نفسه بنفسه، بقوانينه وعلاقاته العادية، وبالتوازن الطبيعي الكامن فيه.

هذه المهمة المزدوجة إذن: مهمة المحافظة على سلامة الثورة من جهة، ومهمة العمل على الوصول بالثورة إلى مرحلة النظام العادي للحياة، هي فيما يبدو المهمة الكبرى الشاملة، التي تندرج تحتها وتتفرع عنها كل واجبات الثورة في العشر السنوات المقبلة.

- إلى أي حد تحتاج سلامة الثورة إلى تضييق؟

- وإلى أي حد يحتاج توصيلها لمرحلة النظام إلى التفتح والإطلاق؟

(*) أخبار اليوم، ١٩٦٢/٤/٢٨.

بين هذين السؤالين، تدور مهمة المؤتمر الوطني المقبل في البحث عن «شكل سياسي» للمرحلة المقبلة من رحلتنا إلى الاشتراكية.

سلطة القانون لا الاعتقال

أي بمعنى ألا يحتاج النظام الاجتماعي إلى ممارسة سلطة الاعتقال... بمعنى ألا يحتاج النظام الاجتماعي إلى إجراءات غير عادية لإصدار القوانين، لأن الاجراءات العادية تصلح لمواجهة عملية التطوير وإصدار التشريعات والقوانين.

أي أن يكون الكيان الاجتماعي للمجتمع «كالعمارة» التي تستمد رسوخها وثباتها من توازنها الهندسي، ومن كل المواد الداخلة في بنائها، لا من الملاحظة المستمرة لها، أو من الاخشاب التي توضع هنا أو هناك لكي تسند المبنى وتحميه!

إن إقامة «نظام جديد» بهذا المعنى لكلمة «نظام» هي المهمة الكبرى للثورة، أي ثورة. والثورة تبقى أمراً ناقصاً إلى أن تحقق هذا الهدف النهائي، وهو: التحول من «الثورة» إلى «النظام».

الثورة تهدم وتنسف وتشيل وتحط لكي تصحح وتبني وتعمر. المنظر ساعة الثورة ـ إذا التزمنا بمثل العمارة ـ أشبه بمنظر الأرض أثناء هدم مبنى قديم وإقامة مبنى جديد. كراكات تنسف الجدران القديمة. وأعمدة عارية من الاسمنت المسلح تنتصب وأكوام من الطوب القديم المتآكل وأكوام أخرى من الطوب الجديد الذي لم يوضع في مكانه بعد. وتراب وغبار. ولكن غاية هذا كله هي أن يختفي التراب والغبار والكراكات، وان تنقشع الضجة عن عمارة جديدة مسكونة يجري فيها كل شيء بلا عناء.

والنظام الذي تريد الثورة أن تقيمه هو النظام الاشتراكي. فالهدف هو إيجاد مجتمع اشتراكي، قادر، بقواه الذاتية، على أن يحمي نفسه من جهة، وعلى أن يتطور تطوراً مستمراً من جهة أخرى، فلا يعتمد وجوده على وجود قيادة تاريخية لا تتكرّر أو على إجراءات استثنائية، ولا على أن الجهاز الاداري فيه يتلقى أوامر معيّنة فيطيعها، وإنما يعتمد وجوده ـ أي المجتمع الاشتراكي ـ على أن الأجهزة المؤثرة فيه ـ عضوياً وطبيعياً ـ من نفس نسيج الاشتراكية.

بين التضييق والإطلاق

ولكن مهمة الانتقال بالثورة وإجراءاتها الاستثنائية إلى مرحلة «النظام» ليست مهمة سهلة.

إن المبدأ الأساسي هنا وفي أي ثورة أخرى هو: سلامة الثورة أولاً، وعدم تعريضها لأي خطر لمجرد الرغبة في الوصول إلى نظام مستقر جديد، يستمد حمايته من نفسه.

ذلك أن سلامة الثورة ذاتها هي الضمان الوحيد لأن يتم الوصول يوماً إلى النظام الجديد، إلى النظام الاشتراكي...

ومن يضع عملية وضع النظام الجديد قبل سلامة الثورة، كمن يضع العربة قبل الحصان.

سلامة الثورة إذن مبدأ أساسي. ولكن سلامة الثورة النهائية هي في الوصول بها ـ في الوقت المناسب وبالضمانات اللازمة ـ إلى مرحلة النظام.

وصف المرحلة المقبلة

هل المرحلة القادمة مباشرة، التي تبدأ من اليوم التالي لإنجاز الميثاق الوطني وإقراره، هي مرحلة «النظام الجديد»، بالمعنى الذي أشرت إليه في أول هذا الحديث، أي المرحلة التي يمكن أن يقال فيها إن المجتمع الاشتراكي ـ في حدود القوانين التي صدرت بالفعل ـ أصبح قادراً أن يحمي نفسه بنفسه، ويطور نفسه بنفسه، بهندسته الذاتية وكيانه الذاتي؟

كلا. إنما الأقرب إلى الدقة فيما أعتقد هو أن نقول إن المرحلة المقبلة هي «مرحلة انتقال» أخرى، مرحلة انتقال أكثر ارتقاء وتطوراً.

لماذا؟

أولاً ـ صحيح أن القوانين الاشتراكية قد صدرت وتغيير هيكل البناء الاجتماعي قد تم. ولكن لا يمكن القول بعد، إن هذا التغيير قد حقق آثاره الاجتماعية كاملة، أو على الأقل إلى الدرجة التي تضمن له ألا يتراجع.

ونأخذ القرية المصرية مثلاً. إن الملكية الزراعية قد حددت، ولكن لا يمكن القول بأن القوة الاقتصادية أو القوة الاجتماعية قد أصبحت بالفعل في يد المالك الصغير والعامل الزراعي. فأصحاب الثروة القديمة لهم أرصدة أخرى غير الأرض التي وزعت، أرصدة مالية وأرصدة معنوية وأرصدة تاريخية، كفيلة بأن تجعل كفتهم هي الراجحة لبعض الوقت. إنما يمكن القول بأن التوزيع قد يحدث أثره حين يتحول الملاّك الصغار والأجراء من قوى مبعثرة إلى قوة اقتصادية لها وزنها، عن طريق التعاون والنصح والعمل، وحين تختفي أو تضعف ذكريات زعامة المالك الكبير، وحين ترتفع درجة الوعي ونسبة التعليم، ويتأكد ولاء الجهاز الاداري ـ تلقائياً ـ لهذا المالك الصغير والعامل الأجير. بدلاً من ولائه القديم الموروث للوجهاء والبارزين.

ثانياً ـ إن القيادات الاشتراكية الأصيلة الواعية ـ بدرجة من الوعي تلائم صفة القيادة ـ ليست متوافرة حتى الآن بالقدر الكافي لتغطية كل قطاعات الحياة العامة في الريف والمدينة أو أغلبها على الأقل.

ثالثاً ـ إن الوعي الشعبي العام بالاشتراكية لم يصل أيضاً إلى الدرجة التي تجعله السياج الواقعي المنيع بغير حاجة إلى توجيه. إن مصلحة الكتلة الكبرى من الشعب في الاشتراكية،

وإن عاطفته اشتراكية وأمانيه اشتراكية، ولكن الوعي شيء أكبر وأعمق وأدق من المصلحة والعاطفة والأمنية. إنه شيء يربط هذا كله برباط من المعرفة والتجربة والأصالة والخطأ.

رابعاً ـ إن التنظيم الشعبي، أو الجيش المدني الذي يستطيع أن يحمي النظام الاشتراكي ويعمق جذوره ويرعى تطويره في جميع المستويات، ليس موجوداً بعد، وإذا تحقق ما نأمل فيه وبدا تطوير الاتحاد القومي من اليوم التالي للمؤتمر، في الاتجاه الصحيح، فليس معنى هذا أن التنظيم الشعبي في صورته المطلوبة قد اكتمل بمجرد البدء في الاتجاه الصحيح. إنه لن يصل إلى مستوى المهمة إلا بعد وقت.

مهمتنا إذن أن نعترف بهذه النقائص وأن ندرك مسئوليتنا عنها، وأن نسرع إلى تلافيها بأقصى سرعة ممكنة.

فلا بد أن يتطور مجتمعنا «معنوياً» بالسرعة التي يتطور بها مادياً.

ولا بد أن تزيد مشاركة الناس في الرأي والحكم والمشورة، بقدر ما تزيد مشاركتهم في الأرباح وزيادة الانتاج وفي بذل المجهود المضاعف من أجل التفكير والتعمير والبناء.

والمسألة هنا تنحصر في أمور ثلاثة:

أولاً ـ تحديد المسئولية.

ثانياً ـ تنظيم الرقابة.

ثالثاً ـ إيجاد تنظيم شعبي يكون «تنظيماً سياسياً» في الدرجة الأولى.

تحديد المسئولية، بمعنى أن توزع الأعمال على شتى المستويات بحيث يكون هناك مسئول واضح عن كل مشكلة، يتحمل مسئولية الفشل ويحمل فخر النجاح.

تنظيم الرقابة بمعنى أنه لم يعد كافياً الايمان بالثورة أو بالاشتراكية. ولكننا في مرحلة البناء أصبحنا نحتاج إلى أن يكون المؤمن كفوءاً وخبيراً ومتمتعاً بالقدرة الخلاقة.

وفي الصين الشيوعية ـ مثلاً ـ رفع الشيوعيون بعد توليهم الحكم شعاراً يقول إن كل فرد مسئول يجب أن يكون «أحمر وخبيراً» أي لا يكفي أن يكون أحمر شيوعياً فقط، إنما يجب أن يكون خبيراً أيضاً. وإنهم بالتالي لا يحاولون أن يصنعوا الفرد الخبير فقط، أو الفرد الأحمر الشيوعي فقط، فكل من هذين النموذجين أشبه بالإنسان الذي يسير على ساق واحدة، في حين أنه يجب أن يسير على ساقين اثنتين هما العقيدة والخبرة، وهذا رغم ما هو معروف عن الشيوعيين من إعلاء للعقيدة الشيوعية في ذاتها على أي اعتبار آخر مهما كان!

ولا شيء يوجد هذه الصفات في كل الأشخاص ذوي المراكز القيادية إلا الرقابة، رقابة القانون ورقابة الشعب.

حصانة للثورة لا لأفراد

إن الثورة نفسها لها حصانة. وأهدافها لها حصانة. ولكن الذين يتصدّون للعمل تحت لوائها لا حصانة لهم إلا بقدر سلامة عقيدتهم وسلامة عملهم...

وهذه الرقابة يجب أن تنظَّم بصورة عملية قاطعة.

رقابة على الدولة كوزارات ومصالح ومؤسسات... أمام مجلس الأمة الذي يكون له حق سحب الثقة من الوزير وبالتالي خروجه من منصبه.

ورقابة على الدولة كفكرة ومذهب وانجاز أمام الاتحاد القومي.

ورقابة على الدولة كإدارة أمام المجالس المحلية.

فضلاً عن الرقابة العامة الممثلة في شتى وسائل الإعلام من صحافة وندوات وكتب.

بإيجاد هذه الرقابة الجدية الحرة، غير المقيدة إلا بقيد المبدأ الاشتراكي، يمكن إيجاد «البوتقة» التي تخرج لنا الكفاءات، والقيادات، والعناصر الصالحة التي يمكن أن تقوم بدور «الاسمنت المسلح» في البناء الجديد.

أين إذن.. غير الرجعيين؟

يبقى إيجاد تنظيم شعبي يكون تنظيماً سياسياً في الدرجة الأولى...

وما زال الحديث «خارج الميثاق». فهو هنا يتعرض للجهاز الذي سيحمل أمانة هذا الميثاق.

والتنظيم الموجود حالياً هو الاتحاد القومي.

وقد تعرض الاتحاد القومي في الشهور الأخيرة لانتقادات كثيرة يمكن القول إنها تلتقي كلها حول نقطة رئيسية هي: تسرب العناصر الرجعية إليه.

والواقع أن هذا هو نصف الصورة.

صحيح أن العناصر الرجعية تسربت إليه، ولكن ماذا صنعت العناصر غير الرجعية من نشاط؟ ماذا وجدت العناصر غير الرجعية من مجالات للعمل والمناقشة والنشاط الثوري!

هذا هو السؤال.

إن جزءاً من مشكلة الاتحاد القومي كان ولا شك أنه لم يتكون أساساً من الفئات ذات المصلحة الشعبية في الاشتراكية... وهذا معنى القول بتسرب العناصر الرجعية إلى مفاصله.

والجزء الآخر من المشكلة هو أن الاتحاد القومي نشأ وقام على أساس نوع من النشاط الإداري المحض، لا النشاط السياسي.

كانت هناك مكاتب للنشاط النسائي والاجتماعي والعمالي وغيرها، ولكنه لم يكن هناك مكتب سياسي، مع أن المكتب السياسي هو الذي يلون كل ألوان النشاط الأخرى باللون السياسي الذي يميزها عن غيرها، والذي يعصمها من الانزلاق إلى مجرد النشاط «الفني» أو «الإداري» أو النشاط الذي ينظر إلى المصلحة اليومية العاجلة لهذه الفئة أو تلك.

والجانب «الإداري» من نشاط التنظيم الشعبي هام بغير شك، أي الجانب الذي ينصبّ على حل مشكلة الري في قرية أو مشكلة عمال مفصولين إلى آخره. ولكن هذا كله لا يصنع قاعدة شعبية ما لم يكن يسري في كل أنواع النشاط «خط سياسي» واضح يربطها ويعطيها اللون الخاص بها.

إن حل مشكلة فرد لا يؤدي بالضرورة إلى كسبه لجانب المبدأ الاشتراكي مثلاً. ومن الخطأ أن نعتقد أن مجرد تحقيق مصلحة الفرد يعني أنه تغيير عقليته ونفسيته وتزويده بطاقة من الوعي والإيمان. إن كل الثورات الدينية والاجتماعية، كل الأنبياء والزعماء والقادة، سارت دعوتهم على أكتاف المؤمنين الذين تغيرت - بالفعل - عقولهم وأرواحهم من الداخل.

أين المكتب السياسي؟

أين المكتب السياسي؟ أين النشرات السياسية الداخلية الدقيقة المدروسة الواقعية؟ أين معاهد البحث السياسي على مستوى عال لدراسة المشاكل على الطبيعة ومن وجهة النظر العقائدية من جهة، ومعاهد التدريب السياسي للفئات المتفتحة النشيطة من جهة أخرى؟ أين الجهات التي تنظم وتوالي الاتصال والتفاعل مع الحركات السياسية في العالم العربي خاصة وفي العالم كله بوجه عام، على مستوى شعبي؟

أين البحث الدائم عن العناصر الممتازة في كل المستويات وكسبها إلى العمل الايجابي، لا مجرد انتظار قدوم راغبي الانتفاع؟

ولكن الواقع أن الاتحاد القومي نفسه تشكيل لم يكتمل وجوده أبداً، بدليل أن لجنته العليا وما يتفرع عنها لم تتشكل قط...

الاتحاد الاشتراكي

ولقد آن الأوان، إلى جانب هذا كله، أن يكسب التنظيم الشعبي صفة «الوضوح النظري» وصفة التأكيد على المبدأ الذي يعمل على تطبيقه... وبالتالي آن الآوان أن يتغير اسمه من «الاتحاد القومي» إلى «الاتحاد الاشتراكي»...

والمسألة ليست مجرد تغيير اسم كما يغير الفرد اسمه في المحكمة من محمد إلى محمود. كلا. إنما المسألة هي: أن التنظيم الشعبي يجب أن يحمل الشعار الذي يؤمن به ويعمل له وينتمي إليه. ويجب بالتالي أن يكون أكثر تحديداً في العناصر التي تدخل فيه وفي المهمات التي يضطلع بها.

وقد كنت على وشك أن اقترح أن تضاف إليه كلمة الاشتراكي فيصبح اسمه «الاتحاد القومي الاشتراكي»، لولا أنه قد سبق في قاموس السياسة تعبير «الاشتراكية الوطنية» الزائف الذي أصبح علماً على النازية، التي كانت في صميمها تخدم الرأسمالية والاحتكار والدكتاتورية. فمن الأحسن هنا أن يكون اسمه «الاتحاد الاشتراكي» مباشرة.

إنه «اتحاد قومي» بمعنى أنه يضم كل العناصر والفئات ليذيب متناقضاتها في إطار من الوحدة الوطنية.

ولكنه «اتحاد اشتراكي» قبل كل شيء، فهو يضم كل الفئات والعناصر لكي يقودها إلى الاشتراكية بالذات، وهو يذيب متناقضاتها في الاتجاه الاشتراكي بالذات.

تعبير «اتحاد قومي» قد يكون أدق في وصف ما هو كائن الآن بالفعل من حيث الأمر الواقع، ولكن هذا الأمر الواقع هو بالذات ما نريد تغييره. أما تعبير «الاتحاد اشتراكي» فهو أدق في وصف ما سوف يكون أو ما ينبغي أن يكون. هو تعبير أدق في وصف رسالته. ومن الخير أن يرتبط ـ حتى في الاسم ـ برسالته وغايته، لا بحاضره الذي يريد تطويره!

١٤ ـ مـرة أخـرى. . الاتحــاد القـومي يجب أن يتحــول إلى الاتحـاد الاشتراكي(*)

كتبت يـوم السبت الماضي في أخبـار اليوم داعيـاً إلى أن يتغـير اسم «الاتحـاد القـومي» بمناسبة المؤتمر الوطني المقبل إلى اسم «الاتحاد الاشتراكي».

وقلت:

«إن المسألة ليست مجرد تغيير اسم. إنما المسألـة هي أن التنظيم الشعبي يجب أن يحمـل الشعار الـذي يؤمن به ويعمل له وينتمي إليه. ويجب بالتالي أن يكون أكثر تحديداً في العناصر التي تدخل فيه وفي المهمات التي يضطلع بها.

«وإنه اتحاد قومي بمعنى انه يضم كل العناصر والفئـات ليذيب متنـاقضاتهـا في إطار من الـوحدة الـوطنية. ولكنـه (اتحاد اشـتراكي) قبل كـل شيء، فهو يضـم كـل الفئات والعنـاصر ولكن لكي يقودهـا إلى الاشتراكيـة بالذات ولكي يذيب متناقضاتها في كيان اشتراكي بالتحديد.

«تعبير اتحاد قومي قد يكون أدق في وصف ما هو كائن الآن بالفعل من حيث الأمـر الواقـع، ولكن هذا الأمر الواقع هو ما نريد تغييره. أما تعبير «الاتحاد الاشتراكي» فهو أدق في وصف ما سـوف يكون أو مـا ينبغي أن يكون. هو تعبير أدق في وصف رسالة. . ومن الخير أن يرتبط ـ حتماً في الاسم ـ برسالة وغاية، لا بحاضره الذي نريد تطويره».

وأريد أن أقف اليوم قليلاً عند هذه النقطة مرة أخرى.

الأسماء المزيفة

طبعاً، من الممكن أن يقال إن الاسم في حـد ذاته ليس هـاماً. فهنـاك حركـات حملت اسم الاشـتراكية ولم يكن لهـا من الاشتراكيـة نصيب، بل كـانت أعتى خصم لـلاشـتراكيـة، كالحزب الوطني الاشتراكي الهتلري الذي عرف باسم النازي، والذي قام على أساس تضليل

(*) الأخبار، ١٩٦٢/٤/٣٠.

الجماهير باسم الاشتراكية لضرب الاشتراكية ولتدعيم وحماية الإقطاع الزراعي العريق والاحتكارات الصناعية الكبرى، أو الحزب الاشتراكي الهندي الذي انحرف إلى اتجاه يميني، بحيث أصبح حزب المؤتمر الهندي ـ الذي لا يسمى اشتراكياً ـ أكثر يسارية منه، في قيادته على الأقل!

وبالعكس فإن هناك حركات اشتراكية لا تحمل اسم الاشتراكية كالحزب الديموقراطي الغيني (حزب سيكوتوري) أو حزب العمال البريطاني.

. . . إلى آخر الأمثلة التي يمكن سردها في هذا السبيل.

ولكن هذه الحجج كلها مردود عليها.

فكل هذه الأمثلة استثناءات، أما الأغلبية الساحقة من الحركات الاشتراكية فهي تحمل اسم الاشتراكية. وهذا هو الوضع الطبيعي والمنطقي. أما عن الأحزاب التي تحمل اسم الاشتراكية زيفاً وبهتاناً، فهي ليست حجة، لأن التزييف أمر تتعرض له عادة كل الشعارات وكل الدعوات في جميع الظروف. وتمسُّك التنظيم السياسي بالاسم الذي يعبر عن محتواه الحقيقي لا يسهِّل بالتأكيد مهمة المزيفين ولكنه قد يزيدها صعوبة.

ومع ذلك، فإنني أول من يعترف بأن مجرد تغيير الاسم ليس في حد ذاته شيئاً كبيراً. وهو أمر لا قيمة له ما لم يكن علامة على تغيير أعمق وأشمل، تغيير يتناسب مع الثورة التي طرأت في بلادنا بين تاريخ مولد فكرة الاتحاد القومي لأول مرة في دستور سنة ١٩٥٦ وبين سنة ١٩٦٢.

ماذا حدث في ٦ سنوات؟

فحتى سنة ١٩٥٦ بل وإلى ما بعدها بفترة من الوقت، كان طابع المعركة التي نخوضها هو الطابع القومي. كانت معركة ضد الاحتلال العسكري والاستعمار الاقتصادي والأحلاف العسكرية وشتى صور النفوذ الأجنبي. وكلما كان انتصارنا في هذه المعركة ينمو ويرسخ، كان فجر الثورة الاجتماعية يزداد ظهوراً واقتراباً، إلى أن ملأت شمسها كبد السماء بقوانين يوليو سنة ١٩٦١ . . .

بهذه القوانين تحددت المهمة بشكل نهائي، واكتملت ملامح الصورة التي يسعى المجتمع إلى تحقيقها. وأصبح من المنطقي أن يقال إن الاشتراكية لا يمكن أن يبنيها ويحرسها ويطورها إلا اشتراكيون. . .

صحيح أنه لا يمكن القول إن لدينا وفرة من الاشتراكيين الذين يمكن أن يحملوا المسئوليات كاملة في جميع المجالات. ومن غير المعقول أن يقال لثورة ما أن تتوقف إلى أن يتم (صنع!) الاشتراكيين ثم نبدأ في بناء الاشتراكية. ولكن المعقول واللازم هو: أن نسرع ـ ونحن نبني الاشتراكية ـ في بناء الاشتراكيين أنفسهم!

وكيف يمكن أن يتم بناء الاشتراكيين، إلا في تعليم اشتراكي بالذات!

الاشتراكية (المفترضة)

إن التنظيم الشعبي «يفترض» أن من ينضم إليه ويعمل في صفوفه لا بد أن يكون اشتراكياً، بحكم وضعه الطبقي ومصلحته أو بحكم ثقافته أو بحكم استعداده للتجاوب مع الأهداف العامة للمجتمع الاشتراكي.

ولكن هذه الصورة «المفترضة» قد تكفي المواطن العادي في بعض المراحل، ولكنها لا تكفي للعضو العامل في التنظيم الشعبي، الذي يجب أن يكون «قيادياً» في مستواه وفي البيئة التي ينتمي إليها. هذا العضو العامل يحتاج إلى درجة أعلى لن تتوفر إلا إذا تبلورت داخل التنظيم الواسع نواة نشيطة مناضلة تؤثر وتتأثر، تدرب وتتدرب، وتبث في التنظيم الواسع المتكون على أساس الانتخاب صفات التنظيم الحزبي الذي يقوم على أساس الامتحان والتجربة والانتقاء. . .

الدراسة النظرية والتدريب العملي

وحين نفكر في أي الأساليب يمكن أن تخلق لنا عناصر اشتراكية واعية صلبة قادرة، نجد أن كل الوسائل تندرج تحت عنوانين اثنين:

- الدراسة.

- والتدريب. . .

الدراسة. . لها مستويات كثيرة. . .

- فهناك فكرة إنشاء معهد للأبحاث الاشتراكية. وهو ليس معهداً لإعطاء الشهادات وتخريج الطلبة والطالبات، ولكنه معهد للقيام بأبحاث نظرية وتطبيقية حول واقعنا المحلي وتأثره بالخطوات الاشتراكية واستنباط النتائج ودراسة المشكلات على الطبيعة في بيئتها، إلى جانب أبحاثه في تجارب البلاد الاشتراكية الأخرى، وفي ظروف البلاد المهيأة لمثل تجربتنا كالبلاد العربية. . . وأبحاثه في أثر احتكاك تجربتنا بالتيارات السياسية والاقتصادية العالمية. . .

إنه معهد كل رسالته تكوين مجموعات باحثة تنشر أبحاثها ووثائقها لتنير ذهن المشغولين بالتنفيذ في شتى القطاعات.

والشباب الذين يلتحقون بمثل هذا المعهد لا يحصلون على شهادات مقابل امتحانات يؤدونها، ولكن لأنهم اشتركوا في أبحاث ودراسات معينة، الأمر الذي يكون بمثابة تدريب وإعداد لهم. . .

- وهناك فكرة إنشاء معاهد أخرى مفتوحة للدراسة يلتحق بها الشباب والعمال والموظفون والفنيون.

ـ وهناك حلقات الدراسة والتوعية التي تنظم في مقر النقابات والجمعيات التعاونية وكل المجالات الممكنة بصورة بعيدة عن صورة «المحاضرات» أو «المقررات» المعيّنة.

ـ وهناك خلق مجالات المناقشة والجدل داخل الجهاز الشعبي في شتى اللجان والمكاتب.

أما التدريب، فهو الامتحان الحقيقي الذي يكوّن العناصر الاشتراكية الحقيقية... فالتدريب هو الذي ينقل الدراسة والوعي من العقل إلى الدم والأعصاب والأخلاق والصفات!

والحركات الاشتراكية حين تكون في المعارضة يكون تدريب أفرادها هو مواجهة ظروف المعارضة والنضال الصعب. أما حين تكون في الحكم فالتدريب هو «زج» أفرادها في مهمات بين جماهير الشعب، سواء كانت مكافحة الدودة أو البلهارسيا أو محو الأمية أو العمل داخل النقابات والجمعيات التعاونية. المهم هو «زجهم» في مجال العمل الإيجابي بين الجماهير لينجح من ينجح ويفشل من يفشل ويتراجع من لا يجد الطريق ملائماً!

١٥ ـ البحث عن النغمة الصحيحة في الحل العسكري وفي الحل السياسي في علاقاتنا مع روسيا وعلاقاتنا مع أمريكا(*)

تحدث جمال عبد الناصر في خطاب ٢٣ يوليو عن ضرورة العثور على «النغمة الصحيحة»، وكان هذا في مناسبة فرعية هي حديثه عن الاذاعة والتليفزيون.

وقد جرت في بلادنا في الأسابيع الأخيرة مناقشات سياسية واسعة، اتسمت أحياناً بالحدة وتبادل الاتهامات، عن الحل العسكري والحل السياسي، عن روسيا وأمريكا، عن الاشتراكية والديمقراطية، وعن كل شيء في حياتنا تذكرته المناقشة.

ومرة أخرى، يشعر المرء أننا في هذه المناقشات محتاجون، بدرجة أشد، إلى العثور على «النغمة الصحيحة» في المناقشة بغية الوصول إلى «الخط الصحيح».

وليس البحث عن «النغمة الصحيحة» محاولة للعثور على «حل وسط» بين آراء متناقضة، فالمسألة هي الوصول إلى «موقف صحيح» لا إلى «موقف وسط». ولا هو دعوة إلى وقف الجدل والخلاف وعزف أنشودة واحدة. المقصود فقط أن ينقّى الجدل من الشوائب التي تفسده وتجعل الناس تنصرف عن الأسس إلى الفرعيات، وأن يركز الجدل على الأهم قبل المهم.

إن هذه المرحلة مرحلة اتخاذ قرارات حاسمة. إنها أهم نقطة تحول حافلة بالاحتمالات، مشحونة بالأخطار، مرت بها البلاد منذ أجيال. النكسة حقيقية وعميقة وظلامها كثيف. ونحن إما أن نركب موجتها السوداء ونتخطاها وإما أن تطوينا إلى القاع. ولا أظن أننا بحاجة إلى من يقف وسط المناقشات ويذكرنا بأن: فيليب على الأبواب!

والمناقشات التي جرت سرى فيها خط نفسي غريب، قد لا تلحظه العين لأول وهلة ولكنه حقيقي، هو الذعر. كل واحد مستعد لأن يفسر كل كلمة تقال إلى آخر حدودها. كل

(*) المصور (٢٥ آب/ اغسطس ١٩٦٧).

واحـد يخاف من أي لفتـة أن تكون انحـرافاً كـاملاً، وهـذا عارض طبيعي في هـذه المرحلة. ولكن ليس فيه ما يجب أن يتوفر لنـا من ثبات الأعصـاب. وهذه أيضـاً حالـة نفسية يجب أن نتخطاها، حتى تكون لنا نفسية نتخطى بها الأزمة.

إن هذه المناقشات هامة لأنها تساعد على تحديد المواقف واستجلاء شتى وجهات النظر. وهي هامة في مصـير الرأي العـام وتثقيفه. وهـذه نقطة بـالغة الخـطورة. ومنذ وقـوع النكسة كتبت أول ما كتبت عنها. . اننا في حاجة إلى رأي عام قـادر على الصمـود. ولا يكون الـرأي العام قادراً على الصمود بالحماسة المطلقـة ولا ببيانـات التشجيع. فـالحماسـة السطحيـة سهلة الكسر، لا تتحمل صدمة واحدة. ولكننا محتاجون إلى رأي عام حماسته لهـا أعماق، لأن هـذه معركة فيها صعود وهبوط، فيها خطوط مستقيمة وخطوط متعرجة، فيها صدام وفيها مناورة، فيها مواجهة وفيها التفاف. وإذا لم يكن الرأي العام مدركـاً لهذا كله بـأضوائـه وظلالـه، فهو يمكن أن ينكسر عند أي منحن. ويمكن أن ينكسر إذا اتسعت المسافـة بين الكـلام والواقـع، يمكن أن ينكسر إذا تكرر وضعه في الساخن والبارد.

وأستـأذن القارىء أن أضرب مثـلاً من أمثلة البعد عن النغمـة الصحيحـة في الحـوار، يخص هذه المجلة. أولاً إنه حول مقال أحب أن أرد عليـه في إيجاز. وثـانياً لأنـه يعطينـا المثل المطلوب.

فآخر رد حول قضية «الـدولة العصريـة والمجتمع العصري» التي أثـرتها عـلى صفحات هذه المجلة، كان الرد الذي نشره الدكتور فؤاد مرسي في مجلة روز اليوسف.

بأي روح رد الدكتور فؤاد مرسي على ما نشر في هـذه المجلة؟ لا بروح الخـلاف والنقد ولا بروح الإضافة والتعديل، ولكن بروح التجريح المبـاشر. يشرح روح الرد قـوله: «ودعـاة الدولة العصرية والثورة التكنولوجية والتقدم الحضاري من الذكاء بحيث لا يتورطـون في الدفـاع عن الرأسـمالية ولا في الدعوة إليها. لكنهم في الوقت ذاته لا يدافعـون عن الاشتراكيـة ولا يجددون الـدعوة لهـا، وإنما يـتركون الأمور من أجل حل وسط. . هذا الحل الوسط الذي يتم الترويج له حالياً هو ما يسمى برأسمالية الدولة».

طبعاً يمكن الرد على هذا الكلام ودحضه بأي حجة واحدة يختارهـا صاحب المقـال من هذه الحجج:

١ ـ إنه يقول في أول مقاله: «. . . أبادر فأقول إنه لا خلاف اطلاقـاً على ضرورة إقـامة دولـة عصرية تستعين بآخر منجزات الثورة التكنولوجية وتقضي على تخلفنا الحضـاري، فقد أصبـح من المسلمات اليوم ضرورة أن نعيش في عصرنـا». إذن فهـو يسلّم بـأن المـوضـوع ضروري وهـام. فلماذا إذن يغضب حـين يتحدث كاتب عن موضوع ضروري وهام؟ ولماذا هذه النفسية، نفسيـة البحث عن الثعابـين في كل تربة طيبة؟!

٢ ـ إنـه في فقرة أخـرى يقول: «بينـما يعلن الشعب العامـل حرصـه على مـواصلة السير في طـريق الاشتراكية، تتلمس بعض القوى طريقها لإعادة البنـاء من خلال إقـامة مـا يسمى بالـدولة العصريـة أو الثورة التكنولوجية والتغلب على ما يسمى بالتخلف الحضاري». فهو فضـلاً عن أنه بـذلك ينـاقض ما سجله من أهمية هذه الأمور، يقع في الخطأ الصارخ: إنه يجعل الاشـتراكية في اتجـاه، والتكنولـوجية

والحضارية في اتجاه آخر، إما هذا وإما ذاك، وكأنهما قطبان متعارضان. في حين أن ما أردت أن أقوله بالضبط إن هذه الصفات مكملة للاشتراكية ولازمة لها، وإنها منطقية مع الاشتراكية بالذات، «لأن الاشتراكية هي الأكثر استعداداً وتهيؤاً لهذا المنطق العصري». كما قلت بالحرف الواحد. . .

وروي أنه قال لبودجورني إننا لم نفكر في أن يأتي الجيش السوفييتي ويحارب عنا هنا، أي أننا نعرف حدود تصرف كل دولة، حتى الصديقة لنا، ونظرتها إلى الاستراتيجية العالمية من الزاوية التي تراها. وهاجم الصلف الأمريكي ودعا إلى النضال الذي ليس أمامنا سواه، فسجل بذلك أن القضية التي ستؤثر في النهاية على صداقة الأصدقاء وخصومة الأعداء هي قدرتنا على الصمود والنضال.

نحن لسنا في هذا المعسكر أو ذاك، ولا نريد أن نكون في هذا المعسكر أو ذاك، لأن هذا جزء من جوهر قضيتنا. ولكن هذا لا ينفي أن لنا حلفاء وأعداء. ولا يجب أن يميع الفرق بين الحلفاء والاعداء. الحلفاء حلفاء، يمدوننا بالسلاح وبالتأييد السياسي، وهذا كسب كبير، حتى وإن كانت آراؤهم لا تطابق آراءنا، والأعداء أعداء.

والنضال السياسي والعسكري لا يغفل «علاقات القوى» بينه وبين أصدقائه أو بينه وبين أعدائه، أو بين القوى الكبرى في العالم بوجه عام، والأثر الكبير لهذه العلاقات على الموقف في بلادنا.

ولكن حتى البحث في علاقات القوى أحياناً يصبح بحثاً نظرياً، ولا يبقى سوى شيء واحد، هو إرادة القتال: كما في حالة الاحتلال الأجنبي.

حين يكون هناك شعب تحتل أراضيه أو جزءاً منها قوة أجنبية، هل أمام هذا الشعب إذا فشلت سائر السبل حل آخر إلا القتال ضد الاحتلال؟

في مثل هذه الحالة السافرة لا يفكر الشعب ـ أي شعب ـ في علاقات القوى، وإنما يفكر في شيء واحد هو أن عليه أن يقاتل ضد الاحتلال.

شعب الجزائر لم يفكر في علاقات القوى مع فرنسا. شعب عدن والجنوب لا يفكر في علاقات القوى مع انجلترا. شعب مصر لم يفكر في علاقات القوى مع انجلترا. فالقتال هنا يصبح في مستوى الضرورة والحتمية التي لا مخرج منها.

١٦ ـ معنى «عبور قواتنا قناة السويس»(*)

شهد هذا الأسبوع تصعيداً شديداً في القتال على طول قناة السويس من جهة، وعلى طول نهر الأردن من جهة أخرى. . .

والتصعيد الشديد الذي شهد هذا الأسبوع دليلاً آخر عليه، ليس في مجرد حجم العمليات وعدد ساعات الاشتباك وقوة القصف وحدها، ولكن التصعيد الأخطر هو في **«عمليات العبور» التي تكاد تمحو فكرة أن الخط المائي في قناة السويس وفي نهر الأردن هو «حاجز طبيعي» بين الفريقين المتقاتلين. إن الاشتباك الآن يدور وجهاً لوجه متخطياً هذا الحاجز المائي هنا وهناك، الأمر الذي يجعل احتمال اتساع دائرة الاشتباك وتحولها إلى اشتباك عام، رغم الحاجز المائي، أمراً ممكناً. . .**

هذا النوع من «التصعيد» يقضي على حجة أخرى من حجج الذين يحاولون أن يقولوا في العالم الخارجي إن الموقف غير متفجر، وإن الحرب لا يمكن أن تنشب من جديد قبل مضي سنوات طويلة، وإن المجرى المائي في قناة السويس والمجرى المائي في نهر الأردن، كلاهما حاجز طبيعي يحول دون وقوع اشتباك خطر في وقت قريب. . .

وإسرائيل ـ في العالم الخارجي ـ هي في مقدمة الذين يحاولون تغذية هذا الاحساس بأن الموقف يمكن أن يتجمد على هذا النحو لسنوات طويلة. تحاول أن تغذي هذا الاحساس تارة بالتصريحات التي تقول ذلك، وآخرها قول أبا إيبان إن الحرب لن تقوم قبل مائة سنة، وتارة بالاشتراك في مؤامرة السكوت التي تساهم فيها دول أخرى أجنبية بتجاهل أنباء القتال والمقاومة أو التقليل منها، كشكل من أشكال الضغط.

(*) المصور (٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٦٩).

ويحدث كثيراً في البلاد العربية أن يتناقش الناس: هل الوقت في مصلحتنا، أو في مصلحتهم؟ . . .

وليست القضية - في فهم موقف إسرائيل - أن ننظر إلى الأمر بتفكيرنا نحن، ولكن أن نتصوره بتفكيرهم هم. والذي لا شك فيه أنهم يلعبون على عنصر الوقت، معتقدين أنه في مصلحتهم.

وهم يبنون حساباتهم هنا على عدة اعتبارات:

أولاً - اعتقادهم أنه يمكنهم مع الوقت إيجاد أمر واقع تصبح زحزحته مستحيلة. وقد رأيت بعيني - على شاشات التليفزيون خلال رحلتي الأخيرة إلى الخارج - مشاهد حية للمستعمرات الزراعية التي يقيمونها بالفعل في الجولان، والضفة الغربية . . . والتغييرات التي يسرعون في إدخالها في القدس والخليل وغيرهما . . . مبانٍ تُنسف ومبانٍ تقام. مزارع تُستصلح. مياه تُمد وماشية تربى وبيوت ومساكن تُنشأ وأسر تهاجر وتنتقل وتقيم. والصور الدالة على نوع الأمر الواقع الذي يريدونه كثيرة ومتعددة.

ثانياً - اعتقادهم أنه يمكن تعويد الرأي العام على الخريطة الجديدة التي رسموها بانتصارهم العسكري في ٥ يونيو، وأن تبعد الشقة بين الجانب الواقعي من القضية وهو وجودهم حيث هم والجانب النظري من القضية وهو القرارات والبيانات والتوصيات التي يمكن أن تتراكم كما تراكم غيرها من قبل في العشرين سنة الماضية، وبعدها، حتى إذا أعلنوا قبولهم الانسحاب من بعض المناطق يبدو الأمر وكأنه تساهل شديد منهم.

ثالثاً - انتظارهم التطورات الدولية بصبر. فلا شك أن قضية بهذه الحساسية وفي مثل هذه المنطقة متأثرة بخريطة الأحداث الدولية. وهم بهذا الصبر ينتظرون ما قد يناسبهم. فماذا عن العلاقات الروسية - الأمريكية؟ ماذا عن العلاقات الروسية - الصينية؟ ماذا عن المشاكل الكبرى الداخلية في المعسكر الغربي وفي المعسكر الشرقي وفي الولايات المتحدة بالذات؟

رابعاً - وهذا عنصر يأتي في الواقع في مقدمة تقديراتهم: إنهم ينتظرون بصبر ما يتوقعونه من تقلصات داخل الجبهة العربية ذاتها. ماذا يفعل الملل؟ ماذا يفعل التوتر؟ . . . ماذا يفعل انشغال هذا البلد العربي أو ذاك بقضاياه الداخلية ومشاكله؟ . . .

وفي تقديري ان هذا العنصر الرابع هو أهم العناصر التي تعتمد عليها إسرائيل. وهو - لحسن الحظ - عنصر في أيدينا نحن العرب، وإن كان يحمّلنا مسؤولية خطيرة، ليس أخطر ما فيها مواجهة النفس بالحقيقة.

فما زال الكثير من عادات الأمة العربية في العمل والتفكير والكلام - وآه من الكلام - هي نفس العادات قبل ٥ يونيو. . .

وما زال الكثير من صحف البلاد العربية تتسابق في التهييج والإثارة واستخدام أكبر قدر من المواد التي تلهب أعصاب الناس بغير مسئولية أو حساب.

وما زال الكثير من الأقطار العربية، يلحظ المرء من زيارته أو من متابعة أخباره، أن المواجهة مع إسرائيل ليست هي بؤرة الفكر والعمل، وليست هي جوهر الهم والاهتمام، وليست على مكانها الصحيح في قلب خريطة العمل السياسي وعلى رأس أولوياته.

وما زال «إبراء الذمة» نحو القضية هو لدى الكثيرين بديل عن العمل الدءوب الحقيقي لخدمة القضية...

على أن ضجيج المعركة الحقيقية هو الذي يجب أن يحسم كل شيء. هو الذي يجب أن يسقط أمل إسرائيل في تجميد القضية. وهو الذي يقرع أسماع العالم الخارجي. وهو الذي ننتظر أن يقرع أسماع العرب، كل العرب، قبل أن يقرع أسماع العالم الخارجي.

١٧ ـ لماذا شرم الشيخ؟(*)

إذن، فقد اضطرت إسرائيل أن تكشف الحجاب بشكل رسمي وتعلن أنها تطمع جدياً في قطعة من سيناء.

وحتى في هذا، ما زالت تحاول كالعادة أن «تروض» الرأي العام العالمي على تقبّل الأطماع الغريبة عن طريق إطلاق «بالونات» الخلاف. فنجد عازار وايزمان قائد الطيران السابق وعضو حزب حيروت حالياً يفضل أخذ قلب سيناء حتى ممر متلا وجزء من شاطئها الشمالي، لأن ما يهمه هو درء أي خطر مصري لقرن كامل مقبل. ونجد موشي ديان يفضل أخذ شرم الشيخ وشريط عريض على الساحل يفصل مصر فصلاً تاماً عن خليج العقبة وفرع البحر الأحمر الشرقي بأكمله.

وإسرائيل تستهدف بهذا كله أهدافاً أخرى، غير مجرد «الأمن» بالمعنى المحدود لكلمة «الأمن»: أي ألا تتعرض لعدوان من أحد لأن إسرائيل تعرف جيداً ما قاله الرئيس الأمريكي نيكسون بنفسه علناً: من أن الضمانات الدولية المعروضة عليها توفر لها من الأمن ما لا توفره أي حدود.

فمتى كانت الحدود، مهما كانت منيعة، حائلاً دون نشوب الحروب؟....

منذ آلاف السنين والغزاة، حتى على الأقدام أو على ظهور الإبل، عبروا سيناء عشرات المرات، وعبروا سهول سيبيريا وثلوجها، وعبروا جبال الألب، وعبروا البحار والمحيطات.

إنما الحروب تقوم حين يشعر طرف أن لديه قضية تستحق أن يحارب من أجلها، وأن لديه القدرة على تحقيقها بالقوة.

(*) الأهرام، ١٩٧١/٣/١٢.

إسرائيل إذن لا تطلب الأرض الجديدة للأمن، ولكنها تطلب أرضاً جديدة تمهيداً.

«إننا لن نستطيع البقاء في مصر إلى الأبد. وقد تمخضت السنوات الأخيرة عن مولد قوميتين: القومية اليهودية والقومية العربية. وإذا نجح اليهود في مشروع هجرتهم فسيكون عليهم أن يعملوا على توسيع رقعتهم ولن يكون ذلك إلا على حساب العرب. ومعنى ذلك سفك الدماء. إننا لن نستطيع أن نكون أصدقاء اليهود والعرب في نفس الوقت. ولذلك يجب أن نتردد في مصادقة الشعب الذي يدين لنا بالكثير ويمكن أن يكون مخلصاً لنا وهو الشعب اليهودي. ولكن مصر بحكم وضعها ستكون العدو المستقبل للدولة اليهودية.

«وأصل الآن ـ يستطرد صاحب الخطاب ـ إلى مركز فلسطين بالنسبة لمصر. إن امتيازنا في قناة السويس سينتهي بعد ٤٧ سنة «سنة ١٩٦٧» وهناك احتمالات كثيرة بأن نفقد مركزنا أيضاً في الشرق الأوسط. فلو استطاعت انجلترا من الآن أن تضم إليها سيناء فسوف تجني المزايا الآتية: ١ ـ تقيم منطقة فاصلة بين مصر وفلسطين اليهودية. ٢ ـ يمنح هذا الوضع انجلترا مركزاً قوياً في شرق البحر المتوسط وفي البحر الأحمر معاً. ٣ ـ ويمنحنا ذلك قاعدة استراتيجية يمكن بموافقة اليهود أن نقيم فيها أفضل ميناء في المنطقة، الأمر الذي يجعلنا نتمكن من إحباط أي خطوة مصرية ضدنا في القناة، كما يتيح لنا عند اللزوم حفر قناة موازية تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض. ٤ ـ لا يمكن أن تقوم أي مشكلة قومية في سيناء لأن أهلها بدو رحل ولا يتجاوز عددهم بضعة آلاف».

ولا أريد أن أنشر الرسالة التي تبلغ من العمر خمسين عاماً بكاملها، ولكن أضيف فقط أنها تتحدث بمنطق سنة ١٩٢٠ عن أن «العرب» تعبير يقصد به عرب المشرق فقط، وأن «المصريين» أمة مختلفة لا صلة لها بالعرب... وأن الخطاب مليء بالمقارنات بين اليهود و«العرب» بهذا المعنى، وكيف أن القومية التي سيكتب لها النمو والقوة هي القومية اليهودية بينما القومية العربية ـ لأن أصحابها بدو في رأي صاحب الرسالة ـ لن يكتب لها إلا أن تظل هزيلة مفككة «لن ينتج عنها إلا بعض النماذج المتأثرة بالرومانتيكية وسكون الصحراء» كما يقول. وهو بالتأكيد حكم ساذج ثبت بطلانه.

إن من يقرأ هذه الرسالة يجد فيها عدداً غريباً من النبوءات المذهلة، مصدرها ولا شك دهاليز الفكر الصهيوني ومخططاته والفكر الاستعماري في ذلك الوقت معاً...

والخطط الواسعة لا تنقلب بسرعة. إنها تتعدل ولكنها لا تختفي بسرعة كتلال الرمال المتحركة.

كانت قناة السويس مثلاً هي الدرّة الثمينة التي يريدها الغرب. الآن أصبح البترول. وأصبحت قيمة قناة السويس في ارتباطها بالبترول إلى حد كبير.

وحين نقرأ تصريح إيجال اللون، نائب رئيسة وزراء إسرائيل، منذ أيام ونجده يقول:

«إن هناك خلافات بيننا وبين أمريكا، ولكننا سوف نتمكن من إقناعها بأن ما نسيطر عليه الآن من مواقع استراتيجية هامة، إنما يهم «العالم الحر» كله».

ألا نحس ونحن نسمع هذا التصريح، ونتأمله، أننا إنما نسمع رجع الصدى للرسالة القديمة التي تلقاها لويد جورج من ضابط مخابراته في جيش اللنبي منذ خمسين سنة؟...

ألا نحس أن تقارير إسرائيل، ومن تتعامل معهم من أجهزة غربية، وأمريكية في الدرجة الأولى، إنما تتحدث عن نفس الهواجس والإغراءات والمخططات؟

إنها إذن ليست صخرة شرم الشيخ وحدها. وليست «ضمان الملاحة إلى ميناء العقبة» على الإطلاق. ليس هذا ما يمكن أن يقال عنه إنه «يهم العالم الحر كله!» ولكنه الأشياء الأخرى المتعلقة بمصير العالم العربي كله.

وإسرائيل تتقن فن صرف العقل العربي إلى الجزئيات، بينما هي تخطط للأساسيات. تخطط لعشرات السنين...

إن «قومية المعركة»، تلك الصيحة التي لا نعرف متى ستتحقق، معناها أن نفهم قيمة كل «صخرة» في الوجود القومي العربي كله...

وليس معناها أن «نفهم» فقط. ولكن: أن نستخلص من هذا الفهم نتائجه وأن نتصرف بناء عليه...

وألا ينتظر كل عربي حتى يدق الخطر بابه شخصياً!

١٨ ـ خواطر ليلة ٥ يونيو(*)

بعد هزيمة ٥ يونيو، كان السؤال الرئيسي الذي طرح على ضمير الشعب هو: هل سبب هذه الهزيمة الصاعقة، سبب عسكري فقط، محصور في اطار ما حدث في جبهة القتال بين جيشين متحاربين؟ أم أن لها فوق ذلك أسباباً داخلية، تمس نظام حياتنا كله؟

وقد احتدم يومها الجدال، ولكن غبار هذا الجدل لم يلبث أن انقشع عن اقتناع عام بأن الهزيمة كانت لها أسباب أبعد من الأسباب العسكرية. . .

الأسباب العسكرية ذاتها موجودة بالطبع. ولو كان القتال قد جرى بأسلوب آخر واحتياط آخر وقيادات أخرى، لكان ممكناً على الأقل إيقاف الهجوم الإسرائيلي ـ يوم صدور قرار وقف إطلاق النار ـ في مكان ما من سيناء، وليس عند حافة قناة السويس مباشرة. ولكن البحث العسكري ليس من شأننا، وإن كان لا بد من القول إن كل الحقائق التي ظهرت بعد ذلك أثبتت أن قواتنا المسلحة لم يتح لها حظ خوض معركة حقيقية كان ممكناً أن تخوضها، وإن أوضاع القوات المسلحة في النهاية ـ خصوصاً في مستوياتها العليا ـ هي امتداد لأوضاع البلاد الداخلية. فإذا كانت روح الحياة العامة في الداخل تقوم على تحكم مراكز القوى، ووضع المسئوليات في أيدي غير المسئولين رسمياً أمام الناس، وتغليب العوامل الشخصية والشللية على عوامل الموضوعية والكفاءة والقيام بالواجب، فإن هذه الروح لا يمكن إلا أن تمتد إلى أمور القوات المسلحة، وإذا كانت تستشري في مؤسسات الداخل فلا يمكن إلا أن يصل غبارها إلى أهم المؤسسات وأقدسها وأجدرها بالبعد عن هذا وهي القوات المسلحة.

من هنا، استقر في ضمير المواطنين أنه رغم الأهمية البالغة ـ والأولى ـ لإعادة بناء القوات المسلحة، لأنها الدرع الأولى الواقية إزاء الخطر المباشر ولأنه بغير جيش يحمي لنا

(*) الأهرام، ١٩٧٢/٦/٤.

الوطن الحر لا يكون هناك مجال للتغيير في هذا الوطن، إلا أن هذه ليست المهمة الوحيدة. ولكن هناك أشياء أخرى مطلوب تغييرها حتى نستكمل ـ حقاً ـ إمكانات المواجهة.

ومن هنا ارتفعت شعارات ونداءات «التغيير» وصدرت وثائق هامة ـ مثل بيان ٣٠ مارس ـ تعد بهذا التغيير، تحقق منها أشياء ولم تتحقق أشياء.

صوت المواطنين

ويمكن القول بأن النقاط التي دارت حولها المطالبة بالتغيير، واستقرت في ضمير التيار الأساسي من المواطنين كانت:

ـ **الديمقراطية بجناحيها:** المشاركة الشعبية الحقيقية، والضمانات التي تكملها سيادة القانون.

ـ **التخلص من أسلوب الاعتماد على مراكز القوى في ممارسة الحكم.** ومراكز القوى في فهمي لها صورتان: **الصورة الأولى:** أن يكون صاحب السلطة ـ على أي مستوى ـ في استطاعته اتخاذ قرارات تتجاوز سلطته لأنه زيد أو عبيد. **والصورة الثانية:** أن يكون صاحب السلطة الفعلية غير صاحب السلطة الشرعية الظاهر أمام الناس، والمتحمل للمسئولية بالتالي أمام المواطنين.

ـ **المشكلة التنظيمية:** ومعناها أننا نرتجل القرارات وربما نحاول أن نقوم بقفزات دون أن ندعم ذلك بنظم ومؤسسات وحقوق وواجبات وعلاقات لها ضوابط وروابط محددة.

ـ ما تؤدي إليه العوامل الثلاثة السابقة (عدم توافر المشاركة، والاعتماد على همسات أصحاب مراكز القوى من وراء ستار، وعدم توافر العقلية التنظيمية) ما تؤدي إليه من **عدم استخدام الموارد المتاحة واستثمارها استثماراً كافياً، والموارد البشرية بالذات.** فرغم أن لدينا في مستوى الخبرات الفنية ما يفوق عدداً ولا يقل نوعاً عما لدى إسرائيل إلا أنها تحقق ـ في مجال البحث العلمي مثلاً ـ ما لانحققه نحن، لأن هذه العوامل السابقة كانت تفعل فعلها في تبديد طاقاتنا البشرية، وكفاءاتنا الخلاقة، بالتقريب والإبعاد، والتدليل والتنكيل والفهم الضيق للولاء على أنه ولاء للشخص أو «للشلة» وليس الولاء للمبدأ أو الموقف أو القضية. فلم نحصل من كفاءاتنا على ما كان يمكن أن نحصل عليه. وتراكمت في بعض المرافق تلال من الأمية والسطحية والتخلف عن روح العصر، دفعنا ثمنها غالياً في صورة فاقد هائل من الوقت والجهد والثمار التي كان يمكن تحصيلها والتي لا تقدر بثمن.

ـ **التعبئة الجماهيرية:** وهي أننا جعلنا قضية التحول الاشتراكي قضية إدارية تمارسها وتهيمن عليها السلطة التنفيذية، ولم نضف إلى السلطة التنفيذية الطاقات الجماهيرية والشعبية بحيث تعطيها حرارة وحيوية، وتجعل هذه الجماهير تشعر: بمكاسبها، حريصة عليها، مدركة لمسئولياتها نحوها. وكانت التعبئة الجماهيرية في أحسن صورها تأخذ مظهراً سلبياً يقتصر على التأييد والهتاف، وليس على المشاركة المنظمة.

ـ التركيز على الجانب المادي في التنمية وإهمال العنصر الإنساني. فلم يكن الجهد الذي بذل في توزيع الأرض على الفلاح والجهد الذي بذل في إقامة المصانع بالمئات، والمهمات الضخمة التي ألقيت على وطن القت الثورة على كاهله دوراً تاريخياً كبيراً، لم تكن هذه الجهود بقدر الجهود التي بذلت لخلق الجامعات العصرية، ولتوفير أحسن ظروف البحث العلمي، لتثوير التعليم، ولاستخدام إمكانات الثقافة العامة الهائلة في الارتقاء بذهنية المواطن مع الإرتقاء بحاجاته الأخرى.

ـ إن مصر وإن كان لها انتماء عربي أساسي، ودور عالمي، إلا أن الأعباء التي تتحملها في هذه المجالات يجب أن تكون في إطار إمكاناتها، ومن خلال أسلوب عمل جديد.

وبرغم سرد كل هذه الملاحظات السابقة، إلا أنه يجب أن نسجل، أن نقد التجربة، والتعمق في دراسة الأخطاء، يختلف عن اتخاذ هذه الانتقادات مركباً لهدم التجربة كلها، ولإهدار نضال ثمانية عشر عاماً منذ ليلة ٢٣ يوليو، أدى فيه هذا النضال إلى تحطيم امبراطوريات الاستعمار القديم في المنطقة كلها. وكان في موقع القيادة من حركة التحرر الوطني في العالم الثالث كله، وأدخل من التغييرات العميقة على صورة المجتمع المصري في الداخل، وعلى حجم الدولة المصرية في الخارج، ما لم يسبق له مثيل منذ عصر محمد علي الكبير.

. . . إن الثورات لا تجري في معمل وداخل أنابيب الاختبار. ولقد يبدو بعضها ـ على البعد ـ هكذا. ولكن الواقع غير ذلك. فالثورات مادتها البشر بكل ما فيهم من ضعف وقوة. ومادتها الهدم والبناء بكل ما يثيره هذا من غبار كثيف. وممارسة الثورة غير الكتابة عنها.

بل إن انجازات هذه الثورة وانطلاقاتها كانت بعض ما استدعى العدوان. تحالفت قوى عالمية عاتية لتضرب مصر عبد الناصر سنة ١٩٦٧، كما تحالفت أوروبا كلها لتضرب مصر محمد علي قبل قرن ونصف من الزمان. . .

وكان الحس الشعبي المرهف، هو الذي جعل الجماهير تردد كل هذه الملاحظات، وجعلها في نفس الوقت تقف يومي ٩ و١٠ يونيو رافضة الهزيمة، رافضة التفريط في الثورة، مصممة أن لا تعود إلى الوراء.

التيارات المعبِّرة

ولو أردنا أن ننتقل من هذه المطالب العامة، إلى التيارات التي حاولت، بعد ٥ حزيران/ يونيو، أن تعبر عنها، فإنه يمكن القول بأنه كانت هناك ثلاثة تيارات:

ـ **اتجاه يميني محض:** كان يرى أن الحل المطلوب ليس أقل من طرح تاريخ الثمانية عشر سنة طرحاً كاملاً من حساب البلاد، والعودة إلى ما قبل ذلك: اقتصاد فردي، نظام حزبي وعودة عن سياسة الاستقلال الوطني إلى أحضان المعسكر الغربي ورفض التحالف مع الاتحاد السوفييتي. . . إلى آخره. ونظر هؤلاء إلى هزيمة ٥ حزيران/ يونيو لا على أنها ضربة عنيفة

مهما كانت قد قادت إليها أخطاء ارتكبت إلا أنها ضربة وجهت إلى مسيرة التطور الوطني لنا في الأساس، ولكن على أنها كانت ـ الهزيمة ـ نتيجة منطقية لأسلوب العمل الوطني والاجتماعي ومعتقداته منذ ١٩٥٢.

وكان هذا التيار ينسى أن هزيمة سابقة ـ ١٩٤٨ ـ حدثت في ظل النظام الذي يتحدثون عنه، بل وفي ظل ولاء السلطة المصرية ـ والعربية ـ المطلق للغرب، وفي ظل وجود الانجليز في مصر والسودان وفلسطين ذاتها. وكان ينسى قيمة التحولات الكبرى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمت خلال ١٨ سنة، وجعلت لدينا كل البذور التي تؤهلنا للانطلاق الكبير: صناعة أساسية سبقنا فيها نظائرنا في العالم الثالث. تحول اجتماعي لمس حياة الملايين نتيجة القوانين الاشتراكية وغيرها. طبقة عاملة صناعية بمعنى الكلمة لأول مرة. مئات الألاف من الفنيين والخبراء وإن كنا لا نحسن استخدامهم بعد. وكأن هؤلاء فوق ذلك لا يدركون حقيقة الحلم الصهيوني. واننا لو لم نستفزه لكان استفزنا هو. وان حكام إسرائيل يتباهون بأنها الدولة الوحيدة التي تأسست دون أن ينص دستورها على حدودها الدولية، لأن حدودها لم تكتمل بعد. فالصدام كان حتمياً. ونظام الملك حسين الملكي الأتوقراطي، واقتصاده الفردي، وولاؤه الأمريكي لم يحل دون الاستيلاء على نصف مملكته الأخضر.

ـ **اتجاه نحو التجميد** والدفاع عن المرحلة بكل اخطارها والتشبث بكل مقوماتها، فلا تغيير ولا تبديل. وكان هذا التيار يتعلل أحياناً بضرورات المعركة (في حين أن ضرورات المعركة هي التي تقتضي التغيير) وأحياناً يتعلل بمنجزات الثورة الكبيرة (وكان هذا يحول دون إعادة النظر في العيوب والثغرات والأخطاء).

وقد كان هذا التيار يصدر بوجه عام عن الذين حققوا في ظل السنوات السابقة مراكز قوة أو امتيازات طبقية جديدة بشكل أو بآخر، فهم لا يريدون التفريط فيها. ومن الذين تعودوا أن تكون السلطة لا رقيب عليها ولا محاسب لها. ومن أصحاب المناصب والوظائف الذين تعودوا العمل وراء حماية من «عباءة الثورة» الواسعة.

ـ واتجاه ثالث، أزعم انه التيار الرئيسي للمواطنين، والمعبّر الحقيقي عن ضمير الشعب وهو المطالب بالتغيير انطلاقاً من المكاسب التي تحققت بالفعل والاحتفاظ بمنطلقات الثورة الأساسية التي كانت من صنعنا جميعاً، ثم الإقدام على عملية التصحيح والتغيير وسد الثغرات، على ضوء كل الملاحظات التي سردتها في أول المقال، فيكون تطورنا الوطني مرحلة بعد مرحلة متجهاً إلى الأمام، وليس متقطعاً، فيه التقدم خطوة والرجوع خطوات.

هذا التيار يريد أن يحتفظ بالاشتراكية مضافاً إليها المشاركة الشعبية، وسيادة القانون، ووضع أسس للشرعية.

ويريد الاحتفاظ بالاستقلال الوطني، وبالتحالف مع الاتحاد السوفييتي الذي له الدور الكبير في جعل الهزيمة غير نهائية، مضافاً إليه مزيد من القوة الذاتية التي تكسب لنا مزيداً من احترام الصديق ومن حساب العدو، لإرادتنا الوطنية الخاصة بنا.

ويريد الاستمرار في خطط التنمية، مع التخلص من عيوب التخطيط والتنفيذ والممارسة الناتجة عن الملاحظات التي سردتُها في أول المقال.

وحين نتأمل حركة التصحيح في مايو ١٩٧١، ونتعمق فيها إلى أبعد من الأحداث المباشرة، نجد أن هذه التيارات الثلاثة كانت تتفاعل في أعماقها.

كانت الحركة موجهة ضد التيار الثاني، تيار التجميد وعدم التغيير.

ولكنها ـ حركة التصحيح ـ «تعرضت» لنوعين من التأييد: تأييد التيار الأول، اليميني. وهو تأييد أراد أن تكون حركة التصحيح جسراً إلى انهيار تاريخ الثمانية عشر عاماً كلها. وكان هذا التيار يحاول أن يدفعها من منطق التصحيح إلى منطق الانقلاب، إلى منطق سلب كل المكاسب الشعبية، ورد الموجة على أعقابها والرجوع بها إلى الوراء.

وتأييد من التيار الثالث الذي فهم التصحيح على أنه بالفعل تصحيح وتغيير انطلاقاً من المبادىء الأساسية التي أرسيت، والمنجزات التي تحققت.

وكان هذا هو التيار السليم، وهو الذي وجد تعبيره الأساسي في برنامج العمل الوطني الذي أقره مؤتمر الاتحاد الاشتراكي في يوليو ١٩٧١. والتغيير باب غير مغلق توضع مواصفاته وترسى مبادئه، ولكن تظل ممارساته، ومجالات تنفيذه حافلة بإمكانات التطوير والتطبيق والعمل والاجتهاد.

اليوم القريب.. واليوم البعيد

وإذا انتقلنا إلى مستوى آخر من التيارات التي تلاطمت بعد ٥ يونيو، نجد أنه كان ثمة ـ في العالم العربي هذه المرة ـ تياران حول تقدير أبعاد الهزيمة، والزمن اللازم للتخلص منها.

أذكر أنني حين كتبت لأول مرة متحدثاً عن أزمة التخلف الحضاري، كسبب عميق للهزيمة، كل النواقص السابقة بعض مظاهره، وعن ضرورة بناء دولة عصرية، أن آراء آخرى أزعجها ما ينطوي عليه هذا المنطق من معنى أن الصراع سوف يستغرق وقتاً طويلاً. وكتب كاتب في إحدى الصحف العربية يقول: معنى هذا أن علينا أن نعلّم كل مواطن أن يلقي عقب سيجارته في سلة المهملات وليس في الشارع قبل أن نحارب إسرائيل. وكانت هذه الآراء الأخرى تنبع من اقتناع كان سائداً بأن المعركة التي خسرناها سنمحو أثرها نحن العرب بمعركة مشابهة بعد شهر أو سنة، أو أن الضغوط الدولية ستزيل آثار العدوان ـ كسنة ١٩٥٦ ـ في شهر أو في سنة.

ولكن مرور خمس سنوات، والعدو لا يتزحزح قيد أنملة، لا سياسياً ولا عسكرياً، قد علّم العرب شيئاً آخر: علمهم أن المواجهة فعلاً طويلة، وان لها وجوهها المختلفة. علم العرب أن إسرائيل قد تغيرت وأن العالم قد تغير، وأنهم لم يتغيروا بالدرجة الكافية. وأن

الترهل الشامل في حياتهم، والتخلف في مؤسساتهم، وعدم النظر إلى أقسى الحقائق في عينيها، لا نتيجة لها إلا الهزائم المتوالية، وأن النصر في هذا العصر له متطلبات أخرى.

هل معنى ذلك أننا عاجزون اليوم، عن المواجهة العسكرية مع إسرائيل ولأمد طويل؟ كلا بالتأكيد، نحن قادرون.

هل معنى ذلك تأجيل المواجهة العسكرية حقاً إلى أن نستكمل كل أسباب الحضارة الحقيقية؟ كلا بالتأكيد.

ولكن معناه أن المعركة لها ـ بين وجوهها المتعددة ـ وجهان بارزان:

وجه مباشر، حال، آت، هو الذي سوف يملي علينا التصرف السياسي والعسكري الضروري للمواجهة الراهنة.

ووجه آخر غير مباشر، ولكنه هو الحاسم في المدى البعيد، هو الوجه الحضاري. هو الوجه الذي يطالبنا بكل تغييرات عميقة في الحياة العربية الراهنة.

ذلك أن مواجهتنا مع إسرائيل، ككيان صهيوني توسعي، ينتمي إلى قوى أخرى خارجية، ستستغرق زمناً طويلاً، زمناً فيه مراحل من القتال المدمر، ومراحل من الركود النسبي.

وفي هذه المواجهة، قد نخسر معارك، ولكن لا بد أيضاً أن نكسب معارك أخرى، حتى يزيد معدل ما نكسبه ـ تدريجياً ـ عن معدل ما نخسره.

وفي هذه المواجهة هناك العمل السياسي المستمر. وهناك العمل العسكري الذي سنحتاج إليه بل سيفرض نفسه فرضاً، بما يتركه على الساحة من آثار عميقة. وهناك خلال هذا كله التحدي الحضاري الشامل الذي ستكون له كلمة الحسم الأخيرة: حين تصبح هذه الأمة العربية، بمواردها المادية والبشرية والنضالية، في مستوى القرن العشرين. ساعتها ستحل مشكلة المواجهة العربية ـ الإسرائيلية الحل الطبيعي، وتحل في المنطقة علاقات جديدة طبيعية.

أمامنا إذن نضال لليوم القريب، ونضال لليوم البعيد.

ومن الخطأ أن نقيم مناظرة بين اليوم القريب واليوم البعيد.

إن كلاً منهما يؤدي إلى الآخر، ويخدمه، وكلاً منهما يتبع الآخر، ويكمله.

١٩ - الثورة والشرعية(*)

لا اعتراض بالطبع على آراء الذين قالوا بـالإبقاء عـلى الاتحاد الاشـتراكي، أو الانتقال إلى نظام الحزبين، أو تعدد الأحزاب.

وبرغم كل شيء، فقد كانت المنـاقشات صحيـة، كنسمة الهـواء المنعش، التي تكشف عن أعماق البحيرة الساكنة.

ولكن الاعـتراض - بل آلاف الاعـتراضات - تـرد على الأسبـاب والمـبررات التي قيلت للتدليل على هذا الرأي أو ذاك. . . والتي دلت في أحيان كثيرة إما عـلى إغراق في التجني، أو إغراق في الخيال، أو الوقوف من خارج الواقع تماماً، فضلاً عن الذين يقفون عنـد منطلقـات القرن التاسع عشر، ويحسبون أنها دعوة جديدة!. . .

مثلاً، أساتذة القانون، مع احـترامي الكامـل لأستاذيتهم، الـذين حاكمـوا ٢٣ يوليـو بمنطق الشرعية الدستورية، وبالتالي فالمنطق الكامن وراء كل ما يقولونه هو أن كـل ما حـدث منذ ذلك اليوم شذوذ، وخروج على المألوف!

في الدرجة الأولى إن الواقع تاريخياً يسبق القانون. فالقانون تنظيم للواقع الذي تـوجده الحيـاة. والنظام يسبق الـدستور، لأن الـدساتـير تجيء بعد أن يهتـدي مجتمـع مـا إلى صيغـة لعلاقاته الاجتماعية، ونظمه السياسية، ومؤسساته الرسمية والشعبية. . .

ولـو كان الأمـر غير ذلـك، ولو كـانت الشرعية غـير ذلك، لعـاشت المجتمعات آلاف السنين يحكم كل واحد منها دستور واحد، أي شرعية واحدة!

إن الحديث من منطلق، معناه ومحتواه، عدم شرعية ثورة ٢٣ يوليـو، حديث مـرفوض من أساسه، ليس مرفوضاً بقوة الفرض، ولكن بقوة المنطق وبداهته.

(*) الأهرام، ١٩٧٤/٩/٢١.

فالثورات لها أيضاً مكانها في عالم الدساتير والقوانين والشرعية. وهي لا تقوم ولا تستقر إلا إذا كانت هناك حاجة عميقة إليها، وإلا إذا أوجدت بعد ذلك قوانينها ودساتيرها . . .

ثم أي دساتير يحتكمون إليها؟ دستور ١٩٢٣؟ عظيم، ولكن توالي انتهاك هذا الدستور والعدوان عليه وإبعاد حزب الأغلبية الوفدية هو الذي دمره. دستور فرنسا؟ لقد قامت قبله ثورات وخضبت أرض فرنسا كلها بالدماء! دستور أمريكا؟ لقد ولدته ثورة استقلالية!

ولمن يحبّون الدساتير الأوروبية أروي كيف كان الشاعر الفرنسي لامارتين، متصدراً إحدى ثورات فرنسا، حين وقف يخطب في الجماهير وصاح فيه واحد: بأي حق تحكمون؟ فقال له ما معناه: بحق التضحية بالنفس والتقدم لإسقاط الظلم!

وليست دساتير الثورات مقدسة، ولا هي نهائية إلا إذا أثبتت هي قدرتها على استيعاب التطور المستمر. إذن فإن نقد أي قانون أو دستور أو إجراء أو شخص في ثورة ٢٣ يوليو جائز، لكن «نقض» ثورة ٢٣ يوليو هو غير الجائز، مرة أخرى، لا من منطلق الفرض الذي لا يرضاه صاحب رأي لنفسه ولا لصاحب رأي مخالف له، ولكن من منطلق المنطق، لأنه حديث خارج دائرة التطور، وخارج دائرة الواقع، ورجعة إلى الوراء . .

٢٠ ـ حكايات تحتاج إلى تأمل

١ ـ حكاية مدرسة السخط(*)

كل شعب، وكل جيل، لا بد له أن يسخط على شيء ما في حياته، حتى يكون لديه حافز لتطوير حياته والتقدم إلى الأمام.

ولكن حين ينقلب الأمر إلى السخط الأسود على كل شيء في ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، فهنا يجب أن نقف أمام هذه الظاهرة المرضية وقفة، وأن نحاول فهمها.

فمن يسمع لبعض المتكلمين ويقرأ لبعض الكاتبين، يظن أن الشعب المصري صار في الدرك الأسفل بين شعوب الأرض، وأنه الوحيد الذي يشكو أزمة المواصلات وأزمة التعليم وأزمة المستشفيات وأزمة الأسعار وأزمة المساكن، إلى آخر القائمة. ويجب ألا ننكر أن هناك فرقاً بين نقد هذه النواقص كما يفعل خلق الله في كل مكان، وبين انقلابها إلى حالة مرضية ورؤية غير صحيحة لمكاننا بين الدول ومشاكلنا بين مشاكل العالم.

وقد تغذت هذه المدرسة أول ما تغذت على الدعوة القائلة بأننا قضينا عشرين سنة في الظلام والفساد والتأخر والضياع، وان هذه العشرين سنة كانت أكذوبة كبرى في كل شيء، وإذا صدّق فريق من الناس هذا الكلام فلا بد أن ينتج عن ذلك عدم إيمان بأي شيء بل وانعدام الأمل أيضاً! لأن كوارث عشرين سنة وضياعها لا تختفي في يوم، ولأنه إذا كان الذين كانوا يقولون ويفعلون ما زالوا يقولون ويفعلون، والذين كانوا يكتبون ما زالوا يكتبون، فلماذا لا تكون الاكذوبة مستمرة؟

وهكذا نزرع أولى بذور السخط الأسود المدمر. فإذا سقط الشباب في هوة اليأس تعجبنا، وإذا هاجمتنا الصحف في الخارج، اعتماداً على أقوالنا نحن عن بلادنا، غضبنا.

فهل هذا صحيح؟ صحيح أن القاهرة كانت مكاناً أقل اختناقاً وأحسن حالاً بالنسبة

(*) الأهرام، ١٩٧٥/٢/٢١.

للنخبة المتميزة في البلاد. كان الزحام ـ لو أخذنا جانباً واحداً ـ أقل وبالتالي كان الضغط على كل المرافق أقل. ولكن لماذا زاد الزحام وما هي أسبابه؟ لقد زاد عددنا إلى الضعف خلال عشرين سنة (من ١٧ مليوناً إلى ٣٤ مليوناً). وصار التعليم مجانياً. وانتشرت المصانع والمرافق الجديدة بمعدل لا مثيل لسرعته في تاريخنا. وصارت الطبقة العاملة بمئات الآلاف وصار الطلبة والتلاميذ بالملايين. وكل ناس لهم معاييرهم التي يقيسون بها الأمور. ناس يقيسون بمعايير القلة المتميزة ثم يرون زحف الكثرة في كل مكان فيقولون إن هذه من مظاهر الانحطاط. في انجلترا نرى هذا الرأي في الجناح اليميني لحزب المحافظين والذي انتصر بفوز السيدة مرجريت برئاسة الحزب بدلاً من هيث. وأناس يرون أن هذا تطور إلى الأمام، وكل تطور له ثمن، وكل تطور يطرح مشاكل جديدة، ولكنه يحتاج إلى حلول جديدة ولا تنفع معه العقاقير القديمة التي ربما كانت تناسب زمناً مضى. هؤلاء يقولون ادرسوا عدد الذين يملكون ثلاجة أو «بوتاجاز» قبل ١٩٥٢ وعددهم الآن، ونسبة زيادتهم خلال عشرين سنة قبل ١٩٥٢ وخلال عشرين سنة بعد ١٩٥٢، وبنفس المنطق أدرسوا عدد الذين صارت لديهم أجور ثابتة، وعدد الذين صاروا قادرين على استخدام المواصلات وإرسال أبنائهم إلى المدارس والذهاب إلى أماكن الترفيه. هذه هي معايير التقدم والتأخر، والنور والظلام، بالنسبة للقاعدة لا القمة. وقد تمت هذه التنمية في الواقع خلال عشر سنوات لا عشرين سنة. فمدة التنمية الجدية في مصر كانت بين حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧.

ولعلنا محتاجون لكي نرى الأمور في حجمها الصحيح إلى أن ننظر حولنا في أنحاء العالم. فنحن رغم الحروب والكروب ننظر حولنا فنرى إيطاليا مفلسة ومتهاوية وانجلترا على شفا الإفلاس والتناحر الاجتماعي، ونسيج المجتمع في دول الغرب المتقدمة يتمزق ومعجزة النمو الاقتصادي السريع انتهت وبدأت أوروبا تستعد لمواجهة حقائق جديدة وأرقام البطالة تزداد بشكل هائل. وفرنسا تضج من أزمة اكتظاظ المدارس والجامعات وتعطل المتعلمين والخريجين.

هذا رغم أن المقارنة بيننا وبين أوروبا غير جائزة. فمن يقول لندن والقاهرة ينسى أن انجلترا سبقت العالم إلى الثورة الصناعية وكانت تحكم خمس العالم كله طيلة خمسة قرون بينما كنا نحن محكومين بالأجنبي طيلة هذه القرون الخمسة.

أما إذا قارنا أنفسنا مقارنة صحيحة بالعالم النامي فإن تجربتنا الوطنية المصرية ما زالت هي الرائدة التي يقتبس منها الآخرون، وما زالت في المقدمة لم تتخطها بعد أي تجربة أخرى، لا في معدل التنمية ولا في درجة النضج ولا في قدرتنا على الانتقال بالتجربة إلى مرحلة أكثر تقدماً من العدل والحرية معاً.

إذن ما هي المشكلة؟

حين نحلل الأمور بالعقل لا بالحقد، وبالاتزان لا بالتطرف، نجد أننا في مرحلة لها مشاكلها الخاصة كأي بلد في أي مرحلة.

مشاكل المرحلة بعضها عالمي، وبعضها خاص بالعالم النامي الذي نقع فيه، وبعضها خاص ببلادنا بالذات. . .

على المستوى العالمي، العالم كله يواجه آثار ثورة الديمقراطية الاجتماعية والتطور في تطلعات الناس على نحو لم يسبق له مثيل من قبل في التاريخ. فاكتظاظ المدارس واختناق المواصلات في المدن وارتفاع الأسعار وتدني مستوى الثقافة العامة أمور يعرفها العالم كله بأشكال مختلفة. إنه عصر جديد تماماً ظاهرته الأساسية أن الوعي عم الجميع وصار التمتع بكل ما تقدم الحياة من حق الجميع لا القلة. وفي العالم كما قلت من يرون أن الحل هو الرجوع إلى العلاقات الاجتماعية القديمة وعدم تدخل الدولة ولا المجتمع في شيء.

فالسيدة مرجريت التي أشرت إليها اشتهرت بأنها حين كانت وزيرة تعليم في انجلترا ألغت زجاجات اللبن التي كانت توزعها الدولة على مدارس الفقراء، مجرد مثال على رأي الذين يريدون العودة إلى أيام كانت الدولة أو المجتمع لا شأن له بحظوظ افراده وليس مسئولاً عن غني أو فقير. وفي العالم من يرون أن محاولة الرجوع إلى الحلول القديمة كارثة فضلاً عن أنه مستحيل، وأن المهم هو البحث عن حلول جديدة للمشاكل الجديدة التي يطرحها التطور.

وعلى مستوى العالم النامي، الأمر معروف. فهي بلاد فقيرة مستعبدة منذ قرون تحاول أن تعجّل بمعدل التنمية إلى أقصى حد، وتحاول في نفس الوقت أن لا تحرم جيلاً حرماناً شديداً من أجل تنمية هي لصالح أجيال مقبلة. . .

٢ ـ حكاية «مصريون فقط»(*)

تلك هي حكاية الكلمات البراقة التي تخفي أحياناً غير ظاهرها، أو تكون على درجة من التعميم المضلل الذي يفتقر إلى الدقة الموضوعية والمنطقية. . .

فهناك من يكتب في كل مناسبة «مصريون فقط» لا يمين عندنا ولا يسار بل مصريون فقط. لا تقدميون ولا محافظون بل مصريون فقط. وبالتالي فلا ظالم ولا مظلوم بل مصريون فقط.

وواضح أن هذا كلام ليس فيه من الدقة العلمية شيء. . . فهو كلام يخلط بين الصفة الوطنية لكل أبناء الشعب، وبين المواقع والمواقف الاجتماعية والسياسية المختلفة لأبناء الشعب الواحد. . .

«مصريون فقط» قد يصلح شعاراً للسياسة الخارجية، ونحن بالمناسبة مصريون وعرب في نفس الوقت، فنقول نحن لسنا مع معسكر الشرق ولا مع معسكر الغرب ولسنا ملتزمين عقائدياً بأحدهما، ولكننا مصريون أولاً، نحالف ونخالف طبقاً لمصالحنا الوطنية والقومية، ونحتفظ بإرادتنا الوطنية مستقلة، تلك هي سياسة الاستقلال الوطني، وعدم الانحياز، ورفض مناطق النفوذ، والتمسك باستقلالنا الاقتصادي لأنه العمود الفقري للاستقلال السياسي. كنا مصريين أولاً حين كسرنا احتكار السلاح سنة ١٩٥٥ وعقدنا صفقة الأسلحة التشيكية. وكنا مصريين أولاً حين قررنا تنويع مصادر السلاح سنة ١٩٧٤ وعقدنا صفقات الأسلحة الفرنسية. . .

وقد تعمدت أن لا أقول «مصريون فقط» بل «مصريون أولاً» لأننا حين ننتقل بالذات

(*) الأهرام، ١٩٧٥/٢/٢٨.

إلى السياسة الداخلية نجد أن هناك ثانياً وثالثاً ورابعاً. . الخ، يجب أن يفصح عنها بصراحة من يريد أن يقدم نفسه للناس تقديماً أميناً. . .

أولاً: في مجالات الاجتهادات الداخلية أو الجدل السياسي الداخلي، ليس من حق قائل ولا كاتب أن يقول أو يكتب ان هذا مصري وهذا غير مصري. فسلب صفة المواطنة ليس من حق أحد.

ثانياً: إن المصريين في الداخل ككل خلق الله في كل بلاد الله لهم مصالح ومواقف وآراء ومذاهب مختلفة متباينة. لا أحد يستطيع أن ينكر هذا، وبالتالي فالقول بحكاية «مصريون فقط» في هذا المجال هو محاولة لإنكار هذا الواقع السياسي الاقتصادي والاجتماعي في داخل البلاد وفي داخل كل بلاد العالم، محاولة لتغطية شيء، لوضع الظالم والمظلوم في عباءة واحدة.

كان الأمير يوسف كمال مصرياً. وكان يملك عشرة آلاف فدان وينشب مخالبه في أعناق عشرة آلاف مصري آخرين. والمذهب القائل بأن الكل «مصريون فقط» دون أي تعريف آخر معناه دوام هذا الوضع وعدم المساس به لأن الكل، مستغِلّين وواقعين في قبضة الاستغلال، أغنياء ومعدومين، طغاة ومحكومين، كلهم مصريون!

ولكننا نرفض هذا المنطق الذي لا يرى التضاريس الاجتماعية للوطن، ويحاول أن يقنعنا أن الوطن كله مسطح واحد الكل فيه سواء ما داموا يحملون صفة المواطنة في مصر. وبناء على هذا نفتي ونشرع ونوجّه سياساتنا الاقتصادية والاجتماعية.

إن الفرنسيين فرنسيون فقط والانجليز انجليز فقط. وكل الأوطان لا يحمل هويتها إلا مواطنوها، ولكن هذا لم يمنع وجود الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل وطن عبر تطوره الطويل. ولهذه الفئات المختلفة أسماء مختلفة من بلد إلى بلد. ففي أمريكا هم الجمهوريون والديمقراطيون وفي انجلترا هم المحافظون أو العمال أو الأحرار، وفي فرنسا كذلك. . . إلى آخره وكل فئة لها وجهة نظر في السياسة، وجهة نظر ترى أنها أفضل لمصلحة الشعب والوطن.

والغريب أن الذين يحاولون رفع راية «مصريون فقط» وجعلها مذهباً سياسياً، هم أنفسهم الذين يطالبون بتعدد الأحزاب، الآن وفوراً. ولماذا تتعدد الأحزاب إذن ما دام الكل متشابهاً تحت عنوان «مصريون فقط». أليس تعدد القوى سواء في صيغة تحالف أو في صيغة أحزاب معناه الاعتراف بتعدد المصالح والآراء والاجتهادات، وبالتالي فإن لكل فئة الحق في أن تعبّر عن نفسها وتجادل غيرها في حرية ومساواة؟

إن التاريخ لم يعرف من رفعوا شعار مواطنين فقط، ولم يعترفوا بأي فروق وخلافات بين المواطنين، لم يعرفهم إلا في النظم النازية والفاشستية التي كانت تحول أنظار المواطنين عن مشاكلهم إلى المغامرات الخارجية.

إذن فإن القول بأن هناك مذهباً اسمه مصريون فقط، هو قول يستهدف قهر الحريات

في الساحة التي وجدت الحريات أساساً لخدمتها: ساحة التعبير عن المصالح والمواقف والأفكار المختلفة لفئات الشعب الواحد، وحق كل فئة في المطالبة بحقوقها، وحق الوطن كله في إقامة أسس مقبولة من العدل الاجتماعي... ولكننا نفهم أننا كلنا مصريون بمعنى أن الخلافات تدور داخل إطار الوطنية المصرية، وأنها لا تكون لحساب أحد خارج الوطن، وأنه لا يجوز تخوين الناس بسهولة أو بغير حساب.

إن راية مصريون أولاً ترتفع في أوقات معينة، حين تكون هناك مجابهة مع عدو خارجي، أو حين يكون هناك خطر داخلي أو خارجي. ساعتها ينسى الناس همومهم الخاصة ومشاكلهم ومذاهبهم، ويلتفون حول الراية الواحدة حتى يتم درء الخطر. أما في غير هذه الساعات، فإن «الوطنية» ذاتها كلمة لها أكثر من معنى.

فلم تعد الوطنية هي التعصب بمعنى عدوان الوطني على أوطان غيره والسيادة عليها، بالمعنى النازي. ولم تعد الوطنية مجرد رؤية الوطن عزيزاً مستقلاً، إنما هي فوق ذلك رؤية «المواطنين» أعزاء أحراراً يتمتعون بمستوى أدنى من المعيشة ولا يعانون من استغلال داخلي أو خارجي. هذه هي وطنية العصر الحديث. وطنية العصر الديمقراطي. وطنية الحرية والمساواة.

والمصري الحقيقي هو الذي يؤرقه العدوان على وطنه، كما يؤرقه أن يرى معظم مواطنيه يعيشون دون الكفاف، ويؤرقه أن تقوم أي ظروف تسمح باستغلال المصري للمصري تحت ستار أن الكل مصريون فقط!

٢١ ـ نقطة نظام(*)

نعم. نقطة نظام!

فقد كان لا بد، مع المرحلة التي قطعتها مصر منذ يوليو ٥٢، والاختبارات العنيفة التي خاضتها ـ داخلياً وخارجياً ـ أن نقف لحظة لنتأمل فيها ما أنجزناه وما خسرناه. وجاءت الحرية المتاحة حالياً بعد نصر أكتوبر، فاعطتنا هذه الفرصة.

وقد انطلق الناس يناقشون بالفعل. وكان طبيعياً أن تتعدد الآراء وتختلف، وأن يعقب الصمت الطويل ضجة عالية، ثم كان طبيعياً ـ أو هذا ما نرجوه ـ أن يعقب رد فعل الحرية الأول، واندفاع البخار المكتوم منذ زمن، أن يميل هذا الجدل تدريجياً إلى تغليب صوت العقل والمصلحة الوطنية، وبالتالي مواجهة جذور المشاكل التي خلّفها لنا التطور الثوري الذي وقع، بما له وما عليه.

على أنه حدث تشويش كثير، الأمر الذي يدعو إلى القول: نقطة نظام...

والذي يشوّش على هذا النقاش العقلاني المطلوب، أشياء كثيرة، أبرزها أمران:

الأمر الأول، أن بعض ذوي الأصوات العالية في الجدل، يتخذون من مناقشة القضايا الحيوية والمصيرية مجالاً للحملات السياسية، والانتقام، والثأر من التجربة الوطنية المصرية التي لا شك أنها صادفت أفكار البعض، وقضت على امتيازات آخرين، وقلبت أوضاعاً كثيرة، وكانت لها ضحايا، مما لا بد أن يصاحب كل حدث ثوري. والنتيجة أن هؤلاء يحاولون ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ خلق جو من اليأس والقنوط، وعدم الثقة في النفس، والإيحاء إلى نفوس الشباب بجو من الفشل المستمر، سواء بالإدعاء بأن العشرين سنة التي مضت كانت ضياعاً وخراباً، وبالتالي فما كان قبلها كان أحسن، أو الادعاء بإن

(*) الأهرام، ١٩٧٦/٢/٢٢.

الكل من حولنا تقدم ما عدا نحن الذين تأخرنا، وبأن المشاكل التي يطرحها العصر على العالم النامي ليست موجودة إلا لدينا، في حين أننا في هذا المجال كنا رواداً وتبعنا الآخرون، وأخيراً باستخدام سلاح المقارنة استخداماً خاطئاً كالمقارنة بين مصر وسويسرا (!)، مع أن كل مبررات المقارنة غير موجودة.

حتى الأشياء المادية، المحسوسة، الملموسة، كالسد العالي، حاولوا التشهير به، واعتبروا قرار إنشائه قراراً استبدادياً لمجرد أن أحد كبار المهندسين الممتازين، الدكتور عبد العزيز أحمد ـ لم يؤخذ برأيه، في حين أنه أخذ برأي عشرات غيره من الخبراء المصريين والعالميين. حاولوا أن يجعلوا من السد العالي «حائط مبكي» جديداً، يرجعون إليه كل مشكلة، في حين أن العالم بشتى معسكراته وألوانه يعتبره عملاً هندسياً فذاً، وليس ذنب السد العالي أنه زاد رقعة الأرض الزراعية، إذا كنا نحن ننهش هذه الأرض الزراعية يوماً بعد يوم دون خطة ولا رادع إلى الآن. . . إلى آخره.

على أن الأمر الثاني الذي يشوش عليّ المناقشة الجدية، وهو موضوع هذا المقال، هو أن كثيرين ممن يتعرضون لهذه المناقشات، لا يصدرون عن فكر واضح، أو منطق متكامل، فهم يسيرون في كل زفة، ويعزفون على كل نغمة، طالما ظنوا أنها تستهوي القارىء، حتى ولو كانت تضلله عن المواجهة الجدية للقضايا الحيوية.

ولا بد من ضرب بعض الأمثلة، التي تدخل في باب البديهيات.

المثل الأول: كلنا نعرف مثلاً الحملة على القطاع العام. والحملة هنا لا نقول صراحة إنها ضد القطاع العام من حيث المبدأ، ولكنها تقدم لهجومها على القطاع أسباباً، بل في الحقيقة سبباً وحيداً، هو أنه يخسر. وإذا كان القطاع العام المملوك للشعب يخسر، فلماذا لا نغلقه، ونريح الشعب من الخسارة؟

ولكن نفس الذين يوجهون هذه الحملات يسمعون أن إحدى شركات القطاع العام قررت رفع ثمن منتجاتها في السوق، وإذا بهم ينقلبون يهاجمون القطاع العام الذي يرفع سعر متر القماش مثلاً، ويتهمونه بأنه بهذا يصنع ما يصنعه القطاع الخاص من السعي وراء الربح، ويزيد العبء على المستهلك، وبالتالي فالواجب أيضاً إغلاقه.

أمر محير!

إذا كان القطاع العام يفعل ما يفعله القطاع الخاص ليربح، أو ليغطي خسائره، فماذا يغضبكم، وأنتم تبشرون ليل نهار بالاقتصاد الحر وإعطاء كل شيء للقطاع الخاص؟. . .

إما أنكم تؤمنون بقوانين السوق والاقتصاد الحر، وفي هذه الحالة يطلق العنان للقطاع العام فيتخلص من العمالة الزائدة ويقذف بها إلى شارع البطالة، ويرفع أسعاره إلى الدرجة التي يمكن أن تتقبلها السوق، وينوع إنتاجه بعيداً عن كل خطة فيعزف مثلاً عن إنتاج الأقمشة الشعبية إلى أقمشة أخرى، ويتهرب من الضرائب بكل الحيل المشروعة وغير المشروعه. . . إلى آخره، وبهذا يحقق القطاع العام أرباحاً طائلة. . .

وإما أن تأخذوا بالرأي الآخر، وهو أن القطاع العام مملوك للشعب في الدرجة الأولى لكي يخدم الشعب لا لكي يحقق الربح، فهو يتحمل عبء زيادة العمالة، ويتحمل أسعار الخامات التي تحددها له الدولة، ويتحمل توجيه الدولة له لإنتاج سلعة معينة يحتاجها الشعب أكثر من غيرها، ويتحمل أخيراً مطالبة الدولة له بأن يبيع بسعر معين تيسيراً على الفئات الواسعة من الشعب. إن شركة ما في هذه الحالة قد تخسر لأن كل القرارات الأساسية ليست من صنعها ولكن من صنع الدولة، ولكن في العملية الاقتصادية والاجتماعية الكبرى، الشعب صاحب القطاع العام لا يخسر: فهو يوظف أبناءه، ويقبل خطة حكومته، ويبيع بأسعار تلائم قدرة الشعب، وينتج نوع السلعة التي يحتاج الناس إليها. . . ومن أجل هذه الخدمة في النهاية وُجد القطاع العام.

طبعاً، هذا لا يعني الحجر على نقد القطاع العام، وتوجيهه، وتخليصه من الروتين ومن المنحرفين، وجعل عامل الربح أحد مؤشراته. ولكن هذا غير الحملة الضارية التي تستهدف تلويث القطاع العام كله، والتشويش على الغاية التي وُجد من أجلها، وصولاً إلى تدميره، وترك الساحة فريسة لقوانين السوق القاسية على الضعيف!

والقضية، مرة أخرى، هي التناقض بين المطلّبين!

المثل الثاني: نجد أيضاً حملة ضارية ضد التخطيط، وكل مظهر من مظاهر التوجيه الاقتصادي، والمطالبة بالاقتصاد الحر، وفتح أبواب الاستيراد بشتى الطرق والتسهيلات.

ثم فجأة، نجد نفس الناس يهاجمون العمولات، وما أدراك ما العمولات!

وهنا أيضاً نجد نفس التناقض، فالاقتصاد الحر معناه الشركات الأجنبية، والشركات الأجنبية أو الشراء عن طريق أفراد معناه وكلاء، ومكاتب، ومعناه عمولات.

طبعاً، تقاضي موظف عام في القطاع العام أو الحكومة لأي عمولة، هو جريمة في أي نظام، ولكن بالنسبة للأفراد والقطاع الخاص، فالعمولات في هذه الحالات مشروعة وقانونية، والمكاسب الطائلة من ورائها أمر لا مفر منه في الاقتصاد الحر. . .

وما يحدث في كل بلاد الاقتصاد الحر هو ان الموظف الكبير، يربي خلال عمله علاقات مع شركات معينة، ثم يستقيل في الوقت المناسب، ويعمل مندوباً أو وكيلاً لها، آخذاً معه كل خبراته وعلاقاته وصداقاته.

فمرة أخرى، ماذا تريدون، هذا أو ذاك؟ . . . وكل له خيره وشره؟

نموذج ثالث: الحملات التي انطلقت تبشر الناس بآلاف ملايين الدولارات التي ستنهمر علينا، والتبشير بالرخاء السريع، ووقتها قلنا إن هذا اتجاه خاطىء، لأن هذه الأموال يجب أن تأتي للاستثمار، والاستثمار يستغرق وقتاً، حتى يؤتي ثماره، وتصل آثاره إلى المواطنين!

وهذا ما حدث بالفعل. فالناس لم تر شيئاً من هذه الملايين. وحدث ما كان لا بد أن

يتوقعه أي عاقل، إذ ساد التساؤل، أين الرخاء السريع الموعود؟ وانقلبت الحملات في مجالات التبرير إلى الهجوم على مصر، ابتداء من تهم البيروقراطية والانغلاق وانتهاء باتهام الذمم والانحلال!

ومرة أخرى، لا أصادر على من يهاجم وينقد البيروقراطية حيثما وجدت، أو يتعقب الفساد حيثما كان. . .

فقط المطلوب ـ كنقطة نظام ـ تكامل المنطق وإن اختلفت وجهات النظر. فكل وجهة نظر لا بد أن يكون لها منطقها المتكامل، لأنه لا يوجد أسلوب للعمل يمكن أن يجمع النقائض. . .

وتكامل المنطق هنا يعيدنا إلى ما قلناه مراراً، إن المال الأجنبي لا يأتي للاستثمار بسهولة، بل بتهيئة ظروف معينة، وإنه حين يجيء فإنه يحتاج إلى سنوات حتى يؤتي ثماره، وندع جانباً الفئة المحدودة التي تستفيد فوراً من الانفتاح وتستفز استفادتها الآخرين. فلا بد من التخطيط واحترام الأولويات، والتقشف. والتقشف لا يكرهه المتقشفون فعلاً، إذا رأوا أنه نمط للمجتمع كله، ولا تدفع ضريبته الفئات المرهقة وحدها.

نموذج رابع: نريد أن تقوم لدينا صناعات وطنية متطورة، لأن هذا هو الحل الوحيد إزاء كثرة السكان وقلة الموارد الطبيعية. . .

وفي نفس الوقت ننهال نقداً وتقريعاً على المصنوعات المحلية. ونقارن بين السلعة المصنوعة في مصر والسلعة المصنوعة في فرنسا أو ألمانيا مثلاً. ونسمح بإغراق السوق بالسجاير الأجنبية مثلاً، فيجدها المشتري متوفرة ولا يجد السجاير المصرية متوفرة، لأن هناك سلسلة من الأفراد يكسبون أكثر من بيع «المستورد» أو «المهرب»!

نقطة نظام أخرى!

طبعاً، لا يمكن أن تنتج مصر ببساطة سلعة تضاهي مثلها المصنوع في فرنسا أو ألمانيا. فبيننا وبين هذه الدول قرون من التقدم، والنضج الصناعي، والابتكار والتكنولوجيا الحديثة، ونفقات البحث العلمي الطائلة.

لذلك نكرر دائماً عند القول بسياسة الانفتاح إن أهم هدف ليس المال وحده ولكن نقل التكنولوجيا الحديثة والاستفادة منها.

ولكن، حتى نصل إلى القدرة على المنافسة، لا بد من حماية انتاجنا الوطني. تفعل هذا الدول الرأسمالية قبل الاشتراكية، حتى يشتد عودها في سوق المنافسة، وإلا هزمنا هدفنا، وخنقنا إنتاجنا وهو في المهد.

والكتلة الكبرى من شعبنا يكفيها استخدام الانتاج الأقل جودة، أما مرض «المستورد» فالمصابة به فئة محدودة!

حتى ما يقال عن أن بعض السلع المحلية أغلى ثمناً من ثمن شرائها من الخارج، فهو أيضاً منطق ناقص، أو ضيق النظرة. إن الثمن الذي ننفقه على إنتاج السلع المحلية، أولاً: ننفقه في الداخل ولا نرسله في صورة عملات أجنبية إلى الخارج. ثانياً: فالثمن الذي ندفعه في الداخل يدفع معظمه كأجور للعاملين داخل مصر، وليس للعاملين في سويسرا وايطاليا.

إنما المطلوب هو ترشيد الانتاج المحلي فنتخصص مثلاً فيما هو أنسب لظروفنا، بحيث نتفوق فيه ونصل به إلى مستوى الجودة والسعر القادر على المنافسة، ولا نتسرع في انتاج أي شيء يخطر ببالنا حتى ولو كانت ظروف انتاجه صعبة!

تلك أمثلة قليلة، ترحب بتعدد الآراء ولكن تطالب بأن يكون كل رأي متكاملاً مع نفسه، مدركاً أن كل اختيار فيه جوانب السلب والإيجاب. وتلك هي نقطة النظام التي أردت تسجيلها.

٢٢ ـ حول الصحافة.. والأحزاب(*)

إن أول ما يخطر على البال... هو الدعوة إلى عدم التسرع في إصدار القرارات الخاصة بالصحف وعلاقتها بالأحزاب!

فقد نشرت الصحف أن المجلس الأعلى للصحافة سيجتمع قريباً لكي «يبتّ» في الموضوع!

ومع احترامي لكل أعضاء المجلس الأعلى للصحافة، إلا أنه في مثل هذا الأمر الخطير، لا يمكنه أن ينفرد بهذا القرار، ولا أن يتسرع في إصداره.

فالمسألة معقدة جداً، والذين يجب الاستماع إلى آرائهم في هذا الموضوع أكثر وأوسع عدداً من أعضاء المجلس الأعلى للصحافة. إنه ليس بالأمر العابر، أو بالمشكلة التي يمكن أن تحال إلى المجلس، إنه أمر خاص بنسيج كل الحياة الصحفية والسياسية في البلاد، وخير لنا أن نحسب ألف مرة ثم نصل إلى القرار السليم، القابل للاستمرار من أن نتسرع إلى اختيار قرار سهل ثم نبدأ في مواجهة تعقيدات لا أول لها ولا آخر!

وإذا كان لي أن أبدي رأياً ـ مبدئياً ـ في هذا الموضوع، فإنه يخيل لي أن هناك أشياء، أرى إنها واضحة، وقد يسهل اتخاذ قرار بشأنها...

فمن الطبيعي، بل والضروري، في تقديري، أن يكون لكل حزب حق إصدار جريدة أو مجلة تنطق باسمه، ويخاطب من خلالها الرأي العام، ويتخطى ما قد يوجد من عقبات كتحيز الصحف القائمة لهذا الحزب أو ذاك...

وليس معنى ذلك أن يجد كل حزب نفسه «مضطراً» إلى إصدار جريدة. فهناك أحزاب

(*) الأهرام، ١٩٧٦/١١/٢١.

في العالم ليست لها صحف مملوكة لها، بل هذه هي الصورة الغالبة طالما أنها تجد جواً مناسباً للتعبير عن نفسها من خلال الصحف المستقلة القائمة.

ولكن هذا طبعاً لا ينطبق على كل حزب. فالصحف الكبرى بوجه عام - في العالم الغربي - تقاوم أحزاب التقدم والتجديد.

فالصحافة في انجلترا - مثلاً - مستقلة، ولكنها أقرب إلى فكر حزب المحافظين منها إلى فكر حزب العمال.

في هذه الحالة يجب أن يكون للحزب «الحق» في اصدار مجلة أو جريدة...

وقد يمكن البحث في إعانة من الدولة مبدئية، وليست مستمرة، لتمكين الأحزاب من أن تبدأ بحد أدنى من إمكانات الاستمرار، ومن تكافؤ الفرصة في بداية السباق....

... كذلك يستطيع المرء، منذ الآن، أن يبدي رأياً في قضية أخرى، وهي قضية «توزيع» الصحف الحالية على الأحزاب.

والرأي عندي، هو معارضة هذه الفكرة...

فمن الذي يوزع الصحف على الأحزاب؟.. ومن الذي يعطي صحيفة منتشرة لحزب، وصحيفة غير منتشرة لحزب آخر؟ ومن الذي يعطي هذا الحزب صحيفة غنية قوية، ويعطي ذاك الحزب صحيفة مثقلة بالديون؟

ثم، ماذا عن العنصر البشري في الصحافة، وهو العنصر الأساسي...؟

هل يباع مئات الصحفيين في هذه الدار أو تلك لهذا أو ذاك؟ ودون أن يكون لهم رأي في الموضوع...؟

هل يكتفى بلون رئيس التحرير وهو بالتأكيد لا يعبر دائماً عن رأي مجموع المحررين والكتاب في الصحيفة...؟

إن رؤساء التحرير كلهم أعضاء في حزب الوسط، فهل تسلّم كل الصحف لحزب الوسط؟

وإذا قيل، فليترك الصحفي جريدته إذا كانت سياستها لا تعجبه وينتقل إلى جريدة أخرى تعبر عن الحزب الذي يؤيده، فهذا كلام نظري...

فماذا عن الصحفي الذي له حقوق مكتسبة في جريدة ساهم فيها، وفي نجاحها بعمله وعرقه وصحته عشرات من السنين؟

وماذا عن صحيفة تعبر عن حزب ولكنها لا تستطيع - مالياً وإدارياً - استيعاب كل صحفي يريد الانتقال إليها؟ إن معنى هذا أن نواجه غداً بمئات من الصحفيين في الطريق بلا عمل!

إذن ففكرة توزيع الصحف القائمة الكبرى على الأحزاب، فكـرة غير عمليـة، إذا كان المقصود منها تأكيد الديمقراطية.

والأقرب إلى الصواب هو أن تبقى الصحف الكبرى الحالية صحفاً قومية، مستقلة، لا تنتمي رسمياً ولا ترتبط حرفياً بحزب دون آخر. . .

ونحن في مرحلة انتقال، والناس تتلفت حولها تحاول أن تقتبس هذا الوضـع من هنا أو تلك الفكرة من هناك. وهذه لعبة خـطرة، ولا أعرف ولا أحـد يعرف مـاذا يريـد أن يقتبس هؤلاء وأي مجتمـع يريـدون تقليده. والأمـر ينتهي إلى تفصيل ثـوب مرقـع، ملفق، من ألف قطعة وقطعة، كل قطعة لها لون!

ولا بأس من الاقتداء والاقتباس. ولكن بعد دراسة طويلة وبعد إنعام النظر في ظروف كـل وضع، ولمـاذا تبلور على هـذا النحو، وظـروف بلادنـا الحقيقية، لا الـظروف السطحيـة المفتعلة التي ينطلق منها أحياناً الكثيرون، فيجدون أنفسهم بعـد حين في واد والحقيقـة في واد آخر تماماً.

وهنا في تقديري تبدأ الصعوبة الحقيقية!

فالقول بأن تبقى المؤسسات الصحفية الكبرى «مستقلة» لا يكفي لحل القضية، قضيـة حرية الصحافة واستقلالها.

إن وجود صحافة «مستقلة» في حياة حزبية أمر ضروري، لأنها تقوم بـدور هام في نشر الحقـائق، وفي طرح الآراء التي قـد لا ترضي أي حـزب، وفي ممارسـة حريـة نقـد الأحـزاب كلها.

هذا كله، بشرط أن تكون «مستقلة» فعلاً.

كيف تكون مستقلة؟

إن تبعيتهـا المطلقـة لـلاتحـاد الاشـتراكي لا يجعلهـا مستقلة. فقـد عـرفنـا كيف لعبت العلاقات الشخصية ـ والخارجـة عن الاعتبارات الصحفيـة ـ دوراً كبيراً في رفـع هذا وخفض ذاك. . . . وهو ما يحاول الاتجاه إلى الديمقراطية أن يتخلص منه.

كذلك فإن تسليمها ـ ملكية وادارة وتحريـراً ـ لأفراد، ليس بـالحل الأمثـل، لأنه يضـع أخطر أجهزة التأثير والتوجيه في يد أفراد، لهم مصالح، أو لهم مواقف، أو لهم ارتباطات.

وهذه قضية مطروحة الآن على مستوى العالم كله، لا في مصر فقط.

فإذا أخذنا صحافـة الغرب التي يبـدو أن التيار يتجـه إلى محاولـة تقليدهـا، أو هذا مـا تعكسه الصحافة بأوضاعها الراهنة على الأقل، فسوف نجد أن مجتمعات الغرب بدأت تتيقظ لهذه المشكلة.

ففي وجه المنافسـة الصحافيـة العاتيـة، ومنافسـة التليفزيـون للصحافـة كلها، بـدأت

الصحف الأضعف مالياً تغلق أبوابها، أو تعرض نفسها للبيع، وبالتالي يقل عدد الصحف، وتقل فرص تعدد الرأي، وتتركز صناعة النشر في يد الأقوى.

ولكن صناعة النشر ليست صناعة الإسمنت أو الملابس. إنها صناعة تصوغ تفكير المواطن ومعتقداته، وتمده بالمعلومات اللازمة عن المجتمع الذي يعيشه والظروف السياسية والاقتصادية التي تمس حياته. و«تلوين» هذه الأشياء كلها ممكن في الفن الصحفي الذكي، إذا استبعدنا صحافة الكذب الصريح. ولهذا لا يمكن وضع هذا كله في فرد أو مجموعة أفراد.

في انجلترا مثلاً اضطرت جريدة **«النيوز كرونيكل»** إلى الاختفاء وهي توزع مليوني نسخة. وكانت جريدة متحررة اشترتها جريدة أغنى، محافظة هي **«الديلي ميل»**. وقامت ضجة كبيرة! لقد بيع مئات الصحفيين وملايين القراء كما يباع العقار مثلاً!

ويومها قامت ضجة كبرى. وشكلت حكومة العمال لجنة لتضع قانوناً يتصدى لهذا الواقع الخطر. ولكن الضجة ماتت. لأن أحداً لم يهتد إلى صيغة في انجلترا إلى الآن...

وفي فرنسا، كان هناك واقع تاريخي، وهو أن ديغول، بعد تحرير فرنسا من الاحتلال النازي، اختار شخصياً، بمحض نفوذه المعنوي، رجالاً أقوياء وذوي نزاهة، على اختلاف ميولهم، لرئاسة تحرير الصحف الكبرى.

وكان أهم من اختارهم «بيف ميري» لرئاسة تحرير **«الموند»** و«بريسون» لرئاسة تحرير **«الفيجارو»**...

والصحف في فرنسا مملوكة لملوك الصناعة والمال. **فالفيجارو** مملوكة لـ «يوساك» ملك صناعة الغزل ومجموعة مشابهة. وهكذا. ولكن شخصية رئيس التحرير «بريسون» حفظت للجريدة ـ وهي يمينية محافظة ـ استقلالها إزاء قوة صاحب المال. واستطاع بريسون أن يجعلها منبراً لكبار الكتاب والمفكرين في فرنسا. ولكن بريسون مات. وصارت يد صاحب المال موضوعة مباشرة على الجريدة. وبدأ باختيار رئيس تحرير لم يرض به المحررون، لأنهم توقعوا أن يكون دمية في يد المالك: ولا أحقية مهنية له، فأضربوا عن العمل...

وتكرر هذا في **«باري ماتش»** أكبر مجلات فرنسا، وفي **«الاكسبريس»** بصورة أخرى.

ودارت أبحاث، وجرت مناقشات واسعة، وطرحت اقتراحات، كأن يكون لصاحب الجريدة ما يساوي ٤٠ بالمئة من الرأي في اختيار رئيس التحرير، وللمحررين ٦٠ بالمئة من الرأي مثلاً!

وقد صارت هناك مكتبة ضخمة من المؤلفات، تدور كلها حول هذا الموضوع **«الصحافة ـ والمال ـ والحرية»**.

إذن فالقضية مطروحة على مستوى العالم كله. والأمثلة لا حصر لها. وكلها تدور حول

التوفيق بين واقع تحول الصحافة إلى صناعة كبيرة وبين عدم ترك «الرأي» سلعة يحتكرها الأقوى في السوق.

نحن إذن نتحرك في أرض جديدة. . .

ومن الممكن، لو لم نتعجل الأمر، ولو حاولنا بحثه بكل عمق وجدية، أن نكون رواداً في ايجاد أو اقتراح صيغة في هذا المجال.

وقد تعود القارىء في مصر منذ زمن طويل أن يجد في الجريدة الواحدة أكثر من كاتب، يعبّر كل منهم عن اتجاه. وتعود القارىء أن يحاسب الكاتب، لا الجريدة، على الأقل بالنسبة للأسماء البارزة. وفي نفس الوقت لم يكن الوضع دائماً مثالياً، فقيادة المؤسسة الصحفية كانت كثيراً ما تستعمل سلطتها المطلقة في التضييق على كاتب، وافساح المجال لآخر، لاعتبارات سياسية أو شخصية. وليس عنصر التأثير الأساسي في الجريدة مع ذلك هو المقال. إنه قبل ذلك طريقة تقديم الأنباء، وأولوياتها، وأسلوب نشرها، وتلوينها بذكاء، مما يعرفه كل أبناء المهنة، ويعرفه أي قارىء ذكي. وكثيراً ما حكمت قيادات صحفية، بحكم مركزها، على مواهب وطاقات بالإعدام، لخلاف معها في الرأي، وأحياناً في المزاج.

هناك إذن، في تقديري، أمران واضحان:

الأمر الأول، هو حق كل حزب في أن تكون له جريدة أو مجلة تعبر عن رأيه.

والأمر الثاني، إن توزيع الصحف الكبرى القائمة على الأحزاب أمر غير مقبول. فلهذه الصحافة مهمتها ودورها الأساسي في أي حياة سياسية ديمقراطية.

ولكن الأمر الثالث، الذي يحتاج إلى بحث عميق، وجديد تماماً، فهو وضع الصحف المستقلة، ونظم ملكيتها، وإدارتها، بطريقة تجعلها أقرب فعلاً إلى الاستقلال. . .

الاستقلال، بمعنى أنها ليست مقيدة ولا موجهة.

والاستقلال، بمعنى أن تكون أوضاعها الداخلية أكثر ديمقراطية، بحيث لا يكون قيامها بدورها ـ في الخبر والرأي ـ حكراً مطلقاً لفرد حتى ولو كان ملكاً، وأن تكون أكثر مسئولية، مع عدم الإخلال طبعاً بحقوق التدرج في المسئولية الذي لا بد منه من أجل إدارة أي مؤسسة إدارة ذات كفاءة ومسئولية.

هذا ما أرى عدم التسرع فيه. . . وما أزعم أنه يحتاج إلى التعرف على آراء دائرة أوسع جداً من أعضاء المجلس الأعلى للصحافة.

٢٣ ـ نظرية «التوتر المحدود» بعد نظرية «الحروب الصغيرة»
حرب ١٩٧٣ وغلطة نيكسون وكيسنجر التاريخية(*)

الولايات المتحدة الأمريكية دولة ليس لها سر، وإذا كانت هناك دولة تحمل اسم «المجتمع المفتوح» فالذي لا شك فيه أن الولايات المتحدة هي الدولة التي ذهبت في هذا المجال إلى أبعد مما ذهبت إليه أي دولة أخرى في العالم: مهما كان نظامها السياسي.

والأمثلة كثيرة لا تحتاج إلى بيان. يكفي أنه لا توجد دولة في العالم تسمح ـ بالقانون أو بالقواعد المتعارف عليها ـ لناس كانوا في أكثر المراكز حساسية، بكتابة مذكراتهم وإذاعة أسرارهم وأسرار الدولة بمجرد تركهم مراكزهم، حتى وزير الخارجية، حتى مسئول المخابرات. بل لقد رأينا كيف أن دور النشر المتنافسة تبدأ مفاوضاتها معهم للفوز بحقوق النشر، حتى قبل أن يترك هؤلاء مناصبهم، وأحياناً يتقاضون الأقساط الأولى! وإذا كان في هذا جانب سياسي يتمثل في العادات السياسية المتطورة للدولة، ففيها جانب اجتماعي يتمثل في القيمة الكبرى للمادة في هذه المجتمعات التي جعلت لكل شيء ثمناً، ولا بد أن يباع به في وقته المناسب، حيث يدر أعلى ربح ممكن.

من أجل هذا، فإن فهم السياسة الأمريكية، بأعمق وأخص دوافعها لا يمكن أن يستعصي على أحد، فقط إذا كان مستعداً لأن يبذل الجهد الكافي، مع خلفية معقولة عن المهم وغير المهم. فهناك الصحف ذات المصادر الهامة، والكتّاب الذين من صلب نظامهم أن يعرفوا خلفيات الأمور، ثم العدد الهائل من المجلات المتخصصة، والدراسات الواسعة التي تقوم بها معاهد أو مؤسسات بأكلمها، تحت تصرفها الأموال اللازمة والوثائق الأساسية. ثم المطبوعات الرسمية المذهلة التي يجدها المرء تباع في أماكن مخصصة لها. محاضر لجان الاستماع في الكونجرس. الدراسات التي تعد خصيصاً لحساب لجان الكونجرس. ثم الفيض الهائل من مؤلفات المعلومات الساخنة أو مؤلفات الاعترافات، ابتداء من عميل سابق في المخابرات

(*) الأهرام، ١٩٧٨/٦/١١.

إلى رئيس سابق للجمهورية، مثل نيكسون، بل وزوجة جونسون وأم كنيدي، وطباخ البيت الأبيض!

وطبعاً، هناك ما لا يُعرف في حينه، ولكنه لا بد أن يعرف بعد حين. وهذا ليس بالأمر القليل الأهمية. فما يعرف ولو بعد حين، إذا عرف بدقة معقولة، فإنه يكون عظيم الفائده في فهم ما يمكن أن يحدث بعد حين.

فمن الأخطاء أو الأوهام الشائعة أن كل شيء في سياسة أمريكا يمكن أن ينقلب بذهاب رئيس ومجيء رئيس.

نقول كثيراً في العالم العربي: لو بقي روزفلت، لو لم يكن ترومان، لو جاء كنيدي أو جاء نيكسون وهكذا.

وربما، مع التساهل الشديد، يمكن استثناء روزفلت ـ ربما ـ لأنه الوحيد الذي كان استثنائياً في تاريخ أمريكا الحديث من جميع الوجوه، بدليل أنه الوحيد خلال ٢٠٠ سنة الذي سمح له، ضد الدستور، بأن يتولى الرئاسة ثلاث مرات متوالية.

أما كل من جاءوا بعده، فربما اختلفت بعض المظاهر، أو بعض الظروف والحظوظ. ولكن ما ينشر بسرعة من وثائق يدل على أن **درجة الاستمرارية في الخطوط السياسية الأمريكية عالية جداً.** وهي تتغير طبعاً ولكن بناء على تغير ظروف موضوعية وليس بناء على تغير رئيس أو وزير خارجية.

حين نأخذ انفتاح أمريكا على الصين كنموذج نجد أنه **لم يكن عملاً مسرحياً كبيراً مفاجئاً، كما أخرجه كيسنجر ونيكسون.** لقد بدأ التفكير فيه منذ خلاف روسيا والصين سنة ١٩٥٨، وقبل أن يعلَن الخلاف في الصين، ولكن أمريكا بوسائلها كانت لديها معلومات عنه.

وأذكر أنني سمعت لأول مرة بشكل جدي ومفصل عن خلاف روسيا والصين، من أستاذ أمريكي عجوز وأنا أزور جامعة ستانفورد، رغبت في التعرف عليه حين قيل لي إنه كيرنسكي!

كيرنسكي حاكم روسيا بعد سقوط القيصرية ١٩١٨ والذي هزمه لينين بالثورة البلشفية!

كان لا يزال حياً ومتفرغاً للشئون السوفيتية في أمريكا (مات منذ سنتين) وكانت معلوماته مذهلة عن الأجهزة الأمريكية قطعاً وكان السؤال هو: كيف يمكن لأمريكا الاستفادة من الموقف المفاجىء المذهل! وفي سنة ١٩٦٠ جاء كنيدي ليقوم بأول لمسة حين أرسل الصحفي الأمريكي الراحل «إدجار سنو»، بوصفه صديقاً قديماً لماوتسي تونج لجس النبض. ثم تفاقمت حرب فيتنام لدرجة صار تجاهل الصين معها مستحيلاً. هكذا تفاعل الأمر أكثر من عشر سنوات حتى تحول إلى سياسة جديدة.

وإذا أخذنا جزئية فقط من جزئيات الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وهو امداد أمريكا لإسرائيل بالأسلحة: كيف أن أمريكا كانت في البداية لا تسلح إسرائيل. ثم صارت تدفع الثمن فقط. ثم صارت تضغط على دول أخرى لتسلح إسرائيل، كما فعلت حين ضغطت على اديناور لعمل أكبر وأول صفقة دبابات بين ألمانيا وإسرائيل، سراً، لولا أن كشفتها وقتها المخابرات المصرية، ثم كيف تحول الأمر إلى تسليح أمريكي مباشر لأول مرة في عهد كنيدي، مقتصراً على أسلحة دفاعية، وكان أول الغيث قطرة ثم بدأ ينهمر، بناء على ظروف كثيرة . . .

وليست هذه الدرجة من الاستمرارية غريبة.

فهذه الاستمرارية صفة لا بد منها في الدول والقوى العظمى، إذ ليس بالعضلات العسكرية وحدها تكون الدولة دولة عظمى.

ثم إن العناصر المؤثرة في المجتمع الأمريكي وبالتالي في صنع القرار السياسي الأمريكي عناصر على درجة كبيرة من الثبات.

فقوى الضغوط الصهيوني مثلاً، سواء في الكونجرس أو الصحافة أو التليفزيون، وقوة نقابات العمال المنظمة، وقوة لجان الكونجرس، وقوة تأثير البنتاجون، ووكالة المخابرات المركزية، أو مجلس الأمن القومي، كل هذه قوى ثابتة، لها تأثيرها في اتخاذ القرار. صحيح أن الرئيس الأمريكي هو صاحب أكبر سلطة رئاسية في العالم، وأن على اقتناعه الشخصي يتوقف الكثير، ولكنه لا بد أن يراعي هذه العناصر كلها. يقودها بمهارة أو يعجز عن مواجهتها ويخضع لها، ولكن لا بد له أن يتفاعل معها على أي حال.

قال لي أحد وكلاء الخارجية الأمريكية السابقين، في مكتبه في وزارة الخارجية في واشنطن، مرة: «إن معركة الاعتراف بالصين أخذت ـ في الخارجية وحدها ـ ثماني سنوات: هي مدة تولي دين رأسك خلال رئاستي كنيدي وجونسون. ذلك أن دين رأسك بدأ حياته السياسية في الشرق الأقصى، وعاش هزيمة شيانج كاي شيك وانتصار ماوتسي تونج. وبالتالي كان شبه مستحيل بالنسبة له أن يقبل تغير الظروف. ولم ينقطع الجدل ثماني سنوات، وربما لو استمر، لاستطال الجدال».

وإذا ظن البعض، من عنف السياسة الأمريكية الداخلية، وصراعاتها المحتدمة، أن الأمر غير ذلك، وأن الأمور شخصية أو فوضى، فهو مخطىء . . .

وقد قال الزعيم الأمريكي المثقف ادلاي ستيفنسون كلمة مأثورة عن مثل هذه الصراعات: إنه سير صاخب يخفي وراءه لعبة شطرنج دقيقة!

يذكرني هذا بأنني رأيت في انتخابات سنة ١٩٦٠ شاباً عربياً متحمساً، يوزع في شوارع نيويورك منشورات مع نيكسون، وضد كنيدي، لأن اليهود يحبون كنيدي!

ويذكرني بأنني في انتخابات نيكسون ضد ماكجفرن، كان الهمس في واشنطن أن بعض أهل المال من العرب يساعدون في تمويل معركة نيكسون الانتخابية.

وإنني أعتذر عن هذا الاستطراد عن علانية الحياة الأمريكية وحيويتها واستقرارها معاً، وعذري أنني أردت أن أقدم بعض أبحاث ودراسات مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، التي وجدت طريقها أخيراً إلى النشر، حول الصراع العربي ـ الاسرائيلي . . .

والفترة التي دارت فيها هذه المناقشات ليست بعيدة جداً: كان وقتها نيكسون رئيساً للجمهورية، وكان كيسنجر وزيراً للخارجية ورئيساً لمجلس الأمن القومي، وكان ذلك بعد حرب سنة ١٩٧٣ بقليل، وهو أمر سوف تتبين أهميته . . .

والذي يعنيني إبرازه من تلك الأوراق نقطة أساسية، لأني أرى فيها «بعض الجديد»، القابل للتكرار!

وقد أعود للباقي، وهو هام أيضاً، في أحاديث أخرى . . .

كلنا نعرف أن الحرب الباردة بين الدولتين العظميين: روسيا وأمريكا، حين وصلت إلى قمتها، اقترن ذلك بنوع من التعادل الذري بين الدولتين، بطريقة جعلت تحول الحرب الباردة بينهما إلى حرب ساخنة أمراً مستحيلاً، لأنه يحمل الدمار الشامل لهما، قبل أن يحمله إلى سائر أنحاء العالم . . .

ساعتها برزت نظرية «الحروب المحدودة»، كمتنفس للصراع بين العملاقين: نظرية لم يخترعها أحد، ولكن فرضتها الظروف، وكانت تناسب العملاقين إلى حد بعيد . . .

فمعنى الحروب المحدودة، هو ألا تقع مواجهة بينهما.

ومعناها، أن تنتقل ساحة الصراع ـ والدمار ـ واقعياً إلى دول العالم الثالث: حيث لم ترسم الحدود نهائياً بين الطرفين، كما رسمت مثلاً في أوروبا وعرف كل طرف حدوده!

كانت «الحروب المحدودة» استنتاجاً تحول إلى واقع . وتوالت الحروب ولا تزال، على درجات وأنواع، اصطدم فيها السلاح الروسي بالسلاح الأمريكي، دون أن يصطدم الجندي الروسي بالجندي الأمريكي . . .

حروب، سواء أخذت حجماً هائلاً مثل فيتنام، أو أخذت أحجاماً أقل وصورة أخرى مثل حرب سنة ١٩٦٧ في الشرق الأوسط، وحرب أنجولا القصيرة وحرب القرن الافريقي المستمرة بصورة ما .

مناطق بركانية، يتصاعد منها البخار واللهب في أنفاس جهنمية، لكنه أقل ضرراً من انحباس النار والبخار ثم انفجار القشرة الأرضية كلها!

ثم جاء وقت عرفنا فيه في المنطقة حالة أخرى ـ محسوبة أو غير محسوبة ـ اسمها «حالة اللاسلم واللاحرب». حالة، إذا كانت بالنسبة لنا جحيماً آخر، فهي بالنسبة لبقية العالم أهون وأقل ضرراً من حالة الحرب، إذا تعذر السلم على أي حال!

ومن يده في الماء، ليس مثل من يده في النار، كما يقول المثل الشائع!

ونفهم من هـذه الأوراق، أن امتحانـات كثيرة مـرت بالـدولتين العـظميـين، علمتهـما احتواء الخطر، ومنع المواجهة: ذكر في المناقشات نموذج أزمة الصواريخ، وحصار كوبا، وأزمة سبتمبر سنة ١٩٦٩ في الأردن، وخطر دخول أطـراف أخرى، وحـالة التـأهب العسكري من الدولتين، ثم تلافيها. . .

ونفهم أيضـاً أن أمريكـا بالـذات وصلت إلى الاقتناع بـأنه يمكن تجنب المـواجهة، وأن الاتحاد السوفييتي ليست لديه نوايا مغامرة، وأنها بالتالي اسـترخت تماماً بالنسبـة لأزمة الشرق الأوسط.

وفي لحظة معينة، صار كل ما يعنيها هو اقتلاع الوجود السوفييتي من المنطقة ـ لارتباطـه باستراتيجية الصراع الدولي لا المحلي ـ وقد تم لها هذا دون جهد منها. . .

ولكن حرب سنة ١٩٧٣ قلبت هذه الحسابات.

وتقـول الأوراق إن نيكسـون وكيسنجـر كليهما ـ ومعهـما مجلس الأمن القومي ـ نـدموا على أنهم لم يتحركوا في الوقت الساكن قبل حرب سنة ١٩٧٣.

كان حسابهم أن دولة أقل تسليحاً لا تحارب خصـماً أكثر تسليحـاً. وبالتـالي فمصر لن تحـارب إسرائيل. ثم اكتشفـوا «أن قرار الحـرب في الأغلب يكـون قـراراً سيـاسيـاً، وليس عسكرياً يقوم على احصاء كم مدفع وكم دبابة». وكان هذا إهمالاً سياسياً كبيراً.

وكلنا نعرف آثار حرب سنة ١٩٧٣. . .

أما بالنسبة لما تـظهره أوراق مجلس الأمن القـومي فالـذي يهمني هو أن أركـز هنا عـلى زاوية جديدة:

برزت نظرية: أن هناك مشاكل قابلة للحل، وهذه يجب الهجوم عليها، ومحاولة حلها بكل الطرق، فعدم الانفجار غير مضمون. . .

وهناك مشاكل يمكن حلها بالتدريج. . .

وهناك مشاكل غير قابلة للحل. . .

ورأى مجلس الأمن القومي ـ في تلك المرحلة السابقة على الأقل ـ أن أمريكا جربت في الشرق الأوسط الحل الشامل، والحلول الجزئيـة، والحل بـالاشتراك مـع روسيا، والحـل مع استبعاد روسيا. ولكن بدأ كثيرون يرون أن المشكلة ربما كانت ضمن البند الثالث «مشاكـل غير قابلة للحل!». . .

فما هو التصرف إزاءها؟

قبـل حرب سنـة ١٩٧٣، أسقطوهـا ببساطـة من حسابهم، حتى هـزتهم حـرب غـير متوقعة، من زاوية منطقهم.

إذن فترك مشكلة متفجرة بغير حل لا يكفي...

الحل، تعبير جديد، من التعبيرات السياسية التي تمطرنا بها أمريكا، هو إيجاد حالة اسمها «التوتر المحدود Controlled Tension» والترجمة الحرفية ربما كانت «التوتر المحكوم»...

السكوت عنها، وتصور أنها ستبرد، خطأ، الخوض في حقل ألغامها وصولاً إلى حل، مستحيل، وفيه كل الخطر. إذن لا بد من الاعتراف بوجود التوتر، بل والاحتفاظ بهذا التوتر، والتعامل معه تماماً كما تبقي سائلاً عند درجة غليان معينة!

تفكير مخيف!

ولكن من يده في الماء ليس كمن يده في النار!

ولا توجد تفاصيل عن كيفية «إبقاء التوتر والتحكم فيه في نفس الوقت»...

ولكن، حين أجد اضطراب الساحة العربية العظيم، وتوزيع بيع السلاح بقدر معلوم بين العرب وإسرائيل، والحروب الداخلية العربية مثل لبنان، وما تلاها من تمزق عربي أعمق...

حين أجد هذا، على الأقل، لا أملك نفسي من التفكير في قوم يجلسون في آخر الدنيا، آمنين، يأتيهم مالهم وبترولهم ونفوذهم، وتهز دولاراتهم الدنيا، صعوداً وهبوطاً، وتغمر سلعهم العالم، ويرون أن خير ما يناسبهم، هو أن نبقى في حالة من «التوتر المحكوم!».

هل يمكن أن نثبت لهم أن «التوتر المحكوم» مستحيل، كما أثبتت سنة ١٩٧٣ أن «اللاحرب واللاسلم» أمر مستحيل؟

٢٤ ـ قبل ثورة ٢٣ يوليو(*)

قبل ثورة ٢٣ يوليو لم تكن هناك ديمقراطية لا سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية كما يتوهم البعض، مستغلين فرصة أن ٧٠ بالمئة من الشعب المصري لم يكونوا قد ولدوا أو بلغوا سن الوعي في ذلك الوقت.

كان الانجليز والقصر يحكمان البلاد ببرلمانات مزورة معظم الوقت. كان سكرتير السفارة البريطانية يذهب إلى البرلمان ويطلب تغيير المضبطة. وكان المليونير يدفع نصف مليون جنيه للملك فيقيل الوزارة ويعين وزارة أخرى! وقد أعلن الملك دخوله حرب فلسطين أول مرة دون إخطار مجلس الوزراء ولا البرلمان. فالحكم الفردي كان عارياً لا تستره الأحزاب المؤلفة تأليفاً. وكان القصر والحكومة يؤلفان عصابات سرية لاغتيال المعارضين، كاغتيال المرحوم حسن البنّا والمرحوم عبد القادر طه. وعرفت سجون مصر التعذيب وهتك الأعراض و«العسكري الأسود» في أواخر الأربعينات. وانتشرت الاغتيالات ونسف المنشآت وإضراب كل الفئات، حتى وصل الأمر إلى إضراب ضباط البوليس. . نعم ضباط البوليس واعتصامهم في حديقة الأزبكية.

وكانت العائلة المالكة التركية وحدها تملك أكثر من نصف مليون فدان دون أن تكون لها بالأرض أي صلة. وكانت خطبة العرش التقليدية تتحدث دائماً عن «مقاومة الحفاء» فقد كان الشعب المصري كله حافياً. ولم تكن هناك حقوق لا للفلاح ولا للعامل ولم تكن هناك أي قاعدة صناعية فيها ما نراه الآن من مئات الآلاف من الخبراء والفنيين والعمال، وكان هناك شيء اسمه «عمال التراحيل»، وكانت مصر من بلاد الأوبئة المسجلة رسمياً في العالم، من الكوليرا إلى التيفود على نطاق مدن بأكملها في كل موسم. ولم يكن يعرف السفر إلى

(*) الأخبار، ١٩٨٣/٧/٢٣.

الخارج إلا مئات فقط من كبار الأثرياء. وبالتالي لم تكن هناك أزمة مطارات! وهذا ينطبق على أشياء أخرى كثيرة.

وكان «محمد حسن» الخادم الخاص للملك هو أهم رجل في مصر، يتملقه الرؤساء والوزراء، ومنه يأتي الوحي الذي يعز ويذل!

ولا ينكر أحد على الإطلاق أن مصر كانت مقدمة على حرب أهلية لو استمرت تلك الأوضاع. وأن ثورة ٢٣ يوليو أيدتها لحظة إعلانها الأغلبية الساحقة من الشعب المصري.

وعبرة التاريخ أن كل وضع يتكلس ويتحجر، ويصبح مناقضاً لرغبات الجماهير، ولا يعتمد في وجوده إلا على القوة والعنف، لا بد أن يلقى نهايته بعمل عنيف.

فالحقيقة الأولى والأخيرة أن ثورة ٢٣ يوليو كانت ضرورة. وحالت دون قيام حرب أهلية. وأعطت الملايين فرصة للمشاركة في الحياة.

و«حدث الثورة» ينتهي، وهو لا يصنع نظاماً ديمقراطياً ـ واتحدى أن يضرب أحد لي مثلاً عن «حدث ثورة» في أي مكان في العالم جرى ببرلمان وبتصويت ديمقراطي ـ ولكنه يحطم الحواجز التي تفتح الباب نحو إقامة نظام ديمقراطي. وقد انتهى «حدث الثورة» منذ ما يقرب من عقدين من الزمان وبقيت مبادئها الأساسية ومهمتنا نحن بعد ذلك أن نقيم نظامنا الديمقراطي، كما يحدث عادة بعد كل ثورة.

لقد أعلن الرئيس السادات سنة ٧٣ انتهاء «الشرعية الثورية» وبدء «الشرعية الدستورية»، أي ان أحد قادة الثورة أعلن هذه الحقيقة بنفسه ودخلنا منذ أكثر من ١٢ سنة في مرحلة الحياة العادية. أي انه لم يعد مجال لأوضاع استثنائية ليست مباحة ومقبولة إلا في «مرحلة الثورة». وأقول هذا لأن بعض الناس ـ حتى الآن ـ يحلو لهم إذا اشتكوا من شيء حدث منذ سنة مثلاً أن يقولوا «إنها ثورة ٢٣ يوليو».

ليس ذنب الثورة أننا لم ننجح في انتقاء مزاياها وفي تلافي عيوبها في الممارسة، وفي إزالة «الضرورات» التي تلازم الثورات، والاحتكام الجدي إلى «سيادة الدستور والقانون» وإلى بناء مجتمع جديد، ومتطور، على هذه الأسس.

إن المهم الآن أن ننظر إلى الثورة نظرة «تاريخية» وألا نخوض معارك فات أوانها وأن نركز جهودنا ـ وحتى خلافاتنا ـ على الحاضر والمستقبل.

٢٥ ـ ماذا حدث في مصر؟!(*)

جاءت تزورني، كما تفعل عادة، مرة كل سنة، سيدة نوبية من أسوان، سمراء داكنة اللون، في حوالي الخمسين من العمر عملت معي «شغالة» في الكويت منذ سنوات بعيدة. تأتي كل موسم تزور أهلها في أسوان وتزورني في القاهرة. وكنت قبل ذلك بشهور، عرضت عليها عملاً في بيت صديقة لنا في القاهرة: الأم أصيبت بالشلل ويبحث أبناؤها عن سيدة ترعاها وتساعدها وتتفرغ لها. فهو عمل قليل ولكنه يناسب مثلها، في نظافتها وهدوئها وإحساسها بالمسئولية.

وعرضوا عليها: ثلاثمائة وخمسين جنيهاً في الشهر!

ويومها قالت: أربعمائة!

وقبلوا ما طلبت. وبقيت في القاهرة، سعيدة بعملها والناس سعداء بها. وفوجئت بها حين جاءت منذ أيام تقول لي: إن «واحد بيه» حصل لها على تأشيرة دخول إلى الكويت، وإنها عائدة لتعمل هناك.

ـ هل ستأخذين أكثر من أربعمائة جنيه، فوق السكن والطعام والراحة، وانت هنا بين أهلك وفي بلدك؟

وقالت لي: «الاسوانلية» التي لا تقرأ ولا تكتب ان الدولار صار بمائة وثمانين قرشاً تقريباً أي ان الدينار الكويتي لا بد قد صار يساوي بين خمسة وستة جنيهات، وليس جنيهين اثنين كما كان زمان. أي انني سأجد بسهولة عملاً مقابل ستمائة جنيه على الأقل!

وليست هذه هي القصة، ولا لهذا جاءت. فقد أخرجت من طيات ثيابها بعض

(*) الأخبار، ١٩٨٥/١٠/٢٦.

الأوراق. وقالت لي إنها تخص ابن اختها: هذه شهادة بكالوريوس كلية التجارة وماجستير من ألمانيا في التجارة. عمل في السودان عشر سنوات وقرر العودة إلى مصر. ولكنه لا يجد أي عمل بمائة جنيه، وقد صار صاحب أولاد. فهل يمكن أن أساعده؟

وعجبت للمفارقة الأشبه بالمواقف التصميمية الركيكة، لولا أنها حقيقة ماثلة: سيدة لا تعرف القراءة والكتابة تترك عملاً بأربعمائة جنيه في الشهر (فوق الطعام والإقامة وخلافه) وتبحث عن عمل لابن اختها حامل البكالوريوس والماجستير وشهادة الخبرة من السودان، ولا يجد عملاً!

وفي بيتي تعمل فلاحة مصرية شابة، تأتي كل صباح من قريتها عند أطراف المدينة، وتعود إليها مع الغروب. لا تراها خارج البيت إلا بزي الفلاحة الأسود وغطاء رأسها. ولكنها، قبل أن تجيء إلينا، عملت في إحدى السفارات الأجنبية في القاهرة. وبشبابها وحيويتها وحسن مظهرها يبدو أنها تعلمت بسرعة، وطلبت أن نشتري لها ثوباً يناسب استقبال الضيوف، و«مريلة» بيضاء و«تاجاً» من القماش الأبيض على الرأس كتاج الممرضات. وأين نصنع هذا؟ قالت: اشتروا لي القماش، وفي قريتنا فلاحة لديها «ماكينة خياطة» تتقن صنع هذه الأشياء!

وعلى شبابها ـ فوق العشرين ودون ـ الثلاثين ـ فلديها أربعة أبناء وبنات من زوجها العامل الصناعي الذي يوصلها إلى المدينة «بالموتوسيكل» الذي يملكه. ومع السنين صار لديها في البيت ثلاجة وسخان وبوتاجاز و«غسالة» كهربائية، فهذا يمكّنها من العمل معظم النهار. وأبناؤها وبناتها في المدارس، وآية في النظافة والاجتهاد. . .

ولهذه الصفات كلها نغفر لها أي غياب أو تأخير. فهي جزء من البيت ولا بد لغيابها من سبب جدي، ليس كسلاً ولا إهمالاً.

وبعد انتفاضة ١٨ و١٩ يناير سنة ١٩٧٧، استدعاني الرئيس الراحل أنور السادت من الخارج. وجئت بعد أن هدأ كل شيء إلا الرئيس السادات نفسه. وقضيت ثلاثة أيام متوالية أذهب إليه في استراحة القناطر صباحاً وأعود قبل منتصف الليل، في مناقشات ساخنة. كان أمامه طريقان: طريق القمع والقوانين الاستثنائية أو طريق آخر هو الاعتراف بالخطأ الذي وقع، ونسيان ما فات، ومواجهة المستقبل بخطة جديدة.

وتلك أحاديث بالغة الأهمية، لكن ليس هذا مكانها. ولكنني استرجع هنا قولي له في غمرة المناقشات:

ـ «يا ريس، بعض وزرائك، إذا سمحت لي، خواجات! لا يعرفون الا الزمالك، لا يعرفون ما فعلته ثورتكم منذ ١٩٥٢ للمجتمع. لقد اعتبروا البوتاجاز سلعة كمالية! لا يذكرون أن المصانع الحربية انتجت بوتاجازات دون أفران، ثمن الواحد عشرة جنيهات. ثم جعلوا شراءه بالتقسيط: جنيهاً واحداً كل شهر! البوتاجاز الآن في كل بيت. تطور حدث وعلينا أن نستقبله ونوجهه. أطلب من مباحث وزارة الداخلية أن تحضر لك «وابور بريموس»

ولن تجد واحداً في كل أسواق القاهرة! إسأل يا ريس الأسطى الذي يقدم لنا القهوة ماذا يستخدم في الطهي في بيته. ثم إن كل قرص طعمية وكل حفنة فول مدمس تطهى على البوتاجاز. رفع سعر البوتاجاز رفع سعر سندويتش الفول. وقد بدأ الاضطراب كما فهمت من عمال مصنع في حلوان فاجأهم بائع الفول والطعمية برفع أسعاره قبل أن يقرأوا صحف الصباح»!

لم يأخذ الرئيس السادات باقتراحاتي، وهي مواجهة الموقف بعلاج بعض جذوره الاجتماعية الاقتصادية، واختار طريق القوانين الاستثنائية ولكنه أدخل ما قلته في ضميره، وعدنا إليه بعد ذلك مرات. ومرة أخرى، ليس هذا موضوعنا، إنما لا يملك المرء إلا أن يسجل أن الحاكم، مهما كانت جذوره شعبية، إلا أن ما يحاط به من طقوس ونفاق تقيم حوله «طبقة شمعية عازلة» تبعده عن فهم التغيرات الاجتماعية، حتى تلك التي شارك في صنعها.

ماذا حدث في مصر؟ . ما الذي «عزق» بمجتمعها، كما يعزق الفلاح الأرض، وغير من «الطبقات الجيولوجية» لهذا المجتمع فصار الكل قلقاً، غير راضٍ بشكل أو بآخر، المليونير والموظف الصغير، والمهرب والشريف، العالم والجاهل؟ . . .

ثلاثة أحداث كبرى، توالت على هذا المجتمع خلال ثلاثين سنة فقط، فاختلط الحابل بالنابل، ولم تستقر آثار هذه الأحداث بعد، ولن تستقر إلا بعد زمن:

- ثورة يوليو ١٩٥٢.
- البترول العربي.
- الانفتاح.

ثورة يوليو، أطلقت فئات محرومة من عقالها، كانت محتجزة في قاع الهرم الاجتماعي، منذ مئات السنين (ربما آلاف!) صار منها طلبة الجامعات، والذين زحفوا إلى المدن والذين سافروا إلى الخارج بعشرات الآلاف.

كان الوجيه الذي يسافر إلى الخارج تنشر صورته في الصفحة الأولى للصحف. صار أبناؤهم أعضاء في البرلمان، ومديري شركات ومؤسسات، وصاروا هم الجمهور الغالب للسينما والمسرح. . . لم تعد هذه المجالات «للنخبة» القديمة، سواء كانت «نخبة المال» أو «نخبة الثقافة»، إنما انحشرت هذه النخبة بين قوتين ساحقتين:

قوة صاعدة من أسفل، وتتميز بكثرتها العددية الساحقة، وبالتالي فرضت ذوقها ومزاجها على هذه المجالات، لأنها المستهلك الأكثر عدداً. . . قوة ضاغطة من أسفل وقوة ضاغطة من أعلى، جاءت من السببين الآخرين:

البترول العربي، الذي ترك بصماته ليس على مصر فقط ولكن على كل العالم العربي من المحيط إلى الخليج. . . ارتفعت فجأة دخول ناس بسطاء، غير مهيئين أيضاً لاستخدام

المال استخداماً عقلانياً، لا ادخار ولا استثمار. ربما أيضاً لأننا لم نهتم بذلك، فلم يعد أمامهم إلا عادات استهلاكية مبتذلة، الإسراف في الطعام والملابس وشراء الفيديو والسيارة لكل «عيّل» وبناء البيوت القبيحة، دون أن يصدهم قانون أو تخطيط. . . ووصل أثر البترول إلى أقصى أنحاء الريف، فالفلاح المقيم يرى الفلاح العائد، يشتري قطعة أرض، ويبني من الطوب والإسمنت، وتغرق زوجته في الأساور الذهبية تشخشخ بها، ولا يدخن إلا السجائر «كنت» و«مارلبورو». . . فكيف يبني هو في الأرض، يعرق ويشقى، وإذا لم يسافر إلى الخليج، فلا أمل من القاهرة. . .

والانفتاح، الذي تصادف أن جاء مع ذروة الرخاء البترولي وارتفاع أسعاره وتدفق أمواله. . .

قال لي صديق من رجال الأعمال الناجحين، الذين ينتمون إلى المال والأعمال قبل اختلاط الحابل بالنابل:

- «اتعرف اسم صاحب محلات كذا؟ واسم توكيلات كيت»؟

ومضى يردد لي أسماء مؤسسات تجارية، كلها أسماء أجنبية و«شيك».

قلت له: «لا». . .

أجابني: «صاحب الأول اسمه «زينهم»، والثاني صاحبه اسمه «عتريس» والثالث اسمه «شلاطة»! بماذا توحي إليك هذه الأسماء؟

- «أسماء شعبية». . .

قال: «هذا لا يعيبهم. ولكن لمعلوماتك كل هؤلاء مليونيرات، وفي خلال أقل من عشر سنوات. ففي سنة ١٩٧٤، مع أول الانفتاح، لم تكن نفس الفرصة متاحة لنا. نحن القدامى في السوق، كان السوق خالياً من مختلف انواع البضائع والسلع والحاجيات. وكانت الفرصة الذهبية لمحل لديه «كاش!» أي مال سائل. ولم يكن المال السائل متوفراً، بل مكدساً إلا عند المهربين. وهم نوعان: مهربو المخدرات وانت تعرف أنه إلى الآن مطلوب دائماً في السوق ألف مليون دولار سنوياً على الأقل يحتاجها تجار المخدرات وسيشترونها من السوق بأي ثمن. ومهربو السلع العادية، السيارات والأخشاب وغيرها، مستعينين بأصحاب النفوذ.

من كان لديه مائة ألف جنيه «كاش». . سنة ١٩٧٤ مستعد لأن يستورد بها أي شيء، صار لديه الآن عشرة ملايين».

وتذكرت أنني سنة ١٩٧٤ وأنا أتولى رئاسة تحرير الأهرام، كتبت في الصفحة الأولى تحت عنوان «الانفتاح ليس سداح مداح» وشكاني الدكتور عبد العزيز حجازي رئيس الوزراء يوم ذاك إلى الرئيس السادات، وسافرت شهراً ثم عدت فوجدت الدكتور عبد العزيز حجازي يقول في مؤتمر صحفي إن الانفتاح ليس سداح مداح، وسأله: ماذا جرى لتستعمل العبارة التي غضبت منها؟ قال: مع قانون الانفتاح، والاستيراد بدون تحويل عملة، وضعت كشفاً بستين سلعة ينطبق عليها ذلك، كل مواد وأدوات تهم الصناعات الصغيرة التي يعمل فيها مئات الآلاف، الأثاث، الأحذية، البناء. ولكن حملات صحفية تشن، وضغوط قوية

ترى عدم تحديد الاستيراد بأي قيد، وهذا معناه تدفق «الهواة» وشراء الفزدق مثلاً، الذي تلتهمه القاهرة في يوم، فتدور دورة المال بسرعة أكبر وأسهل وتتراكم المكاسب دون خبرة ولا معرفة ولا جهد، ويداس تحت الأقدام رجال المال ورجال الاستثمار الحقيقيون المدربون.

المهم، أن شريحة كبيرة من الذين استفادوا من الانفتاح على هذا النحو، كان لهم نفس عادات أثرياء البترول: عدم إحسان استعمال المال. في الارتقاء الحقيقي بمستوى المعيشة والتحضر والتمدن هؤلاء وأولئك فرضوا أذواقهم المتخلفة وفوضاهم، وطغيان المال في أيديهم على النسيج الاجتماعي في البلاد. وحدث هذا الضغط من أعلى ومن أسفل كما ذكرت على «النخبة» المتعلمة بمعنى التعليم والاستنارة الحقيقي، لا بمعنى الشهادة. صرت تجد في نفس العمارة مثلاً، شقتين متجاورتين، شقة يسكنها «البيه» أو «الأفندي» القديم الذي داسته الأقدام، ليس لديه مال، ولكنه يهتم بنظام البيت، وأولاده حسنو التربية، وصوت البيه هادىء. وفي الشقة الملاصقة، زعيق وضجيج وأصوات راديو وتليفزيون عالية تبلغ عنان السماء، وأطفال يعربدون على السلالم وقد أفسدهم التدليل والإرضاء بكل ما في السوق المصري والعالمي من ألعاب. وكلما كان صوت اللعبة عالياً كانت أحسن وأجمل.

- قال لي زميلي القديم في كلية الحقوق، والذي يعمل الآن مستشاراً:

«إنني أركب الأتوبيس من البيت ولكنني أنزل قبل مبنى المحكمة بثلاث محطات أمشيها على قدمي، فأنا إذا نزلت من الأتوبيس أمام باب المحكمة فإنني أنزل في غاية «البهدلة» من شدة الزحام كما تعرف، كرافتتي معوجة، وجاكتتي تكاد تتركني، وقد أنزل قفزاً، وأمام باب المحكمة أرى الذين سيمثلون أمامي في قاعة الجلسة، ينتظرون الموعد في سياراتهم المرسيدس والفولفو، فكيف أجلس أمامهم على منصة القضاء العالية؟ أما إذا وجدوني قادماً على قدمي فسيقولون إنني إما اسكن بالقرب من المحكمة، أو إن الطبيب نصحني بالمشي ساعة كل يوم».

- وقال لي رئيس وزراء سابق:

«يدخل عليّ وكيل الوزارة، فوق الخمسين من العمر، وياقة قميصه «دائبة» لأنه لا شك يعيش في شقة معقولة، ولا بد أن له ثلاثة أو أربعة أبناء وبنات في الجامعة. ولا شك يحافظ على مظهر «سعادة البيه» ومن أين له بهذا كله».

حقاً، هؤلاء «البكوات» و«الأفندية» هم «البلوريتاريا» الجديدة في هذا الحابل والنابل الاجتماعي الشامل.

- قال لي «سمكري» يتردد علينا ولاحظت متابعته للحركة المسرحية أكثر من بعض نقادنا: «كنت أكسب عشرين جنيهاً في الشهر، الآن أكسب ثلاثمائة جنيه ولكنني عاجز عن شراء شقة. فأنا ما زلت في نفس الحي والبيت، وما زلت ألبس الجلباب والحمد لله والعيال وأم العيال كما هم. فماذا أفعل بالمال الفائض؟ الطعام، والملابس، والتياترو! أنا أشاهد كل روايات التياترو مع أن التذكرة بخمسة عشر جنيهاً». واستطرد قائلاً: «والصحف تهاجم السمكرية لارتفاع أسعارهم، اشمعنى الدكتور؟ والمحامي؟ والمهندس؟ ومن يريد أن يكسب فليترك رغبة أن يكون أفندياً ويشتغل سمكرياً ويكسب مثلي». وقلت له: «معك حق فالذين ينادون بالسوق الحر وقوانين العرض والطلب، لا يقبلون حكم السوق إذا عارض مصلحتهم».

ـ وقد نشر بالأهرام منذ سنتين في إعلاناتها المبوبة إعلان يطلب صاحبه مربية لأولاده تكون متخرجة من الجامعة وتعرف لغة أخرى غير العربية.

وفوجئت بأن أقلاماً صحفية تصرخ في آذاننا كل يوم بتمجيد العمل تهاجم هذا الإعلان وتندد بذلك الرجل الوغد الذي يريد خادمة خريجة جامعة وتعرف لغة وهذه إهانة للجامعات، في حين رأيت أنه رجل غير وغد على الإطلاق فهو يريد أن ينفق مما اعطاه الله على أهم استثمار وهو تربية أولاده.

فالحابل والنابل والاختلاط والتشويش، وصل حتى إلى عقول وأقلام بعض الذين يكتبون للناس ولا يعرفون رد مثل بعض ما يكتبون.

كان عندنا بواب، اعترضني ذات يوم منذ سنوات، وهو يحمل جريدة في يده وقال لي: «صحيح يا بيه، عايزين ولادنا يتركون العمل في ليبيا»؟

وقلت له: «كلا هذا رأي كاتب وليس قرار حكومة»، فردّ علي رداً أذهلني: «أصلك يا بيه راجل طيب دول عايزين يرجعوا أولادنا لكي يعملون خدماً في بيوتهم بثلاث جنيهات في الشهر زي زمان».

قلت له: «يا راجل حرام عليك».

قال لي: «ألا تقرأ كل يوم شكوه من ارتفاع أسعار الخدم والعمل اشمعنى نحن؟ انهم يستخسرون فينا ما نحن فيه. لماذا لا يمنعون سفر الأطباء والمهندسين والمعلمين؟ اشمعنى يتحدثون عن منع سفر العمال المهرة».

ـ قال لي رجل وقور جاء لإصلاح جهاز التليفزيون:

«كنت قبل عشر سنوات أكسب ثلاثين جنيهاً. الآن صرت أكسب فوق الخمسمائة جنيه وعندي سيارة، لكنني كنت أعيش أحسن فقد قررت ألا أعمل في دكان: فإذا أتى مأمور الضرائب ورأى عدد أجهزة التليفزيون في الورشة فرض عليّ ضرائب باهظة. قررت أن أعمل في البيت أذهب إلى الناس في بيوتهم فلا تعرف الضرائب طريقي، ولكن هذا يحتاج إلى تليفون ليتصل بي الزبائن ودفعت ألف جنيه لأحصل على تليفون، واشتريت السيارة اضطراراً لكي أستطيع الذهاب إلى الزبائن وإلا ضاع يومي في المواصلات العامة، وأحياناً اضطر إلى أخذ جهاز تليفزيوني معي إلى البيت، فالسيارة تسهّل حمله، وهي سيارة قديمة والحفر والمطبات تكلفني إصلاح السيارة كل أسبوع تقريباً، والارتفاع الرهيب في الأسعار، ستجد من يقول لك إن الأسطى الذي يصلح التليفزيونات يملك سيارة».

ـ هل أفلحتُ في تصوير نواح بسيطة توضح كيف اختلط الحابل بالنابل في حياتنا وصارت حقائق تصادفنا كل يوم وكل ساعة والتوتر الاجتماعي الذي يخلقه محلق في سماواتنا كغبار مدينة القاهرة الكثيف؟ وما هو التفسير الذي لا يهتم به حزب ولا حكومة؟ وما هو السبيل إلى الخروج؟

هذا الحديث يحتاج إلى مزيد من «الدردشة والحكي» فإلى لقاء آخر.

الفصل الخامس

الثقافة

أربعون عاماً من الكتابة الراقية

عبد العزيز المقالح(*)

إشارات أولى

يتنوّع محور الثقافة في نتاج الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين تنوّعاً خصباً ليغطي اتجاهات عدة أبرزها وأقربها إلى نفس القارىء اتجاهان اثنان: أحدهما الأدب والآخر الفن، وهما كسائر الاتجاهات في كتاباته العميقة المستعصية ـ ببساطتها ـ على الانغلاق والتعقيد يكشفان عن كاتب متعدد الاهتمامات يعتنق في مجال الكتابة عموماً مبدأ الحرية الذي يجعل الكاتب حراً في تناول أي من الموضوعات التي يشاء بعد أن يختار لها الاتجاه المناسب، السياسي، الفكري، الأدبي. . . الخ، مع حرص تام على اختيار الأسلوب الذي يعطي لكل هذه الموضوعات سموها وجاذبيتها.

تنوُّع في الموضوعات ووحدة في الأسلوب، هكذا هو أحمد بهاء الدين صاحب الصوت الأنقى في الصحافة العربية، وأحد المفكرين الذين خاضوا معركة تحرير العقل العربي، وراهنوا على أن يعيدوا إليه الثقة بقدرته على الإبداع وعلى الاختيار، وعلى تجاوز الشعور بالنقص تجاه الآخرين الأكثر مدنية وتقدماً. وهو لذلك يكتب المقال السياسي والبحث الفكري والنقد الفني بلغة أدبية مشرقة تشد القارىء وتلامس وعيه وعاطفته معاً وتقوده من أول سطر في المقال إلى آخر كلمة فيه. وإذا كان الكتّاب في الوطن العربي يشبهون الكتب في جودتها أو رداءتها وفي قدرتها على التأثير، فإن الكاتب أحمد بهاء الدين يأسرك بالمنطق الواضح كما الأسلوب المشرق، فما كتب شيئاً أيّاً كان موضوعه سياسياً أو تاريخياً أو ثقافياً إلّا وأحس القارىء أنه من الصعب أن ينصرف عنه قبل قراءته كاملاً، وربما عاد إليه مرات ومرات. وأعترف أنني قرأت كتابه أيام لها تاريخ، مثلاً، أكثر من مرة ورجعت إليه للاستئناس بأفكاره العميقة أكثر من مرة أيضاً، يشدني دائماً وضوح الرؤية وجمال الأسلوب والجهد المبذول في بناء

(*) مدير جامعة صنعاء سابقاً.

الجملة القصيرة والفقرة الطويلة عبر مؤثرات داخلية حادة ترتقي بالسياسي والتاريخي إلى قمة الأدبي:

«أيها القارىء!
هل عرفت أحدث تعريف للانسان؟
لقد قيل مرة: إنه حيوان ناطق، ثم تبين أن الببغاء تنطق.
وقيل: إنه حيوان ضاحك، ثم تبين أن القرود تضحك.
وقيل: إنه حيوان عاقل، ثم تبين أن كل الحيوانات تعقل وإن كان العقل درجات!

وحار العلماء طويلاً: فالإنسان كائن حي، يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات.. ولكن المؤكد أن هناك شيئاً ما يميزه عن الحيوان، شيء ارتقى به حتى أصبح هذا السيد الذي يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة.

وأخيراً اهتدى العلماء إلى التعريف الدقيق: الانسان حيوان ذو تاريخ!

ما معنى ذلك؟

معناه أن الميزة الأولى التي تميّز الانسان عن غيره من المخلوقات هي أن كل جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذي سبقه ويستفيد منها، وأنه بهذه الميزة - وحدها - يتطور، وعلى العكس من ذلك الحيوان. فالأسد أو القط أو الكلب الذي كان يعيش في الأرض منذ ألف سنة لا يمكن أن يختلف عن سلالته التي نراها اليوم، في الصفات والطباع ونوع الحياة.

أنت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذي تجده في بيتك بنفس الطريقة التي كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم. مصيدة وقطعة جبن! ولو كان في بيتك عشرة فيران لاستطعت أن تتصيدها واحداً بعد آخر، يوماً بعد يوم، بنفس المصيدة وقطعة الجبن. ذلك أن الفيران ليس لها تاريخ، ولا تستفيد من تجربة. هي لا تعرف أن في اليوم السابق دخل الفأر ليأكل الجبن فأغلقت عليه المصيدة، وهي قد تعرف ولكنها لا تدرك المغزى، فلا تتحاشى أبداً قطعة الجبن.

وعلى العكس من ذلك، الانسان، إنه يعرف ما أصاب أسلافه بالأمس، ومنذ مائة سنة، ومنذ آلاف السنين. فهو قادر على أن يتجنب زلاتهم، ويستفيد من تجاربهم، ويضيف إلى اكتشافاتهم. وكل جيل لا يبدأ من جديد ولكن يضيف إلى ما سبق. وهذا هو التقدم».

هكذا هي لغته دائماً دقيقة متماسكة لا يشوبها ما يسبب القطيعة أو سوء الفهم بين القارىء والكاتب، وكان في مقدور صاحب هذا الخطاب وقد امتلك هذا المستوى البديع من التعبير أن يصبح واحداً من المبدعين أو النقاد لكنه آثر الصحافة بوصفها مجال التعبير الأوسع، ربما ليستطيع من خلالها التحدّث إلى الناس يومياً أو أسبوعياً عما يؤرقهم من مشاكل وحاجات ملحّة، وما يحيط بهم من أحداث حادة، وهو ما جعله بعد وقت قصير من اشتغاله بالصحافة في طليعة الكتّاب المهمومين بقضايا أمتهم، وكرّسه واحداً من أبرز الصحافيين الجادين الذين يدعون قراءهم إلى رؤية الواقع المحيط بهم من الزوايا المختلفة، بل ومن الذين آلوا على أنفسهم إعطاء القارىء صورة واضحة عن الحياة بأبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية.

وفي ما يلي محاولة لعرض أهم ما ورد في المحور الثقافي عن الأدب والفن في كتابات

بهاء، مع التأكيد ـ قبل البدء ـ على حقيقة أن هذا الجانب يتطلب المزيد من الدراسات والأبحاث المعمَّقة لامتزاجها بالسياسي والفكري حيناً وتقاطعها معهما أحياناً، ولأن المنهج الذي قامت عليه هذه المحاولة قد استمد حريته وعفويته من المناهج الحرة والمفتوحة التي أنجز الكاتب الكبير في ظلها كل كتاباته المرتبطة بالثقافة وبالأدب على وجه الخصوص.

١ ـ الأدب. . من زورق القانون إلى زورق الصحافة والكتابة

ما الذي يفصل الكتابة الأدبية عن غيرها من أشكال الكتابات؟ سؤال أزعم منذ البداية أنه جابه كل الباحثين في طبيعة الكتابة بعامة، والأدبية منها بوجه خاص. فقد وضعه ـ على سبيل المثال ـ الناقدان رينيه ويليك وأوستن وارين في مدخل كتابهما عن «نظرية الأدب» وصاغاه على النحو التالي: ما الذي يعد أدباً وما الذي لا يعد؟ وما طبيعة الأدب؟ وقد خرج الناقدان بإجابات مطولة يمكن إيجازها ـ بعيداً عن المصطلحات والتعقيدات النقدية ـ في وجهتي النظر التاليتين:

أولاً: وجهة نظر تذهب إلى تعريف الأدب بأنه كل شيء «قيد الطبع» أي كل شيء مكتوب.

ثانياً: وجهة نظر ترى أن كثيراً من حقول المعرفة المكتوبة تجاوز نطاق الكتابة الأدبية ولا تُعَدّ أدباً (لأن طبيعة ـ أي أدب ـ تبرز كأوضح ما تكون حين يُرَدّ إلى نواحيه الأصلية، فمن الجلي أن مركز الفن الأدبي يقع في الأنواع التعقيدية من شعر غنائي وملاحم ودراما).

وانطلاقاً من هذا المفهوم شبه المحدّد لطبيعة الأدب يقع عالم الصحافة الساحر والمدهش والزاخر بالناس والوقائع والأحداث خارج منطقة الأدب. كما يبدو البارزون من رجال الصحافة شريحة من الكتاب الذين خسرهم الأدب وأفاد منهم الفكر والسياسة. وقليل هم أولئك المبدعون الذين خسرهم عالم الأدب في الوطن العربي ليفيد منهم عالم الصحافة، وفي مقدمة هؤلاء يقف أحمد بهاء الدين الذي عاش في بداية حياته العملية حائراً بين المحاماة والكتابة الإبداعية قبل أن تستأثر الكتابة الفكرية والصحفية بكل طاقاته. وربما تكون هذه الحيرة قد رافقته مع بداية انتمائه إلى كلية الحقوق التي كانت مناهجها ـ حتى أيامه ـ تتراوح بين دراسة الأدب والقوانين والعلوم السياسية والاقتصادية، ولم تكن تلك المناهج قد ابتليت ـ كما هي الآن ـ بهذا الكم من المعارف المستجدة في القوانين وعن المنظمات الدولية التي تتكاثر عاماً بعد عام. وهو في مقال له بعنوان «كلية الحقوق. . وحديث الذكريات» يشير إلى الأثر الإيجابي لدراسته في هذه الكلية التي علّمته طريقة التفكير وزوّدته بمنظّم لدرجة حرارة الانفعال: «كم كنت حزيناً، لأنني كنت بعيداً عن القاهرة يوم احتفلت كلية الحقوق بالعيد المئوي لها. ذلك لأنني أحد خريجي تلك الكلية العتيدة، التي طبعت موجات الأثير على جدرانها عدداً من أعظم الأصوات التي عرفتها مصر والعروبة. وإذا كنت لم أشتغل بالقانون إلا قليلاً، إلا أن الأثر الذي تركته كلية الحقوق في نفس تلميذها لا ينمحي، إذ كان قد دخلها عن حب وشغف، لا عن طريق «مكاتب التنسيق»، ثم إنني إذا كنت قد تركت العمل بالقانون إلى مهنة الكتابة والصحافة بعد خمس سنوات فقط إلا أنني كثيراً ما اكتشفت فجأة أنني ما زلت أشتغل بالقانون من ناحية ما نسميه «بالقانون الخاص» وهي القوانين المدنية والجنائية وغيرها، إلا أنني

بقيت على صلة دائمة بما نسميه «القانون العام» أي الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون الدولي والقانون الدستوري، والقانون الاداري، أي القوانين التي تنظّم حياة المجتمعات والشعوب والأمم وليس الحياة الخاصة للأفراد، كما هو الحال في كل ما نسميه «القانون الخاص». ولكن الأهم من ذلك أنني فعلاً اكتشفت عادة أنني ما زلت أشتغل بالقانون، لأنني دائماً أجد نفسي متلبساً بالتفكير في أي موضوع بطريقة «قانونية»، أو بطريقة متأثرة بالتفكير القانوني إلى حد بعيد.

ذلك أن دراسة القانون تعلم المرء طريقة خاصة في التفكير. تزود صاحبها بما يشبه «الترموستات» أو منظّم درجة الحرارة، يقرأ الانسان في الأدب، ويحلق وراء الفنون، ويجوب آفاق الفلسفة. وهذه أشياء ربما كانت هي جوهر الفكر، ولكن من درس القانون ـ فيما يخيل لي ـ يجوب هذا كله وقد ربطه التفكير القانوني إلى أرض واقعية معينة. فهو ينظّم تفكيره ويضع من صوره ميزاناً دائماً يزن به كل ما يعرض له من أفكار وأمور. ويخلّصه من تيارات «الفن للفن» و«الفكر للفكر» في حين يربطه بأن الفن للحياة. والفكر للحياة. والسياسة للحياة. وكل شيء بدؤه ومنتهاه للحياة، والناس. وأن الرؤية المتأثرة بالقانون هي الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام التطبيق. أو بين تهويمات الخيال ورؤى الحقيقة. ولست هنا أفاضل بين شيئين. فحياتنا بلا أحلام لا تساوي شيئاً. وبغير الأحلام لا تتحقق الأشياء العظيمة. ولكن حياة تقوم على الأحلام هي بالونات ملونة تطير في الهواء وتضيع. وليست مركبات فضاء محددة الغرض، محكمة التوجيه».

وفي مكان آخر من المقال نفسه نراه يشير إلى أنه حين تخرج من كلية الحقوق كان قد اكتشف أن مهنة المحاماة هي آخر ما يناسبه فليس من طبيعته أن يواجه الجمهور أو يتحدث إليه وكأنه على خشبة مسرح! : «ثم إنني كنت أقل من السن القانوني لممارسة المحاماة! ثم إن الكلمة المكتوبة صارت أوسع انتشاراً من أعظم كلمة تقال في قاعات المحاكم! وكان حظي من ممارسة القانون أصعب جوانبه، بالنسبة لي: وكيل نيابة. مهمتي أن أضيّق الخناق على المتهم. وأن أثبت جريمته بدل أن أثبت براءته. ومرة أخرى جريمة بالمعنى القانوني، التي قد يكون في نفسي سبب ضد اعتبارها جريمة. وبعد سنوات قليلة قفزت من زورق القانون بشكله المباشر إلى زورق الصحافة والكتابة، والبحث عن الحق والواجب والقانون بمعانيها الأوسع».

وفي مقال عن «التراث العربي...» يُفصح الكاتب الكبير عن بدايات اقباله المبكر على القراءة وحرصه على اقتناء الكتب بوصفها الوسيلة الأولى للمعرفة: «وقد عرفتُ هذا النوع من حب الكتب الذي بدأ طبعاً بحب قراءة الكتب ـ وأنا صبي شاب ـ في دار الكتب أو بالاقتراض. ثم تطور إلى حب اقتناء الكتب وليس الاكتفاء بقراءتها، وكأن المرء حين يقتني الكتاب فإنه «يمتلكه» كما يمتلك أي معشوق».

واستقراء هذه الاشارات الغنية بدلالاتها الموضوعية يضعنا وجهاً لوجه مع المكونات الأولى لهذا المنحى الموسوعي في ثقافة هذا الكاتب الذي لم تشغله الهموم الثقافية في مصر والوطن العربي الكبير عن متابعة هموم الثقافة في العالم، كما تكشف عن ذلك عشرات المقالات والأعمدة، ومنها مقال بالغ الأهمية عن «سولجنستين»، الأديب الروسي المنشقّ الذي قدّمه إلينا في أواخر السبعينيات بالكلمات التالية: «سولجنستين، الكاتب الروائي الأديب، صار ـ رضي بعض الناس أو كره ـ من علامات العصر الفنية والثقافية. وربما صار نموذجاً ضمن نماذج أخرى مختلفة ـ على حيرة الفنان في هذا العصر المضطرب الذي نعيشه. وإذا قلنا حيرة الفنان، فكأننا نقول حيرة العقل والضمير والفؤاد... فالكاتب المفكر، أو الفنان الحقيقي، يُفترض فيه أنه يحس ويرى ما لا يراه ولا يحسه الآخرون ربما تماماً كما نسمع أن القطط والجياد تحس بقدوم الزلازل قبل وقوعها بأيام. بل قبل أن يحس بها أو يسجلها أدق جهاز «سيسوجراف» في العالم. حدث هذا قبل زلزال الصين منذ سنة وقبل زلزال سالونيك في اليونان قبل شهرين. ذلك أن الكاتب المفكر الصادق، أو الفنان الموهوب، من شأنه أن يكون عاكفاً باستمرار على تأمل

الحياة من حوله، الأمر الـذي يمكّنه من اختـراق مظاهـر الأشياء، والنفـاذ إلى ما وراءهـا. فقد يـرى الكاتب في مجتمع متخلف بذرة نمو وارتقاء. وقد يرى في مجتمع حافل بالبريق، بذور رماد وفناء. ولكن الكتّـاب المفكرين، والفنانين ليسوا أنبياء. وقد تخطىء نبوءاتهم أو حسابـاتهم. إلا أن أفكارهم عـادة تنبّهنا إلى أشيـاء هامـة، قد لا تكون ظاهرة لكل العيون. وبذلك تنشّط أذهاننا».

وكم يحزّ في نفسي أن المراجع المتاحة لي أثناء كتابة هـذه المقالـة لم تشتمل في صفحـاتها الكثيرة على شيء من المحاولات الأدبية الأولى التي دخل بها بهاء إلى عالم الكتـابة الأدبيـة شأن الكثير من زملائه الذين شـاركوه رحلة العمـل الصحفي من داخل دائـرة الثقافـة القانـونية. ويحضرني منهم الآن الصـديق كامـل زهيري الـذي احتفظتْ لـه المراجـع الأدبيـة بنـماذج من كتاباته الإبداعية الأولى، منها هذا النموذج الشعري الراكض في فضاء السوريالية:

في عش،
ينام رجل على كرسيين وفمه في أبعد محيط.
في الحلقوم مسرح
وفي المسرح نهر،
القلق ابن القلق
الضحك ابن الضحك ابن الضحك ابن الضحك
كالشعر في الماء أحس الوحدة
من جديد، تمر على الوجه المتعب.

أين بدايات أحمد بهاء الدين؟ سؤال سيبقى مثاراً، وقد يشكل في الأيام القادمـة حافـزاً لدى الدارسين وعشاق البحث عن المحاولات الأولى لمشاهـير الكتاب، وحتى يتم العثـور على شيء من تلك البـدايـات التي لا بـد أن يكـون قـد ظهـر شيء منها في واحـدة أو أكـثـر من المطبوعات التي كانت تزخر بها قاهـرة الأربعينيات، وسـوف أكتفي هنا بتقليب بعض مـا بين أيدينا مما أنجزه في الحقل الأدبي.

أ ـ في اللغة:

ولأن هذا الجزء من المقـدمة معني بـالجانب الأدبي في هـذا المحور من كتـابات الكـاتب الكبير، فإن استفتاحه بـالحديث عن اللغـة العربيـة يشكل المـدخل الصحيـح إلى موقفـه من الأدب، وفي مقال له بعنوان «اللغة العربية سياسة وحضارة واستراتيجية»، نراه يتساءل: «هل ما زال العالم العربي، بتمزقاته وصراعاته، وانشغاله بتوافه يومية، قادراً على أن يخصص من عقله وماله ورجاله، جزءاً يعمل للقضايا ذات الحجم الاستراتيجي الضخم؟ أم ان ما سيقـوله أي كـاتب في مثل هـذه الأمور يعتـبر «ترفاً» لا تقوى ـ ونحن مشغولون بما نحن فيه ـ على التفكير والتدبير والعمل؟ بل مجرد إدراك أهمية؟ . . .».

الموضوع عنوانه «اللغة العربية» ولكن ليس جوهره هنا النحو والصرف والإعراب. بل «اللغـة» كسلاح، أو كعنصر اسـتراتيجي، يحيي الأمم ويميتهـا ويقيم الحضـارات ويهـدمهـا، ويشكل الجغرافيا البشرية والسياسية للعالم. . .

إن السياق هنا لا يحتمل التوسع في الاقتباسات، ومع ذلـك لن تتوضـح أبعاد الـرؤية الاستراتيجية اللغوية كما يراها الكاتب ما لم يقف القارىء على جوهر هذه التساؤلات: «ولكن

الآن. وقد توفر للعرب المال الهائل وقد افتتحت افريقيا وآسيا أمامهم وأقبلت عليهم. فلا يعود لنا عذر في هذا المجال. وإن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة تبحث حقاً في هذا وتتلمس وضع استراتيجية لها ولكن بملاليم؟ إن نصف الملايين التي تنفق في شراء السلع حتى الأسلحة القديمة، لا تحقق الفوائد الاستراتيجية التي يحققها استخدام اللغة العربية في آسيا وافريقيا إلى أقصى مداه».

وبما أن لحظات من الشك في مستقبل اللغة العربية تكاد تعتري كل من يتابع ما يحدث على الساحة العربية، فإن موقف الكاتب الكبير ونظرته العميقة تجاه ما يحيط بلغتنا تستدعي وقفة أخرى مع واحدة من مقالاته المهمة بعنوان «اللغة العربية سلاحاً سياسياً واستراتيجياً وحضارياً»، وقد أشار في مقدمة هذا المقال إلى أنه يجب أن يعود إلى هذا الموضوع من حين إلى آخر، إحساساً منه بقيمته العميقة، ورغم أنه خاص باللغة العربية إلا أنه، كما يقول: «ليس موضوعاً لغوياً ولا أدبياً ولكنه موضوع سياسي وحضاري.

وما اللغة فيه إلا أداة.

واللغة على أي حال ـ في شتى العصور واللغات ـ هي دائماً أداة. إنها وسيلة لا غاية. حتى إذا نظرنا إليها من منطق أهل البلاغة والفصاحة ـ قبل أن يغضب أحدهم ـ فإن البلاغة في اللغة أداة لحسن التعبير، واتقان توصيل الفكرة أو العقيدة، وهذه هي بلاغة عصور النهضة... في حين كانت البلاغة هدفاً في حد ذاتها، في عصور الانحطاط. فحين يتبارى الناس في اللغة من أجل اللغة معناه الإفلاس في الفكر والعلم اللذين خلقت اللغة أداة لتوصيلهما.

تماماً كالذي يركب السيارة مثلاً للوصول إلى هدف. والذي يركب السيارة لمجرد إظهار قدراته البهلوانية على القيادة لا غير.

وأحياناً لا يشعر الناس بالشيء القريب، الميسّر، المعمول به يومياً. حتى ولو كان أهم وأخطر شيء، كالهواء الذي نستنشقه ونعتبره بالتالي أبسط الأشياء رغم أنه مادة الحياة.

وفي هذا المجال نجد أن اللغة أبرز هذا النوع من الأشياء في صنع الحياة والحضارة. ولكن لأننا نتعلمها بالولادة والنمو، ونستعملها يومياً في كل شيء، لا نلتفت أحياناً إلى أن اللغة هي أحد أهم الأشياء التي شكلت تاريخ الحضارة الانسانية، ورسمت مجرى التاريخ: أكثر مائة مرة مما ساهمت به الجيوش، والأسلحة الباهظة، والحروب الكبرى.

فاللغة كانت أداة الرسالات السماوية. والمذاهب الدنيوية. والمعاملات الانسانية حتى شتى درجاتها ومستوياتها. إنها «العملة» الأبدية الأزلية المتداولة بين الناس جميعاً. وإذا كانت الآية الكريمة تقول: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[1]، فاللغة خلقت من الحضارات والفنون والعلوم كل شيء حي. اللغة أقامت حضارات وماتت مع حضارات. وملأت صفحات سعتها بالقرون».

بهذه السطور تكتسب قضية اللغة معنى يكاد يكون غائباً عن أذهان كثير من المثقفين والمشتغلين بالكتابة. فضلاً عن الغالبية الساحقة من الناس العاديين الذين يتكلمون هذه اللغة دون أن يدركوا أن الأفكار هي الألفاظ، وأن الكلمات المنطوقة أو المكتوبة هي صورة الإحساس المرابط في الوجدان. ويبدو أن الكاتب العربي لم يدرك بعد أن عليه، قبل أن يبشر بأفكاره السياسية والاجتماعية، أن يختار دور حارس الشرف للغة التي يتكلمها ويكتبها وإذا لم

(١) القرآن الكريم، «سورة الأنبياء،» الآية ٣٠.

يفعل فإن كلامه المكتوب شأن كلامه المنطوق سيذهب أدراج الرياح ولن تكتب له الأيام البقاء.

وتصلح هذه الاشارات لتكون مدخلاً إلى حوار بين المتحمسين للغتهم القومية وبين من يكتبون بهذه اللغة ويناصبونها وقواعدها العداء. وطالما بقيت اللغة العربية في مثل هذا الوضع الذي يثير القلق فإن أوضاع الأمة التي تتحدث بها لن تتغير ولن تكون أحسن حالاً، فاللغة كما يشير بهاء نقلاً عن المفكر العربي المرحوم ساطع الحصري تشكل العنصر الأهم بين كل العناصر التي يتشكل منها كيان الأمة. ولن أطوي هذه الصفحات قبل أن أتوقف مرة أخرى عند العلاقة بين العروبة والإسلام من خلال دور اللغة كما يتمثّله كاتبنا الكبير:

«فالعروبة فضلاً عن أهميتها في حفظ أمة العرب بكل ما فيها ومن فيها، فهي أيضاً كانت العقل الأساسي للإسلام في مده وجزره.

لذلك لم تكن حرب الاستعمار على اللغة العربية هينة ولا متساهلة، فقد طوردت الثقافة العربية ـ ووسيلتها الأولى اللغة ـ مطاردة عنيفة. أحياناً من بعض الامبراطوريات الاسلامية ذاتها التي لم تفطن إلى دور اللغة العربية الحاسم، كالامبراطورية التركية مثلاً. ولكن في معظم الأحيان من الامبراطوريات التي لا هي عربية ولا مسلمة...

والخطوة التي أدعو إليها الآن وأرى كل الظروف مواتية لها، بل موجبة لها، ليست «تعريب» العالم الاسلامي كله من الصين إلى روسيا إلى آخر الأرض.

ولكن فقط، أن «نسترد» إلى العروبة، الشعوب التي قبلت الاسلام واللغة العربية معاً. والتي فقدت لغتها العربية لا طواعية واختياراً، ولكن بالقهر والعنف والمطاردة وأعواد المشانق.

وقد حدث هذا في افريقيا بالتحديد».

ويمضي الكاتب الكبير بعد ذلك في سرد الأدلة على المعاناة التي لقيتها العربية والناطقون بها في كل من الساحل الافريقي الشمالي الممتد على البحر الأبيض المتوسط والساحل الافريقي الشرقي الممتد على البحر الأحمر حتى آخره، وهي معاناة يلعب الغزو الاستعماري فيها دوراً مكشوفاً وخالياً من كل غطاء، مستخدماً ـ كما سبقت الاشارة ـ أساليب العنف والقهر والمطاردة لا أساليب التنافس الثقافي اللغوي المشروع. وبقدر ما تتركه هذه الاشارات البالغة الوضوح في نفس القارىء من قلق على مصير اللغة العربية في الأطراف فإنها تثير قلقه أيضاً على وضع اللغة في المركز حيث الخطورة تكتسي مفعولها الملموس من خلال غياب أدنى حد للتوحد على صعيد الثقافة واللغة بالرغم من الهيئات والمنظمات الهزيلة المحرومة من أي دعم حقيقي، كما هو الحال مع المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو العربية) التي خصها الكاتب في مقالاته بأكثر من اشارة.

وفي مقال آخر عن اللغة العربية، يبتعد الكاتب فيه عن معنى الخوف على اللغة العربية من العدوان الخارجي ليقترب من عدوان داخلي لا يقل خطورة وتأثيراً في مستقبل هذه اللغة ومفرداتها حين يتم استخدامها كشعارات معلقة في الفضاء أو كلمات لا تجد لها مكاناً في التطبيق فتفقد سمعتها وتغدو مفرغة من كل معنى: «اللغة لم تكن أبداً «محايدة» والكلمة الواحدة قد تستخدم في مجال يحمل كل معاني الجدية. وأحياناً تصبح من كثرة استخدامها في غير موضعها تحمل لدى الناس

كل معاني السخرية، والكلمة في مجال قد يكون لها وزن الذهب، وقد يكون لها وزن الريشة. ولعل سخاء اللغة العربية الشديد، هو الذي دفعنا نحن العرب إلى الإنفاق من هذه اللغة بإسراف شديد، فالكلمة الواحدة لها عشرات المترادفات، وإذا ألقينا كلمة في القرن الأحدث، واحترقت من فرط تكرارها دون معنى مقصود فاللغة تسعفنا بعشرات المترادفات، فنحن لا نخشى عجزاً ما في هذا النوع من «العملة». . .

وإذا كانت الكلمات من «القاموس السياسي» للغة، فهي أكثر عرضة للتلف، ذلك أنها كثيراً ما تكون عرضة للاستخدام الخاطىء المتعمد من رجال السياسة أو الكتابة أو للاستخدام في مجرد تخدير الرأي العام. فتفقد أعز الكلمات معناها أو بمعنى أصح تفقد «وقعها» على النفس، وهي القيمة الأساسية للكلمة. . . وتأخذ على ذلك أمثلة من كلمات كبيرة مثل «الوحدة» أو «الثورة» أو «الديمقراطية»، كلمات كبيرة جداً لكن بعضها لحقه «الاجتهاد» من كثرة الاستعمال اللغوي، وانعدام الاستعمال».

بهذه الصيغة الأخيرة يقترب الكاتب من الرؤية الصحيحة، ويؤكد دون أن يقول ذلك مباشرة أن نسبة الانتهاكات التي تتعرض لها اللغة العربية من أعدائها ومن أبنائها على السواء توازي نسبة الانتهاكات التي يتعرّض لها الوطن العربي نفسه، وهي نسبة لا تخلو من دلالة تدين التقصير وتكشف عن أن خطورة الصراع تكمن في جهل أبعاده ومكوناته، ولو أننا قد نجحنا في الدفاع عن لغتنا لما فشلنا في الدفاع عن وجودنا وعواصمنا، فاللغة الحية ـ كما قال عنها تماماً ـ كالهواء الذي نستنشقه ونعتبره بالتالي أبسط الأشياء رغم أنه مادة الحياة.

ب ـ في الشعر

أزعم أنني أعرف بهاء معرفة جيدة، وأن اللقاءات الطويلة التي جمعتني به هنا في صنعاء وهناك في القاهرة كانت كافية للتعرف إلى كثير من الجوانب في ثقافته الموسوعية التي أهّلته ليكون واحداً من أهم وأبرز المثقفين العرب في هذا العصر، وأجزم أنه لم يكن صحفياً بارعاً ومفكراً وحسب وإنما كان بالإضافة إلى ذلك أديباً يهوى الفن والشعر ويتمتع بذاكرة تحتفظ بقدر كبير من الشعر القديم والحديث. وقد كانت مقالاته ـ على اختلاف موضوعاتها ـ أشبه بلوحات أدبية عذبة اللغة رائعة التعبير، وحين كان يقترب من الشعر متحدثاً أو كاتباً فإن حديثه يأتي ككتابته فيضيء الموضوع وينيره ويضعه أمام المستمع أو القارىء واضحاً ومتألقاً، وكأنه أحد المتخصصين في شؤون الشعر ولغته وقضاياه الاجتماعية. زار اليمن في أوائل الثمانينيات، وكتب عن موجاتها السياسية التي تتراوح شداً وجذباً وأملاً ويأساً منذ صلته الأولى بأبنائها في الخمسينيات ولم ينسَ أن يعطي الشعر في اليمن قدراً من الاهتمام وأن يقدم في افتتاحيته لمجلة العربي نماذج منه مسبوقة بدراسة تحليلية جاء فيها: «كنت أظن أن العراق أكثر بلد عربي ينجب الشعراء. فأنت في بغداد إذا وقفت عند محل تشتري سجائر، ودار بينك وبين صاحبه حديث ما، سرعان ما يخرج من أحد أدراجه قصيدة من نظمه. ولكن اليمن ربما كانت هي أكثر بلد يلد الشعراء. . . ومن الممكن تفسير ذلك بأشياء كثيرة. فلأن اليمن هو البلد الذي يعيش أكثر قرباً إلى حياة العرب البدوية الأولى، حين كانت الكتابة غير شائعة، وبالتالي كان الشعر هو أرقى وأبقى طرق التعبير والحفظ والانتقال، فإن اليمن كذلك استمرت فيها ظروف تفوّق الشعر على غيره من وسائل التعبير. وليس كل مجتمع بدائي يملك هذه القدرة على إنتاج الشعر، فالشعر لا ينتج من مجتمع تنقصه كل وسائل الحضارة، إلا إذا كان في باطن هذا المجتمع طاقة للخلق الفني، وفي دمه تراث قديم، ولديه رغم كل شيء حاجة للتغيير، ذلك الاحتدام الداخلي

الذي ينتج أحد أهم وأصعب أنواع الانتاج الفني كالشعر، إنه بخار متصاعد من بركان حي، ولو كان البركان خامداً لما تصاعد منه أي حمم، ولا حتى أي بخار.

لا يدهش المرء لغزارة الشعر، ولكن بجودته وتفوقه. ولكن الظلم العربي العام لليمن ينسحب على شعره وشعرائه. فهو منشور ولكنه غير منتشر خارج اليمن. لم يقدمه النقاد المتخصصون - ولست منهم - إلى الشرائح العريضة من قراء الشعر العربي، فبقي مظلوماً مجهولاً بينما تمتلىء الصحف العربية الكبرى بأي كلام موزون مقفى على أنه شعر عظيم، مزين بصور الشاعر في «لقطات فنية كأنهم نجوم سينمائيون».

وأبرز موضوعات الشعر اليمني، توضح لنا نوع الاحتدام الداخلي الذي يبحث لنفسه عن منفذ. فهناك الشعر الذي خاطب «الشرشف». وهو ذلك الغطاء الأسود الذي يحجب المرأة تماماً، ومن سن مبكرة جداً، حتى ما لا خلاف في الشريعة على عدم ضرورة حجبه أي الوجه والكفين. وهناك شعر الحنين إلى الوطن. فاليمني يسافر إلى آخر الدنيا ويخالط أرقى المجتمعات ولكنه ينهج الشعر بغزارة في موضوع الحنين إلى الوطن الفقير المحروم في قلق غريب وحنين هائل. وهناك شعر التمرد، التمرد العام على كل شيء وشعر التمرد اليمني أعنف من أي شعر آخر. ذلك أن قهر القرون الجاثمة يجعل رد الفعل في نفس مستوى العنف، والجرأة والاندفاع بنفس درجة القهر، كما يشد الانسان كل قواه وعضلاته حتى يزيح عن صدره حجراً ثقيلاً هائلاً لا يريد أن يتزحزح».

هكذا، كلما مضيت في تقليب أوراق هذا المحور وجدت أنه من الصعب إجمال ما قالته أو بالأصح ما تضمنته من قضايا لأنها تكاد تكون مجملة موجزة تحمل في سطورها القليلة نسيجاً هائلاً من الأفكار والمعلومات، وليس ذلك غريباً فصاحبها واحد من أبرز كتّاب الأعمدة الناجحين في الوطن العربي، والعمود الناجح هو ذلك الذي يختزل أفكار كتاب كامل في عدد قليل من السطور وبقدر واعٍ من التركيز والتكثيف، كما يفعل العمود التالي الذي يختزل فيه الكاتب عن طفولة الأديب ووظيفة الشعر وتميزه عن بقية الفنون الأدبية، ثم محنته المعاصرة وسط ضجيج الأصوات التي لا تكف عن الصخب ولا تترك مساحة صغيرة من الزمن الخيالية لسماع صوت الشعر، وهذا العمود من آخر ما نشره الكاتب الكبير في يومياته في الأهرام. وقد كان تعليقاً على لقاء الرئيس المصري بالأدباء في معرض الكتاب: «أغرقنا الأدباء في أحاديث السياسة وقضايا الخليج واسرائيل والخطة الخمسية... إلى آخره. والأدباء حين يعبّرون تعبيراً فنياً - بالرواية والقصة والشعر - يبدعون مهما كانت أفكارهم، ولكنهم حين يحاولون معالجة المشاكل معالجة مباشرة بأسلوب الجدل أو المقال السياسي والاقتصادي فهم لا يتقنون ذلك. والكاتب المباشر يكتب بالمسطرة والقلم والحساب وبنظر عقلي محض. أما الأديب الفنان فهو طفل كبير. مصدر إبداعه أنه خارج عن حدود القلم والمسطرة والبرجل. فزكي نجيب محمود «مفكر» وليس فناناً، لذلك كان الوحيد الذي قال كلاماً يدخل في ميدانه، حين تحدث عن دور القلم والمعرفة الانسانية الحقيقية المفتقَدة في إعلامنا وأسلوب حياتنا.

كذلك نجح الشاعر محمد التهامي وسط الصخب السياسي في أن ينتزع دقائق ينير فيها قضية الشعر! هذا الفن الذي لا يجد لنفسه مكاناً في حياتنا الصاخبة اللاهثة وكنت قبلها قد قرأت له ديوانه الجميل الأخير أغنيات العشاق والوطن أقلب فيه صفحات حياتنا ولكن بعين الشاعر ولغة الشاعر، وهي غير عين الكاتب السياسي أو المؤرخ أو صاحب الريبورتاج. وما أحوجنا أحياناً إلى أن نريح عقولنا المكدودة ونضعها على وسادة من العاطفة المتدفقة! وهي كالشعر تذكرنا أن الحياة لها جانب آخر ولون آخر.

والعالم كله فيه سؤال هو: هل نحن في زمن بلا شعر؟ فمحنة الشعر عالية. الشعر ابن الوقفة، والتأمل، والهمس الصاعد من النفس. وهي أمور لا يسمح بها ضجيج هذا العصر وسرعته ولكن الشعر له مستقبل في

العالم العربي بالذات. فالفراعنة خلّدوا حضارتهم بالحجر والغرب بفنون المسرح والموسيقى والرواية. أما العربي فإنه منذ ولد وعبّر عن نفسه بالشعر، عرف الشعر قبل أن يعرف القراءة والكتابة. فالشعر جزء من لحمه ودمه.

كنت جالساً في حفل عربي بجوار سير أنتوني نانتج وألقي بعض الشعر. ورأى أنتوني نانتج الجمهور يتمايل. وقال لي: الآن عرفت لماذا يحرّم دينكم الخمر، ذلك أن لكم لغة تدير الرؤوس».

كم فكرة في هذا العمود القصير؟ وأي منها يستطيع الدارس أن يحذفه ليخفف من مساحة الاقتباس؟ إن الكاتب وفي مجال كتاباته الأدبية بخاصة يكتفي بالملاحظة الدقيقة والإشارة الدالة، فهو لا يكتب بحثاً شاملاً يحتاج إلى المناقشة الموسعة والمقارنة المتكررة، كما يفعل الدارس الأدبي الأكاديمي، بل يسعى إلى تضييق المقولات المطولة وتحويلها إلى ايماءات أو إلى فكر مجرد من الزوائد اللفظية والمعنوية مع حرص واضح على تجنّب الوقوع في براثن الإيجاز المخلّ.

ولعل مقاله الذي ظهر افتتاحية لـ **العربي** بعد وفاة الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور، لعله أوسع ما كتب ـ في حدود ما أعلم ـ عن الشعر والشعراء، ويمكن اعتباره مرافعة جليلة عن محنة الشعراء في عصر غابت معه المؤسسات وتخلت فيه الدولة عن المبدعين إلا أن يقبلوا العيش في كنفها دعاة أو مبررين: «ومن يصدّق» ـ والحديث له ـ «أننا لم نعرف بعد في بلادنا العربية كلها مبدعاً واحداً عاش من قلمه فقط، إنما عليه أن ينفق الساعات في وظيفة حكومية أو عمل صحفي أو أي شيء آخر يكسب منه رزقه... وإنتاجه على الهامش حتى بعد أن يصبح للواحد منهم فوق السبعين كتاباً في السوق، مثل طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، فإنه لا يستطيع أن يعيش منها. وأقل مَن عمل أعمالاً أخرى غير التأليف ـ وهو عباس محمود العقاد ـ كان يضطر أحياناً إلى بيع الكتب النادرة في مكتبه سراً وعلى استحياء ليواصل حياته البسيطة الزاهدة وليس له زوج ولا ولد».

صورة كئيبة وقاتمة ـ رغم أنها واقعية ـ هذه التي رسمها الكاتب لظروف المبدع العربي وقد استطاع أن يكون المحامي البارع للدفاع من خلالها عن صديقه الشاعر الكبير الذي لم يكن ـ كما عبر في مقدمة المقال ـ قارئاً لشعره على الدوام وحسب، وإنما كان أيضاً معجباً به إلى آخر الحدود.

لقد قبل صلاح عبد الصبور الوظيفة ليعيش وليكتب شعراً جميلاً يضعه في المكان الذي استحق عليه وصف «شاعر مصر الأول» وكان له زوج وأبناء وأشقاء وأب، ينتظرون من «شاعر مصر الأول» أن يجنّبهم مرارة الحاجة، وهو في الوقت ذاته مواطن من أرض مصر له ما لكلّ أبنائها من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات، والوظيفة ـ أياً كانت ـ واجب قبل أن تكون وسيلة لكسب الرزق، ومع ذلك فشقاء الفنان يأتي من الوظيفة كما يقول عنوان صغير في المقال نفسه، وقد يؤدي إلى وفاته المبكرة.

وإلى أن توجد المؤسسات الحرة، وحتى يجد الشاعر في جمهوره القارىء ما يحميه، ستبقى الوظيفة مصدراً للرزق ومصدراً للشقاء: «في بلاد لها ظروف بلادنا، يكون على الدولة بوصفها نائبة المجتمع، قيّمة على تقدمه أن تيسّر لهم هذا. ولكن الدولة في بلادنا لها في مقابل ذلك شروط أقسى من أن يتحملها ضمير الكاتب أو الفنان عادة فيؤثر أن يفنى معظم عمره في وظيفة تكفل له قوت يومه. في حين تتمتع البيروقراطيات الأدبية التي ما وُجدت إلا لخدمته، بالحياة المرفهة المريحة. فالذين يتحدثون عن التزام الأديب في بلادنا عليهم أن يضعوا في اعتبارهم بعض الحقائق، بدل أن ينقلوا نقلاً ببغائياً ما يقرأونه عن التزام الأديب، في

فرنسا مثلاً . . . الأديب يحميه جمهوره . . . وتحميه مؤسسات ثقافية حرة تدرك قيمة الفن حتى ولو خالفها، وفي بلادنا لا توجد هذه المؤسسات الحرة. ولا توجد الجماهير المثقفة الواسعة بعد. الفنان أو الأديب في بلادنا ينتج بلا حماية. ويبدع عاري الصدر مكشوفاً للطغيان، والشاعر الذي سألته مرة ماذا يفعل منذ زمن. . . فرد علي قائلاً: «إنني أدافع عن قيثارتي، فلا مجال لأن أعزف ألحاني».

ويختتم الكاتب مقاله أو مرافعته القيّمة بأهم وأعمق تحليل قرأته عن الالتزام عبر منطق ذكي نفّاذ لظاهرة شاعت وذاعت وتداخلت فيها الاجتهادات الموضوعية حتى أصبحت وكأنها من فرط التعميم على درجة من الغموض والإبهام، يقول: «وتبقى بعد ذلك كلمة استكمالاً لاشارة وردت في أول الحديث عن التزام الأديب والفنان. . . الذين يتحدثون كالببغاوات لا يسألون أنفسهم: بأي شيء يلتزم الأديب؟ الأديب يلتزم بالقيم التي يؤمن بها هو. والمواقف التي يختارها هو. والرؤيا التي رآها هو. فهناك من يلتزم بقيم سياسية مباشرة. ومن يلتزم بقيم فنية خالصة. ومن يلتزم بقيم انسانية شاملة.

المهم أنه يلتزم بما يختاره «هو» الالتزام به. . . وليس أن يلتزم بما نختاره «نحن» له. . أو بما نلتزم نحن به. فدعوة التزام الأديب ازدهرت في بلاد اقترن فيها الالتزام بالحرية. . . ولا يمكن أن يوجد التزام بدون حرية. لأن الالتزام هو في البداية اختيار. وهو بغير الحرية الزام لا التزام. فإلزام السلطة للكاتب لا يجعله كاتباً ملتزماً. وإلزام الرأي العام أو أي قطاع منه للكاتب لا يجعله ملتزماً. نحن نطلب من الفنان الالتزام بما نلتزم به نحن. وليس بما يلتزم به هو من قيم، وما يرتبط به من مجال يرى أن عطاءه فيه أخصب. ونحن بهذا النظر الضيق نخنق الفنان، ولا نجعله فناناً ملتزماً».

ج - في الرواية

يحاول بهاء في كل كتاباته النقدية المرتبطة بمجال الأدب أن يقنعنا بأنه ليس ناقداً، وأن أحكامه التي قد يصدرها على هذا العمل الأدبي أو ذاك ليست سوى انطباعات قارىء، وإذا وافقناه على زعمه فهي انطباعات قارىء يجهد نفسه حين يقرأ ويجهد نفسه حين يكتب عما قرأ. وقصته مع ثلاثية نجيب محفوظ بين القصرين وقصر الشوق والسكرية تصلح نموذجاً لقارىء وناقد يعرف كيف يقرأ، وكيف يعطي نفسه للنص الإبداعي فلا يترك شيئاً آخر يشغله عنه أو يشاركه في الاهتمام. وهو في البداية يعترف أنه لا يقرأ الروايات الطويلة إلا قليلاً. ولقد جاء الجزء الأول من الثلاثية فأفسد عليه حياته وشده عن عمله ومواعيده وعن ارتباطاته اليومية، وعندما صدر الجزء الثاني قصر الشوق كان بالمصادفة مريضاً فوجد فيه وفي كتب أخرى رفيقاً يملأ عليه الفراغ. أما الجزء الثالث فقد اضطره إلى أن يسافر إلى الاسكندرية ليخلو إليه وحده.

«كانت الاسكندرية مزدحمة جداً، فهذا هو شهرها الحافل اغسطس، في كل خطوة تجد أصدقاء أو معارف ودعوات وارتباطات جديدة، لكنني تعمدت أن لا أرى أحداً، أغلب الوقت كنت أبحث على البحر عن مكان هادىء نسيه الزمان فأجلس فيه واقرأ فيه رواية نجيب محفوظ وفي العصر أبحث عن مكان آخر على البحر وأجلس فيه، وأواصل القراءة إلى أن تغرب الشمس ويتغير لون الماء فيخضر ويغبر حتى تظلم الدنيا فلا ترى من السماء والماء سوى موجات بيضاء تتواثب على الشاطىء، واكتشفت أن الأنوار في المكان الذي أجلس فيه خافتة لا تصلح للقراءة، فمثل هذا المكان ليس للرجل الوحيد، إنه للذين يرون بعيونهم وقلوبهم معاً فهم لا يحتاجون إلى نور كثير، وأبحث عن مكان فيه اضاءة قوية فلا أجد سوى التريانون، فاستقر فيه وأواصل القراءة. . . وكأنني أقضي هذين اليومين في ضيافة عائلة أحمد عبد الجواد التي يتحدث عنها نجيب محفوظ في ألف صفحة، عبر ثلاثة أجزاء وثلاثة أجيال، تبدأ منذ سنة ١٩١٨ وتنتهي سنة ١٩٤٥».

أرأيتم كيف يجهد القارىء الجاد نفسه ليقرأ عملاً روائياً واحداً؟ وقد أغفلت قاصداً الاشارة إلى السيارة التي نقلته من القاهرة إلى الاسكندرية وتفاصيل أخرى عن حياة الكاتب الذي يعمل ساعات طويلة ويكتب ويفكر في عشرات الأشياء كل يوم، وقد لا يعود إلى البيت إلا ليضع رأسه وينام. ذلك عن طريقة القراءة وما تضيفه إلى نقد العمل الأدبي من أفاق وخلفيات نجيب محفوظ القارىء ورفقته والاستمتاع بالتركيز على أدق التفاصيل. أما النقد فيأتي بعد ذلك. وقد يبدأ كما سبقت الاشارة بالاعتذار المألوف: «لست ناقداً لكي أحلل مزايا هذا العمل الشامخ الذي اعتبره أعظم عمل من نوعه في الأدب العربي، ولكنني ـ كقارىء لا كناقد ـ أستطيع أن أقول إن هذه القصة تعد أيضاً وثبة لا نظير لها عن مصر. أي شيء في مصر ليس فيها؟ التطور الذي يتدفق كالنهر، كل النماذج التي عرفتها الحياة المصرية وأنتجتها الظروف المصرية، من المصلحين والملحدين والنساء الطيبات والمومسات والشيوعيين والاخوان المسلمين والساسة الوطنيين والمنحلين... والأحزاب والاضرابات والثورات والمشاكل القومية والفكرية والاجتماعية والعاطفية، كل هذا في ملحمة واحدة. عمودها الفقري أسرة أحمد عبد الجواد من رجلها الأول إلى أبنائه وبناته وأحفاده...

إن كتب التأريخ التي تؤرخ مصر خلال هذه الفترة تروي الأحداث من الظاهر أو تفسرها بظروفها التأريخية، أما نجيب محفوظ فقد رواها لنا من الباطن: الظروف التأريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، تحوّلت كلها إلى رجال ونساء ولحم ودم ومشاعر وخلجات... ورأيناها تتفاعل لا في الثورات والحوادث وتقلب الوزارات فحسب، ولكن في علاقة الزوج بزوجته، وفي الاستطراد الداخلي لخواطر امرأة طيبة، وفي رغبات شاب وفي كلمات الأطفال أيضاً، ان كل شخصية من الشخصيات كانت تزدحم بها الرواية تحتاج إلى تأمل خاص وبحث مكرّس لها، هذه الشخصيات كانت تزدحم حولي وتتقلني من الاسكندرية ومن التريانون الذي أجلس فيه إلى جوها الخاص من بيوت ومقاهي وأزقة وندوات، فلا أنتبه إلا والساعة الواحدة ليلاً وخدم التريانون قد بدأوا يرفعون الكراسي ويطفئون الأنوار فأغلق الكتاب، وأركب عربة حنطور، تمشي بي على الكورنيش في بطء شديد، حتى أبلغ البيت!».

ماذا سيكون النقد الأدبي إن لم يكن هذه الإحاطة الجادة التي تمكّن القارىء من النفاذ إلى روح العمل الروائي وإلى إدراك بنية العلاقة القائمة بين الخطاب الإبداعي من ناحية، والواقع الذي صدر عنه من ناحية أخرى، مع ملاحظة أن هذه العلاقة تأتي في إطار من الفن الذي لا يجعل من المبدع مؤرخاً أو منشغلاً بظواهر الأشياء. ولو أن كاتبنا الكبير قد ترك تواضعه جانباً وتسلح بأي منهج من المناهج المدججة بالمصطلحات الغامضة لكان قد أصبح واحداً من فرسان النقد الأدبي في العصر الحديث.

٢ ـ الفن

استطاع أحمد بهاء الدين أن يقيم جسوراً قوية بين الفكر والفن والأدب، فكتب عن المسرح وعن الموسيقى وعن التصوير، وشغله سيد درويش بألحانه وبالكلمات التي غناها، وشغلته الفنون التشكيلية وكان من محبيها وزوار معارضها، وفي روز اليوسف كما في صباح الخير، وفي المصور والأهرام فتح أبواب صفحاته وأعمدته لتكون شرفات واسعة يطل منها القارىء على ما يضطرب في جوانب الحياة العربية والعالمية من أصداء المعرفة وايقاعات الفن. ولذلك فقد كانت كتاباته المتنوّعة في مستوى النهار الذي يختلف لونه بين فجر وضحى

وأصيل وغروب مع احتفاظه دائماً بدرجة عالية من السطوع والقدرة على الإيصال. وقد كتب ذات مرة ما يشبه البيان أو الدليل الذي ينبغي أن يسير عليه في تناوله الفنون، ومما جاء فيه قوله: «إنني أحاول منذ زمن، في مجال الكتابة عن الأعمال الفنية أن أضع على نفسي قيداً أتمنى لو وضعه الآخرون على أنفسهم، فقد أصبح النقد الفني مع الأسف مجالاً لكل من هبّ ودبّ. كل من لديه فرصة الكتابة في جريدة أو مجلة، لا يجد أسهل من أن يرى رواية أو مسرحية ثم... هات يا نقد!

وكثيراً ما يقرأ المرء في هذا المجال كتابات يندى لها الجبين خجلاً لفرط ما تكشف عنه من انعدام أي ثقافة فنية على الإطلاق! دعك من بورصة المجاملة والنفاق والمصالح التي أصبحت عارية مكشوفة لا تكلّف نفسها جهد التستر، وما أكثر ما يتركه هذا بجهودنا المسكينة من تضليل وتشويه وتشويش. هكذا قلت لنفسي: إبدأ بنفسك وإذا كان ما لديك من ثقافة فنية قليلة يبيح لك أن تتحدث أحياناً بلهجة إنصاف الهواة... فلا داعي! ولتكتب ـ إذا كتبت ـ عما يدخل في اختصاصك من قضايا عامة تتفرع عن الأعمال الفنية!».

وكما تشكل الوشائج النغمية للكلمات والحروف العربية قاسماً مشتركاً بين كل أبناء الأمة العربية الواحدة، فإن موسيقى الأغاني تفعل ذلك أيضاً، ولعل المستوى الذي تضيفه الأصوات العذبة للفنانين المبدعين العرب إلى الألفاظ والمعاني تجعل هذه الوشائج تقوى وتتسع. وهذا ما حرص أحمد بهاء الدين على تأكيده وهو يواصل دفاعه الرصين عن الفنانة الكبيرة فيروز التي تردد كثيراً أن الغيرة الحمقاء لبعض الفنانين في مصر قد جعلتهم يحاصرون صوتها العذب ويسعون إلى مصادرته وإغلاق فضاء مصر الواسع في وجهه، يقول بهاء: «كتب المصور أكثر من مرة عن موضوع الفنانة العربية اللبنانية فيروز. كتب عن فنها الرفيع وجمهورها العربي الواسع، وعن الإحساس الكائن لديها ولدى الكثيرين من أن مصر لا ترحب بها، أو أن هناك قراراً يمنع أغانيها في مصر أو أي شيء من هذا القبيل. وقال المصور أكثر من مرة إن هذا الإحساس غير صحيح، وإنه إذا كانت هناك في هذا المجال مواقف فردية من بعض الناس فليس في الأمر موقف من مصر الجمهور، ومصر الدولة بدليل أن التراوح الفني على أعلى مستوياته قائم، فالفنان المصري الأول محمد عبد الوهاب لحّن لفيروز، والفنانة فيروز غنّت لعبد الوهاب من أغانيه العذبة «يا جارة الوادي» و«خائف أقول»، غنت وتغني من تراث سيد درويش...».

هكذا هو الكاتب الكبير دائماً ينتصر للعروبة، للتجربة والصدق في الفن والأدب، يدافع عن قيم الجمال والحرية. وعندما يتحدّث عن أعلام الفكر والأدب أمثال طه حسين والعقّاد والحكيم نراه لا ينسى أن يضيف إلى قائمة الأسماء محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وفيروز بوصفهم البعد المكمّل لقائمة الأعلام في مجال الفن والفكر والإبداع.

وبعد: فإن المحور الثقافي في كتابات أحمد بهاء الدين يظل في حاجة دائمة إلى قراءات أخرى، تكشف عن صلته العميقة بالواقع الذي صدرت عنه لتدخلنا إلى رحاب هذا الكاتب الكبير الذي عرف كيف يتجاوز المسارب والانعطافات الضيقة ويعبر من فوق الطارىء والمتغير ليغور في كل ما هو عميق في حياة الناس وثقافتهم، وسوف تكشف لنا قراءة كهذه مزيداً من ملامح هذا المثقف المستقبلي الذي جسد دائماً جدارة المثقف العربي وقدرته على رسم خرائط المستقبل وأهدافه وجوهر قضاياه. ولا شك أن ثقافته الواسعة قد حمته من عالم السياسة وتقلباته، وهي نفسها التي احتفظت لكتاباته بقدر كبير من الصدق والصفاء وسط سلسلة الاحباطات التي واجهت طموح الوطن العربي على مدى الثلث الأخير من القرن العشرين.

يناضل أيضاً
من يقعد ينتظر . . !

علي الراعي(*)

حين أخذ بصر الشاعر الانكليزي العظيم جون ميلتون يتناقص رويداً رويداً حتى انتهى إلى العمى التام، جعل ذلك الرجل المناضل يتأمل حاله ويأسى لما آل إليه. لم يكن مجرد شاعر فخيم اللفظ جليل الخيال، بل كان أيضاً مقاتلاً في صفوف ثورة كرومويل، وكان يدعو إلى سيادة حكم الشعب، وحقه في مساءلة الحكام ملوكاً كانوا أو أفراداً كباراً في السلطة.

جعل هذا المقاتل العظيم هدف حياته أن يبذر بذور الفضيلة وحب الخدمة العامة بين صفوف شعبه، وأن يكفكف من شطحات العقل واندفاعاته، وأن يضبط عواطف البشر على النغمة الصحيحة. كان يريد أن يرفع أناشيد سامية ومجيدة إلى مقام صاحب العرش: الله في علاه، وأن يظهر للناس قدرته التي وسعت كل شيء.

وقد حقق ميلتون من هذا الشيء الكثير: كتب ملحمته الخالدة: **الفردوس المفقود** وفيها يُعلي حق البشر في مساءلة الكبار. ومزج بين حسه الأخلاقي الكبير وبين تطلعات النظرة الانسانية إلى تحرير العقل والروح من ربقة الاستغلال. ودعا إلى إلغاء الرقابة على الأعمال الفنية والذهنية، وتحميل الكاتب ـ لا الرقيب ـ تبعة الدفاع عن القيم الجادة. كما دعا إلى تخفيف القيود على الطلاق، وطالب ـ قبل كل هذا وبعده ـ بالنظر الثاقب في أمور الكنيسة، وتحريرها من أثر المفسدين والمتزمتين.

ولما انتهت ثورة كرومويل بالفشل، وعادت الملكية إلى بريطانيا، كتب ميلتون مسرحية عن شمشون تخيل فيها نفسه في شخصية ذلك الأخير الذي لم يقعد به عماه عن تقويض المعبد على رؤوس أعدائه، وهتف: عليّ وعلى أعدائي يا رب. كان ميلتون ـ رغم عجزه وفشل

(*) أستاذ الأدب المسرحي المعاصر في جامعة عين شمس.

ثورته ـ لا يزال يهفو إلى أن يخدم هذه الثورة التي تحطمت، وأن يحرم أعداءها من الأعمدة التي استندت إليها، حتى ولو أدى هذا إلى أن يقتل نفسه.

على أنه في لحظات أكثر هدوءاً، كتب قصيدة عزّى فيها نفسه لعجزها عن العمل والنضال، وختمها بقوله: «يناضل أيضاً من يقعد ينتظر»!

لست أدري ما الذي ذكّرني بهذا كله وأنا أتهيأ لكتابة تحية لصديقي ورفيق شبابي وزميل فكري، ومشاركي ميولي في كثير من الأحيان، الانسان العظيم أحمد بهاء الدين. بيننا كثير من نقاط التشابه، برزت فيه هو بوضوح: النظرة الهادئة الثاقبة، الحكم العقلاني غير المندفع، وضوح الرؤية... الخ. غير أن بهاء الدين يمتاز عني في نقاط أخرى كثيرة. لعل أولاها هو أنه كان من رواد فكرة القومية العربية، حتى قبل أن تطرحها ثورة ٢٣ تموز/ يوليو طرحاً علنياً. وكان بعض أصدقائه ـ وأنا بينهم ـ يتشككون في جدوى التمسك بالقومية العربية، ما دامت القوة الرئيسية موجودة في مصر. غير أن بهاء كان يرى ما لم نكن نرى إذ ذاك، كان يرى في اجتماع العرب، القويّ منهم والضعيف، نواة لقوة كبرى يمكن أن تعيد تشكيل منطقتنا العربية من جديد. وقد ظللت أنا على تشككي في جدوى القومية العربية حتى أتيح لي أن أسافر على نطاق واسع في أرض العرب من الخليج إلى المحيط، فعلمني الواقع الحي أن القومية العربية قائمة بالإمكان وبالفعل أيضاً، لا تنتظر إلا من يتبنّاها ويعمل في سبيلها حتى يتحقق الحلم الكبير: حلم الوطن العربي. إذ ذاك أدركت كم أن بهاء كان بعيد النظر، سابقاً الكثير من معاصريه من الشباب.

شجاعة فكرية

وقد أظهر بهاء في كثير من المناسبات شجاعة فكرية واضحة. من ذلك أنه سافر في الخمسينيات إلى الاتحاد السوفياتي، وأمضى شهراً هناك ثم عاد ليكتب كتاباً سرعان ما لفت النظر وهو كتاب: شهر في روسيا، لم يتردد بهاء في أن يثبت في الكتاب بعض النقاط السالبة التي وجدها في الاتحاد السوفياتي. فأثار هذا امتعاض اليساريين الذين كانوا يؤيدون الاتحاد السوفييتي لأسباب مختلفة: منها الإيمان المطلق، غير المدقق في صحة كل ما يقوله أو يفعله القائمون على السلطة هناك. ومنها شعور البعض ـ وأنا منهم ـ بأن أي نقد للاتحاد السوفياتي في الظروف التي كانت سائدة إذ ذاك، إنما يصب في طاحونة الأعداء الرأسماليين، ويضر بالتالي بموقف التقدميين في بلادنا.

ولقد غضب بهاء غضباً واضحاً على سخط الساخطين على كتابه، وأظنه كتب مقالاً صغيراً ما زلت أذكره، ونشره في صباح الخير بعنوان: «الارهاب»، هاجم فيه ـ إن لم تخنّي الذاكرة ـ ظاهرة تقديس كل ما يجري في الاتحاد السوفياتي، واعتبر الهجوم على اتجاهه في الكتاب نوعاً من الإرهاب الغرض منه إسكات أصوات الغير.

على كل حال، فقد واصل أحمد بهاء الدين اتجاهه هذا، بدعوة الشاعر السوفياتي ايفتوشينكو إلى زيارة مصر، وكان هذا الشاعر يتخذ لنفسه موقفاً مميزاً من الخط الرسمي.

وأذكر أنه عقب جولة له في مصر، انتهى به المكان إلى القاهرة فقام في حفل أقامه له بهاء في دار الأوبرا يقول: اسمعوا: إذا كنتم تظنون أنني جئت إلى هنا لأحدثكم عن منجزات الاشتراكية من إقامة السدود وتصنيع وما إلى ذلك، فأنتم واهمون. أنا سأحدثكم عن الحب وعواطف البشر.

ويمتاز أحمد بهاء الدين عن كثير من معاصريه من الكتّاب بروح مواطن فائق الحس. يتمتع بما يسمى بالحس المدني Civic Conscience، أو الضمير المدني إذا شئنا، وهذا الحس هو الذي دفع به إلى تقديس البيئة والدفاع عنها، والدخول في معارك متصلة في سبيل الدفاع عنها. وكلنا نذكر النضال العنيف الذي بذله، كي ينقذ مزرعة كلية الزراعة في القاهرة من العدوان عليها وتحويلها إلى مساكن لأعضاء هيئة التدريس. وكلنا يذكر أيضاً النضال الآخر الذي قام به بهاء في سبيل تحويل أرض كلية دار العلوم القديمة إلى حديقة تخدم الحي، بعد أن كان زبانية أقفاص الاسمنت المسلح يتلمظون كي يحولوها إلى عمارات سكنية قميئة يسجنون فيها البشر وأرواحهم. وقد نجحت جهود بهاء، وفي كل مرة أمرّ بالحديقة التي قامت بفضل استخدامه ضميره المدني، أوجّه له التحية وأشعر نحوه بالامتنان العميق نيابة عن سكان حي المنيرة!

ودعوة بهاء إلى تعميم استخدام الكمبيوتر، وتنبيهه إلى أن نهاية القرن سوف تحمل معها معنى آخر للأمية غير ذلك الذي نعرفه الآن: لن يكون أمياً من لا يقرأ ولا يكتب بل سيكون من لا يستخدم الكمبيوتر في مجالات استخداماته المختلفة من صناعة وتجارة، وتعليم ـ التعليم خصوصاً ـ وقد أثمرت دعوة بهاء الدين في هذا المجال ثمرات كثيرة وأصبح الوعي بالكمبيوتر عميقاً، وأصبح استخدامه من قِبل تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات أمراً شائعاً، وباعثاً على البهجة.

جريمة العصر!

على أن أهم ما فعله أحمد بهاء الدين في سبيل خدمة وطنه الأكبر: «الوطن العربي» هو الصفحة التي اشتراها من حرّ ماله وخصصها للاحتجاج على ما سمّاه: «جريمة العصر». ظهرت هذه الصفحة عقب سماح الاتحاد السوفياتي لأعداد كبيرة جداً من اليهود السوفيات بالهجرة إلى اسرائيل، بزعم أن هذا السماح هو إعمال لحق أساسي من حقوق الانسان، هو حق السفر من بلده إلى أين شاء، وقد رأى أحمد بهاء الدين في هذا كله جريمة كبرى ترتكب في حق عرب فلسطين وحق العرب جميعاً، فليس هذا تمسّكاً بحقوق الانسان وإنما هو مساعدة على الإجهاز على ما تبقّى من فلسطين من أرض وبشر، خصوصاً أن حقوق الانسان تنتهك في بلاد كثيرة من العالم ولا من يغضب أو يحتج من بين الدول الكبرى، بل إن الاتحاد السوفياتي ذاته كان إلى تلك اللحظة يسهم في انتهاك حق الشعب الأفغاني في الظفر بحريته وحكومة لا تسندها دبابات الأجنبي.

من ثم ثار بهاء الدين ثورة عارمة، واشترى الصفحة التي سلفت الإشارة إليها، وأخذ يجمع التوقيعات تأييداً لما جاء بها من احتجاج، وأذكر أنه قابلني من بعد فقال معتذراً:

«عفواً، وضعت اسمك بين المحتجين دون أن أشاورك»، فأجبت: «لم تكن في حاجة إلى مشاورتي أو الحصول على موافقتي فأنت تعلم تماماً أنني أؤيد الاحتجاج من كل سبيل».

غير أني لم أذكر السبب الذي من أجله بدأت هذه التحية بذكر ميلتون. السبب واضح إذا ذكرنا إخلاص الرجلين للمبادىء الأساسية للديمقراطية، وعلى رأسها حق الشعب في مساءلة حكامه، ودعوتهما الشعب إلى حب الخدمة العامة والعمل من أجلها، وتحريضهما الناس على استخدام العقل - واعياً ومنضبطاً - في خدمة المجتمع. ويجمع بينهما أيضاً أن الثورة قد نالت كلاً منهما في بدنه، وأنهما - مع هذا - لم يكفّا عن النضال. قال ميلتون: «يناضل أيضاً من يقعد ينتظر»، وطبع بهاء صفحته، التي كانت آخر صيحة احتجاج على الظلم قبل أن يدهمه المرض. على أنه واصل احتجاجه رغم اشتداد المرض وصرّح في أسى، بعد أن انجابت عنه سحابة العتمة ذات مرة - صاح: «ليه، ليه؟»، وذلك حين علم بالغزو العراقي للكويت.

أخي الحبيب بهاء، ما زلت تناضل الظلم وتدعو إلى الاستنارة رغم مرضك الشديد. ما زالت كتاباتك تتحدث نيابة عنك. ما زالت سيرتك العطرة على كل لسان. ما زال شوقنا إليك لم تخمد له نار. ما زلت تهتف ونهتف معك: **يناضل أيضاً من يقعد ينتظر**. رعاك الله، وأعظم قدرك!

في أشد الحاجة إلى أمثاله . .

نجيب محفوظ(*)

أذكر أنني قابلت أحمد بهاء الدين أول مرة في نادي القصة خلال بداياتي الأولى، وعلى غير تعارف شخصي كان كل منا يعرف الآخر جيداً، ودهشت لأنني كنت أحسب أن ما أقرأه لبهاء من مقالات لشخص أكبر سناً من الذي التقيت به، فكانت كتاباته أكبر بكثير من عمره، ولعله تحمل ما لا يطيق، فأخذ يشكو المرض في سن مبكرة.

وكنت أحرص على قراءة ما يكتبه أحمد بهاء الدين، فكان له منزلة خاصة لدى كل الكتّاب، ولم يكن ممكناً أن يكتب كتاباً أو مقالاً لا أقرأه، وكنت أحرص على إهداء كل أعمالي إليه، وكنت أعرف أنه يقدّر أعمالي تقديراً خاصاً، وكان من أفضل من يكتبون عن هذه الأعمال.

ورغم أن بهاء ليس ناقداً محترفاً، إلا أن تعليقاته أو متابعاته في المجال الفني والأدبي، كانت غاية في الروعة، وكنت أشعر أن بهاء لو أراد أن يكون ناقداً سيكون في طليعة النقاد، فهو صاحب ذوق فني رفيع، ولقد قرأت تعليقات عن روايات ومسرحيات وأفلام ومسلسلات تليفزيونية عربية وعالمية. وكان نقده مبنياً على رؤية في غاية التعمق، وليس له نظير في من يتولون هذا النقد، وأشهد أنه لو تفرغ للنقد لكان في طليعة نقاد عصره.

وأصبح لفترات طويلة من رواد جلسة «الحرافيش» يشارك معنا في المناقشات بصوت متميز، قبل ٥ حزيران/ يونيو وبعدها.

وزاملته في جريدة الأهرام، وكانت تطول جلسات المناقشة والحوار الممتع الذي يشترك فيه كل من بهاء ولويس عوض وتوفيق الحكيم ويوسف ادريس.

وعندما تعذر عليه نشر رواية الحب تحت المطر عندما كان رئيساً لتحرير الأهرام، سعى

(*) أديب مصري، حائز على جائزة نوبل في الآداب.

إلى نشرها في مجلة الشباب التي كان يشرف عليها كمال أبو المجد، وقلت أيامها، إن بهاء أكثر من يستطيع تقدير الظروف، ولا يمكن أن يتعسف، وكنت أدرك مدى دقة وحساسية ما تتناوله الرواية.

لقد عانت حرية التعبير مصاعب جمة سواء في عهد عبد الناصر أو حتى في عهد السادات، ورئيس التحرير كان يوازن بين وجوده وفعاليته وآرائه وبين السلطة، وهي مسألة بالغة الصعوبة، فإذا كان رئيس الدولة لديه مهمة صعبة هي مراعاة التوازن الاقليمي والدولي، فكان رئيس التحرير أمامه مهمة أصعب هي الحفاظ على التوازن بين حريته وبين السلطة، ولقد استطاع بهاء القيام بهذه المهمة بمهارة فائقة، وأعتقد أنه نجح في ذلك على حساب صحته.

إن أحمد بهاء الدين موهبة فذّة، وقد أسكته المرض قبل الأوان، وفي وقت كنّا في أشد الحاجة إليه، بعد أن اختل التوازن الفكري في مصر والبلدان العربية لغير صالح العقل، فهو يتميز بالنظرة الهادئة والثاقبة، والحكم العقلاني غير المندفع مع وضوح الرؤية، وقد سبق الكثير من معاصريه من الشباب.

وتبقى كلماته التي سطّرها مشاعل للمدافعين عن العقل وعن الفكر الحر، وستستمر كتاباته تتحدث نيابة عنه... وما نفتقده حقيقة، أن بهاء كان عندما يتناول موضوعاً، ترى فيه صوت الصواب والحكمة، مدعماً بالأسانيد والرؤية الواسعة.

ولقد برع في كتابة المقال السياسي. وأعتبر بهاء ككاتب مقال ومحلل سياسي، أحد أعظم اثنين قرأت لهم، بهاء وهيكل.

فلا بد أن يتوفر للمحلل السياسي عدة شروط لكي يؤثر في عصره وقرائه: عقل كبير نفاذ، وقدرة على متابعة الأحداث، وعلاقات وثيقة بالأشخاص والتطورات الجارية، ثم سعة الإطلاع على الفكر العالمي والمحلي. وتتوافر كل هذه الشروط في أحمد بهاء الدين، وعندما يتناول قضية يحيط بكل أطرافها، التي كثيراً ما تغيب عن القارىء، ويتابع صدى الموضوع في العواصم العالمية، ويذكره في سياقه. لذلك فمقالاته في غاية الأهمية وعلى مستوى عالمي، تعكس الفكر العربي وتطوره. وهو يتميز عن سواه، بثقافة أدبية واسعة، إذا شاء أن يتكلم على طبقات الأدباء في مصر والعالم لاستطاع.

وتلحظ في كتاباته درجة عالية من النزاهة، وتثقيفاً رفيعاً لقارئه.

وتجده يعتمد على العقلانية أياً كان موقفه الوجداني، يزيل الضباب عن أي مسألة، وطبعاً لكل عواطفه. وكانت عواطف بهاء مع تجربة عبد الناصر وثورة تموز/ يوليو، وهي مسألة طبيعية ومسموح بها، فلكل منا رؤاه ورموزه، وعبد الناصر ترك في حياة البلاد علامات هامة، فهو زعيم له أهدافه وأحلامه الكبرى.

لقد كان الجيل الذي ينتمي إليه أحمد بهاء الدين جيلاً ناصرياً، يؤمن بالعروبة،

ويهدف إلى جمع العرب تحت لواء الاشتراكية، رغم الخلافات الدينية والعرقية وغيرها، واستمر بهاء يدافع عن هذه الفكرة، وهو من رواد الفكرة العربية، ويرى في اجتماع العرب، القوي منهم والضعيف، نواة لقوة كبرى يمكن أن تعيد تشكيل المنطقة العربية من جديد. . .

كذلك تغنى هذا الجيل بأحلام ثورة تموز/ يوليو في الإصلاح الاجتماعي والتحرير، واستمر بهاء يدافع عن هذه الأفكار حتى بعد غياب عبد الناصر من الساحة.

وقد ألّف بهاء مع بداية الثورة كتاب **أيام لها تاريخ**، ظهر فيه بفكره الليبرالي، يدافع عن زعماء الوفد ومبادىء الوفد.

وعندما حققت الثورة بعض أحلامهم، اندمجوا في الثورة، مع تقدير عميق وحنين للفكر الليبرالي، وإذا تحدثت مع أحدهم تجده يستجيب للأفكار الليبرالية التي توارت، وتجده آسفاً على غيابها.

ولعل ذلك هو سر تقديرهم الخاص لما كنت أكتبه وما يتضمنه من فكر في أعمالي.

ومن الملاحظات ذات الدلالة، إعجاب أحمد بهاء الدين بكل من طه حسين ومحمود عزمي. فطه حسين كان رمزاً للاستنارة الفكرية، والعقلانية الرشيدة، أشعل ثورة في الفكر والأدب مثل ثورة ١٩١٩ في السياسة، ونادى بحرية التعبير وحرية البحث العلمي، منفتحاً على ما أنجزته الحضارات الأخرى.

وكل من يتطلع لحرية الفكر يجد طه حسين مثله الأعلى، ولا يمكن أن يذكر رفاعة الطهطاوي والشيخ محمد عبده إلا ويذكر طه حسين. لذلك ليس غريباً إعجاب أحمد بهاء الدين بطه حسين كل هذا الإعجاب، ولم يعجب بالعقاد، ربما لصلف العقاد وحدّته، التي لم يسلم منها كل من اقترب منه، ولم يسلم من قلمه سوى قلة، ولم يكن مثل طه حسين راعياً للثقافة والداخلين محرابها.

ويعود اعجابه بمحمود عزمي، إلى أنه مثال للكاتب السياسي العالمي، الفردي النزعة، الذي ينادي بمنح الصحافة حريتها، والذي يرى أن حالة الصحافة في بلد ما، ميزان دقيق لحالة البلد سياسياً وثقافياً، وكان إيمانه العميق بحرية الصحافة جزء من ايمانه بحرية الفكر والرأي، لذا شارك في وضع عدد من الاتفاقيات التي توفر الضمانات الكافية للصحافة.

وعندما وقعت الأزمة بين الكتّاب والسادات عام ١٩٧٢، كان بهاء ضمن القوائم ومُنعوا من الكتابة، بعد أن طالب البيان الذي وقّعه عدد كبير من الكتّاب الذين لا تجمعهم مدرسة فكرية واحدة ـ وكان منهم توفيق الحكيم ولويس عوض ويوسف ادريس وغيرهم ـ بالمواجهة مع اسرائيل بعد أن طال انتظارها. وأدى نشر هذا البيان في صحف بيروت إلى تعرض جميع الموقعين عليه للخطر.

وتفجر الموقف، فالبلد كانت تعاني التمزق والإحباط الشديد، وأفراد القوات المسلحة على الجبهة في رمال الصحراء مدة ثماني سنوات.

ورفع أيامهـا شعار «لا صـوت يعلو على صـوت المعركـة»، وكان الكتّـاب يشعرون أن البلد تتحلل والموقف جامد، وصدر البيان على أمل أن يساهم في تحريك الموقف.

ولم نكن نعرف أيامها أن السادات كان يستعد للحـرب مع اسرائيـل، وان هذا البيـان يضعه في حرج شديد، فعمل على علاج الموقف، رغم أن الكتّـاب كان هـدفهم متفقاً معـه، ولم يكن يستـطيع أن يعلن ذلـك، ولا أن يقبـل صـدور البيـان، لأن ذلـك يمكن أن يكشف خططه، فاضطر إلى القيام بهذا العقاب.

وعندما اقتربت ساعة الحرب، أعـاد الكتّاب إلى أعـمالهم، وأيّدنـاه واعتبرنـا ما قـام به معجزة لم تكن على البال.

نَمَاذِجُ مختَارة مِنَ المقَالات

١ - في ضوء القمر الصناعي(*)

كل قفزة علمية ضخمة، تحرزها الانسانية، تغرقني في بحر عريض من التأملات!

تأملات يمتزج فيها الفرح بالأسى!

الفرح: لأن كل اكتشاف علمي يضيف إلى الانسان، والانسانية، قوة جديدة، أي قفزة علمية، مهما كان البلد الذي يحققها، سرعان ما تصبح ملكاً لكل البلاد وكل الشعوب، وها نحن نجد اليوم بين أيدينا عشرات من الأدوات التي كانت عند أول ظهورها ملكاً لمكتشفيها فحسب. ثم لم تلبث أن أصبحت خيراً يتمتع به الجميع، فأي اكتشاف علمي، مهما كان بعيد المصدر، يعتبر خطوة إلى الأمام بالنسبة إلينا جميعاً، بوصفنا أبناء أسرة الانسانية الكبرى. وهو لهذا السبب نفسه يستحق الشكر منا جميعاً، بوصفنا - أيضاً - أبناء أسرة الانسانية الكبرى.

هذا عن شعور الفرح.

أما الأسى، فلأنني أشعر أن شعبي وبلادي لا تساهم كما يجب، في التقدم الجبار، الذي تحققه أسرة الانسانية اليوم!

ودائماً تتداعى في رأسي الأسباب: أسباب تقصيرنا! بعضها مما لا يمكن أن يلام عليه، كالاستعمار الذي أخرنا مئات السنين مثلاً، وبعضها مما نستحق عليه اللوم! فإنني لا أحب أن نتملق على الدوام نفوسنا، وأن نعزو كل تقصير فينا للقدر، أو الظروف، أو الأسباب التي لا حيلة لنا فيها!

هذه الخواطر وغيرها، تحيط بي منذ انطلاق القمر الصناعي، ذلك العمل العلمي

(*) صباح الخير (١٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧).

الجبار، ذو الآثار التي لا يمكن حصرها. . . وهي خواطر، أسجل هنا بعضاً منها، بلا ترتيب.

* * *

ـ فرحت لأن القمر الصناعي انطلق لأول مرة من الاتحاد السوفييتي بالذات!

إنني أعتقد أن كلًّا من المعسكرين ـ الشرقي والغربي ـ لا يريد الحرب، ولكن خطر الحرب كامن في المعسكر الغربي أكثر مما هو كامن في المعسكر الشرقي، المعسكر الغربي يمكن أن ينزلق إلى إشعال الحرب بأسهل مما يمكن أن يحدث للمعسكر الشرقي، ومن بين أسباب هذا الوضع: ان المعسكر الغربي يخامره إحساس بالقوة والتفوق بل والاستعلاء على غيره، فكل ما يزعزع إحساسه هذا، وكل ما يقنعه بأنه ليس الأقوى ولا الأعلى، يعزز قضية السلام، ويبعد شبح الحرب، وسياسة التلويح بالحرب!

ـ أمريكا تبحث اليوم قضية هامة: كيف سبقها الاتحاد السوفييتي إلى إطلاق القمر الصناعي؟

أعتقد أن هذه ليست أهم قضية، على أمريكا أن تبحثها. القضية الأجدر بحثها هي: لماذا فرح ملايين من الناس، المحايدين، الذين ليسوا مع هذا المعسكر ولا ذاك، لأن الاتحاد السوفييتي سبقها إلى إطلاق القمر الصناعي!

إن فرح هؤلاء الناس معناه: أن اطمئنانهم إلى أسلوب روسيا في استغلال تفوقها أكثر من اطمئنانهم إلى أسلوب أمريكا في استغلال قوتها! وهذا فشل أدبي ذريع لأمريكا، يضعف مركزها أكثر مما يضعفه تخلّفها عن الاتحاد السوفييتي في إطلاق القمر الصناعي.

تخلّفها في إطلاق القمر الصناعي، تستطيع أن تعوضه في فترة ما من الزمن. ولكن رأي الناس فيها، وتجربة الملايين معها، كيف تستطيع أن تعدله؟ وفي أي فترة من الزمن؟ وبأي تضحيات؟

ـ هناك نظرية يقول بها بعض علماء التاريخ، خلاصتها: أن الحروب تكثر في العصر الذي تكون فيه أسلحة الدفاع أقوى من أسلحة الهجوم، وتقل في العصر الذي تكون فيه أسلحة الهجوم أقوى من أسلحة الدفاع.

ذلك أن أي دولة تدخل الحرب، تحسب أولاً حساب سلامتها ومدى خسارتها من الحرب، فهي لا تدخل الحرب إلا إذا اطمأنت إلى أن خسارتها ستكون أقل من ربحها، ويضربون مثلاً على ذلك بالحرب العالمية الثانية، فلولا أنه كانت هناك معاهدة تحرِّم استخدام الغازات السامة، ولولا اطمئنان ألمانيا من جهة وفرنسا وانجلترا من جهة أخرى ـ اطمئناناً كاذباً ـ إلى مناعة خط سيجفريد وخط ماجينو على الاختراق، لما نشبت الحرب الثانية.

لا يهم مدى صحة هذه النظرية على السوابق التاريخية.

ولكن المؤكد أنها نظرية لها وزن كبير في قياس احتمالات نشوب الحرب.

ومن المؤكد أن تفوق أسلحة الهجوم اليوم، وعدم إمكـان أي دولة الـدفاع عن نفسهـا ضد إسقاط القنابل الذرية، من أهم أسباب إبعاد شبح الحرب.

وإطـلاق القمر الصنـاعي يؤكد هـذه الحقيقة الخـطيرة: إن امكانـات الهجوم والتـدمير الحديثة أقوى جداً من أي دفاع، بل إن الدفاع ضدها مستحيل تقريباً!

ـ الأنباء تقول إن عدد المؤمنين بالحياد قد ازداد بعض انطلاق القمر الصناعي.

نرجو من المؤمنين الجدد أن لا يكون إيمانهم مبعثه الخوف والفزع فحسب! إن الوقـوف على الحياد بدافع الخـوف والفزع فحسب، معنـاه أن حيادهم سيكـون سلبياً، وهـو حياد لن يدفع عنهم أي خطر، فالحرب إذا وقعت بالفعل لا يعرف أحد إلى أين يمكن أن تمتد.

أمـا الوقـوف على الحيـاد، اقتناعـاً بفلسفة الحيـاد، فمعناه أن يلتزم المحـايد بمسئـوليـة أخرى: مسئولية مقاومـة فكرة الحـرب مقاومـة ايجابيـة، والعمل على إقرار سيـاسة التعـايش السلمي بين مختلف النظم الاجتماعية اقراراً حقيقياً، وإيمان بأن التنافس السلمي بين النـظم، ورحابة الصدر لدى جميع النظم، هو الطريق الحقيقي للتقدم الانساني المطرد.

ـ نحن لا نساهم كما يجب في التقدم الانساني!

ذلك أننا ـ نحن الشعب العربي ـ شعب ممزّق!

الشعوب التي تلعب الأدوار الكبرى في حيـاة العالم، هي الشعـوب الكبيرة، المـوحدة، المتحررة من أغلال التمزق والفقر والطمع والركود.

الشعوب الكبيرة، والامكانيات الهـائلة، المنوعـة، التي تقوم بـالأدوار البارزة. وشعبنـا كبير، وإمكانياته هائلة، منوّعة، ولكنه ممزق.

انـظروا إلى الشعب العـربي الآن بصـورتـه الـراهنـة: دولـة، ودويـلات، وامـارات، وشياخات. بعضه يعيش في القرن العشرين، وبعضه يعيش في القرن العـاشر فقط، وانظروا إليه وقد أصبح كله دولة واحدة: بموقعـه الفريـد، بآبـاره الغنية، بـثرواته المنـوعة، بـأجوائـه المختلفـة، بطبيعتـه المتفاوتـة بين الجبـال والوديـان والصحارى! انـظروا إليه عـلى أنـه وحـدة واحدة، وستجدون أن امكانياته قد تغيرت تغيراً ثورياً، وأن الطريق أمام مستقبل باهـر ودور انساني حافل قد افتتح على اتساعه.

ثم انظروا إلى نظمنا الاجتماعية: ما نسبة الأموال التي ينفقها العرب ـ في تمـزقهم ـ على البحث العلمي، إلى نسبة الأموال التي ينفقونها على أبسط شيء، عـلى بناء القصـور فقط؟ أو على شراء المجوهرات فقط؟ أو على شراء العملاء فقط؟!

ـ تقرير هـذا الواقـع ليس معناه أن نيـأس، ولكن معناه: أن نـدرك أهمية كفـاحنا من أجل تحقيق وطن عربي تقدمي موحد.

إن كفاحنا لتحقيق وطن عربي تقدمي موحد كفاح خطير، ذلك أن نجاحه سوف يطلق طاقات هائلة لخدمة شعبنا، ولخدمة الأسرة الانسانية كلها.

- ثم ننظر إلى مصر بالذات!

إن مستوى الأناقة في مصر أرقى ولا شك في مستواه في بلد كالاتحاد السوفييتي، أو الصين، أو الهند!

بل إن مستوى الإقامة بين الطبقات العليا عندنا أرقى من مستواه في بلاد كفرنسا وانجلترا وأمريكا نفسها!

ولكن ما مستوى العلم عندنا؟! وما قيمة البحث العلمي؟!

إن التقشف هو أسلوب حتمي لكل الشعوب المتخلفة الناشئة التي تريد أن تعوض ما فاتها!

هذه الشعوب تستغني عن الحرير لكي تفتح مصنعاً، وتلغي من الميزانية ثمن سيارة لتشتري ميكروسكوباً، وتوفر على الموظف البحث عن الدرجات ليتفرغ للانتاج.

ونحن لا نصنع هذا بعد!

٢ ـ زيارة لمكتبة طه حسين(*)

كنت جالساً في مكتبي منذ أسابيع، عندما زارني صديق، هو في الوقت نفسه كاتب شاب، ذاع اسمه ونجح نجاحاً كبيراً، واشترك في المعارك الصحفية حول الأدب القديم والأدب الجديد، وانغمس في الهجوم والدفاع وفي إطلاق الأحكام، وفي التنديد والتقريظ.

وفي خلال الحديث، قال لي صديقي الكاتب الفنان الشاب إنه قرأ منذ أسبوع كتاب **الأيام** لطه حسين، قرأه لأول مرة، وقد دهش من روعة الكتاب، والحياة التي تتدفق فيه!

وكدت لا أصدق أن كاتباً مرموقاً، أومن أنا شخصياً بامتيازه، لم يقرأ الكتب المهمة في أدب طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهما من رواد الأدب المصري الحديث!

وقال إنه لم يقرأ إلا ما تنشره الصحف لهما في السنوات الأخيرة فحسب!

على أن دهشتي لم تلبث أن انقلبت إلى حزن. إن مثل هذا الكاتب الشاب الممتاز، لا يمكن أن يستمر امتيازه بغير ثقافة واسعة، إن لمعة انتاجه الأول هي لمعة الموهبة، التي سرعان ما تخبو، وتكرر نفسها، ويضيق أفقها، إذا لم تجد مدداً مستمراً من خبرات الحياة، ومن الثقافة العميقة.

الذي حدث لهذا الكاتب الشاب أن التصفيق الذي قوبل به انتاجه الأول أدار رأسه. وأصعب امتحان يجتازه أي انسان، هو: كيف يمر «بصدمة» نجاحه الأول، إذا صح التعبير، هناك من يسكره النجاح الأول فيظن أنه قد كتب ما لم يكتبه أحد قبله وما لم يكتبه أحد بعده، فيركن إلى الكسل، ويعتقد أنه يمكن أن يكرر نجاحه بالمحصول القديم نفسه، وهناك على العكس من يجعله النجاح الأول أكثر احساساً بالمسئولية، وأكثر اهتماماً بتجديد عمله.

وتصفيق النجاح الأول ليس في الحقيقة حكماً نهائياً، إنه يقترن في العادة بنوع من

(*) صباح الخير (٢٧ آذار/ مارس ١٩٥٨).

المبالغة، وهو في العادة ليس اعجاباً مجرّداً بالعمل نفسه، ولكنه إعجاب بالعمل، وبصدوره من شاب جديد بالذات. فالطفل عندما ينطق بأول كلماته يصيح أهله إعجاباً وتشجيعاً وفرحاً، لا لأن الكلمة في ذاتها جديدة، ولكن لأنها الصوت الجديد، ولأنها علامة نحو شيء جديد، هكذا نصفّق ونشجّع أحياناً «الوجه الجديد» في كل شيء، في الكتابة وفي التمثيل وفي الغناء على السواء، ولكن بعض الشباب الذين ينجحون، ويسمعون هذا التشجيع، لا يفهمونه من هذا المعنى. فيضعون أكتافهم مرة واحدة بجوار أكتاف الأساتذة الكبار. بل ويرفضون الاعتراف بأنهم امتداد، وتطوير، لهؤلاء الأساتذة، كأنهم يحبون أن يكونوا نباتاً شيطانياً نبت من لا شيء!

دارت كل هذه الخواطر في رأسي، وأنا أتأمل صديقي الفنان الشاب، بل وأنا أتأمل كل هذا الجيل الذي أنتمي إليه، ووجدت أن أشباه هذا الفنان الشاب كثيرون.

وفكرت في الأساتذة الكبار، الذين تُعَدّ سنوات جهدهم وإنتاجهم لا بالسنين، ولكن بعشرات السنين، فكرت أن أزور مكتباتهم وأن أتجول فيها، فكرت أن أقدم لزملائي ولقرائي، ولنفسي، صورة من الجهد الذي صنعهم، والذي صنعنا من بعدهم.

وكان لا بد أن أبدأ بطه حسين.

لا بد. لأننا لو ذكرنا كلمات الأدب والثقافة والقراءة والكتب، فلا بد أن ينصرف الذهن فوراً إلى طه حسين.

لا بد. لأنه بالفعل علامة حياتنا الثقافية ورمزها الرئيسي خلال ثلث القرن الأخير.

ولو مر أي انسان في الطريق الضيق المتفرع من شارع الهرم، والذي يقع فيه بيت طه حسين، لاستوقفه البيت، ولعرف أن صاحبه لا بد انسان قارىء، قرأ وقرأ حتى عاش أضعاف حياته، وحتى تسربت قراءاته إلى أدق شئونه وخلجاته، فاسم الفيلا البيضاء المكتوب على بابها «رامتان». و «رامة» مكان في الصحراء العربية ذكره الشعراء الجاهليون كثيراً في شعرهم، إذ كان يلتقي عنده العشاق.

وقد نسيت أن أسأل طه حسين لماذا جعل الاسم «رامتين» لا «رامة» فحسب. ربما كان السبب أن البيت يسكنه زوجان وزوجتان طه حسين وزوجته وابنه مؤنس وزوجته. أو ربما كانت هناك في الجزيرة العربية أكثر من «رامة» واحدة!

إن حجرة المكتبة تقع في الطابق الأرضي. ولها باب زجاجي واسع يؤدي إلى الحديقة مباشرة. ولا أذكر الآن من الحجرة إلا أن جدرانها كلها مغطاة بالكتب، من الأرض إلى السقف، ما عدا ثغرة واحدة تشغلها صورة للزوجة وربة البيت، وأن ما فيها من أثاث غير ذلك لا يعدو مكتباً عادياً وثلاثة مقاعد من الطراز «الأسيوطي» القديم، وأن الألوان السائدة فيها هي البني والأحمر، وأن النور فيها قليل مريح.

والغرفة تحمل اسم «غرفة المكتبة» ولكنها ليست في الواقع كل المكتبة، فلا يوجد ممر أو

ردهة أو صالة في الطابقين إلا وفيه خزانات ورفوف غاصة بالكتب. وأغلب الكتب الموجودة في غرفة المكتبة بالـذات من المجلدات العربيـة القديمـة. وفيها مـا تصل أجـزاؤه إلى أكثر من العشرين جزءاً.

قلت لطه حسين: «هـل قرأت كل ما في هذا البيت من كتب؟».

فقال: «بالطبع لا. أذكر أنني ذهبت مرة في باريس لزيارة «لالاند» أستاذ الفلسفة الشهـير. وكان بيتـه مكتظاً بالكتب بصورة غير معقولة. وكانت زوجته تشكو وتتذمـر من كثرة الكتب التي لا يقـرأها زوجهـا. وكان لالاند يقول: إنه لا يقتني الكتب التي قرأها فقط. ولكنه يقتني كـل كتاب يجب أن يكـون في متناول يـده، فقد يحتاج ذات يوم إلى سطر واحد فيه».

وسألته، كيف تكونت له هذه الآلاف من الكتب؟

وقال طه حسـين إنه تعلم شراء الكتب واقتنـاءها بكـثرة منذ سفـره إلى فرنسـا ليدرس هناك. وإن الكتب التي عاد بها من هناك كانت النواة الأولى لمكتبته الحالية.

وضحك ضحكة قصيرة ثم قال: «كان أخي الأكبر الشيـخ أحمد حسـين يشتري الكثـير جداً من الكتب العربية القديمة، خصوصاً كتب الفقه واللغة والأدب والتاريخ، فلما عـدت من باريس، بـدأت «أستعير» هذه الكتب منه شيئاً فشيئاً، ثم لا أردهـا. وبهذا الأسلوب أصبحت لي كتب كثـيرة ضخمة، مثـل كتاب لسان العرب، والكامل للمبرد، وأغلب كتب تفسير القرآن والحديث التي تراها عندي الآن».

وقمت أتأمل رفوف الكتب، وأقلب بعضها، وأقرأ عناوينها، بغير تـرتيب مقصود. ولا يتوقع القارىء مني بالطبع أن أسرد لـه كشفاً بـأسماء الكتب وأنـواعها، ولا حتى نمـاذج كثيرة منها. فالكتب الموجودة في الفيلا الجميلة الهادئة تعد بالآلاف، لا بالمئـات، والاهتمامـات فيها متنوعة ومتشعبة إلى حد بعيد. فهاهنا كتب باللغة العربية واللغة الفـرنسية واللغـة اللاتينيـة، وإلى جـانب مجلدات التاريـخ الاسلامي تـوجد مجلدات تضم كـل ما نشرتـه مصلحة الآثـار المصرية من مجموعات عن التاريخ الفرعوني، وعن كل الحفريات التي كشفت عن آثـار مصر القديمة، ثـم كـل ما نشر عن الآثـار الاسلاميـة، ومجموعـة ضخمة من كتب الأدب اليـوناني القديم، ثم معجم ضخم نادر هو معجم الجريكو رومان وهو عبارة عن دائـرة معارف تقـدم شرحاً وافياً إلى أقصى مـا وصل إليـه العلم لكل كلمـة في الاصطلاحـات السياسيـة اليونـانية والرومانية القديمة.

وقال لي طه حسين وأنا أقف عند هذا الكتاب: «كان لا بد لي من اقتناء هـذا الكتاب عنـدما كنت أدرس في باريس، إذ كنت أدرس التاريخ القديم، ولكن ثمنه كان بـاهظاً جـداً لا تتحمله ميزانيـة طالب بسيط. فلم أتمكن من تحقيق أمنية شرائه واقتنائه إلا بعد أن عدت إلى مصر».

ولم أدهش لـوجود أي كتـاب من هذه الكتب ولكنني تـوقفت بالفعـل عنـد المجمـوعـة الضخمة من كتب الفقه، وآراء أبو حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعي، فهذه الكتب تهم في الدرجة الأولى رجـال الفقه والشريعـة والقانـون ولا تهم المؤرخ أو الأديب، وسألت صـاحب المكتبة في ذلك، فقال لي إنه كثيراً ما تعترضه أثناء كتابة موضوع ما قضية من القضايا الفقهية التي يجب أن يتخذ فيها موقفاً.

ـ مثلاً؟

ـ مثلاً، وأنا أكتب الجزء الثاني من كتاب **الفتنة الكبرى** عن علي بن أبي طالب، واجهت واقعة إلحاق معاوية لزياد بنسبه، وجعله أخاه، يحمل اسم «زياد ابن أبي سفيان»، مع أن زياد له أب آخر معروف كان عبداً رومياً لامرأة في الطائف، وهنا واجهني سؤال هام: هل التبني جائز في الاسلام أم لا؟ القرآن يقول إنه غير جائز، بنص سورة الأحزاب: ﴿... **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم، وما جعل أدعياءكم أبناءكم**﴾[1]، فمعنى هذه الآية أن التبني ممنوع. ولكن قراءة الآية القرآنية وحدها لا يكفي لتقرير حكم الاسلام، فلا بد من قراءة كتب تفسير القرآن واستعراض مختلف الآراء وشتى وجهات نظر الفقهاء، قبل أن أصل إلى نتيجة أخيرة هي: إن معاوية قد خرج على حكم الاسلام عندما ألحق زياداً بأبيه!

وكتاب **الفتنة الكبرى** من الكتب النادرة في أدبنا العربي الحديث، فهو مزيج رائع من الدراسة والتاريخ والأدب والفن، وهو من المحاولات القليلة لفهم تاريخنا العربي بالمقاييس العلمية الحديثة. وقد قال لي الدكتور طه حسين إنه من الكتب التي كلفته مجهوداً عنيفاً في البحث والقراءة. كان عليه أن يقرأ كل ما كتبه المستشرقون: «وكتب المستشرقين فيها تعصب ولكن فيها فائدة كبيرة، فهي تقدم لنا منهجاً جديداً في البحث، ونظرة إلى هذا التاريخ غير نظرتنا». ثم كان عليه أن يقرأ كل المخطوطات التي وجدها في دار الكتب عن أبي بكر وعمرو وعلي وعثمان ومعاوية، إلى جانب كل الكتب المطبوعة عن هذه الفترة الحرجة المضطربة من التاريخ.

ـ هل تذكر مرجعاً من هذه المراجع، كان له أثر بارز في بحثك؟

ـ نعم. أذكر مثلاً كتاب **أنساب الأشراف** للبلاذري، ووجه امتيازه، أن كل كتب التاريخ الاسلامي كتبت في العراق، وكان مؤلفوها متأثرين بسياسة الدولة العباسية، مما جعلهم يتعصبون تعصباً شديداً على أهل الشام. بعكس البلاذري، فبالرغم من أنه كتب كتابه هذا في بغداد، في القرن الثالث للهجرة، إلا أنه كان يذهب إلى الشام ويجلس إلى علمائها ويسمع منهم الأخبار. فإذا كتب، روى القصة كما يتناقلها الرواة في العراق، ثم قال: «وحدثني بعض شيوخنا في الشام قالوا هذا كله حديث أهل العراق، والذي نرويه هو...»، ذلك أن الشام ظلت زمناً متعصبة لبني أمية ضد العباسيين، فكان البلاذري يروي الواقعة من وجهتي النظر المختلفتين على السواء.

وكتاب **الفتنة الكبرى** يختلف عن كتاب آخر لطه حسين في التاريخ الاسلامي، هو كتاب **على هامش السيرة**. فكتاب **الفتنة الكبرى** طابعه البحث والتاريخ والتحليل، أما **على هامش السيرة** فطابعه الخيال، وتصوير الجو النفسي والانساني والعاطفي الذي ولدت فيه الدعوة. وأذكر أنني كنت طالباً عندما كانت أجزاء هذا الكتاب تصدر، فكنت أقرأ سطوره وكأنني أترنم بقصائد من الشعر، فأسلوب الكتابة فيه أسلوب شاعري، عاطفي لا عقلي... أسلوب رفيق رقيق، بلغ من رقته أنه جعل كل شخصيات هذا العصر الذي أتصوره خشناً، شخصيات تسيل رقة.

وقال طه حسين: «إن فكرة هذا الكتاب خطرت لي وأنا في باريس، حين قرأت كتاباً اسمه على هامش الكتب القديمة من تأليف جول ليمتر. وهو عبارة عن حكايات مخترعة، وتدور حول أبطال بعض الكتب

---

(١) القرآن الكريم، «سورة الأحزاب،» الآية ٤.

القديمة كـ **الإلياذة والأوديسة** وغيرها. فسألت نفسي: هل من الممكن القيام بنفس التجربة باللغة العربية، وفي جو إسلامي صرف؟ ثم أجبت على هذا السؤال بتأليف كتاب **على هامش السيرة**».

ـ سمعت أن هناك كتاباً آخر تكتبه عن هذه الفترة نفسها؟

ـ نعم. إنني أستعد الآن لكتابة كتاب اسمه **مرآة الاسلام**، عبارة عن صور من الحياة الاسلامية في أيام النبوة والخلفاء، بعد أن تعقد الاسلام وأصبح علماً، بل علوماً فيها مناظرات علمية وجدل عقلي.

والكتاب الذي يقرأ فيه طه حسين الآن، استعداداً لكتابة مرآة الإسلام كتاب اسمه **جامع الأصول في حديث الرسول**. وهو يقع في اثني عشر مجلداً! ويقول طه حسين إنه لا يقرأه لكي يعرف أحاديث الرسول فقط، فهي موجودة في غير هذا الكتاب، ولكنه يقرأه لكي يتمثل بوضوح كيف كان يعيش الناس أيام النبي وكيف كان النبي يختلط بأصحابه ويعلمهم ويناقشهم. أي لكي يتمثّل صورة الحياة العقلية والصراع الفكري في ذلك العصر.

ومن رأي طه حسين أن الكتب العربية القديمة ليست معروفة لكل المثقفين من الشباب، وليست مقدرة حق قدرها، مع أنها تنطوي على كنوز عقلية وفنية لا نظير لها: «حتى الكتب القديمة في الفقه، إنني كثيراً ما أقرأ فيها لا على أنها مناقشات فقهية وشرعية، ولكن على أنها أدب رفيع، هناك مثلاً كتاب **الأم** للإمام الشافعي وهو الكتاب الذي أملاه هنا في القاهرة، وفي جامع عمر بن العاص في مصر القديمة بالذات، إنه من أروع ما يمكن أن يقرأ الانسان من حيث الأسلوب، وهو ثانياً مرجع ممتاز نفهم منه تاريخ العقلية الاسلامية في تلك الأيام.

ثم هل تعرف أن الجامعة العربية تنشر هذه الأيام أول كتاب عربي قديم في القانون الدولي؟ إنه كتاب السير الكبير، تأليف محمد بن الحسن الشيباني. وهو يتحدث عن تاريخ الحرب وأنواع العلاقات في الحرب والسلم بين الدول الاسلامية وغيرها من الدول. وقد تعجب إذا قلت لك كيف قررنا طبع هذا الكتاب: إن في المانيا جمعية من المستشرقين والفقهاء الدوليين اسمها «جمعية الشيباني» نسبة إلى مؤلف هذا الكتاب، واعترافاً بعظمته. وقد عرف الفقهاء الدوليون هذا الكتاب من نسخة طبعت في الهند من زمن بعيد.

ومنذ قليل، اتصلت هذه الجمعية في المانيا بالدكتور عبد الحميد بدوي القاضي بمحكمة العدل الدولية وسألته هل يمكن إعادة طبع هذا الكتاب في مصر. وأخبرني الدكتور بدوي بالقصة فعملت على أن تقوم الجامعة العربية بطبعه».

وقلت للدكتور طه حسين: «إن جهل الشباب بالتراث القديم حقيقة لا شك فيها. ولكن الهيئات العلمية لم تقم بواجبها في هذا المجال بعد. وأبسط واجباتها أن تعيد نشرها بأسعار زهيدة وفي طباعة عصرية تجعلها قريبة من متناول الشاب المثقف».

وقال طه حسين إن هذا التقصير حقيقي، وإنهم طلبوا من الحكومة مرة اعتماداً بمبلغ عشرة آلاف جنيه لنشر التراث القديم. ولكن وزارة المالية أعادت الاعتماد وقد هبطت به إلى خمسة آلاف فقط!

* * *

التهمت الجولة بين الكتب العربية القديمة أغلب الوقت. ولم يعد ممكناً أن أقلب طويلاً في جانب ضخم آخر من المكتبة، جانب الأدب الأوروبي.

وليس معنى هذا أن الكتب في مكتبة طه حسين منسقة بدقة، جانب لهذه الكتب وجانب لتلك. كلا، فالكتب غير منسقة طبقاً لمنطق واحد، إلا منطق الاستعمال.

وسألت طه حسين: «ما هو أحدث كتاب فرنسي قرأته؟

ـ طبعة جديدة من مراسلات ديورد في ثلاثة أجزاء اشتريتها من فرنسا.

ـ ومن الأدب الفرنسي الحديث؟

ـ إن الانتاج الأدبي الحديث في فرنسا يعاني أزمة شديدة، إن أرقى ما عندهم من الانتاج الحديث الآن هو أدب فرانسواز ساجان، وهو أدب رخيص أقرب إلى المخبرات، ولكنهم يطبلون ويزمرون له بأساليب بعيدة عن احترام القيم الصحيحة. إن الناشرين في فرنسا الآن يلجأون إلى وسائل الدعاية الغريبة لترويج الأدب الجديد الرخيص، ولا يتورعون عن شراء النقاد في سبيل هذه الغاية. إن فرنسا منذ أيام الاحتلال النازي تعاني نكسة عقلية وخلقية لم تتخلص منها إلى الآن. والغريب أننا نلاحظ أن الأدباء ورجال القانون وأساتذة السوربون يقفون مواقف رجعية تماماً، في حين أن رجال العلم هم التقدميون، هذا إذا لم يكونوا منعزلين تماماً ومتفرغين للبحث العلمي فقط.

إن فرنسا لا تنتج الآن أدباً رفيعاً. وأظن أن مركز الاشعاع الفكري والثقافي قد ترك باريس منذ زمن. وقد قال لي أحد أساتذة الحقوق الفرنسيين مرة: لقد صرت أحتقر السوربون!

ـ وآخر كتاب أوروبي قرأته غير الأدب الفرنسي؟

ـ رواية رائعة من ثلاثة أجزاء للكاتب السوفييتي «ألكس تولستوي» اسمها طريق الآلام وهي تروي تاريخ الثورة الروسية من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٢٠ في شكل روائي انساني رائع.

ـ ومن الصحف والمجلات الأجنبية؟

ـ أقرأ من الصحف السياسية مجلتي الاكسبريس وفرانس أوبزرفاتور. وأقرأ المجلات الأدبية الشهرية كلها، خصوصاً مجلة العصور الحديثة التي يرسلها لي صاحبها جان بول سارتر بانتظام.

إن سارتر يكاد يكون الكاتب العظيم الوحيد الباقي في فرنسا.

ـ هل يستعير الناس أحياناً كتباً من مكتبتك ولا يعيدونها؟

ـ طبعاً. بل إن منهم من يأخذون الكتاب الذي يعجبهم دون استئذان! والظاهر أن اختلاس الكتب القيّمة إغراء لا يمكن مقاومته. أذكر أن عالماً جزائرياً كبيراً جاء إلى مصر في أواخر القرن الماضي، وكانت له مكتبة هائلة جمعها من رحلاته في شتى البلاد من استانبول إلى المدينة. وكان هذا الشيخ جالساً في دار الكتب المصرية يقرأ مخطوطاً ثميناً، وأعجبه الكتاب جداً، فإذا به يستدعي وكيل دار الكتب، ويقول له: أريدك أن تجلس بجانبي حتى أنتهي من قراءة هذا الكتاب، لأنني أخشى أن أسرقه!

ـ هل تخصص أوقاتاً للقراءة، أقصد القراءة المجردة لا للدراسة والتأليف؟

ـ نعم. هناك فترتان في اليوم أخصصهما لهذه القراءة المجردة، والقراءة لمتعة القراءة فقط، الأولى من الثالثة إلى الخامسة عصراً وأقرأ فيها مع سكرتيري، والثانية بعد العشاء، وقبل النوم واقرأ فيها مع زوجتي.

ـ وهل تقرأ الانتاج العربي الحديث. وأقصد إنتاج الشباب بالذات؟

ـ نعم. أغلبهم يرسلون لي إنتاجهم فأقرأ. وبصراحة ما لا يأتيني من صاحبه، لا أقرأه!

ـ لا شك أن بريدك من هذا النوع ضخم جداً، وفيه الكثير مما لا يستحق القراءة؟

ـ طبعاً، طبعاً.

ـ وماذا تصنع بهذه الكتب التي لا تقرأها؟

وضحك طه حسين، وقال: كان أناتول فرانس يتلقى كمية هائلة من الكتب بالبريد، فيقول لخادمته: ضعيها في البانيو! وفي آخر الأسبوع، يكون البانيو قد امتلأ بالكتب، فيقول لخادمته: جهزي لي الحمام!

ومعنى تجهيز الحمام، إفراغ البانيو، والتخلص من الكتب!

٣ - زيارة لمكتبة «أبو خلدون»(*)

اسمه الذي يحب أن يدعى به هو أبو خلدون.

ذلك لأنه من الذين عشقوا المؤرخ القديم «ابن خلدون»، حتى ألّف عنه كتاباً ضخماً من ستمائة صفحة، ولأنه منذ أكثر من ثلاثين سنة، عندما أنجب غلاماً، أطلق عليه اسم «خلدون». وقال لنفسه وأصحابه في ذلك الوقت البعيد: «سيكبر ابني خلدون حتى يصبح رجلاً، وسوف ينجب ابناً يصبح «ابن خلدون»، وفي ذلك الوقت، ستكون الدولة العربية المتحدة قد تحققت، فيؤرخ لها حفيدي، كما أرّخ ابن خلدون القديم للعرب منذ ألف سنة!».

وهو اليوم أسعد انسان في الوجود، فمع أن حفيده ما زال طفلاً، إلا أن مولد الدولة العربية الموحدة قد بات مؤكداً، منذ تكوّنت بذرتها الحقيقية الأولى: الجمهورية العربية المتحدة.

وساطع الحصري - أعظم مؤرخي القومية العربية - لم يقرأ ويكتب فقط عن الحركة العربية، ولكنه عاشها بنفسه، وخاض في بحرها إلى أذنيه، فحياته نفسها، مجلد ضخم عن حركة القومية العربية في: الثمانين سنة الأخيرة!

والكتب التي قرأتها لساطع الحصري تزيد على العشرة، أما الكتب التي ألفها - في التاريخ والتربية والسياسة - فهي تزيد على السبعين كتاباً.

وعندما أخذت أبحث عن العنوان الذي يقيم فيه في القاهرة، كنت لا أشك في أنني سأجد لديه مكتبة ضخمة نادرة، فلما اهتديت إلى مكانه كانت تنتظرني مفاجأة كبيرة! إنه يقيم بمفرده، في غرفة بسيطة جداً، في فندق صغير من الفنادق التي تقع في قلب القاهرة! صحيح أن الغرفة غاصة بدواليب الكتب ورفوفها، فلم يبقَ للسرير إلا ركن صغير منعزل. صحيح

(*) صباح الخير (١٠ نيسان/ ابريل ١٩٥٨).

أن الممر المؤدي إلى غرفته مملوء بالصناديق الخشبية المشحونة بـالكتب، ولكنني مع ذلـك كنت أتوقع أن أجد مكتبة أكبر من هذه بكثير.

وسألته: «هل هذه كل مكتبتك؟».

وضحك الرجل الذي ما زال يتأجج حركة ونشاطاً، رغم أنه في الثـامنة والسبعـين من العمر، وقال: «مكتبتي الأصلية في حلب! فعندما خرجت مطروداً من العراق سنـة ١٩٤١ عقب فشل ثـورة رشيد عالي الكيلاني، كانت لدي مكتبة تضم ١٦,٠٠٠ كتاب ومجلد، واحترت ماذا أصنع بها، فبعث في بغداد ما يقرب من الأربعة آلاف كتاب، أما الاثنا عشر ألف الباقية، فهي الآن جزء من المكتبة الوطنية لبلديـة مدينـة حلب. وفي مصر اجتمعت لي مكتبة تضم حوالى ألف كتـاب، فلما أشرفت هنا عـلى تأسيس معهـد الدراسـات العربية العليا، جعلت هذه الألف كتاب نواة لمكتبة المعهد.

وبعد ذلك، كنت كلما تراكمت عندي الكتب أرسلتها إلى مكتبة حلب، فلا أحتفظ هنا إلا بـالكتب التي استعملها في أبحاثي استعمالاً مباشراً».

ولكن سـاطع الحصري مـا زال يعامـل المكتبتين عـلى أنهما مكتبته الخـاصة، ففي أثنـاء حديثه معي ـ مثلاً ـ قال إنه مسافر بعد قليل إلى حلب، لأنه يكتب الآن بحثـاً معيناً، يحتـاج للرجوع إلى مراجع معينة في مكتبة حلب.

وليست هذه أول مرة يسافر فيها بالطائرة ليقرأ أحد المراجع. ففي سنـة ١٩٤٦ كان في سوريا، وسمع أن في مصر نسخة مخطوطة لـ مقدمة ابن خلدون، وكان في ذلك الوقت يؤلف كتـاباً عن ابن خلدون، فـطار إلى مصر باحثـاً عن هذه النسخـة المخطوطـة، ولكنـه في مصر سمع أن هذه النسخة موجودة في تونس، فطار إلى تونس باحثاً عنها، فلم يجدها أيضاً.

ألا ترى أن قصة حياة هذا الرجل، فيها يبدو غريبة ممتعة؟

ألا ترى أنها تغري بأن نولي ظهورنا رفـوف الكتب التي تحيط بنا، وأن نتصفـح قليلاً، هذا الكتاب الفريد الحي؟

إن أباه وأمه سوريان من مدينة حلب، ولكن أين تظنه ولد؟

في صنعاء باليمن! فأبوه كان قاضياً شرعياً في الشـام، ثم نقل إلى صنعـاء، التي كانت كـالشام جـزءاً من الامبراطـورية الـتركية، وهنـاك ولد سـاطع الحصري، سنـة ١٨٨٠، قبل احتلال الانجليز لمصر بسنتين!

وعنـدمـا أصبـح شـابـاً، اشتغـل بـالتـدريس سنـة ١٩٠٠ في جـزء آخـر من أجـزاء الامـبراطوريـة العثمانيـة متنقلاً بـين ثلاث مـدن صغيرة من مـدن البلقـان «إحـداهـا الآن في بلغاريا، والثانية في يوغوسلافيا، والثالثة في اليونان»!

ويسكت ساطع الحصري برهة، كأنه يسترجع صفحة عزيزة من شبابه، شبابه منذ ثمان وخمسين سنة مضت، ويقول:

«كانت فترة عملي في هذه المدن البلقانية هي التي فتحت عيني لأول مرة على الحقيقة القومية، فقد كانت

هذه الفترة هي فترة احتدام الحركات القومية في أوروبا، كنا نحن العرب تائهين في عباءة الامبراطورية التركية التي تحكمنا باسم الاسلام، وعندما ذهبت إلى البلقان، كنت أظن أن البلقانيين إنما يحاربون الأتراك فقط، لأنهم مستعمرون، ولأنهم من دين غير دينهم، وهذا ما يظنه أكثر المؤرخين عندنا إلى الآن مع الأسف! ولكنني وجدت هناك حقيقة أخرى. وجدت إلى جانب الصراع ضد الاستعمار التركي صراعاً آخر بين البلقانيين أنفسهم، رغم اتحادهم في الدين والظروف، وكان صراعاً قومياً.

إن الفرنسيين يسمون صحن «السلطة» التي تحتوي على مختلف أصناف الخضر والبقول باسم «سلطة مقدونية» كناية عن تعدد أصنافها، ذلك أن مقاطعة مقدونيا البلقانية في ذلك الوقت كان فيها كل أنواع القوميات: يونانيون وبلغاريون وسلافيون وألبانيون وصربيون وأروام و. . . و. . .

كنت أرى اليونانيين والبلغاريين في القرية الواحدة، لا يصارعون الحكم التركي بقدر ما يتصارعون فيما بينهم على الكنيسة والمدرسة، هل تقام الصلاة باللغة اليونانية أم البلغارية؟ هل يكون التدريس باللغة اليونانية أم البلغارية؟ وكانت تقوم حروب أهلية ومعارك مسلحة ومذابح لهذا السبب، رغم أنهم من دين واحد، ومن مذهب واحد.

وهنا انتبهت إلى الحقيقة القومية، فهذا هو احتدام القوميات التي كانت تولد وتتنفس وتنتصر في أوروبا كلها، وثبت في ذهني الفارق بين الدين الواحد والقومية الواحدة، وقارنت ذلك بما كان يدور في سوريا في ذلك الوقت: كانت كنيسة الروم الأرثوذكس ـ مع أنها تابعة لكنيسة أثينا ـ تصارع لكي تقام الصلاة فيها باللغة العربية، ولكي يكون لها بطريرك عربي، وكان الأهالي يصارعون الأتراك لكي يكون التعليم والتقاضي باللغة العربية لا باللغة التركية.

قارنت هذا بذاك. وثبتت في ذهني حقيقة الفكرة القومية ومستقبل الحركة القومية العربية. وثبت في ذهني أن الأتراك ليس من حقهم أن يستعمروا العرب ويسحقوا قوميتهم، بدعوى أنهم ـ كأغلبية العرب ـ مسلمون!».

وطافت بذهني عشرات الأسئلة عن فكرة القومية عموماً، والقومية العربية بوجه خاص، ولكنني آثرت أن أؤجل توجيهها، وأن أثابر على مهمة استدراجه ليروي قصة حياته.

إنه بعد ثماني سنوات في البلقان، ذهب إلى استانبول، عاصمة الدولة التركية، وهناك اشترك في الحركات السرية التي كانت تعمل ضد السلطان عبد الحميد بغية الإطاحة بالنظام الأوتوقراطي المطلق واستبداله بنظام ديموقراطي عصري، وفي الوقت نفسه كان يواصل عمله في التدريس، حتى أشرف على تأسيس دار المعلمين وأدخل نظم التربية الحديثة لأول مرة في التعليم التركي، وألّف في ذلك الكتب والأبحاث، وما زالوا في تركيا إلى اليوم يؤرخون بدء إدخال التعليم والتربية بمعناهما الحديث، بعهد ساطع الحصري.

ونشبت الحرب العالمية الأولى وانتهت، وتمزقت الامبراطورية التركية إلى الأبد، وقامت الثورة العربية بمساعدة الانجليز، ووصلت جيوش الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل إلى دمشق، حيث أعلن نفسه ملكاً على سوريا، وأسس أول حكومة عربية. فأين نجد ساطع الحصري؟

إنه وزير المعارف في هذه الحكومة العربية الأولى، التي أعلنت عن نفسها في دمشق! إنه عضو في الوزارة التي كان يرأسها الركابي ثم هاشم الأتاسي، الوزارة التي تحاول أن تصنع دولة من العدم.

نعم من العدم! لقد انحسر ظلام الاستعمار التركي بعد قرون سوداء وإذا كل شيء ركام، لا إدارة ولا جيش ولا جهاز ولا نظام - لا شيء سوى عواطف ملتهبة لدى الناس واستعداداً للبذل والتضحية، لولا أنه ليس هناك سلاح ولا مال ولا أي شيء على الإطلاق، والجيوش الانجليزية والفرنسية في كل مكان، مع ملاحظة أن سوريا التي كانوا يحاولون بناءها ليست سوريا اليوم، ولكنها سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. ولكنهم في أوروبا كانوا في الوقت نفسه يتآمرون ويرسمون خطوطاً على الورق ويمزقون أوصاله، ويساومون حول نصيب انجلترا ونصيب فرنسا.

ويتبين الملك فيصل الأول ويتبين الوزراء أنهم عندما حاربوا ضد الأتراك لم يثوروا لحساب العرب ولكن لحساب الانجليز والفرنسيين، وأن زحفهم الطويل من مكة إلى دمشق لم يكن زحفاً وراء الاستقلال ولكن وراء سراب ضللهم به الاستعمار. والآن بعد قطف الثمرة، يريد الاستعمار أن يلتهمها بمفرده، دون أن تنال الأيدي التي جرحتها الأشواك شيئاً!

وبعد أن اتفق الانجليز والفرنسيون نهائياً، أرسل الجنرال غورو إنذاراً إلى الملك فيصل ووزرائه لتسليم ما بقي من سوريا، واجتمع الملك والوزراء وقرروا إرسال رسول إلى الجنرال غورو في مقر قيادته ببلدة عاليه (في لبنان الآن) وكان الرسول: ساطع الحصري!

ولساطع الحصري صفحات رائعة، يصف فيها هذه المهمة التاريخية الحزينة: السيارة العتيقة المكشوفة التي شقت به الطريق من دمشق إلى زحلة وعاليه، عبر حشود العرب المتطوعين في جيش المقاومة بسلاحهم العتيق، وعبر التحركات العسكرية، وعبر جيوش الفرنسيين المزودة بالمدافع والدبابات. ثم لقاؤه مع الجنرال المتعجرف، والحوار الأليم. ثم عودته، ومحاولة الانجليز عرقلة عودته، وعزمه على أن يعود سيراً على الأقدام في الطريق الموحش، ثم سيارة الإسعاف التي حملته إلى دمشق.

صفحات سجلها ساطع الحصري في كتابه يوم ميسلون، وهو اسم السفح الذي دارت عنده المعركة بين جيوش الفرنسيين المدججة المنتصرة في الحرب العالمية وبين المتطوعين السوريين بقيادة يوسف العظمة، يوسف العظمة الذي كان وزيراً للحربية في تلك الوزارة، والذي عرف أن المعركة خاسرة، ولكنه همس في أذن ساطع الحصري: ابنتي ليلى أمانة في عنقك! ثم ذهب ليموت تحت سنابك الخيل وعجلات الدبابات، فقط ليسجل أن سوريا قاومت.

وعندما دخل الفرنسيون دمشق، تفرق الجمع وركب ساطع الحصري القطار الحزين مع الملك فيصل، إلى حيفا، ثم إلى أوروبا لطرق الأبواب، والتذكير بالوعود، المرحلة نفسها التي مرت بزعماء مصر، بعد الحرب العالمية الأولى وإبان ثورة ١٩١٩.

وتمر سنتان.

ويتقرر تأسيس دولة العراق، الجزء العربي الذي وقع في «نصيب» الانجليز. ويوافق الانجليز على إعطاء عرش العراق للملك فيصل تعويضاً له عن عرش سوريا الذي أباه عليه

الفرنسيون. ومرة أخرى نجد ساطع الحصري في بغداد: إن الرجل الذي ولد في اليمن من أبوين سوريين، يحمل الآن جنسية عراقية! إن وطنه الحقيقي كل بلاد العرب، وجنسيته الحقيقية هي العروبة.

والموقف في بغداد هو الموقف القديم نفسه في دمشق: لا توجد دولة قط، العملة هندية، والقوانين هندية، لأن العراق كانت تابعة لـ «مستعمرة الهند». حتى طبقة المثقفين القليلة التي كانت موجودة في دمشق ليس لها مقابل في العراق، ثم هناك تركيا تطالب بالموصل، وايران تطالب بشط العرب، وهكذا، وبغداد نفسها قرية صغيرة متخلفة «إذا أمطرت السماء عبرنا الشوارع على ظهور الشيالين!».

وهو في بغداد لا يشتغل بالسياسة، ولكن بالتعليم:

«هناك أيضاً كانت لا توجد دولة، ولا تعليم قط، سوى التعليم التركي التافه، وكان همي أن أقيم نظاماً للتعليم على أسس قومية عربية، كان الانجليز وبعض عملائهم يحاولون خلق تيار «عراقي» اقليمي، لا يؤمن بالعروبة. وكنت على العكس أحاول أن أجعل التعليم الذي يتسلّم الفرد وهو طفل، تعليماً عربي اللحم والدم».

ويمضي ساطع الحصري ويقول:

«في سنة ١٩٣٠ على ما أذكره، بذلت مجهوداً كبيراً من أجل أن يتبادل طلبة جامعتي القاهرة وبغداد الزيارات.. وجاءت إلى بغداد بالفعل أول رحلة من الأساتذة والطلبة المصريين. تصور أن بعض المصريين دهشوا عندما وجدوا أن العراقيين يتكلمون اللغة العربية مثلهم، لا لغة عراقية أخرى! ونفس الشيء عند بعض العراقيين! لقد كان الاستعمار يقيم ستاراً حديدياً، معنوياً، بين الأقطار المختلفة للبلاد العربية!

وفي ذات ليلة، دعوت هؤلاء الأساتذة والطلبة المصريين لسماع بعض الأغاني الريفية، التي يغنيها الفلاحون العراقيون. ولا أنسى دهشة الطلبة المصريين لدى سماعهم هذه الأغاني وصياحهم: هؤلاء صعايدة! نعم لقد لمسوا على الفور الصلة العميقة المشتركة في مستواها الريفي البسيط، نفس الروح في اللحن، والكلام، والأداء، وكل شيء!».

- ومتى تركت العراق؟

- بقيت هناك عشرين سنة. وعندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني، كان للثورة اتجاه عربي قومي لا عراقي محلي. فلما أخمدت الثورة ودخل الانجليز بغداد، اعتبرني عهدهم الجديد مسئولاً عن عقيدة الثورة ففصلوني من العمل، وسحبوا مني الجنسية العراقية، وطردوني من البلاد.

ولكنه كان قد أنجب ولداً، وسماه خلدون، فبقي ابنه هناك.

وسألته عن الفرق بين الملك فيصل الأول وبين حكام العراق الحاليين؟

وقال ساطع الحصري: «كانت سياسة الملك فيصل الأول مع الانجليز هي: خذ وطالب! أي أن يأخذ منهم ما يوافقون على إعطائه، مهما كان قليلاً، ثم يبدأ فوراً في المطالبة بخطوة أخرى. ولذلك، فقد عدّلت المعاهدة العراقية مع انجلترا ثلاث مرات في خلال ست سنوات هي مدة حكمه. وأما وزراء العراق من بعده، فكانوا يأخذون ما يعطيه لهم الانجليز ثم يكتفون به، بل ويحافظون عليه! فمنذ سنة ١٩٣٠ لم تعدل معاهدة العراق قط!».

وتنتهي الحرب العالمية الثانية، وتعود الابتسامة إلى حياة أبي خلدون.

فها هي دمشق تستدعيه. إنه يعود إليها، إلى اللحظة نفسها التي حمله منها القطار ذات ليل كئيب منذ ربع قرن. يعود وقد تحررت من آخر جندي فرنسي، لكي يضع من جديد أسس التعليم والتربية القومية، التي هدمها الفرنسيون عندما طردوه، منذ ربع قرن!

ثم يجيء إلى مصر، حيث يؤسس معهد الدراسات العربية العليا، وحيث يعيش إلى الآن.

«منذ زمن بعيد وأنا أتمنى أن أعيش في مصر. لقد اقتنعت من سنوات طويلات أن العروبة لن تقوم لها قائمة بغير مصر. هنا مركز الثقل، وقلب البلاد العربية، ونقطة الانطلاق الحقيقية إلى المستقبل».

وهنا أيضاً في مصر، كانت تنتظره معارك كثيرة، ولكنها معارك ثقافية فحسب.

إنه كما صارع في سوريا فكرة القومية السورية، وكما صارع في العراق الفكرة العراقية الاقليمية، فهو يصارع هنا فكرة مصر الفرعونية.

«لقد مرت بمصر بلبلة عجيبة. البعض يقول إنها فرعونية، والبعض يقول إنها تتبع البحر المتوسط، كاليونان والطليان! والبعض يقول إنها عربية!».

وما أكثر «الانحرافات» الذهنية التي تثير أعصابه.

كان يقول لأنصار الفرعونية:

«لو فرضنا جدلاً أن الفراعنة الراقدين في دار الآثار قاموا ودبت فيهم الحياة، فأي صلة تجدها بينك وبينهم؟ لا شيء. لا اللغة ولا الدين ولا العادات ولا الشخصية ولا أي شيء قط!

ثم إن «السلالة» لا تهم. إن جد ايزنهاور المباشر كان ألمانياً، وايزنهاور اليوم أمريكي اللحم والدم والعواطف. أمريكي في كل خلية منه. أمريكي قاد جيوش أمريكا ورأس جمهوريتها. المهم في القومية ليس السلالة، ولكن التفاعل الاجتماعي!

لقد حكم العرب ـ مثلاً ـ بلاد الفرس ثلاثة قرون، اعتنق فيها الفرس الاسلام، وتكلموا اللغة العربية، وتولوا مناصب الحكم في عاصمة الامبراطورية العربية، وكتب شعراؤهم ـ كعمر الخيام ـ بعض شعرهم بالعربية. ولكن عملية التفاعل الاجتماعي لم تتم هناك. فانحسر الموج بعد ثلاثة قرون، وعادت إليهم فارسيتهم...

العائلة المالكة الانجليزية، إنها المانية الأصل، ويوماً ما كان أحد ملوكها لا يعرف إلا اللغة الالمانية.

الامبراطورية الرومانية القديمة، كان أحد قياصرتها عربياً من «حوران» في سوريا، وكان اسمه «فيليبوس أرابيكوس» أي «فيليب عربي». وهناك امبراطور روماني آخر كانت زوجته عربية من حمص واسمها «دونا جوليا».

والأمثلة المشابهة في التاريخ بالمئات. فالسلالة ليست معيار القومية. المعيار هو التفاعل والانصهار الاجتماعي.

إن أصل الفرنسيين مثلاً هم قبائل «الهوجنوت» التي هاجرت من المانيا إلى فرنسا. فأين الهوجنوت والألمان الآن في فرنسا؟!

ثم كان هناك الذين يخلطون بين العروبة وبين الوحدة الاسلامية.

تصور أن الشيخ المراغي الذي كان شيخاً للجامع الأزهر كتب مرة يقول: إن الفكرة القومية ضد الدين لاسلامي. وإن الإسلام يتجه إلى جميع القوميات..

عجيب! إذا كان علماء الاسلام يريدون تحقيق الوحدة بين العربي والايراني والهندي والتركي، أيكون منافياً للدين أن نحقق الوحدة بين العرب أنفسهم، بين السوري والمصري والعراقي؟

تصور أن كثيراً من الكتاب والباحثين يقولون إن جمال الدين الأفغاني كان يدعو إلى الوحدة الاسلامية. ن هذا غير صحيح أبداً. لقد كان جمال الدين الأفغاني يدعو إلى «إصلاح الاسلام» لا إلى «الوحدة لاسلامية». وفي كتابات تلميذه الشيخ رشيد رضا وجدته يقول: إنه لم يجد أثراً لأي كلام عن وحدة اسلامية في كتابات الأفغاني.

إن الخلط بين الفكرة الدينية والفكرة القومية خطأ خطأ.

لقد كانت الدولة العربية القديمة ذات طابع ديني اسلامي، لأن العالم كله مر بعصر كان الدين فيه هو ساس الدول، كانت حروب أوروبا كلها حروب دينية، كانت انجلترا مثلاً بروتستنتية، وكانت قوانينها تحرم على غير البروتستنتي أن يقيم فيها. لم تكن القوميات بمعناها الحالي قد عرفت طريقها إلى الظهور. كانت جيوش وروبا كلها في بعض الأوقات جيوشاً مرتزقة، الجيش الواحد جنوده من مختلف الجنسيات، يوردهم موردون شبهون مقاولي العمال والأنفار اليوم، ويحاربون لحساب الملك الذي يعطيهم الأجر، مهما كانت دولته!

لقد كان العرب يصارعون الأتراك - وهم من نفس دينهم - لكي يتعلموا ويتقاضوا باللغة العربية. ولكن لمصريين كانوا يتعلقون بالخليفة التركي، بسبب بعض وجودهم تحت الاحتلال البريطاني».

وضحك ساطع الحصري فجأة ضحكة عريضة.

وقام إلى مكتبته وأخرج نسخة من ديوان الشاعر أحمد شوقي، وبعض الأوراق، وقال:

«عندما وقع حادث محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد وفشلت المحاولة، كتب الشاعر شوقي قصيدة طويلة يهنىء بها السلطان التركي منها:

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما	نجاتك للدين الحنيف نجاة
أخذت على الأقدار عهداً موثقاً	فلست الذي ترقى إليه أذاة
ومن يك في «برد النبي» وثوبه	تجزه، إلى أعدائه الرميات!
يكاد يسير البيت شكراً لربه	إليك ويسعى هاتفاً عرفات!
وتثني من الجرحى عليك جراحهم	وتأتي من القتلى لك الدعوات!

ولكن، في نفس الوقت، كان الشاعر التركي الكبير «توفيق فكرت» يكتب قصيدة عن نفس الحادث، عبر فيها عن حزن الشعب التركي لنجاة السلطان الظالم، ويلعن الظروف لأن القنبلة الزمنية انفجرت بعد مرور لسلطان بلحظات قليلة فيقول ما معناه: «إن اللئيم الذي يلهو اليوم بالعبث بحياة أمة بأسرها، مدين بكل لذاته هذه للحظة تأخير واحدة!».

وقد انتصرت الحركة القومية في مصر وأصبحت عربية».

وعندما صدر دستور سنة ١٩٥٦، سأل بعض الأصدقاء ساطع الحصري: «هل قرأت لدستور؟ وما رأيك فيه؟».

وقال لهم ساطع الحصري: «قرأت فيه مادة واحدة، ثم لم أقرأ غيرها، فقد كانت تكفيني.

إنها المادة التي تقول: مصر جزء من الوطن العربي!».

هل القومية «موضة قديمة»؟

وسألته عن الرأي الذي يقول بأن الحركات القومية شيء قد فات أوانه وأصبح «موضة قديمة».

وانفعل أبو خلدون وهو يقول:

«هؤلاء ناس يعيشون في أوروبا، لا في بلادهم!

نعم، لقد انتهت في أوروبا القضايا القومية، ولكن كيف انتهت؟ انتهت بحل مشكلة القوميات وبالخضوع لمنطقها. انتهت بأن قسمت الدول فيها على أساس القوميات لا على أي أساس آخر. وهذا طبيعي، لأن الانسان يكف عن المطالبة بالشيء بمجرد حصوله عليه.

ولكننا هنا في مرحلة أخرى. نحن ما زلنا في مرحلة الصراع القومي. الاستعمار لم يسلّم بمطالب حركتنا القومية بعد، وهي لذلك ما تزال قائمة.

إن الذين يفكرون في ظروف بلادنا بمنطق ظروف أوروبا، كالذين يقولون إن الجو في مصر الآن بارد لأن الجو في أوروبا بارد.

إن المناخ في العالم متغير، قد يحل فصل الشتاء في مكان في حين يسود فصل الربيع في نفس الوقت في مكان آخر، فتجد أوراق الشجر تتساقط في مكان، وتزدهر في مكان آخر.

وهذا هو الحال في مراحل التاريخ. نحن الآن لسنا بعد في الفصل الذي تمر به أوروبا.

ومنذ مائة سنة، قال بعض الماركسيين إن القومية قد انتهت، وإن الطبقة هي أساس التكتل الوحيد، ولكن لينين عارض الذين نادوا بإلغاء القوميات، وقال إن القوميات يجب أن تبقى ويجب احترامها، وقد انتصر رأيه.

إن القومية لا تذوب، ولكنها قد تدخل في تكتل أكبر، قد تشترك أكثر من قومية مثلاً في دولة سياسية واحدة، أو في نظام اجتماعي واحد، ولكن بعد أن يكتمل وجودها، وشخصيتها.

لا بأس مطلقاً في أن تدخل القومية في كتلة أكبر، وليس معنى هذا أن القومية تنتهي وتذوب، ولكن معناها أنها تضيف إلى شخصيتها شيئاً آخر! فهي عملية اضافة، لا عملية إفناء!».

وكنت قد تعبت. ولكن الرجل ذا الثمانية والسبعين عاماً، كان ما يزال نشيطاً، يتكلم بحرارة، ويتنقل بين أجزاء المكتبة، ويخرج الكتب ويفتح الصفحات، مدعماً بالمراجع هذا الرأي أو ذاك.

وقلت له:

- سؤال بعيد عن السياسة: ما هي أبرز العيوب التي يقع فيها بعض المؤرخين المعاصرين؟ ما الذي يبعدهم أحياناً عن الفهم الصحيح الحي للتاريخ.

وأغلق أبو خلدون كل الكتب، واعتدل في جلسته وقال:

- أولاً: بعض المؤرخين لا يعتمدون، ولا يصدقون إلا الكتب الأوروبية المكتوبة عن تاريخنا. ودراسة التاريخ تعلمنا أن كل دولة تكتب تاريخ العالم بما يناسب مصلحتها وكبرياءها. فالمراجع الأوروبية فيها فائدة عظيمة، ولكن فيها أيضاً ضلال كثير، ومن الخطأ البالغ أن نصدقها على علاتها.

ثانياً: أن ينسى المؤرخ الفكرة الأساسية في غمرة التفاصيل، فلا يعثر مثلاً على خط اتجاه الحركة القومية، لأنه قد اضطرب في خضم التغيرات والتقلبات والأحداث المختلفة.

ثالثاً: إذا نظرت إلى الجبل من بعيد، وجدت منظره جميلاً ساحراً، ولكنك إذا سرت في حناياه، وجدته مجموعة أحجار وتراب ومنحنيات ومنخفضات. ونحن ننظر إلى تاريخ أوروبا من بعيد، نقرأ كلياته فقط، فنراه جميلاً رائعاً. أما تاريخنا، فلأننا قريبون منه، غارقون في ثناياه، فإننا لا نرى منظره العام الجميل، لا نرى إلا الصخور والأحجار والكهوف، وهذه غلطة أخرى يجب أن يتجنبها المؤرخ.

رابعاً: نحن أحياناً نستهين بأبطالنا. إننا نسمع عن مونتسيكيو مثلاً، فنشعر بالخشوع والإجلال، لأننا نعرف فقط ما أضافه مونتسيكيو إلى الانسانية، ولا نعرف السخافات الكثيرة الأخرى التي تحفل بها مؤلفاته. ولكننا لا نخشع ولا نجل مؤرخاً عربياً مثل ابن خلدون، لأننا نقرأ الطيب والرديء في أعماله.

كل مفكر عظيم أضاف للانسانية شيئاً، وأخطأ في أشياء. وعلينا أن نقيس رجالنا أيضاً بهذا المعيار.

خامساً: وأخيراً، إن أكثر المؤرخين يفتقدون النظرة الاجتماعية. إنهم يهتمون مثلاً بأن الدولة الفلانية فتحت مدينة كذا في سنة كذا. ولكنهم لا يدرسون الأهم: لا يدرسون ماذا حدث بعد هذا الفتح في هذه المدينة من تغير وتفاعل بين اللغات والعادات والأديان. في حين أن هذا هو الحادث التاريخي الهام.

وقبل أن أنهض، سألت أبا خلدون:

- هل لك حفيد؟ هل هناك طفل اسمه «ابن خلدون»؟

وضحك ساطع الحصري وقال:

- إبني خلدون في العراق. لقد كتب عدة مقالات عن الجمهورية العربية المتحدة، والظاهر أن السلطات هناك ضايقته بسببها فقدم استقالته منذ أسابيع. إن له طفلين، واحد اسمه عمر والثاني اسمه علي.

من يدري؟ ربما أصبح أحدهما «ابن خلدون» آخر!

٤ ـ زيارة لمكتبة لويس عوض
من إيزيس إلى ناعسة(*)

كانت هذه أول مكتبة منظمة، صادفتها في هذه الزيارات. وليس هذا غريباً، فهي مكتبة ناقد، ومدرس أدب.

وإذا كان من حق الفنان أن لا يرتبط بنظام معين، فلا شك أن الناقد ومدرس الأدب محتاج إلى أن يكون له منهج، ومنطق، ونظام. هنا، لا تتساند الكتب في رفوفها كما اتفق، ولكنها تجلس في صفوف مرتبة بترتيب الأقدمية!

ففي الطرف الأيسر، نجد الكتب التي تتحدث عن أدب اليونان القديمة وحضارتها وفلسفتها، هوميروس وسوفوكليس وأفلاطون وأرسطو، إلى أن ينتهي العصر اليوناني، فنجد بعده مباشرة عصر الرومان، إنيادة فرجيل وأعمال هوراس وكتاب جيبون الشهير عن «أفول الامبراطورية الرومانية»، ثم ندخل في العصور الوسطى، فنلاحظ أن التفكير هنا له طابع ديني، ونقرأ على كعوب الكتب أسماء القديس أوغسطين والقديس توماس الأكويني وغيرهما.

ثم ننتقل إلى عصر النهضة فنجد مفكري الإصلاح الديني مثل لوثر وكلفن، وأبطال هذا العصر الزاهر مثل دانتي وبترارك وبوكاشيو ودافينشي.

والخطوات في هذه المراحل كلها سريعة، ولكننا عندما نصل إلى الأدب الانجليزي بالذات، تبطؤ خطوات الانتقال، وتتضاعف كمية الكتب عن العصر الواحد. فالأدب الانجليزي بالذات هو تخصص و «منطقة نفوذ» الدكتور لويس عوض.

إن العقل الفلسفي والحاسة الفنية لدى الانجليز مركزان في هذه الرفوف التي تشغل «قلب المكتبة» المنسقة. هاهنا كتب يمتد نطاق بحثها من دراسات اللغة الانجليزية الأولى، إلى أغلب العصور الوسطى إلى العصر الحديث.. عبر أسماء تشوسر وشكسبير وسبنسر ومارلو

(*) صباح الخير (١٧ نيسان/ ابريل ١٩٥٨).

ثم بـايرون وشيـلي وكيتس وكارليـل وماكـولي ووسكين وديكنـز. . إلى برنـارد شو وت. س. إليـوت وسبندكـر. مسرحيات وروايـات طويلة ودواوين شعـر ومؤلفـات في اللغـة والتـاريـخ والنقد.

وإذا كـان القسم الانجليزي يشغـل قلب المكتبـة، فـإن شكسبير يشغـل قلب القسم الانجليزي. هنا لا نجد فقط مؤلفات شكسبير وكمية ضخمة من الأبحاث التي كتبت عنـه، إن الكتـاب الواحـد لشكسبير نجـد له أكـثر من طبعة، في أكـثر من شكل وحجم وإخـراج. فشكسبير أكثر من «تخصص»، إنه «مزاج» خاص!

ولم أتم الجولة في المكتبـة بعد العصر الانجليـزي. لقد استـوقفني في المكتبة شيء آخـر غـريب، غير نـظامها الـدقيق. استوقفني خـريطتـان كبيرتـان للاقليم المصري معلقتـان عـلى الحائط، خريطتان مفصلتان إلى أقصى حد، فعليهما اسم كل قرية مصرية مهما صغر شأنها!

وقلت للويس عوض: «هذه أول مكتبة أدبية أجدها مزودة بالخرائط! فهل هذه الخرائط للزينة، أم للقراءة والعمل».

فقال: «إنها للقراءة والعمل!».

وهنا نقف عند قصة هامة.

إن الـدكتور لـويس عوض، النـاقـد وأستـاذ الأدب الانجليـزي، يـدرس الآن اللغـة الهيروغليفية، ويدرس عبادات مصر القديمة!

- «لماذا؟».

- «أنـا لا أدرس عبادات مصر الفـرعـونيـة وحـدهـا. ولكنني أدرس عبـادات الأشـوريـين والبـابليـين والسـومريـين، أي كل العبـادات القديمـة التي عرفتهـا حضارات الشرق الأوسط، فضـلاً عن دراستي القـديمـة لعبادات اليونان. وقد دفعني إلى هذه الدراسة أمران:

الأول، إنني أريد أن أستقصي مدى ما بين هذه العبادات - والثقافات بوجه عام - من علاقة، وأين وكيف وإلى أي حد تداخلت وتأثر بعضها بالبعض.

والثاني، إنني مؤمن بأن الماضي يعيش في الحاضر دائـماً، رغم تغيّر القـالب أو تحول المضمـون. ودراسات العبادات القديمة، تساعدنا جداً على معرفة مدى «تناسخ» هذه العقائد القديمة في عقائدنا الحديثـة، نحن سكان هذه المنطقة العريقة من العالم.

وهنا تأتي فائدة هذه الخريطة! فهي تفيد في معرفة مواقع الـديانـات المختلفة، ذلـك أن العبادات في مصر القديمة كانت مقسمة على المناطق. فكل منطقة لها عبادتها ولها آلهتها، إلى جانب وجود الآلهـة المشتركـة التي كان نفوذها يشمل الوادي كله. فقد كان «رع»، مثلاً كبير الآلهة».

وقام لويس عوض إلى الخريطة. وأخذ يدقق في النقط المتزاحمة فيها والأسماء المتشابكة، حتى وضع اصبعه على قرية صغيرة في إقليم مصر، هي قرية «دندرة»، وقال:

- «لقد كنت أقرأ منذ أيام في ديوان الشاعر اللاتيني «جوفينال»، وإذا بي أجده يتكلم في إحدى قصائده

عن الشجار المستمر بين أهل دندرة وأهل «أومبوس»، وكلتاهما من قرى مديرية قنا اليوم. وباستقصاء الاشارات الواردة في جوفينال، وجدت أنه قد يكون لهذا علاقة بالصراع التقليدي الذي نعرفه في أيامنا هذه، الأشراف والحميدات في نفس المنطقة. وقد تحققت من الرجوع إلى كتاب «جيكييه» عن الديانات المصرية القديمة أنه كان صراع عبادات، ثم تطور إلى أسطورة، تقول إن آلهة دندرة خانت منطقتها وانضمت إلى أعدائها في أومبوس، وهذا هو سبب الحرب بينهما!

إن دراسة الأساطير الفولكلورية المقارنة، أي في البلاد المختلفة، تكشف لنا عن روابط كثيرة بين الحضارات المتجاورة من جهة، وبين الماضي والحاضر من جهة أخرى.

مثل آخر:

كنت أقرأ في كتاب عن علي بن أبي طالب، كتاب من تلك الكتب الصغيرة الصفراء التي لا يعرف أحد مؤلفها بالضبط، والتي تباع في الدكاكين وعلى العربات في حي الأزهر. ووجدت في هذا الكتاب قصة تصف كيف ذهب «فتى الفتيان علي بن أبي طالب» إلى بلاد الحبشة وحارب هناك. وأنا لا أعرف أنه ذهب إلى الحبشة وحارب! وفي مشهد من المشاهد، يصف الكتاب كيف قضى علي وعشرة رجال معه على ألف رجل من الأعداء، في ممر ضيق بين جبلين، وصفاً ذكّرني على الفور بمنظر مشابه في الأساطير اليونانية، عن انتظار البطل لأعدائه في مدخل بين صخرتين.

مثل آخر، عن الارتباط بين الماضي والحاضر هذه المرة:

في بعض المناطق الفولكلورية بصعيد مصر، نسمع إلى الآن قصصاً من نوع الموال الذي يروي قصة «ناعسة» المشهورة في بلدة «مزاتة» ومحور الموال أن ناعسة تريد أن تعبر إلى البر الغربي لأن حبيبها هناك، فهي تناشد «المعداوي» أن ينقلها في قاربه إلى حيث الحبيب، وتبدي استعدادها أن تدفع له أي شيء مهما كان غالياً كي تلحق بحبيبها.

إن هذا الموال الشعبي يذكرني بأسطورة زورق أوزوريس الذي كان ينقل فيه الأرواح من الشاطىء الشرقي إلى الشاطىء الغربي أي من عالم الأحياء إلى عالم الأموات في تعبير المصريين القدماء! خصوصا إذا لاحظنا أن قرية مزاتة تقع على البر الشرقي، وأمامها مباشرة على البر الغربي تقع قرية «العرابة المدفونة» أي ابيدوس التي كانت أهم مركز لعبادة أوزوريس في الوجه القبلي.

وقضية قتل اوزوريس وبحث ايزيس عنه مشهورة ـ واسم ايزيس القديم «عسنا» وهو قريب من اسم ناعسة ـ ولا يبعد أن تكون المواويل التي تدور حول «المعداوي» في الصعيد، خصوصاً في البلينا، مرتبطة فلكلورياً بحكاية مقتل أوزوريس وبحث ايزيس عنه. ألا يقول الموال الشهير:

«يا ناعسة خبريني عاللي جتل (قتل) ياسين؟».

ثم إن من العادات التي ما زالت موجودة في بعض قرى الصعيد، عملية «حلب النجوم» التي تقوم بها النساء العاقرات واللائي لم يتزوجن. فهن يتجردن من ثيابهن في الليل ويؤدين بأيديهن حركات في الهواء كأنهن يحلبن نجوم السماء! لقد كانت ايزيس ترسم في مصر القديمة على شكل بقرة وعليها نجوم. وايزيس هي آلهة الخصب بكل أنواعه، الخصب الجسدي والنباتي والحيواني، بل كانت في بعض الأماكن آلهة للدعارة المقدسة. ولا يبعد أبداً أن يكون اسم «غازية»، التي هي غانية الريف، تحريف عن اسم «ايزيس».

والعجيب أن ايزيس ـ واسمها القديم «عست» ـ كانت آلهة الخصب في مصر الفرعونية.. وأن آلهة الخصب في بابل القديمة (العراق) كان اسمها ـ عشر».

ولا أعرف إلى أي حد ـ يمكن أن تكون هذه الصورة المترابطة صحيحة. والدكتور لويس عوض نفسه لا يقطع بشيء من ذلك إلى الآن، إنه ما زال في سبيل البحث، فقط.

وقد سألته: «هل التشابه الذي يقع بين الأسطورة في حضارتين مختلفتين، أو في عصرين متباعدين، يعني بالضرورة أن هناك اتصالاً ونقلاً بينهما، أم ان الظروف المتشابهة تخلق انتاجا متشابها، حتى في الأساطير؟».

وقلت له: «إنني أذكر مثلاً عندما كنت أزور العراق من سنتين، انني سمعت موالاً ريفياً، عن فلاحة عبر حبيبها النهر هرباً من تعقب الجنود الأتراك له، وعن رغبتها في اللحاق به. وهذا يشبه إلى حد بعيد مواويل «المعداوي» في صعيد مصر. والناس هناك يقولون إنه واقعة حقيقية حدثت خلال حكم الأتراك، وإن الفلاحة معروفة وكانت تعيش إلى عهد قريب.

وسواء كانت الواقعة صحيحة أم غير صحيحة، هل يمكن أن نقول ـ ونحن مطمئنون ـ إن الأسطورة قد انتقلت بين القطرين؟».

وأجاب الدكتور لويس عوض: «لا شك أن هناك نظريتين. نظرية تقول إن كل بلد يخلق لنفسه أساطيره، فإذا تشابهت الظروف بين بلد وبلد فقد تتشابه النتيجة. ونظرية أخرى تقول إن التشابه مرجعه الأساسي النقل والاتصال، وأنا أرجح فكرة الاتصال والهجرة، دون أن أنفي امكانيات الخلق والابتكار».

وسكت لويس عوض قليلاً، ثم قال:

ـ «على أي حال، لا شك أن دراستنا للفن الشعبي لن تقوم على أساس علمي إلاّ إذا توغلنا في دراسة الأساطير المقارنة وفقه اللغة المقارن للمنطقة كلها.

خذ قصة سيف بن ذي يزن مثلاً، التي تدور حول رجل يريد أن يزوج ابنته لمن يكتشف منابع النيل. هل إذا درسناها نقول إنها كتبت في عصر المماليك وكفى؟ أم ننظر لها على أنها تراكم وامتداد لقصص وأساطير قديمة، بل وموغلة في القدم، تحولت مع الزمن حتى اتخذت هذا الشكل؟ إن المنهج العلمي يقول إن كل قصص الفروسية والملاحم يجب أن ننظر إليها على أنها رواسب تكوّنت في مئات، وربما آلاف السنين. إن الياذة هوميروس مثلاً نظمت كحلقات في عصور مختلفة بين سنة ١٢٠٠ وسنة ٥٠٠ قبل الميلاد، أي في حوالى سبعمائة سنة، ولم تدون إلاّ حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد. ونفس الكلام يقال عن الباي ولف الملحمة الانجلوسكسونية، فقد نظّمت وتجمعت حتى أخذت إطارها الحالي المدوّن بعد قرون طويلة، بل إنها تجمعت من أكثر من بلد. فهذا جزء من اسكندينافيا وذاك جزء من مكان آخر، وهكذا».

وقلت له:

ـ «أنت إذاً تبحث عن جسر يربط كل حضارات المنطقة: فرعونية ويونانية وبابلية وأشورية وعربية؟».

وضحك لويس عوض، ضحكة ترجمتها «من يدري؟».

وتركت الخريطة المعلقة، وعبرت العلمين المعقلين بجوارها: علم الأمم المتحدة (حيث عمل لويس عوض زمناً) وعلم مصر (ولم يكن علم الجمهورية العربية المتحدة الجديد قد أعلن عنه)، وعدت إلى رفوف الكتب استطلعها.

لقد وقفنا عند نهاية قسم الأدب الانجليزي، وبعد ذلك لا نجد الكتب مرتبة بترتيب

العصـور، إنمـا بـترتيب النـوع. فهنــاك قسم الأدب الأمـريكي، وقليــل من الأدب العـربي والفرنسي والالماني، ثم قسم خاص بالنقد وعلم الجمال ثم قسم: متنوّعات!

ولما كانت المكتبة مرتبة بمنطق العصور، فقد سألت صاحبهـا: «أي عصر من هذه العصـور قريب إلى قلبك؟».

وقال لي على الفور:

ـ «إنه عصر النهضة والحركة الرومانسية في أوروبا، ذلـك أنه عصر ثـورة وتعبير عن القلق الـروحي في المجتمعـات البشرية حين تتضـارب فيها المـدارس والمذاهب والمعتقـدات. وعصر الثـورة الفكـريـة لا ينـظر إلى السنوات التي يعيشها فقط، إنما ينظر إلى السنـوات التي قبله والسنوات التي بعـده، فليس فيه الخمـول والرتـابة والتشابه الذي نراه في غير ذلك من العصور».

وسألته:

ـ «وبالنسبة للأدب والفن في مصر الآن، هل يمكن القول بأننا عصر ثورة بهذا المعنى؟».

ـ «هناك بدايات للأشياء، لا الأشياء نفسها. نحن في مجال الفن والأدب في حالة ثورة بالمعنى السلبي، أي بمعنى القلق والتنبه إلى ضرورة ايجاد قـوالب جديـدة. نلمس هذا في محاولات الشعر الحـديث وفي الاهتمام بالأدب الشعبي وغير ذلك. ولكن هذا لم يصل بعد إلى المرحلة الايجابيـة في التفكير، فنبـدأ في الإحساس بـأن البناء عملية شاقة في أي باب من الأبواب».

وقــادنــا الحــديث عن الأدب والفن المعــاصر في مصر، إلى قضيــة الــتزام الأديب ومسؤوليته.

وقال لويس عوض:

ـ «كثيرون من أدباء مصر يفهمون التزام الأديب، والأدب للحياة، فهماً خاطئاً.

إن بعض الأدبـاء يفهمـون من هـذا أن الأديب يجب أن يكتب في السيـاسـة المبـاشرة أكـثر ممـا يكتب في الأدب، بل إنهم حتى في الكتابة السياسية يتكلمون عن الجزئيات ولا يرتقون إلى مستوى الفكر السيـاسي، ذلك أنهم يفهمـون الالتزام عـلى أنه الارتبـاط بمجرى الحيـاة اليوميـة وجزئيـاتهـا، في حـين أن الأديب، بـل والمفكـر السيـاسي، مع التزامه برسالته الاجتماعية، ينبغي عليه أن يتعامل دائماً مع الكليات المستمرة من جزئيات الواقع، فينظر للأمور من بعد، وبـدرجة من الانفصـال، تمكّنه من رؤيـة الصورة في مجمـوعها... وهـذا هو مـا يفعله الأدباء الملتزمون في جميع أنحاء العالم».

٥ ـ المتخصص حيوان غير اجتماعي(*)

أحياناً أنظر إلى رجال السياسة والحكم في العالم، وهم يتصارعون على السلطة، وأضحك! إذ يخطر لي أنهم يتصارعون على شيء لا يملكونه، وعلى سلطة وهمية لا يتمتعون بها!

وأحياناً يخطر لي أن وراء الكواليس، يوجد ناس آخرون تماماً، هم الذين يمارسون السلطة الحقيقية، بعيداً عن الضجة والصراع والخطر، ناس اسمهم الخبراء.. أو اسمهم المتخصصون!

وقد يختفي هذا الخاطر من نفسي بعد قليل، وأعود لأندمج في أبحاث السياسة بمعناها المعروف، ولكن هذا الخاطر الغريب لا يلبث أن يعاودني من جديد، وكأنه شاكوش يدق في رأسي مسماراً صغيراً، في إلحاح غريب!

إننا نعتبر التخصص علامة من علامات التقدم والحضارة، ولكن بعض المفكرين بدأوا يعتقدون أن التخصص هو مرض العصر الحديث! أو هو المرض الذي يصاحب التقدم الحديث! تماماً كما يقال من أن مرض شلل الأطفال مثلاً يظهر في المجتمعات المتحضرة الغنية، لأنه مرض ينتج من المبالغة في النظافة التي تقلل حصانة الجسد ضد الميكروبات!

النظافة علامة من علامات الحضارة. النظافة أمر لا بد منه، والمرض الناجم عنها لا بد منه.

كذلك فالتخصص لا مفر منه لأنه أساس من أسس التقدم، ولكن أمراضه لا مفر منها.

وبعض المفكرين بدأوا أيضاً يعتقدون أن التخصص هو الخطر الحقيقي على الديمقراطية

(*) الهلال (كانون الثاني/ يناير ١٩٦٢).

وعلى الانسان العادي في العصر الحديث. إن التخصص هو المستبد الحقيقي الذي لا يرقى إليه في استبداده أعتى حاكم فرد دكتاتور.

ولكن . .

ما هي الحكاية بالضبط؟

زمان، لم يكن المجتمع الانساني يعرف شيئاً اسمه التخصص، كانت الأعمال كلها بسيطة، والعلوم الموجودة بسيطة. وفي التاريخ القديم نجد أن القائد العسكري المنتصر مثلاً لم يكن خريج كلية عسكرية ولكنه في الحياة العادية تاجر أو صاحب أرض أو ما إلى ذلك. وكان من المألوف أن نجد المفكر النابغة يفهم في الفلسفة والأدب والطب والفلك وعلوم اللغة.

وإلى الآن، نجد أن التخصص في البلاد المتخلفة اقتصادياً، أقل انتشاراً منه في البلاد المتقدمة اقتصادياً. ففي البلاد العربية مثلاً بوجه عام نجد أن المعنى الشائع إلى الآن لكلمة عامل أنه رجل لديه قوة عضلات يستخدمها في أي عمل. فالعامل يمكن أنْ يكون نجاراً أو حداداً أو فلاحاً . . إلى آخره، لأن الأعمال الأكثر انتشاراً في هذه البلاد ما زالت الأعمال البسيطة. أما في البلاد المتقدمة صناعياً فكل عامل يتقن فرعاً محدداً أو نوعاً واحداً من أنواع الصناعات لا يمكن أن يعمل في سواه، لأن الصناعات المنتشرة في تلك البلاد هي صناعات معقدة وفنية تحتاج إلى متخصصين سواء بين العلماء والمخترعين أو المهندسين أو العمال.

إن الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية هي التي يمكن أن تلعب هنا دوراً كبيراً.

فالقصة والمسرحية والفيلم والجريدة والمجلة وكتاب التاريخ، هي الأرض المشتركة المفتوحة التي يمكن أن يلتقي عليها الجميع. هي الحديقة الخضراء التي تسطع عليها الشمس، والتي يذهب إليها أي فرد، حين يخرج من غرفته المغلقة، مخنوقة الهواء، ليتنفس هواء نقياً ضرورياً لسلامة رئتيه.

وكثير من «المتخصصين» عندنا يعتقدون أن القصة والمسرحية والجريدة والمجلة وكتاب التاريخ، كلام فارغ. ولكنهم في واقع الأمر إنما يحرمون أنفسهم من معرفة الحياة في صورة عميقة، ذكية، مصفاة.

إن المتخصص في العلم أو الطب أو الاقتصاد أو الهندسة موضوع تخصصه هذا الجزء أو ذاك من جسد الانسان . . هذه الناحية أو تلك من حاجات الانسان. أما الأدب والفن والتاريخ والعلوم الاجتماعية فموضوعها الانسان ككل . . الانسان كوحدة واحدة . . الانسان كجسد وروح وقوة وضعف وخوف وأمل.

فالطباخ الذي غرق في المطبخ طوال النهار، وامتلأت خياشيمه برائحة الطعام، آخر من يتذوق الطعام تذوّقاً جديداً سليماً ويقول فيه رأياً صحيحاً!

أمـا الفيلسوف «جـوزي أورتيجا جـاسيه» فهـو يقـول: إن البحث في العصر الحـديث يتقدم على يد أفراد ذكاؤهم أقل من المتوسط، تخصصوا في فروع ضيقة جداً من البحث.

ثم يقول إن المتخصص في العصر الحديث ينحصر في نطاق ضيق لدرجـة أنه يصبـح، خارج نطاق تخصصه، عامياً لا يعرف شيئاً!

وهـذا صحيح. فـما أكثر مـا نعجب بطبيب عبقـري أو مهنـدس ممتـاز، فـإذا سمعنـاه يتحدث عن شيء آخر غير تخصصه، دهشنا من سذاجته وعدم درايته!

ومن الكلمات الجميلة التي قالها «جـوزي اورتيجا جـاسيه» في هـذا المجال نفسـه: «إن العلماء المتخصصين في العصر الحديث يزدادون كل يوم جهلاً بالقلب الانساني!».

إن المتخصص عنصر أساسي لا غنى عنه مطلقاً لإقامة أي مجتمع حديث.

إذا كنا نتصور الآن قيـام حضارة بـدون طاقـة كهربـائية ـ وفي الغـد طاقـة ذرية ـ فمن الممكن أن نتصور حضارة بدون التخصص في كل فرع صغير من فروع العلم سواء كان هذا العلم كيمياء أو طبيعة أو هندسة أو محاسبة أو قانوناً أو تسويقاً أو فلسفة. .

وكلما ازداد تقـدم العلم، كلما ظهرت الحـاجـة إلى تقسيم كـل فـرع صغـير إلى فـروع أصغر، يكون لكل فرع منها المتخصص فيه بشرط أن نعرف أين تقف مهمة المتخصص.

المتخصص عليه أن يتخذ القرار الفني، ولكنه لا يتخـذ القرار الانسـاني، أي لا يتخذ القـرار في الجانب الـذي يتصل بحيـاة المجتمع الانسـاني، والعلاقـات الانسانيـة، والأفكـار الانسانية.

ولكن لماذا لا نجعل المتخصص «حيواناً اجتماعياً»؟

لماذا لا تكون للمتخصص النظرة الواسعة التي تضم الحياة في لمحـة واحدة، لا النـظرة التي تقف عند حدود «قطاع» محدود؟

أمـا الساسـة الـظاهـرون عـلى المسرح فهم قـد «يتبنـون» هـذا الـرأي أو ذاك من آراء المتخصصين، ولكنهم ليسوا هم الذين يصنعون الرأي ويتخذون القرار!

ومن رأي هارولد لاسكي أن هـذا وضع خـطير وأن هؤلاء المتخصصين يجب ايقـافهم عند حدهم.

لماذا؟

إن لاسكي لديه أسباب كثيرة يسوقها في هذا المجال.

إن المتخصص «خـادم» لا غنى عنـه ولكنـه «سيـد» لا يمكن أن يـطاق! ذلـك لأن المتخصص يستطيع أن يعرف ما يمكن أن يحدث في نطاق تخصصه، كأن يعرف نتيجة تصرف اقتصادي مثلاً من ناحية الأثر الاقتصادي، ولكنه لا يعرف ما يمكن أن يتقبله الناس.

فهو يعرف الناحية الميكانيكية من المشاكل ولكنه لا يعرف الناحية البشرية!

والمتخصص، لطول تركيزه على نقطة تخصص صغيرة، يفقد مرونة عقله حتى يصل إلى حدود هذا التخصص.

والمتخصص لا يفهم الرجل البسيط، ولا يطيق فكرة وجود آخرين لا يفهمونه، ولا يعرف شيئاً عن تعقيدات الطبيعة الانسانية.

بل إن لاسكي يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول: إن المتخصص هو أكثر الناس مقاومة للجديد حتى في نطاق تخصصه.

فاختراع الدبابة مثلاً رحب به سياسيون ولكن عارضه العسكريون معارضة شديدة!

واختراع الغواصات عارضه القادة البحريون.

واختراع باستور لم يعارضه إلّا الأطباء.

ذلك أن المتخصص يعيش في نطاق ضيق من «اليقين» والثقة والاقتناع الذي يغذيه بتخصصه يوماً بعد يوم، فيكون بعد ذلك أقل الناس استعداداً لتقبل يقين جديد..

وأكثر الاكتشافات الكبرى اكتشفها أو أرشد إليها «هواة» غير غارقين في «التخصص»!

ولهذا يعتقد لاسكي أن القرارات الكبرى في حياة أي بلد يجب أن يتخذها الهواة! لا المتخصصون.. الهواة الذين يدركون تعقيدات الطبيعة الانسانية ولديهم حاسة شم اجتماعية قوية.

وقد قال أرسطو مرة: إن الضيف أصدق حكماً على الطعام من الطباخ.

وعندما كنت صبياً صغيراً، كنت أضحك حتى تنقلب معدتي وأنا أرى شارلي شابلن في فيلم «العصر الحديث» يمثّل دور العامل الصغير في عجلة المجتمع الصناعي الهائلة. عامل كل عمله فيما أذكر أن يمسك بـ «مفتاح انجليزي» يفك به الصواميل التي تمر أمامه على شريط متحرك، لا شيء إلا أن يفك الصواميل. وأصابه انهيار عصبي فأصبح إذا رأى «زراراً» على ثوب سيدة، أسرع إليه بالمفتاح الانجليزي يحاول أن يفكه.

كنت أضحك حتى تنقلب معدتي، ولم أكن أعرف أن شارلي شابلن يشير بهذا إلى مرض التخصص الذي أصبح بعض المفكرين يعتقدون أنه بات خطراً على الديمقراطية نفسها وعلى حرية الانسان العادي.

كيف؟

إن الناس ـ مثلاً ـ ينتخبون النواب، والنواب يحاسبون الوزراء. يحاسبونهم على ماذا؟

يحاسبونهم على الأشياء التافهة. أما الأشياء الخطيرة الدقيقة فلا الناخبون يبتون فيها.. ولا النواب.. ولا الوزراء!..

زمان.. كانت الميزانية مثلاً موضوعاً بسيطاً. الآن ميزانية أي دولة أصبحت شيئاً معقداً غامضاً يحفل بالاصطلاحات الاقتصادية والاحصائيات والاستنتاجات الرقمية التي لا يفهم ألغازها إلاّ الخبراء المتخصصون في علم الاحصاء وعلم الاقتصاد.

وقس على ذلك كل شيء: الصناعة، البحث العلمي، حركات السوق، الزراعة والمحاصيل، كل شيء يتعقد تدريجياً وتتحول سلطة الحسم فيه من أيدي الجمهور العادي الذي يضم الناخبين والنواب والوزراء إلى أيدي الخبراء المتخصصين الذين يدبجون تقارير غامضة!

يقول هارولد لاسكي: «بعض الناس يعتقدون أن عصر الرجل البسيط قد راح، فنحن الآن نواجه عالماً معقداً، إما أن نعرف طريقنا فيه أو نموت. إننا في شئون العلاج نذهب إلى الطبيب وحين نريد اقامة كوبري نذهب إلى المهندس. وكذلك ففي المسائل الاقتصادية والاجتماعية بدأنا نذهب إلى الخبير المتخصص. القرارات الحاسمة في كل شيء يتخذها الآن الخبراء، وبغير ذلك تنهار الدولة وينهار المجتمع!».

بناء مصنع ضخم مثلاً.

إن رجال السياسة قد يتناقشون حوله، والأحزاب قد تختلف عليه، والرأي العام يهتم به. ولكن من الذي يتخذ القرار الحقيقي في الموضوع؟ من الذي يقدر التكاليف ويختار الموقع ويقرر إقامته من عدم إقامته؟

إنهم المتخصصون.

٦ ـ زيارة لمكتبة توفيق الحكيم(*)

هذه المكتبة ليست مكتبة أديب باحث، إنها مكتبة فنان، مكتبة لا تدل على أن صاحبها يهمه الاحتفاظ بها لنفسه أو لغيره، فأكثر الكتب فيها غير مجلدة ولا مرتبة، والمنظر العام للمكتبة أشبه بالمائدة التي فرغ الشخص من التهام طعامها، وتركها دون أن يرفع الأطباق عنها.

وسألت توفيق الحكيم عن السبب في ذلك، فقال: أنا لا أحاول الاحتفاظ بمكتبة مستوفاة مرتبة لأن هذا لا تتطلبه طبيعة عملي. إنه يتنقل بين مختلف أنواع المعرفة ليحصل منها على خلاصتها ويكوّن بها تفكيره الخاص. ولكنه ـ ساعة الكتابة ـ لا يعود إلى المراجع ولا يعتمد على الكتب كمصادر لعمله الأدبي، فالكتب التي يقرؤها تمده بغذاء يتحوّل بعملية الهضم إلى عصير ثقافي خاص بصاحبه يساعده في عملية الخلق الفني الذي يظهر في صورة قصص أو مسرحيات. هذا هو دور الكتب في حياته، فهي غذاء يهضم وليست مراجع يعود إليها، ومن يطالبه بمكتبة منظمة واسعة، كمن يطالب النحلة بنماذج من الأزهار التي امتصت رحيقها!

وقلت له ـ تعليقاً أيضاً على المنظر العام للمكتبة ـ إنه فيما يبدو لا يكتب في مكان ثابت معين، وقال لي إن هذا صحيح، لقد تعوّد خصوصاً في صدر حياته الأدبية عدم الالتصاق بمكان معين للتأليف. لقد كتب «**أهل الكهف**» في مقهى «بيتي تريانو» المعروف الذي يقع في شارع سعد زغلول بالاسكندرية، كان في ذلك الوقت موظفاً في النيابة المختلطة في الاسكندرية، فكان يخرج من مكتبه إلى «البيتي تريانو» ولربما ظل جالساً يكتب هناك حتى يهبط الليل ويطفأ النور في المقهى فيتركه، ويمشي باحثاً عن أي قهوة يتوافر فيها قوة الضوء وقلة الرواد ليستأنف الكتابة فيها.

(*) الهلال (شباط/ فبراير ١٩٦٨).

ـ الآن!

ـ بعد أن أصبح شكلي معروفاً للناس، أصبحت الكتابة في المقهى متعذرة، وإلاّ تحوّلت إلى «فرجة» للناس!

ـ ولكن مهما كان شكل المكتبة الآن، فأنا لا أتصور فناناً عظيماً، لم يستوعب من الكتب ما يملأ مكتبة ضخمة.

ـ طبعاً، إن الفنان لا يخلق فنه من الهواء ولا يستطيع أن ينفصل عن منابع المعرفة. إن المؤلف الذي كتب عليه أن يظل صغيراً، هو الذي لا يقرأ إلاّ ما يتعلق بمهنته أو بمعرفته فقط.

أما الأدباء العظام فهم الذين يتكونون تكويناً عميقاً، ويقرؤون كل شيء، ويحيطون بكل معرفة من منابعها الأولى، ويتابعون آخر تطورات العلم والفن والأدب والسياسة. إن الأديب العظيم هو مرآة لعقلية عصره كله.. فإذا حصر نفسه في فرع واحد من فروع المعرفة فهو يصبح صاحب حرفة وليس أديباً عظيماً.

خذ فن القصة أو المسرحية مثلاً، هناك الكاتب المسرحي المحترف الذي يتقن صنعة المسرح ويعرف بالضبط متى يجعل الناس يصفقون، ومتى يهبط بالستار، لكنه لا يعدّ مع ذلك كاتباً عظيماً.

من هذا الطراز برنشتيد، وهنري بتاي وفكتوريان ساردو.. إنهم ناس يتقنون حرفة المسرح ولكنهم ليسوا أدباء عظاماً ممن يقدمون النماذج الخالدة أو يعكسون حقيقة عصرها.. فهم ليسوا شكسبير ولا أبسن. ونفس الشيء بالنسبة للقصة، ففي أوروبا وأمريكا يوجد مئات من كتاب القصص الصحفية والأقلام السينمائية، يعرفون جيداً كيف يصنعون الحبكة الممتازة واللحظة المثيرة والتشويق المستمر. ولكن..

وكان لهؤلاء الكتّاب حدود، فكان عملهم في نطاق ضيق جداً، هو اتقان الحرفة فحسب، دون أن يكونوا محيطين بخلاصة الثقافة والمعرفة والفكر في عصرهم.

إن اتقان «حرفة» الكتابة أمر هام، ولكنه ليس كافياً. إن الحرفة هي الجهاز الذي «ينفّذ» به الفنان الموضوع الذي يريده، ولكن هذا الجهاز لا يعمل وهو فارغ، ولكن لا بد أن يمتلىء بمادة عميقة وفيرة.

وسألت توفيق الحكيم عن نوع الكتب الذي يغلب على مكتبته، فقال: النماذج الفنية نفسها، القصص والمسرحيات والروايات التي كتبها المؤلفون العظام، أما كتب البحث الفني والنقد، والكتب الموضوعة عن حياة هؤلاء الفنانين فهي قليلة جداً، ذلك أنني أعتمد في دراستي على النماذج الجيدة نفسها، فالطباخ الماهر يتعلم من تذوق الطعام نفسه لا من قراءة كتب الطهو، فأنا أهتم بالعمل نفسه لا بالبحوث الموضوعة عن هذا العمل، والغلطة التي

يقع فيها الكثيرون أنهم يعرفون أسماء المؤلفين الكبار ويقرؤون عنهم ولكنهم لا يدرسون أعمالهم نفسهم.

في الموسيقى مثلاً، لقد كنت في أول الأمر أجد كتباً هامة عن بيتهوفن أو فاجنر فأقرأها باهتمام. ثم لم ألبث أن منعت نفسي من قراءتها قبل أن أتذوق الموسيقى نفسها. ونفس الشيء بالنسبة لفن التصوير فمعلوماتي مثلاً عن حياة رفايللو أو ليوناردو دافنشي أو بيكاسو أو ماتييس لا تذكر إلى جانب تأملي للوحاتهم وفحصي لميزاتها الفنية. واهتمامي بالعمل الفني نفسه، هو الذي يدفعني بعد ذلك إلى معرفة ما تنبغي معرفته عن صاحب العمل نفسه.

- ومتى بدأت هذه المكتبة تتكون لديك؟

وضحك توفيق الحكيم وقال:

حجر الأساس فيها «سحارة» ضخمة من الكتب عدت بها من باريس.. كنت هناك في مطلع فهمي للقراءة، وكانت الكتب رخيصة جداً، هذه مثلاً الأعمال الكاملة لفيلسوف مثل مونتاني، وتقع في ستة أجزاء وقد اشتريتها فيما أذكر بما يساوي خمسة عشر قرشاً.

وهذا الكتاب الضخم الذي يقع في جزأين «روح القوانين» لمونتسكيو، وقد كان يباع في باريس آنذاك بما يساوي خمسة قروش صاغ!

وتأوّهت لدى سماعي هذه الأسعار!

فكتاب مونتسكيو هذا اشتريته في القاهرة منذ سنوات ودفعت ثمنه بالجنيهات لا بالقروش، واستطرد توفيق الحكيم يقول:

- ولكنني بصراحة، لا أعتمد في القراءة على شراء الكتب، ولكنني أستعيرها من المكتبات العامة. أذكر أنني في باريس عثرت يوماً على مكتبة متخصصة في الروايات المسرحية اسمها «المكتبة المسرحية» وتقع في شارع الجراند بولفار، ففرحت بها فرحاً شديداً، وأصبحت أقيم فيها طول النهار، أشتري منها كتاباً واحداً و «على حس» هذا الكتاب أقرأ وأقلب طول اليوم في سائر الكتب المعروضة!

وفي مصر عندما أحتاج إلى كتاب بحث أدبي معين، كمقدمة كتاب «محمد» أو مقدمة «الملك أوديب»، فإنني ألجأ إلى دار الكتب وغيرها من المكتبات العامة لأستعير كل المراجع التي أحتاج إليها ثم أعيدها.

واستوقفني حديثه عن أيامه في باريس.

فسألته: أي عمل من أعماله الفنية، يحمل أثر احتكاكه الأول بأوروبا؟.. قال على الفور:

- شهرزاد.. في مسرحية شهرزاد صدى الأفكار الكثيرة التي دوّت في ذهني على أثر

اتصالي بالفلسفة الأوروبية. كانت الفلسفة الأوروبية في ذلك الوقت تقوم على أن الانسان هو رب هذا الكون، وأن «الله، قد مات» كما قال نيتشه، وأن المتحكم في مصائر البشرية هو الانسان وحده، بحريته المطلقة. ولذلك كانت موجة الإلحاد وإنكار الدين تغمر المحيط الثقافي الأوروبي عندما ذهبت إلى باريس في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وقد صدم هذا العقلية الشرقية المتدينة التي أحملها، فوجدت كل هذه الأفكار المتضادة متنفساً لها في كتابة مسرحية «شهرزاد»: شهريار فيها يمثّل النموذج الذي أرادته الفلسفة الأوروبية، نموذج شخص تحرر من كل نزعات الانسانية أو أراد أن يتحرر منها، فهو يبحث عن المعرفة من أي طريق وينكر العاطفة انكاراً تاماً، وهو يهرب من انسانيته بالرحيل والتجوال، وأحياناً بالذهاب إلى حانات الأفيون. كان يريد أن يترك الأرض بكل ضعفها البشري ويحلق في السماء، أي فيما هو أكثر من الانسان. فكانت النتيجة أن ترك الأرض ولم يبلغ السماء، وصار معلقاً ـ كما قالت له شهرزاد ـ بين الأرض والسماء ينخر فيه القلق.

إن مسرحية **شهرزاد** رد فعل لما كانت عليه أوروبا في ذلك الوقت من قلق نفسي بين إنكار للدين وإيمان بالعلم الذي لم يصل إلى الدرجة التي يحل فيها محل الدين، وذلك هو الصدى الذي دفعني إلى كتابة مسرحية **شهرزاد** دون أن يكون في البطلة أو البطل أي نوع من «التجسد المسرحي» المتعارف عليه في المسرح التمثيلي.

ـ وكانت هذه هي بداية «المسرح الذهني» عندك!

ـ نعم..

ـ أليست نقلة عنيفة تلك التي انتقلتها من كتابة الروايات التمثيلية لمسرح زكي عكاشة إلى كتابة **شهرزاد!**

ـ ربما.. ولكن الذي كان يشحذ الاحساس المسرحي في نفس أيام زكي عكاشة أنني كنت أكتب المسرحية وأنا أتمثلها وأتمثل مشاعرها وممثليها على المسرح، وأتمثل الجمهور الذي كنت أراه يتردد على المسرح، وكان لذلك كله أثره في كتابة الرواية المسرحية نفسها.

إن الكاتب عندما يفكر بـ«المسرح» يعرف بالضبط المواقف التي تحدث تأثيرها في جمهور هذا المسرح، ويدرك طريقة تكوين الشخصيات بالأسلوب الذي تبرز به أمام متفرجيه، بمعنى أنه يكتب كل كلمة وهو يتصورها مرئية لجسده، وهذا هو الذي كنت أحسه أيام مسرح عكاشة. ولذلك لم أفكر في طبع أي مسرحية من المسرحيات التي كتبتها لمسرح عكاشة لأن المسرحية التي تنجح في التمثيل قد لا تنجح في القراءة.. في حين أنني عندما كتبت مسرحياتي الأخرى لم أكن أفكر بالمسرح، ولا بأنها ستجسد على مسرح معين، كنت أعلم جيداً أن مصيرها إلى المطبعة، وأنني أخاطب بها «القارىء» لا «المتفرج».. فالمسرحيات الذهنية كتبتها بصورتها هذه عن عمد وعن ادراك لنوعها، لا عن إهمال لعنصر من عناصر الرواية المسرحية. وأغلب الكتاب المسرحيين الذين كتبوا للمسرح التمثيلي، كانوا يكتبون لمسرح

معين، يعرفـون نوع جمهـوره ويدرسـون ممثليه ويعـرفون امكـانياتـه ويعيشون في بيئتـه، فهم يكتبون وفي ذهنهم كل هذه العناصر.

هكذا كان شكسبير وابسن وموليير. . بل منهم من كان يملك المسرح الذي كـان يكتب له. ومن نفس النوع كان فكتوريان ساردو، وهنري بيرنشتين في فرنسا.

وشكسبير نفسه له روايات غير معروفة للقارىء لأنها لا تنجح كمادة مطبوعة، رغم أنها تنجح في التمثيل نجاحاً كبيراً كروايـة **«الليلة الثانيـة عشرة»** وغيرهـا، في حين أن روايـة مثل **«هاملت»** تنجح في القراءة أكثر مما تنجح في المسرح. .

٧ - استعمار التاريخ . .

والحوار بين الحضارات!

حديث عن الماضي، من أجل الحاضر والمستقبل(*)

«عندما هزم شارل مارتل الفرسان العرب في بواتييه سنة ٧٣٢، بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية الأوروبية».

أناتول فرانس
في كتاب الحياة بالزهور

يبدو أنه لا يوجد في عالم اليوم مفكر واحد راض، أو متفائل. ولا نتحدث طبعاً عن أولئك «الكتبة» ولا «الكتاب» الذين يملأون الصحائف كل يوم إما بتملق حكامهم أو بتملق قرائهم أو بتملق أنفسهم. هؤلاء الذين يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر، بالنقل لا بالعقل ربما كانوا أحد أوبئة الحضارة التي جعلت النشر سهلاً واسعاً ميسراً ولم يعد «باباً ضيقاً»، كما كان الأمر في الماضي عندما كان لا يظهر إلاّ الجديرون، الذين يشقون ويتعبون ويرهقون الناس معهم، عملاً بكلمة الانجيل «اجهدوا للدخول من الباب الضيق».

وليست هذه الظاهرة ولا هؤلاء «الكتبة» هم موضوع حديثنا هذا. ولكن العذر هو أن المرء يضطر أحياناً وهو يتحدث إلى أن «يهش الذباب»!. .

* * *

ومن هذه الأرواح القلقة، التي يفيدنا قلقها خصباً ومعرفة وتأملاً، مفكر فرنسي لأعماله صلة وثيقة بالعصر كله من جهة، وبعالمنا العربي بالذات من جهة أخرى، وهو روجيه جارودي.

(*) العربي، العدد ٢٤٣ (شباط/ فبراير ١٩٧٩).

كان روجيه جارودي معظم حياته عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي، حتى صار أهم مفكريه، وأشهر أعضاء قيادته المتمثلة في المكتب السياسي، ولكنه بدأ تحت وطأة صدمات العصر الحديث ومطارق العلم ودوار التغيير السريع.. بدأ يعيد النظر، ويقلب الفكر، ولم يكن هذا مما يتسق مع وضعه القيادي في حزب حديدي، ففصل من الحزب الشيوعي الفرنسي، بعد محاكمة «فكرية» شهيرة.

وقد أصدر بعدها كتاباً أحدث ضجة واسعة، إذ سجل نقطة خلافه الأساسية مع الفكر الماركسي التقليدي عنوانه البديل *L'Alternative*.

ولكن قضايا هذا الكتاب ليست موضوع هذا الحديث.

ولكن موضوعنا هو ثلاثة كتب أخرى له، متكاملة أو متداخلة:

أولها: **كلمات انسان** *Parole D'Homme*.

وثانيها: **من أجل حوار بين الحضارات** *Pour Un Dialogue Des Civilisations*.

وثالثها (وقد صدر أخيراً): **كيف يصبح الانسان انسانياً؟** *Comment L'Homme Devient Humain*.

والكتاب الثالث لم يصلنا بعد. ولكن بين أيدينا أجزاء كثيرة نشرت منه، ومناقشات دارت حوله إلى جانب الكتابين الأولين.

ببساطة شديدة يقول الكاتب المفكر الفرنسي لجمهوره الغربي: «إن كل مصائب الدنيا مصدرها أن العالم الغربي يظن أنه صاحب الحضارة العظمى ومصدر كل التقدم في هذه الدنيا لمجرد أنه ـ اليوم ـ هو الأقوى، وهو المصدر».

ويطلق جارودي صيحة أذهلت مواطنيه: إن الغرب مجرد صدفة! L'Occident Est Un Accident. فالغرب ليس تعريفاً جغرافياً، ولكنه تلك المجموعة من القيم والقوى والثقافات والماديات التي تميزه كحضارة متقدمة في عصرنا الراهن.

ولكن حضارة الغرب لم تولد من العدم، ولكنها كأي شيء له أصل وله جذور. ولو نظرنا نظرة صحيحة فاحصة إلى كل ما لدى الغرب اليوم، وما يشعه على العالم، من أفكار ومبادىء ونظم وفنون وماديات، فسنجد له جذوراً في حضارات أخرى.

ثم إن الغرب ـ كحضارة حديثة ـ عمره لا يزيد عن مائتي سنة! ومع ذلك فهو يبدو على وشك أن يجر العالم إلى الهلاك بمخترعاته الذرية واستخداماته للقوة الغاشمة.

فهو لم يثبت بعد قدرته حتى على البقاء زمناً طويلاً، لأن حضارة المصريين القدماء، عاشت زاهرة ثلاثة آلاف سنة، ولأن حضارة الصين عاشت ألفين ـ لا مائتين ـ من السنين!

وبالتالي فهو يرى أن الحضارة الغربية قد أثبتت أنها عاجزة عن قيادة العالم.

والحل هو «أولاً» أن تدرك هذه الحضارة الغربية حجمها الحقيقي بين حضارات العالم الأخرى، و«الثاني» أن يقوم حوار بين الحضارات، تتبادل فيه مفاهيمها ومثلها وقيمها وتجاربها، وعلى قدم المساواة، حتى يصبح ممكناً أن يعيش العالم في سلام.

ولكن، متى بدأ روجيه جارودي الفرنسي، الماركسي، هذا الانعطاف الهام؟

يقول رداً على ذلك: إنه تدرج في نفسه طويلاً وببطء، ويبدأ بلقائه الأول بالحضارة العربية الاسلامية.. «بدأ اهتمامي الأول بهذا الموضوع سنة ١٩٤٧ حين أصدرت كتاباً صغيراً بعنوان «محاولة تاريخية لفهم الحضارة العربية».. وقد أسعدني أن أعرف أن بعض الشباب الوطني في مصر ترجمه وقدمه لجمال عبد الناصر. ولكن، سبق لي قبل ذلك حادث لا أنساه أبداً: في سبتمبر ١٩٤٠، خلال الاحتلال الالماني لفرنسا، كنت شيوعياً أعمل في المقاومة ضد حكومة فيشي، فألقي القبض علي وأرسلوني إلى معسكر اعتقال عند واحة «غرداية» في قلب صحراء الجزائر الكبرى. وبعد وقت قصير، قمنا بحركة تمرد في المعتقل، وأمر الضباط جنودهم الجزائريين بإطلاق النار علينا وقتلنا. كان عمري سبعاً وعشرين سنة، ولكن الجنود الجزائريين العرب رفضوا اطلاق النار، فأنا عشت بعد ذلك بفضلهم».

ويقول جارودي: إنه ليس أول من قال بهذا الرأي، وإن كان هو قد عكف على شرحه وقرر جعله موضوع ما تبقى من حياته.

ثم يذكرنا بكلمة قالها الكاتب الفرنسي الشهير «أناتول فرانس»: «إن أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتييه سنة ٧٣٢ ميلادية، حين هزم شارل مارتل جيوش الوالي عبد الرحمن، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام البربرية الأوروبية!».

ويروي جارودي أنه استشهد بهذه الجملة في محاضرة له في تونس سنة ١٩٥٥، وكانت تونس ما تزال تحت الاحتلال الفرنسي. وفي اليوم التالي طردته السلطات الفرنسية من تونس بتهمة قيامه بدعايات مضادة لفرنسا!

* * *

ويشرح روجيه جارودي في إسهاب لماذا يعتبر «الغرب.. صدفة» في كتابه «حوار بين الحضارات».

وإذا رجعنا إلى قول «بول فاليري» إن الغرب قد صنعته ثلاثة عناصر:

أخلاقياً: المسيحية، والكاثوليكية بالذات.
سياسياً وقانونياً: روما وقوانينها.
فكرياً وفنياً: الاغريق.

فإنه يمكن القول إن المسيحية ولدت في آسيا، وان حضارة الاغريق والرومان ولدت في حجر البحر الأبيض، وبتأثير شديد جداً من شواطىء افريقيا وآسيا. فكلها عناصر «شرقية»، خارج «الغرب» بمعناه المعاصر.

ويقول جارودي إن حضارة أوروبا نبتت جذورها كلها لأول مرة في افريقيا وآسيا: وبالتحديد في مصر، وبلاد ما بين النهرين (العراق).

فروح حضارة الغرب ومنطلقها هو التوجه نحو سيطرة الانسان على عوامل الطبيعة، وعلى ذاته واعلائها.

ولكن في بلاد ما بين النهرين، ومنذ خمسة آلاف سنة قبل «الياذة هوميروس»، يرفع الستار عن أسطورة «جلجامش»، التي تتحدث عن مارد ثلثه انسان وثلثاه إله، ظهر في مدينة «أور» بعد الطوفان، ورحل إلى أرض الأنهار الخمسة، حيث تجري الأسطورة متحدثة عن كل أشواق الانسان إلى تحدي الطبيعة والسيطرة عليها، وتجاوز امكانياته كبشر. فمنذ أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح، كان «فاوست» الذي ألفه «جوته» واتخذ رمزاً لروح الغرب، قد ظهر في أسطورة «جلجامش».

وحين سئل جلجامش في الأسطورة العراقية القديمة «ولماذا تحاول المستحيل؟»، رد قائلاً: «إذا كان هذا الأمر لا تجوز محاولته، فلماذا اتقدت في نفسي نار القلق والرغبة فيه؟».

ذلك هو أساس كل حضارة الغرب، التي تناقلها بعد ذلك فلاسفة الاغريق حتى أوصلوها إلى أوروبا.

أما «الجرثومة» الأخرى للفلسفة الاغريقية التي ولدت في فينيقيا وكريت وخصوصاً عن طريق أفلاطون فنجدها في مصر.

فالفلاسفة والمؤرخون الاغريق تأثروا تأثراً كبيراً وأعجبوا اعجاباً عميقاً بمصر القديمة. وفكرة أفلاطون التي ألهمت أوروبا عن الدولة الفاضلة التي تجمع بين الاستقرار السياسي والديمقراطية الحية، كان وحيه فيها من مصر، ألهمت مصر كل تجارب الاغريق.

فلو فحصنا ما أنجزه الاغريق.. بدءاً من فن النحت إلى الفلسفة إلى السياسة نجد تأثرهم العميق بمصر وتمثلهم الدائم بها.

ويضرب جارودي المثل بثلاث «مساهمات» مصرية قديمة أساسية في تراث الانسانية كلها:

الأولى: أسطورة أوزوريس الذي يقاوم الطبيعة فيمزقه أعداؤه إلى قطع ينثرونها في الوادي كله، ثم تجمعه من جديد، موجهة بفكرة البعث، أخته ايزيس بحبها ودموعها عبر سنوات المعاناة الطويلة، فهي أول حديث عن رموز العلاقة اللانهائية بين الانسان، والطبيعة والآلهة.

والثانية: «كتاب الموتى»، ثم صراع الفراعنة التاريخي ضد الموت بفكرة اقامة مبان تدوم إذا فني الانسان، وتسجل طابعه وعمله دهوراً بعده، كالأهرامات وقبور وادي الملوك، وهي فكرة جوهرية في حضارة الغرب.

والثالثة: اخناتون الفرعون الذي مات في الثلاثين من عمره بعد أن اكتشف أول فكرة انقلابية في التاريخ وهي عقيدة التوحيد، بعد تعدد الألهة التي نجدها بعد ذلك في فلسفة الاغريق وفي التوراة.

ويضيف جارودي فضلاً ثالثاً إلى اخناتون، فيقول إنه أول من رفع المرأة، فبدت في تماثيله جالسة على حجره، وقد نقش على الجرانيت أول قصائد حب.

«هكذا نجد جذور الغرب وقد تشكلت في مصر وبلاد ما بين النهرين: صراع الانسان ضد الطبيعة للسيطرة عليها، ونضاله لكي ينفرد من بين كل المخلوقات بصفاته، وبقدرته على التفكير المجرد. . وكل محاولة لقطع جذور الغرب عن جذوره الشرقية لا تؤدي إلى افقار الانسان».

أما ما تسميه كل المراجع «عصر النهضة» في أوروبا فهو عصر نمو الرأسمالية وبدء الاستعمار. هو بداية صعود الغرب ولكنه كان بداية تدمير هذا الغرب نفسه لحضارات أخرى أرقى من حضارة الغرب سواء في علاقة الانسان بالله، أو علاقة الانسان بالطبيعة أو في علاقة الانسان بالمجتمع، وهي العناصر التي تحدد رقي أي حضارة.

وقد فعل الغرب ذلك عن طريق شيء أساسي وهو: تفوقه في استخدام القوة العسكرية دون أي نوع آخر من القوى ذات العلاقة بالتقدم والرقي.

ويحلل جارودي حضارة الغرب الراهنة ـ السائدة ـ تحليلاً فلسفياً طويلاً، نحاول تبسيطه في قوله أولاً: إن تاريخ الانسان يتلخص في ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة سيطرة الطبيعة على الانسان، أي حين كان الانسان يصارع عن مركز ضعفه ضد قوى الطبيعة الأقوى منه.

الثانية: مرحلة سيطرة الانسان على الطبيعة، وهي حين نجح الانسان في التقدم بدرجة سمحت له باستئناس الطبيعة إلى حد كبير بما أوتي من عقل وعلم وحضارة.

والثالثة: وهي التي نعيشها حالياً ويسميها «مرحلة محاولة سيطرة الانسان على نفسه» ذلك أن الانسان بما وصل إليه من تقدم وعلم وصناعة أطلق قوى تدميرية هائلة من عقالها باتت تشوه حياته وتدمر بيئته ومقوماته وتهدد وجوده ذاته. والنتيجة في هذا الصراع الأخير مشكوك فيها!

والمرحلة الثالثة، مسئولة عنها حضارة الغرب، بتخليها عن القيم المشتركة مع الحضارات الأخرى والمستلهمة منها.

وبأسلوب آخر، إن حضارة الغرب قامت من ثلاثة منطلقات.

أولوية العمل كقيمة أساسية («والعمل» كما يقول تقليد بورجوازي وقيمة اشتراكية).

وأولوية العقل بوصفه أداة حل كل المشاكل والرد على كل الأسئلة.

وأولوية أسماها بـ «اللامتناهي».

ولكن هذه القيم تحوّلت وشوّهت بحيث ركّزت كلها على الذكاء ولم تترك مجالاً للحب، والشعور، والضمير.

والأولويات الثلاث صارت أثقالاً، لا حوافز.
قيمة العمل تحوّلت إلى خضوع الانسان للاستهلاك.
قيمة العقل تحوّلت إلى خضوع الروح للذكاء.
وقيمة اللامتناهي تحوّلت من الكيف إلى الكم.

والسؤال الوحيد الذي يطرحه الآن الانسان على نفسه كل ساعة ازاء أي مشكلة أو موقف هو: «كيف»؟

ولم يعد أحد يسأل أبداً السؤال الأكثر أساسية وانسانية وهو: «لماذا؟».

وفي فصل هام عن «الفرص الضائعة» يتحدث جارودي في اسهاب عن ضياع فرص تأثر الغرب باطراد وتواصل الحضارات الأخرى. وقد يكفي هنا أن نضرب مثلاً بحديثه عن حضارتنا العربية، وعن تزوير الاستعمار الغربي للتاريخ بتصويره التوسع العربي، منذ القرن الثامن الميلادي، على أنه موجة من موجات «البربرية الآسيوية» التي هددت الغرب!

هذا في حين أن الغزاة الانجليز والفرنسيين والاسبان هم الذين دخلوا أرض الاسلام مدمرين للحضارة العربية في كل أشكالها.

«.. إن ما يسميه الغرب «بغزو اسبانيا» لم يكن غزواً عسكرياً فقط كغزوات الأوروبيين، فاسبانيا كان فيها من السكان عشرة ملايين ولم يدخلها من الفرسان العرب أكثر من خمسين ألف فارس. ولو كان الأمر حرباً فقط لما نجحوا، ولكن تفوق حضارة على أخرى كان هو عنصر النجاح الساحق».

«وما فعله العرب في اسبانيا يجعلنا نفهم ما فعله ماوتسي تونج في الصين!! أتى بنظام اجتماعي أرقى. حرر العبيد وأنهى الرق وسوّى الحقوق ودعم النظام. وعلى أنقاض الفوضى الاقطاعية أقام العرب أعظم مساقط المياه في ذلك العصر وأغنى البساتين القائمة إلى الآن.

«وما رأيته في تونس من آثار عربية قديمة تدل على سابق الازدهار، ومن واقع ـ خلال الاحتلال الفرنسي ـ ينمّ عن الافقار والدمار، يعطينا صورة ساطعة عن الفرق بين حكم الأغالبة في شمال افريقيا، وحكم الفرنسيين.

«الحضارة التي زرعها العرب عندنا في أوروبا وبالقرب منا في افريقيا تمتد جذورها إلى الشرق في آسيا. وحين سافر الفرنسي «جيربر» إلى معاهد الشرق وعاد حاملاً علومه، قال الناس في أوروبا إنه قد اتصل بالجن لكثرة معارفه! وبعد قليل جعلوه بابا على روما باسم البابا سيلفيستر الثاني.

«ونحن مدينون للعرب بأول كليات الطب. وأولها كلية الطب في مونبلييه الفرنسية. وحتى القرن التاسع عشر كانوا يدرسون في جامعات فرنسا وانجلترا بإسهاب علوم الطب العربية، ومؤلفات الرازي.

«ولكن منذ انتصار شارل مارتل على العرب في بواتييه تكوّنت لدى أوروبا عقدة اسمها «حماية الحضارة الغربية من البرابرة!»».

إن كتب التعليم تلقن الأوروبيين منذ طفولتهم أن بواتييه كانت نقطة تحول إذ طردت الهمج عن أوروبا المتحضرة. وهذا هو استعمار التاريخ بعينه. فالواقع هو العكس. فهزيمة

العرب ضيّعت على فرنسا وأوروبا فرصة الالتقاط المبكر لحضارة العرب، وأخرت أوروبا عشرة قرون على الأقل حتى بدأت أوروبا ترى النور بعد القرون الوسطى!

* * *

ولست هنا في مجال الاستشهاد بأقوال جارودي عن مآثر العرب، وقلب أوروبا لحقائق التاريخ، أو استعمار التاريخ كما قال بحق، فالأمثلة كثيرة.

ولكن المهم أنه يستشهد بنفس الأسلوب بحضارات أخرى غير الاسلام، أهمها الصين، وعدم الاستفادة منها، إنها فكرة عداء الحضارات لا تكاملها.

المهم هو المشروع الذي نذر جارودي ما استقبل من حياته له وهو:
نزع استعمار التاريخ، وتصحيحه.
وإقامة حوار بين الحضارات كلها.
وبكلماته «كيف يمكن بناء تاريخ لا تحتكره حضارة واحدة؟».

إنه يرى في هذا المشروع الخلاص الوحيد للبشرية من خطر الفناء، فهل نشاركه هذا المشروع؟

٨ ـ كلمات فُقدت سمعتها في حياة لغتنا الجميلة!(*)

اللغة لم تكن أبداً «محايدة». والكلمة الواحدة قد تستخدم في مجال يحمل كل معاني الجدية. وأحياناً تصبح من كثرة استخدامها في غير موضعها تحمل لدى الناس كل معاني السخرية، والكلمة في مجال قد يكون لها وزن الذهب، وقد يكون لها وزن الريشة.

ولعل سخاء اللغة العربية الشديد، هو الذي دفعنا نحن العرب إلى الانفاق من هذه اللغة بإسراف شديد، فالكلمة الواحدة لها عشرات المترادفات، وإذا ألقينا كلمة في أتون الأحداث، واحترقت من فرط تكرارها دون معنى مقصود، فاللغة تسعفنا بعشرات المترادفات، فنحن لا نخشى عجزاً ما في هذا النوع من «العملة».

وإذا كانت الكلمات من «القاموس السياسي» للغة، فهي أكثر عرضة للتلف، ذلك أنها كثيراً ما تكون عرضة للاستخدام الخاطىء المتعمد من رجال السياسة أو الكتابة، أو للاستخدام في مجرد تخدير الرأي العام، فتفقد أعز الكلمات معناها، أو بمعنى أصح تفقد «وقعها» على النفس، وهي القيمة الأساسية للكلمة.

ونأخذ على ذلك أمثلة من كلمات كبيرة مثل «الوحدة» أو «الثورة» أو «الديمقراطية».

كلمات كبيرة جداً، لكن بعضها لحقه «الاجهاد» من كثرة الاستعمال اللغوي، وانعدام الاستعمال الفعلي!

كلمة الوحدة في ثلاجة عميقة

قبل عشرين سنة مثلاً كانت كلمة «الوحدة» تحرك أعمق المشاعر لدى الجماهير. ولكن الآن وقد فشلت أكثر من وحدة، وصار كل تقارب يسمى وحدة، وليس على مستوى الأقطار

(*) العربي، العدد ٢٥٣ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩).

فقط، ففي داخل القطر الواحد صار حتى تحقيق الوحدة الداخلية أمراً مطلوباً وعزيزاً أو صارت الوحدة الوطنية ـ لا القومية ـ بعيدة المنال كما في لبنان وغيرها.

وإذا تركنا الوحدة بمعناها السياسي الدولي، نجد أنه يكاد لا يوجد مشروع اقتصادي واحد، له طابع التكامل الوحدوي، رأى النور حتى الآن، رغم توقيعات الدول العربية المختلفة عليه.

وفي الخليج مثلاً نسمع دائماً عن وحدة العملة الخليجية مثلاً، وهو أمر يكاد يكون بديهياً، خصوصاً من الناحية الاقتصادية المصلحية وليست السياسية. فدول الخليج روابطها وثيقة جداً، وأهلها أبناء عمومة بكل المعاني النفسية والتاريخية، واقتصادها كلها يقوم على سلعة أساسية واحدة هي البترول. فهذا نوع من الوحدة يتم بقرار لا غير.

لم تعد لكلمة «الوحدة» إذن سخونتها القديمة. صارت لا تحرك شعرة في رأس مواطن عربي. الكل يتحدث عن الوحدة فلا يوجد في الظاهر من هو معها ومن هو ضدها. لم تعد تثير نقاشاً ولا بحثاً ولا عراكاً. وضعت في الثلاجة العميقة، وهذا أحسن الممكن على أي حال، حتى تبقى صالحة للاستعمال ربما بعد وقت طويل، بدلاً من أن تفسد نهائياً.

ونفس الشيء لحق كلمة «الثورة». صارت في لغتنا وصفاً يطلق على أول دبابة تصل محطة الإذاعة وتعلن البيان رقم واحد! وصارت في أفئدة الناس العاديين مرادفة لأي حكم عسكري!

وأيضاً كلمة ديمقراطية، ألا يوجد لها عشرون تطبيقاً على الأقل؟ هل يسمي أي نظام نفسه بغير هذا الوصف؟ وأنواع الديمقراطية لا بد لها أن تتمدد، فلن يصلح للعالم كله ديمقراطية واحدة. ولكن ألا تحتاج كل «ديمقراطية» احتراماً للكلمة إلى تعريف وثيق لها في كل مكان، يمكن حساب أهلها عليه؟

من ثمار الإرهاب الفكري

على أني أريد أن أقف أساساً في هذا الحديث، عند نوع آخر من الكلمات التي «فقدت سمعتها» بطريقة أخرى، بالطعن فيها والسخرية منها وتشويهها. هذه كلمات فقدت سمعتها بنوع من الارهاب الفكري، حتى صارت خافضة جناحها من الذل أمام صيحات كصيحات الهنود الحمر، الذين إذا لاحت لهم، رشقوها بكل ما لديهم من سهام.

كلمات مثل: «الموضوعية» و«الواقعية» و«العقلانية». هذه الكلمات مع الأسف فقدت سمعتها تحت وطأة الارهاب الفكري الهائل.

إرهاب فكري ساد فترة من الزمن خلاصته: أن من لا يتبع الرأي «السائد» إعلامياً فهو متخاذل! وأن المطلوب من الكتاب هو ترديد الشعارات دون محاولة الذهاب إلى أبعد من ذلك خشية «بلبلة الجماهير». كأن الجماهير في مرحلة طفولة، ولا بد من شغلها عما حولها بالزعيق والصراخ، فهي لا تفرح أو لا تصلح إلاّ لهذه الألعاب النارية الملونة! وبالطبع: من

يزيد في الضجة المتزايدة ومن يطلق فرقعات مدوّية ملونة أكثر، هو الذي يفوز بأكبر عدد من المتجمعين في «مدينة الملاهي» الصاخبة!

في هذا الجو، كان لا بد أن تداس بالأقدام كلمات مثل «الموضوعية» و «الواقعية» و «العقلانية».

وفي نفس الوقت لا بد أن نسجل أن هذه الكلمات «فقدت سمعتها» بسبب نوع آخر مقابل من الممارسة الرديئة فعلاً.

فقد عرف التاريخ العربي الحديث طوال الخمسين عاماً الماضية - من قاموا فعلاً بأدوار الهزيمة والاستسلام والتقاعس، وأطلقوا على أفعالهم تلك كلمات «الواقعية» و «الموضوعية» و «العقلانية»؛ الأمر الذي هو كفيل - وحده - بأن يكفر الرأي العام بهذه الكلمات، أو يضعها في غير موضعها الصحيح من القاموس، ومعه الحق.

ولكن، هل معنى ذلك أن نسقط هذه الكلمات من قاموسنا، وننزع الصفحات التي تتكلم عنها من كتبنا، ونمحوها محواً من العقل العربي.

مستحيل. . .

وهذه معركة يجب أن يخوضها كل ذي مسئولية وكل ذي فكر حتى لو تعرّض لاطلاق النار من الجانبين في وقت واحد: من جانب الغوغائية والديماجوجية النشيطة، ومن جانب الانهزامية الحقيقية المتخاذلة. وأنا أقصد الغوغائية والانهزامية ليس في مجالاتها السياسية فقط كما يتبادر إلى الذهن، ولكن على كافة مستويات الحياة العربية، من تقاليد وعادات وثقافة وتحوّل اجتماعي وتطور انمائي.

هذا العقل المظلوم

إن الشعب العربي هو الذي نزل القرآن بلغته، والقرآن أكثر كتاب مقدس، وغير مقدس، تحدث عن العقل والعلم والتفكير والتذكير. فمن المستحيل أن تكون هذه اللغة بالذات هي اللغة التي تفقد فيها هذه الكلمات سمعتها.

الغرب يتباهى علينا ويعلمنا أنه أقام نهضته على أساس «سيادة العقل»، ويذكر لنا ديكارت وقبل ديكارت.

وكتابنا السابق على هذا كله بقرون، هو أول من أقام للعقل سلطاناً عظيماً.

وهو أول دين تجيء معجزته في شيء واحد فقط هي: كتاب!

وأول كلمة في وحيه كانت: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم﴾[1].

---

(١) القرآن الكريم، «سورة العلق،» الآيات ١ - ٥.

وأكثر ما يخاطب في سطوره وآياته، يخاطب العقل.. ويفرق بين ذوي العقول وسواهم: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلّا العالمون﴾[٢].

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾[٣].

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾[٤].

﴿تحسبهم جميعاً، وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[٥].

﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[٦].

﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[٧].

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[٨].

وما معنى العقلانية والموضوعية والواقعية وغيرها من المصطلحات الحديثة، إلا استخدام العقل!

ليسوا ظاهرة صوتية

إذا نزعنا عن هذه الكلمات أرديتها السيئة التي أساءت إلى سمعتها، وبحثنا في معانيها التي صكت من أجلها، فماذا نجد؟

أليست «الموضوعية» مثلاً، هي البدء في كل أمر بدراسة «الموضوع»؟ والموضوع بالنسبة للعالم حقيقة طبيعية مثلاً، وبالنسبة للقائد العسكري الخريطة الدقيقة لساحة المعركة بهضابها ووهادها، وتقدير قوته، وقوة العدو قبل الصدام؟ وبالنسبة للسياسي دراسة علاقات القوى السياسية في موقف ما، وحشد الطاقات المتوفرة لمواجهة هذا الموقف، ورسم خطة للتحرك.. إلى آخره.

وما معنى الواقعية إلّا أنه يجب أن تكون دراستنا «للموضوع» دراسة واقعية، مستندة إلى الواقع لا إلى التمني، لأننا ـ ككل الناس ـ مرغمون على التعامل مع واقعهم وليس مع تمنياتهم.

والرضوخ للواقع أمر، وتغييره أمر آخر، وفي هذا يختلف فكر الناس، ومدى همتهم، وجدوى حساباتهم.

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٣.
(٣) المصدر نفسه، «سورة الملك،» الآية ١٠.
(٤) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٤٢.
(٥) المصدر نفسه، «سورة الحشر،» الآية ١٤.
(٦) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٦٩.
(٧) المصدر نفسه، «سورة الأنبياء،» الآية ٧.
(٨) المصدر نفسه، «سورة الزمر،» الآية ٩.

وأعظم الذين غيّروا وجه التاريخ، كانوا أعظم الواقعيين، لأن اختراق طرق التغيير يقتضي معرفة الطريق الممهد، من الطريق الوعر، ومن الطريق المسدود تماماً؟

وقد يبدو تصدي هؤلاء لمهمة التغيير في البدء مستحيلة، ولكن المستحيل وقع، ذلك أنه لم يكن مستحيلاً، إنما العظماء الذين يغيّرون الواقع يرون من خبايا هذا الواقع، وفي ثناياه ما لا نراه، وبالتالي فهو ممكن. وعلى هذا الأساس ينهضون للعمل، ويقع المستحيل، الذي لم يكن مستحيلاً، لأن المستحيل حقاً لا يقع.

إن اللغة تترك أثرها في ضمائر الناس، وتشكل أحياناً طريقة تفكيرهم.

وقد ذهب كاتب عربي كبير - عبد الله القصيمي - إلى حد إصدار كتاب عنوانه «العرب ظاهرة صوتية!»، لا أوافقه عليه. ولكن الصحيح فيه ربما قول بعض المستشرقين إن العربي إذا «قال» شيئاً، تتحقق له راحة مَنْ «فَعَلَ» الشيء. وذلك موضوع لصيق بحديثنا، لكنه يحتاج تأملاً آخر.

إنما القضية المطلوبة هنا فقط أن نعيد للعقل مكانته في حياتنا العربية، ولا يمكن أن نعيد للعقل مكانته في نفوسنا، إذا بقينا نسخر من الكلمات الداعية إلى استعمال هذا العقل.

٩ ـ حول إعادة كتابة التاريخ

متى؟ . . ومن؟ . . ولماذا؟(*)

هل يجب علينا أن نعيد كتابة تاريخنا؟

لم أكن أتصور في الحقيقة أن هذا سؤال يمكن أن يطرح، دعك من أن أحاول جعله موضوعاً للكتابة، وشغل القارىء به.

الغريب أن أكثر من جريدة أو مجلة، في أكثر من بلد عربي، طرحت هذا السؤال، وأن الكثيرين من الكتاب والمفكرين في بلادنا استجابوا للدعوة وخاضوا في ردود مختلفة عليه.

وكنت من بين الذين وجهت إليهم السؤال أكثر من جريدة ومجلة، وأكثر من برنامج اذاعي، واعتذرت لها كلها عن الرد، على أساس أن هذا موضوع لا يحتاج إلى مناقشة، وأن فيه من تضييع لوقت القارىء، أكثر مما فيه من جوانب حقيقية تحتاج للمناقشة.

وكان في ذهني أمران بديهيان:

الأمر البديهي الأول هو أن التاريخ ليس شيئاً يكتب مرة واحدة، ولكنه مادة تكتب مئات المرات، وتعاد كتابتها باستمرار سواء بسبب ظهور معلومات مستجدة عن أي صفحة من صفحات التاريخ، أو بسبب تطور في مذاهب التاريخ وفلسفاته، وظهور أدوات فكرية جديدة تستخدم في فهم التاريخ، أو بسبب أبسط وهو ظهور أي كاتب أو مؤرخ يجد في نفسه القدرة والرغبة على أن يدلي بدلوه في التعرض لموضوع ما من موضوعات التاريخ.

أليس من المألوف أننا إذا أردنا الرجوع إلى موضوع من موضوعات التاريخ أن نعود إلى الفهارس فنجد عشرات الكتب أو مئاتها، حسب أهمية الموضوع، المكتوبة عنه؟

كتابة التاريخ إذن، تاريخ فرد أو أمة أو عالم، عملية بطبيعتها متجددة، لا يصدر قرار

(*) العربي، العدد ٢٥٦ (آذار/ مارس ١٩٨٠).

ببدئها ولا يصدر قرار بإيقافها. وليس في هذا جديد، كل ما في الأمر أن الشعوب في مراحل يقظتها الفكرية تزداد اهتماماً بتاريخها، تماماً كما تزداد اهتماماً بحاضرها ومستقبلها. فاليقظة لا تكون إلاّ شاملة، وبالتالي تشتد حركة التأليف عن التاريخ، ويزداد الناس اقبالاً على قراءته. وفي حالات الخمول تنام الأمم على ماضيها ومستقبلها معاً. تستسلم لما وجدته مكتوباً عنها من قبل، ولما ترى أنه «مكتوب لها» في المستقبل.

الأمر البديهي الثاني، هو أنه كما أن التاريخ ليس شيئاً يكتب مرة واحدة، كذلك فإنه ليس شيئاً تكتبه جهة واحدة.

ولعل هذا الأمر الثاني أكثر بديهية من الأمر الأول. فليس هناك فرد ولا جهة ولا دولة ولا مجموعة دول تحتكر كتابة التاريخ وحتى لو كان تاريخها، فلو أراد أحد أن يكتب عن تاريخ العرب أو الصين أو بلاد واق الواق، فلا يوجد أحد يملك منعه من ذلك، ولا يملك فرد ولا مجتمع أن يمنع الغير من الكتابة عنه، وكلما كانت الحضارة غنية تعددت جنسيات الذين يكتبون عنها، بل إن جامعة أمريكية مثلاً قد تنفق الملايين لترسل علماءها إلى أبعد بلاد الدنيا لعمل حفريات ودراسات تاريخية عن موضوع لا صلة لها به. ذلك أن التاريخ والحضارات ملك مشترك للمعرفة الانسانية كلها. ومرة أخرى، نجد أن الشعوب كلما زادت تقدماً، صاحب ذلك اهتمامها بحضارات العالم كلها.

في مصر، نجد أن الذين اكتشفوا حجر رشيد وفكوا أسرار اللغة الهيروغليفية، فرنسيون، والذين كشفوا آثار وكنوز توت عنخ آمون انجليز، والذين ينقبون عن آثار مدينة الفسطاط القديمة من جامعات أمريكية، وحضارة العرب أشبعها «المستشرقون» كتابة وتحليلاً، ونحن ترجمنا عنهم واستفدنا بهم، وهم روس والمان وانجليز وفرنسيون وهولنديون.. إلى آخره.

وأصحاب أي تاريخ يفرحون باهتمام الآخرين بهم. فما كان كل هؤلاء المستشرقين مثلاً ليهتموا بالحضارة العربية، ويقيموا لها مراكز الأبحاث في جامعاتهم وأقساماً خاصة في متاحفهم لولا أنها حضارة غنية وتاريخها مهم وأنها حلقة جوهرية في التاريخ الانساني كله.

هاتان البديهيتان، الواضحتان للعيان لا تحتملان أي مناقشة أو جدل أو خلاف. كانتا السبب في «رد فعلي» هذا ازاء الموضوع كله واعتذاري عن مجرد مناقشته.

على أنني بعد أن استنفدت المناقشات نفسها وطويت صفحاتها، وجدت نفسي أتأمل الموضوع من زوايا أخرى طرأت على البال. بعضها ظاهر للعيان ولكنه قد يحتاج إلى تفسير، وبعضها أثارته التأملات في خاطري، مما وجدت أنه قد لا يكون من ضياع الوقت أن أشغل القارىء بها، ووجدتها تفرض نفسها علي فرضاً ساعة جلست إلى الورق أكتب هذا الحديث.

عدم ثقة الناس في الحكومات

ينسب المؤرخون إلى بعض فراعنة مصر القدامى، قبل آلاف السنين، وحين كان

التاريخ يسجل عن طريق حفر نقوشه حفراً على الحجر الصلد، أنهم كانوا يمحون ما سبق أن حفره أسلافهم، ويعيدون كتابة بعض الأحداث ناسبين إلى أنفسهم معارك لم يخوضوها، وانتصارات لم يحرزوها، وأعمالاً لم يقوموا بها سواء كان طمساً لحكام سابقين عليهم، أو انتحالاً لفضل لا حق لهم فيه.

وفي الثلث الأول من القرن العشرين، وبعد أن مات لينين قائد الثورة الروسية، ودار صراع عنيف على السلطة من بعده بين أبرز رفيقين له وهما ستالين وتروتسكي، انتهى بانتصار ستالين وبطرد تروتسكي من البلاد، عرفنا أن ستالين عاد إلى وثائق الثورة، بسلطة الدولة يمحو منها كل عمل هام قام به تروتسكي للثورة.. وظهرت من الكتب ودوائر المعارف طبعات جديدة تعيد شرح أحداث الثورة بطريقة أخرى تمحو أثر تروتسكي أو تشوه دوره، حتى اللوحات الزيتية التي رسمها الرسامون لأحداث الثورة ومواقفها الحاسمة وعلقت في المتاحف العامة، أعيدت الريشة إليها لتمحو وجه تروتسكي حيثما ظهر في أي موقف منها، بل إن عدداً من الصور الفوتوغرافية الهامة في الأرشيف أجريت عليها تعديلات في الاتجاه ذاته.

إذن فمن بعض فراعنة الأسرة الأولى قبل أربعة آلاف سنة، إلى قيادة أوروبية حديثة قبل أربعين سنة، وقع نفس الشيء، وتحت محاولة «اعادة كتابة التاريخ» بصورة واحدة!

ولا شك أن العادة لم تنقطع تماماً بين هذين النموذجين اللذين تفصل بينهما أربعة آلاف سنة، بصورة أو بأخرى.

وبالتالي فإن النفس الانسانية، أو نفسية «السلطة» والشعور بسطوتها حين تمتلك البشر، فيها ملامح متشابهة، مستمرة، عرضة للتكرار.

ولذلك، فمن الطبيعي أن يشك الناس في كل ما هو «تاريخ رسمي»، وبالتالي، فحين يذكر موضوع اعادة كتابة التاريخ، وتشتم منه رائحة أن الدعوة موجهة إلى «الدولة» لتعيد هي كتابة التاريخ، فالمناقشة تصبح واردة. ومن السهل أن نلمح في المناقشات تياراً يحرّض الدولة على أن تقوم بذلك، وتياراً آخر يعارض هذه الدعوة، لاشتباهه في انطوائها على هذا التحريض للدولة، خاصة وقد انتشرت بالفعل «موضة» تكوين اللجان الرسمية المكلفة بإعادة التاريخ في أكثر من بلد عربي.

ونحن نعرف في قاموسنا الحديث عبارات «الرقابة على الصحف والكتب» و «الحظر على الأنباء» و «مصادرة المطبوعات»، وأحياناً حتى التشويش على موجات الاذاعة، ولكن هذه وسائل حديثة، ظهرت لمواجهة وسائل حديثة لنشر المعلومات، ولكن قبل ظهور الطباعة والصحافة والاذاعة، ربما لم تكن تلك الوسائل المضادة غير موجودة لعدم وجود مبرر لها، ولكن مبدأ اخفاء المعلومات بوجه أو بآخر، لا شك أنه كان موجوداً في نظم المجتمعات الانسانية عبر التاريخ كله.

بل إن الكتمان في الأزمنة الماضية كان أسهل. فالتاريخ كان يدور في قليل من الدور

والقصور، والأحداث كانت تتم داخل جدران قلاع بعيدة وأماكن محرمة إلّا على القلة الموثوقة، وكانت معرفة الأخبار لا تتم إلّا بالنقل الشفوي وتواتر الروايات من شخص لآخر، مع كل ما تمر به خلال ذلك من تحريف مقصود أو غير مقصود. لذلك كانت معرفة الناس بسيطة، دعك عن المؤرخين الذين يأتون بعد ذلك بمئات السنين، يحاولون تجميع ملامح الحدث أو العصر بصعوبة بالغة، ومن شواهد نادرة. وحتى الآن يعثر الناس على وثيقة أو على مخطوط أو على قطعة حجر، فتقلب تاريخ عصر كما نعرفه رأساً على عقب. وتلعب المصادفات في ذلك دوراً كبيراً.

فهي علاقة بين السلطة حين تكتب وبين الناس حين تتلقى، قديمة. والشكوك في شأنها منذ أقدم صفحات التاريخ.

وحتى حين جاء العصر الحديث، غيّر الكثير جداً، ولكنه لم يقضِ على الظاهرة أو لم يقتل بذرة الشك الموجودة دائماً لدى الناس.

لقد صارت الصحف والإذاعة تعلن الأنباء يوماً بيوم، والكاميرا أو التليفزيون ينقلها حية إلى عيون المشاهدين، وبعض الدول صارت ترفع السرية عن أوراقها الرسمية بعد خمسين أو ثلاثين سنة، لمن شاء أن يقرأ ويدرس وينشر. وانتشرت ظاهرة نشر المذكرات. فكل من عاش قصة هامة سرعان ما ينشر مذكراته عنها بمجرد تركه لوظيفته، بل صار مسئول ـ مثلاً ـ في أخطر موضع مثل كيسنجر، يتعاقد على نشر مذكراته حتى قبل أن يترك وظيفته، وذلك تحت اغراء المبالغ الكبيرة التي صارت تدفعها دور النشر وتصل إلى ملايين الدولارات، وهو أمر لا نعرف هل هو مفيد أو ضار. فكل رسمي، في أدق مباحثات مثلاً، صار يعرف أن حديثه السري سينشر بعد سنوات، وهو ما زال على قيد الحياة.

وإذا كانت «الندرة» هي مشكلة العصر القديم، فالكثرة هي مشكلة عصرنا الراهن. ومرة أخرى صار كل رسمي يجب أن يشرح رأيه ويرسم صورته للتاريخ قبل أن يرسمها غيره. وبالتالي فهو يلون ما يكتبه بالألوان التي تناسبه. وإن لم يكذب صراحة، فهو على الأقل يحذف ما لا يريد له أن يذيع.

وخلال كتابتي هذا الحديث على سبيل المثال، كنت أقرأ ـ كعادتي ـ عدة كتب في وقت واحد: مذكرات هنري كيسنجر ـ مذكرات أبا ايبان وزير خارجية اسرائيل الأسبق ـ مذكرات موشي ديان وزير خارجية اسرائيل السابق ـ مذكرات اسحق رابين رئيس وزراء اسرائيل السابق.

وكنت أقرأ عن مواقف شهدها الأربعة، وكانت بين الروايات الأربع خلافات أحياناً، وتناقضات تامة أحياناً أخرى. والأربعة احياء، وما يروونه لم يمر عليه سوى سبع سنوات.

فهل يا ترى مهمة المؤرخ، أمام الندرة القديمة كانت أصعب، أم أنها أمام هذه الكثرة الحديثة هي الأصعب؟!

وأيهما أكثر بعداً عن الحقيقة، الرواية أو المشاهدة، أم «الطرف» وصاحب الدور في الحدث، الذي يهمه أكثر تلوين صورته باللون الذي يريد.

التاريخ لا يكتب بقرار

وسواء في المجتمعات التي يشتهر عنها الوضوح الشديد، أو الغموض الشديد، فما زال ممكناً أن تبقى الحقيقة مستترة ولو فترة من الزمن، بفعل السلطة الرسمية أو بفعل جهات ذات قوة ونفوذ في مجتمع ما.

كنت في أمريكا مرة، وكعادتي في زيارة لبعض الجامعات، حضرت محاضرة في جامعة «كارنيجي ـ ميلون» في بتسبرج، وكانت المحاضرة عن المسرح!

وكان الأستاذ يقول: إن من أسباب أزمة المسرح في العالم أن الدراما التي يراها الناس حية على شاشة التليفزيون تلغي أي دراما أخرى. في المسرح يدخل الرسول ويروي ما حدث للملك بلاد كذا مثلاً. ولكن الآن ـ يقول الأستاذ ـ رأى الناس على شاشة التليفزيون، على الهواء، حادث اغتيال الرئيس جون كينيدي كاملاً، وزادوا بعد ذلك حادث اغتيال القاتل «لي هارفي ازوالد» على الشاشة ساعة وقوعه.

ودون استطراد حول هذه القضية الفنية، نعود إلى سياق حديثنا عن التاريخ ونسأل: ان الناس رأوا الاغتيال يتم على شاشة التليفزيون وهم في منازلهم، ورأوا القاتل وهو يغتال بدوره؛ ولكن، وبعد مضي ثمانية عشر عاماً على مقتل جون كينيدي ما زال المواطن الأمريكي يسأل: من الذي قتل جون كنيدي؟

وكلما مر الزمن زادت الشكوك، وكل سنة تتكون لجنة جديدة لأنها عثرت على دليل جديد. والانقسام مستمر حتى بين الخبراء حول ما إذا كانت رصاصة ازوالد هي التي قتلته، وما إذا كانت هناك رصاصة ثانية من جهة ثانية هي التي قتلته!

رغم أن القضية بحثها أكبر القضاة في أمريكا، ولكن المواطن ظل يعتقد أن «السلطة» تخفي عنه شيئاً! وأن جهات ما لا مصلحة لها في القطع بالحقيقة!

وسيضاف هذا إلى سؤال مشابه، معلق منذ حوالى مائة سنة، هو: من الذي قتل ابراهام لنكولن عشية انتصاره في حرب تحرير العبيد في أمريكا!

وفي نظام آخر وحدث آخر يسأل العالم: من الذي قتل محمد تراقي الذي قاد الانقلاب الماركسي الأول في افغانستان قبل أقل من سنتين؟

لقد قالت السلطة في عهد خلفه إنه مات بمرض مفاجىء، فلما وقع انقلاب آخر على خلفه ـ حفيظ الله أمين ـ وجاء برباك كارمل، قالت السلطة: إن حفيظ الله أمين أمر بقتله، وانه مات قتلاً، وليس مرضاً.

ما هي الحقيقة؟

الشك لدى الناس فيما يصدر عن السلطة إذن قديم، وهو مستمر.

وبالتالي كان لا بد أن يمتد الشك إلى كل مشروع تتولى فيه السلطة كتابة التاريخ، أو اعادة كتابة التاريخ، أو «اعادة اعادة» كتابة التاريخ.

ولذلك فإنه من الحق أن يعجب المرء من كتّاب ومؤلفين يطالبون الدولة بكتابة التاريخ!

لماذا لا يكتبون هم ما يرون وما يريدون من تاريخ، ويلقون بما يكتبون في خضم سائر الكتابات التاريخية؟

ولا اعتراض طبعاً على أن تقوم الدولة بكتابة ما تشاء من تاريخ، ولكن لا لكي يكون ـ كما يريد البعض ـ القول الفصل والحكم القاطع، ولكن لكي يكون مرجعاً من المراجع لا أكثر ولا أقل.

إن الدولة ـ أي دولة ـ تساهم في كتابة التاريخ بقسط وفير.

فالدولة هي التي تكتب التاريخ الذي يدرس في المدارس، أي تكتب المقرر الذي يقرؤه ويدرسه كل طفل منذ سن الطفولة حتى الشهادة الثانوية، وعلى الأغلب الجامعية.

والدولة هي التي ترعى المشروعات الكبرى كالموسوعات ودوائر المعارف وطبع كتب التراث وهو نوع من كتابة التاريخ بحكم الانتقاء، وبحكم النشر.

وهذا يكفي . . .

وما يمكن أن يطلب من الدول هو أن «تسهل» كتابة التاريخ، ان تمكن المؤرخ من ممارسة عمله، أن تمول الحفريات والتنقيب والبحث، أن تنظم الوثائق الممكن نشرها وتضعها حيث الاطلاع عليها والاستعانة بها.

وفي أمريكا صار تقليداً أن كل رئيس دولة، بمجرد تركه الحكم، يضع كل أوراق عهده في مكتبة مستقلة، وقد يسمح للباحثين بالاطلاع فوراً على جزء منها، ويوصي صاحب الأوراق بإبقاء بعضها سراً عشر سنوات أو عشرين سنة، ولكنها تصير إلى ملكية الأمة على أي حال.

ولكن كتابة التاريخ بعد ذلك قضية شخصية . . .

فحتى إذا كانت «الوقائع» ثابتة ومتفقاً عليها، فإن التاريخ ليس سرد وقائع. ولكن هو وضع الوقائع في إطار معين، وتحليلها في ضوء منطق معين. فالتاريخ في أرقى صوره وجهة نظر، الحقيقة فيه ملك القارىء، ووجهة النظر ملك الكاتب المؤرخ. وهناك وقائع تاريخية كبرى ثابتة، يتخاصم المؤرخون على تحليلها طيلة ألف سنة! . . .

السينما لم تعد كتابة التاريخ!

ومن الخواطر المتصلة بهذا الموضوع، أننا لو دققنا النظر فيما حولنا، وفي خضم الأدوات التكنولوجية المتاحة في العصر الحديث، وفي عصر ديمقراطية المعرفة بمعنى وصولها إلى الجميع حتى الأميين، إن لم يكن بالقراءة فبالسماع أو بالمشاهدة، نجد أن أمامنا مشكلة أخرى تحتاج إلى تدبر، وهي ما يجري كل يوم من اعادة لكتابة التاريخ!

نترك الآن جانباً الكتب والمؤلفات العلمية والوثائق والمذكرات، وكل ما يخطر على البال حين نتحدث عن كتابة التاريخ، أو لكي نستعمل عبارة أوسع «اعادة صياغة التاريخ».

ما القول في أفلام السينما التاريخية، بألوانها، والشاشة «السينما سكوب»، وجاذبيتها الهائلة على مئات ملايين المشاهدين في العالم من كل المستويات في الأعمار والمدارك والثقافة؟

ما القول في الحلقات التليفزيونية المسلسلة التي تتحدث عن التاريخ وتدخل كل بيت؟

ما القول في المسلسلات الإذاعية التاريخية؟

ما القول في الروايات المكتوبة؟

ما القول في مجلات الأطفال وكتب الأطفال ورواج ذي الطابع التاريخي منها؟

القليل من هذا الفيض الهائل، هو الذي تتوفر له الدقة التاريخية، وعدم التضحية بالنزاهة في سبيل التشويق، أو الربح، أو الدعاية لوجهة نظر معينة.

والكثير غير ذلك...

كل الأفلام التي تنتجها السينما اليهودية عن قصص الانجيل...

كل المخرجين الذين يغريهم الربح بأفلام عن كليوباترا أو سبارتاكوس أو غيرهما...

إلى آخره... إلى آخره...

إن فيلماً واحداً، بنجومه وأسراره وألوانه وموسيقاه، عن حقبة تاريخية، هو الذي يلصق بالذهن، ويمحو من الذاكرة أثر مائة كتاب. فما بالنا وهو يتجه لملايين لا تقرأ الكتب، وليس لديها مناعة المعلومات السابقة، أو قدرة ادراك الخطأ أو التحريف؟

وجه الممثل الذي يقوم بالدور يصبح في الذهن العام وجه البطل. كيرك دوجلاس هو سبارتاكوس، واليزابيث تايلور هي كليوباترا، وأحمد مظهر هو صلاح الدين الأيوبي! الثياب، والقصور، والجدران، وصور المعارك، أو الحفلات... كلها تلصق صورة في ذهن الجمهور. ما هي دقتها يا ترى؟ هل كانت حقاً ثياب العصر، وألوانه، وحركات الناس وسكناتهم، كما نراها على الشاشة؟

إنها نظرة المخرج، وتصوراته، والله أعلم بمدى قربها أو بعدها عن الحقيقة. ولكن هذا هو ما يستقر في الذهن ويمحو سواه.

وأعظم كتاب تاريخ يقرؤه آلاف، في حين أن أي فيلم يراه ملايين، وأي مسلسل تليفزيوني يراه مئات الملايين، وأي كتاب أطفال يقرؤه عشرات الملايين، وأي كتاب تاريخ مدرسي، وضعته الدولة يقرؤه شعب بأكمله، سنة وراء سنة وراء سنة!

إن ديمقراطية المعرفة، وان التكنولوجيا الحديثة، كلاهما تحول عظيم في حياة العالم، وقد رحبت بهما الانسانية مفتوحة الذراعين. ولكن الانسانية لم تجد بعد ما تعالج به مخاطرهما ومحاذيرهما. لم تكتشف بعد «المضادات الحيوية» لما يحمله الجديد من جراثيم!

إعادة كتابة التاريخ الاسلامي

ولقد تذكرت، وأنا أدير هذا الحديث في نفسي، أنني دعوت، وعلى نفس هذه الصفحات إلى اعادة كتابة التاريخ الاسلامي!

وما زال هذا المنبر الذي أخاطب القارىء منه، مؤمناً بهذه الدعوة، وملتزماً بها. وما زلنا نحاول ممارسة ذلك في حدود الطاقة.

فهل هناك تناقض، بين أول الحديث وآخره. . .؟

كلا. فالدعوة كما قصدتها، دعوة إلى الانفتاح على الحقيقة، وليست دعوة إلى الانغلاق دونها، كما توحي كتابات بعض المطالبين باعادة كتابة التاريخ.

فالتاريخ الاسلامي، قد كتب جانب كبير منه في ظل ظروف من تحكم السلطة، وفي عصور مظلمة فكرياً وثقافياً، واجتماعياً، وبالتالي فلا بد من اعادة النظر في كل هذا.

والبعض ينظر إلى التاريخ الاسلامي نظرة يخلط فيها بين التاريخ الذي صنعه البشر، وبين الاسلام ذاته، فأسبغوا على البشر عصمة الدين، وبالتالي جعلوا التاريخ وكأنه كتلة مقدسة تتساوى في قيمتها، وكأن الخليفة عمر في مكة في مقام الخليفة العثماني في اسطنبول!

ثم إن أمهات الكتب التاريخية الاسلامية ذات القيمة، صارت بعيدة عن متناول القارىء، وصعبة على فهم حتى المتعلم، الأمر الذي يبرز الحاجة إلى طرحها على الناس بإعادة نشرها، مع حسن الانتقاء، وتبسيط بعضها، لتصل لجمهور أكبر.

ثم إن هذه الدعوة تنطلق مما نراه عن ادخال أشياء على حياة المسلمين ليست من الاسلام. وأخطرها المذاهب المتعددة التي تنتمي إلى أحداث خاضها البشر، وصنعها البشر، ومزقت المسلمين تمزيقاً، وأخذها الناس عبر آلاف السنين على أنها الدين وهي اجتهادات على أحسن الأحوال. فالنبي الكريم ترك اسلاماً واحداً ومذهباً واحداً، ولم يترك عشرين مذهباً تفرق المسلمين حتى اليوم.

ولكن لن يكون هذا إلا بإعادة طرح التاريخ، وإعادة تحليل أحداثه، وفرز الغث من السمين فيه، فتبقى للقداسة حرمتها، ويبقى ما هو من صنع البشر للبشر.

فهي في الواقع دعوة عكسية، وإن اشتركت في اللفظ فحسب.

هنا.. نريد أن نتخطى كتابات السلطة عبر القرون لا أن نستدعيها.

نريد النزاهة لا التعصب. نريد النور لا الظلام..

١٠ ـ . . ولكن الأرض تدور!

إعادة محاكمة جاليليو بعد ٣٥٠ سنة(*)

كان هذا الخبر أحد أهم وأطرف أخبار الشهر الذي مضى.

فقد قرر «الفاتيكان» ـ القيادة الروحية للعالم الكاثوليكي المسيحي ـ أن يعيد محاكمة الرجل الذي قال إن الأرض تدور حول الشمس، وذلك تمهيداً لرد اعتباره إليه! وذلك عن طريق إصدار حكم جديد، يلغي الحكم السابق الذي صدر بإدانته وتجريمه منذ ثلاثمائة وخمسين من السنين!

والقصة القديمة معروفة، وهي إحدى أشهر صفحات الصراع الطويل بين «العقل الانساني» وبين قوى القهر والغرائز والتسلط.

ففي القرن السادس عشر، وأوروبا تتهيأ للخروج من ظلام العصور الوسطى إلى أنوار عصر النهضة، ظهر عالمان هما أكبر وأهم علماء الفلك والعلوم الرياضية: كوبرنيك في بولندا، وجاليليو في ايطاليا.

وكان كوبرنيك هو الأسبق زمناً بوقت قصير (ولد سنة ١٤٧٣ ومات سنة ١٥٤٣). وكان قد درس اللاهوت والرياضيات.

ويقول المؤرخون إن هناك من الفلاسفة من قالوا ـ منذ القرن الثالث الميلادي ـ إن الشمس ـ وليس الأرض ـ هي مركز الكون. ولكن هذه الآراء تمّ كبحها تحت سطوة السنوات الأولى لسلطة الكنيسة الرسمية.

وبعد دراسة وسفر ودرس، توصل كوبرنيك إلى أن الأرض ليست ثابتة ولكنها تدور حول الشمس. وكتب بحثاً هاماً عن ذلك كان الأول من نوعه. ولكنه عندما أراد نشر هذا

(*) العربي، العدد ٢٦٥ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٠).

البحث لم يجد مطبعة تطبعه له، فذهب بمخطوطه إلى نورنبرج (المانيا)، ثم إلى ليبزج. ولكنه فشل أيضاً في محاولاته. كانت الكنيسة البروتستانتية ترفض نشر مثل هذا الكلام الذي لم يرد أي نص يؤيده في الأناجيل كلها. على أنه تمكن من نشر بحثه أخيراً سنة ١٥٤٣، قبل وفاته بشهور.

وفي عصرنا هذا يؤرخ المؤرخون لتاريخ الحضارات لهذا البحث باسم «الثورة الكوبرنيكية» لأنه قلب تصور الانسان للكون المحيط به رأساً على عقب، وإن كان وقتها قد ظل وجهة نظر ينقصها الدليل، والانتشار.

أول معارك عصر العقل

وفي وقت لاحق له بفترة زمنية قصيرة، ظهر عالم آخر في ايطاليا كتب له أن يكون أهم شأناً، هو جاليليو جاليلي الذي ولد سنة ١٥٦٤ في مدينة بيزا المشهورة ببرجها المائل، وعاش حتى قارب الثمانين.

كانت صناعة «التلسكوب» قد بدأت تظهر بطريقة بدائية. ولكن جاليليو، ابن الموسيقار، كان موهبة فكرية وعلمية هائلة، فاستطاع أن يصنع أول تلسكوب انطوى على قفزة علمية هائلة، واشتهر به وقتها في أنحاء أوروبا جميعاً، واعتبر من ذلك الوقت وحتى الآن أبو الميكانيكا الحديثة والعلوم التجريبية في اكتشاف قوانين الحركة والجاذبية... إلى آخره.

وكان كذلك أول من استخدم المنطق الرياضي في تحليل الأشياء بدلاً من المنطق الأرسطوطالي.

وقد نشر جاليليو بحوثاً متعددة في ميادين شتى وأحرز شهادة عظيمة في عصره، كما أنه اكتشف عدداً من الأجرام السماوية التي كانت مجهولة كالزهرة والمشتري. واكتشف أن وجه القمر مجعد وليس ناعماً أملس كما يبدو للعين المجردة. ولكنه في سنة ١٦١٠ أصدر أهم أبحاثه، التي برهن فيها بشكل حاسم ونهائي على أن الأرض تدور حول الشمس وليست ثابتة في مكانها.

وقد أحدث هذا الكشف ضجة هائلة. وكان جاليليو، على عكس كوبرنيك، يمتلك أسلوباً أدبياً جدلياً وقدرة على تبسيط أعقد الأمور العلمية. وبالتالي لم يقتصر بحثه على أهل الفلك وحدهم، ولكنه وصل إلى الناس كافة، الذين أقبلوا عليه باهتمام كبير.

ومرة أخرى، اصطدم جاليليو مثل زميله كوبرنيك، بالقيود التي وضعها رجال الدين على الفكر في القرون الوسطى، وعدم اعترافهم بالعلوم، بل ورفضهم أساساً لعلوم الرياضيات بالذات، وأخذهم بمبدأ أن ما لم يأت به نص في الانجيل فهو كاذب، وغير قابل للبحث فيه.

كان «عصر العقل» يخوض أول معاركه الكبرى مع عصر الجمود وضيق الأفق، ورغبة

رجال الكنيسة في استمرار احتكارهم للمعرفة وبالتالي رفضهم تقبل أي معارف جديدة مهما قامت عليها من براهين.

وكالعادة، كان هناك رجال الكنيسة المستنيرون الذين حاولوا مساعدته. ولكن كان هناك رجال الكنيسة الجامدون، الذين لجأوا - كما يحدث كثيراً - إلى استغلال صراع الكاثوليكية مع البروتستانتية في ذلك الوقت لقهر كل فكر علمي جديد، على أساس أنه يضعف موقفهم ازاء الخصوم. وكانت لهؤلاء الغلبة، فأقفلوا الباب بضرورة محاكمة جاليليو إذا صمّم على آرائه.

ثماني سنوات في الظلام

وبالفعل، اقتيد جاليليو وهو في شيخوخته إلى محكمة التفتيش. وهناك كان عليه إما أن يعلن أنه مخطىء ويتوب عن آرائه وإما أن يواجه أبشع أنواع التعذيب.

وأعلن جاليليو في المحكمة أنه مذنب، وأنه مخطىء، وأن اكتشافاته غير صحيحة، وأنها منافية للإيمان... إلى آخر القائمة المعروفة...

وبالتأكيد كانت المحكمة تعرف في ضميرها أنه إنما يسايرهم، ولذلك لم يحكموا ببراءته، ولكنهم حكموا بإدانته، ولكنهم اكتفوا بتوبة «بسيطة»، هي تحديد اقامته في منزل في قرية قرب فلورنسا - بعيداً عن روما - مدى الحياة.

وتقول بعض الروايات، إنه خرج من قاعة المحكمة وهو يتمتم للجندي القابض عليه قائلاً: .. ومع ذلك، فإن الأرض تدور!

وعاش جاليليو في الاقامة الجبرية ثماني سنوات، فقد خلالها بصره ثم مات، دون أن يرى نور الحرية مرة أخرى!

مات جاليليو، واستمرت سلطة الكنيسة على حرية العقل والعلم زمناً قبل أن تزول. ولكن الأرض - كما قال جاليليو للسجان بحق - ظلت تدور.

لم يوقفها الحكم عن الدوران!

ومع الزمن صارت نظرية جاليليو هي الحقيقة المسلم بها...

وكان في الفاتيكان منذ قرون وظيفة ما زالت باقية، وظيفة على شاغلها أن يطارد الهرطقة والهراطقة حيثما يكونوا.

ومنذ عهد نابليون - حوالى ١٨٠٠ - بدأت حملة تبناها عدد من رجال الكنيسة، للمطالبة بإعادة النظر في الحكم الصادر على جاليليو سنة ١٦٣٣، ولكن البابوات والكرادلة الكبار كانوا غير متحمسين لفكرة اعتراف الكنيسة بخطأ ارتكبته، ويكفي أن الحكم الخاطىء قد طواه النسيان وصار جاليليو يدرس في مدارس العالم كلها.

عندما يوضع الدين في مواجهة العلم؟

ولكن بعض الـرهبان ظلوا يتنـاقلون حملة اعادة اعتبـار جاليليـو جيلاً بعـد جيل، حتى وصلت الحملة إلى يد راهب معاصر اسمه «الأب دوبارل»، وفي وجود بابا بولندي ـ من وطن كوبرنيك ـ أكبر اسم في حياة بولندا.

وأعلن البابا الحالي، منذ أسابيع قليلة، قراره بإعادة فتح ملف جاليليو والنظر في قضيته من جديد، بعد ثلاثة قرون ونصف قرن!

وقال المقربون من البابا الحالي إنه أراد أن يزيل من تاريـخ الكنيسة قصـة من القصص التي جعلت الكنيسة رمزاً لمقاومة الحرية العقلية والفكرية!

إن القصة كلها، من الناحية العلميـة، لم تعد لهـا أهمية، لأن حكم محكمـة التفتيش لم يمنع الأرض من الدوران!

ولكن «الرمز» الـذي تنطوي عليـه هذه القصـة هام. فـالرمـوز هامة في الحياة العـامة للشعوب.

فالذين يضعون الدين في مواجهة حرية العقل وفي مواجهـة العلم، إنما يـرتكبون غلطة في حق الدين وفي حق الانسان في نفس الوقت.

الدين نزل على الناس ليعلمهم القيم العليا التي لا تستقيم بدونها حيـاة كريمـة، ولكن الدين لم يطلب من الانسان أن يضرب في الأرض مغمض العينين، مغلق العقـل. إنما نجـد القرآن الكريم بـالذات يحض عـلى القراءة، والعلم، والفكـر، والتأمـل والعمل في الأرض. وقد قال بشكل بسيط وقاطع إنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

وكـل دعوة إلى تقليـل حريـة الانسان في العلم، إلى حقـه في أن يعلم، وأن يستخـدم عقله، هي دعــوة ضـد روح الــدين، وهي دعـوة إلى الاستبــداد وإلى تحصـين الاستبــداد بالغموض والجهل والتخلف، وهي دعوة ضد منطق الحياة كلها.

ذلك أن الأرض، كما قال جاليليو، سوف تظل تدور.

١١ - في الانحطاط الثقافي.. داؤه ودواؤه!(*)

إذا كان هذا العنوان يصدم القارىء، أو يوحي إليه بتشاؤم ليس مستعداً لاستقباله، فإنني أعتذر أولاً، وأقول له ثانياً إن الحديث ليس فيه تلك الدرجة من التشاؤم التي يوحي بها العنوان. غاية الأمر أنني وضعت عنوان الموضوع بشكل مباشر، دون أن أحاول كما يجب البحث عن عنوان جذاب.

وقد يزول التشاؤم من ذهن القارىء إلى حد كبير، إذا قلت له مقدماً إن ظاهرة الانحطاط الثقافي التي أراها، ظاهرة عالمية، ولها أسبابها العالمية، وإذا كان لا بد أن أركّز أغلب الحديث على الجانب العربي، فهذا أمر طبيعي لأن ما يجب أن نعرفه ونحاول معالجته، هو المرض الذي في جسمنا قبل المرض الذي في جسم الآخرين.

والناس جميعاً إذا جلسوا بعضهم إلى بعض أبدوا جميعاً دون استثناء سخطهم أو مللهم من كل ما يعرض عليهم، في الصحافة، في السينما، في الاذاعة والتلفزيون، أو في الكتب، وهم يتساءلون: أين الكتاب؟ أين الشعراء؟.. ماذا يقول فلان وماذا يكتب علان؟ وأين نجوم السينما والمسرح الكبار؟.

ولعل جزءاً من أسباب انتشار «الفيديو» هو أنه مكتبة من نوع جديد يمكن الناس من اقتناء أشياء قديمة لم تعد تعرض بعد. فيجدون في العودة إلى ما سبق لهم أن شاهدوه متعة أكبر وغذاء أشهى، تماماً كما إذا اشتاق قارىء إلى شعر جيد، بحث عن ديوان المتنبي أو عن «الشوقيات».

هل هذا صحيح؟ أم أنه من طبيعة الانسان، في كل زمان ومكان، أن يقلل من قيمة الجديد والمعاصر والمتاح له بسهولة، بينما تزداد في نظره قيمة القديم المعتق، لأنه صار نادراً. ولكن ماذا ينتج منه مرة أخرى؟

(*) العربي، العدد ٢٧٤ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨١).

على أي حال، فالمؤكد أن «الشعور بالانحطاط العام» في هذه المجالات، وان هذا الشعور إذا كان خطأ أو صواباً فهو شعور موجود. وهذا في حد ذاته حقيقة كافية لأن نقف عندها ونتأملها.

* * *

وهذه الظاهرة، إذا نظرنا إليها من الزاوية الضيقة، قد نجد بعض الصواب في ما يقول به كثيرون، من مؤرخي الفكر والفنون والثقافة العامة، وهو أن أجيال المبدعين في هذه المجالات لا تتوالى وراء بعضها البعض في تسلسل متواصل، ولكنها أشبه بحركة الموج في البحر، تجد بين كل قمتين من الموج العالي، نقطة منخفضة. كذلك أجيال المبدعين الكبار، بعد كل موجة عالية، هناك موجة منخفضة قبل أن تأتي موجة أخرى عالية.

فإذا كنت في عصر ما ـ على سبيل المثال ـ تجد كاتباً أو فناناً مثل العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم، ومحمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، فلا بد أن يتلو هذه الموجة العالية، انكسار في الموج، قبل أن يتلو الهبوط صعود موجة عالية جديدة.

وهناك من يضيف إلى ذلك أن جيلاً من القمم، من طبيعته أن يلقي ظله على الجيل التالي مباشرة فلا تتوفر له الفرصة الكاملة للنمو، تماماً كالشجر الضخم الذي لا تنضج نباتات أخرى في ظله، إذ إنها تحجب عنها الشمس، وتمتص منها الماء، فلا تنمو حولها إلا الحشائش. فلا بد أن يبعد جيل القمم بعداً زمنياً معقولاً ينحسر فيه أثره، بحيث تتاح فرصة كاملة لنبت جديد.

وقد يكون هذا التصور صحيحاً، ولكنه لا يكون صحياً في تقديري إلا إذا كانت كل الظروف الأخرى ثابتة غير متغيرة. أما إذا تأملنا ما هو أوسع من ذلك من ظروف واعتبارات، والعالم السريع المتغير الذي نعيش فيه، فإننا سوف نشرف هنا على مساحة شاسعة من الأسباب والمبررات المؤدية إلى الانحطاط العام الذي نتحدث عنه.

وبعض هذه الأسباب مرضي: بمعنى المرض الذي يحتاج إلى علاج حقيقي...

وبعض هذه الأسباب صحي، أو بتعبير أدق، ان أمراضه من أمراض النمو كالأمراض التي لا بد أن يمر بها المخلوق البشري في مراحل الطفولة والصبا والمراهقة قبل أن يصل إلى شباب جديد معافى، ونضج متقدم عما كان موجوداً من قبل.

ولنبدأ بتأمل نموذج من «أمراض النمو» أو أهم نموذج في الواقع في مجال ما يمكن أن يسمى «أمراض النمو».

لا شك أننا جميعاً قد نادينا، ودعونا، وعملنا، من أجل هدف نبيل من أهداف العصر، وهو «ديمقراطية الثقافة».

وليس فينا إلاّ من عاصر، أو سمع، أو قرأ، عن صيحة طه حسين المدوية في مصر، وانتشر صداها في كل العالم العربي حين قال: إن التعليم يجب أن يكون كالماء والهواء!

ومعنى ذلك أنه حق طبيعي لكل انسان مهما كان وبصرف النظر عن كل اعتبار وأن كل دولة ملتزمة بالتالي أن توفره ولو بالمجان، لكل انسان.

وأذكر وقتها ـ وكنت طالباً ـ أن هذه الصيحة أثارت حماسة الجميع، وصارت بالنسبة للبعض هدفاً قومياً في مستوى هدف الاستقلال والدستور.

وأذكر أن الجدل يومها ثار بشدة وعنف هائلين. . .

طه حسين يرى أن العبرة بالقاعدة العريضة، وبالتالي فأول أسباب التقدم ومظاهر العدالة هو في توفير التعليم الذي هو ضروري كالماء والهواء لكل انسان.

وكان العقاد انطلاقاً من ايمانه بالنخبة، يقول: ولكن الماء إذا ترك في أي نهر يتدفق دون حساب، فإنه قد يغرق كل ما حوله ويقضي على الأخضر واليابس. وإنما الاستفادة بتدفق الماء تكون بضبطه وربطه، بإقامة الجسور من حوله، والخزانات في طريقه، وشق الترع منه.

وهذان القولان، يلخصان معركة دارت عشرات السنين في مصر، حتى جاء طه حسين وزيراً للتعليم فبدأ بسرعة في مجانيات التعليم، والتوسع في إنشاء الجامعات، وحرك موجة لم يكن ممكناً ايقافها بعد الآن. فقد كانت موجة العصر، بصرف النظر عن ارادات الأفراد وآراء المفكرين.

ولن أترافع هنا عن ضرورة وقيمة أن يكون التعليم كالهواء والماء، فهي قضية حسمت نهائياً. وإذا كان فيها من عيوب فهي عيوب عدم اكتمالها، مثل ضحالة التعليم الذي يقدم للناس، وعدم كفايته حتى الآن، إذ إن نسبة الأمية في عالمنا العربي ما زالت هي الأعلى، وإن التعليم صار تلقيناً سطحياً، أو مجرد تعريف بالقراءة والكتابة؛ فالعيب هنا في القصور عن إكمال الرسالة، وليس في الرسالة ذاتها. ومع ذلك فالموقف يتحسن ولا يسوء. ثم إنه لا يمكن المقارنة في هذا العصر بثوراته العلمية والمعلوماتية والتكنولوجية، بين شعب متعلم، وشعب أغلبه غير متعلم. ولا شك أنه كما أن دائرة التعليم قد اتسعت، فإن دائرة مستوى المعيشة، المادية المعقولة قد اتسعت أيضاً، وهذه أشياء ايجابية. والواجب هو المضي فيها بجدية أكثر وخطوات أسرع!

ولكن كيف أثر هذا على الثقافة في مفهومها العام، وكيف يساهم في انحطاطها الذي نشير إليه؟ وكيف ينتج عن الخير بعض الشر؟

نعم، هذا ما حدث في مجالات كثيرة.

فقد حدث أمران في وقت واحد:

الأمر الأول هو انتشار ما يسمونه وسائل الاعلام وما أحب أن أسميه وسائل التثقيف العام، أو هكذا يجب أن تكون. وهذا في حد ذاته كان كافياً لأن ينشر رسالته في دائرة أوسع، ولم يكن هذا ممكناً إلّا إذا حملته موجة أوسع من الجماهير. فإمكانيات التعلم حين كان

العالم في عصر المخطوطات، لا تقاس إلى امكانياته حين ظهرت المطبعة الأولى، وامكانيات المطابع الأولى في اصدار الكتب لا تقاس إلى امكانيات المطابع الحديثة، وظهور الصحف الأسبوعية ثم اليومية، العشرات في البداية صاروا بالآلاف، والآلاف تحوّلت إلى ملايين، والملايين تحوّلت إلى عشرات ومئات الملايين بمجرد تقدم وسائل الطباعة وصناعة الورق، وانتشار القراءة والكتابة.

وجاء بعد ذلك ظهور الاذاعة ثم السينما ثم التليفزيون. وهذه وسائل تذهب إلى البيت وتدخله وتعاشر سكانه مهما كان نائياً، ولا تنتظر حتى يذهب سكانه إليها.

ثم إنها كما تهم من نال من التعليم، فإنها تخاطب لأول مرة من لا يقرأ ولا يكتب. فهي تخاطب المتعلمين والأميين، وهي أكثر تأثيراً عليهم، لأنهم بحكم الأمية وانعدام التكوين الثقافي أقل مقاومة وأقل مناعة لما تقدمه إذا كان نافعاً أو ضاراً، وهذا هو الأمر الثاني.

هذه التطورات العلمية والتكنولوجية السريعة، التقت في عالمنا بالموجة التي تحدثنا عنها من انتشار التعليم نسبياً، ومن ارتفاع مستوى المعيشة نسبياً، وحدث بين الأمرين تفاعل كيمائي خطير.

فقد أصبحت منابر التثقيف العام الهائلة، من أقدم وسائلها وهي الكتاب، إلى أحدثها وهي التليفزيون، محكومة باعتبارين معاً:

الاعتبار الأول أن جمهورها الأكبر والأوسع صار من الجمهور الأمي، أو شبه المتعلم أو المتعلم غير الناضج، وهذه الوسائل لكي تعيش عليها تفضل أن يكون زبائنها بالملايين من هؤلاء على أن يكون جمهورها آلافاً قليلة من المثقفين. وبالتالي انتشر الانتاج السهل الهابط المستوى، وأحياناً المنحط القائم على الجنس والجريمة والإثارة دون أي قيمة فنية، أو اجتماعية.

فإذا أردت أن تصدر جريدة ذات مستوى، فعليك أن تقنع بعشرات الآلاف من القراء.

أما إذا أردت أن تصدر جريدة توزع الملايين، فعليك أن تزيح من ذهنك قضايا المستوى الثقافي والفني والرسالة الثقافية العامة.

الاعتبار الثاني، إن وسائل التثقيف العام هذه بحكم تكاثرها وتعددها صارت كالمعدة الشرهة التي مهما أعطيتها من وقود فهي تقول: هل من مزيد؟

الصحيفة صارت عدة صحف، المجلة صارت عشرات المجلات، الموجة الاذاعية أو القناة التليفزيونية صارت موجات وقنوات وزادت ساعات ارسالها حتى كادت تغطي الأربع والعشرين ساعة في اليوم.

وكل هذا يحتاج إلى انتاج، إلى طعام للمعدة الشرهة.

وهكذا صارت تتلقف أي شيء يقدم إليها لكي تنشره أو تذيعه، أو تملأ به ساعات الارسال التليفزيوني.

لم تعد هناك أي صعوبة في النشر...

كل منا قرأ الكثير عن حياة أعظم الكتاب والمفكرين والموسيقيين والصحفيين، وكيف أن كل واحد منهم قاسى وتعب، وربما عرف الجوع سنوات، قبل أن يعترف به ناشر، وأن يرى اسمه على شيء منشور. ذلك أن الباب كان ضيقاً بالفعل، وكان الدخول من هذا الباب الضيق يحتاج إلى جهد حصين، وإلى تفوق واضح، أو اضافة هامة قبل أن يلتقط صاحب الإبداع أنفاسه، ويمر من عنق الزجاجة، ويتبدى عمله للجماهير (القليلة نسبياً).

وربما مات العبقري ولم يعرف إلّا بعد موته بسنوات...

فان جوخ الرسام العظيم مات جوعاً. ولكن بيكاسو الذي جاء في عصر الاعلام الواسع تكدست بين يديه مئات الملايين التي لا يعرف ما يصنع بها.

كان هذا الكفاح ماضياً وقد فات...

الآن، يستطيع الشاب أن ينشر أول مقال يكتبه في حياته، وأن يرى على شاشة التليفزيون أول رواية تخطر على باله. فالطلب في هذه السوق أكثر من العرض بكثير، فالمشتري في حاجة إلى شراء الثمار الناضجة مع الثمار الجافة التي تعطنت. إنه يريدها كلها، وبالتالي فإن مهمة المنتج البائع صارت في غير حاجة إلى المعاناة القديمة.

هذا هو أبرز أسباب ما أسميه بالانحطاط الثقافي، ولكنني في الحدود التي شرحتها، أضعه في مجال أمراض النمو، لأنني لا أتصور مستقبلاً للانسانية إلّا في ازدياد التعليم، وبعد ازدياده عدداً لا بد من ارتقائه نوعاً. وأول جيل لمسه تيار الثقافة لا بد ستعقبه أجيال تعمقت فيها قيم الثقافة.

فمواجهة مرض «النمو» لن يكون برده إلى الوراء، ولا بتركه يصل بصاحبه إلى الموت...

ولكن مواجهته تكون بتوقعه، وبعلاجه، حتى يصل إلى مرحلة النقاهة ثم الصحة الكاملة، أو هذا هو المستقبل الوحيد فيما عدا الموت بالمرض...

على أن هناك أمراضاً أخرى، غير صحية، وتحتاج إلى علاج، لأنها إذا تركت تصبح أمراضاً مستعصية، وليست أمراض النمو التي تأخذ مجراها.

وأتحدث هنا عن أمرين أكتفي بهما في هذا الحديث: **القضية الأولى** هي أنه صار لا مفر في تقديري من أن تتدخل الدولة بصفتها نائبة عن المجتمع وممثلة لمصالحه في هذا المجال. في بلاد نامية مثل بلادنا، لا بد أن تتدخل الدولة ابتداء من تحسين التعليم، بل تغيير فلسفته من مجرد تلقين إلى عملية تكوين يشمل العقل والذوق ومختلف الحواس، انتهاء إلى ايجاد

رعايـة للمؤسسات التي قد لا تخدم اليوم إلاّ النخبـة، ولكن لا بد من المحـافظة عليهـا حتى تلحق بها الجماهير.

من يوجد معاهد المسرح؟ ومعاهد الموسيقى؟

ومعاهد التراث؟ والفرق التي تخرج من هذا كله؟

من يترجم لنا أمهات الكتب العالمية؟ من يرعى البحوث الدقيقة المتخصصة؟

من يمكنه أن يوجد المجال لهـذه الجذوة المتميـزة؟ ويحوطهـا ويحميها من هبـات الريـح المتقلبة؟ غير الدولة حين تدرك أنها مسئولة عن مستقبل الثقافة ومستواها تماماً كمسئوليتها عن زيادة الانتاج ورفع مستواه؟

وهنا نحتاج إلى أن تفرق الدولة بين ما تسميه «أجهزة الاعلام» وبين ما تسميـه «أجهزة التثقيف العـام»، فلا تـأخذ هـذه الرسـالة عـلى أنها مجرد دعـاية لنفسهـا، أو مبـاهـاة بكـثرة مطبوعاتها، أو بأن يكون لديها مطبوعات فاخرة لمجرد أنها رموز تقدم كحرصها عـلى أن يكون لديها فنادق فاخرة، للسياح وكبار الزوار.

والقضية الثانيـة، هي محاولـة تخليص تدخـل الدولـة من العيوب التي تعلق بـه كثيراً، وتقتل رسالة التثقيف العام قتـلاً، أو «شنقاً حتى المـوت» كما يجيء عـادة في منطوق الأحكـام بالاعدام.

ذلك هو حين يكون تدخل الدولة سيـاسياً بـالدرجـة الأولى والأخيرة، التـدخل الـذي هدفه استخدام الثقافة وليس خدمة الثقافة، وتحديد الابداع بمسارات معينة، بدلاً من تحريره من الأسر حتى يتمكن من الانطلاق.

إن أعرق بلاد أوروبا صارت حكوماتها تعين المسـارح الجادة، وفـرق الموسيقى القـومية والأبحاث والكتابات العلمية والأدبية، وبعد أن غمرتها أيضاً موجـة مشابهـة لكل مـا شرحناه من قبل مع اختلاف في المستوى وليس في النوع.

ولكن تدخلها للدعم لا للحكم، للتحرير وليس للتخدير.

بهذا ـ على الأقل ـ نجعل من ديمقـراطية الثقـافة حقيقـة، ونجعلها عـلاجاً لـلانحطاط الثقافي، وليس داء من أدوائه.

عندما يسأل الفرد نفسه في ظروف هذا العصر: ماذا يترك لأبنائه؟ يرد قـائلاً: أزودهم بأحسن تعليم وتكوين، ثم يشقون طريقهم من بعدي بأنفسهم.

وما نريده من الدولة هو أن تسأل نفسها: ماذا تترك للأجيال المقبلـة؟ ثم يكون الـرد: أزود شعبي بـأحسن تعليم وتثقيف وتوعيـة وتكوين، ثم اطمئن إلى أن شعبي سيبني مستقبله أحسن ما يكون البناء.

١٢ ـ كيف مات صلاح عبد الصبور؟(*)

ليس الحديث عن وفاة صلاح عبد الصبور متأخراً، رغم أن ذكرى مرور الأربعين على وفاته قد مضت.

ذلك أن هذا الحديث ليس حديث «تأبين» لصلاح عبد الصبور.

وليس هذا حديث تقييم لشعر صلاح عبد الصبور وفنه، فلست أنا خير من يقوم بذلك. والأقدرون لم يتكلموا بعد، وسوف يتكلمون بالتأكيد كثيراً، هم ومن بعدهم، عن فن صلاح عبد الصبور وشعره، لأنه أحد أهم من فتحوا باب الشعر الحديث عن قدرة وجدارة وموهبة، مختاراً في ذلك الطريق الصعب، وليس الطريق السهل الذي يمرح فيه كثيرون تحت اسم أنه «شعر حديث» وهو ليس بالشعر ولا بالحديث.

ولكنه حديث عن «موت» صلاح عبد الصبور، لأنه يقودنا إلى الحديث عن قضية هي قضية التزام الأديب ومعنى ذلك في حياتنا العربية بالذات.

ولعلني أشعر أنني مسئول ـ أقصد من بين المسئولين ـ عن «حياة» صلاح عبد الصبور وليس عن «شعره» الذي كنت له على الدوام قارئاً فحسب، معجباً إلى آخر الحدود.

ولعل القارىء يعجب أن يكون «موت» صلاح عبد الصبور قضية يمكن أن تناقش، ذلك أنه رغم أن «الموت» هو حقيقة الحقائق وقضية القضايا في «الحياة» الانسانية، إلّا أنه الشيء الوحيد غير القابل للمناقشة، لأنه الحتمية الوحيدة التي لا مجال للبحث فيها. وقد قيل قديماً «تعددت الأسباب والموت واحد»، و «من لم يمت بالسيف مات بغيره»، فالطرق مختلفة، ولكنها تلتقي كلها عند نهاية واحدة.

(*) العربي، العدد ٢٧٦ (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨١).

ولكن الحافز إلى هذا الحديث هو أن موت صلاح عبد الصبور أثار كثيراً من الجدل والنقاش. كما أن كثيراً من الذي كتب عن موت صلاح عبد الصبور كان تأبيناً خبيثاً له، خطته أقلام عبرت عن فرحتها باختفائه، بالسير في جنازته. وكثير آخر كتب في رثاء «وكيل وزارة الثقافة» في مصر وليس في رثاء شاعرها المعاصر الأول.

مع جمهور لا يعرفه

وقد كنت في اجازتي السنوية في مصر حين قرأت خبر وفاة صلاح عبد الصبور. وبعد أيام قرأت خبراً عن ندوة تقام في قصر ثقافة مصر الجديدة لتأبينه. وذهبت في الموعد أبحث عن مكان قصر الثقافة هذا حتى عثرت عليه. وحين حان الموعد رأيت ظاهرة غريبة: ان المدعوين لإلقاء الكلمات لم يحضروا، ولكن القاعة مع ذلك كانت مملوءة عن آخرها بالشبان والشابات، الذين هم تحت سن العشرين بقليل أو فوق سن العشرين بقليل. لم يعرفوا صلاح عبد الصبور شخصياً ولم يروه رأي العين، ولكنهم جميعاً من قراء شعره ومن جمهوره الواسع، وعشرات منهن ومنهم جاءوا ومعهم أشعار وقصائد كتبوها عن صلاح، لعلهم يجدون منفذاً لإلقائها.

وقلت لجارتي في القاعة: هذا خير تكريم للانسان، تكريم جمهوره الذي لا يعرفه ولكنه يعرف فنه. فالفنان يكتب وينتج لهؤلاء الذين يشعر بهم ويعبر عنهم ولهم دون أن يراهم. هذا هو الفنان الحقيقي. ونجاحه غير نجاح الفنان «الاجتماعي» الذي ينفق نصف حياته في كسب الناس، وفي البحث عن الشهرة، وفي توثيق علاقته بالبيروقراطيات التي تسيطر على الأدب.

وكانت النتيجة ليلتها أن الدكتور عبد الفتاح الديدي المشرف على الندوة لم يجد مفراً من أن يدعوني للكلام دون استعداد، لأملأ بعض فراغ الغائبين، غير مدرك أن الطعنة في قلبي كانت دامية، ووفاة صلاح كانت أكثر من أن تحتمل. إنه ابن جيلي مباشرة، وصديق مرحلة وحياة وعمر، حتى ولو كانت تمر السنوات دون أن نلتقي.

وما سوف أقوله هنا هو بعض مما ارتجلته تلك الليلة، لعل ما أوصلته ليلتها إلى المئات يصل هذه المرة إلى مئات الآلاف.

وكان اللغط قد دار ونشر في الصحف حول رواية تقول: إن صلاح عبد الصبور كان في حفلة صغيرة احتفالاً بعيد ميلاد ابنة رفيقه في طريق الشعر والفن، شاعرنا الخفاق أحمد عبد المعطي حجازي، عندما دخل في جدل مع بعض الضيوف الآخرين الذين كانوا يهاجمونه على مواقف سياسية وغير سياسية، ضاق بها صدر عبد الصبور فطلب أن ينزل إلى الشارع يتمشى مع أحمد عبد المعطي حجازي طلباً لاستنشاق الهواء. ولكنه شعر بتعب أكثر وقال لصاحبه «أعود لأرى زوجتي وابنتي»، ولكن أحمد حجازي وجد أنهما أمام مستشفى هليوبوليس فدخل به إلى المستشفى. وجلس بجواره مع الطبيب الذي رحب بهما وراح يحدثهما. وإذا بصلاح يهوي فجأة من مقعده على الأرض، وفشلت محاولات الانقاذ.

وكل هذا صحيح . . .

ولكن كتبة البلاغات إلى السلطة انتهزوها فرصة لكتابة بلاغات جديدة في صورة تأبين للشاعر. من خاصمه ليلتها؟ ومن ناقشه حتى قتله؟ وماذا كان موضوع هذا الجدل العنيف؟ إلى آخره . .

شقاء الفنان بالوظيفة

وقد قلت للذين اجتمعوا لتأبينه في تلك الليلة: إن الناس قد يرون أن صلاح عبد الصبور مات وقد صار في سن صغيرة نسبياً وكيلاً لأكبر وزارة ثقافة في العالم العربي، أي أنه مات بعد أن حقق أغلى أمانيه، ولكنهم لا يعرفون أن صلاح عبد الصبور كان تعيساً بوظيفته، شقياً بها إلى أقصى حدود الشقاء، لسبب بسيط جداً وهو أن النجاح الاداري البيروقراطي الوظيفي غير النجاح الفني، وأن أجهزة الثقافة بآلاف رؤسائها وموظفيها والعاملين فيها إنما تقوم لخدمة الفنان، وليس العكس. وأن البيروقراطية الثقافية في كل عهد تعيش بآلافها وتمضي بسبب وجود عشرات أو أقل من المبدعين الفنيين.

وإن صلاح عبد الصبور كان يتمنى لو يسرت له الظروف أن يكون له دخل حياتي معقول، يكفل الحياة له ولأسرته الصغيرة، دون منصب ولا هيلمان، حتى يجد الوقت الكافي للعكوف على فنه وإبداعه، فهو قد خلق لهذا. ولم يخلق لتوقيع الأوراق الرسمية وحضور اللجان الحكومية والنظر في ترقيات الموظفين . . إلى آخره . .

وقد كانت آخر مرة رأيت فيها صلاح عبد الصبور، عندما جاء يزورني في البيت آخر الليل في موعد غير مألوف، وفرحت برؤيته فرحاً شديداً ولكنني ذهلت لأنه في مظهر بدا لي يومها شيخاً في السبعين من عمره، وقد اشتعل الشيب في رأسه فجأة. وكان كل حديثه عن آلامه وأوجاعه وهمومه في منصبه الذي لم يسع إليه، وفي المسئولية ـ المأزق ـ التي لا يعرف مخرجاً منها، وفي الأيام التي تمر دون أن يجد فيها برهة يسكن فيها إلى نفسه، وتنطلق قريحته، ويضيف إلى أحلامه الشعرية شيئاً.

الشاعر الذي عليه أن يكون موظفاً ليعيش، وعليه أن يعمل عشر ساعات في روتين قاتل لعله يظفر مقابلها بساعة يمارس فيها حياته الباطنية، الفنية، الحقيقية.

وهي مأساة كل المفكرين والأدباء والفنانين في بلادنا . . .

ذلك أن بلاداً تصل فيها نسبة الأمية إلى ٧٠ بالمئة تقريباً، لا يمكن أن يعيش فيها كاتب من قلمه ولا شاعر من شعره.

نحن لسنا بعد فرنسا ولا انجلترا حيث يعكف الروائي مثلاً على رواية سنة كاملة لا عمل له سواها، ثم يكون رواجها ونجاحها بحيث يزوده بزاد الحياة وقدرة الاستمرار على التفرغ.

لم نعرف بعد في بلادنا العربية كلها، مبدعاً واحداً عاش من قلمه فقط، إنما عليه أن ينفق الساعات في وظيفة حكومية، أو عمل صحفي، أو أي شيء آخر يكسب منه رزقه، وانتاجه على الهامش.

حتى بعد أن يصبح للواحد منهم فوق السبعيَن كتاباً في السوق، مثل طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، فإنه لا يستطيع أن يعيش منها، وأقل من عمل أعمالاً غير التأليف ـ وهو عباس محمود العقاد ـ كان يضطر أحياناً إلى بيع الكتب النادرة في مكتبته سراً وعلى استحياء، ليواصل حياته البسيطة الزاهدة، وليس له زوج ولا ولد.

في غيبة المؤسسات الحرة

في بلاد لها ظروف بلادنا، يكون على الدولة، بوصفها نائبة عن المجتمع، قيّمة على تقدمه، ان تيسر لهم هذا.

ولكن الدول في بلادنا لها في مقابل ذلك شروط أقسى من أن يتحملها ضمير الكاتب أو الفنان عادة، فيؤثر أن يفني معظم عمره في وظيفة تكفل له قوت يومه، في حين تتمتع البيروقراطيات الأدبية التي ما وجدت إلاّ لخدمته، بالحياة المرفهة المريحة!

فالذين يتحدثون عن التزام الأديب في بلادنا عليهم أن يضعوا في اعتبارهم بعض هذه الحقائق، بدل أن ينقلوا نقلاً ببغائياً ما يقرأونه عن التزام الأديب في فرنسا مثلاً.

الأديب يحميه جمهوره، وتحميه مؤسسات ثقافية حرة، تدرك قيمة الفن حتى ولو خالفها.

وفي بلادنا لا توجد هذه المؤسسات الحرة، ولا توجد الجماهير المثقفة الواسعة بعد. الفنان أو الأديب في بلادنا ينتج بلا حماية، ويبدع وهو عاري الصدر، مكشوفاً للطعنات. والشاعر الذي سألته مرة ماذا يفعل منذ زمن، فرد علي قائلاً «إنني أدافع عن قيثارتي، فلا مجال لأن أعزف ألحاني» كان على حق!

وإذا انتقلنا من هذا التعميم إلى حياة صلاح عبد الصبور بالذات ماذا نجد؟

في أول شبابه، وفي أول ظهوره كأحد براعم الشعر الواعدة، كتب قصيدة وهو في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً، قاسية، جارحة، جعلت السلطة تقلب له ظهر المجن، وتنظر إليه نظرة ريبة وعداء.

ونحن في عالم إذا «أشيع» عن أحد أن صاحب السلطة غاضب عليه، قلب له كل الناس ظهر المجن، وتنكروا له، وإن ظلوا يطالبونه في نفس الوقت بالاستشهاد.

وقد نسي صاحب السلطة هذه القصيدة وعرف ملابساتها. . .

ولكن البيروقراطية الأدبية من جهة، والذين كسفت شمس صلاح عبد الصبور الصاعدة قناديلهم الهزيلة من جهة أخرى، بقوا له بالمرصاد.

ولم يكن صلاح عبد الصبور مقاتلاً في هذه الساحة، ولا نشيطاً في خدمة نفسه، ولا مصمماً وعنيداً إلّا في انتاجه وأدبه. فكان يتقبل الظلم في هدوء غريب، كهدوء الفلاح المصري ـ الذي هو من صلبه ـ الذي اعتاد أن يتحمل الظلم ويبتسم له، لأنه لن يدوم.

في الهند.. بحثاً عن عمل مريح

لذلك، صدم أولئك الشباب الذين احتشدوا في قصر الثقافة في مصر الجديدة:

إن بعض الذين ينعون صلاح عبد الصبور، بعد أن راح، حاربوه بكل سلاح. فحين لمع بشعره الحديث، وكانت الشيوعية هي التهمة قالوا إن الشعر الحديث شيوعي. وحين كان الالحاد هو التهمة قالوا إن الشعر الحديث إلحاد وتنكر للإسلام والعروبة!

وصدم أولئك الشباب حين قلت لهم إن صلاح عبد الصبور بعد أن أصبح صلاح عبد الصبور يدعى إلى أكبر المحافل الأدبية في العالم ويترجم شعره، قضى سنوات بلا عمل. يأتي وزير فيلحقه بوظيفة، ويأتي وزير آخر فيسحب منه الوظيفة بإحدى الحيل الادارية التي يحار أمام ألغازها الفنان والأديب. وإن كل المؤسسات الثقافية التي تسابقت إلى نعيه كانت في وقت تتهرب من أن تعطيه مجالاً للعمل والانتاج، بسبب سابقة غضب السلطة عليه، التي مضت عليها سنوات.

وكان لا يشكو، بل يتحمل، ويحتفظ بكرامته، ولا يطلب شيئاً.

وعلمت يوماً أن صلاح عبد الصبور عيّن ملحقاً ثقافياً لمصر في الهند، وأخذت أبحث عن عنوانه حتى وجدته وأرسلت إليه خطاباً أعاتبه على أنه صار كسفينة الفضاء التي خرجت عن مدارها فيعلن العلماء أنها ستظل تدور في الفضاء مئات السنين حتى تحترق، وألومه على أنه لا يجعل أصدقاءه يعلمون أخباره ووسيلة الاتصال به، ودعوته بإلحاح أن يخرج من المنفى بعقله لا بجسده وأن يكتب لمجلة العربي.

وردّ علي بخطاب لا أنساه، بدد فيه وهماً خطر لي، أن يكون أراد السفر إلى الهند لاستنشاق روائح حضارة أخرى غنية وعريقة. وأكد ما خفت منه من أنه سافر لأنه لم يجد وسيلة أخرى إلى عمل مريح.

وأرسل صلاح عبد الصبور من الهند إلى «العربي» قصيدة.. وقصيدة..

وعاد إلى القاهرة بعد انتهاء مدة عمله هناك، ليتدرج تدرجاً روتينياً في وزارة الثقافة حتى صار وكيل الوزارة.

والبيروقراطيون يحسدونه ويحسبون أن هذا هدف يسعى إليه، في حين أنه كان يصعد الهرم الوظيفي كارهاً، لأن كل خطوة تبعده عن حلم الشاعر أن يكون واقفاً على الأرض، في السهل المنبسط، يتنفس حياة الناس وغبار الواقع ولديه الوقت الفسيح للتأمل والانتاج.

بماذا يلتزم الأديب؟

وتبقى بعد ذلك كلمة استكمالاً لإشارة وردت في أول الحديث عن التزام الأديب والفنان. الذين يتحدثون كالببغاوات لا يسألون أنفسهم: بأي شيء يلتزم الأديب؟

الأديب يلتزم بالقيم التي يؤمن بها هو، والمواقف التي يختارها هو، والرؤيا التي يراها هو. فهناك من يلتزم بقيم سياسية مباشرة، ومن يلتزم بقيم فنية خالصة، ومن يلتزم بقيم انسانية شاملة.

المهم أنه يلتزم بما يختار «هو» الالتزام به...

وليس أن يلتزم بما نختاره «نحن» له، أو بما نلتزم نحن به.

فدعوة التزام الأديب ازدهرت واشتهرت في بلاد اقترن فيها الالتزام بالحرية، ولا يمكن أن يوجد التزام بدون حرية، لأن الالتزام هو في البداية اختيار، وهو بغير الحرية الزام لا التزام.

فإلزام السلطة للكاتب لا يجعله كاتباً ملتزماً، وإلزام الرأي العام أو أي قطاع منه للكاتب لا يجعله ملتزماً.

نحن نطلب من الفنان الالتزام بما نلتزم به نحن، وليس بما يلتزم به هو من قيم، وما يرتبط به من مجال يرى أن عطاءه فيه أخصب.

ونحن بهذا النظر الضيق نخنق الفنان، ولا نجعله فناناً ملتزماً.

وقد كان صلاح عبد الصبور فناناً ملتزماً بقيم انسانية وفكرية وفلسفية وفنية. ولو كان من الذين يحيدون عن التزامهم هذا، لربما كتب له العمر الطويل، ولربما لم يتوقف قلبه تعباً وضنى وارهاقاً.

استغفر الله، فالأعمار بيد الله. والملتزم حقاً يختار العمر الأدبي الطويل، الذي يمكث في الأرض، على العمر المادي الذي هو قصير في آخر الأمر، مهما طال.

١٣ ـ اللغة العربية
حين نريدها سلاحاً سياسياً واستراتيجياً وحضارياً!(*)

هذا موضوع أحب أن أعود إليه من حين إلى آخر، احساساً مني بقيمته العميقة، وأنه في تقديري نوع من الأعمال الكبرى التي تحول مجرى التاريخ، كالمعجزات الكبرى، وتحويل مجاري الأنهار، وزوال حضارات وقيام حضارات.

ولا بأس من التكرار في بعض القضايا الهامة، فالتكرار هو وسيلة أي دعوة على أي حال، بدءاً من الدعوة إلى مذهب سياسي، وانتهاء «بالدعاية» لماركة من ماركات السيارات أو التليفزيون.

ورغم أن الموضوع خاص باللغة العربية، إلّا أنه ليس موضوعاً لغوياً ولا أدبياً، ولكنه موضوع سياسي وحضاري.

وما اللغة فيه إلا أداة.

واللغة على أي حال ـ في شتى العصور واللغات ـ هي دائماً أداة. إنها وسيلة لا غاية. حتى إذا نظرنا إليها من منطق أهل البلاغة والفصاحة ـ قبل أن يغضب أحدهم ـ فإن البلاغة في اللغة أداة لحسن التعبير، واتقان توصيل الفكرة أو العقيدة، وهذه هي بلاغة عصور النهضة، في حين كانت البلاغة تصبح هدفاً في حد ذاتها، في عصور الانحطاط. فحين يتبارى الناس في اللغة من أجل اللغة معناه افلاس في الفكر والعلم اللذين خلقت اللغة كأداة لتوصيلهما، تماماً كالذي يركب السيارة مثلاً للوصول إلى هدف، والذي يركب سيارة لمجرد اظهار قدراته البهلوانية على القيادة لا غير.

وأحياناً لا يشعر الناس بالشيء القريب، الميسر، المعمول به يومياً، حتى ولو كان أهم وأخطر شيء، كالهواء الذي نستنشقه ونعتبره بالتالي أبسط الأشياء رغم أنه مادة الحياة.

(*) العربي، العدد ٢٧٨ (كانون الثاني/ يناير ١٩٨٢).

وفي هذا المجال، نجد أن اللغة أبرز هذا النوع من الأشياء في صنع الحياة والحضارة. ولكن لأننا نتعلمها بالولادة والنمو، ونستعملها يومياً في كل شيء، لا نلتفت أحياناً إلى أن اللغة هي أحد أهم الأشياء التي شكلت تاريخ الحضارة الانسانية، ورسمت مجرى التاريخ: أكثر مائة مرة مما ساهمت به الجيوش، والأسلحة الباهظة، والحروب الكبرى.

فاللغة كانت أداة الرسالات السماوية، والمذاهب الدنيوية، والمعاملات الانسانية حتى شتى درجاتها ومستوياتها. إنها «العملة» الأبدية الأزلية المتداولة بين الناس جميعاً. وإذا كانت الآية الكريمة تقول ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[1]، فاللغة خلقت من الحضارات والفنون والعلوم كل شيء حي. اللغة أقامت حضارات وماتت مع حضارات، وملأت صفحات سعتها بالقرون.

وعندما نقول إن القومية الواحدة عمادها عادة تاريخ واحد وتراث واحد وجغرافيا متصلة ولغة واحدة، أذكر دائماً كيف كان المرحوم ساطع الحصري - أبو القومية العربية الحديثة - يتعصب بشدة لعنصر اللغة بالذات، ويعتبر أنه الأول والأهم بين كل العناصر الأخرى في كيان أي قومية.

وهذا صحيح بالتأكيد، ولكن ليس هذا هو الموضوع الذي نريد أن نخوض في تفاصيله، وإن كان التسليم بهذه الحقيقة هو حجر الزاوية في هذا الحديث.

وقد كان من حظ الأمة العربية أن نزل فيها القرآن باللغة العربية المبينة، فخلق اللغة خلقاً وجددها تجديداً وغيّر منطق الفصاحة والبلاغة والتأثير نهائياً. ثم نزل القرآن نصوصاً محفوظة وتم تدوينها في وقت مبكر، فاكتسبت اللغة العربية بالذات قداسة ليست لأي لغة، واستمرارية ليست لأي لغة، وهذا ليس ضد التجديد الضروري في اللغة، ولا ضد حقيقة هبوط مستوى تعبير العرب باللغة هبوطاً وارتفاعاً تبعاً لنهوضهم وتخلفهم. فقد كانت اللغة المستعملة تصل أحياناً إلى أدنى درجات الركاكة، ولكن لم تتحلل تحت كل الظروف الباهظة إلى لغات مندثرة «متباينة» حيث ظل القرآن دائماً حافظاً وعاصماً لها ينتظر لحظة العودة إليه.

ولو استعرضنا ما مر على الأمة العربية من امبراطوريات ومن استبداد ومن اضمحلال ومن تمزق ومن عصور مظلمة، لتأكد لنا أنه لولا هذه اللغة، وأساسها الذي صار مقدساً لا يمس، لما كانت هناك أمة عربية الآن على الاطلاق، وبهذا الاتساع، وبهذه القابلية التي لا حد لها لاستيعاب أهم ما فاتنا، وأحدث ما يفوتنا، من علوم الحضارة.

والذي يعيدني إلى هذا الموضوع اليوم، ومن زاوية محددة واحدة سوف أصل إليها بعد قليل، المؤتمر الذي ساهمت بالحضور فيه أو الذي انعقد منذ أسابيع قليلة في تونس، في اطار نشاطات «المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة» المنبثقة عن جامعة الدول العربية، أي «اليونسكو» العربية.

---

(١) القرآن الكريم، «سورة الأنبياء،» الآية ٣٠.

وقد كان اجتماعاً تأسيسياً، حضره عدة مئات من المثقفين العرب، تحت عنوان واسع كبير هو «تخطيط التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الاسلامية».

ولن أغرق القارىء في تفاصيل هذا العنوان الذي كتبت فيه المنظمة مجلدات، وامتلأت حقائبنا ما قدمته من وثائق ودراسات، ذلك أن الدكتور محيي الدين صابر - رئيس المنظمة - ومساعديه يكافحون منذ سنوات لعمل شيء متكامل في هذا الموضوع. يكفي أن نذكر أن العمل لعقد المؤتمر بدأ سنة ١٩٧٦، ولكن عجلة عمل الأجهزة العربية المشتركة - بعشرين دولة وعشرين رأي وعشرين ألف اعتبار - عجلة بطيئة. والدول لا تعطي في هذه المجالات تفويضات حاسمة لمنظماتها المشتركة.

لن أغرق القارىء في تفاصيل هذا العنوان الواسع الكبير، والبرامج المتشابكة فيه. فقد اعترضت على ذلك في المؤتمر نفسه، لأنني أؤثر عادة أسلوب اختيار مهمات قليلة محددة، لاجتماعات سريعة محددة، كأسلوب واقعي للانجاز.

ولكنني سأقف بالقارىء فقط عند نقطة واحدة، لا لأنني أثرتها في المؤتمر بشيء من العنف المرتجل غير المقصود، ولكن لأنني حدثت القارىء عنها قبل ذلك طويلاً، ولأنها تدخل فيما ذكرت عن فكرة «التصويب على هدف استراتيجي واحد عميق التأثير» إلى جانب الانتشار على ساحة واسعة من المهمات، ولأنها - كما قلت في أول الحديث - ليست قضية لغة، ولكن قضية سياسة وحضارة وانعكاس حاد على مقادير الأمة العربية على المدى الطويل.

فمن المعروف أن اللغة العربية خرجت من موطنها الأصلي، رافعة أعجوبتها القرآنية، إلى أنحاء مترامية من العالم، تحت راية الاسلام.

وبعض الشعوب قبلت الاسلام، وثبت فيها، ولكن دون أن تثبت فيها معه اللغة العربية. وبعض الشعوب قبلت الاسلام، وقبلت معه اللغة العربية، وثبت الاثنان فيها. ومن هذه الشعوب التي ثبت فيها الاثنان، تتكون ما نسميه الأمة العربية.

ولا اعتراض على هذا. فالاسلام دين وبالتالي فهو للناس كافة. والعربية لغة وبالتالي فهي ليست بالضرورة للناس كافة.

ولكن المؤكد أن المناطق التي ثبتت فيها اللغة العربية، حتى بمن فيها من غير المسلمين، الذين صارت العربية لغتهم، هي التي صارت الأمة العربية بأديانها المتعددة، وهي التي صارت في الوقت نفسه البذرة الصلبة للوجود الاسلامي ذاته.

فالعروبة فضلاً عن أهميتها في حفظ أمة العرب بكل ما فيها ومن فيها، فهي أيضاً كانت المعقل الأساسي للإسلام في مده وجزره.

لذلك لم تكن حرب الاستعمار على اللغة العربية هينة ولا متساهلة، فقد طوردت الثقافة العربية - ووسيلتها الأولى اللغة - مطاردة عنيفة، أحياناً من بعض الامبراطوريات

الاسلامية ذاتها التي لم تفطن إلى دور اللغة العربية الحاسم، كالامبراطورية التركية مثلاً، ولكن في معظم الأحيان من الامبراطوريات التي لا هي عربية ولا مسلمة.

والخطوة التي أدعو إليها الآن وأرى كل الظروف مواتية لها، بل موجبة لها، ليست «تعريب» العالم الاسلامي كله من الصين إلى روسيا إلى آخر الأرض، ولكن فقط، أن «نسترد» إلى العروبة، الشعوب التي قبلت الاسلام واللغة العربية معاً، والتي فقدت بعد ذلك لغتها العربية لا طواعية واختياراً، ولكن بالقهر والعنف والمطاردة وأعواد المشانق.

وقد حدث هذا في افريقيا بالتحديد..

فالإسلام ـ والعروبة ـ بعد أن غطى الساحل الافريقي الشمالي كله على البحر الأبيض المتوسط، وغطى الساحل الافريقي الشرقي كله على البحر الأحمر حتى آخره، استطاع أن يقاوم في تلك المناطق بحكم أن البلاد المطلة على البحار عادة بلاد حضارات قديمة، وبالتالي تكون لها عادة مناعة وقوة مقاومة أكثر من غيرها من البلاد المغلقة داخل حدود أرضية مغلقة من كل جانب، فشاطىء البحر الأبيض العربي كان دائماً حياً عبر آلاف السنين رغم مواجهته لأوروبا بأسرها، وشاطىء البحر الأحمر الافريقي، كان يحميه إلى حد كبير أن الشاطىء الآخر عربي مسلم. فالبحر الأحمر في الواقع بحر عربي كامل من كافة جوانبه.

ولكن سائر افريقيا، المفتوحة على المحيط الأطلنطي، الخاضعة أمواجه للغرب منذ مئات السنين، هوجمت من هذا الشاطىء المفتوح، وعبر بلاد ليس لها مقومات الكيانات الاجتماعية الراسخة العريقة، ثم نفذت الغزوات إلى ما وراء ذلك من قلب القارة المغلق إلا أمام طريق القوافل القديمة البدائية، فتآكلت فيه اللغة العربية.

وعندما تمت لأوروبا ـ في عصر النهضة ثم البحار وسيادة البحار... الخ، ـ السيطرة على افريقيا، حاربت عروبة هذه الشعوب التي كانت قد تعربت بالفعل وأخذت تجتث اللغة العربية اجتثاثاً من الأرض، صاعدة بذلك إلى الشمال، حتى حاولت ذلك على شاطىء البحر الأبيض نفسه. فحاولت «فرنسة» الجزائر مثلاً حتى كادت تقضي على اللغة العربية فيها تماماً، لولا اصطدامها بمقاومة عنيفة كانت قمتها ثورة هائلة خالدة جبارة دامت سبع سنوات، ومات فيها مليون شهيد، قبل أن تستقل الجزائر وتبدأ بنفسها رحلة التعريب من جديد.

وأذكر أنني عندما زرت تونس لأول مرة ـ بعد استقلالها مباشرة ـ أنني زرت منطقة السوق القديم جداً ـ «القصبة المغطاة الموجودة في كل بلد عربي قديم» ـ وهناك دخلت مباني قديمة جداً، وأنزلوني إلى سراديب تحت الأرض فيها، كانت تخزن فيها الكتب العربية القديمة سراً عن المحتلين وكأنها قنابل، وتعطى فيها دروس اللغة العربية سراً وكأنها عمليات انقلابية، إذ لم يكن ممكناً أن يتعاطى الشعب لغته، ويعلمها أبناءه، تحت سمع وبصر المحتلين.

وقد تراجعت موجة الغزو هذه أمام حركات الاستقلال العربية الحديثة، وعاد الشاطىء الافريقي كله إلى لغته العربية.

تحت هـذا الشاطىء، الصحـارى الكبرى ومـا يسمى جنوب الصحـراء، يوجـد حزام افريقي هائل يمتد من السنغال غرباً على المحيط الأطلـنـطي، إلى الصومـال شرقاً عـلى المحيط الهندي.

هذا الحزام الافريقي الضخم كان مسلماً وعـربياً، وقـد ظل معـظمه مسلماً ولكنـه فقد عروبته. فقد عروبته لأنه فقد لغته العربية، وكان عليه عبر القرون إما أن يعود إلى اللهجات القبائلية غـير المكتوبـة والتي لا تصلح لأن تكون لغـة حضارة، وإمـا أن يتعلم الانجليزيـة أو الفرنسية، أو الايطالية، في حالة الصومال، وصـار اسمها في القـواميس «افريقيـا الانجليزيـة وافريقيا الفرنسية». وما زال هذا هو حال معظمها إلى الآن، حتى بعد الاستقلال.

ما هو الاقتراح ببساطة؟

تـركيز الجهـود العربيـة، والمال العـربي المـطلوب، لإعـاد تعليم هـذه الشعـوب اللغـة العـربية، فقط لا غـير لاسترداد هـذه الشعوب لعـروبتها بـوسائـل حضاريـة، لا حربيـة ولا انقلابية!

ما معنى هذا لو تم؟

سيـاسياً، واسـتراتيجياً، سـوف يمتـد العمق العـربي، أتـومـاتيكيـاً من الشريط الضيق المحصور بين الشاطىء والصحراء، إلى أكثر من نصف القارة الافريقية كلها.

ولن أقول إن هذه ستكون اضافة هائلة إلى العـالم العربي، حتى لا يكـون القول وكـأنه محاولة ضم لدول قد تكـون لها اتجـاهات أخـرى. ولكن سأقـول إنه في أقـل القليل سيكـون حزاماً واقيـاً ضخماً، عـربياً، يحيط بجنـوب الأمة العـربية مهـما كانت تـوجهات تلك الـدول السياسية.

فعـودة تلك الشعوب إلى اللغـة العربيـة فحسب، سيجعلها أتـوماتيكيـاً وواقعيـاً تقـرأ الصحف العـربية، والكتب العـربية، وتسمـع الاذاعـات العـربيـة، وتـرسـل خـريجيهـا إلى الجامعات العربية.

هذا نشاط ثقافي مشروع ومقبول ولن يعترض عليه أحد، ولكنه في الوقت نفسه هـدف سياسي استراتيجي ضخم، يعيد رسم مجرى الأحداث لقرون مقبلة، في غير مجرياتها المنحرفة لقرون ماضية.

وما لا ندركه بعد أن العمل السياسي ليس فقط السيـاسة بمعنـاها المبـاشر، ولكن خلق حقائق ثقافية واجتماعية ومادية جديدة، هي أيضاً عمل سياسي، غير مباشر، نعم، ولكنه هو الذي يقوم بتشكيل السياسة بعد ذلك تلقائياً.

فهو بالتالي عمل سياسي بالمعنى الاستراتيجي البعيد المـدى، الحاسم الأثـر، العميق في النتيجة الذي يسمى في لغة العصر بـ «الاستراتيجية العليا».

لقد انكمشت انجلترا إلى جزيرتها الصغيرة والخمسة والخمسين مليون انجليزي، ولكن أهم ما بقي من الامبراطورية أن اللغة الانجليزية صارت اللغة الأولى في العالم، واللغة الأساسية لشعوب غير انجليزية على الاطلاق، كالهند حيث يفهم الهنود كلهم لغة واحدة مشتركة هي اللغة الانجليزية، ونصف افريقيا السوداء.

وبالتالي بقيت المدارس الانجليزية، والصحف الانجليزية هي الأقوى تأثيراً في العالم، واذاعة الـ B.B.C الانجليزية هي أكثر ما يرهف لها العالم سمعه، إلى آخره.

والآثار السياسية والاقتصادية والحضارية لهذا لا تحتاج إلى بيان، بعكس اللغة الالمانية مثلاً ـ التي تساويها كلغة حضارة وتتفوق عليها كلغة فلسفة ـ ولكن ليس لها هذا الوجود.

وعندما كان الانجليز في أوج امبراطوريتهم يقولون «لو اختارت انجلترا بين الهند وشكسبير لاختارت شكسبير!» لم يكن هذا كلاماً انشائياً. كان حقيقة وما زال حقيقة. ضاعت الهند ولم يضع شكسبير. انسحبت الجيوش وشجبت الأساطير ولم ينسحب شكسبير ولم يشجب.

نسأل العربي في أي مكان من الأرض: من شاعرك المفضل؟

فيرد عليك مثلاً: المتنبي! لا يفكر لحظة واحدة إذا كان المتنبي قد عاش في حلب أو جاء من أي قطر. وهذه حقيقة ليست أدبية، بل سياسية أيضاً.

وحين نضيف إلى هؤلاء مئات ملايين الافريقيين الذين يقولون يوماً: شاعرنا هو المتنبي، أو شوقي، أو امرؤ القيس.. فهذا تحول سياسي حضاري تاريخي خطير..

وقد كان من حظي أنني زرت كثيراً من هذه البلاد، وعرفت الناس فيها، من الزعماء الكبار والحكام... إلى باعة الفاكهة في الأسواق الفقيرة.. ووصلت إلى «تومبوكتو!».

وعرفت معرفة شخصية، الأشواق الهائلة لدى هذه الشعوب إلى اللغة العربية، وإلى العروبة، وإلى معرفة لغة دينهم.

كنت أسير في الأسواق فإذا عرف العامة أنني عربي قادم من مدينة الجامع الأزهر، أحاطوا بي، لا حفاوة فقط، بل تبركاً، يمسحون ثيابي ثم يمسحون وجوههم. فاللغة العربية ـ لأنها لغة دينهم ـ مقدسة، ومن يتكلمها كأنه من الأولياء الذين يتبركون بهم.

كنت أحياناً أهرب من الأسواق حين أشعر أن الرجال والنساء البسطاء يعاملونني وكأنني «ضريح متنقل»، لا ينقصهم إلّا أن يربطوا في عنقي وأطرافي أحجبتهم وأدعيتهم!

إذن؟

ليكن هذا المشروع مشروعاً خاصاً، محدداً، قائماً بذاته، هدفاً نصوّب إليه مجموعة جهود من زوايا مختلفة، تصل إلى اتجاه واحد.

لتكن هذه ساحة معركة حضارية، تمدينية، راقية ومحترمة ومقبولة نستطيع أن نخـوضها دون قتال ولا صراع ولكنها معركة تاريخية الأثر.

لتكن هـذه قضية يبـذل لها من المـال، نصف ما نبـذله من مـال على سـلاح للتكديس والتخزين ولن يكون له نفس الأثر.

لتكن جبهة لا يجد فيها العرب خلافاً بينهم، ولا انقساماً بـين صفوفهم، يحققـون فيها نتائج سوف تظلهم جميعاً بظلالها الوارفة الكثيفة، القريب منهم والبعيد.

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

١٤ ـ العبث بتراث سيد درويش الموسيقي!(*)

لا شك في أن ما تركه الموسيقار العبقري سيد درويش هو أعظم وأهم ما لدينا من تراث موسيقي حديث.

وقد كان سيد درويش عظيماً من حيث عبقريته الفنية البحتة، كما كان سيد درويش عظيماً من حيث ارتباط كل تراثه الموسيقي بأعمق نبضات الشعب المصري.

وبعد أن كان اللحن الجميل لا يرتبط إلا بالعشق والغرام وكل ما يمكن غناؤه في الصالونات الارستقراطية، فإن سيد درويش جاء بأعظم ألحان تمجد الناس العاديين وتغني مشاعرهم ومشاكلهم، رغم عدم وجود لا اذاعة ولا تليفزيون في ذلك الوقت.

ولا يوجد ملحن ومطرب غنى لكل فئات الشعب في أي بلد من البلاد كما غنى سيد درويش: لحن الشيالين، لحن الصنايعية، أغاني الفلاحين، حتى الحشاشين.. ومع ذلك فهي من أرقى الألحان.

هذا طبعاً غير ألحانه الوطنية مثل «بلادي بلادي» ومثل «قوم يا مصري.. مصر دايماً بتناديك» و «أنا المصري كريم العنصرين»، وأوبريتاته الكاملة التي لم تأخذ حظها من الإحياء حتى الآن. وقد مات كما هو معروف وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، تاركاً هذه الثروة الهائلة التي أنتجها في هذا العمر القصير.

والتراث كما هو معروف في كل العالم هو تراث، بمعنى أنه لا يجوز أن تمتد إليه يد بالتغيير والتعديل..

ولكنني لست أدري من الذي أمر، أو قرّر، أو سمح بالعبث بتراث سيد درويش

(*) الجمهورية، ١٩٨٢/٢/٤.

الموسيقي والغنائي.. عن طريق تغيير فقرات كاملة من أغانيه بفقرات جديدة وبطريقة هي غاية في السذاجة.

فمن أشهر أغانيه مثلاً، أغنية عن الفلاحين ومطلعها: «الحلوة ده قامت تعجن في الفجرية»..

وفي هذه الأغنية الخصبة الإيحاء بيت شعري يقول:

طلع الصباح فتاح يا عليم　　والجيب مفيش ولا مليم!!

فاستبدلوه ببيت يقول:

طلع الصباح فتاح يا عليم　　وكل الناس مزأطظين!!

وبيت يقول:

الصبر أمره طال　　وامشي بعد وقف الحال

استبدل ببيت يقول:

الصبر أمره طال　　وما فيش وقفة حال

وفي أغنية أخرى يقول:

ما تشد حيلك يا أبو صلاح　　اضربها صرمة تعيش مرتاح

فتغيّر بقدرة قادر إلى:

ما تشد حيلك يا أبو صلاح　　الدنيا حلوة جهاد وكفاح

وعن العمال يقول:

مين اليومين دول شاف تلطيم　　زي الصنايعية المظاليم

وقد تغيرت إلى:

مين اليومين دول شاف تكريم　　زي الصنايعية الشاطرين!!

ومن أغرب التغييرات، ذلك التغيير الذي لحق بأحد أشهر وأجمل أغاني سيد درويش التي مطلعها:

سالمة يا سلامة　　رحنا وجينا بالسلامة

وفيها يقول بلسان المصري العائد إلى بلده:

وقف يا وابور واربط عندك　　نزلني في البلد دي
بلا أمريكا بلا أوروبا　　ما في أحسن من بلدي

حتى هذا اللحن الجميل تغيّر إلى:

بـلا مـؤاخـذة يـا بـلديـنـا   مـا في أحـسـن مـن بـلدي!

والغريب أن هذه الجريمة الفنية لا يرتكبها مطرب فردي أو فرقة من شارع محمد علي، ولكن فرقة الموسيقى العربية، التي هي من أحسن ما يعتد المرء به من نشاطات فنية، والتابعة للمؤسسات الثقافية الرسمية للدولة.

هل سيغضب يا ترى العالم المهاجر، أن يقولها المصري عن بلده وبأنها عنده أحسن من أمريكا وأوروبا؟ أليس هذا شعوراً يحق لكل انسان من أي بلد أن يشعر بـه نحو بلده؟ ومن لا يحن إلى بلده إذا ابتعـد عنها أكثر من أي بلد آخر؟ ومن لا يجـد بلده أحلى البـلاد سـواء كانت في القطب الشمالي أو كانت على خط الاستواء؟.. هل ستؤثر الأغنية مثلاً عـلى سياسـة الانفتاح، أو ستؤثر على السياحة وتقلل دخل مصر من العملات الصعبة؟!

ومن هـذا الذي يستمـع إلى كـلام غنـاء سيـد درويش الـذي غنـاه من نصف قـرن، فيحاول أن يطبقه على الحاضر؟

وهل الأغاني الخالدة، صحف تصدر كل يوم بأحدث الأخبار؟

إن «فيكتور هوجو» شاعر فرنسا الخالـد له روايـة خالـدة هي «البؤساء»، فهـل يتصور أحد أنها لا تصف الحال في فرنسا اليوم فيتم تحويرها أو ربما سميت «التعساء»؟

هل يمكن أن يتصور أحد أن روايات «تشـارلز ديكنـز» التي يقرأهـا كل جيـل إلى الآن وهي تصف بؤس حياة الطبقـات الفقيرة في بـدء عصر الثورة الصنـاعية، يمكن أن تتغـير لأن لندن الآن غير لندن شارلز ديكنز تماماً!

أي أن يتغـير «المـارش الجنـائـزي» لبيتهـوفن إلى مـارش مفـرح، بعـد معجـزة المـانيـا الاقتصادية!!

إنني أذكر مهرجاناً غنائياً أقيم في القـاهرة منـذ عشرة أو خمسة عشر عـاماً وقـدم يوسف وهبي الـذي كان قـد اعتزل التمثيـل المسرحي قبل ذلـك بكثـير مسرحيـة شكسبـير الشهـيرة «عطيل».

وذهبت لأرى يـوسف وهبي على المسرح يؤدي تمثيله العـظيم الذي طـالما حثنـا آبـاؤنـا عليه، وكان ليلتها بالفعل ممثلاً فذاً عظيماً.

ولكن مسرحيـة «عطيـل» في النص الأصلي تستبعـد منها أن ينـزلق عطيـل تحت تـأثـير أكاذيب «باجو» إلى أن يقتل زوجته المخلصة «ديـدمونـة». أما بـاجو فيهـرب قبل أن ينكشـف أمره.

إلّا أن ما رأيناه على مسرح الأوبرا كان شيئاً آخر. فقد تمكن عـطيل، يـوسف وهبي،

من القبض على «باجو» وقتله خنقاً بيديه، في مشهد مثير وهو يضغط على عنقه والآخر يطلق حشرجات الموت، وصفق الناس تصفيقاً طويلاً.

وكنا شباباً وغضبنا غضباً شديداً.

إن المتفرج المصري يجب أن يخرج من أي رواية مستريحاً بالقضاء على الشر. وهذا ما توجه إليه يوسف وهبي في تغييره لنهاية مسرحية شكسبير.

ولكن شكسبير أيضاً لم يكن غبياً، وهو قد ترك «باجو» يفلت بحياته في نهاية المسرحية ليقول للناس: إن الشر ما زال موجوداً وان الشر أكثر قدرة على البقاء من الخير.

إنه يخرج جمهوره قلقاً، ولكنه القلق المنبه، القلق الذي يوقظ الذهن، إنه لا يريد جمهوره أن يخرج على الدوام مستريحاً مسترخياً وينام سعيداً. إنه لم يؤلف روايته لتكون بديلاً لأقراص الفاليوم.

ولكن هذا كان يوسف وهبي، وذلك كان مسرحه، ويمكن نقده طبعاً، ولكن قد لا يمكن منعه.

أما أن تقوم بهذا الاعتداء على تراث سيد درويش فرقة عظيمة لها مكانة، لها مسرح أقامته الدولة خصيصاً، وتتبع المؤسسات الفنية الرسمية، ويسجل هذا على اسطوانات وشرائط ويذاع وتعاد اذاعته حتى يمحو جديد الفرقة تراث سيد درويش من الأذهان. فهذا هو اللامعقول حقاً!!

إنني أفهم أن الأغنية إذا كانت محل اعتراض أن لا تغنيها الفرقة ولكن أن تغنيها مع التحوير والتغيير والعبث بها... فلماذا!!

لماذا هذه الفضيحة الفنية، والعلمية، والوطنية؟!

وإلى متى سوف تتكرر حتى تصبح محل سخرية وتندر الناس جميعاً في كل بلد سمع أغاني سيد درويش واهتز لها؟

لبن الأمهات

قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة «المغلوب مولع بتقليد الغالب»، ومعناها الأوسع طبعاً أن الضعيف مولع بتقليد القوي.

فنحن مثلاً نرى أن التحضر هو في تقليد الغرب في ثيابه وملابسه وطعامه وشرابه وتقاليده، دون أن نتساءل عن مدى سلامتها أو عن مناسبتها لنا.

ومنذ شهور وهناك معركة غريبة تدور في العالم الغربي، وفي الولايات المتحدة بوجه خاص..

فبعد دراسات طبية مفصلة، ومؤتمرات عديدة للأطباء وخبراء التغذية، توصلوا إلى

قرار هام، وهو أن الطفل يجب أن يتغذى بعد ولادته بالرضاعة من لبن الأم، إذ ظهر أن لبن الأمهات فيه خصائص معينة هامة جداً لصحة الطفل، لحمايته من الكثير من نواحي الضعف في بقية حياته، وأنه معقّم بالطبيعة. .

وهاجموا بشدة كل صناعات الألبان المختلفة التي تعد للأطفال والزجاجات وسائر الأدوات التي تستخدم في تغذيته بها، وطالبوا بتحريم تداولها في الأسواق، أو في التقليل من تعاطيها كالسجائر، يكتب عليها أن هذه ليست طريقة صحية مفيدة، ولكن أنصح للطفل أن يتغذى بالرضاعة من لبن الأم بحد أدنى هو كذا أسبوع.

وقد أدى ذلك إلى معركة عنيفة مع اتحادات انتاج هذه الألبان التي يزداد استعمالها تحت تأثير الاعلانات الجذابة والصور المغرية ووسائل التسويق الحديثة، بما فيها امداد بعض المستشفيات بها مجاناً. فإذا بدأ الطفل بها بعد ولادته، اعتاد عليها حتى بعد أن تترك الأم مستشفى الولادة.

وأخيراً يبدو أن الأطباء والخبراء كسبوا المعركة في أمريكا ضد شركات الألبان الضخمة، ولكن شركات الألبان لن تقدم طبعاً على اغلاق مصانعها وايقاف تجارتها، وقد ظهر أنها في الولايات المتحدة وحدها تصدر إلى دول العالم الثالث ما يساوي ألفين من ملايين الدولارات.

ونجحوا بالضغط على الدولة في اقناعها بأن يستمروا في تصدير هذه الكميات إلى العالم الثالث حيث لا يعرف الناس هذه الحقيقة، وحيث يتأثرون أكثر بالدعايات المغرية، وبتقليد البلاد المتحضرة، فتسرع الأمهات إلى الظهور بمظهر الناس «الشيك» عن طريق العزوف عن إرضاع أطفالهن والاعتماد على الأغذية الصناعية.

والغريب أن الأطباء في تقاريرهم نادوا بتحريم ارسال هذه الأغذية الصناعية إلى بلدان العالم الثالث بالذات، حيث لا تتوفر في البيئات المتأخرة نفس ضمانات النظافة والتعقيم وعادات الرقابة الموجودة في العالم المتقدم.

ولكن الدولة قررت غير ذلك، قررت السكوت على هذا الأمر والاستمرار في تصدير الألبان وتشجيع العزوف عن لبن الأمهات، حيث ان هذا يفيد الدول المنتجة اقتصادياً، خصوصاً أن أوروبا وأمريكا تعانيان من كثرة انتاج الألبان وتوفر كل مشتقاتها من الجبن والزبدة، الأمر الذي يخفض أسعارها هناك!!

فما رأي الأمهات في بلادنا!

وما رأي وزارة الصحة العامة في بلادنا!

١٥ ـ عصر الفيديوقراطية(*)

وقعت عيني ـ فيما أقرأ ـ على كلمة عابرة، استوقفتني إذ كانت أول مرة أراها وهي كلمة: الفيديوقراطية!

وأظن أنها، وإن لم أرها ثانية، تستحق أن تكون كلمة جديدة تضاف إلى القاموس السياسي والاجتماعي لهذا العصر.

فنحن نعرف ـ مثلاً (السيوقراطية) التي هي حكم رجال الدين.

ونعرف (الاوتقراطية) التي هي حكم الاستبداد.

ونعرف (الارستقراطية) التي هي حكم الطبقات الثرية.

ونعرف (الديمقراطية) التي هي حكم الشعب.

ومن نفس الباب يمكن أن نضيف كلمة (الفيديوقراطية).

إنها حرفياً، تنتسب إلى (الفيديو) وتأثيره على الناس، وشغله لهم بل وتحكمه في حياتهم.

ولكنها في الاستعمال الأوسع تشمل كل الآلات والأجهزة الاليكترونية المشابهة لها، والتي هي من عائلة الفيديو. . من التليفزيون إلى الكمبيوتر.

فالمجتمع الانساني عبر تاريخه الطويل عرف عدة (وسائل للاتصال)، ولا شك أن أسلوب الاتصال في المجتمع يؤثر في حياته تأثيراً جذرياً.

أول اتصال بين الناس كان: الكلام. ثم جاءت الكتابة لتوسع دائرة الاتصال لأن

(*) الجمهورية، ١٩٨٢/٢/١٠.

الكتابة يمكن أن تصل إلى مسافات أوسع. ثم اخترعت الطباعة لتضاعف نسبة الاتصال والتخاطب بين الناس بالملايين.

ثم حدثت ثورة في وسائل الاتصال التي ظهرت مع الثورة الصناعية وعصر الاجتماعات عندما اكتشف الانسان وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية، البرق والتليفون والاذاعة والتليفزيون.. وكانت قدرة أكبر إذ إنها غطت بشبكاتها السلكية واللاسلكية كل أنحاء الكرة الأرضية.

وصار الاتصال يمكن أن يكون مباشرة مع أقصى أنحاء الأرض: بالتليفون المباشر، وباللاسلكي، وصار العالم حقاً (قرية صغيرة). وأثر هذا الاتصال في حياة الناس وعلاقاتهم وتجارتهم وسياستهم ومعلوماتهم العامة إلى آخر الحدود.

ونحن الآن - أقصد العالم، وليس نحن تماماً - في عصر يسمى: عصر ما بعد الثورة الصناعية. ولهذا العصر ملامح كثيرة، ولكن يهمنا منها هنا ما هو متصل بالثورة في وسائل الاتصال التي هي في رأي معظم المفكرين أهم جوانب هذا العصر الجديد، خصوصاً في المستقبل القريب جداً.

لقد ظهر التليغراف - أو البرق - لأول مرة منذ ١٢٧ سنة فقط. وفي هذا الوقت تضاعفت وسائل الاتصال في سرعتها وفي تنوعها، ولكن الجديد الأخير هو: أنه أمكن ادماج التليفون، والكمبيوتر، وشاشة التليفزيون، والمكرويف، والأقمار والصناعية، والخطوط السلكية، كلها في عملية واحدة متشابكة متشابهة متكاملة، وإن كانت تخرج منها عشرات الأنواع من الاتصال ونقل المعلومات والتأثير في حياتنا إلى درجة غير معقولة.

فتجميع المعلومات بالملايين في ذاكرة الكمبيوتر لاستخدامها عند الحاجة.. وبنوك المعلومات التي تختزن كل ما يتصل بشيء أو بموضوع، والسرعة الهائلة لاسترجاع هذه المعلومات والبيانات بالضغط على بضعة أزرار، والسرعة الأكبر التي يتم بها نقل هذه المعلومات المطلوبة إلى شاشة تليفزيون في أقصى أنحاء الأرض، جعلت كل المعرفة الانسانية الجديدة، عند أطراف الأصابع في أي مكان.

ولست خبيراً في هذه الآلات، ولا أعرف حتى تشغيل الفيديو في البيت، لأنني من جيل لم يولد مع هذه الآلات.

وانني أذكر قصة تتصل بآلة أبسط بكثير، وهي الآلة الكاتبة. فقد كنا نحسد الصحفيين الأجانب الذين نراهم في تغطية الأحداث الكبرى، يحملون الآلات الكاتبة ويكتبون رسائلهم مباشرة بها، أو يجلسون إلى جهاز التلكس المعد خصيصاً في أروقة الأمم المتحدة مثلاً ويرسلون رسائلهم مباشرة، في حين أن الواحد منا لا يستطيع أن يرتب أفكاره إلّا إذا كان يكتب بالقلم.

وكنت عضواً في مجلس ادارة أخبار اليوم عندما اشترينا مائة آلة كاتبة، ووضعناها في صالات التحرير، وقررنا علاوة ضخمة لكل محرر يتعلم الآلة الكاتبة ويقدم المواد مكتوبة

بها، لأن ذلك يحفظ الوقت، ويقلل أخطاء الطباعة، ويوفر المال، في اعادة جمع مواد الجريدة. ولكن أحداً لم يكمل التجربة وحتى الآن تذهب أوراقنا إلى الصحف بخطوطنا السريعة الركيكة.

ولكنني أضرب أمثلة على ما أراه ولا أفهمه من مظاهر تلك الثورة الفيديوقراطية.

فأنت الآن تستطيع أن تشتري جهازاً فيه شاشة تليفزيون وآلة كاتبة معاً. ولعلك رأيته في شركات الطيران حين تدق الموظفة عدة دقات فتظهر لها على الشاشة كل المعلومات الخاصة بك إذا كنت قد سبق وحجزت، حتى ولو كنت في مدينة أخرى ومكتب آخر لنفس الشركة، أو تدق أرقاماً فيصبح أمامها لوحة تقول لها بالضبط هل يوجد لك مقعد على الرحلة رقم كذا، على طائرة كذا، في شركة كذا، وكيت. . .

في المنزل تستطيع أن تشتري جهازاً مشابهاً وباشتراك معين، تصبح على صلة بالدنيا في أي لحظة، تطلب أسعار البورصة في نيويورك فتراها على الشاشة، أو المسرحيات المعروضة في لندن، أو نشرة الأخبار الأخيرة أو الجو غداً، وتتخذ قرارك وأنت في بيتك، وتستطيع أن تخزن فيه أي معلومات تشاء.

لي صديق في الكويت لديه جهاز مشابه، خزن فيه كل المعلومات التي يريد أن يحفظها في ذاكرته أو في محفظة أوراقه، تواريخ أعياد ميلاد عائلته، أرقام بوالص التأمين، أرقام السيارة وحساباته في البنوك، الأقساط المستحقة عليه لكذا وكيت، مواعيد المؤتمرات والاجتماعات المرتبط بها.

وكل صباح بدقات بسيطة يعرف ما عليه غداً أو بعد غد بالضبط! ويريح رأسه من التذكر وجيوبه ومكتبه من الأوراق المتناثرة.

وقد أطلق كاتب انجليزي على هذا المجتمع مرة اسم مجتمع الـ See Through اقتباساً من إحدى تقاليع الموضة حين ظهرت فساتين بهذا الاسم، وأقرب ترجمة لها أنها (شفافة) أي تستطيع أن ترى خلالها.

وقد اختار هذا التعبير بالنسبة لعلاقة الدولة بالأفراد، فهذه الأجهزة لدى الدولة، ومن خلال تخزين آلاف المعلومات عن الأفراد، صارت تملك أن ترى الفرد عارياً، من خلال ثوب صار شفافاً، فهي تعرف دقائق صورتك وبصماتك وعدد زوجاتك وأولادك، وايرادك وحسابك في البنك، والديون التي عليك، وكل ما يخطر على البال.

انهدمت إذن جدران البيت الذي كانت له حرمة وكان يسمى (حصن المواطن) وهذه سطوة للدولة على الأفراد هائلة، بل كاسحة، بل إنها تلغي كل نصوص الدساتير التي تنص على حقوق الأفراد وحرمة خصوصياتهم ومنازلهم وعلاقاتهم فيما لا يمس أمن البلاد.

إنهم يسمونها أيضاً الثورة المعلوماتية أو ثورة المعلومات Informatic، لأن الباحث لو كان في مركز مسلح بالأجهزة، يستطيع أن يطلب كافة المعلومات عن موضوع معين أو اسم

شخص يتعرض له في الدراسة، ويستحضر كل هذا في ثوان قليلة، بدلاً من تقليب الكتب والبحث عنها، هذا إذا وجدت.

وقد جاء التليفزيون فعلاً ليحبس الناس في البيوت ويسحبهم من دور السينما والملاهي.

واستخدم الساسة والحكام التليفزيون في تكوين الذوق العام والرأي العام بشكل لم يسبق له مثيل، ولا يمكن أن تفلح في وجهه أي معارضة.

ثم جاء الفيديو ليزداد تحكماً في حياة الناس، فهناك أشرطة الفيديو تشتريها أو تستأجرها لترى منها ما تشاء، وظهرت أجهزة تسجل لك برنامجاً على التليفزيون وأنت ترى برنامجاً آخر، أو تسجل لك برنامجاً وأنت غائب عن المنزل... الخ.

وفي دراسة نشرت عن مؤتمر لرجال شركات الطيران أن انتشار التليفزيون السلكي سيجعل مديري فروع الشركات في العالم قادرين على الاجتماع وعقد الصفقات واتخاذ القرارات دون أن يبرحوا مكاتبهم وأن هذا سوف يؤثر على حركة الطيران مستقبلاً، لأن ثلث راكبي الطائرات هم رجال أعمال يسافرون لإنجاز مهمات سوف يكون في مقدورهم انجازها وهم في مكاتبهم.

نحن إذن وبحق في عصر (الفيديوقراطية) اجمالاً لكل الأمور السالفة، وعصر لثورة المعلومات، وهذه الفيديوقراطية ستوجد علاقات اجتماعية وانسانية واقتصادية جديدة.

والبلاد الصناعية الآن تستعد للتخلي لدول أقل منها تقدماً عن صناعات صارت عادية كبناء السفن والسيارات، وتتجه إلى التخصص في هذه العلوم والصناعات الاليكترونية التي تحتاج إلى خبرات عالية جداً ومصانع دقيقة جداً لن يلحق بها الآخرون إلّا بعد زمن. وهذا أثر سياسي اقتصادي آخر على حياة العالم.

والقوة التي تملكها الدولة بتركز بعض هذه الوسائل في يدها يجعلها أقوى ازاء الفرد بكثير وتجعل قلب الدولة متصلاً بأطرافها بصورة لم يسبق لها مثيل، وبسطوة لا تعرف حدوداً.

ويبدو أننا قبل أن نصل في بلادنا إلى عصر (الديمقراطية) سنجد أنفسنا أسرى في قيود عصر (الفيديوقراطية).

١٦ - بين الإيمان . . والتعصب(*)

التعصب ربما كان مصدر أكثر الشرور في حياة العالم، زماناً ومكاناً. والتعصب غير الايمان وغير التمسك بالرأي، يختلف عنها في أنه يقترن بضيق الأفق. وشتان بين اقتناع عميق، ثابت، فهو بالتالي مطمئن إلى نفسه، وبالتالي قادر على أن يرى الآفاق الأخرى ويفهم أسبابها، وبين اقتناع تحده أربعة جدران صماء، لا يحس إلاّ نفسه ولا يرى إلا نفسه، ويعتقد أن هذه الجدران الأربعة هي حدود الدنيا.

الإيمان اطمئنان وشجاعة، ولكن التعصب، ليس ايماناً متطرفاً، ولكنه بالعكس ايمان قلق، وبالتالي فهو غير شجاع فيه خشية داخلية عميقة من أن ينكسر عند أول مواجهة مع حقيقة أخرى أو أن يموت إذا لفحته هبة هواء واحدة.

والانسان عرف كل أنواع التعصب: تعصب العرق، والجنس، واللون، والقومية والدين، والمذهب المختلف داخل الدين الواحد.

وأكبر مصدر للتعصب هو الجهل، وعدم الاستعداد للمعرفة، فأنا إذا وضعت نفسي مكانك، فقد لا أقتنع برأيك ولا أوافق على سلوكك، ولكنني بالتأكيد سوف أفهم موقفك وبواعثك وكيف يمكن التعامل معها، وتطويرها والعكس صحيح بالطبع.

ولكن هذا الحوار لا يمكن أن يدور بين اثنين يحكمهما، أو يحكم أحدهما الخوف من معرفة حقيقة أخرى، وتفضيل الجهل المريح على المعرفة المرهقة.

﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾(١) . . .

(*) المساء، ١٩٨٢/٢/٢٦.

(*) القرآن الكريم، «سورة النحل،» الآية ١٢٥.

مسألة لا يقدر عليها، ولا يصبر ويصابر دونها، إلّا من توفرت له صفات المعرفة والعلم وطمأنينة الايمان وعدم الخشية على هذا الايمان في المواجهة، والمقارعة، وتحكيم العقل الذي ميّز به الله الانسان عن سائر مخلوقاته، وجعله لهذا العقل، خليفة له في الأرض - وخصه، لهذا العقل، بالعقاب والثواب، لأنه لا يمكن انزال العقاب أو إجزال الثواب للحيوان والمخلوقات التي لا تعقل.

لو فهمنا معنى التعصب ولو عرفنا كيف نواجهه بالإيمان، لاختفت من حياتنا مشاكل عميقة ولاقتلعناها من الجذور.

الفَصْل السَّادِسْ

المَــــرْأة

متى يقود الأمة أصحاب الفكر المستنير؟!

فاطمة حسين(*)

كيف يمكن للثورة.. للزوبعة الفكرية أن تلبس السكينة والهدوء والتؤدة.

إنه «الميزان» الذي نقله الصدوق الصديق أحمد بهاء الدين، من دراسته للقانون إلى مهنته في الصحافة.

لا أظن أن بين العرب الإخوة الأشقاء منهم والأعداء - أشقاء الواقع وأعداء الحقيقة - من ينكر أن أحمد بهاء الدين في تاريخ الصحافة هو ذاك المغمض العينين عن المرارة، يحمل الميزان، ويتصدر، بل ويتصدى لكل فكر مطروح شفاهة أو كتابة، يميناً اتجه أو يساراً.

لقد استدل على نبع العسل مبكراً، فأغمض عينيه عن مرارة الواقع، مما جعل من ذلك سداً منيعاً.. إنها الثورة السلبية أمام الغضب وأمام الإحباط ! وظل ينسج وينسج بفكره وقلمه الأمل للأمة العربية، فعبر بفكره ومساهماته كل مجالات حياتها، سياسية واقتصادية، تربوية وصحية، ولأنه كاتب اجتماعي عُني بقضايا المجتمع كافة، ولأنه مواطن ما عرف الأنانية التي تقود صاحبها إلى الفردية، فانتشر بين الناس جميعهم، يخاطبهم كلاً على حدة، ولكنه يجمعهم بشخصه هو، وقلمه هو، لمواجهة واقع، هم جميعاً شركاء فيه.

يعرف القارىء أن قلّة في وطننا العربي هم الذين استطاعوا أن يجمعوا بين جودة الكتابة والحس الصحفي، و«بهاء» هو أحد هؤلاء القلّة الذين مارسوا المهنة وأعطوها والقارىء غذاءً دسماً من الاهتمام الجاد، بدءاً من انتقاء الموضوع، وسبر أغواره، حتى يصل إلى مرسى موسيقاه التصويرية عندما يردده الناس.

ومجلة «صباح الخير» وحدها تعتبر إضافة جديدة وجادة ومميزة للصحافة العربية، وهو أحد جنودها المجهولين والمعروفين - وكان انتقاله - من خلالها - بعطائه بين البسيط والساذج حتى يصل به إلى العميق والجاد تعبيراً عن ذات لها من قوة العلم والموهبة ما لا يتحقق لكثيرين.

(*) رئيسة تحرير مجلة سمر الكويتية.

وهو لم يقف، ولم يتوقف، بل لم يتردد أبداً في التعبير عن ردود فعله تجاه الأحداث من حوله بالكلمة.. بالجملة.. بالمقالة القصيرة.. بالدراسة والمقالة الطويلة.

يقول كل ما يجب أن يقال، في المكان الذي يجب أن يقال فيه، في الموضوع والزمن الذي يحق للعالم أن يسمع فيه القول دون انتظار لمباركة أو غضب.

قرأت أيها القارىء العزيز ـ مثلما تقرأ أنت اليوم ـ أحمد بهاء الدين، ولا أتمنى أن أنقل إليك في هذه المقدمة غير انطباعي الشخصي الذاتي لما قرأت، حتى لا أسحب منك المتعة والاستمتاع باللاحق من قول هذا الرجل العظيم.

وقراءة «بهاء» يجب أن تتعدى لقاء النظر بالحروف والجمل والصفحات ـ وما أصعب الوجوب هنا ـ لكنه الواجب حقاً حتى يتمكن الإنسان منا أن يقرأ «بهاء» بكل ذاتيته فلا يكفي أن نعرف عنه، بل نعرفه ونتعرف على سرّ الركون لفكره في وجدان هذه الأمة واستقراره فيها.

لقد قاده فكره الثاقب للتعرف علينا بعمق شديد فسطرنا بحروفه التي تناثرت بين صباح الخير وروز اليوسف والمصور والعربي، ومواقع أخرى لا تقدر ولا تحصى، فقرأنا أنفسنا.

أقرأنا «أحمد بهاء الدين» تاريخنا، وأقرأنا «اكروبات» فكرنا السياسي، وأقرأنا همومنا الاجتماعية.

وعندما يتطرق مفكر مثل «أحمد بهاء الدين» إلى الهموم الاجتماعية فإنه يخلع ذات الثوب ـ ثوب المجاملة ـ الذي يخلعه أمام الهم السياسي، ويقودنا عنوة للتفكير الجاد بما نعترف به من هم وما ننكر، ما نواجه من مشاكل وما نعرض عنه، ما نرى بأم أعيننا وما نغفل.. كل ذلك بتوازن عجيب بين حقوق المرأة وحقوق الرجل، دون ذرة من تمييز لاحدهما على الآخر.

صعب عليّ وأنا أسطّر هذه الكلمات مقدمة لفكره الاجتماعي الأسري أن أفصل هذا عن ثلاثة مواقع: **فكره السياسي؛ فكره التنموي؛ علاقتي الشخصية به.**

١ ـ فكره السياسي

أنا لا أرى كبير انفصام بين فكر الإنسان السياسي وفكره الاجتماعي، بل أرى أنها العروة الوثقى تحكم الاثنين، إذ من غير المعقول ولا المقبول أبداً أن يكون المؤمن بالنظام الديمقراطي، والمنادي باحترام الاختلاف بالرأي أن يقبل قهر المرأة في بيتها! في ساحة عملها! أو في أي موقع آخر تختاره هي بكامل إرادتها.

والمرأة في بيتها وبيت رجلها هي الرأي الآخر، ومن لا يرضى بالرأي الآخر، ولا يساهم في تنميته، يعاني خللاً في قواه الفكرية السياسية، وازدواجاً في القيم بين الظاهر والخافي.

ولما كان «بهاء» نموذجاً صارخاً لقولي، لهذا أتمنى على كل كاتب سياسي ذي فكر مستنير أن يكتب في القضايا الاجتماعية، والعلاقة بين المرأة والرجل كصديقين أو عاشقين أو زوجين ونتاج هذه العلاقة.

إن الانفتاح على الفكر التقدمي ـ وهذا جلّ ما تحتاجه مجتمعاتنا ـ يبدأ بالسياسة وينتهي بالاجتماع، أو يبدأ بالاجتماع وينتهي بالسياسة كعروة وثقى، لأن الفكر لا يتجزأ، ينمو نعم... ولكنه لا ينشطر، إلا من أجل مكاسب ذات أثر وقتي، ترفّع أحمد بهاء الدين عنها، وهكذا غاص في العلاقات الاجتماعية كغوصه في عالم السياسة.

٢ ـ فكره التنموي

لقد كان إيمان «بهاء» بالنمو والتنمية إيماناً صادقاً عميقاً، وقد كان يمارس ذلك على المستوى الفردي والمؤسسي، لذلك قلت في مقدمة قولي: إنني ما قابلت كاتباً صحفياً إلاّ قلّة قليلة ـ اعذروني ـ لكنه رسم معالم مدرسة بهائية. قلّة هم تلامذتها.. لكنها قلّة ذات فاعلية عظيمة، لقد شغل نفسه بنموه ونضجه الذاتي، إذ كان شغوفاً بالإطلاع على فكر الغير، وشغلها أيضاً بتنمية اتجاهه حيث عشق الكاتب والصحفي وقدمه غذاء للكثيرين من تلامذته المباشرين وغير المباشرين.

٣ ـ علاقتي الشخصية به

عرفت قلمه وقرأت له سنوات وسنوات حتى جاء إلى الكويت رئيساً لتحرير مجلة العربي، حينها عرفته عن قرب.. هذا الضئيل الجسم، المنخفض الصوت، الهادىء الطبع، الذي يتحرك ببطء شديد، يتحول عبر اطروحاته إلى عملاق يثير زوبعة فكرية تتعالى الأصوات عبرها بالمنطق فقط.. وتلك الذاكرة الأرشيفية، التي نفتقدها اليوم وتقضم قلوبنا حسرة عليها.

وبدأت دعوته لي للكتابة.. هكذا.. دون مقدمات... ما قرأ لي إلا شذرات تقرب كثيراً من البساطة المتناهية.

بدأت الدعوة بالمجاملة: «اكتبي ما تقولين... قولك هذا يمكن أن يتحول إلى مقال».

وأشكو له: «لقد سمعت كلامك وكتبت ولكنني غير معجبة به كقارئة».

- «مهمتك الكتابة فقط.. اتركي القراءة والحكم لي».
- «ولكنني أكتب واشطب واكتب واشطب».
- «لا تقرأي ما تكتبين».
- «ماذا تريدني ان اكتب.. ربما بالتكليف استطيع أن أحدد مساراً».
- «أنت تسافرين كثيراً، اكتبي عن رحلاتك».

ما جذبتني الفكرة، فقلت له: «سأكتب لك قصة قصيرة». وكانت أول قصة قصيرة أكتبها في حياتي. وعلق «بهاء» وسامه على صدري فنشرها في مجلة العربي، شهر آذار/ مارس ١٩٨٠ م. وسرت النشوة في كياني فكتبت أخرى... وأيضاً نشرها.

وكانت بداية ونهاية علاقتي بالقصة القصيرة.. واتجهت إلى المقال لأنني أستطيع أن أحمله الكثير مما أريده أن يحمل، وأستطيع أن أتحكم بطوله والقصر حسبما يتدفق في وجداني من قول، أجد في نفسي الشجاعة للإفصاح عنه..

لقد حاصرني بعض من الأصدقاء من أجل أن أمسك بالقلم.. «أحمد بهاء الدين».. كان أحدهم..

أتمنى أن يعرف أن الهاربة من القلم، تلك التي لاحقها بدعوته.. بمجاملته.. بإلحاحه أصبحت رئيسة تحرير لمجلة تحاول أن تحمل الكثير من توازن أحمد بهاء الدين.

لقد كان المردود الوحيد الذي ينتظره بهاء الدين دائماً ـ وأنا أحد الشهود على ذلك ـ هو تفاعل الناس مع ما يقدمه من فكر.

وكثيراً ما نصاب بالصدمة أو ربما الصاعقة عندما نلتقي بكاتب نعشق فكره الذي يحمله لنا حبر الأوراق من صحيفة أو مجلة أو كتاب، هذه الصدمة تأتي لتمثل مساحة الاندهاش الذي يصيبنا ونحن نقارن بين الصورة المرسومة في الأذهان والواقع الذي نجد أنفسنا ضمن دائرته المحكمة الاغلاق.

لكن أحمد بهاء الدين يتسرب إلى اهتمامك به شخصياً بذات الأسلوب الذي يتسرب إليك قلمه، ذاك القلم المتخم بألوان الفكر، بسيطة إلى حد السذاجة، وعميقة إلى حد التعقيد، لكنه الدرب السهل اليسير، هو ذاته الدرب الذي يسلكه السهل والصعب، فالأول يأخذ منه قيمته الاجتماعية، والثاني يأخذ منه حلاوة اليسر. هكذا نجد التفاوت في الأعمار والأذواق والاهتمامات تلتقي جميعها في باقة متابعة واعجاب لما يقدمه أحمد بهاء الدين وأينما يكون.

بالكثير من القهر نشعر ونحن نقرأ في التسعينيات ما سطّره قلم أحمد بهاء الدين في الستينيات والسبعينيات، لقد كان يخز الضمير ويضع القواعد لصحو الوعي.. لقد منحه رب العالمين مقدرة فائقة للتعرف على الواقع بكل دقائقه واستشفاف المستقبل، مقدرة قرنها ـ هو ـ بعلم غزير، ولهذا كان تحول حبر قلمه، كما كان تحول لسانه إلى مشعل صغير يضيء الطريق للملايين حماية لهم من الضلال.

ولكن هل اهتدت تلك الملايين؟ أم نظرت لكل ما كتب على انه فيض الخاطر؟

اليوم.. ونحن في التسعينيات وقد سئمنا قيادة المال والقوة العسكرية، وما جاء هذا السأم إلا من ضلال وضياع نشعر به نحن جيل العروبة ذوي الدماء النابضة بحب الوطن، اليوم... عندما نراجع ما خطّه ذاك القلم، نعجب من غفلتنا ونتساءل: متى يمكن أن يهيأ لأصحاب الفكر المستنير أن يقودوا هذه الأمة؟

نَمَاذِجُ مختَارَة مِنَ المقَالات

١ ـ زوج مارلين مونرو(*)

عرضت الراقصة ايزادورا ـ سيدة راقصات عصرها ـ يوماً على برنارد شو الزواج! وقالت له: سوف ننجب أطفالاً لا نظير لهم! اطفالاً يأخذون منك العقل.. ومني الجمال!

وردّ برنارد شو عليها برده السافر الشهير: وماذا يكون الموقف إذا ورث أولادنا جمالي.. وعقلك؟!

والظاهر أن مارلين مونرو قد أفلحت في عقد الصفقة التي طافت بحلم ايزادورا.. فقد أعلن هذا الأسبوع انها ستتزوج الكاتب آرثر ميلر.. وأن آرثر ميلر قد رضي بترك أولاده، وزوجته التي زاملته أربع عشرة سنة، من أجل نجمة الاغراء؟

وقد سبقت ذلك أنباء قرأها الناس على سبيل الفكاهة، أو على أنها نوع من الدعاية! أنباء تقول إن مارلين مونرو قد كرهت هوليوود وأضواء هوليوود وتفاهة الناس الذين يعملون في هوليوود.. وانها ذهبت إلى نيويورك حيث تريد أن تعيش في أوساط المثقفين!

أممكن هذا؟

أيمكن أن يقع هذا التطور لمن كانت مثل مارلين مونرو، لا تقدم للناس بضاعة من الفن، بقدر ما تقدم لهم جسداً يتفنن المخرجون في ابرازه، وتعريته، وتقديمه للناس.

نعم.. ممكن!

لقد كانت أول حقيقة تعلمتها مارلين مونرو في الوجود هي أنها جميلة! وكانت الحقيقة الثانية هي: أنها يجب أن ترتزق بهذا الجمال. ومنذ أشرق شبابها وهي تتعرى أمام الناس.. وقفت وجلست ونامت في آلاف الأوضاع، حتى أنهكها التعب!

(*) صباح الخير (٥ تموز/ يوليو ١٩٥٦).

ولعلها انتبهت يوماً إلى أنها تعامل في القرن العشرين كما كان الناس يعاملون الرقيق منذ قرون!

المنتجون والمخرجون هم النخاسون وتجار الرقيق الذين يدللون على جمالها! والجمهور هو السيد، المشتري، الذي يدفع ثمن التذكرة ليجلس أمامها ساعة وهي تتثنى وتتعرى، وتكشف له ظهرها، ثم صدرها، ثم ساقيها. . ثم ترتدي ثيابها وتمضي!

ولعلها انتبهت إلى أنها لن تساوي شيئاً لو التوت ساقها، أو تقدم عمرها، أو لو ظهرت واحدة فقط أجمل منها!

والمؤكد أن مارلين مونرو لم تحب في حياتها مرة واحدة! ولم يحبها رجل واحد قط! . . آلاف من الرجال طاردوها، لأنها كانت تثير شهيتهم فحسب. آلاف من الرجال قالوا لها إنهم يحبونها، وهم لا يحبونها حقاً. . انهم يحبون فيها شيئاً واحداً يريدون شراءه واقتناءه والاستمتاع به فحسب، ولكنهم لا يحبونها كلها. . بجسدها وروحها ومزاجها وعيوبها وكل شيء فيها. . لم يحبها رجل واحد بمعنى أن يجعل حياتها حياته، أن يمزج وجودها بوجوده، وأن يكون لها في نفسه ـ إلى جانب حب المرأة ـ احترام الزميلة. .

ولعلها ظنت أنها قد تجد هذا في أوساط المثقفين!

ولعلها ظنت أنها قد تجد هذا عند آرثر ميلر بالذات. .

إن آرثر ميلر كاتب أمريكي مسرحي، تقدمي النزعة، وقد اتهم مرة بأنه شيوعي، وحققت معه اللجان التي ألفها مكارثي، على أساس أنه يدس في كتاباته دعاية ضد أمريكا.

قرأت له مسرحية «مصرع بائع» التي نال عليها جائزة بوليتزر وجائزة النقاد.

كان يقدم فيها ـ وأنا اكتب من الذاكرة ـ شخصية رجل أمريكي يعمل بائعاً. ليس بائعاً بالمعنى المفهوم عندنا، إنما هو «قومسيونجي» أو «وسيط» في عمليات البيع. . فهو يأخذ انتاج مصانع معينة ويطوف بها يعرض عيناتها على الوكلاء والتجار يقنعهم بشرائها وعرضها. . ويأخذ أجره «عمولة». .

ومن خلال كفاح هذا الرجل ليبيع البضاعة، يعرض أرثر ميلر صورة المنافسة الاقتصادية في السوق الرأسمالية، وكل مرارة الصراع بين المنتجين، كل واحد يريد أن يلتهم الآخر. .

ثم هو بعد ذلك يعرض مأساة هذا البائع بالذات، ومأساة المواطن العادي هناك. إن كل شيء في حياته بالتقسيط. البيت الذي يسكنه، السيارة التي يركبها، الثلاجة، الطعام، الثياب، كل شيء يمتلكه ولكنه لا يمتلكه. . انه يمتلكه بالتقسيط. فلو توقف عن الدفع لحظة واحدة، فإنه يصبح بلا بيت ولا سيارة ولا ثلاجة ولا طعام!

والبائع قد تقدم في السن. لم يعد له النشاط القديم ولا البراعة ولا الجاذبية القديمة، فهو عاجز عن البيع. وتوقفه عن البيع معناه توقفه عن الدفع.. معناه الخراب له ولزوجته ولأولاده. ويصاب بانهيار نفسي حتى يصبح نصف مجنون. وتختلط في رأسه الأحلام التي كان يريد أن يحققها بالواقع الذي يسحقه.. ولا يبقى له مخرج ينقذ به البيت والزوجة والأولاد إلا أن يموت، فيقبض أولاده قيمة بوليصة التأمين.. ويذهب ليموت..

ومرة أخرى.. أنا أروي وقائع هذه المسرحية من الذاكرة.. فقط لكي أوضح نوع الكتابة التي يقدّمها آرثر ميلر، ووجهة نظره الحقيقية إلى المجتمع..

ولا شك أن آرثر ميلر قد وجد في مارلين مونرو شيئاً، أكثر من أنها جميلة، لكي يتزوجها، ويضحي بزوجته وأولاده.. سواء كان هذا الشيء حقيقياً، أو أنه وهم سيطر على ذهن الكاتب الموهوب في ساعة ضعف!

وسوف تثبت الأيام هل سيكون لهذا الزواج عقل آرثر ميلر وجمال مارلين مونرو، أم سيكون له جمال آرثر ميلر وعقل مارلين مونرو؟!

٢ ـ الباحثات عن الحرية(*)

لا يمر أسبوع، إلا وترى مكاتبنا في دار روز اليوسف فتاة أو أكثر من الباحثات عن الحرية.. فتاة هذا الأسبوع طلبتني بالتليفون، وكانت الساعة العاشرة ليلاً...

كان ذلك يوم الخميس الأسبق، الذي غنت فيه أم كلثوم.

وقالت لي.. أنا أتحدث إليك من الشارع! إنني وحيدة جداً، أكثر من أي وقت مضى ولا أستطيع العودة إلى البيت!...

وقد عرفت هذه الفتاة أول مرة منذ شهور، كانت قد أتمت دراستها في الجامعة، وانتهت اقامتها في بيت الطالبات، وطالبها أهلها ـ وهم أسرة كبيرة غنية في إحدى عواصم الأقاليم ـ بأن تعود إليهم بعد أن أتمت دراستها لتستأنف حياتها هناك...

وجاءتني تقول انها لا تريد أن تعود إلى أهلها. إنها بعد أن عاشت في القاهرة لا تستطيع أن تعيش في المنصورة أو طنطا أو المنيا أو أسيوط. وعندما سألتها هل لأن القاهرة فيها عدد أكبر من دور السينما ومحلات الازياء والمطاعم، قالت كلا، ولكن لأن القاهرة فيها أبواب المستقبل المفتوح، وفيها فرصة الحياة المريضة الخائبة. انها في القاهرة تستطيع أن تخرج وتقابل صديقاتها وأصدقاءها.. تستطيع أن تتغدى في «بامبو» وأن تجلس في جروبي ولا بأس.. تستطيع أن تذهب إلى إحدى المكتبات وتصادق هناك بعض المثقفين وتدخل معهم في مناقشات.. ولكنها في المنصورة أو المنيا لا تستطيع إلا أن تتبادل الزيارات مع الأقارب والجيران!

وعرض عليها أهلها أن يقدموا لها كل ما تشاء إذا عادت لتقيم معهم. عرضوا عليها أن يشتروا لها سيارة صغيرة ويفتحوا لها مكتب محاماة في المدينة التي يقيمون فيها ولكنها رفضت، وفضلت أن تلتحق كسكرتيرة في إحدى الشركات بالقاهرة.

(*) صباح الخير (١٨ تموز/ يوليو ١٩٥٧).

كان واضحاً أنها لا تريد القاهرة بحثاً عن «المستقبل المفتوح»، لأن أي شاب أو شابة يستطيع أن يبدأ مستقبلاً باهراً من أقصى مدن الصعيد. ولكنها كانت تبحث عن الحرية، عن حريتها الشخصية. كانت تريد أن تشعر ـ كما قالت لي ـ «ان حياتها ملك لها، تستطيع أن تصنع بها ما تشاء»، كانت تمر بتلك اللحظة التي يشعر فيها الشاب أو الشابة برغبة الانفصال عن الأهل، كما تخرج دودة الحرير من شرنقتها . .

قلت لها هذا . . وقلت لها إن الرغبة في الانفصال رغبة مشروعة، بل إن الإنسانية كلها تقوم على انفصال الخلية إلى خلايا وتكاثرها تبعاً لذلك. وقلت لها إن حقها في الحرية.وفي أن تصنع بحياتها ما تريد أمر لا شك فيه. ولكن المهم هو: ماذا سوف تصنع بهذه الحرية؟ . .

* * *

إن كل شيء في الحياة إنما يوجد لكي نستعمله. ولكن يبقى بعد ذلك أن نستعمله الاستعمال الصحيح. والانتحار مثلاً تعتبره كل قوانين العالم جريمة، مع أن الإنسان عندما ينتحر لا يقتل إلا نفسه . .

المهم، أن أهلها رضخوا، تركوها تلتحق بوظيفتها في القاهرة، واستأجروا لها شقة صغيرة، وخادمة عجوزاً تأتي إليها كل صباح لتنظف لها البيت، وبدأت تعيش وحدها . .

ومرت الأسابيع الأولى، وهي في نشوة بحياتها الجديدة كالطائر الطليق. رتبت شقتها كما تشاء. هيأت فيها جواً فنياً فيه اسطوانات الموسيقى والكتب والإضاءة الخافتة والألوان الغريبة. أصبحت تستطيع أن تخرج من عملها لتتغدى في شارع سليمان وتدخل السينما ثم تجلس في جروبي مع صاحباتها، ثم تتمشى على النيل قبل أن تعود لتنام. وأصبحت تستطيع أن تخرج من البيت في الساعة التاسعة ليلاً وتذهب إلى السينما سواريه، ثم تتعشى، وتتمشى إلى أن تبلغ البيت في الساعة الثانية صباحاً، وأصبحت تستطيع أن تدعو شلة من صاحباتها لينطلقن في البيت وحدهن، يتحدثن ويغنين ويرقصن دون رقيب أو دون مراعاة لوجود أهل أو معارف. وأصبحت تستطيع أن تستبقي إحدى صاحباتها فتبيت معها.

ثم كان لا بد أن ينتهي هذا «المهرجان»! كان لا بد أن تتعب من هذا النشاط، أو من هذا اللف والدوران. وكان لا بد أن تعود صاحباتها إلى حياتهن العادية، فليس فيهن الوحيدة الحرة مثلها حتى تستطيع أن تلازمها . . وبدأ نشاطها ينكمش ووقت الفراغ يتمدد أمامها ويتمطى . . وفي ساعات الوحدة الطويلة كانت تحس كأنها تعيش في سجن واسع بلا قضبان.

وجاء الخميس الأسبق، ليلة كانت أم كلثوم تغني. إنها تعوّدت أن تكون في الخميس الأول من كل شهر في بلدتها، بين أهلها، وكانت العائلة كلها تسهر لتسمع أم كلثوم بين الحديث والطعام وقزقزة اللب! كأنها كانت مناسبة شهرية يجتمع فيها الأخوة والأخوات وزوجاتهم وأولادهم . .

وفي هذه المرة، تهيأت لكي تسهر في البيت بجوار الراديو، ودعت صديقة لها لتتعشى وتسهر معها. ولكن صديقتها اعتذرت في آخر لحظة. وكانت الخادمة العجوز قد انصرفت

بعد أن أعدت الطعام. وفي هذه اللحظة بدأ شعورها بالوحدة ينمـو. وبدأت تحس أقسى مما تعودت. هذه الشقة التي كانت رمز حريتها ليست الآن سوى سجن انيق، هذا الغناء الـذي تحبـه لا تحس بـه. . . إنها تـريـد أن تستحسن. . . وتعلق. . . وتضحـك ولكن لمن؟. . . للمقاعد الخالية أم للستائر ذات الألوان الغريبـة؟. . حتى النقوش الغـريبة عـلى هذه السـائر بدت لها في النور الخافت كأنها وجوه قبيحة تسخر منها وتخرج لها لسانها. .

وارتـدت ثيابهـا على عجـل ونزلت إلى الشـارع. . سارت قليـلاً تتأمـل في لا شيء. . وتبطىء عندما تجد مقهى مفتوحاً والناس فيه جالسون وصوت أم كلثوم ينـطلق من الراديـو، انها تفضل أن تسمع أم كلثوم هنا، ولكن كيف تجلس على هذه المقاهي؟. .

وعند أول دكان، وقفت لتحدثني في التليفون بصوت مريض. . أشبـه بمن توشـك على الاغماء.

إن الـوحدة امتحـان قاس من الامتحـانات التي سـوف تمر بهـا مثـل هـذه الفتـاة. إن الإنسان الوحيد يملأ فراغه بالعمل، أمـا إذا لم يكن له عمـل يملأ هـذا الفراغ، فـإن الرجـل الوحيد يتحول إلى زبون للمقاهي، أو للمائدة الخضراء، أو الليالي الحمراء. . . والفتـاة الحرة إذا لم تعرف كيف تواجـه وحدتهـا قد تـرتكب حماقـة. . قد تـدمن الخمر، وقـد تسلم نفسها لرجل لا تحبه!

أدعوا لها معي بالسلامة!

٣ ـ الاختلاط.. بدلاً من الشارع(*)

هـذه الفتاة، عـلى العكس تماماً من الفتاة المنـطوية المنكشمـة، التي حدثتكم عنهـا في الأسبوع الماضي..

سمراء جاذبيتهـا أقوى من جمـالها، الابتسـامة في عينيهـا تطغى عـلى ابتسامـة شفتيها، متفتحة للحياة كالزهرة الشابة، كل ما فيها يتنفس ويتمطى ويصيح: أريد أن أعيش!...

وكـان سؤالها ببسـاطة: لقـد تقدم لخطبتي شاب يشغـل مركـزاً ممتازاً، وصـديق قديم للعائلة.. ولكنني أريد أن أرفضه، لسبب واحد، هو أنه خجول جداً!

وعرفت منها آن أباها رجل متزمت، من النوع الذي يوصف بأنه «شديـد». فهو يضيق عليها في مقابلة صاحباتها، ويأبى عليها أن تقابل أصدقاء شقيقها إذا جاءوا إلى البيت، يضيّق عليها حتى مع أقاربها وأبناء أعمامها وخالاتها إذا كانوا شبابـاً!.. ولكنها تعـرف كيف تتحايـل عليـه، وكيف تعـوّض هـذا الضغط: لقـد عـرفت الشبـان ـ من الشـارع ـ من معـاكسـات الطريق.

ولا شك انكم فزعتم الآن، كما فزعت أنا عندمـا قالت لي ببسـاطة انها تعـرف الشبان من معاكسات الطريق..

وقد كدت، عندما سمعت هذا، أن أقسو عليها واغلظ لها القـول، ولكنني لم ألبث أن تراجعت أمام منطقها:

ـ إنك تؤمن بالاختلاط. فأين أجد هذا الاختـلاط؟.. أنا لست في الجـامعة، ولست موظفة، ولست عضوة في ناد.. وفي محيط البيت والأقارب والأصدقاء.. الاختلاط ممنـوع.. فماذا أصنع؟..

(*) صباح الخير (١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧).

وكنت التقط أنفاسي اشفاقاً على الزهرة الشابة المتفتحة، عندما استطردت تقول ضاحكة لاهية: لا تخف، ولا تظن بي سوءاً. إنني لا أذهب مع هؤلاء الشبان بعيداً. صدقني أو لا تصدقني. أنا أتنزه معهم فقط. أرى الدنيا. أذهب إلى الهرم والقناطر والسينما. . واجلس على كازينوهات النيل ومعي شاب. . هذه الصورة من المتعة هي كل ما أحصل عليه، وأنا لا أكرر خروجي مع أي شاب يعاكسني في الطريق وأعرفه. ربما أخرج معه مرة واحدة، أو مرتين على الأكثر. ثم لا أراه بعد ذلك. أنا لا أتعلق بأحد منهم، لأنهم عادة من أصناف غريبة حقاً.

وقلت لها: هذا أخطر بكثير! الشاب الذي تعرفينه دائماً ولا تخرجين إلا معه، سيحرص عليك أكثر من هذا الذي لن يراك سوى مرة واحدة! . . إن صاحب المحل يحرص على أن لا يسرق زبونه الدائم لأنه يريد أن يحتفظ به. أما إذا جاءه زبون عابر غريب، لن يدخل محله إلا مرة واحدة، فإنه يحاول أن يسرقه وينال منه أقصى ما يستطيع! . . كذلك الشاب بالنسبة لفتاة مثلك! . .

واستطردت أقول لها:

ـ ثم إنك قلت لي إن لك تجربة. وهذه الطريقة لا تعطيك تجربة. إن معرفة شاب واحد هي التجربة. فيها الحب والكره والسخط والرضى والقلق والخوف والمناقشة المتصلة والاشفاق. أما هذه الساعات المتفرقة مع ناس لا تعرفين أولهم ولا آخرهم. . فليس تجربة. . إنه مجرد مرور أمام «فترينة» المحل دون الدخول فيه والشراء منه!

لقد بدت لي هذه المشكلة ـ مشكلة معرفة الشبان من الشارع ـ أخطر من سؤالها الذي جاءت من أجله: هل تتزوج الشاب الخجول أم لا؟ . .

ولكنها اعادتني إلى هذا السؤال. . .

إنها تريد أن تعيش وترى الدنيا وتعرف الحياة. . وهذا حقها. أبوها جعلها تعيش وترى الحياة خلسة ومن ثقب الباب، فهي تريد زواجاً يفتح لها الباب، ويطلعها على وجه الحياة الحقيقي، التي يشتعل خيالها بالتفكير فيها وتجسيمها، كرد فعل لأسلوب الخطر والتضييق ومقاومة الطبيعة. .

وهي لا تحس أن هذا الشاب سوف يمنحها هذه الحياة. إنها تريد أن تنظر إلى الحياة في عينيها وتستشف أعماقها. وهذا الشاب مطرق إلى الأرض دائماً لا يواجه شيئاً. وهي لا تريد أن تتزوجه ثم تفكر في سواه. فهي ـ بكل شيء فيها ـ فتاة طيبة صريحة مخلصة لنفسها ولشعورها. . تراب الشارع لم يتسرب إلى باطنها قط، إنما تعلق بطرف حذائها فحسب.

وقد قلت لها:

ـ اقبليه. . بشرط فترة خطوبة طويلة. . تعطيك فرصة محاولة الاقتراب منه، واختبار

روحه الحقيقية. فإذا قبلت أو رفضت بعد ذلك يكون تصرفك على أساس، وبعد أول تجربة حقيقية في حياتك.

وقالت: إن والدها سيصدم لو رأى ابنته تفسخ خطوبة.. سيعتقد أن هذا فضيحة!

قلت لها: صدمة من هذا النوع خير من تعرضك لمخاطر الشارع.

إن تجربة حقيقية تفيدك أكثر من أي شيء آخر. وحتى إذا مرت الخطبة كتجربة فحسب، فسوف تعرفين في المرة القادمة أن تتخذي قرارك بنفسك، وبوضوح، ودون أن تسأليني!

٤ ـ الحب في شيكوريل(*)

كتبت مرة عن الحب: إن أحسن تفسير له اسطورة رواها افلاطـون في إحدى محـاوراته تقول: إن الإنسان كان في مبدأ الأمر جنساً واحداً، ولكن الإله الأكـبر «زيوس» غضب عـلى البشر فشطر كل مخلوق إلى شطرين، وجعلهم ذكراً وأنثى. فـالإنسان حـين يحب، إنما يشعـر بالسعادة لأنه قد التقى بالنصف الآخر المكمل له..

فالحب رغبة في الاكتمال.

ونحن نحب ما يكملنا، وننجـذب إلى الشيء الذي ينقصنـا، وأحيانـاً يحدث نـوع من المبـالغة: فننجـذب إلى الشيء الذي ينقصنـا بشدة حتى يخيـل إلينا خـطأ أننا نحب ونحن في الواقع انما نحاول الحصول على هذا الذي ينقصنا..

هذه الحقيقة تفسر لنا كثيراً من الزيجات والعلاقات التي تبـدو لنا شـاذة: الشاب الخـام الخجـول الرقيق الـذي يتزوج راقصـة. البنت الصغـيرة التي تقـع في غـرام رجـل في ضعف عمرها.. إلى آخره..

وفي عقيـدتي ان الزواج المبني عـلى الاختلاف أنجـح من الزواج المبني عـلى التشـابـه. الفردان المتشابهان قد ينجحان كصديقين، ولكن نجاحهما كزوجين أكثر صعوبة. وحـين أقول الزواج المبني على الاختلاف لا أقصد بالطبع الاختلاف العميق الذي يجعل اللقـاء مستحيلاً، ولكنني أقصد اختلاف العنصرين اللذين يمكن أن يكـونا عنصـراً واحداً. فهنـاك في الكيمياء عناصر مختلفة إذا خلطتها ذابت وتحولت إلى عنصر واحد، وهناك عناصر إذا خلطتها أحـدثت الانفجار.

كان هذا هو التفسير الذي قدمته لصديقي الذي جاء يشرح لي في دهشـة كيف وقع في الحب.

(*) صباح الخير (٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٧).

إنه شاب مثقف، أهله يعيشون في الريف، وهو من أجل ذلك يعيش بمفرده في المدينة منذ كان صبياً في المدارس الثانوية إلى أن تخرج في الجامعة ودخل الحياة العملية. حياة انفصالية ليس فيها ظل لامرأة. البيت ليس فيه أم أو أخت، وبالتالي ليس فيه زائرات. والصداقات كلها لرجال وشبان في البيت أو في المقهى أوالسينما أو المدرسة. أما المرأة فهي شيء يراه من بعيد فقط، من وراء زجاج، كالقماش الموضوع في فترينة، يرى لونه ولا يعرف ملمسه. وعندما عرف المجتمع المختلط لأول مرة، عرفه عن طريق زميلات الجامعة أو زميلات العمل، فرأى نوعا معيناً من المرأة، رأى المرأة التي تريد أن لا تكون امرأة، المرأة التي تقترب من الرجل، تتحدث مثله وتقرأ مثله. من هذا الجيل الذي لم يصل إلى التوازن المطلوب بعد، التوازن الذي يجمع بين العصرية والتحرر والانطلاق والعمل من ناحية وبين الاحتفاظ بخصائص المرأة ولمستها وجوها الخاص من ناحية أخرى.

ثم التقى بها مصادفة. لا متعلمة ولا مثقفة وانما ذكية الحس والفؤاد فحسب، وجلدها ينضح انوثة. واتصلت بينهما معرفة عادية، دون أن يفكر أحدهما في أن تتطور هذه المعرفة إلى حب أو إلى أي شيء يشبه الحب. حتى كان يوماً صحبته فيه إلى بعض المحلات التجارية الكبرى مثل شيكوريل وشملا وعمر أفندي تريد أن تشتري بعض الثياب. وكانت هذه مفاجأة له. لقد تعود من الفتيات اللواتي يعرفهن إذا خرجت احداهن معه أن تصحبه إلى إحدى المكتبات.. نفس المكتبات التي يتردد عليها، وأن تقلب معه في الصحف والكتب والمجلات تريد أن تثبت له أنها مثله تماماً. أما هذه فلم تحاول أن تثبت له شيئاً.. إنها كما هي بالضبط.

ودخل معها المحل الكبير. وصعد لأول مرة في حياته إلى قسم الملابس النسائية، وبدأ يقلب ويختار لأول مرة في حياته هذا القماش أو ذاك، واستنتجت البائعة انه مهم لديها فبدأت تهتم بتحري ذوقه وسماع رأيه حتى في اختيار الملابس النسائية الدقيقة.

ودخلت صاحبته وراء ستار لتقيس فستاناً، واستدعته بعد أن لبست الفستان ليراه عليها ويبدي رأيه فيه، ويقول هل لون الازرار مناسب للون الفستان أم يجب تغييرها، وعشرات التفاصيل الدقيقة التي لم يكن يخطر له أن هناك من يهتم بها..

كان هذا يدغدغ حواسه وأعصابه ويلمس في نفسه أوتاراً كان يحسب أنها غير موجودة. وكان هذا الجو الناعم والاهتمامات الانثوية الذي وجد نفسه غارقاً فيه يخفق حوله وكأنه ماء فاتر لذيذ. وشعر بعاطفة جياشة نحو الفتاة التي أخذته من يده إلى هذا المكان.. الفتاة الماثلة أمامه تدور حول نفسها أمام المرآة بالفستان الجديد، وتنحني لترى خياطة الذيل، وتبرق ابتسامتها إذا قال لها ان الفستان جميل عليها.

وعندما خرجا من المحل، ويداه محملتان بالأكياس والصناديق، كان غارقاً في الحب إلى «شوشته»!...

٥ ـ ثلاث زوجات(*)

مائدة العشاء الحالم، التي لا تضيئها إلا ثلاث شموع.. كان حولها ثلاثة أزواج، وثلاث زوجات.. وأنا..

الازواج كلهم مصريون. أما الزوجات فواحدة أمريكية، وواحدة نمساوية، وواحدة المانية.. والكل لهم أطفال، في عروقهم الدماء المختلفة، ولكنهم ينبتون في تربة مصر، وتنضجهم شمس مصر فيشبون مصريين مائة في المائة!

واتفقنا على أن الزواج المختلط بين المصري والأجنبية إما أن يفشل في السنتين الأوليين وإما أن يصبح من أنجح الزيجات، ذلك أن المرأة الأجنبية التي تنتقل إلى مجتمع آخر تماماً، تمر بتجربة هائلة لكل صفاتها. فإذا نجحت في هذه التجربة، فمعنى ذلك أنها امرأة ممتازة وزوجة رائعة.. كأطفال «اسبرطه» الذين كانوا يتركون عرايا فوق الجبل فلا يعيش منهم إلا صاحب البنية القوية الصالحة!

قالت لي الزوجة الأمريكية: إنها عندما جاءت إلى مصر لم تعش مع زوجها في شقة مستقلة، بل عاشت معه في بيت الأسرة الكبير، مع أبيه وأمه وبعض اخوته، ولا شك أن هذا قد جعل امتحانها أشق. فقد كان من السهل أن تعيش مع رجلها الذي عاش في أمريكا قبل ذلك سبع سنوات. ولكن كيف تعتاد حياة «القبيلة» التي تعرفها بعض البيوت المصرية على اختلاف البيئة والطباع والتقاليد؟ ولكن التجربة نجحت. وهي ما زالت تعيش في بيت الأسرة بعد أن «تأقلمت» تماماً! ولا شك أن فضل النجاح مشترك بينها وبين تلك الأسرة المصرية..

وقالت لي الزوجة النمساوية: إنها ظلت لا تعرف سوى اللغة النمساوية واللغة الانجليزية رغم بقائها في مصر سنوات. كان زوجها يخاطبها دائماً بالانجليزية، وأصدقاؤها

(*) صباح الخير (٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧).

يتكلمون معها بالانجليزية، حتى رزقت أطفالاً، وبدأ أطفالها يتكلمون اللغة العربية. كانوا يتعلمون منها الانجليزية أيضاً، ولكنها كانت تشعر أنها لا تخاطبهم بلغتهم، وانها تريد أن تقترب منهم أكثر وأكثر، فأقبلت على تعلم اللغة العربية في حرارة!..

وقالت لي الزوجة الألمانية: إن تجربتها الكبرى عندما جاءت من مدينتها في ألمانيا إلى إحدى المدن في اقليم مصر. كانت النقلة هائلة. فهناك دور السينما والمسارح والحانات والحدائق العامة والرحلات في عطلة الأسبوع والرياضة في النوادي. أما في تلك المدينة المصرية فلا شيء سوى البيت وقهوة للموظفين.

وبحثت عن طريقة لمواجهة هذا التطور. ثم وجدت أن خير طريقة هو أن تستعيض عن الدنيا ببيتها، وأن تجعل هذا البيت يقدم لها ولزوجها ما تقدمه السينما والحانة والأندية. وتعلمت من ذلك أن أعظم فن يجب أن تتقنه المرأة هو أن تجعل بيتها مكاناً يجذب الرجل كما يجذبه النادي المحبب إليه، ففيه يقرأ ويسهر ويلتقي بأصدقائه ويغير موضوعات الكلام وأماكن الجلوس. فلما انتقلت مع زوجها إلى القاهرة ظل بيتها هو المكان المحبب إليهما وإلى أصدقائهما دون أي مكان آخر..

وكان هذا صحيحاً، بدليل المائدة البسيطة الحالمة والشموع التي أنستنا لبعض الوقت اننا نجلس في بيت عادي من بيوت القاهرة.

٦ ـ الخوف(*)

أريد أن أقف هذه المرة قليلاً، عند بعض الخطابات التي أتلقاها من القراء والقارئات.

والخطابات على أنواع كثيرة، ابتداء من الخطاب الذي يطلب صاحبه أن أسعى له في صرف علاوة متأخرة، إلى الخطاب الذي تقول صاحبته التلميذة ان أهلها وضعوها في مدرسة داخلية في سوريا، لكي يبعدوها عن حبيبها التلميذ، وانها سوف تنتحر إذا لم أجد لها حلاً في خلال اسبوعين!

وقد اخترت من بريدي بعض الخطابات ذات اللون العاطفي أو الخطابات التي تتحدث عن علاقات الرجال والنساء. ولا أريد هنا أن أرد عليها بالتفصيل، ولكنني طرحتها أمامي، محاولاً أن أجد ظاهرة واحدة تجمع بينها جميعاً.

وقد وجدت بالفعل أن هناك ظاهرة واحدة تربط بينها جميعاً، هذه الظاهرة هي: السلبية، والخوف. فأغلب الشباب فيما يبدو يقفون أمام علاقة المرأة بالرجل موقفاً **يجعلها علاقة يحكمها الخوف، سواء كانت علاقة حب، أو صداقة زمالة**.. وهذه أمثلة بسيطة منها:

- فتاة من الاسكندرية تقول إن لها صديقاً، علاقتها به علاقة صداقة لا أكثر، ولكنها صداقة عميقة، فيها الفهم المشترك والثقافة المشتركة والتفكير المشترك، وذلك بحكم عملهما في جو واحد. ولكنها تتمنى بينها وبين نفسها أن يشركها في حياته وصداقاته أكثر من ذلك. تتمنى مثلاً أن يصحبها إلى السينما إذا أعجبته رواية معينة، أن يدعوها للنزهة إذا خرج مرة مع أصحابه. تريد أن يعتبرها «صديقاً» له مثل أصدقائه، وهي تعتقد أنه هو أيضاً يريد. ولكنه يخجل من فكرة اصطحابها ودعوتها إلى حيث يلقى أصدقاءه، رغم أنها شجعته على ذلك بطريقة غير مباشرة. هل لأنه يخاف ألسنة أصحابه؟ هل لأنه يعتقد أن في ظهورها معه

(*) صباح الخير (١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨).

نوعاً من الارتباط له معنى لا يريده؟ هل لأنه يخاف على سمعتها، إذا تعدد ظهورها معه، وإذا رآها الناس كثيراً معه في السينما، ومحلات الشاي، وفي الشارع، وفي المطعم، وفي معرض الرسم؟

ـ شاب من الكويت يقول ان هناك فتاة تحبه، تحبه حباً عميقاً يشعر به في سلوكها معه، وسلوكها لبق محتشم. ولكنه، مع احترامه لها، لا يحبها، ولا يمكن أن يتجاوب معها. ولكنه لا يجسر على أن يفهمها ذلك، أو بتعبيره هو «أنه أهون عليه أن يسير في مظاهرة في الأردن ويهتف بسقوط أمريكا من أن يقول لها انه لا يحبها!» والنتيجة أنه يتورط في صور من المجاراة البسيطة التي تتراكم ولا شك في نفسها، وتجعلها تزداد ايماناً بمستقبل هذا الحب!

ـ موظفة في إحدى مصالح الحكومة التي تقع في مبنى المجمع بالقاهرة، ولها أخ يعمل موظفاً في مصلحة حكومية أخرى، ولكنه أيضاً في مبنى المجمع، والوضع الطبيعي أن يخرج الاثنان سوياً في الصباح ليذهبا من العباسية إلى ميدان التحرير، ثم يدخلا مبنى المجمع معاً أو على الأقل إنه إذا تصادف خروجهما معاً وذهابهما معاً فلا بأس في ذلك، ولكن أخاها المتعلم، يأنف من ذلك، يصر على أن يخرج هو بمفرده وهي بمفردها، لا يريد أن يركب معها نفس الترام، ويراها «تنحشر» في زحام الركاب، ويقابل أصحابه وزملاءه، فيقدمها إليهم على أنها اخته، ولا يريد أن يدخل معها المجمع، ويركب معها نفس المصعد فيعرف الكل أن هذه هي اخته، وانها تعمل في وزارة كذا قسم كيت!!

ولا شك أن مصدر هذا «الخوف» هو أن الكثيرين جداً ما زالوا متأثرين بالصورة القديمة عن المرأة، عندما كانت وظيفتها الوحيدة في الحياة هي تلبية رغبة الرجل، وقبل أن تكون لها وظائف انسانية اخرى. ومشاعر الإنسان في العادة أبطأ في التعبير من أفكاره، فقد يصبح للشاب عقل عصري متحرر، ولكن مشاعره الكامنة تبقى كما هي.

ومن السهل أن أنصح الخائف أو الخائفة بالشجاعة، وان أصف لكل موقف سلبي دواء واحداً هو: الموقف الايجابي، ولكننا يجب أن نعترف أن هذا كثيراً ما يكون صعباً.. فالفرد كثيراً ما يشعر بأن المجتمع أقوى منه، وأن مجاراة المجتمع في خطأه أسلم عاقبة من معارضته، فلا شك ـ مثلاً ـ أن المجتمع العادي، إذا رأى فتى وفتاة يتكرر ظهورهما سوياً، يتبادر إلى ذهنه أن ثمة علاقة ما بينهما، ولا شك أن هذا قد يؤدي أحياناً إلى أن يحطم مستقبل الفتاة، وكم من فتاة ضاعت منها فرص الزواج، لأنها تعمل في مكان يوجب عليها السهر، والخروج مع الرجال. ولربما تقابل مثل هذه الفتاة الرجل الذي يثق في سلوكها، ولكنه مع ذلك لا يقدم على الزواج منها، ذلك لأن حكمه الخاص لا يكفيه. إنه يريد حكم المجتمع أيضاً. وهذا عن الحالات التي لا توجد فيها بالفعل علاقة حب. أما في الحالات التي توجد فيها هذه العلاقة، فكما أن مفاتحة الفتى للفتاة بأنه يحبها يحتاج إلى شجاعة وايجابية، كذلك فإن مفاتحته لها بأنه لا يحبها، يحتاج أيضاً إلى شجاعة وايجابية، وأكبر ما يفقد الشاب شجاعته هنا أنه يظن أن الفتاة سوف تنهار، وتنتهي إذا أفهمها ذلك، فهو أيضاً يعتقد أن المرأة

مخلوق هش ضعيف أكثر مما يجب. ومن المؤكد أن مثل هذا الشاب يستطيع إذا أحسن اختيار الأسلوب أن يفهم الفتاة ذلك دون أن يفقدها احترامها له، أو ثقتها بنفسها.

على أننا مهما راعينا حكم المجتمع أحياناً، فلا شك أن هناك حداً أقصى لذلك، فالأخ المحترم الذي يأنف من مصاحبة أخته إلى عملها لا عذر له، فقديماً كانت العادة إذا سار الزوج مع زوجته في الطريق أن يسير هو قبلها بخطوات، حتى إذا رآه من يعرفه، لم ينتبه إلى أن هذه هي زوجته، وهذا الوضع ما زال موجوداً في بعض أقاليم مصر، ولكن وجوده لدى شاب مثقف نحو اخته المثقفة أمر سخيف ولا شك؟

٧ ـ أخوات جميلة(*)

العالم كله يتحدث عن جميلة الجزائرية ذات العشرين ربيعاً التي كانت تدرس القانون في الجامعة، وتنقل رسائل الثوار في طيات ثيابها، والتي عذبها الفرنسيون أبشع تعذيب تعرض له بشر لتعترف بمكان الثوار فلم تعترف، والتي حكموا عليها أخيراً بالإعدام، والتي يطالب الضمير الحي في العالم كله بايقاف اعدامها.

وجميلة لها اخوات كثيرات، فالفتاة الجزائرية الحديثة تلعب في الثورة دوراً لم تلعبه امرأة عربية قط.

لقد كتب الصحفي الانجليزي «جوزيف كرافت» الذي زار ثوار الجزائر، كتب في جريدة الأوبزرفر الانجليزية يقول: إن من أعظم نتائج ثورة الجزائر تحرير المرأة العربية هناك، وانه عندما كان يعيش في المناطق التي يحكمها الفرنسيون، لم ير امرأة جزائرية واحدة، فلما دخل المناطق المحررة التي يحكمها الثوار، كان كأنه انتقل إلى عالم آخر تقوم فيه المرأة بدور كالرجل تماماً.

ثم يستطرد الكاتب الانجليزي في وصف الجزائريات اللواتي قابلهن في المناطق المحررة فيقول: «إن النساء اللواتي قابلتهن، بلا أي استثناء، كن عامرات بالثقة المطلقة والرغبة المتلهفة إلى المعرفة، قليل منهن كن محجبات.. وأكثرهن، خصوصاً الشابات، قد التحقن بالجيش إما كممرضات، وإما كمحاربات يعشن مع المحاربين جنباً إلى جنب، واللواتي لم يلتحقن بالجيش، ويعشن في القرى، أغلب رجالهن في السجن أو جيش التحرير، وهن لذلك يحملن مسئوليات ضخمة على أكتافهن في البيوت والحقول وتربية الأطفال وسد فراغ الرجال.. وبعد ذلك كله تراهن يعملن في توصيل بريد الثوار، أو في حياكة ثياب الجنود، أو في الغسيل والطهي لأجل فرق المقاتلين.

وقيام المرأة الجزائرية بهذه المسئوليات جعلها تتنبه إلى قيمتها الحقيقية، لقد روى لي مصدر أجنبي أنه كان يلتقط صوراً لبعض الجنود، وكان هناك بعض النساء، فطلب منهن الابتعاد لأنه يريد تصوير المقاتلين فقط.

(*) صباح الخير (٦ شباط/ فبراير ١٩٥٨).

فانبرت له فلاحة تقول: ولكننا أيضاً مقاتلات! اننا نطبخ ونغسل ونصنع ثياب الجنود، ونتناوب ورديات الحراسة في الليل، ونوصل بريد الثوار. أليس هذا قتالاً؟!!».

ثم يروي الكاتب الانجليزي كيف أنه حضر اجتماعاً لخلية من خلايا النساء الجزائريات المشتركات في المقاومة، فيقول:

«.. كان الاجتماع بعد العشاء، وفي أكبر بيت موجود في القرية، في حجرة خالية تماماً، ليس فيها أي أثاث إلا مائدة للخطابة، ومصباح غاز صغير، وكانت الغرفة مزدحمة بالنساء، وبعضهن كن يضعن على رؤوسهن المناديل المشغولة، وإن بقيت وجوههن سافرة، وبعضهن كن يحملن أطفالهن.

وافتتحت المسئولة السياسية الاجتماع، بأن قدمت إليهن سكرتيرة اللجنة، فتاة جزائرية جميلة جداً في السابعة عشر من عمرها، كان ضوء مصباح الغاز ينعكس على بشرتها فيجعلها تبدو كبطلات الروايات، ثم بدأت الفتاة ذات السبعة عشر ربيعاً تتكلم فقالت: «يجب أن لا نخاف، إنما يجب أن نكافح من أجل حريتنا واحترام العالم كله لنا، ان لدينا وحدة معنوية رائعة، والعدو يحاول أن يحطم وحدتنا هذه، ولكن العدل والحرية سيكونان من نصيب ذوي العزم القوي، صحيح أن لدينا صعوبات، رجالنا في السجون ونساؤنا وأطفالنا يعيشون بمفردهم، ولكننا يجب أن نضحي بكل شيء في سبيل الحرية، إننا إذا أدينا واجبنا اليوم، فسوف نظفر بالحرية غداً!».

وفي خلال هذه الخطبة، كانت النساء الأخريات يستمعن في سكون عميق، فلما انتهت، وقفت الضابطة السياسية وأعلنت فض الجلسة للاستراحة، وبسرعة تجمعت النساء الفلاحات حول الفتاة وانهلن عليها بالأسئلة: واحدة لديها علبة لبن مسحوق وتسأل عن طريقة استعماله لطفلها، وأخرى تسأل عن مشكلة خاصة بشجر الزيتون الذي يزرعه زوجها المحارب وهي ترعاه الآن بدلاً منه.

وهنا تدخلت لأسأل بعض الأسئلة، سألتهن ما الذي يجعلهن مؤمنات بأن الثوار سيكسبون الحرب؟

وقالت لي إحداهن:«لأننا نحارب من أجل المبدأ والفرنسيون يحاربون من أجل احتكار العالم»!

وسألت امرأتين أخريين، ماذا ينتظرن من الحصول على الاستقلال فقالت احداهن: سنصبح قادرات على تعليم أنفسنا، ستعمل المرأة في كل شيء، حتى في البوليس والجيش».

وعدت إلى الضابطة السياسية وقلت لها إنني قد تأثرت جداً من هذا الاجتماع، فقالت لي: «انتظر حتى نحصل على السلاح، إن ما نريده هو السلاح فقط، إنني كما ترى عجوز وبدينة ولكنني لو وجدت مدفعاً، لحملته على ظهري إلى قمة أعلى الجبل!».

ثم عادت الجلسة للانعقاد، وتكلمت هذه المرأة الضابطة البدينة العجوز، قالت لهن: «لقد بدأنا الثورة بلا شيء، والآن لدينا الأسلحة والنظام، وكل واحد منا لديه ابتسامة أمل على وجهه. إن كل شيء في هذه البلاد،ملك الثورة.. البيوت والأشجار والدجاج».

وكانت روحها عالية جداً لدرجة أنها كانت تمزح، قالت لهن: «عندما يسطو جندي فرنسي على دجاجة، يلوي عنقها في فظاظة ويضعها في جيبه.. وهذا هو سبب انه حتى الدجاج أصبح في صف الثوار..».وضحكت النساء جميعاً».

هذه هي الفلاحة البسيطة في الجزائر اليوم.

٨ - منى (*)

طلبتني «منى» في التليفون، وقالت لي: خلاص! لن أحضر إلى مكتبك هذه المرة وفي يدي صندوق جمع التبرعات لكي تدفع فيه بضعة قروش.

- لماذا؟

- خلاص! . . لقد خطبت، وخطيبي لم يوافق على أن أقوم بجمع التبرعات.

كان لا يمر بضعة شهور، إلا وتطرق «منى» باب مكتبي وتدخل ضاحكة باسمة، بمفردها أو مع زميلة لها، وفي يدها صندوق تجمع فيه التبرعات لأحد الأغراض الخيرية.

كنت في أول الأمر لا أعرف حتى اسمها، إنما كنت اكتفي بأن أضع في صندوقها «ما تيسر» ثم تنصرف. ولكنني في إحدى المرات عبرت لها عن دهشتي من نشاطها، واهتمامها بجمع التبرعات في كل المناسبات تقريباً، وضحكت مني وجلست بضع دقائق تحدثني.

قالت لي: بصراحة، ليس جمع التبرعات هو السبب الأساسي الذي يدفعني إلى ذلك، وإن كان الاشتراك في عمل خيري يرضيني بالطبع.

- فما السبب إذاً؟

وضحكت قائلة: إنها فرصة ترى فيها أشياء لا تستطيع أن تراها في ظروفها العادية.

إنها فتاة بسيطة تسكن في شبرا، من عائلة متوسطة محافظة. من البيت إلى المعهد ومن المعهد إلى البيت. . ولكنها تذهب إلى السينما وتقرأ الصحف. ومن خلال الصحف والسينما تسمع عن عالم غير عالمها. عالم غريب ولكنه يعيش معها في نفس المدينة: الفنادق الكبرى، الوجهاء، المعطرات. . الأوبرج وفونتانا. . وأماكن كثيرة تعزف فيها الموسيقى ويرقص فيها

(*) صباح الخير (٢٧ اذار/ مارس ١٩٥٨).

الرجال والنساء.. كل رجل قد ضم امرأة وأسند رأسها على خده، وأنوار ملونة واستعراضات.. ثم هناك الممثلون والممثلات، الذين تراهم، والكتاب الذين تقرأ لهم.. و.. و..

هل هذا العالم حقيقي؟ وكيف يمكن أن تراه؟ كيف تذهب مثلاً إلى الأوبرج؟ أو إلى صالة الشاي في سميراميس أو جروبي؟

لا يمكن أن تذهب هكذا إلى أحد هذه الأماكن وتجلس وتضع ساقاً على ساق وتطلب مشروباً كما يفعل الناس!

لا شك أن ثيابها إذا قورنت بثياب الجالسات ستكشف عن أنها أقل منهن!

ثم إنها لا تعرف كم يكلف فنجان القهوة هناك.. والجرسون الذي يلبس الردنجوت لا شك أنه أغنى منها، ويبدو أنه لا توجد فرصة يمكن أن تحملها يوماً إلى واحد من هذه الأماكن، أبوها مثلاً لم يذهب إلى أي مكان منها، إنما يجلس ساعة العصر في قهوة قريبة من البيت، واخوتها وأولاد عمها وكل أقاربها، لم يذهب واحد منهم قط إلى الأوبرج أو ميناهاوس! حتى إذا تزوجت فسوف يتزوجها رجل مثل أقاربها هؤلاء.

وخطر لها هي وصديقة لها أن اشتراكها في جمع التبرعات هو الفرصة الذهبية لرؤية هذا العالم كله!

وحملت صندوق التبرعات ومضت إلى رحلتها.

دخلت دور الصحف التي تقرأ لكتّابها، ودقت أبواب الممثلات اللواتي تحبهن، ودخلت جروبي وشبرد وسميراميس، وذهبت إلى الأوبرج والفونتانا وكازينو عابدين. كانت تدخل دون أن تدفع تذكرة، فصندوق التبرعات هو جواز المرور، وتطوف بين الموائد، تجمع التبرعات القليلة، وتتأمل هي وصديقتها الحاضرين، تلتهم بعينيها ثيابهم، وصدورهم ونحورهم، ومجوهراتهم، تحدق فيهم وهم يرقصون، ويشربون.. وتتغامز مع صديقتها ضاحكة على هذه أو تلك.

رأت العالم الذي كانت تقرأ وتسمع عنه.

رأته ورأت ناسه، كما نرى التماثيل التي ترتدي الملابس في الفترينات، أو كما نتفرج على الحيوانات الغريبة داخل أقفاصها في حديقة الحيوان!

وفي المرة الأخيرة التي جاءت فيها إلى مكتبي وفي يدها الصندوق، سألتها عن أخبار «رحلاتها»، فقالت لي إن كل شيء قد اختلط في رأسها تماماً. إن هذا العالم غير العالم الذي ولدت وعاشت وتعيش فيه! إنها لا تعرف أي العالمين حقيقي.. وأيهما غير حقيقي!

وكانت قد بدأت تمل هذه الرحلة. السرور الأول الذي جلبته لها هذه الرحلات بدأ يتبدد وتحل محله حيرة ودهشة. ورد الناس لها، وتأففهم أحياناً من التبرع، كان لا يضايقها

أول الأمر، إذ كانت كل حواسها متجهة إلى الجديد الباهر، ولكنه أصبح الآن يزعجها ويغيظها، وكثيراً ما فكرت أن تقذف بالصندوق في وجه إحدى النساء الجالسات!

ثم كان تليفونها هذا الاسبوع بعد أن مضى أسبوع تحسين الصحة ولم تأتِ إلى مكتبي . . وقالت لي :

ـ خلاص لا أوبرج ولا سميرامس، من البيت للبقال ومن البقال للبيت!

٩ ـ من الذي يستقبل جميلة؟
لا تتركوا المهمة للهيئات النسائية!(*)

منذ قرأت خبر اطلاق سراح جميلة بوحيرد من سجنها الفرنسي وأنا أسأل نفسي:

ـ ترى ماذا يكون شعور فتاة، في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً، حين تجد نفسها وقد أصبحت «أسطورة» متحركة؟..

حين تجد نفسها، وهي في شبابها الباكر، قد أصبحت جزءاً من تاريخ عزيز.. أو من تراث مجيد.. حين تجد نفسها قد أصبحت موضوعاً للأغنيات والمسرحيات والأناشيد والأشعار.. واللوحات والتماثيل؟

كيف ترى نفسها في هذه المسرحيات والأفلام والملاحم واللوحات؟

من حقها ولا شك أن تزهو بنفسها!

ولكنني لا أظن أن شعورها هو الزهو وحده أو ذلك النوع الأجوف من الزهو، ذلك أنها تنتمي إلى أرض حافلة بالبطلات والأبطال، وهي تعرف أن هناك مثلها مئات بل آلاف.

وقد كان حظها أن تكون رمزاً عليهن جميعاً لا غير!..

ومع ذلك فهذا هو سر بطولتها.

إنها لم تكن قائدة كبيرة ولا زعيمة مجربة حتى ينتظر منها أن تكون هكذا. إن بطولتها هي أنها فتاة عادية، سقط عليها الضوء فجأة، فإذا بها كالآلاف غيرها، تصمد وتناضل وتضحي وتتحمل عذابها الرهيب في بطولة لا تبحث عن الضوء بل ولا تتوقعه؟...

ومن المصادفات الغريبة حقاً أن تكون أشهر ثلاث بطلات في تاريخ الكفاح الجزائري يحملن اسماً واحداً هو: جميلة!

(*) آخر ساعة (٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٢).

جميلة بوحيرد. . جميلة بوعزة. . جميلة بوباشا؟؟

إن هذا سيجعل اسم جميلة اسماً رمزياً في القاموس العربي، تماماً كاسم ليلى في قاموس الشعر العربي عبر مئات السنين!

كان اسم ليلى هو اسم المرأة، اسم المعشوقة الرمزي في قصائد أي شاعر عربي مهما كان الاسم الحقيقي لمن يتغزل فيها!

وسوف يكون اسم جميلة هو اسم الفتاة البطلة، اسم أي فتاة بطلة، حين يكون الاسم رمزاً يعبر عن معنى عام أكثر مما يعبر عن فتاة بعينها!. .

وانني لأتمنى أن أرى جميلة تطوف العالم كله سفيرة للنضال العربي والثورة الجزائرية. . كما يطوف جاجارين أنحاء العالم سفيراً للتقدم العلمي الروسي!. . .

إن جاجارين يرمز إلى الصفات العقلية السامية للإنسان، أي يرمز إلى تقدمه العلمي وامكانياته الضخمة التي تفتحها أمامه الاكتشافات التي يصنعها العقل البشري!. .

وجميلة ترمز إلى الصفات النفسية والمعنوية السامية للإنسان! ترمز إلى قدرة الإنسان على الصمود. . وعلى الاحتمال. . وعلى الرفض. . وعلى الكبرياء!. .

ترمز إلى انتصار الإنسان كإنسان مجرد على المادة. . على النار والحديد. . على السلاح والقوة والعضلات والارهاب!

وهي بهذا تقدم للعالم قصة رحلة أروع من رحلة جاجارين. . وتثبت أن للإنسان قدرات أروع من قدرة السفر إلى الكواكب الأخرى!

والقاهرة تستعد الآن لاستقبال جميلة. . .

وإذا كان ما فهمته من أنباء الصحف صحيحاً، فإن كل الهيئات التي سوف تنتظرها وترحب بها هيئات نسائية فحسب!. . .

وهذا ـ إذا صح ـ يكون سوء تصرف وسوء تقدير!

إن جميلة ليست بطلة قضية نسائية!

إنها بطلة قضية قومية. . قضية سياسية واجتماعية ـ قضية تحرير للرجل والمرأة معاً!

فهي بطلة الرجال والنساء على السواء!. . .

ووضعها في الإطار النسائي وحده ينطوي على عدم ادراك لحقيقة دور جميلة ومغزى كفاحها!

ولا ألوم هذه الهيئات النسائية طبعاً، فهي تؤدي واجبها! وجميلة فتاة ومن الطبيعي أن تزهو بها بنات جنسها. ولكنني ألوم سائر الهيئات وألوم الهيئات النسائية إذا لم تشرك معها سائر الهيئات!

ولا أظن أن جميلة سوف يعجبها أن ترى صورة تدل على الفصل بين الجنسين، أو تحس أن النشاط السياسي ينقسم إلى قسم يزاوله الرجال فقط وقسم تزاوله النساء بمفردهن، أو أن الكفاح القومي مثل عربة الترام.. فيها غرفة مخصصة للحريم!

جميلة يجب أن تستقبلها الهيئات السياسية رجالاً ونساء.. والهيئات الفنية والأدبية رجالاً ونساء.. وهيئات الشباب شباناً وشابات.. قبل أن تستقبلها التنظيمات النسائية!

١٠ ـ المرأة. . والزواج. . وتحديد النسل
كيف نصل إلى نصف مليون زوجة؟!(*)

إذا كنا قد عقدنا العزم ـ حقاً ـ على أن نجعل تحديد النسل هدفاً أساسياً، في مستوى الأهداف القومية الكبرى، وأن نعمل له على هذا المستوى، فلا بد أن نحاول أن نضع في حسابنا كل جوانب الموضوع.

فالأمر في تحديد النسل لا يقف عند حد مجرد توفير أقراص منع الحمل ـ مثلاً ـ وتوصيلها إلى كل مدينة وقرية. كلا. ففي النهاية لا بد أن تتوفر الرغبة والإرادة لدى الفرد لكي يستفيد من هذه التسهيلات المادية.

والفرد هنا هو المرأة، قبل الرجل.

والسؤال بناء على ذلك هو: هل وصل الوعي بفائدة تحديد النسل إلى الأغلبية العظمى من النساء في مصر؟

لا، بالتأكيد. ولكن مرة أخرى لنفرض أن «خبر» هذه الأقراص قد وصل إلى كل امرأة، ولنفرض أن «واعظاً» قد ذهب إلى كل امرأة في البلاد وشرح لها كيف أن تحديد النسل أحسن لها من الناحية الصحية، وكيف أن عدداً أقل من الأبناء أحسن لها ولهم من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، ولنفرض أن كل امرأة وجدت في هذا القول وجاهة ومنطقاً. . فهل هذا كاف لحل القضية؟. .

مرة أخرى، كلا. .

والسبب هو ان قطاعاً كبيراً من النساء في مصر ـ هو الأغلبية الساحقة ـ لديهن من العوامل النفسية والاجتماعية الكامنة ما يحول دون تحول هذا «الاقتناع» الذهني إلى عقيدة، وبالتالي إلى سلوك.

(*) المصور (٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٥).

السبب ـ وقد يندهش بعض الناس ـ هو قانون الأحوال الشخصية، والنظم التي ترتب قواعد الزواج والطلاق والنفقة وما إلى ذلك.

أن أكبر الخصائص النفسية للزوجة في مصر ـ وفي كل مجتمع مشابه ـ هو الاحساس بعدم الأمن، الاحساس بأن زوجها يستطيع بكلمة ينطقها أن يخرجها من البيت، ويحولها إلى انسانة لا مورد لها ولا عائل ولا مستقبل... إلا أن تتلمس الرزق المغموس بالألم في بيوت الأقارب المتضجرين.

وأنا لا أتحدث هنا عن المرأة التي تعلمت وخبرت الحياة، فهي تعمل أو تستطيع أن تعمل إذا شاءت رغم أنه حتى بالنسبة لهذه المرأة، ليس من السهل أن تعمل في أية سن، وبأي تعليم، في وقت يزدحم فيه كل باب للعمل بمئات من الطارقين؛ لا أتحدث عن هذه المرأة، ولكنني أتحدث عن المرأة التي لم تعرف في حياتها شيئاً إلا أن ترعى البيت والزوج وتربي الأطفال وهي الكثرة الغالبة في بلادنا... اليوم ولسنوات طويلة مقبلة.

هذه المرأة تشب وتتزوج وفي قرارة نفسها أن سلاحها الأكبر في معركة البقاء مع الزوج هو انجاب الأطفال.. والمزيد من الأطفال!

هذه المرأة تشعر انها إذا أعطت زوجها طفلاً واحداً أو طفلين، فسوف يجد أنه من السهل عليه أن يطلقها ويتزوج غيرها ويبدأ حلقة بالانجاب من جديد. ولكنها إذا أعطته خمسة أطفال.. أو ستة أو سبعة.. فهنا سوف يكون هذا العدد سداً هائلاً يمنعه من التفكير في الخروج.

وشعور المرأة هذا ليس شعوراً كاذباً وليس كله وهما موروثاً. فأرقام الطلاق في مصر عالية، والرجل الذي ينجب من أكثر من زوجة صورة متكررة. فهو إذن شعور حقيقي وله أساس.

حدثني صديق يعمل في البحوث النفسية والاجتماعية فقال:

ـ إن كثيراً من مشاكل التربية في مصر تعود إلى هذه الحالة النفسية الكامنة: الإحساس بعدم الأمن لدى الزوجة العادية في مصر، وانعكاس هذه الحالة النفسية على أبنائها وبناتها.

وهذا أمر معقول، يمكن تصوره.

ولا شيء يساعد على تغيير هذه الحالة تدريجياً، إلا ما نطالب به من زمن بعيد.. فيما يتعلق بتعديل قوانين الأحوال الشخصية.

تقييد حق الطلاق، وإعادة النظر في التزامات الزوج المادية في حالة الطلاق.. هي البنود التي يمكن أن تعطي الزوجة العادية شعوراً بالأمن فلا تصبح الرغبة في الانجاب لديها حاجة ملحة تتوهم انها تدرأ بها عن نفسها خطراً أكبر.

إن فصل أي رجل أو امرأة من أي مكان يعمل فيه، أصبح مستحيلاً بعد القوانين

والتشريعات التي يعترف بها العالم كله، يوماً بعد يوم، إلا في حالات الإساءة الظاهرة. والمرأة التي تعيش في البيت سنة أو عشر سنوات تعمل وتفني شبابها، لا تجد شيئاً يشبه هذا الضمان للمستقبل.

سوف يقال: إن في تشبيه علاقة الزوجة بالبيت بعلاقة العامل بالمصنع فيه امتهان لرابطة الزوجية المقدسة.

وهو بالفعل امتهان. ولكن ما قول هؤلاء حين يصبح هذا الامتهان «ترفاً» لا تصل إليه الزوجة.. حين تقع الواقعة، ويقذف عليها يمين الطلاق، وتجد نفسها في حالة لا تصل إلى شيء من علاقة العامل بمكان عمله؟ ماذا ينفع الزوجة في تلك الساعة من الكلمات الحماسية الضخمة التي لا تغني ولا تشبع، يقولها ناس لا يشعرون بأنهم عرضة لمثل هذا الموقف؟

إن عدد السكان في مصر حوالى ٣٠ مليوناً. ومعنى ذلك، بغير دراسة احصائية دقيقة، أن في مصر من الإناث حوالى ١٥ مليوناً لا يمكن أن يزيد عدد الزوجات في سن الانجاب العادي لهن على نصف مليون امرأة.

والوصول إلى نصف مليون مواطنة بأقراص منع الحمل وبالدعاية والارشاد والاقناع ليس عملية مستحيلة، فنحن لسنا الصين أو الهند أو باكستان، ولكن المهم هو أن ندرس - في عمق - كيف نصل لا إلى أذان نصف مليون امرأة، ولكن إلى قلوبهن ونفوسهن...

وليكن لهذه المهمة خبراؤها، ومخططوها، ودعاتها، بنفس الانهماك والجد الذي نأخذ به زراعة الأرض، وبناء المصانع.

ومرة أخرى، لن أملّ من ترديد هذه الفقرة في آخر كل حديث من هذا النوع: إن التكاليف الكبرى في مثل هذا العمل هي الجهد البشري ونحن لدينا فائض منه، مكدس بلا عمل أو بعمل وهمي في مرافق كثيرة.

وإن علينا فقط أن نفكر جدياً في اعادة توزيع طاقة اليد العاملة عندنا، من المواقع المكدسة فيها إلى المواقع التي نحتاج إليها.

١١ ـ وأد البنات(*)

لا أعرف محاولة واحدة في التاريخ الإنساني كله، نجحت في ايقاف أي خطوة من خطوات التقدم العلمي، والتجربة والاستكشاف، منذ بدء الخليقة إلى الآن.

ولذلك فاتخاذ موقف ضد أي اتجاه من هذا النوع هو سباحة ضد التيار، ومحاولة يائسة.

ومع ذلك، فإن على الكاتب أن يكون أميناً مع عقله ومع ضميره، حتى ولو كان موقفه هذا عبثاً.

أقول هذا لألخص موقفي من تلك التجارب الجديدة: أطفال أنابيب الاختبار، أن تستأجر امرأة «رحم» امرأة أخرى، تحمل عنها جنينها حتى تلده، ثم تسلمه لأمه لقاء أجر معلوم، أو أن يودع زوج ـ برضاء زوجته ـ لأنهما محرومان من الانجاب، نطفة منه في رحم امرأة أخرى، حتى تتحول النطفة إلى طفل، فمولود، ويعود المولود إلى أبيه.

كل هذا يحدث، وصار سهلاً علمياً وعملياً.

وقد بدأت حالات كثيرة منه تذهب إلى المحاكم، وتطرح على القضاء والقانون والضمير الإنساني أسئلة محيرة إلى آخر الحدود.

فالغرائز الإنسانية لا تتغير بسهولة، ومنها ما لا يتغير في نظري.

لذلك، يحدث بعد أن تحمل امرأة جنيناً ليس لها، بالايجار، أن تتمسك به بعد ولادته، وتذهب إلى المحكمة، لأنها، وقد حملته وهناً على وهن، ولدت لديها عاطفة قوية نحوه، رغم أن القاعدة في المستشفيات التي تجري هذه العمليات، الا يسمح «للأم

(*) الشرق الأوسط، ١٩٨٧/٣/٢٩.

المستعارة» أن ترى المولود، حتى لا تعرفه، ولا تتعلق بـه، وأحيانـاً لا تعرف شيئـاً حتى عن أهله.

وعشرات من الحالات المختلفة، محورها هذه الغرائز الإنسانية الخالدة.

وأنا شخصياً، لذلك، ضـد البحث العلمي في هذه المجـالات، وضد التقـدم العلمي فيها.

إن هذا مجال له صفة خاصة، تمتد فيها يد العلم إلى المشاعر والعواطف الغريزية، وإلى أدق خصوصيات الإنسان. وقد بدأ الضمير الإنساني حتى في أمريكـا وأوروبا يقلق من الآثـار الإنسانية والاجتماعية، ولا أقول القانونية، لهذه «الانجازات» العلمية.

خـذوا مثلاً حـالـة المـرأة التي «تستـأجـر» رحم امـرأة غـيرهـا لتحمـل عنهـا عبء الحمـل والولادة تسعة أشهر! هل يصل استغلال الأغنياء للفقراء إلى هـذا الحد، هـل تستحق «الأم» أمومتها دون أن تتحمل مشقة الدور الطبيعي الذي خلقها الله له وهيأ لها صفاته، هل تكون علاقة الأمومة بالبنوة هي العلاقة نفسها؟

وإلى أي حد يمكن أن تتسع مجالات العبث في ظل هذه الامكانيات؟

أقول إنه لم يحـدث قط أن أمكن ايقاف البحث العلمي في تـاريخ العـالم في أي مجال، ولكن هـذا المجال يستحق وقفـة مقاومـة، فهي لحساب أخص عـلاقة انسـانية تعيش عليهـا المجتمعات.

اعتـذر للقارىء إذا لاحظ أن مشـاكل «التقـدم العلمي» تقلقني، فيما يتعلق بـالبحوث الخاصة بالإنسان ذاته، من أطفال الأنابيب، إلى استئجار رحم امرأة أخرى لمدة تسعة أشهر؟ أشهر الحمل والولادة، وما يخص أدق الغرائز والمشاعر والعلاقات الإنسانية..

وأعتقد أن كل إنسان يجب أن يهتم بهذا الموضوع، وبدل أن نقرأ هذه الأخبار مبهورين أو على سبيل الطرافة، نتأمل آثارها البشرية والاجتماعية، حتى يتولد ضغط عام ضد الاقتراب من بعض المناطق الخاصة بصفات الإنسان وغرائزه ومشاعره كإنسان.

فمن هذا النوع أيضاً، تقرير طبي انجليزي نشر أخيراً عن موضوع قديم، وهو توصل الطب والعلم إلى معرفة جنس الجنين وهو في بطن أمه وقبل أن يولد بشهور طويلة.

ليس هـذا اختراعـاً جديـداً، ولكن الجديـد الذي أتى بـه هذا التقـرير هـو انـه لاحظ وسجل ـ بالإحصـاءات ـ ان الامهات يلجـأن باعـداد متزايـدة إلى الاجهاض، إذا عـرفن أن جنس الجنين لا يناسب رغباتهن، وعلى الأغلب يكون ذلك إذا عـرفت الأم والأب أن الجنين انثى وليس ذكراً.

وقد قال التقرير ان النسبـة الكبرى من الأمهـات اللائي يفعلن ذلـك من بلاد آسيـوية وافريقية لأن البنت تأتي إذا ولدت في أوروبا بمشاكل كثيرة في مواجهة عالم غريب، في حين أن

الأولاد لا يجلبون هذه المشاكل والمتاعب. وإن كان التقرير قد أشار إلى أن «الأغلبية» من خلفية تنتمي إلى العالم الثالث إلا أنه لم ينف وجود الانجليزيات تماماً من هذه القضية.

وهذا أمر يمكن اعتباره بمثابة عودة عصرية علمية، إلى «وأد البنات» الذي حرمه القرآن وقضى عليه الإسلام واعتبره من أقبح ما كان في الجاهلية من عادات، فالانثى هنا يتم وأدها ولكن بالإجهاض وقبل أن تولد لأنها انثى لا ذكر.

ولكن، ماذا طالب هذا التقرير العلمي به؟

لقد طالب هذا التقرير الذي أصدرته مجموعة من الأطباء الانجليز بتحريم الكشف في المستشفيات والعيادات عن جنس الجنين تماماً، حتى لا تعرف الأم ولا الأب مقدماً نوع المولود وحتى لا يستخدم التقدم العلمي في ارتكاب هذه الجريمة. وهذا في بلاد تحلل الاجهاض، ولكن لأسباب أخرى صحية وضرورية في الأساس.

هذا نموذج آخر، لما نقول به، من أنه لا مفر من «محاولة» وضع حدود «للتقدم العلمي» لا يجوز تجاوزها في هذا المجال وحده وبالذات، ومن هنا الدعوة إلى التأمل والمتابعة وربما عقد الندوات والمؤتمرات لجعلها قضية تهم الضمير الإنساني كله.

كان ذلك في دراسة يابانية لم أنسها حتى الآن، لأنها تعكس صورة مرعبة للتحولات المادية السريعة في العالم والقيم الكريهة التي تخلقها هذه التحولات.

كان التقرير يقول انه ثبت انه في سنة كذا، لجأت حوالي ستمائة امرأة يابانية إلى وأد وليدها ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وذلك لسبب وحيد، هو: أن الطفل ولد في وقت حرج بالنسبة للمرأة المهتمة بعملها ومستقبلها وكسبها. فهي مرشحة للتقدم في مهنتها، وانشغالها بتربية الطفل سوف يفوت عليها هذه الفرصة، وسوف يؤخرها مادياً ووظيفياً، وانها لا تريد تضييع بعض سنوات ونشاطها وتقدمها في ذلك!

نحن هنا أمام مجتمع يعرف كل أساليب منع الحمل. ولكن الحالة هي حالة امرأة قبلت أن تحمل وأن يكون لها طفل. ولكن فجأة لاحت لها في حياتها العملية فرصة ترى أنها لا تستطيع أو لا ترغب في أن تضيعها، فهي تضحي بالطفل، بل وتلجأ إلى الوأد حتى لا تتعطل.

مرة أخرى، «جاهلية» جديدة في وسط عالم المعرفة والتقدم والمخترعات وبين آخر صيحات الأجهزة والسلع!

كأن بريق الدنيا قد زادت قوته حتى غشت العيون ولم تعد ترى، فانقلبت شدة الضوء إلى ظلام. فالمحصلة واحدة، وهي عدم القدرة على الرؤية السليمة!

هنا نجد هذه الظاهرة: ان طغيان القيم المادية على النفوس تجاوز الحدود المألوفة وصارت تتراجع ازاءه شتى أنواع القيم الأخرى، وهذا سيناريو جديد لنهاية هذا العالم. فجوهر العالم والحياة هو الإنسان. والتقدم العلمي والمادي مهمته أن يزيد قدرات الإنسان

والتنوير غايته أن يزيد إنسانية الإنسان. ولكن السباق المفجع على إحـراز أكبر قـدر من القيم المادية ينقص كل يوم من إنسانية الإنسان، أي ينتقص كل يوم من حكمة الـوجود كلهـا ومن غاية التقدم بمعناه الحقيقي.

ولست بـالـطبـع من دعـاة الجمـود ولا التخلف ولا التقهقـر عن مغـامـرة الإنسـان في اكتشاف الأرض والسير في مناكبها وكشف أسرارهـا. ولكن الواقـع انه من ضرورات التقـدم العلمي أن يواكبه تقدم إنساني، والاهتمام بالعلوم الإنسـانية، واعـادة تأكيـد انسانيـة الإنسان حتى لا تسقط تحت وطأة المادة ومخترعاتها الحديثة وسلعها المتدفقة كل يوم.

الفَصْل السَّابع

كَشَّافُ المقَالات

- أ -

الآباء والأبناء

- «الآباء والأبناء.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٢/١٠.
- «الأولاد والبنات والمستقبل.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١١/٢١.

ابراهيم هنانو

- «ابراهيم هنانو ويوسف العظمة.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/٢٢.

أبو خلدون

- «زيارة لمكتبة «أبو خلدون».» **صباح الخير**: ١٠ نيسان/ ابريل ١٩٥٨.

الاتحاد الاشتراكي

- «حول تطوير الاتحاد الاشتراكي: تعدد الأحزاب.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٨/١٦.
- «حول تطوير الاتحاد الاشتراكي: تجربة الديمقراطية في مصر.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٨/٢٣.
- «حول تطوير الاتحاد الاشتراكي: ماذا عن الاتحاد الاشتراكي.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٨/٢٩.

اتحاد الجمهوريات العربية

- «اتحاد الجمهوريات العربية من هنا حتى أول سبتمبر.» **المصور**: ٢٣ نيسان/ ابريل ١٩٧١.

الاتحاد السوفييتي

- «تقديرات السوفييت.» المساء: ١٩٨٧/١١/٤.
- «الدور الروسي.» المساء: ١٩٨٧/٩/٢٩.
- «رسالة من موسكو.» الأخبار: ١٩٦٠/١٢/٢٦.
- «لماذا سبقت روسيا؟» الأخبار: ١٩٦١/٤/١٥.
- «ماذا في موسكو؟» الأخبار: ١٩٦١/١٠/٢٦.
- «موسكو بعد ١٥ سنة.» المصور: ٥ شباط/ فبراير ١٩٧١.
- «مشاكل الانسحاب السوفييتي.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/٢٣.
- «جورباتشوف ومصر والعرب (١).» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/٢٦.
- «جورباتشوف ومصر والعرب (٢).» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/٢٧.
- «غانيات موسكو والمارينز.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٤/٢١.

الاتحاد السوفييتي ـ ع خ ـ فرنسا

- «روسيا وفرنسا.» الأخبار: ١٩٦٠/٣/٢٤.

الاتحاد السوفييتي والصين

- «المجزرة بين روسيا والصين.» اليوم: ١٩٦٤/٣/٢٨.

الاتحاد السوفييتي والعالم العربي

- «جورباتشوف ومصر والعرب.» المساء: ١٩٨٧/٣/٢٩.
- «نجاح جورباتشوف في يد العرب.» المساء: ١٩٨٧/٥/٦.

الاتحاد القومي

- «ابدأوا فوراً.» الشعب: ١٩٥٩/٧/١١.
- «اقتراح.. للاتحاد القومي.» الأخبار: ١٩٦٠/٦/٢٠.
- «طناش في الاتحاد القومي.» الشعب: ١٩٥٩/٧/١٢.
- «مرة أخرى.. الاتحاد القومي يجب أن يتحوّل إلى الاتحاد الاشتراكي.» الأخبار: ١٩٦٢/٤/٣٠.

اثيوبيا

- «اثيوبيا.» الأخبار: ١٩٦٠/١٢/١٥.

الأجنة

- «معرفة نوع الجنين.» المساء: ١٩٨٧/٤/١.

- «معرفة نوع الجنين.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/٢٩.

الأجور

- «مرتبات الوزراء.» الأخبار: ١٩٦٠/٢/٩.

أحداث ١٩٢٩

- «١٩٢٩ هل يمكن تكرارها.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/٢.

الأحزاب

- «حزبهم المفضل!» الأخبار: ١٩٦٠/٣/١.

الأحزاب السياسية

- «حزبان... بعد حزب واحد!!» روز اليوسف: ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٣.
- «من سجل شخصي: ملاحظات على الممارسة: حول المنابر السياسية.» الأهرام: ١٩٧٦/٥/٩.
- «هل نريد برلماناً للباشوات.» الأهرام: ١٩٧٦/٦/٢٧.
- «للأغلبية حقوقها ولكن.» الأهرام: ١٩٧٦/١١/١٤.
- «حزب الأغلبية والديمقراطية مرة أخرى.» الأهرام: ١٩٧٦/١١/٢٨.
- «الأحزاب المصرية والبرامج.» المساء: ١٩٨٤/٥/٨.
- «يوم مع نارايان الرجل الذي ترك زعامة الحزب الاشتراكي ليقود ثورة الحب!» صباح الخير: ٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨.

الأحزاب السياسية في اسرائيل

- «خلاف الليكود والعمل... ليس سببه العرب!» المستقبل: ١٩٨٥/١١/٢٣.
- «بيريز قبل شامير وشامير قبل بيريز.» المساء: ١٩٨٦/١٠/٢٦.

الاحصاء

- «أخطاء الاحصاءات.» الأخبار: ١٩٦١/١/١٦.

أحمد المرعشلي

- «أحمد المرعشلي.» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٣/٢٣.

أحمد بن بلاّ

- «لماذا يصوم.. أحمد بن بلاّ و٣٥ ألف سجين جزائري.» الأخبار: ١٩٦١/١١/١٥.

أحمد بهاء الدين

- «أحمد بهاء الدين يرد على الصحفيين العرب.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١٢/٣.
- «رأي أحمد بهاء الدين.» **الأخبار**: ١٩٧١/٤/٢٨.

أحمد بهاء الدين وأنور السادات

- «شخصية تاريخية بالغة التعقيد شديدة التنوّع.» **صباح الخير**: ٢٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٦.

أحمد نوري

- «أحمد نوري ضيف القاهرة اليوم.» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/٨.

الأحوال الاقتصادية

- «شعب في غرفة الانعاش.» **المساء**: ١٩٨٧/٩/٢٥.

الأحوال السياسية

- «الدين.. والسياسة.» **صباح الخير**: ٢٣ آب/ اغسطس ١٩٥٦.
- «قصة الفانوس وكوم الحجارة ومعسكر التجميد في السياسة العربية.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٠/١٣.
- «حوار مطلوب: حول التيارات السياسية المختلفة.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١/٢١.

الأخلاق

- «معركة الأخلاق.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/١٠.
- «الأخلاق والسياسة!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٥/١٨.

الادارة

- «ثورة «المديرين»..» **صباح الخير**: ٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.
- «القيادة لا الادارة هو ما ننتظره من المشرفين على المؤسسات العامة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٨/١٤.
- «المصالح الحكومية تحتل كورنيش النيل!» **الأخبار**: ١٩٦١/١١/٦.

الأدب

- «أخبار أدبية.» **صباح الخير**: ١١ تموز/ يوليو ١٩٥٧.

أدب الجنس

- «أدب الجنس!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٢/١.

أدب الرحلات

- «من خواطر السفر.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٧/٣١.

الأدب السياسي

- «الأديب والسياسي.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/٢٨..

أدب العنف

- «من أدب العنف والغضب: قصة الاخوة سوليداد والحكم ببراءة انجيلا ديفيز.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٦/٩.

الأدوية المستوردة

- «حول مشكلة الأدوية هل نستوردها أم نصنعها محلياً.» صباح الخير: ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٨.

الاذاعة الاسرائيلية

- «يوم ارتباك الاذاعة العبرية.» **الأخبار**: ١٩٨٩/٤/٧.

الارستقراطية

- «ارستقراطي رغم أنفه!» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/١٢.
- «الارستقراطية تحاول أن تستعيد شبابها!» **الأخبار**: ١٩٦٣/١٠/٢٦.

الأردن

- «إذا لم تكن عمان هانوي فهل يلزم أن تكون سايجون؟» المصور: ٩ نيسان/ ابريل ١٩٧١.
- «خطة أردنية بعيدة المدى.» صباح الخير: ٨ آب/ اغسطس ١٩٥٧.

الأردن ـ تاريخ

- «... لماذا وكيف.. في الأردن!» صباح الخير: ٢ أيار/ مايو ١٩٥٧.

الأرصدة العربية

- «بنوك ودبابات.» المساء: ١٩٨٨/١/١٥.
- «الأموال السعودية في السياسة العربية.» ١٩٥٦/٢/٢٣.

الأرصدة العربية في الخارج

- «المال العربي المكـدس في الخارج عنصر قـوة أم عنصر ضعف؟ حول اقـتراح المقاطعـة الشاملة لأمريكا.» الأهرام: ٨/١٠/١٩٧٢.
- «عن المال العربي في لندن.» الأهرام: ٢٠/٩/١٩٧٤.
- «إلى المليونيرات العرب.» المساء: ٢٥/٧/١٩٨٣.

الأراضي

- «الكرة الأرضية تتسع.» المساء: ١٥/١/١٩٨٥.

الأرمن

- «حظ الأرمن.» المساء: ٩/٨/١٩٨٣.

الارهاب

- «مستر اكس والارهاب.» المساء: ١٥/٥/١٩٨٤.
- «ارهاب البحار.» المساء: ٢١/٨/١٩٨٤.
- «الارهاب واللعب بالنار.» المساء: ٢٢/٤/١٩٨٦.
- «الفرق بين الارهاب والنضال من أجل الحرية.» المساء: ١٠/١٢/١٩٨٦.
- «للارهابيين من العرب وسائر العالم.» المساء: ٥/٦/١٩٨٦.
- «المرتكب والمستفيد.» المساء: ٢٣/٨/١٩٨٤.
- «مؤتمر طوكيو والارهاب.» المساء: ١٥/٥/١٩٨٦.

الارهاب الدولي

- «أمريكا تقول هناك ٢٠٠ جماعة ارهابية في العالم.» المساء: ٢١/٤/١٩٨٦.

الأزهر

- «قانون تنظيم الأزهر.» الأخبار: ٢٦/٦/١٩٦١.

الاستعمار

- «الخطط الاستعمارية الكبرى في الشرق الأوسط.» الفصول: [د. ت.].
- «آخر مستعمرة.» الأهرام: ١٣/٩/١٩٧٤.

الاستعمار في البلاد العربية

- «المعـركة مفتـوحة.. في البـلاد العربيـة.» صباح الخـير: ١٨ تشرين الأول/ اكتـوبـر ١٩٥٦.
- «المصالح الحقيقية التي تحاربنا!» صباح الخير: ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.

الاستعمار ووسائل الاتصال

- «الصحافة والسينما والاذاعة والمسرح كلها في يد الاحتكار!» صباح الخير: ٢٠ كانـون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.

الاستعمار في افريقيا

- «السؤال الأكبر في افريقيا، نظرية الوجود الاستعماري.» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/٢٥.

الاستفتاءات

- «حساب الاستفتاء!» **الأخبار**: ١٩٦١/١/١٢.

اسرائيل

- «الاسرائيلي التائه!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/١٦.
- «ماذا في اسرائيل؟» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٢/٢٩.
- «شمعون!» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/٩.
- «مـاذا يقـول بن جـوريـون عن مستقبـل اسرائيـل.. والـعـرب.» **الأهـرام**: ١٩٧٢/١/٣٠.
- «أي اسرائيل.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٨/١٣.
- «ماذا في اسرائيل؟ أزمة العودة إلى الحجم الحقيقي.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٣/٤.
- «مصلحة اسرائيل.» **الأهرام**: ١٩٧٥/٣/٧.
- «كالعادة كانت اسرائيل وحدها هناك!!» **الأهرام**: ١٩٧٦/١٠/٣١.
- «هتلر اليهود هل يمكن أن يحكم اسرائيل!» **الأهرام**: ١٩٧٧/٥/٢٩.
- «اعـلان اسرائيـل دولـة ذريـة يقضي عـلى حجتهـا في الحـدود الآمنـة.» **الأهـرام**: ١٩٧٨/١٠/٢٩.
- «الحاج... اسرائيل!!» **المساء**: ١٩٨٣/١٠/٢٠.
- «اسرائيل ووليد الخالدي.» **المساء**: ١٩٨٣/١١/٢٥.
- «مجانين وعقلاء في اسرائيل.» **المساء**: ١٩٨٤/٨/١٢.

اسرائيل - ع خ - جنوب افريقيا

- «اسرائيل وافريقيا الجنوبية.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/١٩.

اسرائيل وجنوب افريقيا

- «سلاح سري اسرائيلي جنوب افريقي.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/٤.
- «اسرائيل وجنوب افريقيا.» **المساء**: ١٩٨٧/٤/٢٣.

الأسرة والمجتمع

- «عائليات.» الجمهورية: ١٩٨٢/٤/١٥.

الاسكندرية

- «رباعية الاسكندرية.. التي يتحدث عنها العالم!!» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١٢/٣١.

الاسلام

- «الفرق بين الدين وبين استاذ يدرس الدين.» **الأخبار**: ١٩٦١/٨/٢٨.
- «اسلام واحد بلا مذاهب.» المساء: ١٩٨٤/٢/٢٧.
- «١٩٨٩، ظهور مجتمعات اسلامية جديدة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٩/١/٢٢.
- «مسلم ثم ماذا؟» الجمهورية: ١٩٨١/١١/١٩.

الاسلام ـ تاريخ

- «حروب المسلمين.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٣/١٥.

الأسلحة

- «ضعوا السلاح!!» **روز اليوسف**: ٧ شباط/ فبراير ١٩٥٥.
- «السلاح ليس هو الحل!» الوطن: ١٩٨٠/١/٢١.
- «فلسفة السلاح.» المساء: ١٩٨٤/٣/٣٠.
- «طائرات وقنابل.» المساء: ١٩٨٧/١٢/٢٩.

الأسلحة النووية ـ العراق

- «حول قوة العراق النووية.» **الوطن**: ١٩٨١/١/١١.

الأسلحة النووية في اسرائيل

- «مدينة ذرية في النقب.» المساء: ١٩٨٦/١٠/٢٢.
- «ترسانة اسرائيل الذرية.» المساء: ١٩٨٦/١٠/٢٣.

الأسماء الغريبة

- «الأسماء الخشنة.» صباح الخير: ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٥٧.

اسماعيل صدقي

- «خطاب من الرجل الذي حاول قتل اسماعيل صدقي.» صباح الخير: ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٥٦.

اسماعيل فهمي

- «حديث مع اسماعيل فهمي: لن نذهب إلى جنيف إلاّ مع سوريا والأردن وفلسطين.» **الأهرام:** ١٩٧٤/٥/٣١.

اسوان

- «الجديد في اسوان.. أقوى منها!!» **الأخبار:** ١٩٦١/١/٢١.
- «يا عزاب اسوان.. اطمئنوا، اسوان تريد رواداً لا موظفين فقط.» **الأخبار:** ١٩٦٢/١/٢٢.
- «ليست هذه اسوان.» **الأخبار:** ١٩٦٤/٣/١٦.

الاشتراكية

- «خطاب مفتوح، حزب العمال له مع مصر قصة طويلة إذا كنت اشتراكياً حقاً... يا مستر بيثان.» **روز اليوسف:** ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٣.
- «الاشتراكية والاستعمار.» **روز اليوسف:** ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٥٤.
- «عصر الاشتراكية...» **روز اليوسف:** ١ آب/ اغسطس ١٩٥٥.
- «ظهور الاشتراكية..» **صباح الخير:** ٥ نيسان/ ابريل ١٩٥٦.
- «اشتراكية جديدة؟!» **صباح الخير:** ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٥٦.
- «معنى الاشتراكية.» **الأخبار:** ١٩٦٠/٣/٢.
- «الاشتراكيون في حيفا.» **الأخبار:** ١٩٦٠/٣/٢٢.
- «مناقشات اشتراكية، الغاية شيء... والوسيلة شيء آخر.» **أخبار اليوم:** ١٩٦٠/٤/٩.
- «خواطر اشتراكية.» **الأخبار:** ١٩٦٠/٧/٢٩.
- «لماذا الاشتراكية.» **الأخبار:** ١٩٦١/٧/٢٢.
- «الأخلاق الاشتراكية ليست بالوعظ.» **الأخبار:** ١٩٦١/٧/٣١.
- «اشتراكية انسانية.» **الأخبار:** ١٩٦١/٨/٥.
- «الاشتراكية ازاء الرواسب القديمة.» **الأخبار:** ١٩٦١/٨/٧.
- «خواطر اشتراكية متناثرة.» **الأخبار:** ١٩٦١/٨/٢١.
- «ثمن الحذاء.. ومعنى القوانين الاشتراكية!!» **الأخبار:** ١٩٦١/١٠/٢٣.
- «حين تصبح الاشتراكية كلمة مزيفة.» **الأخبار:** ١٩٦٢/١/٢٧.
- «الاشتراكية.. والمرأة.. والقوانين المستوردة.» **الأخبار:** ١٩٦٢/٦/٢.
- «تجربة اشتراكية.» **الأخبار:** ١٩٦٣/٤/٦.
- «لقاء بين الاشتراكيين في الجمهورية العربية المتحدة والجزائر.» **الأخبار:** ١٩٦٣/٥/٢٧.
- «أحداث وتحركات في اليسار.» **الأخبار:** ١٩٦٣/٦/١.

- «هل تريد الأمة اشتراكية عربية أم اشتراكيات سورية ومصرية وعراقية.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٨/١٠.
- «أين نحن الآن من الاشتراكية.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٨/١٧.
- «معنى التجربة وما هو الأهم.. فالمهم.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٨/٢٤.
- «ظهور الاشتراكية.» **الشباب**: ١٩٨٩/١١/١.
- «الوحدة والاشتراكية والتنظيم الشعبي.» **الأخبار**: ١٩٩٢/٢/١٠.

الاشتراكية العربية

- «الاشتراكية في أمريكا... وفي العالم العربي.» **صباح الخير**: ٤ تموز/ يوليو ١٩٥٧.
- «الحياة في مجتمع تعاوني.» **الشعب**: ١٩٥٩/٧/٧.

الاشتراكية في مصر

- «بأي سرعة.» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/١٠.

الأشجار

- «ارحموا اللون الأخضر.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٧/١١.

الاشعاع الذري

- «هل يعود الغبار الذري.» **الأخبار**: ١٩٦١/٦/٢٦.

الاصلاح الاقتصادي

- «الاصلاح الجوهري.» **الفصول**: [د. ت.].
- «الاعتماد على النفس هو الطريق الأساسي أمام مصر.» **الوطن**: ١٩٧٦/٣/٧.

الأطباق الطائرة

- «الأطباق الطائرة.» **المساء**: ١٩٨٤/٦/٨.

أطفال الأنابيب

- «استئجار رحم امرأة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٣/٢٥.

الأطفال والمستقبل

- «الأولاد والبنات والمستقبل.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١١/٢١.

الاعتماد على النفس في الاقتصاد

- «أقول للعرب: اعتمدوا على أنفسكم وكونوا أقوياء قبل أي شيء.» **المساء**: ١٩٨٣/١٠/١٤.

الاعلام الأمريكي

- «الاعلام الأمريكي والمذكرات الشخصية.» **المساء**: ١٩٨٥/٩/٢٦.

الاعلانات

- «فضيحة الاعلانات.» **روز اليوسف**: ١٢ تموز/ يوليو ١٩٥٤.
- «نشر الاعلانات في الصحف ليس من مهمة أعضاء الاتحاد القومي.» ١٩٦٠/١٠/٢٤.
- «هذه الاعلانات المدفوعة من أموال الشعب.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٠/٣٠.

الأغاني الصينية

- «أغنية صينية!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٢/١١.

الاغتيالات

- «جريمة الاغتيال!» **الشعب**: ١٩٥٩.

افريقيا

- «نحن وافريقيا.» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/٧.
- «تقرير للكونجرس عن افريقيا!» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/١١.

افريقيا ـ الأحوال الاقتصادية

- «افريقيا.. و«الفلوس»..!» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٢٠.

الأفيون

- «سياسة الأفيون.» **الشعب**: ١٩٥٩/٧/٣٠.

الاقتصاد الدولي

- «الميزانية العالمية.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٠/٢٠.

الاقتصاد السياسي

- «الاقتصاد في خدمة السياسة.» **الفصول**: [د. ت.].

الأكراد

- «الأكراد.. والبرزانيون.. ما لهم وما عليهم.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٦/١٥.
- «حروب الأكراد.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٨.

الحبيب بورقيبة

- «سؤال إلى بورقيبة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٧/١٩.
- «انفجار بورقيبة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٧/٢٥.
- «اقتراح إلى الرئيس بورقيبة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٨/١٦.
- «محمد مزالي ... وبورقيبة.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/٢٢.

المانيا

- «جيش المانيا!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/١١.

المانيا الموحدة

- «هونيكر وكول وديجول.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/١٣.

الامارات العربية المتحدة

- «رسالة الخليج، نظرة على شاطىء البترول: حول الامارات العربية.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١١/٢٠.

الأمراض

- «أمراض ذرية.» **المساء**: ١٩٨٦/٤/١١.

الأمراض الاجتماعية

- ««الفهلوة».. مرض اجتماعي.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٦/٨.

أمريكا واسرائيل

- «متى بدأت اسرائيل تتجسس على أمريكا.» **المستقبل**: ١٩٨٥/١٢/٢١.

الأمم المتحدة

- «الحياة مع الأقطاب في خط النار!» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١٠/١.
- «حجرة التأملات في الأمم المتحدة.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٠/٣.
- «النجمة الحمراء في الأمم المتحدة.» **الأخبار**: ١٩٦١/١/١٨.
- «ديجول والأمم المتحدة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٨/٢.
- «من فالدهايم إلى المنظمة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٠/٢٦.

الأمن القومي العربي

- «أمن سوريا وأمن اسرائيل.» **المساء**: ١٩٨٣/١٠/٢٨.

الانتاج

- «الانتاج الصناعي والزراعي: مقياس الضعف والقوة.» **الفصول**: [د. ت.].
- «هواة الانتاج...» **روز اليوسف**: ١٧ آب/ اغسطس ١٩٥٣.

الانتخابات

- «ظواهر جديدة في الانتخابات المقبلة.» **صباح الخير**: ٩ أيار/ مايو ١٩٥٧.
- «عشرون مرشحاً في الدائرة.» **صباح الخير**: ٣٠ أيار/ مايو ١٩٥٧.
- «أكثر برامج الانتخابات غير مدروسة.» **صباح الخير**: ١٣ حزيران/ يونيو ١٩٥٧.
- «كلام صريح إلى المرشحين!» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/٢٠.
- «كيف نختار؟» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/٢٢.
- «زوجة المرشح!!» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «كلام انتخابات.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٠/٢٨.
- «كيف دارت المعركة الانتخابية في المغرب؟» **الأخبار**: ١٩٦٣/٥/٢٥.
- «ملاحظات تستحق الدراسة في ختام المعركة الانتخابية.» **الأخبار**: ١٩٦٤/٣/٩.
- «الانتخابات والتخمينات المتصارعة.» **المساء**: ١٩٨٤/٣/٥.
- «غبار... الانتخابات.» **المساء**: ١٩٨٤/٤/٢٦.
- «الانتخابات المصرية وحمام البخار.» **المساء**: ١٩٨٤/٥/٢٤.
- «استغماية الانتخابات (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/١.
- «استغماية الانتخابات (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/٢.

الانتخابات ـ اسرائيل

- «حول نتائج الانتخابات الاسرائيلية الأخيرة: الفرق بين جولدا مائير ومناحم بيجين أو بين روجرز وكيسنجر هو اكتوبر ١٩٧٣.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١/٦.

الانتربول

- «البوليس الدولي.» **صباح الخير**: ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.

الانتفاضة الفلسطينية

- «ثورة الانتفاضة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/١.

انجهان

- «القصة السرية الكاملة لخطف «انجهان» تذاع لأول مرة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/١٨.

انجولا

- «عجائب انجولا!» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/٥.

اندرو (أمير)

- «اسرائيل تتدخل في زواج الأمير اندرو.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/٢.

اندرول، روك

- «روك اندرول.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/٢٥.

الانسان

- «الانسان هو البداية!» **روز اليوسف**: ١١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٤.
- «الانسان أجمل مناظر الطبيعة.» **صباح الخير**: ١٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.
- «أهم ما نبني هو: الانسان!» **الأخبار**: ١٩٦٢/١/٢٠.

الانقلابات العسكرية

- «طوق الانقلابات والحروب من حولنا ما هو سره، ومغزاه؟» **الأهرام**: ١٩٧٧/٥/٢٨.

أنور السادات

- «المضحك والمبكي في حكايات السادات والقذافي!» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٩/٩/١٠.

أوروبا

- «حكايات أوروبية!» **أخبار اليوم**: ١٩٦١/٦/١٠.
- «حول البيان الأوروبي.» **الوطن**: ١٩٨٠/٦/١٥.
- «الطفلة التي شغلت أوروبا ٢٥ يوماً!!» **المساء**: ١٩٨٤/٨/٢٦.

أوروبا الغربية ـ الأحوال الاقتصادية

- «الذهب والانهيار في الاقتصاد الغربي.» **المصور**: ٢٢ آذار/ مارس ١٩٦٨.

أوروبا الغربية ـ نظم الحكم

- «مشكلة الوراثة: حول نظم تولي الرياسة في الدول الأوروبية.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٨/١٩.

أوروبا الموحدة

- «الأوروبي الجديد.» **المساء**: ١٩٨٧/٥/٤.
- «الجيش المشترك بعد السوق المشترك.» **المساء**: ١٩٨٧/٧/١.

ايران

- «الدم في طهران.» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/١٢.
- «من الألغاز الايرانية.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/٢٩.
- «توسع فارسي أم شيعي.» **المساء**: ١٩٨٧/٩/٦.
- «صاحب اليد الوحيدة في طهران.» **المساء**: ١٩٨٧/٩/١٤.
- «ايران وضم الأراضي.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/٢٧.
- «ايران لماذا؟ (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٨/١.
- «ايران لماذا؟ (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٨/٢.
- «ايران لماذا؟ (٣).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٨/٣.
- «ايران لماذا؟ (٤).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٨/٤.
- «ايران لماذا؟ (٥).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٨/١٥.

ايران ـ الثورة الاسلامية

- «اعدام ٤٠٠٠ ايراني في ست سنوات! الأسرة المالكة.. والنظارة السوداء!» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٧/٣٠.

ايران جيت

- «ايران جيت دولية.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١١/٢٣.
- «ايران جيت دولية.» **المساء**: ١٩٨٧/١١/٢٥.

ايران ـ ع خ ـ اسرائيل

- «اسرائيل والمسألة الايرانية (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/٦.
- «اسرائيل والمسألة الايرانية (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/٧.
- «اسرائيل والمسألة الايرانية (٣).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/٨.
- «اسرائيل والمسألة الايرانية (٤).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/٩.
- «اسرائيل والمسألة الايرانية (٥).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/١١.
- «اسرائيل والمسألة الايرانية (٦).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/١٢.
- «محور أمريكا.. ايران ـ اسرائيل.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/١٨.

ايران ـ ع خ ـ الكويت

- «ايران والكويت.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/١٦.

ايران والشيعة

- «توسع فارسي أم شيعي.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/٥.

ايطاليا ـ الانتخابات

- «حول الانتخابات الايطالية: مأزق الأحزاب الشيوعية بين روسيا وغرب أوروبا.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٦/٢٠.

ـ ب ـ

بابا الفاتيكان

- «شكر للبابا.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/١٧.

باردو، برجيت

- «شبيهات برجيت باردو.» **آخر ساعة**: ٢١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٩.

باكستان

- «الانقلاب المسرحي في الباكستان.» **صباح الخير**: ١٦ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨.

باندونج

- «هذا الصباح.. في باندونج!» **روز اليوسف**: ١٨ نيسان/ ابريل ١٩٥٥.

البترول

- «البترول العربي.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٠/٢٥.
- «حرب البترول.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٥/١٤.
- «خطة السنوات العشر لكسر شوكة البترول.» **الوطن**: ١٩٨٠/٦/٢٩.
- «نعمة البترول ونقمته.» **المساء**: ١٩٨٤/٤/٥.
- «مؤامرة البترول.» **المساء**: ١٩٨٦/٤/٤.
- «معركة البترول.» **المساء**: ١٩٨٦/٤/٩.

البترول ـ العراق

- «معركة بترول العراق: أبعادها في الحاضر والمستقبل.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٦/١٦.

البترول العربي

- «ثورة جديدة يفجرها سلاح البترول.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١٢/٢٤.

البحر الأبيض المتوسط

- «البحر المتوسط.. دائرة جديدة تنتظرنا!» **الأخبار**: ١٩٦٠/١١/١٤.

البحرين

- «رسالة الخليج، صحراء عليها باب، حول دولة البحرين.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١٢/١٣.

البذخ

- «الحرب على البذخ!» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/١٢.
- «الفلوس الضائعة.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/١٧.

البرازيل

- «البرازيل تتحول؟» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/٢٣.

برج البراجنة

- «الطبيبة الانجليزية الآتية من برج البراجنة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/٢٧.

برج القاهرة

- «برج القاهرة واستعراضات أبو الهول.» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/١٧.

برنامج ٣٠ مارس

- «استفتاء على برنامج ٣٠ مارس.» **المصور**: ٣ أيار/ مايو ١٩٦٨.

بريجنيف

- «بريجنيف بعد نيكسون.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٦/٢١.

بريطانيا

- «انجلترا تبحث عن رجل غاضب.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٨/١٦.
- «الرجل الذي رفض أن يموت انجليزياً.» **صباح الخير**: ١٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٧.
- «المراوح في لندن.» **المساء**: ١٩٨٣/٨/١٤.
- «كيف يفكر الانجليزي العادي!» **صباح الخير**: ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.
- «هؤلاء يحكمون انجلترا.» **صباح الخير**: ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.

بريطانيا ـ ع خ ـ مصر

- «لماذا هاجمت انجلترا مصر؟» **روز اليوسف**: ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.

بريوني (جزيرة)

- «على أبواب بريوني، أخلاقيات مستر دالاس!» **صباح الخير**: ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٦.

بكوالد، ارت

- «ارت بكوالد، أظرف كاتب في العالم.» **الأخبار**: ١٩٦٤/١٢/١٠.

البلاد العربية

- «أحزان الأمة العربية.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٩/١٥.

البلاستيك

- «البلاستيك!» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/٣٠.

بلجيكا

- «بلجيكا!» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٣١.
- «حكومة جيزنجا طردت ٥ مستشارين بلجيكيين.» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/٢٨.

بن جوريون

- «بماذا يحلم بن جوريون.» **صباح الخير**: ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨.
- «بن جوريون.» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/١.
- «زوجة بن جوريون!» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/٣١.

البنوك

- « صور من القذارة في البنوك والمباني العامة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/٦.

بورسعيد

- «فيلم انجليزي عن بورسعيد!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٨/٩.

بوش، جورج

- «لباقة جورج بوش.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١١/١٠.

بولارد

- «بولارد والأسرار الخطيرة.» المساء: ١٩٨٧/٤/٢٢.

البوليساريو

- «البوليساريو في منظمة التحرير.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/٣٠.

بيجين، مناحم

- «بيجين حاول المستحيل لمقابلة الرئيس مبارك.» المساء: ١٨/١٠/١٩٨٣.

البيروقراطية

- «البيروقراطية والفساد والروتين.» الأهرام: ١١/١٢/١٩٧٥.

البيع والشراء

- «ما أشطرنا في الشراء وإصدار قرارات التعيين.» الأخبار: ١٩/٣/١٩٦٢.

- ت -

تأجير الأرحام

- «رحم امرأة للايجار.» المساء: ١٧/٤/١٩٨٧.

التاريخ

- «لعنة التاريخ؟» روز اليوسف: ٥ تموز/ يوليو ١٩٥٤.
- «عجلة التاريخ والسنة الجديدة.» الأهرام: ٢٨/١٢/١٩٧٥.

التجارة

- «ذوق الزبون!» الأخبار: ١٧/٣/١٩٦٠.

التجارة الخارجية

- «معركة التجارة.» الأخبار: ٢٦/١/١٩٦٠.

التحولات السياسية العربية

- «تحولات في السياسة العربية: المؤتمر الآسيوي الافريقي.» صباح الخير: ٢٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.

التحولات السياسية في مصر

- «أصبحت القناة لمصر.. بعد أن كانت مصر للقناة!!» صباح الخير: ٢ آب/ اغسطس ١٩٥٦.
- «قديمة.» صباح الخير: ١٦ آب/ اغسطس ١٩٥٦.
- «يوم.. في القنال.» صباح الخير: ٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.
- «التفسير الايديولوجي.. لخطبة جمال عبد الناصر.» صباح الخير: ١ آب/ اغسطس ١٩٥٧.

- «إلى مجلس الأمة.. مطلوب لجنة برلمانية للتقشف!» صباح الخير: ١٥ آب/ اغسطس ١٩٥٧.
- «الملكية العامة والحساب العام.» الأخبار: ١٩٦١/١٠/٢٨.
- «الثورة الجديدة سبقها استعداد طويل.» الأخبار: ١٩٦٣/٢/١٠.
- «اكتب من مصر ولمصر.» الجمهورية: ١٩٨١/١٢/٣.
- «ماذا حدث في مصر.» اليوم: ١٩٨٥/١٠/٢٦.

التخطيط الاقتصادي

- «تغيير الصورة.» الشعب: ١٩٥٩/٦/٩.
- «من أين؟» الشعب: ١٩٥٩/٦/١١.
- «مضاعفة الراحة!» الشعب: ١٩٥٩/٦/١٦.
- «انظروا إلى الغد.» الشعب: ١٩٥٩/٧/١.
- «الانطلاق.» الشعب: ١٩٥٩/٧/٨.
- «الشعارات أرقام.» الشعب: ١٩٥٩/٧/١٣.
- «الزهور والجذور.» الشعب: ١٩٥٩/٧/٢٠.
- «التجربة... والخطأ.» الشعب: ١٩٥٩/٨/٩.
- «أخلاقنا وتقاليدنا.. تقف عقبة في طريق التخطيط ومضاعفة الدخل.» أخبار اليوم: ١٩٦٠/١/٢.
- «المبالغة في «تخطيط» حياة الناس قد يكون لها أثر عكسي!» الأخبار: ١٩٦١/١/٢.

تروتسكي

- «قاتل تروتسكي.» الأخبار: ١٩٦٠/٢/١٢.

الترقيات الوظيفية

- «الأقدمية.. والاختيار!!» الشعب: ١٩٥٩/٨/١٧.

تركيا

- «تركيا في الأفق.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/١٣.
- «تركيا.. عقدة نفسية!» روز اليوسف: ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨.

تشاد

- «الدروز في تشاد.» المساء: ١٩٨٧/٩/٢٤.

التصريحات الرسمية

- «لغة الردح في البيانات الرسمية.» الأخبار: ١٩٦٠/١١/٧.

التضخم السكاني

ـ «زيادة السكان نعمة أم نقمة؟» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٣/٢٥.

التعايش السلمي

ـ «التعايش السلمي . . » **روز اليوسف**: ٢٠ حزيران/ يونيو ١٩٥٥.

التعليم

ـ «الشباب والعلم والسد العالي.» **صباح الخير**: ٣٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨.

تعليم النساء

ـ «أول مصرية دخلت الجامعة بلغت السبعين من العمر ولا تجد القوت.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١٢/٩.

التغير الاجتماعي

ـ «الصيف والتغيير الاجتماعي وقصص أخرى.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٨/١٧.

التقاليع

ـ «بلد التقاليد أم بلد التقاليع.» **المساء**: ١٩٨٧/١١/٩.

التكتلات السياسية

ـ «ليالي الأقطاب في فيينا.» **أخبار اليوم**: ١٩٦١/٦/٣.
ـ «المشكلة الكبرى في الاجتماع.» **أخبار اليوم**: ١٩٦١/٦/٣.
ـ «كلمة عن سياسة المحاور.» **اليوم**: ١٩٦٣/٩/٧.

تكنولوجيا

ـ «أزمة التكنولوجيا.» **المساء**: ١٩٨٦/٥/٢٢.

تكييف الهواء

ـ «تكييف الهواء!» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/٢٤.

التليفزيون

ـ «عندما يأتي التليفزيون.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/٩.
ـ «حديث عن التليفزيون.» **الأخبار**: ١٩٦١/٧/٢٤.
ـ «التليفزيون والحرب.» **المساء**: ١٩٨٤/٣/٧.

التليفزيون الاسرائيلي

- «التليفزيون في اسرائيل.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١/١٨.

التليفزيون والفنانون

- «بعض الفنانين في التليفزيون.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٨/١.

التنظيمات السياسية

- «أنواع التنظيمات الشعبية ومشاكلها.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٦/٣٠.
- «المعينون والمنتخبون... وجهاً لوجه!» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٠/٢٠.

التنمية

- «البيئة الانسانية بعد هام من أبعاد التنمية.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٦/١٨.

توفيق الحكيم

- «توفيق الحكيم والفن للحياة.» صباح الخير: ٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٨.

تونس

- «الأبيض والأكحل في تونس.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٢/١٧.
- «أيام في تونس.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١٢/٤.
- «تونس... لماذا.» **المستقبل**: ١٩٨٥/١٠/٥.
- «تونس الحاضر والمستقبل (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/٢١.
- «تونس الحاضر والمستقبل (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/٢٢.
- «تونس هل تنتهج بنهج مصر؟» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/٢٣.

تيتو، جوزيف بروز

- «تيتو يتم ٨٥ عاماً هل عدم الانحياز له دور في عصر الوفاق.» **الأهرام**: ١٩٧٧/٥/٢٢.

ـ ث ـ

الثراء

- «البحث عن الثراء.» **الشباب**: ١٩٨٩/٩/١.

الثقافة

- «في ضوء القمر الصناعي.» صباح الخير: ١٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.

- «الاغماء الفكري.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/١٩.

الثورات

- «سانتا ماريا أو الثورة العائمة!» الأخبار: ١٩٦١/١/٣٠.
- «أسباب الثورات.» الأخبار: ١٩٦١/٤/٢.
- «خطة الثورة المضادة.» الأخبار: ١٩٦١/٤/٢٠.
- «فيلم «قصة مدينتين» وطريقة تحليل الثورات!» الأخبار: ١٩٦١/٩/٢٥.
- «الثورة والشرعية.» الأهرام: ١٩٧٤/٩/٢١.
- «بين النقد والثورة المضادة.» الأهرام: ١٩٧٤/٩/٢٨.

الثورات العربية

- «لماذا لا تتم الثورة العربية بالطرق السليمة.» صباح الخير: ٣١ آب/ اغسطس ١٩٥٨.

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

- «هذا هو دور الثورة..» روز اليوسف: ٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٣.
- «الدور الذي يلعبه العسكريون في حركاتنا الوطنية.» صباح الخير: ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨.
- «ثورة واحدة منذ أربعين سنة.» صباح الخير: ٣١ تموز/ يوليو ١٩٥٨.
- «الشمس كادت تشرق.» صباح الخير: ٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨.
- «ثورة الآمال الكبيرة!» الأخبار: ١٩٦١/٢/١١.
- «ولكن الثورة أيضاً مسئولة..» الأخبار: ١٩٦٤/١/٦.
- «خلال ١٦ سنة: عن ثورة يوليو.» المصور: ٢١ تموز/ يوليو ١٩٦٨.
- «حديث غير مرتب في ذكرى ٢٣ يوليو.» الأهرام: ١٩٧٤/٧/٢٦.
- «قبل ثورة ٢٣ يوليو.» الأخبار: ١٩٨٣/٧/٢٣.
- «خناقات ذكرى ٢٣ يوليو.» المساء: ١٩٨٣/٧/٢٦.
- «الذين طالبوا الثورة بأن تكون دموية حمراء.» الأهرام: ١٩٨٤/٥/١٢.
- «نعم انتهت الثورة المصرية.» الوطن العربي: ١٩٨٦.
- «أخطر ضربة منذ الثورة.» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٣/١٧.

ثورة ١٥ مايو ١٩٧١

- «ذكرى ١٥ مايو والثورة الادارية.» الأهرام: ١٩٧٧/٥/١٥.

- ج -

جاجارين

- «جاجارين والمستقبل (١).» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/١٦.
- «رحلة جاجارين (٢).» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/١٧.
- «جاجارين والمستقبل (٣).» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/١٨.

جارة الوادي

- «يا جارة الوادي.» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/١٣.

الجاسوسية

- «من هو الجاسوس؟» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/١٠.
- «خلاص.. روحي طلعت من الصيف.. ومن جسمي المليء بالعملاء.» **صباح الخير**: ٣١ آب/ اغسطس ١٩٥٨.
- «التجسس ليس جريمة.» **المساء**: ١٩٨٦/٦/٢٩.
- «عن جاسوسية اسرائيل على أمريكا.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٣/١٢.

الجامعات

- «عنق الزجاجة.. أو.. باب الجامعة الضيق!» **صباح الخير**: ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.
- «شيء يغيظ حقاً أن تكون جامعاتنا مغلقة في هذه الشهور!» **الأخبار**: ١٩٦٢/٢/٥.

جامعة الدول العربية

- «أزمة الانفصال.» **المساء**: ١٩٨٧/١٠/٢٣.

جبل موسى

- «جبل موسى.» **المساء**: ١٩٨٣/٧/٢٧.

الجرائم

- «شقة وخمس بنات.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/١٣.

جرائم الاختطاف

- «حديث مع مخطوف.» **المساء**: ١٩٨٧/٣/٢٦.
- «خطف الدول كرهائن.» **المساء**: ١٩٨٧/٦/٢٢.

الجرائم الصحفية

- «أدب الحوار: حول مهاجمة أحد الصحفيين للأهرام.» **الأهرام:** ١٩٧٤/١٠/٦.

جرين، جراهام

- «الأمريكي الهادىء، رواية طويلة للكاتب الانجليزي جراهام جرين.» **صباح الخير:** ٢٣ أيار/ مايو ١٩٥٧.

الجزائر

- «قضية الجزائر في مرحلة دقيقة.. ومطلوب منا أن نصنع لها شيئاً.» **صباح الخير:** ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.
- «أخبث سياسي في العالم!، لماذا لا تدعو حكومة الجزائر الحكومات العربية لعقد اجتماع في مقرها؟!» **الشعب:** ١٩٥٩/٦/١.
- «تقسيم الجزائر...! مشروع ديجول السري لإقامة «اسرائيل» أخرى في شمال افريقيا.» **أخبار اليوم:** ١٩٦٠/٢/٦.
- «ثوار الجزائر في الطريق إلى باريس!» **أخبار اليوم:** ١٩٦٠/٦/٢٥.
- «مباحثات الجزائر.» **الأخبار:** ١٩٦١/٣/٣.
- «أسرار المباحثات الجزائرية، أين تم اللقاء..؟ ومتى؟.. وماذا قالوا؟» **الأخبار:** ١٩٦١/٣/٢٠.
- «من تأميم القناة إلى بترول الجزائر!!» **الأخبار:** ١٩٦١/٣/٣٠.
- «المشروع الفرنسي بالضبط ـ ولايات جزائرية متحدة!» **الأخبار:** ١٩٦١/٥/٢٩.
- «مفاوضات الجزائر من الداخل.» **الأخبار:** ١٩٦١/٥/٣٠.
- «اضراب الجزائر.» **الأخبار:** ١٩٦١/٧/٥.
- «قصة فاطمة.. أو أغرب حكاية في الثورة الجزائرية كلها.» **الأخبار:** ١٩٦٢/١٢/١.
- «ماذا يحدث الآن في الجزائر.» **الأخبار:** ١٩٦٣/٤/٢٢.
- «الجزائر في ساعة لقائها مع عبد الناصر «الحمام التركي» الذي بدأ بن بلّا في اقامته.» **الأخبار:** ١٩٦٣/٥/١١.
- «العاصفة في الجزائر.» **اليوم:** ١٩٦٣/١١/٢.
- «عشر سنوات على استقلال الجزائر.» **الأهرام:** ١٩٧٢/٦/٣٠.

الجزائر ـ ع خ ـ الولايات المتحدة

- «أمريكا والجزائر.» **الأخبار:** ١٩٦٠/١١/٣١.

الجزائر وفرنسا

- «لماذا تردد ديجول بين رقصة الحب ورقصة السلام.» **الأخبار:** ١٩٦١/٥/٢٨.

الجغرافيا

- «البحر والجبل والتاريخ.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١١/١٨.
- «الجغرافيا تقود التاريخ.» **المساء**: ١٩٨٦/١٢/١٢.

جمال عبد الناصر

- «من وحي تلك الليلة في المنيا.. البطل!» **صباح الخير**: ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨.
- «أمواج الجماهير تريد أن تطرد موج البحر وتحمل سفينة عبد الناصر.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٢/٢٠.
- «لحظة واحدة.. قابلها عبد الناصر ١٩٥٦.» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/١٧.

جنوب السودان

- «السلام على وحدة العرب إذا انفصل جنوب السودان..!» **المستقبل**: ١٩٨٥/٩/٧.

جنوب لبنان

- «تحليل اخباري حول هجمات اسرائيل على الجنوب اللبناني.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٢/٢٩.

الجنيه

- «سعر الفائدة..!» **روز اليوسف**: ١٦ آب/ اغسطس ١٩٥٤.

الجنيه المصري

- «عام الجنيه المصري.» **المساء**: ١٩٨٧/٥/٢٠.

جهاد ضاحي

- «جهاد ضاحي.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١/٢٨.

جوازات السفر

- «من يسرق الجوازات.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٣/٣١.

جورباتشوف، ميخائيل

- «جورباتشوف ومصر والعرب.» **المساء**: ١٩٨٧/٣/٢٩.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٢١.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٢٢.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (٣).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٢٣.

- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (٤).» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٩/٢٤.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (٥).» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٩/٢٥.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (٦).» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٩/٢٦.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (٧).» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٩/٢٧.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (٨).» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٩/٢٨.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (٩).» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٩/٢٩.
- «تقرير من روسيا ـ جورباتشوف (١٠).» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٩/٣٠.

الجوع

- «الجوع في بلاد الحضارة.» المساء: ١٩٨٧/٩/١٦.

جونسون، وليم

- «جونسون.. وتكساس.. والجنوب.» الأخبار: ١٩٦٣/١٢/٢.

جيش التحرير

- «المهمة الجديدة لجيش التحرير.» الأخبار: ١٩٦١/٣/٢٢.

- ح -

الحب

- «حب بالبنطلون القصير.» صباح الخير: ٨ أيار/ مايو ١٩٥٨.
- «هل هناك مكان للحب.. في مجتمعنا الجديد؟» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٦/١١.
- «الحمار الذي رفس صبياً.» المساء: ١٩٨٤/٤/١٠.

الحدائق

- «أين يتنفس أبناء الشعب.. إذا ضاعت منهم أيضاً هذه الحديقة؟!» الأخبار: ١٩٦١/٣/٢٧.

حديقة عابدين

- «اطلاق سراح حديقة عابدين وذبح الأشجار على طريق حلوان.» الأخبار: ١٩٦٢/١/١.

الحرب

- «الحرب والسلام.» روز اليوسف.
- «حرب... أو لا حرب.» الأخبار: ١٩٦٤/١/١١.

- «للحرب حسابات أخرى!!» **المساء**: ١٩٨٤/٦/٢٢.

حرب اكتوبر ١٩٧٣

- «مع بداية الأسبوع الثالث للقتال.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١٠/٢٠.
- «سوابق اسرائيل في التلاعب بقرارات وقف اطلاق النار.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١٠/٢٥.
- «أين كانوا وأين كنا قبل وبعد ٦ اكتوبر.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١٠/٣٠.
- «الهجوم الاسرائيلي المضاد.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١١/١٠.
- «هوامش على الموقف: حول حرب اكتوبر.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١١/١٧.
- «فداحة الخسائر الاسرائيلية.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١١/٢٦.
- «مائة يوم بعد ٦ اكتوبر.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١/١٤.
- «حديث للمشير أحمد اسماعيل عن قصة الثغرة.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١٠/٤.

الحرب الباردة

- «سماسرة الحرب الباردة.» **الشعب**.

حرب الجزائر

- المتصرون العائدون كيف نستقبلهم.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٤/١٥.

الحرب العالمية الثالثة

- «لو نجح هتلر من عشر سنوات لقامت الحرب العالمية الثالثة.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/٢٥.

الحرب العراقية ـ الايرانية

- «اللامعقول: حول الحرب العراقية ـ الايرانية.» **الوطن**: ١٩٨٠/١٠/١٢.
- «حول الهجوم الايراني.» **المساء**: ١٩٨٦/٣/٢٦.
- «تعمير العراق وايران.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٢٠.
- «تعمير العراق وايران.» **المساء**: ١٩٨٨/٩/٢٢.

حرب الكواكب

- «ريغان يعلن حرب الكرة الأرضية بعد حرب الكواكب.» **المستقبل**: ١٩٨٥/٧/١٣.

حرب المدن

- «حرب المدن.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/١٠.

حرب الناقلات

- «حرب الناقلات.» المساء: ١٩٨٤/٥/٢٢.

حرب النجوم

- «حرب الكواكب: شركة مساهمة.» المساء: ١٩٨٦/٤/٣.

الحرب النفسية

- «حرب الادعاءات.» المساء: ١٩٨٦/١٠/٣٠.

الحرب والسلام

- «حرب أم سلام؟» صباح الخير: ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.

حرب يونيو

- «خواطر ليلة ٥ يونيو.» الأهرام: ١٩٧٢/٦/٤.

حروب

- «حرب أو لا حرب؟» اليوم: ١٩٦٤/١/١١.
- «٤٣ دولة في حالة حرب.» المساء: ١٩٨٦/٥/١٨.
- «حين تتسع الحرب بشكل متوازن.» المساء: ١٩٨٧/٥/٨.

الحروب الصليبية

- «نعم.. نحن نعيش الحروب الصليبية العاشرة.» الأهرام: ١٩٧٦/١٠/٢٤.

الحرية

- «في الحرية!!» روز اليوسف: ٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٥٣.
- «للحرية.. فقط!» روز اليوسف: ١٢ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٣.
- «معنى الحرية!» روز اليوسف: ١٠ أيار/ مايو ١٩٥٤.
- «مولد حرية...» صباح الخير: ١٦ شباط/ فبراير ١٩٥٦.
- «الحرية.. والاشتراكية.. والوحدة..» أخبار اليوم: ١٩٦٢/٥/٢٦.
- «أول مشاكل الحرية: كيف تتحول مزرعة النبيذ القديمة إلى مجتمع عادل جديد.» الأخبار: ١٩٦٢/١١/١٧.
- «الطريق نحو الحرية.» الأهرام: ١٩٧٦/٣/٢١.
- «تمثال الحرية.» المساء: ١٩٨٦/٨/٤.

حرية الفكر

- «الفكر لا يعرف المقاطعة.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١٠/٢٩.

حزب البعث

- «ثورة البعث.» صباح الخير: ٧ حزيران/ يونيو ١٩٥٦.

الحزب الشيوعي السوفييتي

- «هذا هو البرنامج الجديد للحزب الشيوعي الروسي.» **الأخبار**: ١٩٦١/٨/١٢.

حزب العمال

- «حزب العمال بعد جيتسكيل هل يتجه إلى اليمين أم إلى اليسار.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١/٢١.

حزب الوفد

- «هل يعود الوفد؟!» المساء: ١٩٨٣/٦/٢٣.

حزب الوفد القديم

- «الملك يقبل بعودة الوفد في محاولة أخيرة لانقاذ النظام القديم.» **الأهرام**: ١٩٨٤/٥/٨.

حسني مبارك

- «السادات اختار حسني مبارك ليكون رئيساً للجمهورية.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١٠/١٧.
- «يكفي أن مصر استردت صحتها النفسية وصفاءها الذهني في عهد مبارك.» المساء: ١٩٨٣/١٠/٢٣.

حسني مبارك والثقافة والأدب

- «مبارك وأدباء وكتاب مصر.» المساء: ١٩٨٧/٩/٣٠.

حسين بن طلال

- «الملك حسين جاء متأخراً.» الأخبار: ١٩٦٠/١٠/١١.
- «السر الحقيقي للملك حسين.» الأخبار: ١٩٦٠/١٠/١٢.
- «حديث الملك حسين.» المساء: ١٩٨٤/٣/٢٠.

الحشيش

- «حشيش!!» روز اليوسف: ٢٨ حزيران/ يونيو ١٩٥٤.

حقوق الانسان

- «العدل والحرية.» صباح الخير: ٢٨ حزيران/ يونيو ١٩٥٦.
- «انتصارات جديدة لحقوق الانسان.» صباح الخير: ١٨ تموز/ يوليو ١٩٥٧.
- «مشكلة الفرد في الدولة الحديثة.» المصور: ٢٨ أيار/ مايو ١٩٧١.

الحكام

- «من يحكم البيت الحديث.» المساء: ١٩٨٧/٤/١٤.
- «كيف يسأل الحاكم.» المساء: ١٩٨٧/٦/٣.

الحكومة الاسرائيلية

- «لم تكن هناك.» الشعب: ١٩٥٩/٧/١٧.

الحلال والحرام

- «الحلال والحرام.» الجمهورية: ١٩٨١/١١/٢٦.

حلف الأطلنطي

- «ورطة الغرب بين أفول ايزنهاور.. وحلف الأطلنطي.» صباح الخير: ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.
- «حلف الأطلنطي دولي لا اقليمي.» الأخبار: ١٩٦١/٥/١٥.

حلوان

- «عطلة نهاية الأسبوع في أرض المستقبل: حلوان.» الأخبار: ١٩٦١/٤/٢٩.

حوادث الاختطاف

- «ماذا قال المختطفون السوفييت.» المساء: ١٩٨٦/٣/١٨.

الحياد الايجابي

- «الحياد الذي نريد.» الفصول: [د. ت.].
- «دعوة الحياد...» روز اليوسف: ٣٠ أيار/ مايو ١٩٥٥.

الحياة

- «هكذا تتمتع بحياتك.» الأخبار: ١٩٦٠/٧/٢٥.

- «الحياة على عجل.» الأخبار: ١٩٦٠/٨/٢٦.

الحياة العصرية

- «مطلوب تعريف كلمة العصرية.» الأخبار: ١٩٦٧/٨/١١.

- خ -

الخرائط ـ مصر

- «البحث عن نظرية لرسم الخريطة الجديدة لبلادنا.» الأخبار: ١٩٦٣/١/١٤.
- «نحو رسم خريطة جديدة لمصر؛ ماذا نفعل بمرسى مطروح وحلوان.» الأهرام: ١٩٧٢/٦/٢٥.

خروشوف

- «خروشوف والأساقفة.» الأخبار: ١٩٦٠/٣/٨.
- «خروشوف في الشانزيليزيه!» الأخبار: ١٩٦٠/٣/١٤.
- «زوجة خروشوف.» الأخبار: ١٩٦٠/٣/٣١.
- «خروشوف في معرض الرسم.» الأخبار: ١٩٦٢/١٢/١٠.

الخليج العربي

- «شهرزاد والسندباد البحري في الخليج.» الأخبار: ١٩٦١/٧/١٧.
- «نظرات على المشهد العربي الراهن: الخليج العربي: الاتحاد أو الانهيار ولا يوجد طريق ثالث.» المصور: ٢٦ نيسان/ ابريل ١٩٦٨.
- «اسرائيل.. والخليج.» المساء: ١٩٨٤/٦/٢١.
- «الخليج والحرب العالمية الثالثة.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/١٢.

الخوف

- «خوف يبحث عن سبب.» الأخبار: ١٩٦١/٥/١٥.

- د -

داسو، ماسيل

- «ماسيل داسو.» المساء: ١٩٨٦/٥/٢١.

الدبلوماسية

- «حادث الأسبوع الدبلوماسي!» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٥.

الدبلوماسيون المصريون

- «أكثر من رسالة، تلقيتها من الشبان المصريين الذين يعملون في سفارات مصر بالخارج.» **صباح الخير**: ١ آذار/ مارس ١٩٥٦.

دراسات نقدية

- «دراسة نقدية للبحث عن كتاب لبعض قادة الحزب.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٨/٥.

الدستور

- «الحرية تصنع الدستور!» **روز اليوسف**: ١٣ نيسان/ ابريل ١٩٥٣.
- «الانهيار الدستوري!» **روز اليوسف**: ١٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٥.

دودة القز

- «دودة القز. . !!» **المساء**: ١٩٨٧/١١/٢.

الدولار

- «عصر الدولار!!» **المساء**: ١٩٨٥/٧/١١.

دول عدم الانحياز

- «بلغراد والأقطاب والمؤتمر.» **اليوم**: ١٩٦١/٩/٩.
- «الكلمات المتقاطعة في السياسة الدولية: حول حركة عدم الانحياز.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٨/٦.
- «عدم الانحياز هل مازال له دور.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١/١٤.
- «العودة إلى حركة عدم الانحياز.» **الأهرام**: ١٩٧٨/٧/٣٠.
- «بغداد وقمة عدم الانحياز.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٤/٨.

دول الكومنولث

- «الكومنولث.» **صباح الخير**: ١٩ تموز/ يوليو ١٩٥٦.
- «الأسود والأبيض في مؤتمر الكومنولث.» **صباح الخير**: ٤ تموز/ يوليو ١٩٥٧.

الدولة

- «شكل الدولة المعقد الجديد.» **صباح الخير**: ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٥٨.

ديجول، شارل

- «ديجول أداة في يد الجيش والجيش أداة في يد اليمين.» **صباح الخير**: ٢٢ أيار/ مايو ١٩٥٨.
- «خطوات ديجول المقبلة.» صباح الخير: ١٢ حزيران/ يونيو ١٩٥٨.
- «خطة ديجول المقبلة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٦/٢٠.
- «العالم كما يتصوره ديجول.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٢/٢.
- «لماذا وقف ديجول معنا في الأمم المتحدة.» **المصور**: ٧ تموز/ يوليو ١٩٦٧.

الديكور

- «الذوق الكئيب.. في أثاث بيوتنا!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٦/١٣.
- «صورة.. على جدران بيتك.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٦/٢٧.

الديمقراطية

- «الديمقراطية.. والنظام!» **روز اليوسف**: ٢٢ آب/ اغسطس ١٩٥٥.
- «الغيرة والحسد أمراض ديمقراطية.» آخر ساعة: ١٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٩.
- «الديمقراطية في الصحراء.» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/٢٧.
- «عماد الديمقراطية.» **الفصول**: [د. ت.].
- «سيطرة رأس المال تقضي على كل معنى من معاني الديمقراطية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٢/٤.
- «الطلاق الديمقراطي.» المساء: ١٩٨٣/١١/٢٧.

- ذ -

الذكاء

- «مهنة الذكاء.» المساء: ١٩٨٧/١٢/٢٨.

- ر -

رابين، اسحاق

- «هل رابين في طريقه للخروج.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٣/١٤.
- «لماذا لا نصدق أسباب خروج رابين.» **الأهرام**: ١٩٧٧/٤/١٧.

رأسمالية

- «الاقطاعيون.. والرأسماليون.. والمثقفون.. والعمال.» **روز اليوسف**: ١٧ أيار/ مايو ١٩٥٤.

- «ما هي الرأسمالية.» **صباح الخير**: ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٥٦.
- «التعاونية في أمريكا!» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/٢٧.

ربات البيوت

- «مهمة جديدة لربات البيوت.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٢/١١.

الرجال

- «عن الرجال والنساء!» **الأخبار**: ١٩٦٤/٢/١٧.

الرجعية

- «البحث عن حل لمواجهة الهجوم الرجعي الخطير.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١/٦.
- «الرجعية ليست مصالح قديمة فقط ولكنها أيضاً عادات فكرية قديمة!» **الأخبار**: ١٩٦٣/٣/٢.

الرسائل

- «أدب الرسائل.» **المساء**: ١٩٨٤/١١/٢٧.
- «ربع مليون رسالة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/٢٩.

الرسوم الجمركية

- «ما معنى القانون: حول اجراءات الاستيراد والرسوم المتكررة.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٣/٥.

الرشوة

- «سلاح الرشوة.» **صباح الخير**: ٢٥ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٦.

رشيد كرامي

- «رشيد كرامي لماذا قتل خطأ.» **المساء**: ١٩٨٧/٦/٩.

رضا بهلوي

- «أزمة الشاه!» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/٥.
- «حديث مع شاه ايران.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١٢/٢٧.

الرهائن

- «خطف الرهائن تشويش على الثورة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٦.

روجرز، وليم

- «حول رحلة روجرز ما تغير وما لم يتغير.» المصور: ٧ أيار/ مايو ١٩٧١.
- «لماذا جاء ولماذا ذهب: حول جولة روجرز.» المصور: ١٤ أيار/ مايو ١٩٧١.

روسيا

- «الخطيئة الروسية.» الوطن: ١٩٨٠/٢/١٠.
- «البعد الروسي.» المساء: ١٩٨٣/١٠/١٧.

روسيا ـ ع خ ـ اسرائيل

- «روسيا.. واسرائيل.» المساء: ١٩٨٤/٦/١٩.

روسيا ـ ع خ ـ الصين

- «أسرار الخلافات بين روسيا والصين.» الأخبار: ١٩٦٢/١٢/١٥.
- «المؤتمر الافريقي الآسيوي يتفرغ للفرجة على المجزرة بين روسيا والصين.» الأخبار: ١٩٦٤/٣/٢٨.

روميو وجوليت

- «روميو وجوليت على رصيف نيويورك.» الأخبار: ١٩٦٢/١٢/٣١.

الرياضة

- «حكايات أولمبية.» المساء: ١٩٨٤/٨/١٤.

ريجان، رونالد

- «أفلام.. رونالد ريجان.» المساء: ١٩٨٤/٣/١٢.
- «وابتلعها الرئيس ريجان.» المساء: ١٩٨٧/٣/١٧.

ـ ز ـ

زفتى

- «امبراطورية زفتى.» الشباب: ١٩٩٠/٤/١.

الزواج

- «نقود الزوجة.» صباح الخير: ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.
- «ونقود الزوج.» صباح الخير: ٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨.
- «زوج مشغول جداً جداً.» الأخبار: ١٩٦٠/٣/٢.

- «فضيحة كبرى.. ست بنات مصريات يرفضن الزواج في أسوان..!» **الأخبار**: ١٩٦٢/١/١٥.
- «يا عزاب اسوان.. اطمئنوا، اسوان تريد روادا لا موظفين فقط.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١/٢٢.

الزيتون

- «حرب الزيتون.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/٣.

- س -

السب في الصحافة

- «الألفاظ النابية في الصحافة.» **صباح الخير**: ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.

ستالين

- «محاكمة ستالين!» **صباح الخير**: ١ آذار/ مارس ١٩٥٦.
- «حذف الستالينية من القاموس.» **صباح الخير**: ١٢ نيسان/ ابريل ١٩٥٦.
- «بنت ستالين في الفضاء الخارجي.» **المساء**: ١٩٨٦/٥/٢٠.

السجائر

- «هل بدأت نهاية امبراطورية السجائر؟» **الأخبار**: ١٩٦٤/١/٢٧.

السجون

- «من سجن.. إلى سجن.» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٢٥.
- «السجن والأسر الباقيان.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/٢٠.

السجون ـ المغرب

- «قصة ٢٤ ساعة في سجون المغرب.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٥/٢.

السد العالي

- «الشباب والعلم والسد العالي.» **صباح الخير**: ٣٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨.
- «السد!» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/٢٠.

سرحان بشارة

- «رصاصات سرحان بشارة ليست وحدها التي قتلت كيندي.» **المصور**: ١٤ حزيران/ يونيو ١٩٦٨.

سعد زغلول

- «سعد المفترى عليه.» **روز اليوسف**: ٢٧ نيسان/ ابريل ١٩٥٣.
- «سعد المفترى عليه، سعد لم يؤمن بالحب الأفلاطوني.» **روز اليوسف**: ٤ أيار/ مايو ١٩٥٣.
- «ذكرى.. بطل.» **الشعب**: ١٩٥٩/٨/٢٢.

سعيد فريحة

- «سعيد فريحة بين بيروت وشتوره.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/١١.

السكان

- «صحيح أن سكان القطر زادوا بنسبة ٣٦٪.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١٠/٢٩.

سكان المخيمات

- «من صانع القرار إلى ساكن المخيم.» **المساء**: ١٩٨٧/٥/٢٦.

سلامة موسى

- «كتاب جديد لسلامة موسى.» **روز اليوسف**: ١٨ نيسان/ ابريل ١٩٥٥.

السنة الميلادية

- «أول السنة من غيرنا يقول هذا.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/١/٧.
- «سنة ١٩٨٨.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١/١.
- «رحل عام ١٩٨٨.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١/٥.

سنة ١٩٦٠

- «الدين وسنة ١٩٦٠.» **الأخبار**: ١٩٥٩/١٢/٢٢.

سنة ١٩٨٦

- «سنة راحت.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/٣١.

سهير القلماوي

- «أول مصرية دخلت الجامعة.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١٢/٩.

السودان

- «السودان والجنوب والدول العربية.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٥/١٧.

- «اعدام السوداني الطيب وما رأي الجماعات الاسلامية بمصر.» **الأهالي**: ١٩٨٥/١/٢٢.
- «سر الخزانة الحديدية في مبنى المخابرات السودانية.» **المستقبل**: ١٩٨٥/٦/١١.
- «انتخابات السودان وكيف تنظم الديمقراطية.» **المساء**: ١٩٨٦/٤/٧.
- «التاريخ يعيد نفسه في السودان.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/١٩.
- «التاريخ يعيد نفسه في السودان.» **المساء**: ١٩٨٧/٩/٢٠.
- «عندما اتهمت بتدبير انقلاب عسكري في السودان.» **الأهالي**: ١٩٨٩/٣/١٥.

سوريا

- «رائحة البارود في سوريا.» **صباح الخير**: ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧.
- «ليالي دمشق.» **صباح الخير**: ٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.
- «رد على الذين هاجموا دعوة همرشولد إلى سوريا.» **صباح الخير**: ٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.
- «في دمشق الآن الخلاف حول موعد الانتخابات وطريقة الغاء القوانين الاشتراكية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٠/١٤.
- «السؤال الكبير الذي يواجه القيادة الجديدة في دمشق.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٤/٩.
- «سر الحيرة في دمشق.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٦/٢٣.
- «السر الكبير!، الانقلاب الذي لم يقع منذ أسبوعين في دمشق.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١٢/٧.
- «فزورة سوريا.» **المساء**: ١٩٨٦/٦/١.

سوريا ـ تاريخ

- «الشد والجذب في سوريا.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٠/١١.

سوريا ـ القوات المسلحة

- «سياسة الحكومة السورية تسيء إلى كرامة الجيش السوري، وتجعله ذيلاً لمصر.» **صباح الخير**: ١٨ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٦.

سوريا ولبنان

- «أين قلب بيروت النابض: سهرة صاخبة في البرلمان السوري.» **صباح الخير**: ١٨ نيسان/ ابريل ١٩٥٧.

السوق الأوروبية المشتركة

- «شعب مسلم في السوق الأوروبية.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/٢٦.

السوق العربية المشتركة

- «قراءة في كف المستقبل: السوق الرجعية المشتركة.» **الأخبار**: ١٩٦١/١١/١.

سوق العمل

- «الشباب وعصابات بناء العمارات.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/١٦.

السويد

- «رسالة من السويد.» **صباح الخير**: ٥ نيسان/ ابريل ١٩٥٦.
- «قصر في السويد.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٧/١٩.

سويسرا

- «رسالة.. قبل سويسرا!» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/٢٢.
- «السويسريون.» **المساء**: ١٩٨٤/٧/١٣.
- «الحياد السويسري.» **المساء**: ١٩٨٦/٣/٢٥.

السياحة

- «كفى كلاماً عن السياح!» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/٨.

السيارات ـ مصر ـ صناعة وتجارة

- «صناعة السيارات في بلدنا والمنطق الجديد للحياة.» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/٣١.

السياسة

- «إذا اختلف اللصان!» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/٢٤.
- «إذا خلا الجبان!» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «١٤ يوليو!» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «الأقطاب الأربعة... أصبحوا اثنين!!» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «الاقطاع الدولي.» **الشعب**: ١٩٥٩/٧/٣١.
- «بدلاً من الصراع الدموي.» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «(تركيز) المعركة.» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «الجماهير تعلم الجماهير.» **الشعب**: ١٩٥٩/٧/١٩.
- «حذار من القيود.» **الفصول**: [د. ت.].
- «حرية ومساواة.» **الفصول**: [د. ت.].
- «الخروج من الخنادق.» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «الخليفة المنتظر.» **الشعب**.

- «سر التضارب.» الشعب: ١٩٥٩/٦/٢٩.
- «السؤال الأبدي.» الشعب: ١٩٥٩.
- «العدالة الثورية!» الشعب: ١٩٥٩.
- «العذاب!» الشعب: ١٩٥٩.
- «عقب السيجارة!» الشعب: ١٩٥٩.
- «قاوموا السوس!» الشعب: ١٩٥٩.
- «القومية الميكانيكية!» الشعب: ١٩٥٩.
- «كتيبة المؤخرة!» الشعب: ١٩٥٩.
- «لا تضحكوا!» الشعب.
- «لا تفرقوا!» الشعب: ١٩٥٩.
- «لا توجد دولة مستقلة.» الفصول: [د. ت.].
- «لو كان ممكناً.» الشعب: ١٩٥٩/٨/١٦.
- «معاني الكلمات!» الشعب: ١٩٥٩/٧/١٦.
- «معنى الفرصة!» الشعب: ١٩٥٩.
- «المهمة الأولى.» الشعب: ١٩٥٩.
- «نفسية المعركة.» الشعب: ١٩٥٩.
- «هذا العالم المريض.» الفصول: [د. ت.].
- «هل خلافها رحمة؟!» الشعب: ١٩٥٩.
- «وجدان الشعب!» الشعب: ١٩٥٩/٨/٦.
- «يقولون عنا...» الفصول: [د. ت.].
- «الأكذوبة الكبيرة!» روز اليوسف: ١٦ آذار/ مارس ١٩٥٣.
- «قصة خلاف!» روز اليوسف: ١٦ آذار/ مارس ١٩٥٣.
- «الرجل الثالث!» روز اليوسف: ٢٣ آذار/ مارس ١٩٥٣.
- «الصورة.. غير مقدسة!» روز اليوسف: ٢٠ نيسان/ ابريل ١٩٥٣.
- «تهمة الخيانة!!» روز اليوسف: ٢٠ نيسان/ ابريل ١٩٥٣.
- «الامبراطورية الخفية!» روز اليوسف: ٢٧ نيسان/ ابريل ١٩٥٣.
- «يا عبيد العالم الحر.. اتحدوا!» روز اليوسف: ١١ أيار/ مايو ١٩٥٣.
- «الطماطم والخيار!» روز اليوسف: ٢٥ أيار/ مايو ١٩٥٣.
- «حق أم صدقة؟!» روز اليوسف: ٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٥٣.
- «متى يعيد التاريخ نفسه.» روز اليوسف: ٢٧ تموز/ يوليو ١٩٥٣.
- «ابن عم النبي!!» روز اليوسف: ١٠ آب/ اغسطس ١٩٥٣.
- «أفسدوا الأمن عليهم!!» روز اليوسف: ٣١ آب/ اغسطس ١٩٥٣.
- «قصة المغارة السوداء!» روز اليوسف: ١٩ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٣.
- «هذا الصوت!!» روز اليوسف: ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٣.

- «العفو يا حضرات!!» روز اليوسف: ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٣.
- «هل هذا يكفي؟» روز اليوسف: ٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٤.
- «ما الذي تغيّر..؟» روز اليوسف: ١١ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٤.
- «داوني بالتي كانت هي الداء!» روز اليوسف: ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٤.
- «لا بد من ثمن!» روز اليوسف: ٢٦ نيسان/ ابريل ١٩٥٤.
- «البحث عن أخلاق جديدة.» روز اليوسف: ٣ أيار/ مايو ١٩٥٤.
- «المتحذلقون!» روز اليوسف: ١٠ أيار/ مايو ١٩٥٤.
- «أزمة الضمير الحديث!» روز اليوسف: ٣١ أيار/ مايو ١٩٥٤.
- «الثلاث ورقات!» روز اليوسف: ٥ تموز/ يوليو ١٩٥٤.
- «الحقيقة!» روز اليوسف: ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٤.
- «فن الكذب السياسي.» روز اليوسف: ٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٥.
- «هذه أرض!» روز اليوسف: ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٥.
- «للدفاع فقط!!» روز اليوسف: ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٥٥.
- «البارود.. والكبريت.. والخبراء.» روز اليوسف: ٤ نيسان/ ابريل ١٩٥٥.
- «هذه الاستقالات!» روز اليوسف: ١١ نيسان/ ابريل ١٩٥٥.
- «بوليس العقل!» روز اليوسف: ٢٥ نيسان/ ابريل ١٩٥٥.
- «انتبهوا.. هذا تحول خطير!» روز اليوسف: ٩ أيار/ مايو ١٩٥٥.
- «تمسكوا بهذا الحق..!!» روز اليوسف: ٥ تموز/ يوليو ١٩٥٥.
- «الصوت الناعم العميق!» روز اليوسف: ١١ تموز/ يوليو ١٩٥٥.
- دعوة إلى مؤتمر جديد!» روز اليوسف: ٢٩ آب/ اغسطس ١٩٥٥.
- «احتكار السياسة!» روز اليوسف: ١٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٥.
- «لا خطوة إلى الوراء!» روز اليوسف: ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٥.
- «سر الأزمة!» روز اليوسف: ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٥.
- «نسبة مئوية.. من استقلالنا!» روز اليوسف: ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٦.
- «حق.. مع وقف التنفيذ!» روز اليوسف: ٢٧ آب/ اغسطس ١٩٥٦.
- «الطريد يعود!!» روز اليوسف: ٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.
- «لماذا نقاتل؟» روز اليوسف: ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.
- «لم يمت!!» روز اليوسف: ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.
- «وصية سياسية.» روز اليوسف: ٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.
- «ماذا بقي لها..؟» روز اليوسف: ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.
- «ثأر قديم!!» روز اليوسف: ٢٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.
- «قلوبنا معها..» روز اليوسف: ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.
- «ماذا يكون رأيك.» الشعب: ١٣/٦/١٩٥٩.
- «أمل كل يوم!» روز اليوسف: ٢٨ تموز/ يوليو ١٩٥٩.

- «تراجع: واستعداد لجولة قادمة!» الشعب: ١٤/٨/١٩٥٩.
- «لو سألت زوجها.» الأخبار: ١/١/١٩٦٠.
- «إذا أرادوا الحياة!» الأخبار: ٦/١/١٩٦٠.
- «الحياة في الأقفاص!» الأخبار: ١١/١/١٩٦٠.
- «أول محطة.» الأخبار: ١٣/١/١٩٦٠.
- «الرقص على السلالم!» الأخبار: ٢٢/١/١٩٦٠.
- «بيرة وحلوى!» الأخبار: ٢٧/١/١٩٦٠.
- «عصفور في اليد!» الأخبار: ٢٩/١/١٩٦٠.
- «القارة الجديدة التي ينقلب فيها كل شيء بسرعة!» أخبار اليوم: ٣٠/١/١٩٦٠.
- «ماو.. في لندن!» الأخبار: ٣١/١/١٩٦٠.
- «إنها ليست قصة زجاجة عطر...» أخبار اليوم: ١٣/٢/١٩٦٠.
- «أربعة تعليقات!» الأخبار: ٣١/٣/١٩٦٠.
- «معركة في الشارع!» الأخبار: ٧/٣/١٩٦٠.
- «دعوتان!» الأخبار: ٩/٣/١٩٦٠.
- «الوقوف على الرأس!» الأخبار: ٣١/٣/١٩٦٠.
- «يا بلاش!» الأخبار: ١٥/٣/١٩٦٠.
- «هل هم عقلاء؟!» الأخبار: ٢٠/٣/١٩٦٠.
- «ولا المصافحة.» الأخبار: ٢٣/٣/١٩٦٠.
- «العم الغني!» الأخبار: ٢٥/٣/١٩٦٠.
- «للحيطان.. آذان!» الأخبار: ٢٨/٣/١٩٦٠.
- «هل أنت متقدم.. أو ناشىء.. أو متخلف.» أخبار اليوم: ٢/٤/١٩٦٠.
- «الرجل الأبيض.. والرجل الأسود.. والغوريللا!» أخبار اليوم: ٢٣/٤/١٩٦٠.
- «الحاضر يشرح لنا الماضي!» أخبار اليوم: ٧/٥/١٩٦٠.
- «من أين جاءوا؟! وكيف يفكرون.» أخبار اليوم: ١٤/٥/١٩٦٠.
- «الأحلام والسياسة.» الأخبار: ١٨/٥/١٩٦٠.
- «المستقبل الغامض!، عقدة نفسية اسمها.. الهجوم المفاجىء...» أخبار اليوم: ٢١/٥/١٩٦٠.
- «الحياة اللذيذة.. خلف الستار الذهبي!!» أخبار اليوم: ٤/٦/١٩٦٠.
- «ما دمنا ثواراً.. فلنحمل مسئولية الثوار.» أخبار اليوم: ٢١/٧/١٩٦٠.
- «نحن لن نقلد الماضي القديم.. كما أننا لا نقلد الآخرين!» أخبار اليوم: ٢٣/٧/١٩٦٠.
- «لعبة «الاستغماية».» أخبار اليوم: ١٣/٨/١٩٦٠.
- «جزيرة الكنز.. وجبل الفراولة!» الأخبار: ١٩/٩/١٩٦٠.
- «أين يقف الأعضاء الجدد.» الأخبار: ٢٦/٩/١٩٦٠.

- «لماذا هز كتفيه؟» **الأخبار**: ١٠/١٠/١٩٦٠.
- «عائدون!» **الأخبار**: ١٣/١٠/١٩٦٠.
- «أعصابنا!» **الأخبار**: ١٤/١٠/١٩٦٠.
- «بعد العاصفة.» **الأخبار**: ١٦/١٠/١٩٦٠.
- «كل قطب.. له طريقة!» **الأخبار**: ١٧/١٠/١٩٦٠.
- «مذكرات سيدة!» **الأخبار**: ١٨/١٠/١٩٦٠.
- «الأزمة الجديدة.» **الأخبار**: ٢١/١٠/١٩٦٠.
- «راقبوا الاسم الجديد.» **الأخبار**: ٢٤/١٠/١٩٦٠.
- «مفتاح الفضيحة.» **الأخبار**: ٢٦/١٠/١٩٦٠.
- «لا تنبؤا!» **الأخبار**: ٢٧/١٠/١٩٦٠.
- «لا أحد يصدق.» **الأخبار**: ٣٠/١٠/١٩٦٠.
- «لماذا سقطت نفيسه؟!» **الأخبار**: ٣١/١٠/١٩٦٠.
- «السوق السوداء السياسية.» **الأخبار**: ١/١١/١٩٦٠.
- «بولاريس.» **الأخبار**: ٦/١١/١٩٦٠.
- «صخرة النجاة.» **الأخبار**: ٨/١١/١٩٦٠.
- «وزير الخارجية.» **الأخبار**: ١١/١١/١٩٦٠.
- «القنابل المزورة!، سلاح جديد!» **أخبار اليوم**: ١٩/١١/١٩٦٠.
- «التآمر المشروع.» **الأخبار**: ٢٠/١١/١٩٦٠.
- «خسارة للعالم!» **الأخبار**: ٢٣/١١/١٩٦٠.
- «المعركة في القلوب!» **الأخبار**: ١٢/١٢/١٩٦٠.
- «مفاجأة كبرى!» **الأخبار**: ١٣/١٢/١٩٦٠.
- «الذي تغير!» **الأخبار**: ١٤/١٢/١٩٦٠.
- «مهزلة العام الماضي!» **الأخبار**: ١٩/١٢/١٩٦٠.
- «مستقبل الامبراطور.» **الأخبار**: ٢٢/١٢/١٩٦٠.
- «الحياد.. والفراغ.» **الأخبار**: ٢٣/١٢/١٩٦٠.
- «موت رفاقي.» **الأخبار**: ٢٥/١٢/١٩٦٠.
- «الاتحاد!» **الأخبار**: ٢٦/١٢/١٩٦٠.
- «.. ومؤتمر ثالث.» **الأخبار**: ٣٠/١٢/١٩٦٠.
- «قصة أخرى.» **الأخبار**: ١٣/١/١٩٦١.
- «لماذا؟.. وكيف؟.. ومتى؟!» **الأخبار**: ١٤/١/١٩٦١.
- «من نفس الكأس.» **الأخبار**: ١٥/١/١٩٦١.
- «سيقتلونه.. سيقتلونه!!» **الأخبار**: ١٩/١/١٩٦١.
- «مرض الروماتيزم الاداري.» **الأخبار**: ٢٨/١/١٩٦١.
- «المتطوعون الجدد!» **الأخبار**: ٨/٢/١٩٦١.

- «النفاثات. . والقبائل.» الأخبار: ١٩٦١/٢/٩.
- «بشرط!» الأخبار: ١٩٦١/٢/٢٢.
- «القضية!» الأخبار: ١٩٦١/٢/٢٣.
- «الأزمة المقبلة.» الأخبار: ١٩٦١/٢/٢٦.
- «القمر. . والطين!» الأخبار: ١٩٦١/٢/٢٧.
- «الفرسان الثلاثة والقرود الثلاثة!» الأخبار: ١٩٦١/٣/٥.
- «علامات استفهام.» الأخبار: ١٩٦١/٣/١٠.
- «الانسحاب!» الأخبار: ١٩٦١/٣/١٦.
- «خمر وحرب!» الأخبار: ١٩٦١/٣/٢١.
- «الطرف الوحيد!» الأخبار: ١٩٦١/٣/٢٨.
- «ليس الاستقلال فقط!» الأخبار: ١٩٦١/٤/٦.
- «أغرب ما يكون!» الأخبار: ١٩٦١/٤/١٠.
- «سياسة نابوليونية!» الأخبار: ١٩٦١/٤/١٩.
- «لعبة الأعصاب!» الأخبار: ١٩٦١/٤/٢٦.
- «. . ثم ماذا؟» الأخبار: ١٩٦١/٤/٢٧.
- «الفرقة الأجنبية!» الأخبار: ١٩٦١/٥/٢.
- «سر جديد.» الأخبار: ١٩٦١/٥/٣.
- «كيف يعملون؟!» الأخبار: ١٩٦١/٥/٩.
- «من حق كل جيل أن يختار لون بنطلوناته!!» الأخبار: ١٩٦١/٥/١٣.
- «خوف يبحث عن سبب!» الأخبار: ١٩٦١/٥/١٥.
- «المحكومون يحررون حكامهم!» الأخبار: ١٩٦١/٥/١٦.
- «من هم. . الذين يبرزون في الحياة، ولماذا؟» الأخبار: ١٩٦١/٥/٢٠.
- «تليفزيون. . وقنابل. . ومفاوضات.» الأخبار: ١٩٦١/٥/٢٩.
- «حتى تعيش الذكريات!» الأخبار: ١٩٦١/٦/٥.
- «انقلاب جديد!» الأخبار: ١٩٦١/٦/١٨.
- «صفقة الموسم!» الأخبار: ١٩٦١/٦/١٩.
- «زلة لسان!» الأخبار: ١٩٦١/٦/٢١.
- «أغرب حادث!» الأخبار: ١٩٦١/٦/٢٣.
- «الجزار!» الأخبار: ١٩٦١/٦/٣٠.
- «سندباد مصري.» الأخبار: ١٩٦١/٧/١.
- «المأساة!» الأخبار: ١٩٦١/٧/٢١.
- «لعبة الموت!» الأخبار: ١٩٦١/٧/١١.
- «صواريخ!» الأخبار: ١٩٦١/٧/١٢.
- «أرض الصراع الجديد.» الأخبار: ١٩٦١/٧/١٥.

- «عودة إلى المائدة!» الأخبار: ١٩٦١/٧/١٨.
- «نقطة الضعف!» الأخبار: ١٩٦١/٧/٢٦.
- «لا يا شيخ؟؟» أخبار اليوم: ١٩٦١/٨/١٩.
- ««انذار»!!» الأخبار: ١٩٦١/٨/٢٦.
- «حديث تليفزيوني.» الأخبار: ١٩٦١/٩/٢٧.
- «فوق الجراح.. وفوق الألم!» الأخبار: ١٩٦١/١٠/٣.
- «بيان الانفصاليين.» الأخبار: ١٩٦١/١٠/٤.
- «مناورات كزيرية.» الأخبار: ١٩٦١/١٠/٥.
- «الماضي.. والمستقبل!» الأخبار: ١٩٦١/١٠/٧.
- «مشايخ الطرق الكزيرية وطريقة احتكار المبادىء واحتكار الاخلاص.» الأخبار: ١٩٦١/١٠/١٦.
- «ظهرهم إلى البحر!» الأخبار: ١٩٦١/١٠/٢٤.
- «يجب أن تتسع دائرة الثقة...» الأخبار: ١٩٦١/١١/٤.
- «اللجنة التحضيرية مهمتها أخطر جداً من اسمها!» الأخبار: ١٩٦١/١١/٨.
- «كلمة من المحرر!» الأخبار: ١٩٦١/١٢/٩.
- «حرية النملة.. في غابة الأفيال.» الأخبار: ١٩٦٢/٤/٢١.
- «هذه ليست أسباب الاضطرابات ولكنها مجرد عيدان كبريت!» آخر ساعة: ٦ شباط/ فبراير ١٩٦٣.
- «نهاية الطاغية المجنون!» الأخبار: ١٩٦٣/٢/٩.
- «الرجل الذي وضع السلطة «تحت البلاطة».» الأخبار: ١٩٦٣/٢/١٨.
- «نحن لا نبني وطناً أضخم!» الأخبار: ١٩٦٣/٣/٢٥.
- «نحن لا نبني وطناً أكبر.. بل وطناً أفضل ولكن.. ما هي المشكلة؟» الأخبار: ١٩٦٣/٣/٣٠.
- «إذا تقررت الوساطة...» الأخبار: ١٩٦٣/٦/٨.
- «عندما يكون الحزب صورة من المجتمع وعندما يكون أداة لتغيير المجتمع.» الأخبار: ١٩٦٣/٩/٧.
- «صحيح!.. إن أقدامنا متعبة ولكن أرواحنا تستريح.» الأخبار: ١٩٦٣/٩/١٤.
- «البحر والجبل والتاريخ!» الأخبار: ١٩٦٣/١١/١٨.
- «الجدران التي لا ينفذ منها الرصاص لا تنفذ منها الحقيقة.» الأخبار: ١٩٦٣/١١/٢٣.
- «الشاهد الأول يتكلم.» الأخبار: ١٩٦٣/١١/٣٠.
- «أهل الكلامولوجيا.» المصور: ٢٧ آذار/ مارس ١٩٧٠.
- «حوار مطلوب.» الأهرام: ١٩٧٣/٢/٤.
- «العام الذي يسمونه عام الحوار.» الأهرام: ١٩٧٣/٢/١١.

- «مؤشرات في العمل السياسي والاعلامي: لسنا بترولاً فقط.» الأهرام: ١٩٧٣/١١/٣.
- «الفرصة الأخيرة.» الأهرام: ١٩٧٥/٢/١٤.
- «هذه الحملات.» الأهرام: ١٩٧٥/٣/١.
- «البيان قبل التباحث.» الأهرام: ١٩٧٥/٣/٢.
- «القاموس الشائع في الكلام المائع.» الجمهورية: ١٩٨١/١/١٤.
- «هولندية مصرية كويتية.» الجمهورية: ١٩٨٢/٤/١.
- «الزائر الجديد!» المساء: ١٩٨٣/١/٤.
- «نهاية أم بداية.» المساء: ١٩٨٣/٧/٥.
- «ليست عندهم في القاموس.» المساء: ١٩٨٣/٧/٦.
- «البالونة الطائرة.» المساء: ١٩٨٣/٧/١٥.
- «الانقسام خير.» المساء: ١٩٨٣/٧/٢٢.
- «أنواع البشر.» المساء: ١٩٨٣/٨/١١.
- «الفوضى المطلوبة.» المساء: ١٩٨٣/٨/١٢.
- «انحسار النظريات.» المساء: ١٩٨٣/٨/٣١.
- «الفارس.» المساء: ١٩٨٣/١٠/٥.
- «أهو كده!!» المساء: ١٩٨٣/١٠/٢١.
- «التحقيق الجنائي والتحقيق السياسي.» المساء: ١٩٨٣/١١/٢.
- «الثنائي الجهنمي.» المساء: ١٩٨٣/١١/١٣.
- «الموت بالحرارة أو البرودة.» المساء: ١٩٨٣/١١/١٤.
- «ولا سفينة نوح.» المساء: ١٩٨٣/١١/٢٠.
- «بين الايمان والتعصب.» المساء: ١٩٨٤/٢/٢٦.
- «عصبيات سياسية لا مذاهب دينية.» المساء: ١٩٨٤/٢/٢٩.
- «والفاعل مجهول!» المساء: ١٩٨٤/٣/٤.
- «يا للهول.» المساء: ١٩٨٤/٣/٦.
- «العودة إلى السفن.» المساء: ١٩٨٤/٣/٩.
- «فرسان المائدة المستديرة.» المساء: ١٩٨٤/٣/١٤.
- «من أين الضغط؟؟» المساء: ١٩٨٤/٣/٢٢.
- «رؤساء عصر السرعة.» المساء: ١٩٨٤/٣/٢٥.
- «صواريخ غير موجهة.» المساء: ١٩٨٤/٤/١.
- «تسريح السلطة.» المساء: ١٩٨٤/٤/٦.
- «الكذبة الكبرى.» المساء: ١٩٨٤/٤/١١.
- «الداء والدواء.» المساء: ١٩٨٤/٤/١٣.
- «ومن الحب ما قتل.» المساء: ١٩٨٤/٥/١٠.

- «السياسة والاقتصاد والنفاق.» المساء: ١٩٨٤/٥/٣١.
- «الأمر رقم ١١٠٨.» المساء: ١٩٨٤/٦/١٤.
- «عواجيز السلطة.» المساء: ١٩٨٤/٦/١٥.
- «الكسل الفكري.» المساء: ١٩٨٤/٨/١٣.
- «العصا السحرية.» المساء: ١٩٨٤/٨/٣٠.
- «توازن الرعب.» المساء: ١٩٨٤/٨/٣١.
- «ومات صاحب رغبة باردة في القتل.» المساء: ١٩٨٤/٩/٩.
- «الذين يقتحم السياسة في أمريكا أيضاً.» المساء: ١٩٨٤/٩/٢٤.
- «المائة حاكم الذين يسببون تعاسة ٤ آلاف مليون من البشر.» المساء: ١٩٨٤/١٠/١٥.
- «دبلوماسية وموسيقى.» المساء: ١٩٨٤/١١/٢٢.
- «هل سياسة الدولة والمجتمع للتطبيق أم للكلام والثرثرة.» الأهرام: ١٩٨٤/١٢/٦.
- «في السياسة لا شيء اسمه الأحلام.» المساء: ١٩٨٦/٧/٦.
- «لا رئيس ولا وزارة.» المساء: ١٩٨٦/٧/٢٠.
- «مزاج الرئيس.» الصياد، ١٩٨٦/٩/١٩.
- «معنى العموم.» المساء: ١٩٨٦/١٢/٢.
- «سياسة لها جذور.» المساء: ١٩٨٦/١٢/١٤.
- «اطلبوا منه الشيء المحدد.» الشباب: ١٩٨٧/١/١.
- «المستعين والمستعان به.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/١٦.
- «المتشددون لا المعتدلون.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/١٧.
- «حديث مع مخطوف.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/٢١.
- «آخر المتنصلين.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/٢٢.
- «كيف يسأل الحاكم.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٤/٩.
- «من البرسيم إلى الكمبيوتر.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٤/١٠.
- «خفة يد الحاوي.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٤/٢٨.
- «الهيبة.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٧/١٨.
- «ما أحلى الرجوع إليه.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٩/٢.
- «الجاز والنار.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٩/٢١.
- «شعب في غرفة الانعاش.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٩/٢٤.
- «أزمة الانفصال.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١٠/١٣.
- «دودة القز.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/١.
- «رمية حجر.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/٢٢.
- «١٦ سنة غير شرعية.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/٢٤.
- «الاتفاق التاريخي.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/٢٩.

- «إلى الذين يتنصلون من مسئولياتهم.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/١١.
- «قالها مرة أخرى.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/١٧.
- «تحسين الاحتلال.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/١٨.
- «طائرات وقنابل.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/٣٠.
- «الحملة المضادة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/٣١.
- «الشهود الجدد.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١/٨.
- «كشف حساب.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١/١١.
- «ودارت الأيام.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١/١٥.
- «الخروج من الكامب أو الدخول إليه (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٧.
- «من الجنود الذين تركوا العمل (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٨.
- «الضرب أصعب من القتل.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٢٢.
- «بلا نهاية.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٧/٢١.
- «الضغط المحدود.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٧/٢٣.
- «ضياع الحق والفراغ (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٨/٣٠.
- «ضياع الحق والفراغ (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٨/٣١.
- «ضياع الحق والفراغ (٣).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/١.
- «ضياع الحق والفراغ (٤).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٢.
- «ضياع الحق والفراغ (٥).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٣.
- «الباقي من السنة (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٤.
- «الباقي من السنة (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٥.
- «الأشهر الباقية (٣).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/٦.
- «مهانة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١١/٩.
- «١٩٨٩ ـ زمن بلا شعر.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٩/١/١٩.
- «١٩٨٩ ـ عودة الأخلاق.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٩/١/٢٠.

السياسة الأمريكية

- «التفسير الاقتصادي للسياسة الأمريكية.» **الفصول**: [د. ت.].
- «الاستقلال عن واشنطن!!» **روز اليوسف**: ٨ حزيران/ يونيو ١٩٥٣.
- «النقد الذاتي في أمريكا!» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٩/١٠.

السياسة الدولية

- «خطتان للغرب في وقت واحد.» **صباح الخير**: ٢٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨.

السياسة العربية

- «السياسة العربية.» **صباح الخير**: ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨.

السياسة المصرية

- «المدرسة الواقعية في السياسة المصرية!» **روز اليوسف**: ١١ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٤.

السياسة والاقتصاد

- «أصل الحكاية! حديث غير اقتصادي.. ليقرأه أهل السياسة والاقتصاد.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٤/٤.

السياسيون

- «لولا النجوم القليلة!» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/٢١.

السياسيون والمفكرون

- «رجال الفكر.. ورجال السياسة!» **صباح الخير**: ١٩ آب/ اغسطس ١٩٥٦.

السيخ

- «مسح أحذية السيخ.» **المساء**: ١٩٨٦/٦/١١.

سيد درويش

- «العبث بتراث سيد درويش الموسيقي.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٢/٤.

سيراليون

- «سيراليون!» **الأخبار**: ١٩٦١/١/١٧.

سيسكو، موبوتو

- «سيسكو والأصالة.» **المساء**: ١٩٨٦/٦/٢.

سيناء

- «سيناء.» **المحرر**: ١٩٦٩/٨/١١.
- «فيلم الموسم!» **روز اليوسف**: ٧ حزيران/ يونيو ١٩٥٤.
- «الوجه السينمائي لسنة ١٩٦١.» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/٦.

- ش -

الشارع المصري

- «ارتفاع الحرارة في الشارع المصري.» **المستقبل**: ١٩٨٦/٢/٨.

شامير، اسحق

- «شامير وزامير.» **المساء**: ١٩٨٦/٦/٢٦.

شاوشيسكو، نيقولاي

- «شاوشيسكو وقرار حربي.» **المساء**: ١٩٨٨/١/٥.

الشاي

- «صلاة الشاي ولغة الزهور.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٢/١٩.

الشباب

- «حقنة... لإعادة الشباب؟» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «خجل الشبان لا البنات.» **صباح الخير**: ٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧.
- «الشباب والعلم والسد العالي.» **صباح الخير**: ٣٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨.
- «الشباب الذي يوجه العالم! الشعوب الشابة.. والقادة الشبان!» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٧/١٦.
- «هل صحيح أن الشابات والشبان اليوم «غير جادين».» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/٦.
- «الشباب وعصابات بناء العمارات.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/١٦.

شبيلوف

- «لماذا خرج شبيلوف؟» **صباح الخير**: ٢١ شباط/ فبراير ١٩٥٧.

الشخصية العربية

- «مطلوب ابراز الطابع العربي الشامل في هذا اللقاء الأول.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٧/١٩.
- «كلمات صريحة عن: صورة «العربي» في العالم الخارجي.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١١/٢٦.
- «المزاج العربي!» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/٤.
- «صورة العربي في العالم الخارجي.» **الأهرام**: ١٩٧١/١٢/٢٦.
- «حول صورة العربي في العالم الخارجي كيف ندير معركة ثقافية.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١/٢.

الشخصية المصرية

- «المبادىء.. والأشخاص!» **روز اليوسف**: ٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٣.
- «السلبيون الطيبون!» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/١٥.

- «البحث عن «نظرية» لرسم الخريطة الجديدة لبلادنا.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١/١٤.
- «العقاد.. والمرض! وحديث عن أخلاق المصريين!» **الأخبار**: ١٩٦٤/٢/٢٤.
- «المصري في البلاد العربية.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٢/٢٧.
- «نفسية المصري العادي.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١١/١٢.

الشرطة

- «المرابي.. ورجل البوليس.» **روز اليوسف**: ٢ آذار/ مارس ١٩٥٣.
- «الغاء الداخلية!» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/١٩.

الشرط الأوسط

- «هذا الشرق المضطرب.» **الفصول**: [د. ت.].
- ««الاستقلال التام» هو ما نريده؛ أين تقف البلاد العربية بين الشرق والغرب؟ صعوبة الطريق لا تجعلنا نعدل عن الهدف الكبير.» **روز اليوسف**: ٢٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٥.
- «القرد الحكيم في الشرق الأوسط.» **صباح الخير**: ٢٨ آذار/ مارس ١٩٥٧.
- «خروشوف وديجول يبحثان الشرق الأوسط.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٣/٢٦.
- «البحث عن النغمة الصحيحة في الحل العسكري وفي الحل السياسي في علاقاتنا مع روسيا وأمريكا.» **المصور**: ٢٥ آب/ اغسطس ١٩٦٨.
- «الضغط أين وإلى أين: حول قضية الشرق الأوسط.» **المصور**: ١٩ آذار/ مارس ١٩٧١.
- «هل تقوم الحرب العالمية الثالثة بسبب أزمة الشرق الأوسط.» **المصور**: ٢٦ آذار/ مارس ١٩٧١.

الشرق الأوسط ـ العلاقات الدولية

- «هل تأخر الوقت لوقف روسيا وأمريكا خارج الحدود العربية.» **الأهرام**: ١٩٧٨/٧/٢.

الشركات ـ الأحوال الاقتصادية

- «شركة العالم الحر تشهر إفلاسها..!» **صباح الخير**: ١٥ آذار/ مارس ١٩٥٦.

الشركات الحكومية

- «تدخل الحكومة في الشركات.» **صباح الخير**: ١٩ حزيران/ يونيو ١٩٥٨.

شركات متعددة الجنسية

- «شركة العالم الحر...!» **روز اليوسف**: ٢٦ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٣.

- «شركة العالم الحر.» المساء: ١٩٨٧/٦/١٢.

شرم الشيخ

- «لماذا شرم الشيخ؟» المصور: ١٢ آذار/ مارس ١٩٧١.

شط العرب

- «شط العرب.» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٩/٧.

الشقق ـ تمليك

- «أسئلة وشكوك حول مشروع تمليك الشقق.» الأخبار: ١٩٦٤/٢/٨.

شكري القوتلي

- «ماذا قال شكري القوتلي؟» الأخبار: ١٩٦١/١٠/٢٥.

شمال افريقيا

- «الشمال الافريقي كله يواجه الساعة الحاسمة.» الأخبار: ١٩٦١/٤/١.

الشواطىء

- «شاطىء البحر لمن يكون.» الأخبار: ١٩٦٢/٣/١٢.

الشواطىء والمصايف

- «شاطىء جميل لقضاء الصيف.» المساء: ١٩٨٧/٧/٥.

شو إين لاي

- «ماذا وراء رحلة شو إين لاي؟ وما هي الأعصاب التي تلمسها؟» الأخبار: ١٩٦٣/١٢/٢١.
- «زوجة شو إين لاي قلقت على صحته في مصر وأبرقت تطمئن عليه.» الأخبار: ١٩٦٤/٢/٢٢.

شولتز، جورج

- «شولتز. لماذا؟» المساء: ١٩٨٣/٧/١٣.
- «لماذا يرفض شولتز.» المساء: ١٩٨٦/٦/٦.
- «هل صحيح فشلت زيارة شولتز.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١٠/١١.
- «عودة إلى شولتز (١).» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/٣.
- «عودة إلى شولتز (٢).» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/٤.

- «الوقت من الذهب في رحلة شولتز.» **الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٣/٩.**

شيكوريل

- «الحب في شيكوريل.» **صباح الخير: ٣١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.**

الشيوعية

- «من لينين.. إلى كاسترو!» **الأخبار: ١٩٦١/٤/٢٥.**
- «البيان الشيوعي.» **الأخبار: ١٩٦١/٨/١.**
- «الشيوعيون يتحاربون وأمريكا تمسك صفارة الحكم.» **الاتحاد: ١٩٧٩/٢/٢٥.**

- ص -

صافي ناز كاظم

- «عزيزتي صافي ناز!» **الأخبار: ١٩٦٠/٥/١١.**

الصحافة

- «ثلاثة أخبار صغيرة...!» **صباح الخير: ٨ آذار/ مارس ١٩٥٦.**
- «الألفاظ النابية في الصحافة.» **صباح الخير: ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.**
- «مراسل صحفي!» **الأخبار: ١٩٦٠/٣/١٠.**
- «الكاتب الشيخ!» **الأخبار: ١٩٦٠/٣/٢١.**
- «صاحب الجلالة!» **الأخبار: ١٩٦٠/٣/٢٧.**
- «من هو المالك الجديد للصحف؟» **أخبار اليوم: ١٩٦٠/٥/٢٨.**
- «الصحافة.. بين الجاذبية والخلاعة!» **الأخبار: ١٩٦٠/٦/١.**
- «الصحافة.» **الأخبار: ١٩٦١/٢/٢.**
- «الصحافة والعالم.» **الأخبار: ١٩٦١/٣/٢.**
- «تطورات غريبة في عالم الصحافة!» **الأخبار: ١٩٦١/٣/٦.**
- «حديث عن الصحافة!» **الأخبار: ١٩٦١/٦/١٩.**
- «حول الصحافة والأحزاب.» **الأهرام: ١٩٧٦/١١/٢١.**
- «ظاهرة أخبار اليوم وشباب الصحافة.» **اخبار اليوم: ١٩٨٤/١١/١٠.**

الصحافة الإسرائيلية

- «قراءات في الصحافة الإسرائيلية.» **المساء: ١٩٨٤/٤/٩.**

الصحافة العربية

- «جزيرة الصحفيين العرب.» **الجمهورية: ١٩٨٢/١/٢١.**

الصحافة المصرية

- «الصحافة عندما تتلوى أمعاؤها.» **آخر ساعة**: ١٦ آب/ اغسطس ١٩٦٧.
- «الصحفي على الهامش بين الحرية والسجن.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٣/٤.
- «اصدار الصحف: أحدث هواية لأصحاب الملايين العرب.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٣/١٨.
- «مصداقية الصحافة المصرية ٦ على ١٠.» **الوطن العربي**: ١٩٨٦.

الصحف

- «أول جريدة في العالم.» **روز اليوسف**: ١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤.
- «أوسع الصحف انتشاراً!!» **روز اليوسف**: ١٣ حزيران/ يونيو ١٩٥٥.
- «دور الجريدة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٧/١٥.

الصحفيون المصريون

- «الكتاب والصحفيون بين القومية والحزبية والعربية.» **الأهالي**: ١٩٨٦/١/٨.

الصداقة

- «صداقة...» **صباح الخير**: ١٣ شباط/ فبراير ١٩٥٨.

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

- «لماذا لا تنسحب إسرائيل؟،.. وهل تنفع العقوبات الاقتصادية؟» **صباح الخير**: ١٤ شباط/ فبراير ١٩٥٧.
- «ماذا تريد إسرائيل.» **صباح الخير**: ٧ آذار/ مارس ١٩٥٧.
- «متى تهاجمنا إسرائيل؟! الاجابة على السؤال.. كما أراها من دمشق.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٢/٢٧.
- «كيندي زار «فلسطين» ثم زار «إسرائيل».» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١١/١٢.
- «رأي صديق لإسرائيل.» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/٤.
- «تحذير خطير وطلب من الدول العربية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٠/٢٩.
- «من الذي يختار لحظة الصدام مع إسرائيل.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٢/٢٤.
- «من في المصيدة: حول مشكلة الشرق الأوسط.» **المصور**:١٨ آب/ اغسطس ١٩٦٧.
- «تقديم القضية العربية إلى العالم يحتاج إلى فكر وتخطيط وتنفيذ.» **اليوم**: ١٩٦٧/٩/١٧.
- «تحولات هامة والرأي العام الأوروبي حول قضية فلسطين.» **المصور**: ٦ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٧.

- «الاقـتراح محدد: اعـادة دولة فلسـطين والأردن وغزة.» **المصـور**: ١٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٧.
- «الاستعداد للمعركة والاستعداد لما بعد المعركة.» **المصور**: ٢٤ تشرين الثاني/ نـوفمبر ١٩٦٧.
- «نـظام عربي جـديد وفـرصة جـديدة لانجلترا وأوروبـا.» **المصور**: ١ شبـاط/ فبرايـر ١٩٦٨.
- «المعالجة الصعبة في التغيير وما هو الحل.» **المصور**: ٨ آذار/ مارس ١٩٦٨.
- «بين التجميد والتهديم يقوم مطلب التغيير.» **المصور**: ١٥ آذار/ مارس ١٩٦٨.
- «نـظرات على المشهـد العربي الـراهن: البحـر والصحـراء والـواحـة.» **المصـور**: ١٦ نيسان/ ابريل ١٩٦٨.
- «نظرات على المشهد العربي الراهن: وقفة بـين الفدائيـين.» **المصور**: ١٠ أيـار/ مايـو ١٩٦٨.
- «٥ مليون جنيه استرليني مجمدة والفدائيون يبحثون عن القروش.» **المصور**: ٢٤ أيار/ مايو ١٩٦٨.
- «الفارس الوحيد وإسرائيل وماذا يمكن أن يفعله العرب.» **المحرر**: ١٩٦٩/١/١٨.
- «تحولات خطيرة: عن القضية الفلسطينية.» **المصور**: ٧ شباط/ فبراير ١٩٦٩.
- «معنى عبور قواتنا قناة السويس.» **المصور**: ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٦٩.
- «بعـد قنبلة أثينا: كلمـة تحاول أن تكـون صريحة إلى المنـظمات الفـدائيـة.» **الأهـرام**: ١٩٦٩/١٢/١.

- «الرد العربي الكردي على إسرائيل.» **المصور**: ٢٠ آذار/ مارس ١٩٧٠.
- «أسئلة حول مستقبل المقاومة الفلسطينية.» **المصور**: ١٢ شباط/ فبراير ١٩٧١.
- «الهيبيون السياسيون هل سيحررون فلسطين.» **المصور**: ٥ آذار/ مارس ١٩٧١.
- «أغـرب مشهد يمكن أن تـراه عاصمـة دولة في العـالم.» **المصور**: ٢ نيسـان/ ابـريـل ١٩٧١.

- «بعد مرحلة القضم، إسرائيل تبدأ بعد مرحلة الهضم.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١/١٦.
- «مطلوب بداية جديدة للعمل الفلسطيني.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١/٢٣.
- «محاولة موضوعية لتحليل اقتراح الملك حسين.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٣/١٩.
- «ولكن ماذا يريد العرب حقاً.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٤/٢.
- «مشروع الملك حسين في لعبة الدول الكبرى.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٤/٢٩.
- «ماذا يراد بمصر؟ حول المواجهة المصرية الإسرائيلية.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٤/٣٠.
- «لقـاء القمـة في مـوسكـو محـطة جـديـدة في الحـرب المستمـرة.» **الأهـرام**: ١٩٧٢/٥/٢١.
- «إسرائيليات.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٧/٩.
- «حول محاضر الكنيست عن معاملة العرب.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٧/١٦.

- «اقتراح محدد ولكن هل الأمة العربية مستعدة له؟!» **الأهرام**: ١٩٧٢/٩/٢٤.
- «عناصر أساسية حتى يكون استخدام هذا السلاح ممكناً، حول اقتراح المقاطعة الشاملة لأمريكا.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١٠/١.
- «مواعيد أوروبية هامة ماذا فعلنا استعداداً لها؟» **الأهرام**: ١٩٧٢/١٠/١٥.
- «لا نهاية للابتزاز الإسرائيلي ولا نهاية للإذعان الأمريكي.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١٠/٢٢.
- «في المواجهة العربية الإسرائيلية اليوم القريب.. واليوم البعيد.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١/٧.
- «أزمة الشرق الأوسط في الشهور المقبلة: العام الذي يسمونه عام الحوار.» **الأهرام**: ١٩٧٣/٢/١١.
- «الثابت والمتغير في سنة ١٩٧٣.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١٢/٣١.
- «لقاءات القمة العربية والجديد بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٢/١٨.
- «حل ليس أمريكياً ولا سوفييتياً.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٤/٥.
- «الإجابة التاريخية: حول القضية الفلسطينية.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٥/٣١.
- «القعود والحركة: حول المواجهة العربية الإسرائيلية.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٦/٧.
- «جنيف أيضاً.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٦/٨.
- «خط إسرائيل الجديد.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٦/٢٢.
- «سيناريو الشهور المقبلة: حول الاعداد لمؤتمر جنيف والمواجهة الإسرائيلية الفلسطينية.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٦/٢٨.
- «الحرب الخامسة.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١١/١٥.
- «حرب استنزاف جديدة.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١١/٢٢.
- «وحدة القضية.» **الأهرام**: ١٩٧٥/١/٢.
- «عسكرية أم سياسية.» **الأهرام**: ١٩٧٥/٩/٢٤.
- «أسباب الرفض الإسرائيلي وقضية المستوطنات.» **الأهرام**: ١٩٧٧/٢/٢٦.
- «عندما كرر نيكسون محاولة حل شامل.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٣/١١.
- «غنائم الحرب الإسرائيلية.» **المساء**: ١٩٨٤/٣/١٩.
- «أحزاب إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.» **المساء**: ١٩٨٤/٩/٢٥.
- «هذه هي خطة بيريز السرية التي يريد عرضها على العرب.» **المستقبل**: ١٩٨٥/١٢/٧.
- «الحروب العربية السبع.» **المستقبل**: ١٩٨٦/٢/١.
- «مبادرة إسرائيلية جديدة.» **المساء**: ١٩٨٦/٤/٨.
- «رامبو وشارون.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١١/١١.
- «رامبو وشارون.» **المساء**: ١٩٨٧/١١/١٢.
- «انسحاب واحد فقط.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/٨.

- «تشويه النضال الفلسطيني مع إسرائيل.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/٢٥.
- «مبادرة سلام اسحاق شامير.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١/٢١.
- «١٩٤٨ - ١٩٨٨.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٢.
- «الحرب المقبلة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٣.
- «داود وجوليات.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٢٨.

الصراعات السياسية

- «لن تقوم حروب عالمية.. ولكن حروب محلية صغيرة...» **صباح الخير**: ٥ أيلول / سبتمبر ١٩٥٧.
- «نظرية التوتر المحدود بعد نظرية الحروب الصغيرة.» **الأهرام**: ١٩٧٨/٦/١١.

الصفقات التجارية

- «التعصب لماذا؟ للوزارة أم للصفقات التجارية.» **المساء**: ١٩٨٤/٢/٢٨.

صلاح دسوقي

- «حول مقال صلاح دسوقي: الفرق بين الدين وبين أستاذ يدرس الدين.» **الأخبار**: ١٩٦١/٨/٢٨.

الصناعات

- «المصانع قبل المساكن.» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/٢٣.

الصناعات المصرية

- «بضائعنا في الخارج والفرص التي تضيع.» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٣٠.

الصواريخ

- «أسرار لعبة الموت الدولية والقصة الحقيقية للصواريخ.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١٢/١٤.

صوفيا وبوخارست

- «في صوفيا وبوخارست.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٧/٥.

الصين

- «رسالة حب من الصين!..» **صباح الخير**: ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.

- ض -

الضرائب

- «هذه الضرائب التي تدفعها.» **الفصول**: [د. ت.].

الضفة الغربية

- «تنمية الضفة الغربية الورقة الباقية.» **المساء**: ١٨/١٢/١٩٨٦.

الضفة الغربية وقطاع غزة

- «عن الضفة الغربية والقطاع.» **الشرق الأوسط**: ٢٤/٣/١٩٨٨.

- ط -

طابا - مباحثات

- «وصف مباحثات طابا.» **الشرق الأوسط**: ٢٩/١/١٩٨٩.

الطبقات الاجتماعية

- «الصراع الطبقي.. والقومي...» **صباح الخير**: ١٤ حزيران/ يونيو ١٩٥٦.
- «الخروج من نظام الطبقات، مجهود نفسي... ومجهود مادي!» **الأخبار**: ٤/٣/١٩٦١.
- «أنت في طبقتك الاجتماعية.» **الأخبار**: ٩/١٢/١٩٦١.
- «طبقة انتهت إلى الأبد.» **الأخبار**: ٣١/٣/١٩٦٢.
- «الفوارق الطبقية بين الشعوب هي أخطر سبب يكمن وراء هذه المأساة.» **الأخبار**: ٢٧/١٠/١٩٦٢.

الطبقات الاجتماعية العربية

- «حرب الطبقات في البلاد العربية.» **صباح الخير**: ٢٥ نيسان/ ابريل ١٩٥٧.

طه حسين

- «طه حسين وشكسبير!» **روز اليوسف**: ١٦ أيار/ مايو ١٩٥٥.
- «زيارة لمكتبة طه حسين.» **صباح الخير**: ٢٧ آذار/ مارس ١٩٥٨.
- «إلى طه حسين.» **الأخبار**: ٥/٣/١٩٦٢.
- «الطيران العربي.» **الجمهورية**: ٢٤/١٢/١٩٨١.

ـ ظ ـ

ظاهر شاه

- «عودة ظاهر شاه.» المساء: ١٩٨٧/٦/١٩.

ـ ع ـ

العادات والتقاليد

- «الأخلاق... والملابس!» الشعب: ١٩٥٩.
- «بلد التقاليع.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١١/٦.

العالم الثالث

- «بعد عشر سنوات من موت عبد الناصر: العالم الثالث يفقد استقلاله بالتدريج.» الوطن: ١٩٨٠/٩/٢٨.

العالم العربي

- «المراكز الثورية الأربعة تمنح الأمة العربية فرصة العمر! وحدة الصف الثوري.» الأخبار: ١٩٦٣/٢/١٨.
- «ونحن نبدأ في تأسيس الدولة العربية الكبرى كيف نفهم الظروف الموضوعية لكل قطر عربي.» **الشرق الأوسط**: ١٩٦٣/٣/٢٣.
- «قبل أن يقع العرب في شراك الدول الكبرى.» **الأهرام**: ١٩٧٧/٢/١٢.
- «في الدور السابع بهيلتون أبو ظبي غرفة تطل على العالم العربي.» **أبو ظبي**: ١٩٧٩/٣/٢٢.
- «العرب ما زالوا غير مهيئين لاتخاذ القرار!» **الجمهورية**: ١٩٨١/١٢/١.
- «هل عندكم قارىء كف يقرأ خريطة العالم العربي بعد عشر سنوات.» المساء: ١٩٨٤/١١/٢٦.
- «المطلوب أمة عربية!» المساء: ١٩٨٤/١٢/١٠.

العالم العربي ـ العلاقات الدولية

- «هل هي حرب العرب والعجم.» **الوطن**: ١٩٨٠/١٠/٢.

العام الجديد

- «٥٦، ٥٧.» صباح الخير: ٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٧.

العام الجديد ١٩٨٦

- «أين كان عام ١٩٥٨؟، وماذا سيكون عام ١٩٨٦.» **المستقبل:** ١٩٨٦/١/٤.

عباس محمود العقاد

- «العقاد.. وقهوة المجاذيب!» روز اليوسف: ٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٥.

عبد الحميد السراج

- «سر عبد الحميد السراج.» **صباح الخير:** ٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.

عبد المنعم القيسوني

- «لو أعطى القيسوني ساعة من وقته.. كل يومين! كل هذا صحيح.. ولكن!» **الشعب:** ١٩٥٩/٧/١٣.

العدوان الثلاثي

- «حرب أم سلام؟» **صباح الخير:** ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.
- «إسرائيل أولاً.. أم قناة السويس؟» **صباح الخير:** ١١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٦.
- «كان ضرورياً أن يقع العدوان.» **آخر ساعة:** ٢٨ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٩.

العراق

- «..خطفت رجلي إلى بغداد!» **صباح الخير:** ١٢ نيسان/ ابريل ١٩٥٦.
- «الغرفة المضيئة في بغداد!...» **صباح الخير:** ٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.
- «على مؤتمر الخريجين واتحاد المحامين العرب دفع الغرامات عن مجاهدي العراق!» **صباح الخير:** ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.
- «أحداث.. في بغداد؟!» **الأخبار:** ١٩٦١/٣/٢٩.
- ««الشعوبية» من خفايا وأسرار العراق.» **الأخبار:** ١٩٦٣/٢/١١.
- «أزمة الحزب والجيش في أحداث العراق.» **الأخبار:** ١٩٦٣/١١/١٦.
- «نظرات على المشهد العربي الراهن: العراق بين الامكانيات والقوة الفعلية.» **المصور:** ١٧ أيار/ مايو ١٩٦٧.
- «من كركوك إلى هرمز (١).» **الشرق الأوسط:** ١٩٨٧/٤/٦.
- «من كركوك إلى هرمز (٢).» **الشرق الأوسط:** ١٩٨٧/٤/٧.
- «بدء تحجيم العراق.» **الشرق الأوسط:** ١٩٨٨/١/١٧.

العراق ـ تاريخ

- «نوري السعيد وكيف يحكم؟» **صباح الخير:** ٥ نيسان/ ابريل ١٩٥٦.

العراق - ع خ - الكويت

- «الكويت وعبد الكريم قاسم!» **الأخبار**: ١٩٦١/٦/٢٩.
- «أزمة الكويت والعراق وثمانين مليون عربي.» **الأخبار**: ١٩٦١/٧/٨.

العراق - القوات المسلحة

- «تقديرات إسرائيل للجيش العراقي والأردني.» **المساء**: ١٩٨٣/١١/٩.

العرب

- «ثورة عربية!» **الشعب**: ١٩٥٩.
- «دردشة عن المصريين وعموم العرب دون غضب.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٢/١٨.
- «اخراج العرب.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١١/٣٠.

العرب في أمريكا

- «طفل عربي يحير بوليس أمريكا.» **الأخبار**: ١٩٦١/٨/٥.

العرب في فرنسا

- «المركز العربي لن ينتكس.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/١٠.
- «المركز العربي في باريس.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/١٩.

العرب في المهجر

- «فلاسفة المهجر وغيرهم.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٩/٢٩.

العرب في اليونان

- «اثينا تتكلم اللغة العربية.» **صباح الخير**: ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧.
- «في أثينا..» **صباح الخير**: ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.

العرب والاتحاد السوفييتي

- «فكرة الاقتراض من الاتحاد السوفييتي.» **صباح الخير**: ٢٩ نيسان/ ابريل ١٩٥٧.

العرب وأمريكا

- «إلى الذين لا يجدون في أنفسهم إلا بذور الموت والجفاف، متى نزلت أمريكا عن ارادة العرب.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١/١٢.

العرب والعروبة

- «الحقيقة عن حرب الصحراء.. جيش الأشباح الذي يحارب في عمان.» صباح الخير: ١٥ آب/ اغسطس ١٩٥٧.
- «الذين يشفقون من ذهاب الجيش المصري إلى سوريا..» صباح الخير: ١٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.
- «مشروع صباح الخير للسفر بين اقليمي مصر وسوريا.» صباح الخير: ٢٢ أيار/ مايو ١٩٥٨.
- «هكذا تأتي النهاية.» صباح الخير: ١٧ تموز/ يوليو ١٩٥٨.
- «نفرتيتي والعروبة.» الأخبار: ١٩٦٠/٣/٢٣.
- «كيف دارت بعثة المفاوضات.» أخبار اليوم: ١٩٦١/٦/١٧.
- «دمشق وبغداد في ظروف الثورة.» اليوم: ١٩٦٣/٧/٣.
- «السؤال العربي أهم سؤال يواجه الثورة في سنتها الجديدة.» اليوم: ١٩٦٣/٧/٢٠.
- «في دمشق وبغداد قبيل الانفجار.» اليوم: ١٩٦٣/١١/١٦.
- «الضرب للعرب فقط.» المساء: ١٩٨٦/٤/٢.
- «الوسط العربي.» المساء: ١٩٨٦/٧/٢٧.
- «العرب يتحدثون عن محاربة العدو.» المساء: ١٩٨٧/٤/٢٩.
- «غلطة جزائرية أم غلطة فلسطينية.» المساء: ١٩٨٧/٥/٣.

العزوبية

- «العازب انسان ناقص.» صباح الخير: ١٧ تموز/ يوليو ١٩٥٨.
- «أغرب ما يكون.» الأخبار: ١٩٦١/٤/١٠.

العلاقات الأولية

- «اسم آخر للحياد.» روز اليوسف: ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٣.
- «الاستراتيجية الفكرية معركة يخسرها الغرب!» صباح الخير: ٢٤ أيار/ مايو ١٩٥٦.
- «مطلوب من الدول العربية والإسلامية: مشروع قرار واحد في الأمم المتحدة بانسحاب روسيا وانسحاب إسرائيل.» الوطن: ١٩٨٠/١/٢٠.
- «أخطار الضعف الأمريكي.» المساء: ١٩٨٤/٤/٣.
- «ولكنهم يعرفون كيف يتفقون.» المساء: ١٩٨٤/٨/٢٩.
- «مفارقات دولية.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٤/٣.

العلاقات الدولية

- «اللعبة الجديدة.» صباح الخير: ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨.
- «الزكام في واشنطن وموسكو وبكين.» المساء: ١٩٨٧/١١/٦.

العلاقات السياسية

- «لماذا يجيئون؟» الشعب: ١٧/٦/١٩٥٩.

العلاقات العربية ـ العربية

- «القاهرة... بيروت... دمشق... وبالعكس.» **الأخبار**: ١٦/٣/١٩٦٠.
- «الحرب الأهلية بين العرب!» **الأخبار**: ٤/٧/١٩٦١.
- «النزعة العربية والنعرة الاقليمية.» **الأخبار**: ٢٠/٧/١٩٦١.
- «أزمة اليسار العربي!، أين يقف؟» **الأخبار**: ١١/١١/١٩٦١.
- «الرجعية العربية تخلع ورقة التوت، هجوم حسين وسعود على اليمن، هجوم على حياء الإنسان العربي ورزقه وكرامته.» **آخر ساعة**: ١٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٢.
- «الأردن وتونس واليمن ج.» **الشرق الأوسط**: ٢٥/٤/١٩٨٧.

علاقة الدولة بالأفراد

- «النظام.. والأفراد.» **روز اليوسف**: ١ شباط/ فبراير ١٩٥٤.
- «مواطنون من الدرجة الثانية!» **الأخبار**: ١٢/٣/١٩٦١.
- «مسئولية الدولة ومسئولية الفرد!» **الأهرام**: ٤/١/١٩٧٦.

علاقة الوالدين بالأطفال

- «كيف نتكلم أمام أطفالنا.» **صباح الخير**: ٣ تموز/ يوليو ١٩٥٨.
- «والآباء يتحدثون عن أبنائهم.» **صباح الخير**: ٢٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٨٢.

العملات الأجنبية

- «العملات الأجنبية هي اللغة الوحيدة في سوق الحضارة.» **الأخبار**: ٩/٢/١٩٦١.

علي أمين

- «رحلة علي أمين.» **الأهرام**: ١١/٤/١٩٧٦.

العمارة

- «رحلة الـ ٢٥ عمارة!!» **المساء**: ١٦/١١/١٩٨٤.

العمال والفلاحون

- «بعد تخصيص ٥٠٪ من المقاعد للفلاحين والعمال ألا يجب تحديد نصيب كل من الفئتين.» **الأخبار**: ٢٥/٦/١٩٦٢.

عمر الشريف

- «هل ذهب زمن الحب؟، عمر الشريف أو «مسيو رجب»!» **صباح الخير**: ١٦ شباط/ فبراير ١٩٥٦.

العمل والعمال

- «حرية أصحاب العمل.» **الشباب**: ١/١٠/١٩٨٩.

العملة

- «العملات الصغيرة.» **الأخبار**: ١٢/١/١٩٦٠.

العنف

- «أين يبدأ العنف.» **الشرق الأوسط**: ٤/٩/١٩٨٧.

- غ -

غزة، قطاع

- «غزة سنة ٢٠٠٠ (١).» **الشرق الأوسط**: ٢٥/١١/١٩٨٧.
- «غزة سنة ٢٠٠٠ (٢).» **الشرق الأوسط**: ٢٦/١١/١٩٨٧.
- «غزة.. لماذا.» **الشرق الأوسط**: ٢٥/١٢/١٩٨٧.
- «بعد أحداث غزة الولاء المزدوج.» **الشرق الأوسط**: ٧/١/١٩٨٨.

غزو الفضاء

- «جواسيس الفضاء.» **الأخبار**: ١٨/١١/١٩٦٠.
- «رجل الفضاء!» **الأخبار**: ١٣/٤/١٩٦١.
- «عندما ركبت صاروخاً إلى القمر!» **الأخبار**: ٢٤/٤/١٩٦١.

الغزو الفكري

- «إسرائيل.. والسينما.» **الأخبار**: ٤/٣/١٩٦٠.

الغناء

- «الغناء تحت المطر.» **الأخبار**: ٢٧/١/١٩٦٠.

الغنى

- «البحث عن الثراء...» **صباح الخير**: ١ آذار/ مارس ١٩٥٦.

الغواصات

- «حمى الغواصات في البحر الأبيض.» **صباح الخير**: ٢٧ تموز/ يوليو ١٩٥٧.

الغيرة

- «دروس في فن الدلع: الغيرة سلاح مفيد أحياناً.» **صباح الخير**: ١٢ حزيـران/ يونيـو ١٩٥٨.

ـ ف ـ

فاروق الأول

- «مؤامرة في حريم الملك.» **صباح الخير**: ٢٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨.

فالدهايم، كورت

- «ماضي فالدهايم.» **المساء**: ١٩٨٦/٤/١٤.
- «فالدهايم في الفاتيكان.» **المساء**: ١٩٨٧/٧/٢.
- «من فالدهايم إلى المنظمة.» **المساء**: ١٩٨٧/١٠/٢٧.

فانس، سيروس

- «فانس.. بعد كسنجر.» **الأهرام**: ١٩٧٦/١٢/١٢.

الفتاوى

- «مطلوب فتاوى.» **المساء**: ١٩٨٧/٥/١٧.
- «ما الحل في الفتوى؟» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٩/٩/٢٠.

الفتنة الطائفية

- «التعصب الطائفي.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/٢٩.

الفحم

- «لأن هناك فحماً كثيراً.» **الشباب**: ١٩٨٩/٨/١.

الفدائيون

- «جهاد ضاحي أو قصة شاب عربي مشاغب.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١/٢٨.
- «الشباب العربي: نظرة في أوراق الفدائي الذي انتحر.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٤/٢٨.

فرنسا

- «سبع بطاقات من باريس.» الأخبار: ١٩٦٠/٤/٢٧.
- «هكذا وجدت باريس.. الحكومة الفرنسية تبحث في القبض على سارتر.» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٤/٣٠.
- «لماذا القتال في قلب باريس؟» الأخبار: ١٩٦١/٤/١١.
- «محنة فرنسا!» الأخبار: ١٩٦١/٤/٢٣.
- «باريس هي الترمومتر.» الأخبار: ١٩٦١/٤/٢٤.
- «لماذا يتردد ديجول.. بين رقصة الحب.. ورقصة السلام.» الأخبار: ١٩٦١/٥/٢٨.
- «علم الثورة في قلب باريس.» الأخبار: ١٩٦١/١٠/١٩.
- «باريس.. وديجول.. والبحث عن وجه جديد!» الأخبار: ١٩٦٣/١١/٩.
- «خط باريس جديد.» المساء: ١٩٨٣/٨/٧.
- «في فرنسا الآن ديجول جديد.» المساء: ١٩٨٣/٨/٢٢.

فرنسا ـ ع خ ـ ألمانيا

- «ماذا دار بين ديجول وهاريمان؟» الأخبار: ١٩٦١/٣/١٥.

فرنسا ـ ع خ ـ ايران

- «شيراك والصفقة الايرانية.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١٢/١٣.

فرنسا ـ ع خ ـ البلاد العربية

- «ديجول يقرر العودة إلى البلاد العربية.» الأخبار: ١٩٦٣/١/٢٦.

الفساد

- «ماذا نستطيع أن نفعل لكي نوقف الخطر.» المصور: ٢٢ نيسان/ ابريل ١٩٦٩.
- «التعذيب الجسدي والفساد في المراكز العالية.» الأهرام: ١٩٧٦/٨/٢٢.
- «وطنية اللصوص!!» الشباب: ١٩٨٩/١٢/١.

الفساد السياسي

- «النظام والفوضى!» صباح الخير: ١ آب/ اغسطس ١٩٥٧.
- «الشعب المعتقل.» الشعب: ١٩٥٩/٨/١.
- «عصر الأقارب في السياسة.» اليوم: ١٩٦٢/٢/١٠.
- «خبراء السلطان كيف يمكن الحد من خطرهم.» الجمهورية: ١٩٨١/٢/١٧.
- «الوزير العاشق والنائبة العارية.» المساء: ١٩٨٧/٦/٢٥.

الفساد الوظيفي

- «علاقات انسانية قبل النيابة الإدارية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١١/٢٢.

الفقه الإسلامي

- «الحلال والحرام.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١١/٢٦.

فلسطين

- «حول الاقتراح المحدد بانشاء دولة فلسطين: أخطر ما يواجه الدولة الاجتياح الإسرائيلي والحل هو رجوع دولة الوحدة.» **المصور**: ٢٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٦٧.
- «الطريق إلى دولة فلسطين.» **المصور**: ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧.
- «هل يمكن عمل مشروعات عربية في الأراضي الفلسطينية المحتلة.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٨/٢٣.
- «الدولة الفلسطينية: خطوات في طريق طويل.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١٢/٨.
- «الدولة الفلسطينية: بين الحكومة المؤقتة ومؤتمر السلام: الدور المطلوب من الدول العربية قبل جينيف.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١٢/١٠.
- «تحول دولة فلسطين.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١١/١.
- «الأصعب والأسهل: حول القضية الفلسطينية.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١١/٨.
- «البيان قبل التباحث: حول قضية فلسطين.» **الأهرام**: ١٩٧٥/٣/٢.
- «عادوا إلى دير ياسين والعرب في نفس المكان.» **الوطن**: ١٩٨٠/٦/٨.
- «اشباح تدويل المنطقة تعود بعد ١٠٠ سنة.» **المساء**: ١٩٨٤/٨/٢٧.
- «العزلة الفلسطينية.» **المساء**: ١٩٨٦/٦/٢٢.
- «خواطر فلسطينية من الدوحة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٣/١٨.
- «لا داعي للمؤتمر الفلسطيني.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/١٦.
- «فلسطين لم تعد القضية المركزية.» **المساء**: ١٩٨٧/٥/٥.
- «١٢٩ طريقة لمقاومة الاحتلال.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١١/٨.
- «تشويه النضال الفلسطيني من إسرائيل وبعض العرب.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/٢٤.
- «فلسطين وقاموس الكلمات.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١/٩.
- «يوميات الأرض المحتلة.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٢٦.
- «تمنيات فلسطينية.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٩/١٩.

الفلسفة

- «المادية والمثالية.» **الشباب**: ١٩٩٠/٦/١.

الفنون

- «حدث الموسم الفني.» **الأخبار**: ١٩٥٩/١١/٢٤.
- «آلام أهل الفن!» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/١٣.
- «وما الحل في الفنون.» **المساء**: ١٩٨٧/٩/٢١.

الفنون الجميلة

- «الذوق الكئيب في أساس بيوتنا.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٦/١٣.

فؤاد محي الدين

- «الطبيب فؤاد محي الدين.» **المساء**: ١٩٨٤/٦/١٢.

فيتنام

- «ملحمة فيتنام.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٥/٧.
- «درس في الهجوم الفيتنامي الأخير: التفوق الجوي ليس السلاح النهائي في المعركة.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٥/١٤.
- «سيمفونية فيتنام السياسية والعسكرية.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١٠/٢٩.
- «الأسئلة الموجهة إلى روسيا والصين حول قضية فيتنام.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١٢/٢٤.

الفيديو

- «عصر الفيديوقراطية.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٢/١٠.

- ق -

القانون الدولي

- «الشيء المسمى بالقانون الدولي.» **المساء**: ١٩٨٤/١١/٢٣.

القاهرة

- «القاهرة وحدها.. ثم لا شيء.» **الأخبار**: ١٩٥٩/١١/١٠.
- «القاهرة.. من نافذة المحافظ!» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٧.
- «وليامز برج وقاهرة الفاطمية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٩.
- «أرقام غريبة... عن القاهرة!» **الأخبار**: ١٩٦١/١٢/٤.
- «كيف نحتفل بمرور ١٠٠٠ سنة على انشاء القاهرة، والقاهرة عمرها أربعة آلآف سنة.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٢/٣٠.
- «ثلاث مدن جديدة أم ضواح تزيد من مشاكل القاهرة.» **الأهرام**: ١٩٧٣/١٢/١٩.
- «القاهرة الجديدة.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٣/١١.

- «الخروج من القاهرة.» **المساء**: ١٩٨٤/٣/٢٩.

قبرص

- «الحل التركي - القبرصي.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٧/٢٦.

القدس

- «ماذا تقترحون من أجل القدس.» **المصور**: ١١ تموز/ يوليو ١٩٦٩.
- «تهويد القدس بعد ثلاثة شهور آن الأوان للعصيان المدني الشامل.» **المحرر**: ١٩٧٠/٣/٧.
- «لستم على أبواب القدس.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١١/٢٠.

القذف والسب

- «١٠ آلاف جنيه ثمن كلمة واحدة.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١١/٢.

القراءة والكتابة

- «القراءة والكتابة.» **المساء**: ١٩٨٤/٤/١٩.

قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢

- «بعد مرور سنة على قرار مجلس الأمن ٢٤٢!» **المصور**: ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٨.

القرن الافريقي

- «درس القرن الافريقي للعرب.» **الأهرام**: ١٩٧٧/٣/١٩.

القرى المصرية

- «حول مشروع اعادة بناء القرية المصرية: يجب اختصار عدد المحافظات من ٢٥ إلى ١٠ على الأكثر.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١١/٥.

القصص القصيرة

- «أربع قصص قصيرة.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٣/٣.

القطاع العام

- «نقطة نظام: حول القطاع العام.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٢/٢٢.
- «قنبلة د/ ابراهيم بدران والحملة المدبرة على القطاع العام.» **الأهرام**: ١٩٧٧/٤/٩.

القطن

- «تأميم القطن يعود بالفائدة على الدولة والفلاحين.» **الفصول**: [د. ت.].

القمح السعودي

- «القمح السعودي.» **المساء**: ١٩٨٤/٣/٢٣.

القنابل

- «القنبلة والمفاوضات!» **الأخبار**: ١٩٦١/٥/١١.

القنابل الذرية

- «القنبلة الذرية النظيفة.» **صباح الخير**: ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٨.

القنابل النووية

- «قنبلة باكستان النووية.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٣/٢٠.

القنبلة

- «القنبلة.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٢/١٤.

القوميات

- «القومية والعنصرية.» **صباح الخير**: ٣١ آب/ اغسطس ١٩٥٦.

القومية العربية

- «كيف يجب أن نفهم القومية العربية.» **صباح الخير**: ٩ أيار/ مايو ١٩٥٧.
- «حكاية الأيدلوجية العربية!» **صباح الخير**: ٥ حزيران/ يونيو ١٩٥٨.
- «الشعور بالقومية.» **صباح الخير**: ٣١ تموز/ يوليو ١٩٥٨.
- «عباس ديجول المهداوي.» **الشعب**: ١٩٥٩/٨/٢٠.
- «كتاب إسرائيلي عن القومية العربية!» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١٠/١٥.

القوى العاملة

- «أخطر مظاهر الاسراف الوقت والأيدي العاملة.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١/٢١.

القوى العظمى

- «الأربعة الكبار وجهاً لوجه.» **روز اليوسف**: ١٨ تموز/ يوليو ١٩٥٥.
- «بعد اتفاق الأربعة الكبار، روسيا تتخلى عن الأحزاب الشيوعية!، ودول الغرب تبدأ زحفاً جديداً علينا!» **روز اليوسف**: ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٥٥.

«خروشوف وتيتو.» صباح الخير: ٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٦.
«مواعيد الأقطاب!» الأخبار: ١٩٦٠/١/٣.
«مصنع أمريكي في روسيا!» الأخبار: ١٩٦٠/١/٤.
- «السد.. والأقطاب!» الأخبار: ١٩٦٠/١/١٥.
- «بلد لا يسكنها إلا الروس والأمريكان.» الأخبار: ١٩٦٠/٢/٣.
- «يوم الثلاثاء الحاسم في موسكو وفي واشنطن.» ١٩٦٠/١١/٥.
- «خروشوف وكيندي وأقطاب الحياد!» الأخبار: ١٩٦١/٥/١٨.
- «لو تمّ اللقاء حقاً بين خروشوف وكيندي.» الأخبار: ١٩٦١/٥/١٩.
- «فيينا - المشكلة الكبرى في الاجتماع.» الأخبار: ١٩٦١/٦/٣.
- «خروشوف وكيندي يبحثان في فيينا - مصير السلام والحرب في العالم.» الأخبار: ١٩٦١/٦/٤.
- «خروشوف وكيندي يعيشان ليلة من ألف ليلة.» الأخبار: ١٩٦١/٦/٥.
- «اجتماع كيندي وخروشوف لم يحل المشاكل.» الأخبار: ١٩٦١/٦/٦.
- «حكايات أوروبية!» الأخبار: ١٩٦١/٦/١٠.
- «قصة ايفيان، كيف دارت لعبة المفاوضات ولماذا انتهت فجأة؟» الأخبار: ١٩٦١/٦/١٧.
- «هل ترى هذه الدنيا المتغيرة قريبا أربع كتل دولية مستقلة.» الأخبار: ١٩٦٣/٢/٩.
- «قبل المؤتمر القومي القادم.» المصور: ٤ نيسان/ ابريل ١٩٦٩.
- «العالم بدون دول كبرى.» المساء: ١٩٨٤/٣/١٦.
- «غرور القوة وحدود القوة!» المستقبل: ١٩٨٥/٧/٦.
- «الزكام في واشنطن وموسكو.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/٥.
- «قمة بالاسم أم قمة بالفعل.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/١٠.
- «المؤتمر الغامض.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/١٦.
- «قمة الكاريبي.» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٧/٢٢.

- ك -

كارتر، جيمي

- «كارتر.. ذلك المجهول.» الأهرام: ١٩٧٦/١١/٧.
- «كارتر وروزالين.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/٢٨.

كاريكاتير

- «نعم نحن ننشر صوراً كاريكاتيرية عن نادي العراة..» صباح الخير: ٢٢ آذار/ مارس ١٩٥٦.

الكتّاب الناشئين

- «نصائح إلى الكتّاب الناشئين!» روز اليوسف: ٢١ تموز/ يوليو ١٩٥٤.

كتب

- «صمت البحر!» صباح الخير: ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.

كرة القدم

- «بطل الكرة بعد البطل السينهائي.» المساء: ١٩٨٧/٥/٢١.

كلر، كريستين

- «عالم كريستين كلر.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٨/١٠.

الكمبيوتر

- «من البرسيم إلى الكمبيوتر.» المساء: ١٩٨٧/٤/١٢.

كندا ـ الوصف والرحلات

- «كيف قامت كندا بدور «السمسار الشريف» في النزاع بين أمريكا وبريطانيا أثناء حرب السويس.» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٨/٢٧.

كوادروس

- «كشف الستار عن سر سقراط كوادروس.» **الأخبار**: ١٩٦١/٩/١١.

كوبا

- «سارتر في كوبا.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/٣٠.
- «كوبا والبلاد الناشئة!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٤/٢٨.
- «مؤتمر الأقطاب لن ينعقد.. فأين الأمل الباقي.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٠/٢٨.

الكونغو

- «رأيت عاصفة الكونغو في نيويورك.» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٨/٢٠.
- «كونغو ثانية.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٠/٢٣.
- «عائد من الكونغو «قصة الخمسة ملايين فرانك»!» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٢٣.
- «امارات الكونغو!» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/١٣.

الكونغو ـ ع خ ـ إسرائيل

- «إسرائيل والكونغو.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٢/٢١.

الكويت

- «أسبوع في الكويت.» صباح الخير: ٢٥ نيسان/ ابريل ١٩٥٧.
- «الكويت والمبتهجون.» المساء: ١٨/٧/١٩٨٦.
- «لماذا الكويت؟» **الشرق الأوسط**: ٢٩/١٠/١٩٨٧.

الكويت والعراق

- «هذا هو مستقبل أزمة الكويت والعراق.» **أخبار اليوم**: ١/٧/١٩٦١.

كي. جي. بي

- «عيد ميلاد الـ كي. جي. بي.» **الشرق الأوسط**: ٢٦/١٢/١٩٨٧.

كيسنجر، هنري

- «كلام إلى كيسنجر.» **الأهرام**: ١١/١٠/١٩٧٤.
- «الفرصة الأخيرة: حول جولات هنري كيسنجر.» **الأهرام**: ١٤/٢/١٩٧٥.
- «هذه الحملات: حول جولات كيسنجر.» **الأهرام**: ١/٣/١٩٧٥.
- «في وداع كيسنجر (١).» **الأهرام**: ١٩/١٢/١٩٧٦.
- «في وداع كيسنجر، المتشائم التاريخي.. وانعكاسه على الشرق الأوسط (٢).» **الأهرام**: ٢٦/١٢/١٩٧٦.
- «في وداع كيسنجر: هل يمكن تكرار ميترنيخ بعد قرن كامل (٣).» **الأهرام**: ٢/١/١٩٧٧.
- «تغير الأسلوب بين كيسنجر وكارتر فهل يتغير الموضوع.» **الأهرام**: ٢٤/٤/١٩٧٧.
- «عودة كيسنجر.» المساء: ٢٨/٧/١٩٨٣.
- «نصيحة كيسنجر.» المساء: ٣/٨/١٩٨٣.
- «كيسنجر والسنيور.» المساء: ٢٤/١٠/١٩٨٣.

كيندي، جون

- «كيندي زار فلسطين ثم زار إسرائيل.» **أخبار اليوم**: ١٢/١١/١٩٦٠.
- «كيندي.. وقنبلة الصين!» **الأخبار**: ٢٢/١١/١٩٦٠.
- «وزارة كيندي.» **الأخبار**: ٢٠/١٢/١٩٦٠.
- «جون كيندي.. من أنت؟!» **الأخبار**: ٢٢/١/١٩٦١.
- «جون كيندي ولغة الدم والدموع!» **الأخبار**: ٣١/١/١٩٦١.
- «كيندي... وماكميلان.» **الأخبار**: ٣/٢/١٩٦١.
- «جاكلين وكيندي في باريس!» **الأخبار**: ٥/٤/١٩٦١.
- «أول هزيمة لكيندي!» **الأخبار**: ٢١/٤/١٩٦١.

- «كيندي زعلان! ويطالب بالرقابة على الصحف!» الأخبار: ١٩٦١/٥/١.
- «اذكروا كيندي!» الأخبار: ١٩٦١/٥/٤.
- «خطبة كيندي!» الأخبار: ١٩٦١/٩/٢٦.
- «اللحظة التي مات فيها كيندي.» اليوم: ١٩٦٣/١١/٢٣.
- «ماذا بعد كيندي؟» الأخبار: ١٩٦٣/١١/٢٤.
- «جون كيندي الرجل والأسلوب.» الأخبار: ١٩٦٣/١١/٢٥.

- ل -

اللاجئون

- «اللاجىء والمجتمع.» المساء: ١٩٨٦/٧/٧.

لافون

- «القصة الكاملة لفضيحة لافون.» الأخبار: ١٩٦١/٣/١٨.

اللافي، طائرة

- «اللافي تطير إلى جنوب أفريقيا.» المساء: ١٩٨٧/١١/٢٤.
- «طائرة اللافي الإسرائيلية في جنوب أفريقيا.» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/٣/٥.

لاوس

- «الغرب مختلف حول لاوس.» الأخبار: ١٩٦١/١/٤.

لبنان

- «سر المعركة في لبنان.» صباح الخير: ٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٧.
- «الخطر الحقيقي في لبنان!!» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٣/١٩.
- «في لبنان!» الأخبار: ١٩٦١/٤/٧.
- «كريم بلقاس يقول ـ لا تجربة لبنان.. ولا تجربة فلسطين.. ولا تجربة كاتانجا.» الأخبار: ١٩٦١/٥/٢٧.
- «يوميات لبنانية.» الأخبار: ١٩٦٢/٤/١٦.
- «المرض العربي الكامن: ما هي الاستراتيجية العربية؟ من المعين لها ومن المتخلف، حول الأزمة اللبنانية.» الأهرام: ١٩٦٩/١٠/٢٦.
- «لبنان قديم يغرب وجديد لم يكبر بعد.» الأهرام: ١٩٧٢/٥/١٢.
- «كيف نحافظ على لبنان؟ كيف نحافظ على المقاومة؟» الأهرام: ١٩٧٢/٧/٢.
- «ماذا في لبنان؟» الأهرام: ١٩٧٥/٩/٢٢.

- «المأساة أكثر من لبنانية.» الأهرام: ١٩٧٥/١١/٢.
- «محاولة من أجل لبنان.» الأهرام: ١٩٧٥/١٢/١٣.
- «عن لبنان.» الأهرام: ١٩٧٦/١/٢٥.
- «من الدروس اللبنانية.» الأهرام: ١٩٧٦/٤/١٨.
- «قبل وبعد في لبنان.» الأهرام: ١٩٧٦/٥/١٦.
- «ولماذا الدهشة مما جرى في لبنان.» الأهرام: ١٩٧٧/٤/١٦.
- «لبنان فيه حرب دولية لا تنتظر تصالح الملوك والرؤساء.» الأهرام: ١٩٧٧/٤/٢٣.
- «مساهمو شركة لبنان.» المساء: ١٩٨٣/٣/٧.
- «بيت مري!!» المساء: ١٩٨٣/٧/٤.
- «كل شيء عرفته لبنان ما عدا القنبلة الذرية.» المساء: ١٩٨٣/١٠/١٦.
- «لبنان والعالم ماذا نسمع وماذا قال المخطوفون السوفيات.» المستقبل: ١٩٨٦/٣/١٥.
- «أشياء ممنوعة في بيروت.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٤/٥.
- «فيتنام الثانية.» المساء: ١٩٨٧/٦/٤.
- «من سيبقى في لبنان.» المساء: ١٩٨٧/٦/٧.
- «دروس من حرب لبنان.» المساء: ١٩٨٧/٦/٢٩.
- «ثورة الجوع في لبنان.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٩/١٤.
- «لبنان: مطلوب خمسون رجلا.» الشرق الأوسط: ١٩٨٨/١٠/٣.
- «اللجنة العربية في لبنان.» الشرق الأوسط: ١٩٨٩/١/٢٣.

لعب الأطفال

- «العبوا يا أولادي ولو كرهت السيارات.» الأخبار: ١٩٥٩/١٢/٨.

لعبة السياسة

- «عصافير كثيرة.. بحجر واحد!» الشعب: ١٩٥٩/٦/١٤.

لومومبا (اسرته)

- «جيزنجا... بعد لومومبا!» الأخبار: ١٩٦١/٢/١٦.
- «اللقاء الغريب بين زوجة لومومبا والعالم المتحضر.» الأخبار: ١٩٦١/٢/٢٠.

لويس عوض

- «زيارة لمكتبة لويس عوض؛ من ايزيس إلى ناعسة.» صباح الخير: ١٧ نيسان/ ابريل ١٩٥٨.

الماركسية

- «دراويش الماركسية.» صباح الخير: ٢٩ أيار/ مايو ١٩٥٨.
- «الماركسية والعصر الذري.» الأخبار: ١٩٦٠/١/٨.

مالينكوف

- «قصة مالينكوف.. لم تتم!» روز اليوسف: ١٤ شباط/ فبراير ١٩٥٥.

المانش، بحر

- «عبور المانش!» الأخبار: ١٩٦٠/١/٥.
- «ماوتسي تونج وغادة الكاميليا!» الأخبار: ١٩٦١/٢/٢٨.

المباني العامة

- «صور من القذارة في البنوك والمباني العامة.» الأخبار: ١٩٦١/٣/٦.

متفرقات

- «لهم الدنيا.. ولنا الآخرة!!» روز اليوسف: ٨ آذار/ مارس ١٩٥٤.
- «أبو هريرة!» روز اليوسف: ٥ نيسان/ ابريل ١٩٥٤.
- «المجانين في آسيا..!» روز اليوسف: ٢٦ نيسان/ ابريل ١٩٥٤.
- «النار التي تضيء الغابة!» صباح الخير: ٢ شباط/ فبراير ١٩٥٦.
- «.. محاولة ثانية!» صباح الخير: ٩ شباط/ فبراير ١٩٥٦.
- «نحن الذين نملأ الفراغ!!» صباح الخير: ٢٩ آذار/ مارس ١٩٥٦.
- «منعوني من السفر!» صباح الخير: ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٥٦.
- «معنى الخيانة..!» صباح الخير: ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٦.
- «الجرح.. والسكين!» صباح الخير: ٢ آب/ اغسطس ١٩٥٦.
- «خيانة.. لمن؟» صباح الخير: ٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.
- «في سيارة واحدة!» صباح الخير: ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.
- «.. راقبوا هذه الخطوة الخطيرة!» صباح الخير: ٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٦.
- «ما أتعسه من انهيار..» صباح الخير: ١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.
- «لو عرف الناس أني فقير!» صباح الخير: ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.
- «أمريكا لن تعود عظمى!..» صباح الخير: ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.
- «خطاب إلى ابنتي.» صباح الخير: ٧ شباط/ فبراير ١٩٥٧.
- «لن نذهب إلى هذا الحد!» صباح الخير: ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٥٧.
- «عطلة الأسبوع.» صباح الخير: ٤ تموز/ يوليو ١٩٥٧.

- «الذكرى الحقيقية.» صباح الخير: ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٥٧.
- «الأم الأخيرة.» صباح الخير: ١٥ آب/ اغسطس ١٩٥٧.
- «أسبوع في دمشق.» صباح الخير: ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧.
- «ناس.. بلا جذور.» صباح الخير: ١٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.
- «مغامرات سيارة!» صباح الخير: ٢٤ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.
- «معنى كلمة معركة.» صباح الخير: ٣١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٧.
- «ثلاث زوجات.» صباح الخير: ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧.
- «هل هي مرحلة جديدة.» صباح الخير: ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧.
- «ليلة في فندق.» صباح الخير: ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.
- «حتى نلتقي.» صباح الخير: ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨.
- «وجوه جديدة.» صباح الخير: ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨.
- «أبيض وأسود.» صباح الخير: ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨.
- «اضحك.» صباح الخير: ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨.
- «قصة الليل.» صباح الخير: ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨.
- «عذراء أسيوط.» صباح الخير: ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٨.
- «ذيل الأسد.» الشعب: ١٩٥٩/٧/٩.
- «اقتراح محدد.» الشعب: ١٩٥٩/٧/١٠.
- «ادعوهم.» الشعب: ١٩٥٩/٧/٢١.
- «هذه هي المعركة بين الجيل الجديد والجيل القديم.» آخر ساعة: ١٢ آب/ اغسطس ١٩٥٩.
- «اعجب كتاب في العالم!» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٢/٦.
- «أنتم الزمن وأنتم الضمير.» آخر ساعة: ٢٠ تموز/ يوليو ١٩٦٠.
- «نهر الريش وملكه الجبار.» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٩/١٧.
- «أين يقف الأعضاء الجدد.» الأخبار: ١٩٦٠/٩/٢٦.
- «القمر والطين.» الأخبار: ١٩٦١/٢/٢٧.
- «مهمة جديدة.. لربات البيوت.» الأخبار: ١٩٦١/١٢/١١.
- «عم حسين... وزوجته.. وابنته.» الأخبار: ١٩٦١/١٢/٢٥.
- «حمامات السوق!!» الأخبار: ١٩٦٢/١/٨.
- «شيء يغيظ حقاً.» الأخبار: ١٩٦٢/٢/٥.
- «ياليوم ٢٢ فبراير.. لنا لقاء جديد!» الأخبار: ١٩٦٢/٢/١٩.
- «عندما كان الأمل قزما والياس عملاقا.» الأخبار: ١٩٦٢/١٢/١٧.
- «أقدار.. متصادقة!» الأخبار: ١٩٦٢/٣/١٠.
- «الطريق الصعب إلى المساواة..!» الأخبار: ١٩٦٢/٣/١٧.
- «الأسرار المجهولة!» الأخبار: ١٩٦٢/٤/١.

- «في الثلاثين يا ريت.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٢/٣١.
- «قصة الأنفاق الستة.» **اليوم**: ١٩٦٣/١/٥.
- «زمن الآفاق الجديدة.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١/٧.
- «نهاية الطاغية المجنون.» **اليوم**: ١٩٦٣/٢/٩.
- «آدم يعود من حيث أتى.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٨/٢٤.
- «زيارة من عين الحياة.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٩/٢.
- «أوراق مبعثرة!» **الأخبار**: ١٩٦٤/٢/٣.
- «نهاية مشكلة.» **اليوم**: ١٩٦٤/٢/١٥.
- «الورقة الأولى في المرحلة الراهنة.» **المحرر**: ١٩٦٧/٦/٢٩.
- «٤ كلمات.» **المصور**: ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧.
- «خواطر وتأملات.» **المصور**: ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٦٨.
- «كل سنة وأنت طيب.» **المصور**: ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٦٩.
- «أهل الكلامولوجيا.» **المصور**: ٢٧ آذار/ مارس ١٩٧٠.
- «أسئلة وأجوبة.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٥/٢٨.
- «هوامش.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٩/٣.
- «ما بعد ميونيخ.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٩/١٧.
- «من خواطر السنة الجديدة: حول الحتميات وما هو المهم في التاريخ.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١٢/٣١.
- «حول الحوار المطلوب.» **الأهرام**: ١٩٧٣/٢/٤.
- «عودة المسألة الشرقية.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٩/٦.
- «لماذا التحالف.. الآن.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٩/٢٤.
- «حكايات تحتاج إلى تأمل، حكاية مدرسة السخط.» **الأهرام**: ١٩٧٥/٢/٢١.
- «حياة خطيرة.» **الأهرام**: ١٩٧٥/١٢/٧.
- «الكلمة المنتظرة.» **الأهرام**: ١٩٧٥/١٢/٨.
- «نقطة نظام.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٢/٢٢.
- «الخرابة التي يتحدثون عنها.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٣/٢٩.
- «انقضوا أو انفضوا.» **الوطن**: ١٩٧٦/٦/١٩.
- «هوامش على الأحداث.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٨/١٥.
- «أول السنة من غيرنا يقول.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١/٧.
- «العودة.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١١/٥.
- «من مطار إلى مطار.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/١/٢٨.
- «يسار اليسار ويسار يسار اليسار!» **المستقبل**: ١٩٨٦/١/٢٥.
- «أسئلة بلا إجابات.» **المساء**: ١٩٨٦/٣/٢٧.
- «مصارعة فوق حبل مشدود.» **المساء**: ١٩٨٦/٥/١.

- «الخطأ البشري.» المساء: ١٩٨٦/٥/١٣.
- «الناس اللي فوق والناس اللي تحت.» المساء: ١٩٨٦/٥/١٩.
- «جريمة العصر.» المساء: ١٩٨٦/٥/٢٩.
- «العالم يزداد صفرا.» المساء: ١٩٨٦/٦/٣.
- «مبارك عواد.» المساء: ١٩٨٦/٦/١٣.
- «بركة يا جامع.» المساء: ١٩٨٦/٦/٢٠.
- «الخيال المطلوب.» المساء: ١٩٨٦/٦/٢٤.
- «بين الذهاب والبقاء.» المساء: ١٩٨٦/٧/١.
- «اطلبوا منه الشيء المحدد.» الشباب: ١٩٨٧/١/١.
- «المكافأة.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٣/١٤.
- «المستعين والمستعان به.» المساء: ١٩٨٧/٣/١٨.
- «النسيان والغفران.» المساء: ١٩٨٧/٤/٢٦.
- «ناس أكلتهم الوحوش.» المساء: ١٩٨٧/٥/١٥.
- «الملوخية والجرجير.» المساء: ١٩٨٧/٥/٢٤.
- «المستقلة الوحيدة في ٩٠٠ سنة.» المساء: ١٩٨٧/٦/١٤.
- «جمالها للرجال وعقلها للحيوانات.» المساء: ١٩٨٧/٦/٢٨.
- «ما أحلى الرجوع إليه.» المساء: ١٩٨٧/٩/٣.
- «الجاز والنار.» المساء: ١٩٨٧/٩/٢٢.
- «هل يمكن تكرارها.» المساء: ١٩٨٧/١١/٣.
- «١٦ سنة غير شرعية.» المساء: ١٩٨٧/١١/١٥.
- «مسألة ثقة.» المساء: ١٩٨٧/١١/٢٩.
- «الاتفاق التاريخي.» المساء: ١٩٨٧/١٢/٢.
- «انسحاب واحد فقط.» المساء: ١٩٨٧/١٢/٩.
- «قالها مرة أخرى.» المساء: ١٩٨٧/١٢/١٨.
- «الولاء المزدوج.» المساء: ١٩٨٨/١/٧.
- «رجل عام ١٩٨٨.» المساء: ١٩٨٨/١/٨.
- «عصر الرجل العادي.» الشباب: ١٩٨٩/٤/١
- «رحلة.» الشرق الأوسط: ١٩٨٩/١٠/٨.
- «أنت متهم.» المدينة: ١٩٩٠/١/٣٠.
- «كل عين لها ثمن!» الشباب: ١٩٩٠/٢/١.
- «ولكنه يعلم.» الشباب: ١٩٩٠/٣/١.

المجتمع الإسرائيلي

- «الدين في إسرائيل.» المساء: ١٩٨٦/٦/٢٧.

المجتمع الكويتي

- «مجتمع الكويت.» صباح الخير: ٢ أيار/ مايو ١٩٥٧.

المجتمع المصري

- «بين الجبهة الداخلية والجبهة الخارجية.» صباح الخير: ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨.
- «نافذة على مجتمعنا!» الأخبار: ١٩٦٠/٥/٢٥.
- «المبالغة في تخطيط حياة الناس قد يكون لها أثر عكسي.» الأخبار: ١٩٦١/١/٢.
- «العقاد والمرض وحديث عن أحلام المصريين.» الأخبار: ١٩٦٣/٢/٢٤.
- «حكايات تحتاج إلى تأمل: حكاية مصريون فقط.» الأهرام: ١٩٧٥/٢/٢٨.

المجتمعات الحديثة

- «من يحكم البيت الحديث.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٤/٤.

مجلس الأمن

- «مقاعد مجلس الأمن.» الأخبار: ١٩٦٠/١١/١٤.

مجلس الأمة

- «على أبواب مجلس الأمة.» صباح الخير: ١٤ آذار/ مارس ١٩٥٧.

مجلس الشورى

- «بطاقة تهنئة للشورى.» المستقبل: ١٩٨٥/٣/٢.

مجلس قيادة الثورة

- «الثورة الجديدة سبقها استعداد طويل؛ هل يضم مجلس قيادة الثورة مدنيين وعسكريين؟» الأخبار: ١٩٦٣/٢/١٠.

مجلس الوزراء

- «خطاب بالبريد المستعجل إلى رئيس مجلس الوزراء الجديد.» الأهرام: ١٩٧٨/١٠/٢٢.

المجلس الوطني الفلسطيني

- «ماذا بعد المجلس الوطني؟» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/٥/٥.
- «الظاهر والباطن في قرارات المجلس الوطني الفلسطيني.» المساء: ١٩٨٧/٥/٧.
- «وحزب الله أيضاً غاضب على المجلس الوطني.» المساء: ١٩٨٧/٥/١٤.

- «سؤال عن المجلس الوطني (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١١/١١.
- «المجلس الوطني والانتفاضة (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١١/١٢.
- «المجلس الوطني والانتفاضة (٣).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/١١/١٣.

مجيد أبو جمعة

- «اعدام مجيد أبو جمعة.» **المساء**: ١٩٨٤/٥/٣١.

محاربة الفساد

- «نقطة للبدء.. في عملية «هز» الجهاز الحكومي.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٠/٢١.

محمد أنور السادات

- «حوار مع السادات.» **المصور**: ٣ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٨٦.

محمد حاج يحيى

- «محمد حاج يحيى.» **المساء**: ١٩٨٦/٦/٢٥.

محمد حسني مبارك

- «ودارت الأيام والفضل للرئيس مبارك.» **المساء**: ١٩٨٨/١/١٨.

محمد عبد الوهاب

- «الاحتفال بعبد الوهاب.» **المساء**: ١٩٨٤/٣/١٨.

محمد مزالي

- «محمد مزالي.. وبورقيبة.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/٢٢.
- «لقاء مع محمد مزالي.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/٢٣.

المخيمات الفلسطينية

- «عقدة حرب المخيمات.» **المساء**: ١٩٨٦/١٠/٢٠.

مدارس البنات

- «باب مدرسة البنات.» **الأخبار**: ١٩٦١/١١/٢٠.

المدرسون

- «المدرسون الذين عادوا من المغرب ما زالوا بلا عمل.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١٢/١٦.

المدن الجديدة

- «المدن الجديدة.» **الأهرام**: ١٩٧٥/١١/٣٠.

المديرون

- «إلى الذين يتنصلون من مسئولياتهم.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/١٤.

مراكز القوى

- «عن التسجيلات والأشرطة والحاكم.» **المصور**: ١١ حزيران/ يونيو ١٩٧١.

المرأة

- «الباحثات عن الحرية.» **صباح الخير**: ١٨ تموز/ يوليو ١٩٥٧.
- «سميحة في الكركون.» **صباح الخير**: ٨ آب/ اغسطس ١٩٥٧.
- «الاختلاط.. بدلاً من الشارع.» **صباح الخير**: ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧.
- «الانوثة ـ أيضاً.» **صباح الخير**: ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.
- «أخوات جميلة.» **صباح الخير**: ٦ شباط/ فبراير ١٩٥٨.
- «أين كانت المرأة في المؤتمر!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٧/١٨.

المرأة والتنوير

- «أنت.. غرفتي الخاصة.» **صباح الخير**: ٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨.

المرأة والرجل

- «خطاب إلى امرأة مجهولة: كيف تجعلين الرجل يهواك.» **صباح الخير**: ٥ حزيران/ يونيو ١٩٥٨.
- «خطاب إلى امرأة مجهولة: تقهقري لاستدراج الرجل.» **صباح الخير**: ١٩ حزيران/ يونيو ١٩٥٨.
- «خطاب إلى امرأة مجهولة: الجاذبية ليست قاصرة على الجميلات.» **صباح الخير**: ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٨.
- «المرأة التي تحب أن يضربها زوجها.» **صباح الخير**: ١٠ تموز/ يوليو ١٩٥٨.
- «الدقيقة الحاسمة في الحرب بين الجنسين.» **صباح الخير**: ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨.
- «متى يكسب الزوج احتقار زوجته.» **صباح الخير**: ٣١ تموز/ يوليو ١٩٥٨.

المرأة والفن

- «آلام أهل الفن.» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/١٣.

المراهقات

- «منشور وزاري عن «المراهقات».» **الأخبار**: ١٩٦١/١/١٦.

المراهقون

- «دفاع عن المراهقين والمراهقات وعريضة إتهام الجيل السابق.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٧/٤.

المركز العربي في باريس

- «المركز العربي في باريس.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/١٠.
- «المركز العربي لن ينتكس.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/١١.

المساكن

- «أزمة سكن الأباطرة.» **المساء**: ١٩٨٦/٣/٢٨.
- «شقة في القاهرة.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/١٥.

المستقبل

- «الحيرة... والحرمان... والخوف من المستقبل.» **روز اليوسف**: ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٥٤.

مستوى المعيشة

- «ارتفاع مستوى المعيشة يضاعف عدد الزوجات.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٢/٢.

المسرح

- «٣٦٥ ليلة على المسرح.» **الأخبار**: ١٩٦٣/١٢/٢٨.
- «ثلاث مسرحيات جديدة.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٢/١٨.
- «روميو وجولييت على رصيف نيويورك.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٢/٣١.

المسنون

- «الحياة تبدأ بعد السبعين!» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٤/٢٩.

المسيحيون في إسرائيل

- «المسيحية في إسرائيل!» **الأخبار**: ١٩٦١/٧/١٦.

المسيحيون في افريقيا

- «الكاردينال الأسود!!» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/١٨.

مشايخ الطرق الإسلامية

- «مشايخ الطرق الكزبرية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٠/٢.

المشروبات الروحية

- «الويسكي.. والفودكا.. والملوخية.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٩/١٢.

المشكلات الاجتماعية

- «كل المشاكل الخطيرة تأجلت ولم تحل بعد.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٤/٧.
- «أقدم مشاكل الإنسان تعيش معه ـ في عصر الذرة.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٨/٣١.

المصايف

- «شاطىء البحر.. لمن يكون؟» **الأخبار**: ١٩٦٢/٣/١٢.
- «بكيني!!» **المساء**: ١٩٨٤/٥/١٦.

مصر ـ الأحزاب السياسية

- «أحزاب أو حزبان؟ عن النظام الحزبي بمصر.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٩/٢٣.
- «خطاب السادات والمنابر.» **الأهرام**: ١٩٧٥/١١/٢٣.
- «عن المنابر والديمقراطية.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٢/١.
- «الطريق إلى الأحزاب.» **الأهرام**: ١٩٧٦/٢/١٥.

مصر ـ الأحوال الاجتماعية

- «... قراء كثيرون يسألون: أين أخبار المجتمع؟» **صباح الخير**: ٢٩ آذار/ مارس ١٩٥٦.

مصر ـ الأحوال الاقتصادية

- «أفكار الرجل القادم إلينا... من الذي يطرق باب الرخاء للجميع؟» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١/١٦.
- «ليست في مصر مشكلة اقتصادية.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١٢/٢٤.
- «ماذا حدث في مصر؟ (١).» **الأخبار**: ١٩٨٥/١٠/٢٦.
- «الاقتصاد الخفي! (٢).» **الأخبار**: ١٩٨٥/١١/٢٣.

مصر ـ الأحوال السياسية

- «وطنية اللصوص!» **صباح الخير**: ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦.
- «المادية والمثالية!» **صباح الخير**: ٢ شباط/ فبراير ١٩٥٦.

- «بناة الامبراطورية المصرية.» **صباح الخير**: ١٦ أيار/ مايو ١٩٥٧.
- «ثورة أكتوبر.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١١/٧.
- «المشاكل الداخلية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٢٦.
- «خواطر عاق... ونحن على أبواب المؤتمر الوطني.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٤/٢٨.
- «لسنا أمة من القطيع.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٦/١٩.
- «فلما كانت السنة الأولى.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٧/٢١.

مصر ـ الاصلاح الاقتصادي

- «خمس سنوات غيرت مصر وهزت العالم.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٥/١٥.

مصر ـ تاريخ

- «نصيحة لمصر.» **روز اليوسف**: ٣ آب/ اغسطس ١٩٥٣.
- «أروع أيام حياتنا!» **صباح الخير**: ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.
- «ماذا تريد أمريكا؟» **صباح الخير**: ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.
- «نحن نعيش أياماً خطيرة تشبه أيام ما قبل السويس.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٢/٣.
- «هل هناك طريق ثالث بين الثورة.. والتخلف؟» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٠/٦.
- «الساعات الحرجة بين يوم الاستقلال وموسم المطر.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١١/٢٤.
- «القرارات الستة التي صنعت سنة ١٩٦٢.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٢/٢٩.
- «مقارنة عهود الحكم بين الأحقاد والنسيان!» **الأهرام**: ١٩٧٦/٨/١.

مصر ـ تاريخ ـ الاحتلال البريطاني

- «الجيش الانجلو أمريكي الذي يريد أن يجيء!» **صباح الخير**: ٩ شباط/ فبراير ١٩٥٦.

مصر ـ تاريخ ـ حسني مبارك

- «تركة حسني مبارك ثقيلة وحرية المصريين زادت عن العام الماضي.» **السياسية**: ١٩٨٢/١٠/٥.

مصر والاتحاد السوفييتي

- «عودة جمال عبد الناصر.. ماذا اعطتنا روسيا وماذا أعطيناها.» **صباح الخير**: ١٥ أيار/ مايو ١٩٥٨.

مصر ـ التجارة الخارجية

- «بضائعنا في الخارج... والفرصة التي تضيع!» **الأخبار**: ١٩٦١/١/٣٠.

مصر ـ التضخم

- «نحن والتضخم.» **الأهرام:** ٦/١٢/١٩٧٤.

مصر والجامعة العربية

- «مصر والجامعة العربية.» **المساء:** ١٤/١٠/١٩٨٧.

مصر ـ الصناعات

- «صنع في مصر.» **المساء:** ١٠/٨/١٩٨٣.

مصر ـ ع خ ـ الجزائر

- «مصر والجزائر.» **الشرق الأوسط:** ٢٠/٧/١٩٨٨.

مصر ـ ع خ ـ روسيا

- «رسالة موسكو حول العلاقات المصرية الروسية.» **الأهرام:** ١٨/١٠/١٩٧٤.

مصر والسودان

- «حول العلاقات المصرية ـ السودانية حوارات مع السادات.. عن جعفر نميري.» **المستقبل:** ١٨/٥/١٩٨٥.
- «مصر والسودان أيضاً.» **المساء:** ١٤/٥/١٩٨٦.

مصر ـ ع خ ـ السودان

- «إذا انزعج السودانيون مرة انزعج المصريون عشر مرات.» **المساء:** ١٤/٥/١٩٨٤.

مصر وسوريا

- «قالوا عن.. وحدة سوريا ومصر.» **صباح الخير:** ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧.
- «خواطر عن الجمهورية العربية المتحدة.» **صباح الخير:** ٦ شباط/ فبراير ١٩٥٨.

مصر ـ ع خ ـ وسوريا

- «مصر وسوريا بلد واحد!؟» **صباح الخير:** ٥ تموز/ يوليو ١٩٥٦.

مصر ـ ع خ ـ ليبيا

- «اللغز الليبي: حول العلاقات المصرية الليبية.» **الأهرام:** ٨/٨/١٩٧٤.

مصر ـ ع خ ـ الهند

- «نهرو.. عبد الناصر.» **الأخبار:** ٢٠/٣/١٩٦١.

مصر - ع خ - الولايات المتحدة

- «دعاة النفوذ الأمريكي في مصر وبرنامج النقطة الرابعة.» **الفصول**: [د. ت.].

مصر - ع خ - اليمن

- «قواتنا في اليمن... لماذا؟» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٠/٣٠.

مصر - المحافظات

- «حول اقتراح تخفيض عدد المحافظات من ٢٥ إلى ١٠، عواصم التوازن لمواجهة قوة جذب القاهرة.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١١/٢٥.

مصر - الوزارات

- «قبل التعديل الوزاري.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٤/٢١.

مصر والعرب

- «متى اعتنقت «مصر» فكرة العروبة؟» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١٢/٢٤.

المصريون في الخارج

- «المصريون والجاليات العربية والماويين في كندا.» **المصور**: ١ آب/ أغسطس ١٩٦٩.

مصنع الحديد والصلب

- «معركة الحديد والصلب.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٤/٢٣.

مظاهرات الطلبة ١٩٦٨

- «هل هي سنة الطلبة أم علامة تحولات أخرى: عن مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨.» **المصور**: ٣١ أيار/ مايو ١٩٦٨.

معارضة

- «كيف نقتنع بالمعارضة؟» **روز اليوسف**: ٨ شباط/ فبراير ١٩٥٤.

المعاهدات

- «حرب المعاهدات!» **روز اليوسف**: ٩ آذار/ مارس ١٩٥٣.

معمر القذافي

- «في لقاء مع القذافي.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٣/١٢.
- «قلت للعقيد القذافي.» **المساء**: ١٩٨٣/٨/٢٥.

- «القذافي من إيران إلى تشاد.» الشرق الأوسط: ١٥/٩/١٩٨٧.

المعونات

- «حرب المساعدات.» صباح الخير: ١٩ تموز/ يوليو ١٩٥٦.

المغرب

- «ماذا في المغرب؟» الأخبار: ١٥/١١/١٩٦٠.
- «المغرب في مفترق الطريق.» الأخبار: ١/٣/١٩٦١.
- «الحزين الوحيد في المغرب.» اليوم: ١٤/١٢/١٩٦٣.

المغرب وفلسطين

- «الفتاة المغربية والفتى الفلسطيني.» المساء: ١٩/٨/١٩٨٤.

المفاوضات

- «خطة جديدة للمفاوضة.» الفصول: [د. ت.].

المقاطعة العربية

- «سلاح المقاطعة!» الأخبار: ٢١/١/١٩٦٠.

المقدسات المسيحية

- «المقدسات المسيحية... أيضاً.» المساء: ٦/٥/١٩٨٤.

مكاريوس

- «مكاريوس والعاصفة حولنا.» الأهرام: ١٩/٧/١٩٧٤.

المكسيك

- «المكسيك دون كره.» المساء: ٢٥/٧/١٩٨٦.

ملكة جمال بريطانيا

- «لعبوا في انتخابات ملكة جمال بريطانيا.» المساء: ١٠/٨/١٩٨٤.

المملكة العربية المتحدة

- «مفتاح آخر لفهم مشروع المملكة العربية المتحدة.» الأهرام: ٢٦/٣/١٩٧٢.

منظمة التضامن الأفرو آسيوي

- «أوروبا تنظر مذهولة إلى الغزو الافريقي الآسيوي.» أخبار اليوم: ١٩٦١/٩/٢.

منغوليا

- «منغوليا.» الأخبار: ١٩٦١/٧/١٣.

مهرجان القاهرة

- «ملاحظات على مهرجان القاهرة.» الأخبار: ١٩٦٣/٩/٩.

الموارد البشرية

- «الاستثمار الانساني في الباب الذي لم نطرقه بعد.» الأهرام: ١٩٧٢/٢/٦.

الموالد

- «مولد أبو حصيرة.» الجمهورية: ١٩٨٢/٤/٢٢.

مؤتمرات القمة

- «مؤتمرات القمة ولكن كيف.» المصور: ٢٩ آذار/ مارس ١٩٦٨.

مؤتمرات القمة العربية

- «اللقاء التاريخي.. بين ممثلي ١٢٠٠ مليون انسان.» صباح الخير: ٢٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.
- «على هامش مؤتمر القمة الأخير، السلطة... لماذا؟.» الوطن: ١٩٨٠/١٠/٢٤.
- «قبيل القمة التي قد تعقد وقد لا تعقد: تتحدث عن مستشفى.. لا عن «عين جالوت»!» المستقبل: ١٩٨٥/٨/٣.
- «قمة المفاجآت..» المستقبل: ١٩٨٦/١٠/١.
- «قمة بالاسم أم قمة بالفعل.» المساء: ١٩٨٧/١١/١١.

مؤتمر البيئة الدولي

- «حول مؤتمر البيئة الدولي المنعقد في ستوكهولم.» الأهرام: ١٩٧٢/٦/١١.

مؤتمر التضامن الأفرو آسيوي ١٩٥٨

- «هكذا نجح مؤتمر التضامن الأسيوي الافريقي.» صباح الخير: ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٨.
- «تجربة مؤتمر «الآسيوي ـ الافريقي».» صباح الخير: ٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨.

مؤتمر جنيف للسلام

- «مؤتمر جنيف واحتمالات السلوك الإسرائيلي.» **الأهرام**: ١٩٧٧/١٢/١٧.

مؤتمر السلام الدولي بمدريد

- ««شارون لن يذهب إلى مدريد.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١١/١٨.
- «القاضي والحشيش والمقعد اليهودي.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١١/١٩.

مؤتمر القمة الإسلامي ١٩٧٤

- «خارج قرارات مؤتمر القمة الإسلامي.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٢/٢٥.

مؤتمر القمة العربي ١٩٦٤

- «لمحات من مناقشات الجلسات السرية ماذا حدث في المؤتمر.» **الأخبار**: ١٩٦٤/١/١٨.

مؤتمر القمة العربي ١٩٧٤

- «حول مؤتمر القمة: كيف نختلف ونتفق.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١٠/٢٥.
- «التقرير الثاني عن مؤتمر الرباط: مرحلة ثانية بعد أكتوبر.» **الأهرام**: ١٩٧٤/١١/٢.

مؤتمر القوى الشعبية

- «على أبواب اللجنة التحضيرية لمؤتمر القوى الشعبية اليوم.» **الأخبار**: ١٩٦١/١١/٢٥.
- «لماذا وقعت المعارك في اللجنة التحضيرية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٢/١٦.
- «ليست مهمة اللجنة التحضيرية مطاردة كل خطأ في المجتمع.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٢/٢٣.

المؤسسات

- «المؤسسات العامة عندنا..» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/٨.

المؤسسات الحكومية

- «نقطة للبدء في عملية هز الجهاز الحكومي.» **الأخبار**: ١٩٦١/١٠/٢١.
- «المصالح الحكومية تحتل كورنيش النيل.» **الأخبار**: ١٩٦١/١١/٦.

الموازنة العامة

- «لا تفرقوا.» **الشعب**: ١٩٥٩/٧/١٤.

الموظفون العموم

- «شخصية الأسبوع (موظف شركة الطيران).» **اليوم**: ١٩٦٣/١٢/٢٨.

الموسيقى

- «الكراسي الموسيقية!» **الأخبار**: ١٩٦٠/١/١٤.
- «التفسير السياسي للموسيقى.» **آخر ساعة**: ١٨ شباط/ فبراير ١٩٦٩.

مولوتوف

- «لماذا طرد مولوتوف ورفاقه..» **صباح الخير**: ١١ تموز/ يوليو ١٩٥٧.

موناكو

- «امارة موناكو العربية.» **المساء**: ١٩٨٣/٧/٢٤.

مونرو، مارلين

- «زوج مارلين مونرو.» **صباح الخير**: ٥ تموز/ يوليو ١٩٥٦.

المياه - إسرائيل

- «إسرائيل - والعطش...!» **الأخبار**: ١٩٦٤/١/١٣.

ميتران، فرانسوا

- «عادل إمام فرنسي مرشح لرئاسة الجمهورية.» **الهدف**: ١٩٨٠/١/٢٩.

ميلر، آرثر

- «مسرحية للكاتب الأمريكي آرثر ميلر، ساحرات سالم!» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٩/١٠.

- ن -

نادي القمار الدولي

- «نادي القمار الدولي (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٠/٢٧.
- «نادي القمار الدولي (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٠/٢٨.

النظافة

- «صورة على جدران بيتك.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٦/٢٧.

نظام الحكم

- «حكم شعب قوي في كل قطر.» **اليوم**: ١٩٦٣/٤/١.
- «خبراء السلطان كيف يمكن الحد من خطرهم.» **الجمهورية**: ١٩٨١/١٢/١٧.

النظام العالمي

- «هل تغير العالم.. أم لن يتغير؟ هذا هو السؤال.» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٢/٢٢.

النظريات السياسية

- «نظرية سياسية جديدة!» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٣/٥.
- «مفكر عربي يتكلم... عن النظرية الجديدة.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٣/١٢.

النظم السياسية

- «أكثر من مجال للعمل في التنظيم السياسي.» **المصور**: ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٦٨.

نعمان عاشور

- «نعمان عاشور وشريط الذكريات (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/١١.
- «نعمان عاشور وشريط الذكريات (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/١٢.
- «نعمان عاشور وشريط الذكريات (٣).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/١٣.
- «نعمان عاشور وشريط الذكريات (٤).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/١٤.
- «نعمان عاشور وشريط الذكريات (٥).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/١٥.

النفاق

- «الغشاشون.» صباح الخير: ٣٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٨.

النقد الأدبي

- «ناقد بين امرأتين.» **الأخبار**: ١٩٦١/٧/٣.

نهاية العالم

- «سيناريو جديد لنهاية العالم.» **المساء**: ١٩٨٧/٥/١٠.

نهر النيل

- «من الملك مينا.. إلى المستر دالاس!، نهر النيل... ينتسب إلى أمة أكبر.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١/٩.

نهرو، جواهر لال

- «تليفون من نهرو. . . يغير الموقف!» ١٩٥٤/٧/١٢.

نورييجا

- «نورييجا وقصر في إسرائيل.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٨/٣/٢١.

النيابة الإدارية

- «علاقات انسانية قبل النيابة الإدارية.» **الأخبار**: ١٩٦١/١١/٢٢.

نيبال

- «انقلاب نيبال.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١٢/١٨.

نيكسون، ريتشارد

- «ريتشارد نيكسون ثم ماذا.» **المصور**: ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٨.
- «بعد انتخاب نيكسون موسم الرحلة إلى واشنطن.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١١/١٢.
- «نيكسون: قبل وبعد الحرب.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٦/١٤.
- «محاكمة نيكسون.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٨/٢.
- «مأساة نيكسون.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٨/١٠.
- «عندما كرر نيكسون محاولة حل شامل.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٣/١١.

ـ هـ ـ

هايتي

- «انقلاب في جزيرة هايتي.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/٨.

هتاف الصامتين

- «هتاف الصامتين: عرض كتاب.» **الأهرام**: ١٩٧٢/٦/٢٠.

الهجرة

- «الهجرة في العالم العربي وحكاية معاوية.» **الجمهورية**: ١٩٨٢/٢/٥.

هجرة العمالة

- «بيع الأراضي المصرية وهجرة الأيدي المصرية.» **الأهرام**: ١٩٧٥/١٢/٢١.

هجرة الكفاءات

- «مرض الحنين إلى السفر. . .» صباح الخير: ٢٢ آب/ أغسطس ١٩٥٧.
- «الهجرة في العالم العربي.» الجمهورية: ١٩٨٢/٢/٢٥.

هرمز (مضيق)

- «هل يمكن اغلاق مضيق هرمز.» المساء: ١٩٨٤/٣/٢٦.

الهليكوبتر، ٨٤ طائرة

- «الهليكوبتر.» الأخبار: ١٩٦٠/١/١٨.

همرشولد

- «رد على همرشولد.» الأخبار: ١٩٦١/١/٢٩.
- «همرشولد. . . يجب أن يخرج!» الأخبار: ١٩٦١/٢/١٤.
- ««روسيا تصنع نهاية همرشولد!» الأخبار: ١٩٦١/٢/١٥.
- «لو بقي همرشولد؟» الأخبار: ١٩٦١/٢/١٧.

الهند

- «خليفة غاندي الذي يقود. . ثورة الحب!» صباح الخير: ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨.
- «٤٨ ساعة في الهند.» الأخبار: ١٩٦٠/٤/٦.

الهند ـ وصف

- «كيرالا!» الشعب: ١٩٥٩/٦/٢٦.

هيج، الكسندر

- «هيج. . . وإسرائيل.» المساء: ١٩٨٤/٤/١٢.

هيروهيتو

- «قرن هيروهيتو.» الشرق الأوسط: ١٩٨٧/١١/١٥.
- «فريد هيروهيتو.» المساء: ١٩٨٧/٥/١٨.

ـ و ـ

وايزمان، عيزرا

- «أفكار. . . وايزمان.» المساء: ١٩٨٤/٤/٢٢.

وأد البنات

- «وأد البنات والأولاد في العصر الحديث.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٣/٣٠.

الوحدة الأوروبية

- «هونيكر وكول ويجول.» **المساء**: ١٩٨٧/٩/١٥.

الوحدة العربية

- «هل تتحد العراق والأردن؟» **صباح الخير**: ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٨.
- «القاهرة ـ بيروت ـ دمشق وبالعكس.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/١٦.
- «الخلاف في مكان الوحدة.» **الأخبار**: ١٩٦٠/١١/٩.
- «كيف كنا نفكر.. في السنة الثالثة من الوحدة؟» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/٢٥.
- «التفكير في الوحدة بصوت مرتفع.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٤/١.
- «مباحثات الوحدة.. والرأي العام.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٤/٨.
- «المرحلة الحرجة في حياة الوحدة!» **الأخبار**: ١٩٦٣/٤/١٣.
- «وثيقة الوحدة الجديدة: تعليق ونقد.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٤/٢٠.
- «اتفاقية الوحدة تواجه أول امتحان لها في دمشق.» **الأخبار**: ١٩٦٣/٤/٢٧.
- «كيف جعل حزب البعث تنفيذ اتفاقية الوحدة مستحيلاً؟» **الأخبار**: ١٩٦٣/٦/٢٢.
- «اتفاقية الوحدة هل تنفذ أو لا تنفذ.» **اليوم**: ١٩٦٥/٥/٢٥.
- «تقارب أو تفاهم أو تكامل العرب.» **المساء**: ١٩٨٤/٤/٨.
- «الملهفون على الوحدة.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/١٠.
- «الأردن وتونس واليمن الجنوبي.» **المساء**: ١٩٨٧/٤/٢٧.

الوحدة الوطنية

- «الوحدة الوطنية هي السبب!» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/١٧.
- «مصر على حافة الحرب الأهلية.» **الأهرام**: ١٩٨٤/٥/٥.

الورق تجارة وصناعة

- «الحرب ضد الورق؟» **الشعب**: ١٩٥٩/٦/١٨.

ورقة اكتوبر

- «ورقة اكتوبر: دعوة إلى التفكير الايجابي.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٤/٢٠.

الوزارات في مصر

- «الوزير... و«جهاز الوزارة».» **الأخبار**: ١٩٦١/١١/١٣.

الوزارات المصرية

- «الوزارة المصرية الجديدة.» **الأحرار**: ١٩٨٤/٨/٢٠.

وزارة الثقافة

- «وزارة الثقافة مرة أخرى من الترانزستور إلى مقدمة ابن خلدون.» **الأهرام**: ١٩٧٨/١١/٧.

الوزراء

- «الوزراء والأساطيل.» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/٢٦.

وزراء الخارجية ـ اجتماعات

- «اجتماع وزراء الخارجية العرب اليوم والتيارات التي تواجههم.» **الأهرام**: ١٩٧٤/٣/٢٥.

وسائل الاتصال

- «تقدمت وسائل الاعلام.» **المساء**: ١٩٨٧/٣/١٥.

وسائل الاتصال الإسرائيلية

- «إذاعة إسرائيل تعلق على الشرق الأوسط.» **المساء**: ١٩٨٦/٧/٣٠.

وسائل الاتصال الجماهيري

- «الصحافة والسينما والإذاعة والمسرح كلها في يد الاحتكار!» **صباح الخير**: ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦.

الوظائف العامة

- «ما أشطرنا في الشراء واصدار قرارات التعيين.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٣/١٩.
- «لماذا لم يطبق مثلاً قانون الوظيفة الواحدة.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٩/٢٢.
- «ضرورة الجمع بين عضوية مجلس الشعب ووظائف القطاع العام.» **الأهرام**: ١٩٧٥/٢/٢٧.
- «حول الجمع بين عضوية مجلس الشعب ووظائف الجامعات والقطاع العام.» **الأهرام**: ١٩٧٥/٣/٤.

وقت العمال الضائع

- «أخطر مظاهر الاسراف الوقت والأيدي العاملة.» **الأهرام**: ١٩٧٢/١/٢١.

الولايات المتحدة الأمريكية

- «أين تقف أمريكا! . . .» روز اليوسف: ٢٠ تموز/ يوليو ١٩٥٣.
- «اقرئيه مرة أخرى. . . ياأمريكا!» صباح الخير: ٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٦.
- «البطوطي في أمريكا.» صباح الخير: ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦.
- «الأمريكي الهادىء.» صباح الخير: ٣٠ أيار/ مايو ١٩٥٧.
- «الأمريكي الهادىء.» صباح الخير: ٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٧.
- «جناية أمريكا على نفسها.» صباح الخير: ٢٢ آب/ أغسطس ١٩٥٧.
- «الخارجون على القانون.» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٩/٢٤.
- «رأيت في أمريكا.» أخبار اليوم: ١٩٦٠/١٠/١٥.
- «٢٠٠٠ سنة أمريكية.» الأهرام: ١٩٧٦/٧/٤.
- «خلافات شولتز ووايبنرجر.» المساء: ١٩٨٤/٣/٢.
- «أمريكا بين الشرق والغرب.» المساء: ١٩٨٤/٥/١٣.

الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي

- «لماذا ابتلع جورباتشوف كل ضمانات ريجان.» المساء: ١٩٨٦/١٠/٢٨.

الولايات المتحدة الأمريكية ـ الأحوال السياسية

- «من يدمر المعبد: حول السياسة الداخلية الأمريكية.» الأهرام: ١٩٧٤/١١/٢٩.

الولايات المتحدة الأمريكية ـ الانتخابات

- «نظرة أولى. . . إلى انتخابات الرئاسة في أمريكا.» أخبار اليوم: ١٩٦٠/٩/٣.

الولايات المتحدة ـ ع خ ـ اسرائيل

- «إسرائيل والبيت الأبيض.» الأخبار: ١٩٦٠/١١/١٦.
- «جذور إسرائيل في الولايات المتحدة.» الأهرام: ١٩٧١/١٢/١٩.
- «لماذا أعطى نيكسون الفانتوم لإسرائيل وضرب فيتنام الشمالية قبل أن يذهب إلى بكين وموسكو!» الأهرام: ١٩٧٢/١/٩.
- «إسرائيل بالنسبة لأمريكا حاملة طائرات غير قابلة للغرق.» الأهرام: ١٩٧٢/٢/١٣.
- «مكاسب إسرائيل من المناطق المحتلة تساوي ضعف كل المساعدات الأمريكية.» المساء: ١٩٨٤/٣/٢٧.

الولايات المتحدة ـ ع خ ـ بريطانيا

ـ ««حكاية» الصراع بين انجلترا وأمريكا.» **روز اليوسف**: ١٢ نيسان/ ابريل ١٩٥٤.

الولايات المتحدة ـ ع خ ـ الصين

ـ «أول اتصال بين كينيدي وماو!» **الأخبار**: ١٩٦١/٣/٨.

الولايات المتحدة ـ القوات العسكرية

ـ «اتجاهات يمينية متطرفة في الجيش الأمريكي.» **الأخبار**: ١٩٦١/٦/٢٥.

الولايات المتحدة ـ نظم الحكم

ـ «الصراع السياسي في واشنطن.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/٦/١٨.

ووتر جيت

ـ «ووتر جيت ريجانية؟» **المساء**: ١٩٨٣/٧/١٤.

ـ ي ـ

اليابان

ـ «عشرة أيام... بين القديم والجديد... في اليابان.» **أخبار اليوم**:١٩٦٠/١٢/١٧.
ـ «اللاسامية في اليابان (١).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/٢٢.
ـ «اللاسامية في اليابان (٢).» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/٢٣.
ـ «واليابان أيضاً.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٩/٢٥.
ـ «حتى أنت يا طوكيو.» **المساء**: ١٩٨٧/٩/٢٧.

ياسر عرفات

ـ «زملاء عرفات دفعوه إلى الماء.» **المساء**: ١٩٨٣/١١/٢٩.

يا طالع الشجرة

ـ «رسالة من نيويورك عن: يا طالع الشجرة!» **الأخبار**: ١٩٦٢/١٢/٢٤.

اليمن

ـ «أسرار الموقف في اليمن.» **الأخبار**: ١٩٦٢/٩/٢٩.
ـ «حل مشكلة اليمن.» **المصور**: ٤ آب/ أغسطس ١٩٦٧.

اليهود

- «حكاية اضطهاد اليهود . . . والنازية الجديدة.» **أخبار اليوم**: ١٩٦٠/١/٢٣
- «اضطهاد اليهود.» **الأخبار**: ١٩٦١/٢/٦.
- «أسرار غـريبة: ايخـمان قام بـدور كبير في تشجيـع اليهود عـلى الهجرة إلى إسرائيـل.» **الأخبار**: ١٩٦١/٤/٢٢.
- «جان بول سارتر ومشكلة اليهود.» **الأخبار**: ١٩٦١/٦/٢٤.
- «كيف تعارض إسرائيل بشره في حل مشكلة اليهود.» **الأخبار**: ١٩٦٤/٢/١.
- «روسيا وفلاسفة الغرب واسطورة اضطهاد اليهود.» **الأخبار**: ١٩٦٤/٢/٢٩.
- «رأس المال اليهودي.» **المساء**: ١٩٨٧/٦/١٥.
- «خناقة بيانية يهودية.» **المساء**: ١٩٨٧/٦/١٧.

اليهود السوفييت

- «اليهود الروس.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/٤/٢٠.
- «اليهود في موسكو.» **الشرق الأوسط**: ١٩٨٧/١٢/١٤.
- «اليهود في موسكو.» **المساء**: ١٩٨٧/١٢/١٥.

يوسف السباعي

- «جزيرة يوسف السباعي.» **صباح الخير**: ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٥٦.

يوسف العظمة

- «ابراهيم هنانو ويوسف العظمة.» **الأخبار**: ١٩٦٠/٣/٢٢.

يوغوسلافيا ـ الوصف والرحلات

- «مشاهداتي في يوغوسلافيا.» **صباح الخير**: ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.

فهرس

أ

ت

ث

خ

د

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

هـ

و

ي

هذا الكتاب

من قبيل الوفاء، يصدر هذا الكتاب، من حملة مشاعل التقدم العربي: **أحمد بهاء الدين** تحية متواضعة لهذا الكاتب الكبير، الذي كان مهموماً بقضايا أمته العربية، وتقديراً لمساهماته الفكرية وجهوده الكبيرة من أجل العدل والتقدم.

وقد وجدت فكرة إصدار هذا الكتاب ترحيباً من أصدقاء بهاء الدين، فشارك عدد منهم في هذا العمل بكتابة مقدمات لمحاور الكتاب، التي تناولت: **السيرة الذاتية والعرب والعروبة**، **والصراع العربي - الإسرائيلي**، **والتحولات السياسية في مصر**، **والثقافة**، **والمرأة**.

وضمّ كل محور نماذج مختارة من مقالات بهاء الدين التي تغطي نحو أربعة عقود متصلة، كانت قد صدرت في صحف ومجلات، مثل **الشعب والأخبار والأهرام وصباح الخير وآخر ساعة والمصور والعربي**. ورغم أنها مقالات كتبت في ظروف مختلفة وعلى امتداد الزمن، إلا أنها تتسم بالتناسق والصدق والعقلانية والنظرة المستقبلية.

ويضم الكتاب كشافاً لمعظم ما نشر لأحمد بهاء الدين في الصحف والمجلات العربية مما أمكن حصره.

الطبعة الثانية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون
ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ - ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الثمن:

